

دِرِّيَاقُ الذُّنُوبِ وَكُشْفُ الرَّرِّينِ عَنِ الْقُلُوبِ

(وَفِي مَخْطُوطَةٍ، وَتَرِّيَاقُ الْقُلُوبِ)

تَصْنِيفُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنِ الْجَوَازِيِّ

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٩٧ هَجْرِيَّةً

اَعْتَنَى بِهِ

مُحَمَّدُ عَبْدِ السَّلَامِ اِبْرَاهِيمُ

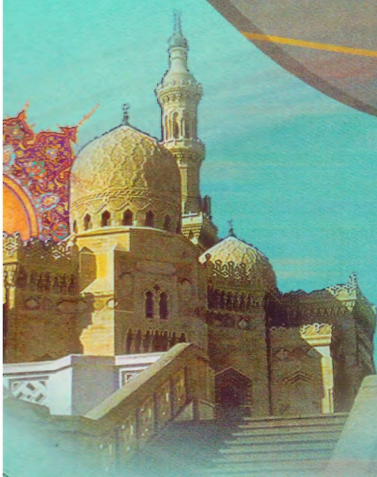


دار الكتب العلمية

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

DKI

أُسِّسَتْهَا مَحَمَّدُ عَلِيُّ بْنُ جَوَازٍ سَنَةَ ١٣٧١ بَيْرُوتَ - لُبْنَانُ
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



دُرِّيَا قُلُوبِ الدُّنُوبِ وَكَشْفُ السِّرِّ عَنِ الْقُلُوبِ

(وَفِي مَخْطُوطَةٍ، وَتَرِيَاقُ الْقُلُوبِ)

تصنيف

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنِ الْجَوَازِيِّ
المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية

اعتنى به

محمد عبد السلام إبراهيم

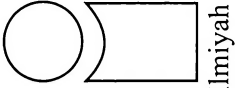


دار الكتب العلمية

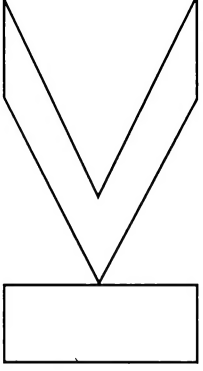
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

DKi

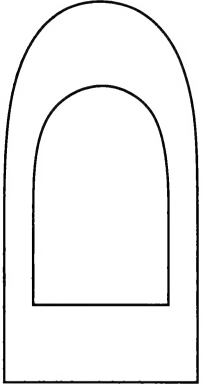
أسستها محمد علي بيتوت سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



sales@al-ilmiyah



info@al-ilmiyah.com



http://www.al-ilmiyah.com

الكتاب: درياق الذنوب وكشف الرين عن القلوب

Title: DIRYĀQ AḌ-ḌUNŪB WA KAŠF
AR-RAYN 'AN AL-QULŪB

التصنيف: مواظ - زهد ورقائق

Classification: Asceticism

المؤلف: عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي
(ت ٥٩٧ هـ)

Author: Abdulrahman ben Ali ben Mohammed
ibn Al-Jawzi (D. 597 H.)

المحقق: محمد عبدالسلام إبراهيم

Editor: Mohammed Abdulsalam Ibrahim

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah - Beirut

عدد الصفحات 336 Pages

قياس الصفحات 17 x 24 cm Size

سنة الطباعة 2021 A.D. - 1443 H. Year

بلد الطباعة لبنان Printed in Lebanon

الطبعة الأولى Edition 1st

Exclusive rights by © Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Beirut - Lebanon No Part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means, or stored
in a data base or retrieval system, or to post it on Internet in
any form without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou
reproduction même partielle, par tous procédés, en tous
pays, ou téléchargement sur Internet de quelque manière
que se soit faite sans autorisation préalable signée par
l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des
poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب
كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية أو تحميله على صفحات الإنترنت بأي
شكل من الأشكال إلا بموافقة الناشر خطياً.

**Dar Al-Kotob
Al-ilmiyah**

Est. by Mohamad Al-Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
بيروت-لبنان ١١-٩٤٢٤
رياض الصلح-بيروت ١١-٧٢٢٩٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله القائل في مُحْكَم كتابه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] والصلاة والسلام على صاحب الخُلُق العظيم، والفضل العميم، المبعوث مُتَمِّمًا لمكارم الأخلاق، سيِّدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن المُسَلَّم به أن الإسلام هو دين يدعو إلى أقوم طريق، ويرمي إلى أشرف الغايات، وما دعوته إلا هداية للناس إلى سبيل الحق، وتوجيههم نحو الفضيلة، ليحيا الناس حياة طيبة في العاجل، ويفوزوا بسعادة خالدة وعطاء غير مجدوذ في الآجل.

ومن المعلوم أن في الزُّهد والتزُّهد، الدعوة إلى ما فيه خير وصلاح، والتحذير مما فيه شرٌّ وفساد، والمُتَزَهِّد في الدِّين هو الذي يرشد الجاهلين، وينبِّه الغافلين، ويعالج النفوس الطائشة مع أهوائها، ليُعيدَها إلى الفِطرة السليمة، من الإقبال على الفضائل، والترُّفُّع عن الرذائل، وذلك بمعونة دراية الزاهد والواعظ بالطرق الحكيمة، مع حيازة فقهه ووفور علمه، كي يميِّز بين الحق والباطل، ويفرِّق بين المعروف والمُنكَر، مع اتِّصافه بالنِّبَاهة، وطيب السَّريرة، واستقامة السَّيرة.

والزُّهد في الله هو باب من أبواب الدعوة إلى الله بالسَّيرة الحسنة والكلمة الطيبة، وأحد أسباب إقامة حُجَّة الله على خلقه، والإعذار إلى الله، مع رجاء نفع المأمور به، واحتساب الثواب من الله عليه، إذ الزهد في الدِّين باب عظيم من أبواب البر، ففيه إجلال لله سبحانه وتعالى، مع النصيحة للمؤمنين، والرحمة بهم، ومحبة الخير لهم، والرغبة في تقربهم لله عزَّ وجلَّ، وإنقاذهم من التعرُّض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وإن كتابنا هذا الموسوم بـ «درياق الذنوب وكشف الرين عن القلوب» تأليف : الإمام أبي الفرج، عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ)، قد جمع فيه مواعظ مستحسنة في الزهد، ضمن مجالس متعددة، استفادها من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسوله ﷺ، والحكايات المعتبرة من كتب التفاسير، والأحاديث والمواعظ المَعْتَمَد عليها، والموثوقة، متحدّثاً فيه عن قصص الأنبياء والمرسلين، وذاكِراً حالهم في الزهد في الدّين والدعوة إلى الله، مع سرّد سير الخلفاء الراشدين والتابعين والأولياء والصالحين الموثوقة، مما يعطي أهمية جليّة ومصداقية كبيرة للزهد في النفوس، وقد جعله حَسَن الترتيب، فجاء موزّعاً على أربعين مجلساً احتوت هذه المجالس على تفصيل أحوال الأنبياء والمرسلين خلال دعوتهم إلى الله عزّ وجلّ بالموعظة الحسنة، وسير الخلفاء الراشدين والأولياء والصالحين، وحُسُن دعوتهم للخلق إلى الزهد في الدنيا، ولا يخفى على المؤمن، ما في هذا الكتاب النفيس من الحَضُّ على طريق الخير، ومن المنفعة في الدنيا والآخرة.

ترجمة المصنّف

هو الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المُفسّر، شيخ الإسلام، فخر العراق أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي.

وُلِدَ في عام (٥١٠ هـ) في بغداد، ونشأ ابن الجوزي شغوفًا بالعلم مع اختلاف فنونه، وتردّد على علماء عصره، ينهل من علمهم، ثم حُبّب إليه في بداية الطلب طريق الزُّهَاد، وحُبِّبَتْ إليه الخلوة، وتصدّر للوعظ والإرشاد، وكان علامة عصره، وإمام وقته في الحديث، وصناعة الوعظ، صنّف في الكثير من العلوم. له: «زاد المسير في علم التفسير»، وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله «المنتظم في التاريخ»، وله «الموضوعات»، وكتابنا هذا الذي بين أيدينا وهو «درياق الذنوب وكشف الرين عن القلوب» في الزهد والرقائق.

توفي ليلة الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة (٥٩٧ هـ) ببغداد، ودفن بباب حرب في عهد الخليفة الناصر العباسي.



بسم الله الرحمن الرحيم
 صلى الله عليه وسلم
 كتاب

الجلس الأول في قصة آدم عليه السلام

الحمد لله الذي سخر بفرده الفلك والفلذ، ودبر بصنعبه
 النور والحلك، أدام فسيده الشيطان وغشيه الملك، وأيقظوا الملك
 بالسمع والتدبير، فأبلى ليس فملك، فألوا أن جعل فيها من الفساد فيها
 وبيعه الدما، ونحن نسمع بحمدك ونقدس لك.

أحمد لله وهو يا أحمد جدير، وأقرباؤه ما ألد التصور، والصبر

فعل على عن نصر، وتروى عن وزير، قل من خلقه القليل، وأعمى من ربه
 الكثير، أنشأ أنسحان ليحمل الماء الميز، ليجمع عباده بخير ويمير،
 وكلما تكرر القصيدة، أنوقع صاح الرعدة بصوت الأمير، وكلما
 أكلهم ممالك الفكر، لا في البرق، ويضع وينير، فقامت النور وتضج
 وتفرح على حبسات الغد، والحمد لله بنحو بلسان حاله، والبيان يتكلم
 بأستقام، والحمد لله بنحو بلسان حاله، ويشير.

ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

وأصل على محمد نبيه البشير النذيرة، وعلى صاحبه الصبر، وعلى عمر
 العدل العزيز، وعلى عاشر محمد جيش العشرة، الرزق العسيرة، وعلى
 عليا المخصوص بالجنة، وعلى عبد المستفي بشيئته، أما الكثير، اللهم
 اجعلنا منهم من تصرف بكما عتق، المقام والمسير،
أعظم أن أول ما خلق الله القلم ليكتبه آدم قبل خلقه، وأما
 حل ذمرا، خلقه لأنه من الدار قبل الساكن، والامر عزة قبل ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

يَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعِينَ مَجْلِسًا، وَفِي صَدْرِ كُلِّ مَجْلِسٍ خُطْبَةٌ، وَهُوَ مِمَّا غَنِيَ بِتَصْنِيفِهِ وَانْتَقَى مِنْ جَوَاهِرِ كَلَامِ الْمُعْتَبَرِينَ مِنَ الْأُئِمَّةِ الْوَاعِظِينَ.

الْمَجْلِسُ الْأَوَّلُ

فِي قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَيَّرَ بِقُدْرَتِهِ الْفُلُكَ وَالْفَلَكَ، وَدَبَّرَ بِصُنْعَتِهِ النُّورَ وَالْحَلَكَ، وَاخْتَارَ آدَمَ فَحَسَدَهُ الشَّيْطَانُ وَغَبَطَهُ الْمَلَكُ، وَافْتَحَرُوا الْمَلَائِكَةَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ، فَأَمَّا إِبْلِيسُ فَهَلَكَ، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَائِبِحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

نَحْمَدُهُ وَهُوَ بِالْحَمْدِ جَدِيدٌ، وَأُقَرُّ بِأَنَّهُ مَالِكُ التَّصَوُّرِ وَالتَّصْوِيرِ، تَعَالَى عَنْ نَظِيرِهِ وَتَنَزَّاهُ عَنْ وَزِيرِهِ، قَبْلَ مِنْ خَلْقِهِ الْقَلِيلِ، وَأَعْطَى مِنْ رِزْقِهِ الْكَثِيرِ، أَنْشَأَ السَّحَابَ لِيَحْمِلَ الْمَاءَ النَّوْمِرَ، لِيُعِمَّ عِبَادَهُ بِالْخَيْرِ وَيَمِيرَ، فَكُلَّمَا قَطَرَ الْقَطْرُ فِي الْوَقْعِ صَاحَ الرَّعْدُ بِصَوْتِ الْأَمِيرِ، وَكُلَّمَا أَظَلَّتْ مَسَالِكُ الْعَيْثِ لَاحَ الْبَرْقُ يُوضِحُ وَيُبَيِّنُ، وَقَامَتِ الْوُرُوقُ تَصَدُّحُ وَتَمَرَحُ عَلَى جَنَابَاتِ الْغَدِيرِ، فَالْحَمَادُ يَنْطِقُ بِلِسَانِ حَالِهِ، وَالنَّبَاتُ يَتَكَلَّمُ بِأَشْكَالِهِ، وَالْكُلُّ إِلَى التَّوْحِيدِ يُشِيرُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وَأَصْلِي عَلَى مُحَمَّدٍ الْبَشِيرِ وَالنَّذِيرِ، وَعَلَى صَاحِبِهِ الْكَبِيرِ، وَعَلَى عُمَرَ ذِي الْعَدْلِ الْغَزِيرِ، وَعَلَى عُثْمَانَ مُجَهَّزِ جَيْشِ الْعُسْرَةِ فِي الزَّمَانِ الْعَسِيرِ، وَعَلَى عَلِيٍّ

الْمَخْصُوصِ بِالْجَنَّةِ يَوْمَ الْغَدِيرِ، وَعَلَى عَمِّهِ الْمُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ الْمَاءَ الْكَثِيرُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا بِحَقِّهِمْ مِمَّنْ تَصَرَّفَ بِطَاعَتِكَ فِي الْمَقَامِ وَالْمَسِيرِ.

اعلم أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، لِيَكْتُبَ عُذْرَ آدَمَ قَبْلَ خَلْقِهِ، إِنَّمَا جُعِلَ آدَمُ آخِرَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ مَهَّدَ الدَّارَ قَبْلَ السَّاكِنِ، وَأَقَامَ عُذْرَهُ قَبْلَ الزَّلَلِ بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، وَالْمُحِبُّ يَعْتَزُّ عَنِ الْحَبِيبِ، دَلِيلُهُ ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: الآية ١١٥]، وَنَبَّهَ الْمَلَائِكَةَ عَلَى تَعْظِيمِهِ بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: الآية ٢٩].

فَهُوَ مِنْ جِنْسِ غُضُوضٍ أَبْصَارُكُمْ لِتَجُوزَ فَاطِمَةُ مَعَ أَنَّ الْكُلَّ فِي الشُّغْلِ فَظَنَّتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ تَفْضِيلَهُ بِنَفْسِهِ فَضُنَّتْ بِالْفَضْلِ عَلَيْهِ فَتَنَطَّقَتْ أَلْسِنُهُ تَسِيحُهُمْ بِحُجَّةٍ تَقْدِيسِهِمْ فَقَالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] فَأَخْرَسَ اللَّهُ أَلْسِنَهُ الْاِغْتِرَاضِ بِرَدِّ ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

وَاعْجَبَا لَهُمْ قَطَعُوا عَلَى الْغَيْرِ بِلَفْظِ ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، وَأَمَنُوا الْغَيْرَ عَلَى النَّفُوسِ فِي دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، فَلَمَّا صَوَّرَهُ أَلْقَاهُ كَاللَّقَى عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمِنْ شَأْنِ الْمُحِبِّ الْوُقُوفُ عَلَى بَابِ الْحَبِيبِ وَرُمِي بِهِ فِي طَرِيقِ ذَلِكَ لَمْ يَكْ شَيْئًا مَذْكُورًا لِئَلَّا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ يَوْمَ ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: الآية ٣٤] وَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى جَسَدِهِ، مَرًّا إِبْلِيسُ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى جَسَدِهِ وَهُوَ لَا يَذَرِي أَنْ هَلَكَهُ يَدِيدِهِ.

رَأَى إِبْلِيسُ طِينًا مُجَوِّفًا فَاحْتَقَرَهُ حَتَّى كَرَّرَ النَّظَرَ فِي الصُّورَةِ بَاتَ الْعَدُو مِنْ الِهَمِّ فِي صُورَةٍ، فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ أَقْبَلَ الْحَاسِدُ لَيْسَ فِيهِ الرُّوحَ يَنْوُحُ. قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَمَّا نَفَخَ فِي آدَمَ الرُّوحَ فَارَتْ فَطَارَتْ فِي رَأْسِهِ فَعَطَسَ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَرْحَمُكَ اللَّهُ».

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالنَّقْلِ: وَخُلِقَ آدَمُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: الآية ٣١] وَكَانَ طَوْلُهُ سِتِّينَ ذِرَاعًا، وَعَرْضُهُ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ، فَلَمَّا بَسِطَ لَهُ بَسَاطَ

الْعِزُّ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقَاتُ فَأُخْضِرَ مُدَّعِي ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] إِلَى حَاكِمٍ ﴿أَنْتَئُونِي﴾ [البقرة: الآية ٣١] وَقَدْ أَخْفَى الْوَكِيلُ عَلَيْهِمْ بَيِّنَةً وَعَلِمَ، فَتَنَكَّسُوا رُؤُوسَ الدَّعَاوِي عَلَى صُدُورِ الْأَقْرَارِ، فَقَامَ مُنَادِي التَّفْضِيلِ يُنَادِي فِي نَادِي الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَسْجُدُوا﴾ [البقرة: الآية ٣٤]، فَتَطَهَّرُوا مِنْ وَسَخِ دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] بِمَاءِ الْعُذْرِ مِنْ عَدِيرٍ ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: الآية ٣٢]، وَعَدِيرُ الْغَادِرِ الْمَاكِرِ نَجَسٌ بِكِبْرِيَاءٍ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٢].

وَسَجَدُوا عَلَى طَهَارَةِ التَّسْلِيمِ فَقَامَ إِبْلِيسُ جَانِبًا لَجَنَابَةِ الْاِغْتِرَاضِ وَمَا كَانَتْ نَجَاسَتُهُ نَجَاسَةً تُتَلَاقَى بِالتَّطْهِيرِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَيْنِيَّةً، فَلَمَّا تَمَّ كَمَالُ آدَمَ حَامَ الْعَدُوِّ وَحَوْلَ الْمُحَمِّي فَجَرَى الْقَدَرُ بِالذَّنْبِ لِيَبَيِّنَ أَثَرَ الْعِبُودِيَّةِ فِي الذُّلِّ، فَلَوْلَا سَابِقُ الْقَدْرِ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ. قِيلَ: يَا آدَمُ ضِحْكُكَ فِي الْجَنَّةِ لَكَ فَانْزِلْ إِلَى دَارِ التَّكْلِيفِ وَابْكُ لَنَا. قِيلَ: مَكَتَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ نِصْفَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ وَذَلِكَ خَمْسُمِائَةٍ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَأُنْزِلَ مَعَهُ عَصَى مُوسَى وَكَانَتْ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ.

قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: سَجَدَ آدَمُ عَلَى جَبَلِ الْهِنْدِ مِائَةَ عَامٍ يَبْكِي حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ فِي وَادِي سَرَنْدِيبَ، فَأَنْبَتَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَادِي مِنْ دُمُوعِهِ الدَّارَصِينِي وَالْقَرْنَقْلَ، وَجَعَلَ طَيْرَ ذَلِكَ الْوَادِي الطَّوَاوِيسَ، يَا آدَمُ مَا ضَرَّ مَنْ كَسَرَهُ غَيْرِي إِذَا جَبَرْتَهُ، أَنَا عِنْدَ الْمُتَكَسِّرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي. وَيُنْشَدُ فِي ذَلِكَ:

يَا قَلْبُ لَا تَطْرَحْ سِلَاحَكَ كُلَّهُ جَزَعًا وَإِنْ بَانَ الْعَتِيقُ وَبَانُهُ
لَا غَرَوْا وَإِنْ تَجَنَّيَ عَلَيَّ فَضَائِلِي سَبَبُ اخْتِرَاقِ الْمَنْدَلِيِّ دُخَانُهُ
أَهْ كَمْ غَرَسَ الْأَكْلُ مِنَ الشَّجَرِ مِنْ شَجَرَاتِ

كَمْ أَظْهَرَتْ تِلْكَ الْجَنَّةُ لِلْمَحَبَّةِ مِنْ حَبَّاتٍ

فَلَمَّا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ خَذَّ خَذَّ الْفَرَحِ بِدَمْعِ التَّرَحِّ حَتَّى أَقْلَقَ الْوُجُودَ، فَجَاءَ جَبْرِيلُ فَقَالَ: مَا هَذَا الْجَهْدُ؟ فَصَاحَ بِلِسَانِ الْوَجْدِ يَنْشُدُ:

مَا دَخَلَتِ الْعَيْسُ عَنْ أَرْضِكُمْ فَرَأَتْ عَيْنَايَ شَيْئًا حَسَنًا
هَلْ لَنَا نَحْوَكُمْ مِنْ عَوْدَةٍ وَمِنَ التَّعْلِيلِ قَوْلِي هَلْ لَنَا

قَدْ شَجَانِي الْبَاسُ مِنْ بُعْدِكُمْ فَعِدُونِي بِأَحَادِيثِ الْمُنَا
يَا نَدِيمَيَّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَحَدِيثِ الشُّوقِ قَدْ أَسْكَرْنَا
وَلَعْمَرِي مَا وَجَدْنَا رَاحَةً مِنْ هَوَاهُمْ مَا أَلْفَنَّا شَجْنَا

يا آدم: لَا تَجَزَّعْ مِنْ كَأْسِ خَطِيئِكَ كَانَ سَبَبَ كَيْسِكَ، فَقَدْ أَخْرَجَ مِنْكَ دَاءَ الْعُجْبِ، وَأَلْبَسَكَ بُرْدَ التُّسْكِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ بِقَوْمٍ، وينشد:

لَعَلَّ عَثْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَادُ مِنْ عِلَلِي
لَا تَحْزَنْ بِقَوْلِي لَكَ أَهْبِطْ مِنْهَا فَلَكَ خَلَقْتُهَا، وَلَكِنْ أَخْرُجْ إِلَى مَرْعَةِ
الْمَجَاهِدَةِ وَاسْقِ مِنْ دَمْعِكَ سَاقِيَةً، واجعلها شجرة كرمك ساقية، فَإِذَا عَادَ الْعُودُ
خَضِرًا أَفْعَلْ. وينشد:

إِنْ جَرَى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَثْبٌ أَوْ تَنَاءَتْ مِنَّا وَمِنْكَ الدِّيَارُ
فَالْعَلِيلُ الَّذِي عَاهَدْتَ مُقِيمٌ وَالْدُمُوعُ الَّتِي شَهِدْتَ غَزَارُ

وعظ:

يا ابن آدم: أَشْبَهْتَ أَبَاكَ فِي الْمُخَالَفَةِ فَتَشَبَّهَ بِهِ فِي النَّدَمِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ
أَحْكَمَ عَقْدَ الْإِضْرَارِ.

أَيُّهَا الْعَاصِي: تَفَكَّرْ فِي حَالِ أَبِيكَ، وَتَذَكَّرْ مَا جَرَى لَهُ، وَيَكْفِيكَ أَبْعَدَ
بَعْدَ الْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ، وَأَهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ بِشُؤْمِ ذَنْبِهِ، وَأَسْرَهُ الْعَدُوَّ بِخَدِيعَتِهِ فِي
حَرْبِهِ وَهَذَا هُوَ يَسْعَى فِي هَلَاكِكَ فَاعْتَبِرْ بِهِ.

فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَةِ عَدُوِّهِ فِي رَوَاجِهِ وَغَدُوِّهِ؛ لِأَنَّهُ رَاصِدٌ لَهُ فِي
الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَيُحَسِّنُ لَهُ بِالْمَكْرِ وَالتَّسْوِيفِ وَالْأَمَلِ، وَيُذَكِّرُهُ الْهَوَى وَيُنْسِيهِ
الْأَجَلَ، فَلْيَلْبَسْ أَحْصَنَ الْحُلْلِ، فَالرَّامِي يَطْلُبُ الْحُلْلَ. وينشد:

إِلَّامَ تَغْرُبُ بِالْأَمَلِ الطَّوِيلِ فَمَا بَعْدُ لَيْسَ إِلَى الْإِقَامَةِ مِنْ سَبِيلِ
فَدَعَ عَنْكَ التَّعَلُّلَ بِالْأَمَانِي فَمَا بَعْدَ الْمَشِيبِ سِوَى الرَّحِيلِ
تُؤَمِّلُ أَنْ تَدُومَ عَلَى اللَّيَالِي وَكَمْ أَفْنَيْنَ قَبْلَكَ مِنْ خَلِيلِ
وَمَا زَالَتْ بَنَاتُ الدَّهْرِ تُفْنِي. بَنِي الْأَيَّامِ جِيلًا بَعْدَ جِيلِ

إخواني، ما زالت زَلَّةُ الأكل تُعَادِيهِ، حتى اسْتَوَلَى دَاوُّهَا على أولادِهِ، فَنَمَتْ هَيْمَنَةُ المَلَائِكَةِ بِعِبَادَةِ بَطْرِ العَافِيَةِ فَنَشَرُوا مَطْوِيَّ ﴿أَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] فَدَعُوا بِعِصْيِ الدَّعَاوِي ظُهُورَ الْعُصَاةِ فَقِيلَ لَهُمْ: لو كُنتُمْ بَيْنَ أَفَاعِي الهَوَى وَعِقَارِبِ الشهواتِ، لَهَوَتْ بِكُمْ فِي لَهَوَاتِ الهدفِ وَلَبَّاتِ سَلِيمُكُمْ سَلِيمًا، وَلَعَادَ الصَّحِيحُ بِالزَّلَلِ سَقِيمًا، فَأَتُوا لِلْجُرْأَةِ حَرِيرَ الدَّعَاوِي، وَحَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّقَى وَالتَّقَاوِي، فَنَقَّبُوا عَنْ خِيَارِ نُقَبَائِهِمْ، وَانْتَقَوْا مَلِكَ المُلُوكِ فَمَا رَأَوْا لِمِثْلِهَا مِثْلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَأَتَيَا لِسَفَرِ البَلَاءِ بِالْبَلِيَّةِ، فَلَمَّا نَزَلَا حَتَّى نَزَلَا عَنْ مَقَامِ الْعِصْمَةِ فَنَزَلَا مِنْزِلَ الدَّعْوَى فَرَكِبَا مَرْكَبَ الْبَشَرِيَّةِ، فَمَرَّتْ عَلَى الْمَرَايِنِ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا الزُّهْرَةُ بِبَيْدِهَا مِزْهَرُ زَهْرَةِ الشَّهْوَةِ فَعَنَّتِ الْعَانِيَةَ بِغُنَّةٍ أَعَنَّ فَرَنْتَ قِيَانُ الْحَبِّ فَوْقَ قِيَانِ الهَوَى، فَهَوَى الصَّوْتُ فِي صَوْبِ قَلِيبٍ قَلِيبُهُمَا فَقَلْبُهُمَا عَنْ تَقْوَى التَّقْوِيمِ، فَاِنْهَارَ نَبَأُ عَزْمِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَهَدِيمَ حَزْمِ مَارُوتَ، فَأَرَادَاهَا عَلَى الرَّدَى فَرَاوَدَاهَا وَمَا قَتَلَ الهَوَى نَفْسًا فَوَدَّاهَا، فَبَسَطَتْ نَطْعَ التَّنَطُّعِ عَلَى تَخْتِ التَّخْيِيرِ، إِمَّا أَنْ تُشْرِكَا وَإِمَّا أَنْ تُقْتَلَا، وَإِمَّا أَنْ تُشْرَبَا، فَظَنَّا أَنَّ سُهُولَةَ الْأَمْرِ فِي الْخَمْرِ وَمَا فَطِنَا، فَلَمَّا امْتَدَّ سَاعِدُ الْخِلَافِ، فَسَقَى فَسَقَا، فَدَخَلَ مَسْلُكَ الشُّكْرِ، فَزَلَا فِي مَزَالِقِ الزُّبَانِ، فَرَأَاهُمَا مَعَ الشَّخْصِيَّةِ شَخْصٌ، فَشَخَّصَا إِلَيْهِ فَقَتَلَاهُ فَقَشَتْ فَنَتْنُهُمَا فِي فِتْنَةِ الْمَلَائِكَةِ فَاتَّخَذُوا لِتِلْكَ الْوَارِدَةِ وَرْدًا مِنْ تَضَرُّعٍ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: الآية ٥]. وَرُوي فِي الْخَبَرِ أَنَّ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ جُعِلَتْ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ وَجُعِلَ مَفَاتِيحُهَا يَتَجَهَّأُ شَرْبُ الْخَمْرِ يَعْنِي إِذَا شَرِبَهَا فَتَنَحَّى عَلَى نَفْسِهِ أَبْوَابُ الْخَطَايَا كُلُّهَا. شعر:

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَلِكَ الْإِثْمُ تَذْهَبُ بِالْعُقُولِ

يَا ابْنَ آدَمَ: يَا مُضَيِّعَ الزَّمَانِ، فِي مَا يَنْقُصُ الْإِيمَانَ؛ يَا مُعْرِضًا عَنِ الْأَرْبَاحِ مُتَعَرِّضًا لِلْخُسْرَانِ مَتَى تَنْتَبِهْ مِنْ رُقَادِكَ، أَيُّهَا الْوَسْطَانُ إِلَامُ تَرْفُضُ قَوْلِ النَّاصِحِ وَقَدْ أَتَاكَ بِأَمْرٍ وَاضِحٍ؟ أَتَرْضَى بِالشَّيْنِ وَالْقَبَائِحِ، لَقَدْ أَبَانَتِ الدُّنْيَا عُيُوبَهَا فَتَكْشَفُ الْبَصَائِرُ عُيُوبَهَا، وَعُدَدَتْ عَلَى الْمَسَامِعِ ذُنُوبَهَا، وَمَا مَرَّتْ حَتَّى أَمَرَتْ مَشْرُوبَهَا فَلَذَّاتُهَا مِثْلَ لَمَعَانِ الْبَرْقِ، وَمُصِيبَتُهَا وَاسِعَةُ الْخَرَقِ سَوَّلَتْ عَوَاقِبَهَا بَيْنَ سُلْطَانِ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ، فَمَا نَجَا مِنْهَا ذُو عَدَدٍ،

وَلَا سَلِمَ مِنْهَا صَاحِبٌ مَدَدٍ، وَمَزَقَتْ وَاللَّهِ الْكُلَّ بَكْفُ الْبَدَدِ، ثُمَّ وَلَّتْ وَمَا
أَلَوْتُ عَلَى أَحَدٍ.

إخواني، عِظُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَيِّكُمْ. بِالْأَمْسِ جِبْرِيلُ يَسْجُدُ لَهُ، وَالْيَوْمَ يَجْرُ
بِنَاصِيَتِهِ وَأَخَذَ لِلْإِخْرَاجِ، وَلِسَانُ الْحَالِ يَسْتَغِيثُ، وينشد:

حُدَاةَ الْعَيْسِ رِفْقًا بِالْأَسِيرِ لِيَعْنَمَ نَظْرَةً قَبْلَ الْمَسِيرِ
وَيَا بَانَ الْجَمَا هَلْ فِيكَ ظِلٌّ فَعِنْدَ حَشَايَ مُزْدَحَمُ الزَّفِيرِ
وَيَا رِيحَ الشَّمَالِ بِحَقِّ حُبِّي وَصِدْقِي ذِيُولِكَ يَا مُبْلَبَلَةَ الضَّمِيرِ

إخواني، الزُّمُّوا الْقَنَاعَةَ فَإِنَّ آدَمَ جَاءَهُ إِبْلِيسُ يُطْعِمُهُ فِي الْمُلْكِ، فَلَمَّا خَرَجَ
إِلَى الطَّمْعِ خَرَجَ بِلُقْمَةِ آوَاهُ. بَكَى عَلَى زَلَّتِهِ ثَلَاثِمِائَةَ عَامٍ حَتَّى سَالَتْ الْأَوْدِيَةُ مِنْ
دُمُوعِهِ، اسْمِعْ يَا مَنْ يَضْحَكُ عِنْدَ الْمَعَاصِي، وينشد:

سَلُّوا بَعْدَكُمْ وَادِي الْجَمَى مَا أَسَالُهُ دَمِي وَدُمُوعِي فِي هَوَاكُم أَمِ الْقَطْرِ
وَهَلْ مَا أَرَاهُ الْمَوْتُ حَادِثُ النَّوَى وَهَلْ هُوَ شَوْقٌ فِي فُؤَادِي أَمْ جَمْرُ

إخواني، مَنْ تَذَكَّرَ كَثْرَةَ ذُنُوبِهِ بَكَى، وَمَنْ تَلَمَّحَ سِيرَ السَّابِقِينَ وَانْقِطَاعَهُ
شَكَى، يَا مَنْ جَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى عَلَى أَبِيهِ أَسْلُكُ طَرِيقَهُ فِي الْبُكَاءِ وينشد:

خَلَّ دَمْعَ الْعَيْنِ يَنْهَمِلُ يَا مَنْ تَهَوَّاهُ فَاحْتَمِلُوا
كُلُّ دَمْعٍ صَانُهُ كَلَفٌ فَهُوَ بَيْنَ يَوْمِ الْبَيْنِ مُبْتَدَلُ

وعظ:

يَا مَنْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا تُؤَمِّلْتُ سَقَطَ، كَمْ أَثْبَتَ لَهُ عَمَلًا فَلَمَّا طُولِبَ بِالْإِخْلَاصِ
سَقَطَ، يَا خَالِصًا فِي الْهَوَى فَإِذَا جَاءَهُ الدِّينُ خَلَطَ، يَا مَنْ يَعِظُهُ وَهُوَ الْعَظَمُ
وَكَلَامُ الشَّمْطِ، أَمَا خَطُّ الشَّيْبِ يَضْحَكُ فِي مَفْرِقِ الرَّأْسِ وَخَطُّ، يَا مَنْ لَا
يَرْعَوِي وَلَا يَلْتَوِي، بَلْ هُوَ مِنْهَا جُ الْخَطَأُ فَقَطُّ، يَا مُثَبِّتًا قَبِيحَ الْمَعَاصِي لَوْ تَابَ
لَا تَكْشَطُ، أَمَا تَمِيلُ إِلَى الصَّوَابِ أَمَا تُؤَثِّرُ الْغَلَطَ.

وَيَحْكُ بَادِرِ الزَّمَانِ الْخَالِيِ الْمُتَلَقِّطِ، فَالْصَّحَّةُ غَنِيمَةٌ، وَالْعَافِيَةُ لَقَطٌ كَأَنَّكَ
بِالْمَوْتِ قَدْ سَلَّ سَيْفُهُ عَلَيْكَ وَاخْتَرَطَ. أَيْنَ الْعَزِيزُ فِي الدُّنْيَا؟ أَيْنَ الْغَنِيُّ الْمُعْتَبِطُ؟

خَيَّمَ بَيْنَ الْقُبُورِ وَضَرَبَ فُسْطَاطَهُ فِي الْوَسْطِ، وَبَاتَ فِي الْقَبْرِ مَحْبُوسًا كَالْأَسِيرِ
الْمُرْتَبِطِ، وَاسْتُلِبَتْ ذَخَائِرُهُ فُفِّرَغَ الصَّنْدُوقُ وَالسَّقْفُ، وَتَمَزَّقَ الشَّعْرُ وَالْجَعْدُ،
وَذَهَبَ الْعَلَطُ كَأَنَّهُ مَا دَخَلَهُ قَطُّ وَلَا امْتَشَطَ، وَبَعْدَ عَنْهُ مُجِبُهُ وَشَطُّ، وَرَضِيَ وَارِثُهُ
بِمَا أَصَابَهُ وَنَصِيبُهُ السَّخَطُ، وَفَرَّقُوا مَا كَانَ يَجْمَعُهُ بِكَفِّ الْبَخْلِ وَالْقَنَطِ، وَيَحْكُ
اغْتَنِمَ رُخَصَ السَّعْرِ فَكَانَ قَدْ قُحِطَ، وَبَادِرِ السَّلَامَةِ فَكَانَ قَدَمُهُ تَبْضُ مَا انْبَسَطَ
كُفٌّ بِالْعُقُوبَةِ كَفًّا إِلَى الْمَعَاصِي انْبَسَطَ، فَاقْبَلُ نُصْحِي، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِلْسَّخَطِ فَقَدْ
زَلَّ آدَمُ وَبَزَلَّتْهُ مِنَ الْجَنَّةِ هَبَطَ.

يَا هَذَا اكْتُبْ قِصَّةَ النَّدَمِ بِمَدَادِ الدُّمُوعِ، وَابْعَثْهَا مَعَ رِيحِ الزَّفَرَاتِ لَعَلَّ
الْجَوَابَ يَصِلُ بِرَفْعِ الْجَوَى. وينشد:

فَكَيْفَ لَا أَبْكِي عَلَى عَيْشٍ مَضَى بَعْتُ عُمْرِي بِحَقِيرِ الثَّمَنِ
كَيْفَ أَرْجُو الْبُرءَ مِنْ ذَا الْهَوَى وَطَبِيبِي فِي الْهَوَى أَمْرَضَنِي
لَكَ الْحَدِيثُ: يَا مُعْرِضُ أَنْتَ الْمُرَادُ، يَا غَافِلُ، يَا مُسْتَلِدُّ بَرْدِ الْعَيْشِ تَذَكَّرْ
حُرْقَةَ الْفُرْقَةِ. وينشد:

يَا مَالِكَ مُهْجَتِي وَقَاضِي دَيْنِي كَمْ يَنْشُرُنِي الْهَوَى وَلَمْ يَطْوِنِي
هَجْرَانُكَ مَعَ مَحَبَّتِي يُضْنِيْنِي هَلْ تُدْرِكُنِي بِنَظَرَةٍ تُحْيِيْنِي
وَيَحْكُ لَوْ عَلِمْتَ قَدْرَ نَفْسِكَ مَا أَهْلَكْتَهَا بِالْمَعَاصِي إِنَّمَا أَبْعَدْنَا إِبْلِيسَ، لِأَنَّهُ
لَمْ يَسْجُدْ لَكَ. وَاعْجَبًا مِنْكَ كَيْفَ صَالَحْتُهُ وَهَجَرْتَنَا. وينشد:

دَعَى اللَّهُ مَنْ أَهْوَى وَإِنْ كَانَ مَا رَعَى حَفِظْنَا لَهُ الْوُدَّ الْقَدِيمَ فَضِيْعَا
وَاصَلْتُ قَوْمًا مَا كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْهُمْ وَحَقُّكَ مَا أَبْقَيْتَ لِلصُّلْحِ مَوْضِعَا

يَا شَرِيفَ الْقَدْرِ: كَمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ يُسَبِّحُ، نَالَهُ مَرْتَبَةٌ تَتَجَاوَى لَا
يَعْرِفُونَ طَعْمَ طَعَامٍ وَمَا لَهُمْ مَقَامٌ، أَيْنُ الْمُنْذِبِينَ عِنْدَنَا أَوْفَى مِنْ تَسْيِيحِهِمْ، سُبْحَانَ
مَنْ اخْتَارَكَ عَلَى الْكُلِّ وَجَادَلَ عَنْكَ قَبْلَ وُجُودِكَ أَنِّي أَعْلَمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاسْتَفْرَضَ مِنْكَ حَبَهُ، وَخَلَقَ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ، وَاسْتَفْرَضَ مِنْكَ دَمْعَةً. وينشد:

الْمَاءُ عِنْدَكَ مَبْدُؤٌ لِشَارِبِهِ وَلَا يُرْوِيكَ إِلَّا دَمْعَةُ الْبَاكِ

قَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿ثُمَّ أَجْبَلَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: الآية ١٢٢]
 سُبْحَانَ مَنْ وَفَّقَ لِلتَّوْبَةِ أَقْوَامًا ثَبَّتَ لَهُمْ عَلَى صِرَاطِهَا أَفْدَامًا، كَفَّوْا الْأَكْفَ عَنْ
 الْمَحَارِمِ احْتَرَمُوا، وَأَتَعَبُوا فِي اسْتِدْرَاكِ الْفَارِطِ عِظَامًا، فَكَفَّرَ عَنْهُمْ ذُنُوبًا عِظَامًا،
 وَنَشَرَ لَهُمُ بِالشَّئَاءِ عَلَى مَا عَمِلُوا أَعْلَامًا، فَهُمْ عَلَى رِيَاضِ الْمَدَائِحِ بِتَرْكِ الْقَبَائِحِ
 يَتَقَلَّبُونَ.

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ، كُشِفَ لَهُمْ سَجْفُ الدُّنْيَا، فَرَأَوْا غُيُوبَهَا وَلَا حَ لَهَا
 الْآخَرَى فَتَلَمَّحُوا غُيُوبَهَا، وَبَادَرُوا شَمْسَ الْحَيَاةِ يَخَافُونَ غُرُوبَهَا، وَأَسْبَلُوا مِنْ
 دُمُوعِ الْأَجْفَانِ عَلَى تِلْكَ الْأَجْفَانِ غُرُوبَهَا، وَاشْتَغَلُوا بِالطَّاعَاتِ، فَحَصَلُوا
 مَرْغُوبَهَا وَحَثُّهُمُ الْإِيمَانُ عَلَى الْخَوْفِ فَمَا يَأْمَنُونَ.

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ، نَدِمُوا عَلَى الذُّنُوبِ، فَكَرِبُوا وَسَافَرُوا إِلَى الْمَطْلُوبِ
 فَاعْتَرَبُوا وَسَقَوْا غَرَسَ الْحُزْنِ بِدَمْعِ الْأَسْفِ، وَشَرِبُوا فَإِذَا أَقْلَقَهُمُ الْحَذَرُ طَاشُوا
 وَهَرَبُوا، وَإِذَا هَبَّتْ عَلَيْهِمُ نَسِيمُ الرَّجَاءِ عَاشُوا وَطَرَبُوا، فَتَأَمَّلْ أَرْبَاحَهُمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ نَيْلَ النَّصِيبِ بِالنَّصَبِ يَكُونُ.

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ، نَظَرُوا إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ
 لِلْقَرَارِ، وَتَأَمَّلُوا أَسَاسَهَا فَإِذَا بِهِ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، فَرَفَضُوا بِالصِّيَامِ لَذَّةَ الْهَوَى
 بِالنَّهَارِ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٨].

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ، هَجَرُوا وَاللَّهُ الْمَنَازِلَ الْأَيْقَةَ، وَقَصَمُوا عُرَى الْهَوَى
 الْوَيْقَةَ، وَبَاعُوا الْفَاني بِالْبَاقِي وَكَتَبُوا الْوَيْقَةَ، وَحَمَلُوا نَجَائِبَ الصَّبْرِ فَوْقَ مَا هِيَ
 لَهُ مُطِيعَةٌ، وَطَلَبُوا وَاللَّهُ الْآخَرَى عَلَى الْحَقِيقَةِ. هَكَذَا يَكُونُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ،
 أَبْدَانُهُمْ تَلْقَى مِنَ الْجُوعِ الضُّمَرُ، وَأَجْفَانُهُمْ قَدْ حَالَفَتْ فِي اللَّيْلِ السَّهَرُ،
 وَدُمُوعُهُمْ تَجْرِي دَائِمَةً كَالْمَطَرِ، وَالْقَوْمُ قَدْ تَأَهَّبُوا فَهُمْ عَلَى أَقْدَامِ السَّفَرِ، عَبَرُوا
 لَدَيْكُمْ وَمَرُّوا عَلَيْكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ خَبَرٌ، وَتَرَنَّمَتْ حُدَاثُهُمْ لَوْ أَنَّكُمْ تَسْمَعُونَ التَّائِبُونَ
 الْعَابِدُونَ.

يَا رَبَّنَا سِرِّ بِنَا فِي سَرَبِ النَّجَابَةِ، وَوَفَّقْنَا لِلتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَافْتَحْ لَأَدْعِيَّتِنَا

أَبْوَابَ الْإِجَابَةِ، يَا مَنْ إِذَا سَأَلَهُ الْمَضْطَّرُّ أَجَابَهُ، يَا مَنْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ. وينشد:

صَدَدَتْ فَكُنْتَ جَمِيلَ الصُّدُودِ وَأَعْرَضْتَ أَفْئِدِيكَ مِنْ مُعْرِضٍ
فِي حَالَةِ السَّخَطِ لَا فِي الرُّضَا يَبِينُ الْمُحِبُّ مِنَ الْمُبْغِضِ
فَمَنْ كَانَ فِي سَخَطِهِ مُنْعِمًا فَكَيْفَ يَكُونُ إِذَا هُوَ رَضِيَ

فَسُبْحَانَ مَنْ خَصَّنَا بِكَرَامَاتٍ لَا نُحْصِيهَا رَفَعَ السَّمَاءَ مِنْ أَجْلِنَا بَانِيهَا،
وَسَطَحَ الْأَرْضَ مِهَادًا لَنَا دَاجِيهَا، وَسَخَّرَ الْأَنْهَارَ لِقَوَامِنَا مُجْرِيهَا، وَجَادَلَ
الْمَلَائِكَةَ عَنَّا وَيَكْفِي فِي فَضْلِنَا تَنِيُّهَا.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عَنَّا: لَا يُخْلَقُ خَيْرٌ مِنَّا، فَاْمِنُوا تُغَيِّرُ
الْحَالَاتِ، وَمَا آمَنَّا فَحَالُوا عَلَى دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ سُيُحٌ﴾ وَنَحْنُ مِلْنَا عَلَى ذُلٍّ وَلَا
تُحْمَلُنَا، لَقَدْ أَضْمَرَتِ الْمَلَائِكَةُ حَالَةً فِي خَافِيهَا.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] يَا نَفْسُ خَافِيهَا لَقَدْ أَظْهَرَ فِينَا سِرًّا
عَلَمِيهِ، وَأَمْضَى فِي الْمُحْتَرَزِ مِنْهُمْ سَهْمَ حُكْمِهِ، وَالْحَرِيصُ يَتَّبِعُنِي وَلَا يَحْظَى بِغَيْرِ
قِسْمَةٍ، ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ﴾ [الزخرف: الآية ٣٢] ظَنُّوا بَنَّا ظَنًّا فَأَخْطَأَ الظَّنُّ فِي رَحْمِهِ،
وَقَالُوا مَقَالَةً قَالَتِ الْأَقْدَارُ مَا يُنَافِيهَا.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] أَفِي الْمَلَائِكَةِ حَبِيبٌ أَوْ خَلِيلٌ أَوْ كَلِيمٌ
أَمَّا أَذْهَشَهُمْ يَوْمَ ﴿كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩] صَبُرَ إِبْرَاهِيمُ؟
أَمَّا ضَجُّوا يَوْمَ أَضْجَعَ الدَّبِيحُ وَقَالُوا هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ؟ مَا لَهُمْ لَوْ ابْتُلُوا كَابِتِلَانَا لَمْ
يَتَّقَ مِنْهُمْ سَلِيمٌ، أَلَيْسَ مِنْهُمْ هَارُوثٌ وَمَارُوثٌ وَلَكِنِ الْحَسَدُ قَدِيمٌ، اللَّهُمَّ ﴿سَلِّمْ
قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: الآية ٥٨].

أَيَقْطَعُونَ عَلَيْنَا بِالْفَسَادِ فِي الْعَيْبَةِ، وَفِي الْعَيْبَةِ مَا فِيهَا؟

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] لِأَفَوَاهِهِمُ الْخَلُوفُ لِيُخْلَفَ فَمِ الصَّائِمِ
أَمْ لَنَا؛ أَبِهِمْ يَبَاهِي فِي السُّجُودِ أَمْ بِنَا؟ مَنْ مِنَّا مَنْ يَقَاخِرُ بِهِ فِي الْأَرْضِ مِنَّا؟
أَتَرَى مَنْ يَلْفِظُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ عَنَّا؟ مَنْ الْقَائِلُ لَوْ دَنُوتُ أُنْمَلَةً لَأَحْتَرَقْتُ؟ وَعَنْ

مَنْ قِيلَ ثُمَّ دَنَا أَفْتَعَيْنَا الْمَلَائِكَةَ وَلَمْ تَرَنَا، يَا لَهَا زَلَّةٌ يَصْعَبُ تَلَا فِيهَا.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] أَمَا هُمْ لِأَرْزَاقِنَا يَعْمَلُونَ؟ أَمَا يُصَلُّونَ عَلَيْنَا بَعْدَ مَوْتِنَا وَيَتَرَحَّمُونَ وَيَعْبُدُونَ؟ أَمَا يَسْتَأْذِنُونَ عَلَيْنَا فِي الْجَنَّةِ وَيَدْخُلُونَ؟ أَلَهُمْ فَضِيلَةٌ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩]، أَمْ لَهُمْ مَرْتَبَةٌ مَا يَهْجَعُونَ؟ أَمَا شَعَلَهُمْ بَنَّا وَلَكِنَّا يَسْتَغْفِرُونَ وَلَكِنْ إِذَا ثَارَتْ نَارُ الْحَسَدِ فَمَنْ يُطْفِئُهَا؟

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ دَعَاوَى السَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، وَالسَّعِيدُ مَنْ إِذَا رَأَى ذَلِكَ الْغَيْرَ خَافَهُ وَلَوْ عَلِمَ آدَمُ كَدَرَ الْمَشْرِبِ عَاقِبَهُ، أَتَبَسُّطُ الْمَلَائِكَةِ مُعْجِبَةٌ عَلَيْنَا فَأَيْنَ الرَّأْفَةُ؟ أَمَا عَلِمُوا أَنَّ طَرِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ مَسْبُوعَةٌ فِي مَخَافَةٍ، كَمْ بَيْنَ خَوْفِ عُمَرَ يَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي الْخِلَافَةَ بِمَا فِيهَا، وَبَيْنَ ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟

مَنْ يُبَاهِي بِهِ مِنَّا فِي السُّجُودِ وَقَدْ رَقَدَ؟ مَنْ الرَّابِحُ فِي تِجَارَةِ فِضَاعَتِهِ إِذَا انْتَقَدَ؟ لَقَدْ سَبَقْنَاهُمْ بِاخْتِيَارِ الْمَوْلَى، لَقَدْ مَنْ فَتَشَ مِنْهُمْ عَلَى مِثْلِ فَضْلِنَا فِي كَيْسِهِ فَقَدْ فَقَدَ اللَّهُمَّ تَقُولُ النَّارُ جُزْ يَا مُؤْمِنٌ فَقَدْ أَهَمَّ يَطْفِئُونَهَا أَمْ نَحْنُ نُطْفِئُهَا.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ صَعِدَ مِنَّا إِلَيْهِمْ إِدْرِيسُ وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَجَالَ فِي مَجَالِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَنَزَلَ إِلَيْنَا هَارُوتُ وَمَارُوتُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ وَتَدَيَّرَ عِنْدَنَا إِبْلِيسُ بِاللَعْنِ وَالْآثَامِ، فَهَذَا عَقَبَى الْحَسَدِ وَفَحْشَ مَا فِيهَا ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

إِخْوَانِي، الذُّنُوبُ تُعْطِي عَلَى الْقَلْبِ، فَإِذَا أَظْلَمَتْ مِرَاةَ الْقَلْبِ لَمْ يَبَيَّنْ فِيهَا وَجْهُ الْهُدَى، وَمَنْ عَلِمَ ضَرَرَ الذَّنْبِ اسْتَشْعَرَ النَّدَمَ عَقِبَهَا، وَلَوْ عَلِمَ الْمُرِيدُ مَا سَيَظْهَرُ مِنَّا مَا سَأَلَ الْأَنْظَارَ فِي كُلِّ مَجْلَسٍ، يَقْلُقُ لِمَا يَرَى مِنَ النَّفْعِ، الْيَوْمَ يُغْشَى عَلَيْهِ قَبْلَ مَرَضِ آدَمَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا، ثُمَّ جَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْأَكْفَانِ وَالْحَنُوطِ، فَقَبِضَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ الْمَلَائِكَةَ صَلَّتْ عَلَيْهِ

وَكَبَّرَتْ أَرْبَعًا». وقال ابن عباس: مَاتَ عَلَى جَبَلِ الْهِنْدِ الَّذِي أُهْبِطَ عَلَيْهِ فَصَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ شِيثٌ، وَكَبَّرَ عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً، فَلَمَّا رَكِبَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ حَمَلَ آدَمَ وَدَفَنَهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَلَمْ يَمُتْ حَتَّى بَلَغَ وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا.

وقال عُروَةُ: لَمَّا مَاتَ وَضِعَ بَابُ الْكَعْبَةِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ جَبْرَائِيلُ فَدَفَنَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِمَسْجِدِ الْخَيْفِ.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ كَلَامَنَا، وَارْحَمْ كُلًّا مِنَّا بِإِصْلَاحِ قَلْبِهِ، وَأَنْعِمْ عَلَيْهِ بِغَفْرَانِ ذَنْبِهِ، وَأَنْفَعْنِي بِمَا أَقُولُ وَكُلَّ حَاضِرٍ بِجَسَدِهِ وَقَلْبِهِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

المَجْلِسُ الثَّانِي

فِي قِصَّةِ قَابِيلَ وَكَيْفَ قُتِلَ هَابِيلَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحمد لله الذي نَصَبَ مِنْ كُلِّ كَائِنٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بُرْهَانًا، وَتَصَرَّفَ فِي خَلِيقَتِهِ كَمَا يَشَاءُ عِزًّا وَسُلْطَانًا، وَاخْتَارَ الْمُتَّقِينَ فَوَهَبَ لَهُمْ بِنِعْمَتِهِ أَمْنًا وَإِيمَانًا، وَعَمَّ الْمُذْنِبِينَ بِرَحْمَتِهِ عَفْوًا وَغُفْرَانًا، وَلَمْ يَقْطَعْ أَرْزَاقَ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ جُودًا وَامْتِنَانًا، وَأَعَادَ سُؤْمَ الْحَسَدِ عَلَى الْحَاسِدِ؛ لِأَنَّهُ ارْتَكَبَ إِثْمًا وَعُدْوَانًا، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: الآية ٢٧].

وَرَوَّحَ أَهْلَ الْإِخْلَاصِ بِنَسِيمِ قُرْبِهِ، وَحَذَّرَ يَوْمَ الْقِصَاصِ بِجَسِيمِ كُرْبِهِ، حَكَمَ فِي بَرِيَّتِهِ فَأَمَرَ وَنَهَى، وَأَيَقِظَ بِمَوْعِظَتِهِ مَنْ غَفَلَ وَسَهَى، وَرَدَّ عُيُونَ الْعُقُولِ عَنْ صِفَتِهِ فَأَعْشَاهَا، وَأَنْذَرَ بِيَوْمِ مُحَاسَبَتِهِ مَنْ يَخْشَاهَا، وَخَلَقَ لآدَمَ حَوَاءَ ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩].

أَحَمَّهُ حَمْدُ عَبْدٍ لِرَبِّهِ مُعْتَذِرٍ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَأَفَرَّ بِتَوْحِيدِهِ إِقْرَارَ مُخْلِصٍ مِنْ قَلْبِهِ، وَأَصْلَى عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ، أَبِي بَكْرٍ ضَاحِيَةٍ فِي ثَرِيهِ وَعُمَرُ الَّذِي لَا يَسِيرُ الشَّيْطَانُ فِي سِرْبِهِ، وَعُثْمَانُ الشَّهِيدُ لَا فِي صَفِّ حَرْبِهِ، وَعَلِيٌّ مُعِينُهُ وَمُغِيثُهُ فِي كُرْبِهِ، وَعَمُّهُ الْمَقْدَمُ عَلَى أَهْلِهِ، وَجِزْبُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا أَهْلٌ كَوَّكَبَ فِي غُرْبِهِ وَشَرْقِهِ.

قَالَ عُلَمَاءُ السَّيْرَةِ: عَاشَ آدَمُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَوَلَدَتْ لَهُ حَوَاءُ أَرْبَعِينَ ذَكَرًا، وَأَرْبَعِينَ أُنْثَى، ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي كُلِّ بَطْنٍ.

قَالُوا: فَأَوَّلُ وَلَدِهِ قَابِيلُ وَتَوَأَّمَتْهُ إِقْلِيمَا، وجاء هابيلُ وَتَوَأَّمَتْهُ لِيُودَا، فَقَابِيلُ وَهَابِيلُ هُمَا المراد بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ﴾، وكان آدَمُ يُزَوِّجُ غُلَامَ هَذَا الْبَطْنِ جَارِيَةَ هَذَا الْبَطْنِ الْآخَرِ، وَكَانَتْ أُخْتُ قَابِيلَ أَحْسَنَ مِنْ أُخْتِ هَابِيلَ فَطَلَبَ هَابِيلُ، أَنْ يَنْكِحَ أُخْتَ قَابِيلَ فَأَبَى عَلَيْهِ، ف﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ بالمستحسنة، وقَرَّبَ قُرْبَانًا هَابِيلُ جَذْعَةَ سَمِينَةٍ، وَقَرَّبَ قَابِيلُ حُزْمَةَ سُنْبُلٍ فَنَزَلَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْ قُرْبَانَ هَابِيلَ وَتَرَكْتُ قُرْبَانَ قَابِيلَ، فَغَضِبَ وَقَالَ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: الآية ٢٧] الآية، وفي كَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ رَمَاهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وَالثَّانِي: جَاءَهُ وَهُوَ نَائِمٌ فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِصَخْرَةٍ، رَوَاهُ مُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا.

وَالثَّالِثُ: رَضَخَ رَأْسَهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ.

وفي مَوْضِعِ مَضْرَعِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ؛ وَقِيلَ: بِالْبَصْرَةِ. وَقِيلَ: قَتَلَهُ فِي جَبَلٍ ثَوْرٍ. وَقِيلَ: فِي عَقَبَةِ حِرَاءٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا قَتَلَهُ حَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ مِائَةَ سَنَةٍ، فَإِذَا مَشَى يَحُطُّ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، فَإِذَا قَعَدَ وَضَعَهُ إِلَى جَانِبِهِ إِلَى أَنْ رَأَى غُرَابًا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: الآية ٣١] الآية.

وَكَانَ عُمُرُ هَابِيلَ يَوْمَئِذٍ عَشْرِينَ سَنَةً، وَعُمُرُ قَابِيلَ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قَتَلَهُ هَرَبَ إِلَى الْيَمَنِ، وَحَزَنَ آدَمُ عَلَى هَابِيلَ فَمَكَثَ مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَضْحَكُ. وَقَالَ شَعْرَابُ:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرَ قَبِيحِ

وَهِيَ سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ، وَأَوْصَى آدَمُ بَنِيهِ أَنْ لَا يُنَاكِحُوا بَنِي قَابِيلَ، وَشَاعَتِ الْمَعَاصِي فِي أَوْلَادِ قَابِيلَ وَهُمْ الَّذِينَ عَرَفُوا فِي زَمَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْقَرَضَ نَسْلُ بَنِي آدَمَ سِوَى شِيثَ، وَكَانَ شِيثَ وَصِيَّ آدَمَ مِنَ الْبُنُوَّةِ وَبَنِيهِ وَتَبَنَاهُ، وَأَنْزَلَ

الله عليه خمسينَ صحيفةً، وأقامَ بمَكَّةَ يَحُجُّ وَيَعْتَمِرُ، وَبَنَى الكعبةَ بالحجارةِ والطِّينِ، فَلَمَّا احْتَضَرَ وَصَّى إِلَى ابْنِهِ أَنْوَشَ. وَأَنْوَشُ أَوَّلُ مَنْ غَرَسَ النَّخْلَ، وَعَاشَ تِسْعَمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَوُلِدَ لَهُ قَيْنَانُ، وَأَوْصَى لَهُ أَنْوَشُ وَوُلِدَ لَقَيْنَانِ مَهْلَائِيلُ، وَوُلِدَ لِمَهْلَائِيلَ يَزْدُ فَأَوْصَى إِلَيْهِ، وَوُلِدَ لِيَزْدٍ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَفِي زَمَنِ يَزْدٍ عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ وَكَانَ لَهُ سَبَبٌ.

الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

لقد دَعَاكم إلى البدار مَوْلَاكُمْ، وَفَتَحَ بابَ الإِجابةِ، وَنَادَاكُمْ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وَذَلَّكُمْ على منافعِكُمْ، وَهَدَاكُمْ فَالْتَفَتُوا عَنِ الهوى فقد آذاكم فَحَثُوا جَرِيكُمْ وَصَبُّوا ذُنُوبَ الحُزْنِ على ذَنبِكُمْ.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بَابُهُ مَفْتُوحٌ لِلطَّالِبِينَ، وَجَنَابُهُ مَبْدُولٌ لِلرَّاغِبِينَ، وَفَضْلُهُ يُنَادِي يَا غَافِلِينَ، وَإِحْسَانُهُ هَدَى يَنَادِي لِلجَاهِلِينَ فَاخْرُجُوا مِنْ دَائِرَةِ الْمُذْنِبِينَ، وَبَادِرُوا مُبَادَرَةَ التَّائِبِينَ، وَتَعَرَّضُوا لِنِسْمَةِ الرَّحْمَةِ، تَخَلَّصُوا مِنْ كَرْبِكُمْ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، كَمْ اسْتَعْلَمْتُمْ بِالْمَعَاصِي فَذَهَبَ الْفَرَضُ وَبَارَزْتُمْ بِالْخَطَايَا وَنُسِيَ الْعَرَضُ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنِ النَّذِيرِ وَهُوَ الشَّعْرُ الْمُبْيَضُّ، وَخَضَّكُمْ على اكْتِسَابِ حُضِّكُمْ فَمَا نَفَعَ الْحُضُّ، وَطَالَتْ أَمَالُكُمْ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ الشَّبَابُ الْغَضُّ، وَرَأَيْتُمْ ذَهَابَ الْقُرْنَاءِ وَتَوَالَى الْبَعْضُ، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنْ سِجْنِ الهوى فقد ضَاقَ طَوْلُهُ وَالْعَرَضُ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّتْ عَرَضُهَا أَلْسَمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣].

إِخواني، الْمُسْتَقَرُّ يَزُولُ، وَالْمَقِيمُ مَنْقُولُ، وَالْأَحْوَالُ تَحُولُ، وَالْعِتَابُ على الْفَانِي يَطُولُ وَكَمْ نَعْدِلُ وَكَمْ نَقُولُ، وَيَنْشُدُ شِعْرًا:

سَيَقْطَعُ رَبُّبُ الدَّهْرِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ لكلِّ اجْتِمَاعٍ فُرْقَةٌ مِنْ يَدِ الْبَيْنِ

وما الحشرُ إِلَّا كالصَّبَّاحِ إِذَا انْجَلَى يَقُومُ لَهُ الرِّقْدَانُ مِنْ رَقْدَةِ الْعَيْنِ

إِخواني، مَنْ عَامَلَ الدُّنْيَا خَسِرَ، وَمَنْ حَمَلَ فِي صَفْهَا كُسِرَ وَإِنَّ خَلَاصَ

مُجِيبَهَا عَسِرٌ، وَكُلٌّ عَاشِقُهَا قَدْ قِيدَ وَأُسِرَ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾
[الأحراب: الآية ٢٣]. وينشد:

أَرَى الشَّهْدَ يَرْجِعُ مِثْلَ الصَّبْرِ فَمَا لِابْنِ آدَمَ لَا يَغْتَبِرُ
وَأَخْبَرَهُ صَادِقٌ فِي الْحَدِيثِ فَإِنْ شَكَّ فِي ذَاكَ فَلْيَعْتَبِرُ

إخواني، تَفَكَّرُوا فِي الَّذِينَ خَلَوْا أَيْنَ نَزَلُوا، وَتَذَكَّرُوا أَنَّ الْقَوْمَ نُوقِشُوا،
وَفِي الْحَدِيثِ «مَنْ نَوَقِشَ الْحَسَابَ عُذِّبَ» وَسُئِلُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَمَا قَتَلُوا
قُتِلُوا، وَلَوْ رُدُّوا بَعْدَ الْوَفَاةِ لَوْ قُتِلُوا.

أَيْنَ الَّذِينَ كَانَتِ الْأَنْفُسُ تَهْذِي بِهِمْ لِتَهْذِيهِمْ وَأَصْبَحَتْ مَلَكُ الْاخْتِبَارِ
تَجْرِي بِهِمْ لِتَجْرِيَهُمْ، أَقَامَتْ إِقَامَتَهُمْ مُنَادِي الرَّحِيلِ لِتَجْرِي بِهِمْ لِتَجْرِيَهُمْ فَبَاتُوا
فِي الْقُبُورِ وَحْدَانًا لَا أُنَيْسَ لِعِزَّتِهِمْ. وينشد:

هَاتِيكَ دِيَارَهُمْ وَفِيهَا كَانُوا بَانُوا عَنْهَا فَلَيْتَهُمْ مَا بَانُوا
سَلَهَا عَنْهُمْ لِتَنْطِقَ الْأُوطَانُ مُدًّا ارْتَحَلُوا أَقَامَتِ الْأُحْزَانُ

لِلَّهِ دُرٌّ أَقْوَامٌ بَادَرُوا الْأَوْقَاتِ، وَاسْتَدْرَكُوا الْهَفَوَاتِ، وَالْعَيْنُ مَشْغُولَةٌ بِالذَّمْعِ
عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَاللِّسَانُ مَحْبُوسٌ فِي سِجْنِ الصَّمْتِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَالْكَفُّ قَدْ
كُفَّتْ بِالْخَوْفِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَالْقَدَمُ قَدْ قِيدَتْ بِقَيْدِ الْمَحَاسِبَاتِ، وَاللَّيْلِ لِرَبِّهِمْ
يَخْرُونَ فِيهِ بِالْأَصْوَاتِ، فَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ قَطَعُوهُ بِمَقَاطِعِ اللَّذَاتِ، فَكَمْ مِنْ شَهْوَةٍ
مَا بَلَغُوهَا حَتَّى الْمَمَاتِ فَيَسْقُطُ لِلْحَاقِقِهِمْ مِنْ هَذِهِ الرَّقَدَاتِ، وَلَا تَظْمَعَنَّ فِي
الْخِلَاصِ مَعَ عَدَمِ الْإِخْلَاصِ فِي الطَّاعَاتِ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ
نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الباقية: الآية ٢١]. وينشد:

عَجَبًا لِأَمْنِكَ وَالْحَيَاةِ قَصِيرَةً وَبِفَقْدِ الْفِكْرِ لَا تَزَالُ تُرَوِّعُ
لَقَدْ رَضِيتَ بِأَنْ تُعْلَلَ بِالْمُنَى وَإِلَى الْمَنِيَّةِ كُلَّ يَوْمٍ تُدْفِعُ
لَا تَخْدَعَنَّكَ بَعْدَ طَوْلِ تَجَارِبِ دُنْيَا تَغْرُبُ بَوْضِلَهَا وَسَتَقْطَعُ
أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظْلُ زَائِلِ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
وَتَزَوَّدَنَّ لِيَوْمٍ فَفَرِّكَ دَائِبَا أَلْغَيْرِ نَفْسِكَ لَا أَبَاكَ تَجْمَعُ

إخواني، ذَهَبَتْ أَعْمَارُكُمْ فِي طَلَبِ الشَّهْوَةِ، وَالْمَوْتُ قَدْ دَنَا فَمَا هَذِهِ الشَّهَوَاتُ يَا قَلِيلَ التَّذْيِيرِ، وَلَا عَقْلَ النُّسُوءِ إِلَى كَمْ شَيْبٌ وَعَيْبٌ وَعَبَثٌ، أَمَا فِيكُمْ نَحْوَةٌ، يَا مَنْ يَرُوحُ وَيَعْدُو فِي طَلَبِ الْأَرْبَاحِ، أَرَحَ نَفْسَكَ يَا أَطْفَالَ الْهَوَى طَالَ مُكْثُكُمْ فِي مَكْتَبِ التَّعْلِيمِ فَهَلْ فِيكُمْ مَنْ أَنْجَبَ؟ أَقْرَأُوا أُدْلَةَ التَّوْحِيدِ مِنَ أَلْوَا حِ أَشْبَاحِكُمْ، وَتَلَقَّوْهَا مِنْ أَنْفَاسِ أَرْوَاحِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَلَبَ الْمَوْتُ مِنْ أَيْدِي اللَّاهِيْنَ أَلْوَا حِ الصُّوَرِ وَيَمْحُو مَسْطُورَ التَّرْكِيبِ وَمَا فِيهِمُ الْمَكْتُوبُ بَعْدُكُمْ يَبْقَى مُضْبَاحُ الْحَيَاةِ عَلَى نَكَبَاءِ النَّكَبَاتِ، فَاغْتَنِمْ زَمَانَ الصَّوْمِ فَأَيَّامُ الْوَصَالِ قِصَارٌ كَمْ يَثْبُتُ قِنْدِيلُ الْحَيَاةِ عَلَى عَوَاصِفِ الْأَفَاتِ. وينشد:

أَرَى الدَّهْرَ أَغْنَى خَطْبُهُ عَنْ خَطَايِهِ بَوَّعَظَ شَفَا أَلْبَابِنَا بِلَبَايِهِ
فَلَا فِضَّةٌ تُنْجِيكَ عِنْدَ انْفِضَاضِهِ وَلَا ذَهَبٌ يُغْنِيكَ عِنْدَ ذَهَابِهِ

يَا صَاحِبَ الْخَطَايَا أَيْنَ الدُّمُوعُ الْجَارِيَةُ، يَا أَسِيرَ الْمَعَاصِي أَيْنَ الذُّنُوبُ الْمَاضِيَةُ؟ يَا مُبَادِرًا بِالْقَبِيحِ أَتَضَيَّرُ عَلَى الْهََاوِيَةِ؟ يَا نَاسِيًا ذُنُوبَهُ وَالصُّحُفَ لِلْمُسِيءِ حَاوِيَةً، أَسَفًا لَكَ إِنْ جَاءَكَ الْمَوْتُ وَمَا أَنْبَتَ، وَحَسْرَةً لَكَ إِذَا دُعِيتَ لِلتَّوْبَةِ وَمَا أَجَبْتَ، كَيْفَ تَصْنَعُ إِنْ نُودِيَ بِالرَّحِيلِ وَمَا تَأَهَّبْتَ، أَلَسْتَ الَّذِي بَارَزْتَ بِالْقَبِيحِ وَمَا رَاقَبْتَ؟ يَا كَثِيرَ الشَّقَاقِ، يَا قَلِيلَ الْوِفَاقِ، يَا مَرِيرَ الْمَذَاقِ، يَا قَبِيحَ الْأَخْلَاقِ، يَا عَظِيمَ التَّوَانِي، قَدْ سَارَ الْمِرْفَاقُ، إِخْلَاصُكَ مَعْدُومٌ، وَسَاعِي الْأَجَلِ كَأَنَّهُ فِي سَبَاقٍ لَا الْوَعْظُ يُزْعِجُكَ وَلَا الْمَوْتُ يُنْذِرُكَ، يَا مُطْلَقًا طَرَفَهُ لَقَدْ عَقَلَكَ، يَا مَنْ شَلَا سَبْعُ فِيهِ لَقَدْ أَكَلَكَ، يَا مَشْغُولًا بِالْهَوَى مَهْلًا لَقَدْ قَتَلَكَ، بَادِرْ رَمَقَكَ فَقَدْ رَمَقَكَ، يَا مَنْ أَيَّامُهُ تَعْظُهُ حِينَ يَنْتَبِهُ وَتُبْغِضُهُ، يَا مَنْ صَحَّتْهُ تُمْرِضُهُ وَسَلَامَتُهُ تُحَرِّضُهُ، يُقْرِضُ عُمْرَهُ فَيَقْنَى، وَمَنْ يُقْرِضُهُ أَسْفًا لِعَبْدٍ كُلَّمَا كَثُرَتْ أَوْزَارُهُ قَلَّ اسْتِغْفَارُهُ، وَكُلَّمَا قَرُبَ مِنَ الْعُبُورِ قَوِيَ عِنْدَهُ الْفُتُورُ، يَا طَوِيلَ الْأَمَلِ فِي قَصِيرِ الْأَجَلِ، يَا كَثِيرَ الزَّلَلِ فِي يَسِيرِ الْعَمَلِ، خَلَا لَكَ الزَّمَانُ وَمَا سَدَّدَتْ الْخَلَلَ، فَمَا عِنْدَكَ وَجَلٌ مِنْ هُجُومِ الْأَجَلِ. وينشد:

تَجَهَّزْ إِلَى الْأَجْدَاثِ وَيَحْكَ وَالرَّمْسِ جَهَّازًا مِنَ التَّقْوَى لِأَطْوَلِ مَا حَبَسِ
فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي إِذَا كُنْتَ مُضْبَحًا بِأَحْسَنِ مَا تَرْجُو لَعَلَّكَ لَا تُمَسِ

سَأْتِعِبُ نَفْسِي كَيْ أَصَادِقَ رَاحَةً فَإِنَّ هَوَانَ النَّفْسِ أَكْرَمُ لِلنَّفْسِ
وَأَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا فَإِنْ مُقِيمَهَا كَطَاعِنِهَا مَا أَشْبَهَ الْيَوْمَ بِالْأَمْسِ

إخواني، فَتَشَوْا جَمَالَ الْأَعْمَالِ قَبْلَ الرَّحِيلِ ﴿وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِعَادٍ﴾
[الحشر: الآية ١٨]، يَا مُطْلِقَ النَّوَظِرِ فِي مَحْرَمِ الْمَنْظُورِ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾
[التكاثر: الآية ٦]، لَا يَغُرَّنْكُمْ إِمْهَالُ الْعَصَاةِ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: الآية ٢٥]،
يَا مَنْ عَاهَدْنَا مِنْ يَوْمِ ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، لَا تُخْلِفْ عَقْدَ الْعَهْدِ، يَا
كَامِلَ الزَّلَلِ فَمَا يَلِيقُ بِشَرَفِ قَدْرِكَ خِيَانَةً. وينشد:

بِحُرْمَةِ الْوُدِّ الَّذِي بَيْنَنَا لَا تُفْسِدِ الْأَوَّلَ بِالْآخِرِ
يَا مَنْ عُمُرُهُ فِي حَيَاتِهِ مَعْدُودٌ وَجِسْمُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ مَعَ دُودٍ

يَا مَنْ عُمُرُهُ يَمْضِي بِالسَّاعَةِ، يَا كَثِيرَ التَّفَرُّيطِ فِي قَلِيلِ الْبِضَاعَةِ، يَا شَدِيدَ
الْإِسْرَافِ، يَا قَوِيَّ الْإِضَاعَةِ كَأَنِّي بِكَ عَنْ قَلِيلٍ تُرْمَى إِلَى جَوْفِ قَاعَةٍ، وَتَمَيُّتُ لَوْ
قَدَرْتُ عَلَيَّ لِحْظَةً مَسْلُوبًا لِبَاسِ الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، تَجْنِي ثُمَّ ثَمَرَةَ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ
وَتَمَيُّتَ لَوْ قَدَرْتَ عَلَى لِحْظَةٍ لَطَاعَةٍ، وَقُلْتَ: ﴿رَبِّ أَرْجُونِ﴾ [المؤمنون: الآية ٩٩]،
وَمَا لَكَ كَلِمَةً مُطَاعَةً، يَا مُخْتَلَفًا عَنْ أَقْرَانِهِ قَدْ آتَى أَنْ تَلْحَقَ الْجَمَاعَةَ. شعر:

يَا سَاهِيًا لَاهِيًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ أَنَّ الرَّحِيلَ وَمَا قَدَّمْتَ مِنْ زَادٍ
تَرْجُو الْحَيَاةَ صَحِيحًا دَائِمًا أَبَدًا هَيْهَاتَ أَنْتَ عَدَا فِي مَنْ عَدَا عَادٍ

اللَّهُمَّ اجْعَلِ التَّقْوَى زَادَنَا وَالثِّقَةَ بِكَ، وَالطُّفَّ بِنَا عِنْدَ عِتَادِنَا، وَعَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَاعْتَمَدْنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا فِي حَضَائِرِ قُدْسِكَ، وَارْحَمْنَا وَانْفَعْنَا بِلَطَائِفِ
أُنْسِكَ، وَلَا تَقْطَعْ عَنَّا بِالْإِغْتِرَارِ عَنْ نَفْسِكَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ
الْأُمِّيِّ وَآلِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ الثَّالِثُ في قِصَّةِ إدريس عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحمدُ لله الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَظِيمًا جَبَّارًا عَلِيًّا، حَيًّا قَادِرًا قَوِيًّا، رَفَعَ سَقْفَ السَّمَاءِ بِصُنْعَتِهِ، فَاسْتَوَى مَبْنِيًّا، وَسَطَحَ الْمِهَادَ بِقُدْرَتِهِ وَسَقَاهُ، كُلَّمَا عَطَشَ رِيًّا، أَخْرَجَ صُنُوفَ النَّبَاتِ فَكَسَا كُلَّ نَبْتٍ رِيًّا، قَسَمَ الْخَلْقَ سَعِيدًا وَشَقِيًّا وَالرِّزْقَ بَيْنَهُمْ، فَتَرَى فَقِيرًا وَغَنِيًّا، وَقَسَمَ الْعَقْلَ فَجَعَلَ مِنْهُمْ ذَكِيًّا وَغَيًّا.

أَلْهَمَ إدريسَ الْاِحْتِيَالَ عَلَى جَنَّتِهِ فَهُوَ يَتَنَاوَلُ لَذَائِهَا وَيَلْبَسُ حِلْيًا ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إدريسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مریم: الآيتان ٥٦، ٥٧].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجلو عن قلب قائلها رَيْنَ سَوَادِهِ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَهُ ﷺ وعلى آله الذين اصطفاهم من عِبَادِهِ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إدريسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مریم: الآية ٥٦]، واسمُه خُنُوحُ بْنُ يَزْدَ بْنِ مَهْلَائِيلَ بْنِ قَنِيَّانَ بْنِ أَنْوَشَ بْنِ شِيثَ بْنِ آدَمَ وَوُلِدَ لَهُ فِي حَيَاةِ آدَمَ وَقَدْ مَضَى مِنْ عُمُرِ آدَمَ سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ وَاثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ وَرُفِعَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، وَعَاشَ أَبُوهُ بَعْدَ ارْتِفَاعِهِ مِائَةً وَخَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَفِي الَّذِي رُفِعَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ، وَفِي الصَّحِيحِينَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ.

قال علماء السيرة: وكان إدريس قد وصَّى قَبْلَ رَفْعِهِ إلى وَلَدِهِ مَتَوْشَلَحَ،
وكانَ وَلَدًا صَالِحًا وُؤِلِدَ لِمَتَوْشَلَحَ لَمَكٌ وُؤِلِدَ لِلْمَكِ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانَ
مِنَ الْمُلُوكِ فِي زَمَانِ إدريسَ صَهْنُمُورَتَ مَلِكِ الْأَقَالِيمِ كُلِّهَا، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ
كَتَبَ بِالْفَارَسِيَّةِ، وَاسْتَمَرَّتْ أَحْوَالُهُ عَلَى الصَّلَاحِ، وَبَيْنَ إدريسَ وَنُوْحَ كَانَتِ
الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى وَالتِّي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾
[الأحزاب: الآية ٣٣].

وعظ:

فَتَفَكَّرُوا إِخْوَانِي فِي أَهْلِ الْفَسَادِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ، وَمَيَّزُوا أَهْلَ الْخُسْرَانِ مِنْ
أَهْلِ الْأَرْبَاحِ، وَتَأَهَّبُوا لِلرَّحِيلِ، فَيَا قُرْبَ السَّرَاحِ، وَتَفَكَّرُوا فِي مَنْ عَرَّتْهُ أَفْرَاحُ
الرَّاحِ كَيْفَ رَاحَ عَنِ الدُّنْيَا فَارَغَ الرَّاحِ، فَالْهُوَى لَيْلٌ مَظْلَمٌ وَالفكرُ مِصْبَاحٌ، سَعِدَ
مَنْ تَدَبَّرَ، وَسَلِمَ مَنْ تَفَكَّرَ، وَنَجَا مِنَ الْهُوَى مَنْ تَصَبَّرَ، وَأَهْلَكَ كُلَّ الْهَلَاكِ،
وَأَذْبَرَ مَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ مَعَ الشَّعْرِ الْمُبْيَضِّ حَتَّى يَضِيقَ الطُّوْلُ وَالْعَرْضُ، فَيَا أَهْلَ
الْهُوَى خَلُّوا الْهُوَى وَاصْبِرُوا، فَالدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَجُوزُوا وَاعْتَبِرُوا، وَتَأَمَّلُوا هِلَالَ
الْهُوَى، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدِرُوا، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا غَمَّ عَلَيْكُمُ الْهَلَالَ
فَاقْدِرُوهَا ثَلَاثِينَ» فَقَدْ نَادَى مُنَادِي الصَّلَاحِ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ. شعر:

يَا أَيُّهَا الرَّاقِدُ كَمْ تَرُقُدُ	قُمْ يَا حَبِيبِي قَدْ دَنَا الْمَوْعِدُ
وَحُذِّ مِنَ اللَّيْلِ وَسَاعَاتِهِ	حَظًّا إِذَا مَا هَجَعَ الرُّقْدُ
مَنْ نَامَ حَتَّى يَنْقُضِي لَيْلُهُ	لَمْ يَبْلُغِ الْمَنْزِلَ أَوْ يَجْهَدُ
قُلْ لِدَوِي الْأَلْبَابِ أَهْلِ الثَّقَى	قَنْطَرَةُ الْعَرْضِ لَكُمْ مَوْعِدُ

إِخْوَانِي، أَمَا تَسْمَعُوا صَرِيْفَ أَثْيَابِ انْصِرُوتِ كَمْ غَافِلٍ وَأَكْفَانُهُ عِنْدَ الْقَصَارِ
يَا سُخْنَةَ عَيْنٍ قَرَّتْ بِالْغُرُورِ، يَا خَرَابَ قَلْبٍ عُمِرَ بِالْمُنَى، الْعُمُرُ زَادَ فِي الْبَادِيَةِ
يُؤْخَذُ مِنْهُ وَلَا يُطْرَحُ فِيهِ، يَا مَنْ عُمُرُهُ يَذُوبُ ذَوْبَانَ الثَّلْجِ، فَوَالَّذِي أَبْرَدَ كَانَ مِنْ
يَبِيعِ الثَّلْجِ يَنَادِي عَلَيْهِ اارْحَمُوا مَنْ يَذُوبُ رَأْسَ مَالِهِ ذَوْبَانَ، يَا مُؤَخَّرًا تَوْبَتَهُ حَتَّى
شَابَ وَذَهَبَ وَقْتُ الْإِخْتِيَارِ، يَا ابْنَ سَبْعِينَ قَدْ أَمْهَلَ الْمُتَقَاضِي الْبِدَارَ الْبِدَارَ بَادِرُ
بِالتَّوْبَةِ مِنْ هَفَوَاتِكَ قَبْلَ فَوَاتِكَ، فَالْمَنَايَا بِالنَّفُوسِ فَوَاتِكَ أَعْجَبُ خَلَائِقِ الْخَلَائِقِ

مُحْسِنٌ فِي لَيْلِ شَبَابِهِ، فَلَمَّا لَاحَ الْفَجْرُ فَجَرَ. وينشد:

أَرَدْنَاكُمْ صَرْفًا فَلَمَّا مَزَجْتُمْ بَعْدْتُمْ بِمِقْدَارِ التَّفَاتِكُمْ عَنَّا
وَقُلْنَا لَكُمْ لَا تُسْكِنُوا الْقَلْبَ غَيْرَنَا فَأَسْكَنْتُمُ الْأَغْيَارَ مَا أَنْتُمْ مِنَّا

أيها الناس، ما أعظم المصيبة على من فقد قلبًا واعيًا، وأسرع العقوبة إلى من عديم طرفًا باكيًا، وأكبر حسرة من كان في أمره متدانيًا، وما أذوم ندامة من أصبح وأمسى لاهيًا، لقد غلب على قلوبكم الهوى فتملكها، واستحوذ على نفوسكم الطمع فأهلكها، وأنتم عما يراؤ بكم غافلون، وبخلاف ما قد علمتموه عاملون، فلا الوعظ يشفي منكم غليلاً، ولا الواعظ يجد إلى قلوبكم سبيلاً، وقد علمتم أن وراءكم هولاً وقولاً ويوماً ثقيلاً، فيا عجباً لغفلة مطلوب لا بد من إدراكه، ووا رحمة لمعتري بالسلامة لا ريب في هلاكه، ألا أذن تسمع؟ ألا عين تدمع؟ ألا هارب إلى الله يفزع؟ وينشد:

دُعِيتُ إِلَى دَارِ الْجَلَالَةِ وَالسَّعْدِ

وَمَعْنَى الْعُلَى وَالْعِزِّ وَالْفَخْرِ وَالْمَجْدِ

دَنَوْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَدَنْتُ بِحُبِّهَا

فَأَضْبَحْتُ فِي دَارِ السَّعَادَةِ فِي بُعْدِ

دَعَاكَ الَّذِي أَعْيَا الْإِسَاءَةَ دَاوُهُ

وَدَاوُكَ قَدْ أَرَبَى وَزَادَ عَلَى الْحَدِّ

دُجِيَ الذَّنْبِ صَدَّ النَّفْسَ عَنْ سَاطِعِ الْهُدَى

وَكَيْفَ تُلَوِّحُ الشَّمْسُ لِلْأَعْيُنِ بِالرَّمْدِ

دِلَاصُ الثُّقَى لَوْ كُنْتَ مُشْتَمِلًا بِهَا

وَفَتْكَ سِهَامُ النَّازِعِ الْقَاتِلِ الْمُرْدِ

دِمَاءُ الْوَرَى فِي الْأَرْضِ سَالَتْ بِسَيْفِهِ

وَمَا شَعَرُوا بِالْقَتْلِ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ

دَرَى أَنَّهُمْ سُكْرَى النُّفُوسِ بِخَمْرِهِ

وَصَالَ عَلَيْهِمْ صَوْلَةُ الْأَسَدِ الْوَرْدِ

دُيُونُ لَهُ صَحَّتْ عَلَيْهِمْ بِحُكْمِهِ
 وَقَدْ دَخَلُوا تَحْتَ الْوَثَائِقِ وَالْعَهْدِ
 دَعِ الْهَوَا بِطَّالٍ وَاَعْمَلْ لِمَنْزِلِ
 رَحِيبٌ بِهَا الْأَنْهَارُ وَاسِيعَةُ الْمَدِّ
 دَعَائِمُ الدُّنْيَا تَخِرُّ سَرِيعَةً
 وَأُخْرَاكَ تَبْقَى دُونَ حَدٍّ وَلَا عَدِّ

إخواني، أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ فِي الدُّنْيَا عَمَّارًا؟ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّهَا لَكُمْ دَارٌ؟ الْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ هُجُومِ مَا لَا يُدْفَعُ وَذَهَابِ مَا لَا يُرْجَعُ، وَالنَّدَمَ حِينَ لَا يَنْفَعُ، وَالاعْتِدَارَ بِمَا لَا يُسْمَعُ، قَبْلَ شُخُوصِ الْأَبْصَارِ فِي الْمَحَاجِرِ، وَبُلُوغِ الْقُلُوبِ إِلَى الْحَنَاجِرِ هُنَالِكَ يَبْرُقُ الْبَصَرُ، وَيَنْزِلُ الْقَدَرُ وَيَتَحَقَّقُ الْحَذَرُ ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّي لَمَفْرُوءٌ﴾ ١٠ ﴿لَا وَدَّ ۖ﴾ ١١ ﴿إِلَّا رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ١٢ ﴿يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ١٣ ﴿[القيامة: الآيات ١٠ - ١٣].

يَوْمَ تَرْتَجَّ الْأَرْضُ بِالْعُصَاةِ مِنْ أَفْطَارِهَا، وَتَرْمِيهِمُ النَّارُ بِسِرَارِهَا، وَتُعْرَضُ الْحَدَائِقُ عَلَى جَبَّارِهَا، فَيَحَاسِبُهَا بِإِعْلَانِهَا وَإِسْرَارِهَا، وَيُنَبِّئُهَا بِاِكْتِسَابِهَا فِي سَالِفِ أَعْمَارِهَا، فِيمَا إِلَى جَنَّتِهَا وَإِمَّا إِلَى نَارِهَا. زَحَرَ حَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَنْ دَارِ الْبَوَارِ، وَأَحَلَّنَا وَإِيَّاكُمْ دَارَ الْقَرَارِ، وَحَمَانَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ حُطَامِ هَذِهِ الدَّارِ. وينشد:

مَثَلٌ وَقُوفَكَ يَوْمَ الْحَشْرِ عُرْيَانًا مُسْتَعْطَفًا قَلِقَ الْأَحْشَاءِ حَيْرَانًا
 النَّارُ تَزْفَرُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ خَنْقِ عَلَى الْعُصَاةِ وَتَلْقَى الرَّبَّ غَضَبَانًا
 اقْرَأْ كِتَابَكَ يَا عَبْدِي عَلَى مَهْلٍ وَاَنْظُرْ إِلَيْهِ تَرَى هَلْ كَانَ مَا كَانَا
 لَمَّا قَرَأْتُ كِتَابًا لَا يُغَادِرُنِي حَرْفًا وَمَا كَانَ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانَا
 قَالَ الْجَلِيلُ خُذُوهُ يَا مَلَائِكَتَي مُرُّوا بِعَبْدِي إِلَى النَّيِّرَانِ عَطْشَانَا
 يَا رَبِّ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْحِسَابِ وَلَا تَجْعَلْ لِنَارِكَ فِينَا الْيَوْمَ سُلْطَانَا

إخواني، زُورُوا الْآخِرَةَ كُلَّ يَوْمٍ بِقُلُوبِكُمْ، وَشَاهِدُوا الْمَوْقِفَ يَوْمًا بِتَوَهُُّمِكُمْ، وَتَوَسَّدُوا الْقُبُورَ بِفِكْرِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مُحَالَاةَ، وَاعْتَبِرُوا

بِخَلْقَتِكُمْ كَانَتْ النُّطْفَةُ مَعْمُوسَةً فِي دَمِ الْحَيْضِ، وَنَقَاشُ الْقُدْرَةِ يَشُقُّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، ثُمَّ خَلَقَ مِنْهَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتِّينَ عَظْمًا وَخَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَعِشْرِينَ عَظْلَةً، كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ تَحْتَهُ حِكْمَةٌ بِالْعِلَّةِ.

فَالْعَيْنُ سَبْعُ طَبَقَاتٍ وَأَرْبَعَةُ وَعِشْرُونَ عَظْلَةً لِتَحْرِيكِ حَدَقَةِ الْعَيْنِ وَأَجْفَانِهَا، وَلَوْ نَقَصْتُ مِنْهَا وَاحِدَةً لَأَخْتَلَّ الْأَمْرُ وَأَظْهَرَ فِي سَوَادِ الْعَيْنِ عَلَى صَغَرِهِ صُورَةَ السَّمَاءِ مَعَ اتِّسَاعِهَا، وَخَالَفَ بَيْنَ أَشْكَالِ الْحَنَاجِرِ فِي الْأَصْوَاتِ، وَسَخَّرَ الْمَعْدَةَ لِإِنْضَاجِ الطَّعَامِ، وَالْكَبِدَ لِإِحَالَتِهِ إِلَى الدَّمِ، وَالطَّحَالَ لِجَذْبِ السَّوَادِ، وَالْمَرَارَةَ لِتَنَاوُلِ الصَّفْرَاءِ، وَالْعُرُوقَ كَالْخَدَمِ لِلْبَدَنِ يَنْفِذُ مَعَهَا الدَّمَ إِلَى أَطْرَافِ الْبَدَنِ.

فِيَا أَيُّهَا الْغَافِلُ مَا عِنْدَكَ خَبْرٌ مِنْكَ مَا تَعْرِفُ مِنْ نَفْسِكَ إِلَّا أَنْ تَجُوعَ فَتَأْكَلَ وَتَشَبَعَ فَتَنَامَ.

فِيَا عَجَبًا مِنْكَ، لَوْ رَأَيْتَ خَطَا مُسْتَحْسِنِ الرَّفْمِ لِأَوْرَثِكَ الدَّهْشَ مِنْ حِكْمَةِ الْكَاتِبِ، وَأَنْتَ تَرَى رُقُومَ الْقُدْرَةِ وَلَا تَعْرِفُ الصَّانِعَ، فَإِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ بِتِلْكَ الصَّنْعَةِ فَتَعَجَّبَ كَيْفَ أَعْمَى بِصِيرَتِكَ مَعَ رُؤْيَا بَصْرِكَ. شعر:

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ	تَرَى مَا لَا يَرَاهُ النََّاظِرُونَ
وَأَلْسِنَةٌ بِأَسْرَارٍ تُنَاجِي	تَغِيبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ
وَأَجْنَحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيَشٍ	إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
سَيَسْقِيهَا الْعَزِيزُ شَرَابَ صِدْقٍ	وَتَشْرَبُ فِي كُؤُوسِ الْعَارِفِينَ

اسْمَعْ يَا بَعِيدَ التَّيَقُّظِ وَالْمَوْتُ مِنْهُ قَرِيبٌ. يَا مَنْ هُوَ عَنْ قَلِيلٍ فِي الْقَبْرِ غَرِيبٌ أَحَاضِرٌ أَنْتَ؟ قُلْ لِي: مَا أَكْثَرَ مَا تَغِيبُ، ابْنُكَ عَلَى نَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ يُبْكِيَ عَلَيْكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ جَنَازَةً فَاحْسِبْهَا أَنْتَ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَبْرًا فَتَوَهَّمْهُ قَبْرَكَ، وَعُدَّ بَاقِيَ الْحَيَاةِ رَيْحًا.

وَأَعْلَمْ أَنَّ وَقْعَ الذَّنْبِ عَلَى الْقَلْبِ كَوَقْعِ الدَّهْنِ عَلَى الثَّوْبِ إِنْ لَمْ تُعَجَّلْ غَسْلُهُ وَإِلَّا أَنْبَسَطَ يَا مُحْتَارَ الْقَدَرِ، اَعْرِفْ قَدْرَ قُدْرِكَ وَإِنَّمَا خُلِقَتِ الْأَكْوَانُ كُلُّهَا لِأَجْلِكَ.

يَا خَزَانَةَ الْوَدَائِعِ، وَيَا وَعَاءَ الْبَدَائِعِ، كُلُّ الْأَشْيَاءِ شَجَرَةٌ، وَأَنْتَ الثَّمَرُ،

وَصُورَةٌ وَأَنْتَ الْمَعْنِي، وَصَدَفْتُ وَأَنْتَ الدُّرُّ مَكْتُوبٌ. اخْتِيَارَنَا لَكَ وَاضِحُ الْخَطِّ
غَيْرَ أَنَّ اسْتِخْرَاجَكَ ضَعِيفٌ مَتَى رُمْتَ طَلَبْتَنِي فَاطْلُبْنِي عِنْدَكَ. وينشد:

بَادِرْ لِقَلْبِكَ فِي صَلَاحِ فَسَادِهِ وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ فِي وَظَائِفِ فِعْلِهَا
فَالْقَلْبُ سُلْطَانٌ لِحِجْسِمِكَ قَاهِرٌ وَهُوَ الْمُحَرِّكُ لِلْجَوَارِحِ كُلِّهَا

وعظ على الآية:

كَيْفَ يَصْلُحُ الْفِكْرُ لِقَلْبٍ غَافِلٍ، يَا عَجَبًا وَكَيْفَ تَقَعُ الْيَقِظَةُ لِعَقْلِ ذَاهِلٍ
وَكَيْفَ يَحْصُلُ الْفَهْمُ لَلْبِّ عَاطِلٍ، يَا عَجَبًا لِلْفَرْطِ وَالْأَيَّامِ زَوَائِلُ وَلِمَائِلٍ إِلَى رُكْنِ
مَائِلٍ، لَقَدْ خَابَ الْعَافِلُونَ، وَفَارَ الْمُتَيْقِظُونَ.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كَمْ عَمَلٍ يُرَدُّ عَلَى عَامِلِهِ، كَمْ
أَمَلٍ رَجَعَ بِالْخَبِيَةِ عَلَى أَمَلِهِ، وَكَمْ عَامِلٍ بِالْغَى فِي إِتْعَابِ مَفَاصِلِهِ، فَهَبَّتْ رِيحُ
الشَّقَا لِتَبْدِيدِ الشَّقَا لِتَبْدِيدِ حَاصِلِهِ، لَقَدْ نُودِيَ عَنِ الْمَطْرُودِينَ وَلَكِنَّهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَا كَيْفَ
يَسْلَمُ؟ وَمَنْ عَمِيَ قَلْبُهُ كَيْفَ يَفْهَمُ؟ مَنْ أَمْرَضَهُ طَبِيبُهُ كَيْفَ لَا يَسْقَمُ؟ وَمَنْ اعْوَجَّ
فِي أَصْلٍ وَضَعَهُ كَيْفَ يَتَقَوَّمُ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَنْ خُلِقَ لِلشَّقَا فَلِلشَّقَا يَكُونُ.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآية ١٠١]، جَعَلَنَا اللَّهُ
وإِيَّاكُمْ مِمَّنْ أَفَاقَ بِنَفْسِهِ وَفَاقَ بِالتَّحْفِيزِ أَبْنَاءَ جَنْسِهِ، وَأَعَزَّ عِزَّةَ تَصْلَحَ لِنَفْسِهِ
وَاسْتَدْرَكَ مِنْ يَوْمِهِ مَا قَرَّطَ مِنْ أَمْسِهِ قَبْلَ ظُهُورِ الْعَجَائِبِ وَشَيْبِ الدَّوَائِبِ وَقُدُومِ
الْغَائِبِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا
كَثِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْمَجْلِسُ الرَّابِعُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا جَرَى لَهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحمدُ لله الَّذِي يُسَبِّحُ لَهُ الْبِحَارُ الطَّوَافِحُ، وَالشُّحُبُ السَّوَافِحُ، وَالْأَبْصَارُ
الْلَّوَامِحُ وَالْأَفْكَارُ الْقَرَائِحُ، الْعَزِيزُ فِي سُلْطَانِهِ، الْكَرِيمُ فِي امْتِنَانِهِ، وَسَاتِرُ الْمُذْنِبِ
فِي عِضْيَانِهِ وَرَازِقُ الصَّالِحِ وَالطَّالِحِ، تَقَدَّسَ عَنْ مِثْلِ وَشَيْبِهِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ نَقْصٍ يَعْتَرِيهِ،
يَعْلَمُ عِلَانِيَةَ الصُّدُورِ وَمَا تُخْفِيهِ مِنْ سِرِّ أَسْرَتِهِ الْجَوَانِحُ، أَنْزَلَ الْقَطَرَ بِقُدْرَتِهِ، وَصَبَّغَ
لَوْنَ النَّبَاتِ بِحِكْمَتِهِ، وَخَالَفَ بَيْنَ الطَّعُومِ بِمَشِيتَتِهِ، وَأَرْسَلَ الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ.

مَوْصُوفٌ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، يُرَى فِي الْجَنَّةِ كَمَا يُرَى الْقَمَرُ، مَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ
أَوْ كَيْفَهُ فَقَدْ كَفَرَ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْأَثَرِ، وَدَلِيلُهُمْ جَلِيلِيٌّ وَاضِحٌ. يُنَجِّي مَنْ
يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ وَيُهْلِكُ، وَهُوَ السَّلَامُ وَالْمُسْلِمُ الْمُهْلِكُ لَمْ يَنْتَفِعْ كُنْعَانُ بِالنَّسَبِ
يَوْمَ الْعَرْقِ إِنَّهُ كَانَ مُشْرِكًا، ﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾
[هُود: الآية ٤٦].

أَحْمَدُهُ عَلَى تَمْهِيدِ الْمَصَالِحِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى سِتْرِ الْفَضَائِحِ، وَأُصَلِّي عَلَى
رَسُولِهِ مُحَمَّدًا أَفْضَلَ غَايِ وَرَائِحِ، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ ذِي الْفَضْلِ الرَّاجِحِ،
وَعَلَى عُمَرَ الْعَادِلِ فَلَمْ يُرَاقِبْ وَلَمْ يُسَامِحْ، وَعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي بَايَعَ عَنْهُ النَّبِيُّ
بِشِمَالِهِ ﷺ، فَيَا لَهَا مِنْ صَفْقَةٍ رَاجِحِ، وَعَلَى عَلِيٍّ الْعَابِدِ الرَّاهِدِ الصَّالِحِ، وَعَلَى

عَمَّهُ الَّذِي أَخَذَ لَهُ الْبَيْعَةَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَكُلُّ الْأَهْلِ نَازِحٌ.

اللَّهُمَّ هَبْ صَالِحًا لِلصَّالِحِ، وَسَامِحًا فَأَنْتَ الْحَلِيمُ الْمُسَامِحُ، وَاعْفِرْ ذُنُوبَنَا قَبْلَ أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْنَا الْجَوَارِحُ، وَنَبْهَنَا مِنْ رَقَدَاتِ الْغَفَلَاتِ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الصَّائِحُ، وَانْفَعْنِي وَالْحَاضِرِينَ فَمِنْكَ الْفَضَائِلُ وَالْمَنَائِحُ.

وُلِدَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ وَفَاةِ آدَمَ بِمِائَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَهُوَ نُوحُ بْنُ لَامِكِ بْنِ مُتَوَشَلَخِ بْنِ إِدْرِيسَ.

وَقَصَّتُهُ: لَمَّا أَعَمَّ أَهْلَ الْأَرْضِ الْعَمْيُ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، بُعِثَ نُوحٌ لِحَلَاءِ إِبْصَارِ الْبَصَائِرِ، فَمَكَثَ يُدَارِيهِمْ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: الآية ١٤] وَكُلُّهُمْ أَبْصَرُوا وَلَكِنْ يَتَعَامَى، فَكَمْ مِنْ عِلَّةٍ لَا يَنْفَعُ فِيهَا طِبُّ طَبِيبٍ، فَلَاخَ اللَّاحِي عَدَمُ فَلَاحِهِمْ فَوَلَّاهُمْ نُوحٌ الصَّلَايَا يَأْسًا مِنْ صِلَاحِهِمْ، وَبَعَثَ شِكَايَةَ الْأَذَى فِي مَسْطُورٍ ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: الآية ٢١]، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ الطَّرْدِ عَلَى بَابِ دَارِ الزَّهْدِ إِهْدَارَ دِمَائِهِمْ ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هُود: الآية ٣٦]، فَقَامَ نُوحٌ فِي مِحْرَابٍ ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: الآية ٢٦]، فَأَتَتْهُ رِسَالَةٌ ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هُود: الآية ٣٧]، فَغَرَسَ السَّاجَ فَتَكَامَلَ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ قَطَعَهُ وَصَنَعَهَا وَأَعَانَهُ أَوْلَادُهُ، فَلَمَّا تَمَّتْ نَادَى بِهِ نَذِيرُ الْإِعْلَامِ بِالْغَضَبِ ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هُود: الآية ٣٧].

فَلَمَّا انْهَالَ كَثِيبُ الْإِنْمِهَالِ، وَانْقَطَعَ سِلْكُ التَّأخِيرِ، غَرَبَتْ شَمْسُ الْإِنْظَارِ وَطَوَّيَ بِسَاطِ الْمَوْعِدِ، وَبُسِطَ بِسَاطُ الْإِنْبِعَادِ، فَأَذَلَّهَمَّتْ عِقَابُ الْعِقَابِ، فَلَمَّا انْسَدَلَتِ الظُّلْمَةُ وَقَاتَ الثَّوْرُ ﴿وَوَارَ الثَّوْرُ﴾، فَقِيلَ: يَا نُوحُ قَدْ حَانَ حِينُ الْحَيْنِ فَ ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هُود: الآية ٤٠].

فَتَحَلَّفَ خَلْفَ نُوحٍ خَلْفٌ مِنْ وَلَدِهِ، فَمَدَّ يَدَهُ بِالْحُنُوِّ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ ﴿يَبْنِيَّ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ [هُود: الآية ٤٢]، فَأَجَابَ عَنْ ضَمِيرِ خَائِضٍ فِي الْمَسَاوِي ﴿سَعَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هُود: الآية ٤٣]، فَرَدَّ عَلَيْهِ بِلِسَانِ الْوَعِيدِ ﴿لَا عَاصِمَ

أَيُّومَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴿هُود: الآية ٤٣﴾.

فَلَمَّا أَنْتَقِمَ مِنَ الْعَصَاةِ بِمَا يَكْفِي كَفَّتْ كَفَّ النَّجَاةِ كِفَاتِ الْأَرْضِ بِقَشْرِ ﴿أَبْلَى مَاءٍ﴾ ﴿هُود: الآية ٤٤﴾ وَقَلَعَ جَزَعِ السَّمَاءِ فِي وَكُفِ دَمْعِهَا بِظْفَرِ ﴿أَقْلَى﴾ وَنُودِيَتْ نَجَاةُ الْجُودِيِّ جُودِي بِإِنْجَاءِ غَرَقَى السَّيْرِ، وَزُودَ الْهَالِكُونَ فِي سَفَرِ الطَّرْدِ زَادَ ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿هُود: الآية ٤٤﴾.

لَيْسَ لِنَمْرُودِ الْهَوَى حِيلَةٌ فِي قَدَرَةٍ مَنْ يُهْلِكُ تَارَةً بِالْبُعُوضِ، وَأُخْرَى بِالْذَّمِّ وَمَرَّةً بِالْجَذْبِ، وَأُخْرَى بِالْغَرَقِ، وَمَرَّةً بِالرَّيْحِ، وَقَدْ قُصَّ عَلَيْكَ فِعْلُهُ بِالْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَمَا خَرَجَتْ مِنْ كِنَانَةِ الرَّامِي إِلَّا أَسْهُمٌ قَلِيلَةٌ، وَالْإِنْسَانُ غَرَضٌ وَالْمَعَاصِي سَبَبٌ، وَالرَّامِي بَاقٍ، وَالْقُدْرَةُ مُفَوَّقَةٌ، وَالزَّمَانُ قَوْسٌ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ مِنْهُ نَبَلَةٌ. وينشد:

وَالْمَرْءُ مِثْلُ هَالٍ عِنْدَ طَلْعَتِهِ	يَبْدُو ضَيْئَالًا لَطِيفًا ثُمَّ يَتَسَقُّ
يَزْدَادُ حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ أَعْقَبُهُ	كَرَّ الْجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ
كَانَ الشَّبَابُ لِبَاسًا قَدْ بَهَجَتْ بِهِ	فَقَدْ تَطَايَرَ مِنْهُ لِلْبَلَى خِرْقُ
وَبَانَ مُرْتَجِلًا يَحْدُو الْمَشِيبُ بِهِ	كَالَلَيْلِ يَنْهَضُ فِي أَعْقَابِهِ الْفَلَقُ
دَارَتْ تَفَرُّبُهَا الْأَمَالُ مُهْلِكَةً	وَذُو التَّجَارِبِ فِيهَا خَائِفٌ فَرِقُ
يَا لِلرَّجَالِ لِمَخْدُوعٍ بَزُخْرِفِهَا	بَعْدَ الْبَيَانِ وَمَغْرُورٍ بِهَا يَثْقُ
أُمَسْتُ مَسَاكِنَهُمْ قَفْرًا مُعْطَلَةً	كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَهَا خُلُقُوا
يَا أَهْلَ لَذَاتِ الدُّنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا	إِنَّ اغْتِرَارًا بِظُلِّ زَائِلٍ حُمُقُ

وعظ على الآية:

قُلْ لِلْمُقِيمِينَ عَلَى مَعَاصِيهِمْ وَجَهْلِهِمْ، النَّاسِينَ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ أَهْلِهِمِ الْمَصْرِيِّينَ عَلَى قَبِيحِ فِعْلِهِمْ. كَمْ لَعَبَ الدَّهْرُ بِمِثْلِهِمْ، أَفْتَرَاهُمْ مَا تَكْفِيهِمْ مِنْ تَوْبِيخِهِمْ وَعَذْلِهِمْ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الذِّبِكِ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، قُلْ لِلْمُذْنِبِينَ تَأَمَّلُوا فِي الْأَيَّامِ الْعَوَاقِبِ وَالْفَوَائِتِ، وَالذُّنُوبُ تُحْصَى وَمَا يَغْفَلُ

الكاتب، والسَّهْمُ مَفْقُوقٌ، والرَّامِي صَائِبٌ واللذات وإن قيلت فيعدها مصاب،
فليَتَدَبَّرِ العاقل وليَحْضُرِ الغائب قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ الْجُهَّالُ عَلَى جَهْلِهِمْ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: الآية ١٠٢]، أيقظنا الله وإياكم مِنْ
هذه الرِّقْدَةِ، وَذَكَّرْنَا الموتَ وما سيأتي بَعْدَهُ. وينشد:

كَيْفَ اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ لِمَا عَصَى أَمْ كَيْفَ لَا تَجْرِي دَمًا عَيْنَاهُ
إِنِّي أَظُنُّكَ مُبْتَلًا بِقَسَاوَةٍ يَا مَنْ يَقِلُّ دُمُوعُهُ وَبُكَاءُ
يَا مُذْنِبًا لَمْ تَجْرِ مِنْهُ دُمُوعُهُ أَسَفًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ بَلَوَاهُ
عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ مِنْ عَصَى مَوْلَاهُ وَخَلَا بِذَلِكَ الذَّنْبِ وَهُوَ يَرَاهُ

يا معشرِ المطرودينَ عَنْ صُحْبَةِ أَهْلِ الدِّينِ، تَعَالَوْا نَقِمْ مَاتِمًا لِلْفِرَاقِ، وَنَذْبُ
إِخْوَانِنَا الظَّاعِنِينَ، هَلُمُّوا نُرِقْ دَمْعَ تَأْسِفِنَا عَلَى قَيْحِ تَخَلُّفِنَا، يَا عَاصِيَا، يَا مَخْدُوعَا
قَدْ فُتِنَ، يَا مَغْرُورًا قَدْ غُبِنَ، مَنْ لَكَ إِذَا سُوِّيَ عَلَيْكَ اللَّيْنُ فِي بَيْتِ قَطٍّ مَا سَكِنَ،
سَلْبُ الرَّفِيقِ نَذِيرٌ، وَالْعَاقِلُ فِطْنٌ، يَا مَنْ يَعِظُهُ الدَّهْرُ فَمَا يَقْبَلُ وَيُنْذِرُهُ الْقَهْرُ بِمَنْ
يَرَحُلُ، وَيَضُمُّ الشَّيْبَ إِلَى الشَّيْبِ وَبِئْسَ مَا يَفْعَلُ، كُنْ كَيْفَ مَا شِئْتَ فَإِنَّمَا تُجَازَى
بِمَا تَفْعَلُ، يَا جَائِرًا كَلَّمَا قِيلَ لَهُ اقْصِطْ قَسِطٌ، يَا نَازِلًا لَا قُسْطَاطَ الْهَوَى عَلَى
شَاطِئِ شَطَطٍ، يَا مُمَهَّلًا لَا مُهْمَلًا مَا عِنْدَ الْمَوْتِ غَلَطٌ كَمْ نَقَلَ شَرِيفًا وَوَضِيعًا، كَمْ
جَمَعَ شَيْخًا وَرَضِيعًا، تَالله مَا يُبَالِي حَمَامُ الْحِمَامِ أَيَّ حَبٍّ لَقَطَ. شعر:

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ النَّفْسَ تَأْبَى وَتُنَكِّرُ مَا تُحَاوِلُ مِنْ رَشَادِكَ
وَتَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَبْقَى سَقِيمًا فَلِمَ مَكَّنْتَ نَفْسَكَ مِنْ فُؤَادِكَ
فَإِنْ قَتَلْتِكَ بِالْعِصْيَانِ فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَتْلَ مِنْهَا مِنْ مُرَادِكَ

الكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعِذُّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الآية ٢٨]:

يَا مُبَارِزًا بِالذَّنُوبِ، خُذْ حِذْرَكَ، وَتَعَرَّفْ عِقَابَهُ بِالْيَقِينِ فَقَدْ أَنْذَرَكَ، وَخَلَّ
الْهَوَى، فَإِنَّهُ كَمَا تَرَى قَدْ صَيَّرَكَ قَبْلَ أَنْ تَضِيقَ الْآلَةَ وَيَضِيقَ حَبْسَهُ ﴿يَعِذُّرُكُمْ اللَّهُ
نَفْسَهُ﴾.

اجْتَهَدُ فِي تَقْوِيَةِ نَفْسِكَ قَبْلَ خُسْرَانِ مَوَازِينِكَ، وَقُمْ عَلَى قَدَمِ تَضَرُّعِكَ وَحَيْنِيكَ قَبْلَ نَشْرِ دَوَاوِينِكَ، وَابْذُلْ قُورَاكَ فِي ضَعْفِكَ وَلِيْنِطَ قَبْلَ أَنْ يَذْنُو عَلَيْكَ الْعَذَابُ فَتَجِدَ مَسَّهُ. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الآية ٢٨].

إخواني، التَّوْبَةُ التَّوْبَةُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمْ، التَّوْبَةُ مِنَ الْإِنَابَةِ، الْإِنَابَةُ قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ بَابُ الْإِجَابَةِ، وَيُرْسِلَ الْهَجْرُ حِجَابَهُ، يَا غَافِلًا عَنْ مَصِيرِهِ، وَيَا وَاقِعًا مَعَ تَقْصِيرِهِ، سَبَقَكَ أَهْلُ الْعَزَائِمِ وَأَنْتَ فِي الْيَقِظَةِ نَائِمٌ، قِفْ عَلَى الْبَابِ وَقِفْ نَادِمٌ، وَنَكِّسْ رَأْسَ الذُّلِّ فِي الظُّلْمَةِ، وَقُلْ: يَا ظَالِمٌ، وَنَادِ فِي الْأَسْحَارِ مُذْنِبٌ وَرَاحِمٌ، وَتَشَبَّهَ بِالْقَوْمِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ فَرَاخِمٌ، إِنْ هَمَمْتَ فَبَادِرْ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُدْرِكُ الْمَفَاخِرَ مَنْ رَضِيَ بِالصِّفِّ الْآخِرِ.

حكاية:

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: خُلِقْتُ لِي نَفْسٌ تَوَاقَةٌ فَلَمْ تَزَلْ تَتَوَقُّ إِلَى الْإِمَارَةِ فَلَمَّا نِلْتُهَا تَاقَتْ إِلَيَّ الْخِلَافَةُ، فَلَمَّا نِلْتُهَا تَاقَتْ إِلَيَّ الْجَنَّةُ. وينشد:

بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لِأَنِّي	أَرَى أَنَّ دَارًا لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا قَفْرُ
وَمَا حَاجَتِي فِي الْمَالِ أَبْغِي وَفُورُهُ	إِذَا لَمْ أَفِرْ عَرْضِي فَلَا وَفَرَ الْوُفْرُ
سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ	وَفِي لَيْلَةِ الظُّلُمَاتِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ
وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا	لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوِ الْقَبْرِ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا	وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهَا الْمَهْرُ

يَا عَاصِي أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ يَسْعَى فِي تَبْدِيدِ شَمْلِكَ؟ أَمَا تَخَافُ أَنْ تُؤْخَذَ عَلَى قَبِيحِ فِعْلِكَ، وَاعْجَبًا لَكَ مِنْ رَاحِلٍ تَتْرُكُ الرَّادَ فِي غَيْرِ رَحْلِكَ. أَيْنَ فِطْرَتُكَ وَيَقْظَتُكَ وَتَذْيِيرَ عَقْلِكَ؟ أَمَا بَارِزَتْ بِالْقَبِيحِ فَأَيْنَ الْحُزْنُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْحَقَّ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَنَ.

سَتَعْرِفُ خَبَرَكَ يَوْمَ تَرْتَحِلُ عَنِ الْوَطَنِ، وَسَتَنْتَبِهُ مِنْ رُقَادِكَ فَيَزُولُ هَذَا الْوَسْنُ. أَوَاهُ مَا لِي أَرَى رِجَالًا، وَلَا أَرَى عُقُولًا! مَا لِي أَسْمَعُ حَسِيْسًا وَلَا أَرَى

أَنِيسًا! دَخَلُوا ثُمَّ خَرَجُوا، عَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا، حَرَّمُوا ثُمَّ اسْتَحَلُّوا، إِنَّمَا دِينُ أَحَدِهِمْ لَفَلَقَةٌ عَلَى لِسَانِهِ.

إخواني، إن اجتمعتم على الذِّكْرِ والبُكَاءِ، وإلا فالفرقة أصلح، يا هذا أخيرَ أَخَاكَ بِعَيْكَ فَاَلْمُؤْمِنُ مِرَاةُ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: الآية ٢].

إخواني، لا أَنْكِرُ حَنِينَكُمْ إِلَى الرِّضَاعِ، وَلَكِنْ ذُوقُوا طَعَمَ الرِّجَالِ وَقَدْ نَسِيتُمْ شُرْبَ اللَّبَنِ.

إخواني، جاءتِ السَّحَرَةُ تَحَارِبُ، وَخِلَعُ الصُّلَحِ قَدْ أُخْضِرَتْ، وَتِجَانُ الرِّضَا قَدْ رُضِعَتْ، وَشَرَابُ الْوِصَالِ يُرَوِّقُ، مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى مَا اعْتَصَرُوا مِنْ خَمْرِ الْهَوَى فَإِذَا بِهِ قَدْ اسْتَحَالَ خَلًّا فَافْطَرُّوا عَلَيْهِ. وينشد:

أَنْتَ وَقَفْتَ مَنْ إِلَيْكَ أَنْابَا أَنْتَ وَقَفْتَ مَنْ أَصَابَ الصَّوَابَا
أَنْتَ عَرَفْتَهُمْ كُنُوزَ الْمَعَالِي فَغَدَوْا يَبْحَثُونَ عَنْهَا طِلَابَا
أَنْتَ أَحْبَبْتَ مَا نُحِبُّ إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَعْطَيْتَهُمْ عَلَيْهِ الثَّوَابَا

يَا مَعَاشِرَ النَّائِبِينَ، مَنْ أَقَامَكُمْ وَأَفْعَدَنَا، مَنْ قَرَّبَكُمْ وَأَبْعَدَنَا، ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: الآية ١١] كُلَّمَا رَأَيْتُ تَقَلُّقَ النَّائِبِينَ تَقَلُّقَ قَلْبِي، فَإِذَا تَلَمَّحْتُ اضْغِرَارَهُمْ تَبَلُّلَ لُبِّي، فَإِذَا شَاهَدْتُ دُمُوعَهُمْ زَادَ كُرْبِي، فَإِذَا سَمِعْتُ حَنِينَهُمْ تَبَدَّدَ دَمْعِي، لَقَدْ وَعَظَتِ الدُّنْيَا فَأَبْلَغَتْ فِيمَا قَالَتْ، وَلَقَدْ أَخْبَرْتُ بِرَحِيلِهَا قَبْلَ أَنْ يُقَالَ زَالَتْ، يَا مَنْ زَمَانُهُ الَّذِي يُحْصَى عَلَيْهِ، يَا طَوِيلَ الْأَمَلِ وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَ بِعَيْنَيْهِ، يَا مَنْ ذَنْبُهُ أَوْجَبَتْ أَنْ لَا يُلْتَفَتَ إِلَيْهِ، يَا طِينَ تُرْبَتِهِ وَهُوَ يَطْلُبُ فِي الدُّنْيَا رُبَّتَهُ، هَذَا مَجْلِسُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ، كَانَ مَا كَانَ، وَتَفَرَّقَتِ الْخُلَّانُ، مَا أَمَرَ الْبُعْدَ بَعْدَ الْقُرْبِ، مَا أَشَدَّ الْهَجَرَ بَعْدَ الْوِصَالِ، يَا مَطْرُودًا بَعْدَ التَّقْرِيبِ أَبْلَغُ الشَّافِعِينَ لَكَ إِلَيْنَا الْبُكَاءُ.

السَّجْع:

أَسَفًا لِأَهْلِ النَّارِ لَقَدْ هَلَكُوا وَشَقُّوا، وَلَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُ أَنْ يَصِفَ مَا لَقُوا،

كُلَّمَا عَطِشُوا جِئَ بِالْحَمِيمِ وَالْغَسَاقِ فَسُقُوا، هَذَا جَزَاؤُهُمْ إِذْ خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ
وَفَسَقُوا قُطِّعُوا وَاللَّهُ بِالْعَذَابِ، وَمُزَّقُوا وَأُفْرِدَ كُلُّ مِنْهُمْ عَنْ رَفِيقِهِ وَفُرِّقُوا، فَلَوْ
رَأَيْتَهُمْ قَدْ كُبِّلُوا فِي السَّلَاسِلِ وَأُبْقُوا، وَاشْتَدَّ زَفِيرُهُمْ، وَتَضَرَّعَ أَسِيرُهُمْ وَقَلِقُوا،
وَتَمَنَّوْا أَنْ لَمْ يَكُونُوا وَلَمْ يُخْلَقُوا، وَنَدِمُوا إِذْ أَعْرَضُوا عَنِ النَّصِيحِ وَقَدْ صَدَّقُوا،
فَلَا اعْتَدَارُهُمْ يُسْمَعُ وَلَا بُكَاءُهُمْ يَنْفَعُ، وَلَا أُعْتَقُوا.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا تَوْفِيقَ الطَّاعَةِ وَبُغْضَ الْمَعْصِيَةِ وَصِدْقَ النِّيَّةِ، وَآمِنْ اللَّهُمَّ عَلَيْنَا
بِالْخُشُوعِ وَالْإِنَابَةِ، وَسَدِّدِ اللَّهُمَّ أَلْسِنَتَنَا بِالصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ الْخَامِسُ فِي قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ عَلَى نَبِيِّهِمُ السَّلَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

الحمدُ لله المُنَزَّه عن الأشياءِ في الأسماءِ والأوصافِ، المقدَّس عن الجوارح والآلاتِ والأطرافِ، خَضَعَتْ لهيبه عزَّته الأكوأُنُ، وأقرَّتْ عن اعترافٍ وأنقادتْ له القلوبُ وهي في انقيادها تخافُ، أنزلَ القطرَ فمِنه الدُّرُّ وتحوَّيه الأصدافُ فمِنه قوْتُ البُذورِ تُربِّي الضَّعَافَ، كَشَفَ للمتَّقِينَ اليقينَ فشَهِدُوا وأقامَهُم في الليلِ فَسَهِرُوا وسَهِدُوا، وَأَرَاهُم عِيبَ الدُّنْيَا فَرَفَضُوا وزَهِدُوا وَقَالُوا نَحْنُ أَضْيَافُ، وَقَضَى عَلَى الْمُخَالِفِينَ بِالْبَعَادِ، فَأَذَاهُمُ التَّوْفِيقَ وَالْإِسْعَادَ فَكُلُّهُمْ هَامٌ فِي الضَّلَالِ وَمَا عَادَ.

قال الله العظيم: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾، وأحمدُهُ على سِرِّ الخَطَايَا والاقترافِ، وأصَلِّي على رَسولِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ قَافٌ، وعلى صَاحِبِهِ الَّذِي أَمِنَ بِبَيْعَتِهِ الْخِلَافَ، وعلى عُمَرِ صَاحِبِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، وعلى عُثْمَانَ الصَّابِرِ عَلَى الشَّهَادَةِ صَبْرَ النُّصَافِ، وعلى عَلِيِّ مُحِبِّ أَهْلِ السُّنَّةِ الطَّرَافِ، وعلى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ مُقَدِّمِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْأَشْرَافِ.

قال الله العظيم: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١]،
الْأَخُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ؛

أَحَدُهَا: الْأَخُ مِنَ الْآبِ وَالْأُمِّ، أَوْ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمِنْهُ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: الآية ٣٠].

والثاني: الأخ من القبيلة ومنه: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١].

والثالث: الأخ في المتابعة ﴿كَانُوا إِخْوَنَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٧].

والرابع: الصاحب ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً﴾ [ص: الآية ٢٣]. قَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَ طُولُ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَا يَحْتَلِمُ حَتَّى يَبْلُغَ مِائَتَيْ سَنَةٍ، وَهَؤُلَاءِ أَوْلَادُ عُوصِ بْنِ آدَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ وَهُمْ مِنْ عَادِ الْأُولَى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ هُوَ دِينَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَاحِ بْنِ جَلُودٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ عَادُ بْنُ عَامِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامٍ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ.

ونصّه: لَمَّا تَجَبَّرَ قَوْمُ عَادٍ فِي ظِلِّ ظُلُلٍ ضَلَالِهِمْ حِينَ أَمَلَ الْأَمِلُ طُولَ الْبَقَاءِ وَدَنَا ذِكْرَ زَوَالِهِمْ، وَمَرُّوا فِي مَشَاوِعِ عَذَابِ الْمَلَائِكَةِ نَاسِينَ مَرَّ عَذَابِهَا رَافِلِينَ فِي حُلَلِ الْغَفْلَةِ بِالْأُمْنِيَّةِ عَنِ الْمَنِيَّةِ وَإِذَا بِهَا أَقْبَلَ هُودٌ يَهْدِيهِمْ وَيُنَادِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: الآية ٧٢] فَبَرَزُوا فِي عُتُوٍّ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: الآية ١٥] فَسَحَبَ سَحَابَ الْعَذَابِ ذَيْلَ الْإِذْبَارِ بِإِقْبَالِهِ إِلَى قِتَالِهِمْ فَظَنُّوهُ لَمَّا اعْتَرَضَ عَارِضٌ مَطَرٌ فَتَهَادَوْا تَبَاشِيرَ الْبَشَارَةِ بِتَهَادِي إِشَارَةٍ ﴿هَذَا عَارِضٌ مُثْمَرًا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤].

فَصَاحَ بُلْبُلُ الْبَلْبَالِ قَبْلَبَلٌ ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤] فَكَانَ كُلُّمَا دَنَا وَتَرَامَى تَرْدَى كَأَنَّ مَا كَانَ قَطُّ لَمْ يَكُنْ، فَحَنُظَلَّتْ شَجَرَةُ مُشَاجِرَتِهِمْ هُودًا، فَجَنَى مَنْ جَنَى مِنْ جَنَى مَا جَنَى ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٦] فَرَاخَتْ رِيحُ الدُّبُورِ لِكَيْ تَسِمَ الْأَذْبَارَ، بَكِّي الْإِذْبَارَ فَعَجُّوا مِنْهَا عَجِيجَ الْأَذْبَرِ فَلَمْ تَزَلْ تَكْوِي بِهِمْ بِمَسِيسِ الْعَدَمِ، وَتَلْوِي تَكْوِينَهُمْ إِلَى حِيَاضِ دَمِ النَّدَمِ، وَتَكْفَأُ الْقَلْبَ عَلَيْهِمُ الرَّمَالُ فَتَكْفِي تَكْفِينَهُمْ وَتُبْرِزُهُمْ إِلَى الْبَرَاكِ عَنْ صَوْنِ حُصُونِ كِنِّ يَقِينَهُمْ فَإِذَا أَصْبَحُوا أَخَذَتْ تَنْزُعُ فِي قَوْسِ تَنْزُعِ النَّاسِ، فَإِذَا أُمْسَتْ أَوْفَقَتْ عَرِيضَهُمْ فِي عَرْضِ ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ﴾، فَمَا بَرِحَتْ بَارِحَتُهُمْ عَنْ بَرَاكِهِمْ حَتَّى بَرَّحَتْ بِهِمْ، وَلَا أَقْلَعَتْ حَتَّى أَقْلَعَتْ قُلُوعَ قِلَاعِهِمْ فَدَامَتْ عَلَيْهِمْ آفَةٌ وَدَاءٌ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: الآية ٧] ابْتِدَاءَ ذَلِكَ غَدَوَةُ الْأَرْبَعَاءِ آخِرُ الْأَرْبَعَاءِ مِنَ الشَّهْرِ

فَاغْتَرَلَ هُوْدٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَظِيرَةٍ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْهَا إِلَّا مَا يُلَيْنُ الْجُلُودَ، وَتَلْتَذُّ عَلَيْهِ النَفُوسُ فَكَانَتِ الرِّيحُ تَقْلَعُ الشَّجَرَ وَتَهْدُمُ الْبُيُوتَ وَتَرْفَعُ الرَّجَالَ وَالنِّسَاءَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَتَدُقُّ رِقَابَهُمْ فَتُبِينُ الرَّأْسَ مِنَ الْجَسَدِ فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: الآية ٧]، أَيِ أَسَافِلُ نَخْلٍ، ثُمَّ دُمِعُوا بِالْحِجَارَةِ فَحَسِبُوا مَا أَذَاقَهُمْ مِنْ سُوءٍ مَا حَاسُوا، وَسَيِّقُوا مِنْ قَفَرٍ إِلَّا بُعْدًا إِلَى يَمٍّ وَأَتَّبِعُوا، فَلَوْ عَبَّرَتْ فِي مِعْبَرِ الْإِعْتِبَارِ لَرَأَى مَا آلَ إِلَيْهِ مَا لَهُمْ، وَأَرَأَيْتَ وَالتَّوَيَّ كَيْفَ التَّوَيَّ عَلَيْهِمْ؟ وَكَفَّ النَّوَيَّ كَيْفَ نَوَيَّ الدُّنْيَا إِلَيْهِمْ؟ فَانْظُرُوا إِلَى عَوَاقِبِ الْخِلَافِ فَإِنَّهُ شَافٍ كَافٍ.

إِخْوَانِي، أَيُّنَ مَنْ لَعِبَ وَلَهَى؟ أَيُّنَ مَنْ غَفَلَ وَسَهَى دَهَاهُ، وَاللَّهِ أَفْطَحَ مَا دَهَا وَحَطَّ رُكْنَهُ فَوَهَا، ذَهَبَتْ لَذَّةُ دُنْيَايِهِ وَحُسِبَ بِهَا، نَظَرَ فِي عَاجِلِهِ وَنَسِيَ الْمُنْتَهَى. وينشد:

نَادَى الْقُصُورَ الَّتِي أَقْوَتْ مَعَالِمُهَا أَيُّنَ الْجِسْمِ الَّتِي طَابَتْ مَطَاعِمُهَا
أَيُّنَ الْمُلُوكِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَمَنْ أَلْهَاهُ نَاضِرُ دُنْيَايِهِ وَنَاعِمُهَا
أَيُّنَ الْعُيُونِ الَّتِي نَامَتْ وَمَا انْتَبَهَتْ وَاهَا لَهَا نَوْمَةٌ مَا هَبَّ نَائِمُهَا

قال ابن عباس: أَوَّلُ مَا عَرَفُوهُ أَنَّهُ عَذَابٌ رَأَوْا مَا كَانَ خَارِجًا مِنْ رِجَالِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ يَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِثْلَ الرِّيشِ، فَدَخَلُوا بَيُوتَهُمْ، وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهُمْ فَجَاءَتِ الرِّيحُ فَفَتَحَتِ الْأَبْوَابَ، وَمَالَتْ عَلَيْهِمْ بِالرَّمْلِ، فَكَانُوا تَحْتَ الرَّمْلِ لَهُمْ أَيْنُ ثُمَّ مَضَتْ أَرْوَاحُهُمْ، وَطَرَحَتْهُمْ الرِّيحُ فِي الْبَحْرِ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٥]. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بَعَثَ اللَّهُ طَيْرًا أَسْوَدَ فَالْتَقَطَهُمْ حَتَّى أَلْقَاهُمْ فِي الْبَحْرِ.

وعظ:

إِخْوَانِي، اعْتَبِرُوا بِالَّذِينَ ظَلَمُوا وَفَطَنُوا كَيْفَ ظَلَعُوا وَحَزَنُوا، وَانْظُرُوا إِلَى آثَارِهِمْ تَعَلَّمُوا أَنَّهُمْ غَبُّوا، لَاحَتْ لَهُمْ لَذَاتُ الدُّنْيَا فَاعْتَرَوْا وَفَتِنُوا، فَمَا انْقَشَعَ سَحَابُ الْمُنَى حَتَّى مَاتُوا وَدُفِنُوا. وينشدوا:

السُّقْمُ عَلَى الْجِسْمِ لَهُ تَزْدَادُ وَالصَّبْرُ يَقِلُّ وَالْهُوَى يَزْدَادُ

مَا أَبْعَدَ شُقَّتِي وَمَا لِي زَادُ مَا أَكْثَرَ بَهْرَجِي وَلِي نَقَادُ

أَيْنَ جَامِعِ الدُّنْيَا طَرَحَهَا وَأُطْرِحَ، أَيْنَ اللَّاهِي بِهَا حَزَنَ بَعْدَ أَنْ فَرِحَ؟

إخواني، كَمْ مَنْ حَرِيصٌ يَجْمَعُ الْمَالَ جَمْعَ الثَّرِيَّا نَفْسَهَا ثُمَّ تُفَرِّقُهُ الْأَقْدَارُ
تَفْرِيقَ بَنَاتِ النَّعْشِ، يَا ذَا اللَّبِّ حَلِيبِي مَعَكَ، وَيَحَكَ إِنَّ سُرُورَهَا أَقْتُلُ مِنَ السُّمِّ
وإنَّ سُورَهَا أَكْثَرُ مِنَ النَّحْلِ، إِنَّهَا فِي قَلْبِكَ أَعَزُّ مِنَ النَّفْسِ وَسَتَصِيرُ عِنْدَ الْمَوْتِ
أَهْوَنَ مِنَ الْأَرْضِ، حِرْصُكَ بَعْدَ الشَّيْبِ أَحَرُّ مِنَ الْجَمْرِ. أَبْغِي عُمْرًا يَا أَبْرَدَ مِنَ
الثَّلْجِ، إِلَى مَتَى تَحْرِصُ عَلَى الدُّنْيَا وَتَنْسَى الْقَدَرَ، مِنَ الَّذِي طَلَبَ مَا لَمْ يُقَدَّرْ
عليه فَقَدَرَ. وينشد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ غَرِيقُ
فَقُلْ لْغَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ رَاحِلٌ إِلَى مَنْزِلٍ نَائِي الْمَحَلِّ سَحِيقِ
فَلَا تَحْسِبِ الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ سَكَنْتَهَا قَرَارًا فَمَا دُنْيَاكَ غَيْرُ طَرِيقِ
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكْشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ
عَلَيْكَ بَدَارٍ لَا يَزُولُ نَعِيمُهَا وَلَسْتَ تُنَادِي أَهْلَهَا بِمَضِيقِ

إخواني، العاصُونَ عَدَا عَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ الذَّلِّ وَالشَّقَا ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ
فِيؤْخَذُ بِالْوَصِيِّ وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: الآية ٤١]، أَتَرَاهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَعَيْدَ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ
مِيقَاتُهُمْ أَجْمِيعَ﴾ ﴿٤٠﴾ [الدخان: الآية ٤٠]، وَيَكْفِي مِنَ التَّعْذِيبِ ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: الآية ٧٢]، وَاشْقَاوَةٌ مَنْ كَانَ فِي ظَهْرِ أَبِيهِ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ وَيَدْخُلُ
﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وَاحْسَرَةٌ مَنْ سَجَدَ لَهُ جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَكَيْفَ
تَتَوَلَّاهُ ﴿مَلَائِكَةُ غِلَاطٍ شِدَادُ﴾ [التحریم: الآية ٦] غُلَّتِ الْأَكْفُ جَزَاءَ امْتِدَادِهَا إِلَى
الْحَرَامِ إِذَا اشْتَدَّ جُوعُهُمْ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ﴿٦١﴾ [الغاشية: الآية ٦]، إِذَا
قَوِيَ عَطَشُهُمْ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٥]، يَا أَهْلَ الذُّنُوبِ
وَالْخَطَايَا أَلَكُمُ صَبْرٌ عَلَى الْعُقُوبَةِ. وينشد:

يَا مَنْ بِالْدَّارِ لَهَا وَصَبَا أَوْرَثْتَ الْقَلْبَ بِهَا وَصَبَا
فَذَرِ الدُّنْيَا فَلَكُمْ قَتَلَتْ مَكْرًا بِسِهَامِ هَوَى وَصَبَا
بَرَزْتَ فَدَعْتَ فَإِذَا اجْتَمَعَتْ خَدَعْتَ حَتَّى قَطَعْتَ إِرَبَا

يا عاشقها كم قد نصبت لهلاكك فاحذرها سببا
أين الأترابُ أَمَا تَرَبَّتْ خَدَاهُ أَمَا سَكَنَ الثَّرَبَا
يا من يأمنها كم قد سلبت ولداً براً أُمَّا وَأَبَا

يا عاصي لا في الشَّبَابِ وَافَقْتُ، ولا في الكهول رَافَقْتُ، ولا في
المَشِيبِ أَفَقْتُ، ولا في العِتَابِ أَشَفَقْتُ، فَكَأَنَّكَ مَا أَمَنْتَ بِالمِيعَادِ وَلَا صَدَقْتَ
يَا مُقِيمًا عَلَى الهَوَىٰ وليس بِمُقِيمٍ، لَقَدْ خَوَّفْنَا الموتَ بِمَنْ أَخَذَ مِنَّا وَنَعَلِمَ هُجُومَهُ
عَلَيْنَا وَقَدْ أَمِنَّا، يَا مَنْ يُشِيعُ بِبَدَنِهِ المِيتَ، أَمَّا قَلْبُهُ فَفِي البَيْتِ وَاعْجَبَا أَمَا تَعْلَمُ
مَا أَمَامَكَ فَتَهِيًّا لِلرَّحِيلِ وَأَصْلِحْ خِيَامَكَ واجتهدْ أَنْ يُنْشَرَ الإِخْلَاصُ فِي المَحَلِّ
الأَعْلَى أَعْلَامَكَ، إِيَّاكَ وَالفُتُورَ فَإِنِّي أَرَىٰ ذَاءَ دَوَامِكَ والدي وَأُمِّكَ اظْلُبْ مَا
شِئْتَ بِالْعَزْمِ وَأَنَا زَعِيمٌ لَكَ بِالظَّفَرِ لَمَّا كَانَ الغَرَابُ يَشْتَغِلُ بِالنَّدْبِ عَلَى الفِرَاقِ
وَلَيْسَ السَّوَادُ قَبْلَ التَّوْحِ فَلِذَلِكَ لَمْ يُوجَدْ إِلَّا فِي الخَرَابَاتِ. وينشد:

سَأَلْتُ الدَّارَ تُخْبِرْنِي عَنِ الْأَحْبَابِ مَا فَعَلُوا
فَقَالَتْ لِي أَقَامَ الْقَوْمُ أَيَّامًا وَقَدْ رَحَلُوا
فَقُلْتُ أَيْنَ أَطْلُبُهُمْ وَأَيَّ مَنْزِلٍ نَزَلُوا
فَقَالَتْ فِي الْقُبُورِ وَقَدْ لَقُوا وَاللهُ مَا عَمِلُوا
فَخَلَّ القَلْبَ يَبْكِي دَمًا وَخَلَّ الدَّمَعُ يَنْهَمِلُ
عَلَى غُمْرِ مَضَىٰ أَرَاهُ وَقَدْ وَافَانِي الْأَجَلُ

السَّجْع:

الويلُ لِأَهْلِ الظُّلْمِ مِنَ الْأَوْزَارِ، ذِكْرُهُمْ بِالقَبَائِحِ وَقَدْ مَلَأَ الْأَقْطَارَ، يَكْفِيهِمْ
أَنَّهُمْ قَدْ وُسِمُوا بِالْأَشْرَارِ، ذَهَبَتْ لَذَائُهُمْ بِمَا ظَلَمُوا، وَبَقِيَ الْعَارُ، ذَارُوا إِلَى دَارِ
العِقَابِ وَمَلَكَ غَيْرُهُم الدَّارَ، وَخَلُّوا بِالْعَذَابِ فِي بُطُونِ تِلْكَ الْحِجَارِ، فَلَا مُغِيثَ
وَلَا أُنَيْسَ وَلَا رَفِيقَ وَلَا جَارَ، وَلَا رَاحَةَ لَهُمْ وَلَا سُكُونَ وَلَا قَرَارَ، سَأَلْتُ دُمُوعَ
أَسْفِهِمْ عَلَى مَسَلْفِهِمْ كَالْأَنْهَارِ، شَيِّدُوا بُنْيَانَ الْأَمَلِ فَإِذَا بِهِ قَدْ أَنْهَارَ، أَمَا عَلِمُوا
أَنَّ اللَّهَ أَجَارَ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ جَارَ، فَإِذَا قَامُوا إِلَى الْقِيَامَةِ زَادَ الْبَلَاءُ عَلَى الْمِقْدَارِ،
﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطَرَانٍ وَتَعَسَّىٰ جُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٠]، لَا يَغُرَّنَكَ

صَفَاءَ الْعَيْشِ كُلِّ الْأَخِيرِ أَكْذَارٌ، اللَّهُمَّ خَلِّصْنَا مِنْ تَلَاُعِ جَوَارِحِ آمَالِنَا، بِبِضَائِعِ
 أَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ أَسْرَنَا الْهَوَى فَخَلِّصْ أَمْرَنَا، وَيَسِّرْ لَنَا أَوْبَتَنَا مِنْ بِلَادِ غُرْبَتِنَا،
 اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمَنْ صَارَ مِنَ الْدِينِ إِلَيْكَ، وَبَارِكْ لَنَا وَلَهُمْ فِي الْقُدُومِ عَلَيْكَ، وَصَلَّى
 اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ السَّادِسُ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَهَّدَ لِبَطْلَانِهِ سَبِيلًا وَاضِحًا، وَكَمْ ابْتَعَثَ نَبِيًّا مُرْشِدًا وَنَاصِحًا،
فَأَرْسَلَ آدَمَ غَادِيًا عَلَى نَبِيِّهِ بِالْعَلِيمِ وَرَائِحًا فَخَلَفَهُ شَيْثٌ ثُمَّ إِدْرِيسَ، وَجَاءَ نُوحٌ نَائِحًا
وَأَمَرَ هُودًا بِهَدَايَتِهِمْ عَادًا فَلَمْ يَزَلْ مُكَادِحًا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا.

أَحْمَدُهُ مَا دَامَ عَلَى مَا بَدَأَ بَرَقَ لَائِحًا، وَأُصْلِيَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ
مَا دَامَ الْفَلَكَ سَابِحًا، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَقُلُ فِي الصِّدِّيقِ مَا دَحَا،
وعلى الفَارُوقِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَنْوِرُ الْحَقَّ لَامِحًا، وعلى عُثْمَانَ وَأَعْجَبَ بِمِثْلِ دَمِهِ
صَائِحًا، وعلى عَلِيٍّ وَأَعْلَنَ بِفَضَائِلِهِ صَائِحًا، وعلى عَمِّهِ فَمَا زَالَ طَيْبُ عَرْقِهِ
فَائِحًا.

قال الله العَظِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿وَالْإِنَّمَا ثَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف:
الآية ١٧٣]، ثَمُودُ هُوَ جَابِرُ بْنُ آدَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ أُرْسِلَ إِلَى أَوْلَادِهِ صَالِحُ بْنُ
عُبَيْدِ بْنِ أَنْفِ بْنِ أَوْلَادِ ثَمُودَ أَيْضًا، وَالثَّمُدُ: الْمَاءُ الْقَلِيلُ الَّذِي لَا مَادَّةَ لَهُ وَإِنَّمَا
قَالَ أَخَاهُمْ: لِأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِهِمْ.

وقصته:

لَمَّا أَعْرَضَتْ ثَمُودُ عَنْ كُلِّ فِعْلٍ صَالِحٍ بُعِثَ إِلَيْهِمْ لِلْإِصْلَاحِ صَالِحٌ. نَعَتْتْ
عَلَيْهِمْ نَاقَةٌ هَوَاهُمْ بِطَلَبِ نَاقَةٍ، فَخَرَجَتْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءٌ تُقْبَقُبُ، ثُمَّ فَصَلَ عَنْهَا

فَصِيلٌ يَرْغُو فَاذْتَعَتْ حَوْلَ نَهْيٍ نَهَيْهِمْ عَنْهَا فِي حِمَى حِمَايَةٍ ﴿وَلَا تَمْسُوهَا﴾
 [الأعراف: الآية ٧٣] فَاحْتَاجَتْ إِلَى الْمَاءِ وَهُوَ قَلِيلٌ عِنْدَهُمْ، فَقَالَ حَاكِمُ الْوَحْيِ
 ﴿لَمَّا شَرِبْتُ وَلَكُمُ شَرْبٌ يَوْمٍ مَقْلُومٍ﴾ [الشعراء: الآية ١٥٥]، فَكَانَتْ يَوْمَ وَرْدِهَا يَقْضِي
 دَيْنَ الْمَاءِ بِمَاءٍ ذَرَّهَا، فَاجْتَمَعُوا فِي حُلَّةِ الْحِيلَةِ عَلَى شَاطِئِ غَدِيرِ الْعَدْرِ، فَدَارَ
 قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ لِيَحُولَ حَوْلَ الْعَطَنِ، فَتَعَاطَى فَصَابَ عَلَيْهِمْ صَيِّبٌ صَابَ صَاعِ
 صَاعِقَةِ الْعَذَابِ الْهُونِ، فَحَيْثُ دَنَا وَدَنَدَنَ دَمْعُهُمْ دِمَارُ قَدَمَدَمٍ فَأَصْبَحَتْ الْمَنَازِلُ
 لِهَوْلِ ذَلِكَ النَّازِلِ ﴿كَأَنَّ لَمْ تَغْتَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: الآية ٢٤]، فَانْتَهَى وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ
 صَعِدَ مَظْلُومٌ فَصَيَّلَهَا بِذُرَّةِ الْجَبَلِ، فَرَعَى كَالْمَظْلُومِ إِذَا دَعَا بِالْإِنْصَافِ مِمَّنْ بَعَى
 عَلَيْهِ، وَالْمَدْعُو يَعْلَمُ مَا فِي طَيِّ رَفَعِ الدُّعَاءِ مِنْ مَعْنَى بَثِّ الشُّكُوى، لِأَنَّهُ ﴿يَعْلَمُ
 أَلْسَرَ﴾ [طه: الآية ٧]، وَ﴿التَّجَوَّى﴾ [طه: الآية ٦٢] فَوَقَعَ لِفَصِيلِهَا الرَّاعِي بِنِصْفِ
 الْمَظْلُومِ مِنَ الْبَاغِي، فَبَادَرَ مُسْطَرُّ الْقَدْرِ مُمْتَثِلًا وَبِهَذِهِ نَاقَةُ النَّفْسِ مِنْ أَعْظَمِ
 الْآيَاتِ قَدْ انْشَقَّتْ عَنْهَا صَخْرَةٌ الْإِجَادِ بِالْعِنَايَاتِ لِيَتَرَعَ فِي أَرْضِ الشَّهَوَاتِ،
 فَاحْذَرُ عَلَيْهَا مِنْ قُدَارِ الْهَوَى وَتَوَقَّ مُخَالَفَةَ صَالِحِ مَصَالِحِ التَّقْوَى فَكَمْ مِنْ نَاقَةٍ
 أَرْمَلَتْ ظَلِمَتْ، وَكَمْ مِنْ فَصِيلٍ يَتَنِمُ قُهِرَتْ فَأَلِمَتْ وَالَّذِي أَهْلَكَ ثُمُودَ وَيَجْعَلُ
 الْبَاغِي الْبَاقِي لِيَجْزِيَهُمْ ثَمَدًا وَإِنْ أَمْهَلَكَ فَمَا أَهْمَلَكَ، وَلَكِنَّ الْحَاكِمَ جَعَلَ
 لِلْأَحْكَامِ الْعَلِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ أَمَدًا وَمَدًا. وينشد:

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَا مَضَى	وَلَمْ تَرَ فِي الْبَاقِينَ مَا يَصْنَعُ الدَّهْرُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَذَرِي فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ	مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيحِ قَبْلَكَ وَالْقَطْرُ
عَلَى ذَلِكَ مَرُّوا أَجْمَعُونَ فَهَكَذَا	تَمُرُّونَ حَتَّى يَأْتِيَ الْحَشْرُ وَالنَّشْرُ
فَحَتَّى مَتَى لَا تَصْخَرُوا وَقَدْ قُرِبَ الْمَدَا	وَحَتَّى مَتَى لَا يَنْجَابُ مِنْ قَبْلِكَ السُّكْرُ
بَلَى سَوْفَ تَذَرِي يَوْمَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا	وَتَذْكُرُ قَوْلِي حِينَ لَا يَنْفَعُ الذِّكْرُ

إِخْوَانِي، أَهْلُ الذُّنُوبِ بِدُنْيَاهُمْ نَارٌ بِلَا جَنَّةٍ وَالْقَوْمُ مِنْهَا فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ
 الْمَالِكُ الْهَالِكُ، وَالْمُؤْسِرُ الْمُخْسِرُ، وَالسَّالِمُ مِثْلُ السَّلِيمِ.

وعظ:

فَاعْتَبِرُوا إِخْوَانِي بِهِؤَلَاءِ الْهَالِكِينَ، وَانْظُرُوا سُوءَ تَذْيِيرِ الْخَاسِرِينَ لَا
 بِالنَّاقَةِ، وَاعْتَبِرُوا وَلَا لِتَعْوِضِهِمُ اللَّبَنَ شَكَّرُوا، عَتَوْا عَنِ النِّعَمِ وَبَطَرُوا وَعَمُوا عَنِ

الْكُرْمَ فَمَا نَظَرُوا وَأَوْعَدُوا بِالْعَذَابِ فَمَا حَذَرُوا، وَكَلَّمَا رَأَوْا آيَةً مِنَ الْآيَاتِ كَفَرُوا. الطَّبْعُ الْحَيِّثُ لَا يَتَغَيَّرُ، وَالْمُقَدَّرُ إِضْلَالُهُ لَا يَزَالُ يَتَحَيَّرُ، خَرَجْتَ لَهُمْ نَاقَةً مِنْ أَحْسَنِ النَّعَمِ، وَدَرَّ لَبْنُهَا لَهُمْ فَتَوَفَّرَتِ النَّعْمُ فَكَفَرُوا وَمَا شَكَرُوا فَأَقْبَلَتِ النَّعْمُ أَعَادَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ، وَاحْفَظْنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ مُوجِبَاتِ الْخُسْرَانِ، إِنَّهُ إِذَا لَطَفَ صَانَ. وينشد:

أَتَعْصِي اللَّهَ بَعْدَ الشَّيْبِ جَهْلًا كَمَا قَدْ كُنْتَ تَعْصِيهِ غُلَامًا
وَتَقْطَعُ طُولَ عُمْرِكَ بِالتَّمَنِّي وَبِالتَّسْوِيفِ عَامًا بَعْدَ عَامًا
أَرَاكَ عَلَى الْبَطَالَةِ لَا تُبَالِي حَلَالًا كَانَ كَسْبُكَ أَوْ حَرَامًا

يَا عَاصِي ابْنُكَ عَلَى ظِلَامٍ قَلْبِكَ يُضِيءُ إِذَا بَكَى السَّحَابُ عَلَى الرُّبَا
تَبَسَّمْتُ، اسْتَعِثْ يَا بَعِيدُ أُنْدَبْ، يَا طَرِيدُ تَأْسَفْ، يَا مَهْجُورُ تَقْلُقْ، يَا مَأْسُورُ،
يَا مَنْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالتَّوْبَةِ، وَيَتَوَقَّفُ لِلتَّأْخِيرِ آفَاتُ. وينشد:

تَعَالَ قَدْ أُمَكَّنَ الْمَكَانُ وَاحْشُرْ عَلَى الْوَصْلِ يَا جَبَانَ
عَجَلْ فَإِنَّ الزَّمَانَ غِرٌّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْطِنَ الزَّمَانَ
وَيَحْكُ تَقُولُ أَنْتَ تَائِبٌ وَمَا تَذَرِي مَا تَحْتَ هَذَا الضَّمَانَ

لَا يُحَكِّمُ بِصِحَّةِ إِقْرَارِكُمْ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ إِذَا صَدَقَ التَّائِبُ إِنِّي
أَنَا اللَّهُ الْمَلِكُ مَا كَتَبَ وَأَوْحَى إِلَى الْأَرْضِ اكْتُمِي عَلَى عِبْدِي. وينشد:

لَا عُدْتُ أَفْعَلُ مَا كُنْتُ أَفْعَلُهُ عُمْرِي فَخُذْ بِيَدِي يَا خَيْرَ مَنْ رَحِمَا
هَذَا مَقَامُ ظُلُومٍ خَائِفٍ وَجَلٍ لَمْ يَظْلِمِ النَّاسَ لَكِنْ نَفْسَهُ ظَلَمَا
فَاضْفَحْ بِفَضْلِكَ عَمَّنْ جَاءَ مُعْتَدِرًا وَاغْفِرْ ذُنُوبَ مُسِيءٍ طَالَ مَا اجْتَرَحَا

يَا بَعِيدَ صَلَاحِ الصُّلْحِ ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: الآية ٤٠] يَا مُطْلِقِي
أَنْفُسِهِمْ فِي الْخَطَايَا، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: الآية ١٢]، يَا عَاصِي
اخْذَرْ فِرْعَوْنَ الْهَوَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّبُ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ قَدْ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ فَصَارَتْ
كَالْحَدِيدِ فَقَرَّبُوهَا إِلَى نَارِ الْمَوَاعِظِ، وَدَعُونِي أَنْفُخَ كَيْدَ التَّخْوِيفِ وَإِلَّا مَا يَنْفَعُ
الضَّرْبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ، يَا عَاصِي تَعَزَّمْ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ فَتَنَامَ فَتَقُولُ مَا السَّبَبُ؟
وَتَحْضُرُ الْمَجْلِسَ وَلَا تَبْكِي، وَتَقُولُ: مَا الَّذِي قَسَى قَلْبِي ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسَكُمْ ﴿آلِ عِمْرَانَ: الآية ١٦٥﴾، إِذَا عَصَيْتَ بِالنَّهَارِ نِمْتَ بِاللَّيْلِ أَكَلْتَ الْحَرَامَ
فَأَظْلَمَ الْقَلْبُ فَلَمَّا فُتِحَ بَابُ التَّوْبَةِ لِلْمَقْبُولِينَ طُرِدْتَ ﴿ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ يَظْلِمُ لِعَبْدٍ﴾ [الحج: الآية ١٠].

اتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلَالُهَا حِسَابٌ، وَحُرَامُهَا عِقَابٌ، لَكِنَّكَ صَادَقْتَ أَهْلَ
الْهَوَى فَصَدَّقْتَهُ أَهْلُ الْهَوَى أَطْفَالٌ فِي حُجُورِ الْعَادَاتِ، وَإِنْ شَاخُوا كَمْ حَجَبَكَ
عُجْبُكَ عَنْ أَعْجُوبَةٍ. وينشد:

سَفِيًّا لِرَمَنِ وَضَلِينًا مِنْ رَمَنِي فَمَا أَسْرَعَ مَا انْقَضَى عَنِّي وَفَنِي
كُنَّا وَكَأَنَّمَا مَضَى لَمْ يَكُن وَآ حُزْنِي عَلَى الْقَضَا وَآ حُزْنِي

شعر:

يَا قَلْبُ صُرُوفَ دَهْرِنَا أَلْوَانُ يَا قَلْبُ مَتَى تَحَوَّلَ السُّكَّانُ
نَادَيْتُ وَفِي حَشَاشَتِي نِيرَانُ بَانُوا عَنْهَا فليَتَّهِمْ مَا بَانُوا
نَسَأَلُهَا عَنْهُمْ لِيَنْطَلِقَ الْأَوْطَانُ فَاسْأَلْ مُذْ رَحَلُوا أَقَامَتِ الْأَحْزَانُ

إِخْوَانِي، وَيَحَ الْمُسْتَكْثِرِينَ مِنَ الْخَطَايَا ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾
[المطففين: الآية ٤] مَا كَفَّاهُمْ نُزُولُ حَيْمِ الْمَعَاصِي حَتَّى ضَرَبُوا سُرَادِقَاتِ الْإِضْرَارِ
كَمْ رَأَوْا مُذْنِبًا يَسْرَحُ فِي مَيْدَانِ بَيْدَاءٍ غَفْلَتِهِ إِذَا كَفَّ الْإِخْتِلَاسِ قَدْ جَذَبَتْهُ إِلَى
حُفْرَتِهِ، فَسَلَّ بِهِ فِي سَلْبِهِ كَيْفَ حَالَهُ مَعَ ذَنْبِهِ. شعر:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ عَجَبٌ عَجِيبٌ قَلْبِي حَزِينٌ وَأَنْتُمْ لَا تُبَالُونَ، كَانَ الزُّهْدُ خِرْقَةً
فَصَارَ فِي ظَوَاهِرِ الثِّيَابِ، كَانَ الزُّهْدُ حُرْقَةً فَصَارَ الْيَوْمَ خِرْقَةً، وَيَحَاكَ صَوْفُ
قَلْبِكَ لَا جِسْمَكَ، وَأَصْلِحْ نَيْتَكَ لَا مُرَقَّتَكَ. وَافْضِيحَتَا يَا مُبَارِزِينَ بِالْخَطَايَا
اخْذَرُوا سُرْعَةَ الْأَجَلِ ﴿وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَقَابٍ﴾ [ص: الآية ٥٥] إِنَّمَا يَنْفَعُ الْوَعْظُ
قَلْبًا لَهُ يَقْظَةٌ، وَإِنَّمَا يَنْتَبِهُ نَائِمٌ لَا مَيِّتٌ. شعر:

لَا حَ الْمَشِيبُ بِعَارِضِكَ فَأَعْلَنَّا أَنْ لَا مَحِيصَ لَكَ الْغَدَاةُ مِنَ الْفَنَّا

فَدَعَ التَّشَاغُلَ بِأَلَّتِي تَشْقَى بِهَا وَأَنهَضُ إِلَى جَدِّ وَدَعَ عَنكَ الْوَفَا
يَا عَاصِي تَفْعَلُ الْمَعَاصِيَ بِاللَّيْلِ وَتَتَحَدَّثُ بِهَا بِالنَّهَارِ فَتَكْشِفُ عَوْرَتَكَ يَدِكَ
يَا خَسِيسَ النَّفْسِ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاضْنَعْ مَا شِئْتَ. شعر:

وَلِي فِيكَ يَا حَسْرَتِي حَسْرَةٌ تُقْصِي حَيَاتِي وَمَا تَنْقُضِي

يَا عَاصِي اخْذَرْ مَنْ أَخْرَجَ أَبَاكَ، وَاعْجَبًا كَيْفَ تُسَلِّمُ مِفْتَاحَ قَلْبِكَ إِلَى مَنْ
سَلَبَ قَلْبَ أَبِيكَ إِذَا عَمِيَ الْقَلْبُ سُلِّطَ عَلَيْهِ النَّفْسُ إِذَا غَفَلَ الْعَقْلُ أُدْبِلَ عَلَيْهِ الطَّبْعُ
إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي، يَا مَنْ قَلْبُهُ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ،
خُذْ يَدَكَ الْفِكْرَ فَأَحْضِرْهُ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِينَ، وَأَنْظِرْ كَيْفَ مُنِعُوا التَّصَرُّفَ ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: الآية ٥٤]، ثُمَّ أَخْرُجْ إِلَى الْمَقَابِرِ وَقُلْ لِلْقَوْمِ مَاذَا يَتَمَنُّونَ فَإِنَّهُمْ
يَتَمَنُّونَ سَاعَةً مِنْ عُمْرِكَ فَمُرْ بِهِ سَاعَةً فِي عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْمُفْرِطَيْنِ تَرَى
الْوَادِي قَدْ امْتَلَأَتْ بِدُمُوعِهِمْ، ثُمَّ انْطَلِقْ بِهِ إِلَى جَهَنَّمَ تَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْمَسْجُونِينَ
يَسْتَغِيثُونَ ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: الآية ١٢]، ثُمَّ أَنْصِتْ
لِجَوَابِ الْكُلِّ قُضِيَ الْأَمْرُ. وينشد:

إِذَا كَانَ قَلْبِي مُوَثَّقًا فِي جِبَالِكُمْ وَجِسْمِي لَدَيْكُمْ كَيْفَ أَفْهَمُ عَنْكُمْ
فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَعْدِلُوا فَوَاصِلُوا إِلَى أَنْ يَعُودَ الْقَلْبُ ثُمَّ تَكَلَّمُوا
وَقَفَ الْهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ
أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةً حُبًّا لِدُكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللَّوْمُ

وَاعْجَبًا لِقُلُوبِ الْقَوْمِ مَا تَحْمِلُ غَرَزَ إِبْرَةٍ مِنَ الْأَلَمِ! فَكَيْفَ اخْتَمَلْتَ أَلِيمَ
اللَّوْمِ الْعَظِيمِ الْكَثِيرِ لَا يَحُولُ ثِيَابُهُ ثُمَّ يَحْمِلُ الْعِصَابَةَ ضَرُورَةً، يَا مَنْ سُورَ نَقْوَاهُ
كَثِيرُ الثَّلَمِ، وَأَعْدَاؤُهُ قَدْ أَحَاطُوا بِالْبَلَدِ، وَيَحْكُ قَبْلَ الرَّمِيِّ تَرَاشُ السَّهَامِ، لَقَدْ
خَدَعَ قَلْبَكَ الْهَوَى فَاسْتَرَقَ وَاسْتَرَقَ أَضْرُّ مَا عَلَيْكَ سُوءُ تَذْيِيرِكَ فِي حَقِّ نَفْسِكَ،
وَاعْجَبًا لِمَنْ أُصِيبَ قَلْبُهُ، وَقَلْبُهُ مَعَهُ. شعر:

ظَنَّ غَدَاةَ الْحَيْفِ أَنْ قَدْ سَلِمَا لَمَّا رَمَى سَهْمًا وَمَا أَجْرَى دَمَا
فَعَادَ يَسْتَقْفِرِي حَشَاهُ فَإِذَا فُؤَادُهُ مِنْ بَيْنِهَا قَدْ عَدِمَا
لَمْ يَذَرِ مِنْ أَيْنَ أُصِيبَ قَلْبُهُ وَإِنَّمَا الرَّامِي ذَرَى كَيْفَ رَمَى

وَعِظْ:

يَا مَنْ يُدْعَى إِلَى نَجَاتِهِ وَلَا يُجِيبُ، قَدْ رَضِيَ أَنْ يَخْسِرَ وَيَخِيبَ، إِنَّ أَمْرَكَ ظَرِيفٌ وَحَالَكَ عَجِيبٌ، أَذْكَرُهُ فِي زَمَانٍ رَاحَتِكَ سَاعَةَ الْوَجِيبِ. يَا مَنْ يَلْهُو وَيَضْبُو بَعْدَ الْمَشِيبِ، ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٤١).

وَيَحَكَ إِنَّ الْحَقَّ حَاضِرٌ وَلَا يَغِيبُ، وَهُوَ يُحْصِي عَلَيْكَ أَعْمَالَ الطَّلُوعِ وَأَفْعَالَ الْمَغِيبِ، ضَاعَتِ الرِّيَاضَةُ فِي غَيْرِ نَجِيبٍ، وَسِيمَاكَ تَدُلُّ وَمَا يُخْفِي الْمَرْبُوبُ، لَا بُدَّ لِغِرْبَانِ الْفِرَاقِ مِنْ نَعِيبٍ، أَفْتَسَاكُنُ الْغَفْلَةَ وَتَغْتَرُّ يَا رَغِيبُ، يَا مَنْ سِلْعَتُهُ كُلُّهَا مَعِيبٌ، أَذْكَرُ يَوْمَ التَّوْبِخِ وَالتَّائِبِ، ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٤١).

تَذَكَّرْ مَنْ قَدْ أُصِيبَ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ يَوْمَ عَصِيبٍ، وَانْتَبِهْ لِأَخْذِ الْحَظِّ وَالنَّصِيبِ، وَاخْتَرِزْ فَعَلَيْكَ شَهِيدٌ وَرَقِيبٌ، لَا بُدَّ مِنْ فِرَاقِ الْعِيشِ الرَّطِيبِ، وَالتَّحَاقِ الْبَلَاءِ مَكَانَ الطَّيِّبِ، وَاعْجَبَا، بَعْدَ هَذِهِ اللَّذَاتِ كَيْفَ تَطِيبُ، وَاخْتَبِرْ قَلْبَكَ بَوَغْظِ الْخَطِيبِ، إِذَا حُلَّ الْمَوْتُ حُلَّ التَّرْكِيبِ، وَصُقِلَ مَقْلُ الْقُلُوبِ فِي قَالِبِ التَّقْلِيبِ، فَيُزَعَجُ الرُّوحُ إِزْعَاجَ الصُّرَيْمَةِ أَحَسَّتْ بِذَنْبٍ فَالْتَفَتَتْ يَا مُحِبَّ الْهَوَى عَنْ هَذَا الْحَبِيبِ، ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٤١) [ق: الآية ٤١].

كَيْفَ بِكَ إِذَا أَحْضَرْتَ فِي مَكَانٍ كَثِيبٍ، وَعَلَيْكَ ذُنُوبٌ أَكْثَرُ مِنْ رَمْلِ كَثِيبٍ، وَالْمُهِيمُنُ الطَّالِبُ وَالْعَظِيمُ الْحَسِيبُ، فَحِينَئِذٍ يَبْعُدُ عَنْكَ الْأَهْلُ وَالنَّسِيبُ، وَالتَّوْحُ أُولَى بِكَ يَا مَغْرُورٌ مِنَ النَّسِيبِ، أَتُؤْمِنُ بِهَذَا أَمْ عِنْدَكَ تَكْذِيبٌ، يَا مُطَالِبًا بِأَعْمَالِهِ، يَا مَسْؤُولًا عَنْ أَفْعَالِهِ، يَا مُنَاقِشًا عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِ، يَا ذَاهِلًا عَنْ تَحْقِيقِ أَقْوَالِهِ، نَسْيَانُكَ لِهَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ، أَتَسْكُنُ إِلَى الْعَافِيَةِ وَتَسَاكُنُ الْعَافِيَةَ وَتَظُنُّ أَمَالَ الْغُرُورِ وَافِيَةً لَا بُدَّ مِنْ سَهْمِ مُصِيبٍ، لَوْ أَحْبَبْتَ الْخَلَاصَ أَحْسَنْتَ، وَلَوْ آمَنْتَ بِالْعَرَضِ لَتَجَمَّلْتَ وَتَزَيَّنْتَ، يَا مَنْ قَدْ انْعَجَمَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ وَلَوْ سَأَلْتَ لَتَبَيَّنْتَ، وَيَحَكَ أَحْضِرْ قَلْبَكَ إِنَّمَا أَنْتَ فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ، إِلَى مَتَى مَعَ أَغْرَاضِكَ، وَمَتَى يَنْقُضِي مِنْكَ زَمَانٌ إِغْرَاضِكَ، مَتَى يَنْتَهِي مِنْكَ زَمَانٌ إِنَّهَاضِكَ، بِاللَّهِ لَقَدْ كَارَعَ عَنْ

أَمْرَاضِكَ الْحَاقِقُ الطَّيِّبُ، اللَّهُمَّ ارْزُقْ بِمَرِيضِ الْهَوَى فِي مَارِسَتَانِ الْبَلَى، اللَّهُمَّ
سَلِّمْ سَيَّارَةَ الْأَفْكَارِ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ الْبَلَى، اللَّهُمَّ لَا تُمِتْ حَيَّ الْعِلْمِ فِي حَيِّ
بِلَادِ الْجَهْلِ، اللَّهُمَّ أَخْرِجْنَا إِلَى نُورِ الْيَقِينِ مِنْ هَذَا الظَّلَامِ وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ رَأَى
الصُّبْحَ فَنَامَ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

مَجْلِسٌ فِي بَدَايَةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ وَاجْتِمَاعِهِمَا بَعْدَ الْقَبُولِ وَحَدِيثِهِمَا:

لَمَّا سَرَتْ مِنْ بَحَارِ الْحِكْمَةِ جَدَاوِلُ الْمَوَادِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَبَدَرَتْ مِنْ سُجُوفِ
لُحْفٍ مَكْنُونِ الْكَوْنِ بُدُورُ الْخَلْقِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَجَرَتْ خِيُولُ الْإِرَادَةِ فِي فُسْحَةِ
سَاحَةِ مَيْدَانِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِخَلْقَةِ دُرَّةٍ مَكْنُونَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، أَبَدَعَ مِنْ لَالِي شُعَاعِ
جَوْهَرِهَا جَوْهَرًا خَفِيفًا نَيِّرًا يَفُوقُ الْجَوَاهِرَ لَا تَصَالِيهِ بِلَمْحَةٍ نَظَرَةِ الْمَوَادِّ الْكُلِّيَّةِ،
صَبَّرَهُ عَقْلًا لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى ذَوِي الصُّورِ الرُّوحَانِيَّةِ، ثُمَّ طَلَعَتْ كَوَاكِبُ الْإِرَادَةِ
فِي سَمَاءِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَجَرَتْ أَنْهَارُ الْاِخْتِيَارِ مِنْ عَنَاصِرِ الْقُدْرَةِ الْقَاهِرَةِ
الدَّامِغَةِ، بِخَلْقَةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَلِيقَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٧].
وينشد:

ضِدَّانٍ قَدْ نَظَرْتَ الشَّتَاتُ إِلَيْهِمَا	فَتَفَرَّقَا مِنْ غُنْصُرِ الْإِبْدَاءِ
هَذَا لِقُرْبِ النَّارِ فَارَقَ طَبْعُهُ	فَسَمَا بِخَلْقَتِهِ عَلَى الْجَوَزَاءِ
وَالضُّدُّ أَصْبَحَ مِنْ تَرَابِ خَلْقِهِ	وَالتُّرْبُ مَادَّتُهُ مِنَ الظُّلْمَاءِ
لَكِنْ فِي طَبْعِ التُّرَابِ بُرُودُهُ	نَبَعَتْ عَنَاصِرُهَا بِعَذْبِ الْمَاءِ
قُلْ كَيْفَ اجْتَمَعَا مَعًا وَعَلَيْهِمَا	مُغْرٍ يَقُودُهُمَا إِلَى الْإِغْرَاءِ
مَاءٌ وَنَارٌ غَادِيَانِ كِلَاهُمَا	بِعِنَايَةِ وَإِرَادَةِ وَقَضَاءِ

أَطْلَقَ إِبْلِيسُ فِي جَلْبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَنَانَ الْقُرْبِ وَجَرَّرَ فِي بَسَاطِ الْإِنْسَاطِ دَيْلَ
الْعُجْبِ، سَمَتْ بِهِ الْهَمَّةُ النَّارِيَّةُ بِوَاسِطَةِ الْمَعْرِفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، ضُمِّرَتْ خِيُولُ عِبَادَتِهِ
مِنَ الْكِبَرِ وَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. شعر:

وَصَلَّتْ سُلَيْمَى وَالْوِصَالُ شِعَارُهَا وَفَشَتْ بِصِدْقٍ وَدَادِهَا أَسْرَارُهَا

مَا كَانَ أَحْسَنَهَا تَجَرُّ ذَيْلُهَا تَيْهًا وَقَدْ سَتَرَ النُّصَيْفُ إِزْرَارَهَا
 ضَحِكَتْ غِمَامٌ غَيْثِ الْقُدْرَةِ بِإِظْهَارِ الْوُجُودِ، أَشْرَقَتْ فِي سَمَاءِ الْحِكْمَةِ شَمْسُ
 الْعَزِيمَةِ وَالْمَقْصُودِ، رُمِيَ عَنْ قَوْسِ الْعَدَمِ سَهْمُ الْإِصَابَةِ فِي ذَوِي الْأَجْسَامِ الشَّرِيفَةِ،
 وَالْأَرْوَاحِ اللَّطِيفَةِ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، خَفَقَتْ أَجْنَحُهُ
 إِبْلِيسَ عَنْ مَتْنِ الْهَوَى، غَلَبَ قَاضِي شَهْوَتِهِ الْعَرِيزِيَّةِ عَلَى خَصْمِ الْهَدَى، طَمَأَ بَحْرُ عَيْهِ
 لَمَّا اجْتَمَعَتْ لَهُ الْأَهْوَاءُ هَوَى، سُبِكَ فِي بُوْطَةِ الْإِنْدَاعِ ذَهَبَ مِرْآةَ أَجْرَامِ الْبَشَرِيَّةِ،
 نَادَى مُنَادِي التَّبْيَانِ فِي عَالَمِ الْبَيَانِ فِي الْعَصْرِ الْعَاكِرِ الَّذِي تَقَادَمَ إِلَيَّ يَا مَعَاشِرَ
 الْمَلَائِكَةِ ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: الآية ٣٤] قَدَحَ زِنَادُ عَجَبِ إِبْلِيسَ نَارَ مَوْجِ شَهْوَتِهِ
 الْعَرِيزِيَّةِ أَظْلَمَتْ كَوَاكِبُ قَبُولِهِ بِمَوَادِّ الْعِلَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ، قَالَ أَنَا فَوْقَ فِي الْعَنَاءِ . وَيَنْشُدُ:

تَطَالِعُنِي خِبَالَاتُ لِسْلَمَى كَمَا يَتَطَلَّعُ الدِّينَ الْغَرِيمُ
 الْأَحْظَهَا فَتَعَلَّمْ مَا بِقَلْبِي وَتَلَحَّظْنِي فَأَعْلَمْ مَا تَرُومُ

يَا هَذَا كُنْتَ تَرَعَى حُبَّنَا، وَتُؤَثِّرُ الْقُرْبَ مِنَّا، فَمَا هَذَا الصَّبْرُ الَّذِي عَافَكَ
 عَنَّا؟ كُنْتَ تَسْتَطِيبُ رِيَّاحَ الْأَسْحَارِ وَمَا تَغَيَّرَ الْمَهَبُ وَلَكِنْ دَخَلَ فَصْلَ بَرْدِ
 الْفُتُورِ وَلَمْ تَحْتَرِزْ فَأَصَابَكَ زُكَامُ الْكَسَلِ، كُنْتَ فِي رَعِيلِ الْأَوَّلِ فَمَا الَّذِي
 رَدَّكَ إِلَى السَّاقَةِ، قِفِ الْآنَ عَلَى جَادَةِ التَّأْسُفِ، وَالزَّمِ الْبُكَاءَ عَلَى التَّخَلُّفِ
 فَأَحَقُّ النَّاسِ بِالْأَسَى مَنْ خُصَّ بِالتَّعْوِيقِ دُونَ الرُّفْقَاءِ، يَا مَعَاشِرَ الْعُلَمَاءِ كَمْ
 قَدْ كَتَبْتُمْ وَدَرَسْتُمْ، ثُمَّ إِنَّ طَلَبَكُمْ الْعِلْمَ فِي بَيْتِ الْعَمَلِ فَلَسْتُمْ لَوْ نَاقَشْكُمْ
 الْإِخْلَاصُ لَأَفْلَسْتُمْ شَجَرَةَ الْإِخْلَاصِ أَصْلُهَا ثَابِتٌ لَا يَغْرُهَا زَعْزَعُ أَيْنِ
 شُرَكَائِي، وَأَمَّا شَجَرَةُ الرِّيَاءِ فَاجْتَثَّتْ عِنْدَ نَسِيمِ ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ [الصافات: الآية ٢٤]
 وَآسَفًا مَا أَكْثَرَ الزُّورَ . شعر:

وَمَا كُلُّ مَا أَوْمَى إِلَى الْعِزِّ نَالَهُ وَدُونَ الْعُلَى ضَرْبٌ يُدْمِي النَّوَاصِيَا
 أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَإِذَا نِسَاءُ الْحَيِّ غَيْرُ نِسَائِهَا

لَيْسَ كُلُّ مُسْتَدِيرٍ هَلَالًا يَا مَعَاشِرَ الْعُلَمَاءِ، أَتَفْنَعُونَ مِنَ الصِّفَاتِ بِالْأَسْمَاءِ؟
 أَتُؤَثِّرُونَ الْأَرْضَ عَلَى الْأَسْمَاءِ؟ أَفِي السُّكْرِ أَنْتُمْ أَمْ فِي الْإِغْمَاءِ؟ أَتُغْمِضُونَ
 الْعُيُونَ مِنْ غَيْرِ كَرَى النُّومِ تَنَامُونَ، فَمَنْ يَحْمِلُ السُّرَى؟ أَتَحْلُونَ عَقْدَ أَنَّ اللَّهَ

اشْتَرَى؟ كَمْ حَوْلَ مَعْرُوفٍ مِنْ دَفِينٍ ذَهَبَ اسْمُهُ كَمَا ذَهَبَ رَسْمُهُ وَمَعْرُوفٌ مَعْرُوفٌ. وينشد:

لَعَلَّ الْيَوْمَ إِنْ أَجْرَيْتَ دَمْعًا عَلَى الْوَجَنَاتِ مِنْ أَلَمِ الْخَطَايَا
يَجُودُ عَلَيْكَ بِالْغُفْرَانِ مَوْلى كَثِيرُ الْعَفْوِ مُتَّسِعُ الْعَطَايَا

يَا نَازِلًا بِوَادِ الْهَوَىٰ انْزِلْ سَاعَةً بِوَادِ الْفِكْرِ يُخْبِرُكَ بِأَنَّ اللَّذَّةَ قَصِيرَةٌ،
وَاعْجَبًا لِمَنْ يَشْتَرِي شَهْوَةً سَاعَةً بِغَمٍّ الْأَبَدِ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ لَا كَانَتْ، فَكَمْ ذَلَّتْ
بَعْدَهَا النَّفْسُ، وَكَمْ تَصَاعَدَ لِأَجْلِهَا النَّفْسُ، وَكَمْ جَرَى لِتَذْكَارِهَا دَمْعٌ.

وعظ:

لَقَدْ وَعَظَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ بِنَدَا التَّذْكَارِ عَلَيْكُمْ وَيُعِيدُ غَيْرَ أَنَّ الْفَهْمَ بَعِيدٌ وَمَعَ
هَذَا قَدْ سَبَقَ الْعَذَابُ التَّهْدِيدُ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥]، إِنَّ
فِي الْقُرْآنِ مَا يُلَيِّنُ الْجَلَامِيدَ، وَكَمْ أَخْبَرَكَ بِإِهْلَاكِ الْمُلُوكِ الصَّعِيدِ وَأَعْلَمَكَ بِأَنَّ
الْمَوْتَ بِالْبَابِ وَالْوَصِيدُ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

إِنَّ مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ تُذِيبُ الْحَدِيدَ، وَالْمَفْهُومُ كُلُّ لَحْظَةٍ زَجْرٌ وَتَهْدِيدٌ وَتَوْيِخٌ
جَدِيدٌ وَلِلْقُلُوبِ النِّيْرَةِ كُلِّ يَوْمٍ بِهِ عَيْدٌ، غَيْرَ أَنَّ الْعَافِلَ يَلْهُو وَلَا يَسْتَفِيدُ ﴿فَذَكِّرْ
بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

أَمَّا الْمَوْتُ لِلْخَلَائِقِ مُبِيدٌ؟ أَمَّا تَرَاهُمْ قَدْ مَزَقَهُمْ فِي الْبَيْدِ؟ أَمَّا دَاسَهُمْ
بِالْهَلَاكِ دَوْسَ الْحَصِيدِ؟ لَا بِالْبَسِيطِ يَنْتَهُونَ، وَلَا بِالنَّشِيدِ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدِ﴾.

أَيْنَ مَنْ كَانَ لَا يَنْظُرُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ؟ أَيْنَ مَنْ أَبْصَرَ الْغَيْرَ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِعَيْنَيْهِ؟ أَيْنَ مَنْ
بَارَزَ بِالذُّنُوبِ الْمَطْلَعِ عَلَيْهِ؟ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦]. أَيْنَ مَنْ كَانَ
يَتَحَرَّكُ فِي أَغْرَاضِهِ وَيَمِيدُ وَيَغْرِسُ الْجَنَانَ ﴿لَمَّا طَلَعُ نَصِيدٌ﴾ [ق: الآية ١٠]، وَيُعْجِبُهُ
هَتَافُ الْوَرَقِ عَلَى الْوَرَقِ بِتَغْرِيدٍ، كَانَ قَرِيبًا فَهُوَ الْيَوْمَ بَعِيدٌ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ
يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥].

أَحْضِرُوا قُلُوبَكُمْ فَإِلَى كَمْ تَفْنُونَ؟ يَا مَعْشَرَ الشُّيُوخِ فِي عَقْلِ الْوَرِيدِ، أَمَّا مِنْكُمْ مَنْ يَذْكُرُ أَنَّهُ فِي قَبْرِهِ وَحِيدٌ؟ أَفِيكُمْ مَنْ يَتَصَوَّرُ تَمْزِيْقَهُ وَالتَّشْرِيدُ؟ غَدًا يَبِيعُ أَثَاثَ الْبَيْتِ فَمَنْ يَزِيدُ غَدًا يَتَصَرَّفُ الْوَارِثُ كَمَا يُرِيدُ. غَدًا يَسْتَوِي فِي بَطْنِ الْأَرْضِ الْفَقِيرُ وَالْعَمِيدُ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥].

يَا قَوْمِ سَتَقَوْمُونَ لِلْمُبْدِئِ الْمُعِيدِ، يَا قَوْمِ سَتَحَاسِبُونَ عَلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، يَا قَوْمِ الْمَقْصُودُ كُلُّهُ بَيْتُ الْقَصِيدِ ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: الآية ١٠٥].

فَلَمَّا أَنْ أَوَانَ إِظْهَارِ آثَارِ صَفَاءِ صَدْفَةِ آدَمَ مِنْ بَحْرِ الْعَدَمِ غَاصَ غَوَاصُ الْقَدَرِ فَجَذَبَهَا بِيْدِ الْإِرَادَةِ جَعَلَهَا عَلَى سَاحَةِ سَاحِلِ صَرْحِ الْوُجُودِ فَنَضَبَهَا قِبْلَةً لِلْسُّجُودِ.

غَيْرَ أَنَّ اللَّعِينَ إِبْلِيسَ قِيلَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ مِنَ السُّجُودِ؟ أَخْرَجَ فِرْزَانَ الْمُخَالَفَةَ مِنْ زَاوِيَةِ الْوُرُودِ، حَرَكَ شَاةَ الْمَشِيَّةِ فِي بَيْتِ فَرَسٍ فِرَاسَتِهِ، طَرَدَ مِنْ سَاعَتِهِ، قَالَ لِحَوَاءَ بِلِسَانِ النَّصِيحَةِ يَرُومُ الْفَضِيحَةَ: ﴿مَا نَهَكْنَا رِكْبًا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠]، كَانَ آدَمُ مَشْغُولًا بِالْمُرَاقَبَةِ، وَحَوَاءَ مَعَ إِبْلِيسَ فِي الْمُعَاتَبَةِ جَاءَتْ لآدَمَ مِنْهَا بِحَبَّةٍ سُلِبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَحَبَّةُ، نَادَتْهُ الْأَشْجَارُ وَالْأَوْرَاقُ؛ يَا آدَمُ خَسِرْتَ بِرَّةَ الْمَلْعُونِ إِبْلِيسَ، كُتِبَ عَلَى جَبِينِهِ بِقَلَمِ التَّدْلِيسِ مَا لَكَ يَا مَلْعُونُ يَوْمَ الْأُنْسِ مِنَ الْأُنْسِ عِنْدَ اللَّعِينِ إِبْلِيسَ بِقَوْلِهِ: مَا مَنَعَكَ لِلْسُّجُودِ مِنَ الْأُنْسِ؟ نَظَرَ إِلَى إِشْرَاقِ إِحْرَاقِ النَّارِ، قَالَ: بِهِذَا يُحْرَقُ الْفُجَّارُ، وَلِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ سَطْوَةٌ الْاِفْتِخَارِ، فَإِنَّ هَذَا الَّذِي أَمَرْتَنِي بِالسُّجُودِ لَهُ بَرَزْتُ لَهُ فِي أَوَّلِ الدَّسِثِ ضَرْبَتُهُ شَاهَ مَاتَ أَخْرَجْتُهُ مِنْ دَارِ الْكَرَامَاتِ. قِيلَ لَهُ: يَا مَلْعُونُ سَوْفَ تَبْلُغُهُ التَّوْبَةُ وَتَأْتِيهِ دُخُ التَّوْبَةِ، وَتَسْمَعُ النَّدَاءَ بِمَا يَكْتُبُ الْأَعْدَاءُ ﴿ثُمَّ أَجَبْنَاهُ رَبُّهُ فَابَّ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: الآية ١٢٢]، خَرَجَ لَهُ مِنْ وَتَرِ قَوْسِ الْقُدْرَةِ سَهْمٌ أَشْعَلَهُ نِيرَانًا وَشَهَبًا وَلَّى الْمَلْعُونُ هَرَبًا تَعَبًا. وَيَنْشُدُ شِعْرًا:

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ يَا مَوْلَايَ تَجْفُونِي	وَلَا تُوَاصِلُ مَنْ أَضْحَى بِهَا دُونِي
أَلَسْتُ مِنْ نَارٍ نُوْرُ النَّارِ كُنْتُ أَنَا	سَوِّتَنِي وَهُوَ حَقًّا كَانَ مِنْ طِينِ
لَا عِبْتُهُ مُوْثِقًا أَنْ لَيْسَ تَغْلِبُنِي	وَكُنْتُ أَلْعَبُ مِنْهُ فِي الْأَحَابِينِ
وَقُلْ قَدْ مَاتَ شَاهُ الْخَصْمِ حِينَ بَدَا	قِيلَ الْهَوَى وَهُوَ بِالْفِرْزَانِ يُغْرِنِي

فَعَادَ شَاهِي لِسُومِي بَيْنَ رُحَيْهِ وَقَدْ تَعَقَّدَ دَسْتِي بِالْفَرَازِينِ
 جَهِلْتُ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنْ مُوَاصَلَةٍ وَقَدْ فَعَلْتُ بِنَفْسِي فِعْلَ مَغْبُونٍ
 مَنْ كَانَ مِثْلِي فَلَا يَغْتَرُّ فَاغْتَبِرُوا فَقَدْ خَرَجْتُ بِلَا دُنْيَا وَلَا دِينَ
 أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الدَّهْرَ أَدَارَ رُحَى الْمُنُونِ عَلَى مَنْ سَلَفَ، وَسَيُورِدُ
 مَوَارِدَهُمْ عَلَى مَنْ خَلَفَ، حَتَّى يُلْحِقَ بَعْضًا بِبَعْضٍ وَإِبْرَامًا بِنَقْضٍ، وَرَفْعًا
 بِخَفْضٍ، وَيُخْلِي مِنْكُمْ جَدِيدَ الْأَرْضِ حَتَّمَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى سَابِقًا فِي أَفْضَيْتِهِ،
 وَتَفَرَّدًا بِالْبَقَاءِ دُونَ بَرِيَّتِهِ، فَيَا رَجُلُ وَالْخَطَابُ لِلْجَمَاعَةِ وَاقِعٌ، يَدْخُلُ فِيهِ
 الْوَاعِظُ وَالسَّامِعُ، مَاذَا تَزَوَّدْتَ مِنْ عُمْرِكَ الذَّاهِبِ الْمُضْمَحِلِّ؟ أَمْ مَاذَا أَعَدَدْتَ
 لِأَجَلِكَ الْمُطْلَقِ كَأَنَّكَ بِغِطَائِكَ قَدْ كُشِفَ، وَبِرُوحِكَ قَدْ اخْتُطِفَ فَبَعُدْتَ وَإِنْ
 حَلَلْتَ قَرِيبًا وَجُفِيتَ فَإِنْ كُنْتَ حَبِيبًا مُسْلِمًا لَطُولُ الْبَلَى، مُتَغَيِّرَةٌ مِنْكَ
 الْمَحَاسِنُ وَالْحُلِيِّ حَاضِرًا كَغَائِبٍ، مُسَافِرًا غَيْرَ آيِبٍ هُنَالِكَ تَكْشِفُ السَّاعَةُ
 قِنَاعَهَا وَتَكْشِفُ الطَّاعَةَ أَتْبَاعَهَا، وَيَحِقُّ النَّدَمُ بِمَنْ أَضَاعَهَا وَلَا يُجَابُ إِلَى
 الْإِقَالَةِ مَنْ بَاعَهَا، فَشَمِّرُوا لِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ أَيُّهَا الْمُقْصِرُونَ، وَاعْتَنِمُوا مِنْ
 أُمُورِكُمْ مَا تُقَدِّمُونَ، ﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ ١٠٢]، فَإِنَّ
 الْأَمْرَ وَاللَّهَ أَعْظَمَ مِمَّا تَتَوَهَّمُونَ ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: الْآيَةُ ٦٧]،
 عَمَرَ اللَّهُ قُلُوبَنَا وَقُلُوبَكُمْ بِذِكْرِ الْمَرَدِّ إِلَيْهِ، وَوَفَّقَنَا وَإِيَّاكُمْ لِلْعَمَلِ بِمَا يُزِلُّ لَدَيْهِ
 وَجَعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ، الْوَجِلِينَ مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَحْلَنَّا
 وَإِيَّاكُمْ دَارَ الْكَرَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، إِنَّ أَشَقَى الدَّوَاءِ لِدَاءُ الصُّمَائِرِ، وَأَجْلَى الْجَلَائِلِ
 لَصَدِّ الْبَصَائِرِ، كَلَامُ الْعَالِمِ بِخَفِيِّ السَّرَائِرِ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ
 إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُفِذَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ
 يَسْأَلُونَكَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ: الْآيَةُ ١٨٧]. وينشد:

نَزَلَ الْمَشِيبُ بِلَمَّتِي وَمَفَارِقِي هَذَا الْقَرِينُ أَرَاهُ غَيْرَ مُفَارِقِي
 رَحَلَ الشَّبَابُ فَقُلْتُ قِفْ لِي سَاعَةٌ حَتَّىٰ أُودِّعَ قَالَ إِنَّكَ لَأَحِقِّي

لَمَّا اضْطَفَقَ مَوْجُ بَحْرِ الْقَدَرِ عِنْدَ هُبُوطِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ لِلْأَمْرِ الْمُقَدَّرِ فَجَمَعَ
 بَيْنَهُمَا وَادٍ مُمَرِّغٌ أَخْضَرَ، فَقَالَ آدَمُ: يَا إِبْلِيسُ، أَمَا كُنْتَ مُقَدِّمَ أَشْخَاصِ الْمَلَائِكَةِ

فِي جَوَامِعِ حَظَائِرِ الْقُدْسِ فِي الصَّفْحِ الْأَعْلَى وَشَيْخَ دُوَيْرَةِ الْعَارِفِينَ مِنْ أَشْخَاصِ
الضِّيَاءِ، وَامَامَ الْمَلَائِكَةِ فِي جَوَامِعِ حَظَائِرِ الْقُدْسِ الْأَشْرَفِ، تَبَسَّطَ سَجَادَتَكَ بَيْنَ
يَدَيِ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، وَتَنْظَرُ بِثَاقِبِ نَظَرِكَ إِلَى تُحُومِ الْعَرْشِ، السَّمَاءِ بَحْرٍ وَأَنْتَ
دُرَّتُهُ وَالْفَلَكَ عَقْدٌ وَأَنْتَ وَاسِطَتُهُ، أَزْمَانُكَ كُلُّهَا سَعِيدُ الظَّلَالِ، وَفُرُبُكَ لَا يُكَدِّرُهُ
بِعَادٌ، فَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى إِغْوَائِي حَتَّى ضَرَبْتَ ظَهَرَ مَعْصِيَتِي بِسَوْطٍ ﴿مَا نَهَكْنَا
رَبِّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠] حَتَّى زَلَّتْ قَدَمِي وَسُلِبْتُ تَقْدُمِي،
وَسَقَطَ تَاجُ شَرَفِي عَنْ مَفْرِقِي ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْلَفُ أَهْلِهِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٣] فَانْحَلْتُ
مِنْطَقَةَ كَرَامَتِي مِنْ وَسْطِ عُلَايَ بِيَدِ ﴿فَدَلَّهُمَا يَغْوَرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٢].

وَيَحْكُ يَا إِبْلِيسُ، يَا كَثِيرَ التَّدْلِيسِ أَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَدَاوَةٌ أَثَارَهَا الْحَقْدُ
مِنْكَ عَلَيَّ، أَوْ فَوَارِطُ زَلَلٍ أَوْجَبَتْ أَنْ تُسَيِّءَ بِهَا إِلَيَّ، مَا الْإِسَاءَةُ بِغَيْرِ جُرْمٍ إِلَّا
مِنْ أَمَارَةِ الشُّؤْمِ. أَمَا عَادَ شَوْمُ فِعْلِكَ إِلَيْكَ؟ أَمَا اخْتَلَطَتْ مَعْنَا فِي سَبْلِكَ ﴿أَهْطَا
مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: الآية ١٢٣] وَضُرِبَ عَلَى وَجْهِ دِينَارِكَ بِسِكِّةٍ ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
[البقرة: الآية ٣٤] أُمِرْتُ بِسَجْدَةٍ وَاحِدَةٍ فَعَصَيْتُ وَخَرَجْتُ مِنْ خِطَّةِ الْعِبُودِيَّةِ
وَتَعَدَّيْتُ، فَهَلَّا جَعَلْتَهَا قَطْرَةً مِنْ قَطَرَاتِ عِبَادَتِكَ، أَوْ نُقْطَةً مِنْ بِحَارِ طَاعَتِكَ،
وَسَأَلَمْتُ الْحُدُودَ، وَدَخَلْتُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي دَائِرَةِ السُّجُودِ، فَقَالَ إِبْلِيسُ: يَا آدَمُ
أَطَلْتَ الْمَقَالَ، وَأَكْثَرْتَ الْجِدَالَ، الْكَلَامُ فِي الْفَائِتِ شَمْعٌ فِي شَمْسٍ، وَطَلَبُ
مُعَارَضَةٍ مَا لَا يُمَكِّنُ خَوْرٌ فِي الطَّيِّعَةِ، وَمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مُسْتَضْعَبُ الدَّوَاءِ، فَإِذَا نَزَلَ
الْحَيْنُ عَمِيَّتِ الْعَيْنُ، وَمَعَ نُزُولِ الْقَضَاءِ يَضِيقُ الْقَضَاءُ، وَلِلْمُقَادِيرِ أَسْبَابُ تَخْرُقُ
الْمُعْتَادَ، وَلِلْقَضَاءِ أُمُورٌ يَتَخَيَّرُ فِيهَا الْعِبَادُ، فَلَوْ أُمَكَّنَنِي أَنْ أَجَابَ رَبِّي حِينَ قَالَ:
﴿مَا مَنَعَكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] لَقُلْتُ: أَنْتَ يَوْمَ أَوْحَيْتَ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْقَالِينَ﴾ [ص: الآية ٧٥]. أَنَا جَوْهَرِي النَّارِ، وَأَنْتَ عَنِ الْحَمَلِ الْمَسْنُونِ جَوَاهِرُ
وُجُودِكَ نَشَأَتْ بَعْدَ وُجُودِي لَيْسَ لَكَ تَقْدُّمٌ طَاعَتِي وَلَا سَابِقُ عِبَادَتِي، أَنَا فِي
مَحَلِّ الشَّرَفِ لَمْ أَزَلْ وَأَنْتَ بَعْدَ الْكُونِ لَمْ تَكُنْ، وَلَمَّا هَبَّ نَسِيمُ وُجُودِكَ مِنْ
عَدَمٍ ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: الآية ٧١]. وَخَطَبُكَ بِذِكْرِكَ خَطِيبُ الْقَدْرِ
﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْلَفُ أَهْلِهِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٣]، حَكَمْتُ ذَهَبَ حَالِكَ فِي مَحَكِّ
عَقْلِي، وَجَعَلْتُهُ فِي نَارِ الْاِخْتِبَارِ فِي كَيْبَرِ فَضْلِي فَتَبَهَّرَجَ ذَهَبُ ذَاتِكَ عِنْدِي،

وَرَأَيْتُكَ فِي صُورَةِ عَبْدِي فَقُلْتُ: لَا تَقْضِي الْحِكْمَةَ بِسُجُودِ الْأَعَزِّ لِلْأَذَلِّ، وَلَمْ أَعْلَمْ مَا سَتَرَ الْغَيْبُ مِنْكَ وَمِنِّي، فَدَعَنِي مِنْ كَثْرَةِ الْأَعَالِيطِ قَضِيَّةُ قَاضٍ أَوْجَبَتْ هِدَايَتَكَ وَإِضْلَالِي، فَمَا لَكَ وَمَا لِي وَلِهَذَا الْمَقَالِ ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: الآية ١١]، ختم الله لنا ولكم بخواتم الصَّالِحِينَ، وَغَفَرَ لَنَا وَلَكُمْ وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ السَّابِعُ في قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحَمْدُ لله القَوِيّ المَتِينِ، القَاهِرِ الظَّاهِرِ المُبِينِ، لا يَعْزُبُ عَنْ سَمْعِهِ أَقْلٌ
الْأَنِينِ، ولا يَخْفَى عَلَى بَصَرِهِ حَرَكَاتُ الْجَنِينِ لِكِبْرِيائِهِ، خَضَعَتْ جَبَابِرُهُ
السَّلَاطِينِ، وَقَلَّ عِنْدَ دِفَاعِهِ كَيْدُ الشَّيَاطِينِ، قَضَى قَضَاءَهُ كَمَا شَاءَ عَلَى
الْحَاطِطِينَ، وَسَبَقَ اخْتِيَارُهُ لَمَّا اخْتَارَ الْمَاءَ وَالطِّينَ، فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الشُّمَالِ وَهَؤُلَاءِ
أَهْلُ الْيَمِينِ، أَجْرَى الْقَدَرَ عَلَى عَمَلِ الْعَامِلِينَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ [الأنبياء: الآية ٥١].

أَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَأَسْأَلُهُ مَعُونَةَ الصَّابِرِينَ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ
المَقْدَمِ عَلَى النَّبِيِّينَ، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَوَّلِ مُتَابِعٍ لَهُ عَلَى الدِّينِ، وَعَلَى الْفَارُوقِ
القَوِيّ الْأَمِينِ، وَعَلَى عُثْمَانَ زَوْجِ ابْنَتَيْهِ وَنِعَمِ الْقَرِينِ، وَعَلَى عَلِيِّ الْفَارِسِ
الْأَنْزَعِ الْبَطِينِ، وَعَلَى عَمِّهِ ذِي الْفَخْرِ الْقَوِيمِ وَالنَّسَبِ الرَّصِينِ، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٢﴾، وَهُوَ
إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِحَ بْنِ نَاحُورَ بْنِ سَارُوعَ بْنِ أَرْعُوبَ بْنِ لُوى بْنِ قَالِغَ بْنِ غَابِرَ بْنِ
شَالِحَ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ، وَاسْمُ أُمِّهِ مُونا بِنْتُ كَرِينَا بْنِ كُوْثِي مِنْ
بَنِي أَرْفَخْشَدَ، وَكَرِينَا هُوَ الَّذِي أَجْرَى نَهْرَ كُونا، وَكَانَ بَيْنَ الطُّوفَانِ وَمَوْلُودِ
إِبْرَاهِيمَ أَلْفُ سَنَةٍ وَتِسْعٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، وَقِيلَ: أَلْفُ سَنَةٍ وَمِائَتَانِ وَثَلَاثُ
وَسِتُّونَ سَنَةً، وَذَلِكَ بَعْدَ خَلْقِ آدَمَ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ وَثَلَاثِ مِائَةٍ وَسَبْعٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً.

وكانت الكهنة قد حذرت التمرود وجود مخاليف غالب ففرق بين الرجال والنساء فحمل بالخليل على رغم أنف اجتهداه، ونفذ مراد الحاكم الحكيم قبل مراده، فلما خاض المخاض في خضم أم إبراهيم، جعلت بين خوف الأمن، وحيز التحير تهيم فوضعت في نهر قد يس، وسترت بالخلاء ليلتبس، وكانت تختلف إليه لرضاعه وقد سبقها رضاع ﴿٥١﴾ [الأنبياء: الآية ٥١]، فتجده يمص إبهامه، وجعل الله رزقه فيها، فسألها أبوه أزر عن حملها فأخبرته فأتاه فحفر له سرباً وسد عليه بصخرة فكانت تختلف إلى رضاعه، فلما تكلم قال لأمه: من ربي؟ قالت: أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت: أسكت، فسكت. فرجعت إلى زوجها، وقالت: إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغير دين أهل الأرض هو ابنتك. فأتاه، فقال له مثل ذلك، ثم دنا بالليل إلى باب السرب فرأى كوكباً.

قال ابن عباس: هو الزهرة. وقال مجاهد: هو المشتري. أراد إبراهيم قبل اتصال المعرفة الربانية بقلبه أن يجعل كوكب الشعري مقصداً لعبادة ربه وقربه، هيئت أفكاره إذا شاهد الصنعة الحكيمية في بحر زاخر أخبرته نفسه أن لا بد لها من موجد قادر شرب من خمر الخبرة كأساً دهاقا. ضرب ضارب الليل على النهار من مثلهم غيبه رواقاً بدت في مجراها الشعري وهي تضيء.

قال إبراهيم بلسان الامتحان: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] سل عليها يد الأفول صارم الحمول فقطع منها اليمين، ﴿قَالَ لَا أُجِبُ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦]، برز في ميدان الكفاح وزير الكواكب لإظلام شعلة نار الحرب، أبرز بذر كأنه في سماء كماله ملتجفاً بمروط السرب، نشرت أشعة واصله سحابة الفراق، تغير وجه قبوله من الكرب، أعرض للأفول فأسرع يركض في وسط المجرة ويجد سيره إلى المغرب، لاح المقصود بالشاهد المبين وحر على الجبين. قال إبراهيم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٧].

لَا حَتَّ شَمْسُ النَّهَارِ تَرْفُلُ مِنْ تَحْتِ ظِلَّةِ الظَّلَامِ أَشْرَقَتْ بِهَا الْأَرْضُ
وَنُفُوسُ الْأَنَامِ أَقْبَلَتْ فِي حُلَلِ شِعَاعِهَا مُسْفِرَةً عَنْ وَجْهِهَا تَعْتُرُ فِي ذَيْلِ الْعُجْبِ
وَتَبَسَّمَ أَيَّ ابْتِسَامٍ عَادَ غَيْهَبُ اللَّيْلِ بِنُورِهَا يَزْهَرُ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: الآية ٧٨]، رَكَضَ جَوَادُ جِرْمِهَا
فِي وَسْطِ فَلَكِهِ رَكُضًا أَعْرَضَ عَنْ مُصَاحَبَةِ نُورِهِ لِفَقْدِ مَأْلُوفِهِ عَرْضًا نَادَتْهُ غِرْبَانُ
الْأَقْوَالِ بِلُغَاتِ الشَّتَاتِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩]. وينشد:

عُذِلْتُ وَلَمْ أَضْغِ إِلَى عَذَلٍ عَاذِلٍ	وَحَسْبُكَ أَنَّ الْعَذَلَ عِنْدَ الْهَوَى صَعْبُ
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْحُبِّ أَعَذِلُ أَهْلَهُ	فَهَا أَنَا فِيهِ الْيَوْمَ مُكْتَتِبٌ صَبُ
تَقُولُ الَّتِي قَادَتْ فُؤَادِي لِلْهَوَى	بِعَيْنِيكَ هَلْ يَبْقَى إِلَى عَاشِقٍ قَلْبُ
فَقُلْتُ لَهَا كُفِّي فَدَيْتُكَ فِي الْهَوَى	يَكُونُ لَهُ قَلْبٌ إِذَا وَسَّوسَ الْقَلْبُ
رَضِيتُ الْهَوَى دِينًا وَإِنْ تَلَفْتُ بِهِ	حُشَاشَةُ نَفْسِي أَوْ تَمَلَّكَهَا الْحُبُّ

نُودِي يَا إِبْرَاهِيمُ إِصْرِفْ بَصْرَكَ عَنِ النُّجُومِ فَالْحَقُّ مَعْلُومٌ يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا
السَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْكَوَاكِبُ الزَّاهِرَةُ إِلَّا مَوَاكِبُ تَشْهَدُ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ الْقَاهِرَةِ،
فَلَمَّا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ خَرَجَ فَرَأَى قَوْمَهُ فِي هَزَلٍ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا
عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزَّخْرَفُ: الآية ٢٣] فَجَدَّ لَهُمْ فَجَادَلَهُمْ فَجَدَلَهُمْ وَأَبْرَزَ نُورَ
شَمْسِ الْهُدَى فِي حُجَّةِ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَقَابَلَهُ نَمْرُودُ بِسَهَى السُّهُوِ
فِي ظَلَامٍ ﴿أَنَا أَتَى﴾ [البَقَرَةُ: الآية ٢٥٨]، فَأَلْقَاهُ الْخَلِيلُ كَاللَّقَا عَلَى عَجَزِ
الْعَجَزِ بِأَفَاتٍ ﴿فَأَتَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ﴾ [البَقَرَةُ: الآية ٢٥٨]، وَكَانَ أَبُوهُ
يَصْنَعُ الْأَصْنَامَ وَيَقُولُ لَهُ: بِعَهَا فَيَأْخُذُ الصَّنَمَ وَيَخْرُجُ وَيَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي مَا
يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، فَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ احْتِقَارُهُ بِالْأَصْنَامِ، وَجَعَلَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ:
﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٢]، أَي: يُقِيمُونَ عَلَى
عِبَادَتِهَا، فَخَرَجُوا يَوْمًا إِلَى عِيْدِهِمْ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَقَالَ: ﴿إِنِّي
سَقِيمٌ﴾ [الصفات: الآية ٨٩]، فَلَمَّا مَضُوا، قَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَأكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء:
الآية ٥٧]، وَالْكَيدُ اخْتِيَالُ الْكَائِدِ فِي ضُرِّ الْمَكِيدِ، وَأَرَادَ لَأَكْسِرَنَّهَا، فَسَمِعَ
الْكَلِمَةَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَفْشَاهَا عَلَيْهِ.

ثُمَّ دَخَلَ دَارَ الْفَرَاغِ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ، فَصُفَّتْ جُيُوشُ الْهُدَى وَعَزَمَ فَهَزَمَ
بِتَكْسِيرِ آلِهَتِهِمْ جُنُودَ الْهَوَى، فَكَانَتْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صَنَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ
وَنُحَاسٍ وَحَدِيدٍ وَخَشَبٍ فَكَسَرَهُمْ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: الآية ٥٨]، أَي:
فَتَاتًا، ثُمَّ جَعَلَ الْفَاسَ فِي عُنُقِ الصَّنَمِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ أَبْرَزَ الدَّلِيلَ عَلَى قُدْرَةِ
الصَّانِعِ بِعَجْزِ كَبِيرِهِمْ فَتَارَعُوا فِي رِءَاءِ الْكِبَرِيَاءِ، وَنَادَى مُنَادٍ الْإِرْشَادِ فِي نَادِي
الْفَسَادِ، فَصَمُّوا عَنِ النَّدَاءِ فَجَرَدُوهُ مِنْ بُرْدِ بَرْدِ الْعَدْلِ إِلَى حَرِّ ﴿حَرِّقُوهُ﴾
[الأنبياء: الآية ٦٨] فَبَنَوْا لِسَفْحِ دَمِهِ بُنْيَانًا إِلَى سَفْحِ جَبَلٍ فَاحْتَطَبُوا لَهُ عَلَى عَجَلِ
الْعَجَلِ، ثُمَّ وَضَعُوهُ فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيْقِ وَهُوَ ابْنُ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً فَاعْتَرَضَهُ
جَبْرِيلُ فِي عَرْضِ الطَّرِيقِ، فَنَادَاهُ وَهُوَ يَهُوْيُ فِي ذَلِكَ الْفَلَا: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟
قَالَ: أَمَا إِلَيْكَ فَلَا. شعر:

وَشَغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَى مَا كَانَ مِنْكُمْ وَحُبُّكُمْ شُغْلِي
وَأَمِيلُ نَحْوَ مُحَدَّثِي لَأَرَى أَنْ قَدْ فَهِمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي

فَسَبَقَ بَرِيدُ الْوَحْيِ إِلَى النَّارِ بِلِسَانِ التَّفْهِيمِ ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾
[الأنبياء: الآية ٦٩]، فَصَارَ النَّارُ جَنَّةً، وَالْإِسَ الْخَلِيلُ مِنَ الْعِصْمَةِ جَنَّةً، وَظَهَرَ الْخَرَقُ
لِلْخَلْقِ جَنَّةً.

وَرَوَى أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
عَشْرَ صَحَائِفَ»، فَقُلْتُ: مَا كَانَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «كَانَتْ امْتِثَالًا كُلُّهَا أَيُّهَا
الْمَلِكُ الْمُسْلَطُ الْمَغْرُورُ الْمُتَبَلَّى إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ،
وَلِكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتُرَدَّ عَنِّي دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، فَإِنِّي لَا أُرُدُّهَا وَإِنْ كَانَتْ، مِنْ كَافِرٍ وَكَانَ فِيهَا
عَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ سَاعَةً يَتَاجِي فِيهَا رَبُّهُ، وَسَاعَةً يَفْكَرُ
فِي صُنْعِ اللَّهِ، وَسَاعَةً يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةً يَخْلُقُ فِيهَا بِنَفْسِهِ مِنَ الْحَلَالِ».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَنَبَاهُ وَلَهُ
يَوْمَئِذٍ ثَلَاثُمِائَةِ عِبِيدٍ فَأَعْتَقَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَكَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَهُ بِالْعِصِيِّ فَاِبْتَلَاهُ اللَّهُ
بِالْكَلِمَاتِ فَاتَّمَهَّنَ. قَالَ: ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالطَّهَارَةِ خَمْسَ فِي الرَّأْسِ: قَصُّ الشَّارِبِ
وَالْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَالسَّوَاكُ، وَفَرَقُ الرَّأْسِ. وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ: تَقْلِيمُ
الْأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، وَتَنْفُ الْإِبْطِ، وَغَسْلُ أَثَرِ الْبَوْلِ، وَالْغَائِطُ بِالْمَاءِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اخْتَنَنَ إِبْرَاهِيمُ بِالْقُدُومِ»، وَالْقُدُومُ مَوْضِعٌ. وَكَانَ لَهُ يَوْمَ اخْتَنَنَ إِبْرَاهِيمَ مِائَةٌ وَتَمَانُونَ سَنَةً، وَقِيلَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَهُوَ اخْتَنَنَ نَفْسَهُ.

فَأَمَّا نَمْرُودُ فَإِنَّهُ بَقِيَ بَعْدَ إِلْقَاءِ الْخَلِيلِ فِي النَّارِ أَرْبَعُمِائَةَ عَامٍ لَا يَزِدَادُ إِلَّا عُتُورًا، فَعِنْدَ مَوْتِهِ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابًا مِنَ الْبُعُوضِ فَأَكَلَتْ لُحُومَ قَوْمِهِ وَشَرِبَ دِمَاءَهُمْ، وَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ بُعُوضَةً فَدَخَلَتْ فِي مَنْخَرِهِ، فَمَكَثَ يُضْرَبُ رَأْسُهُ بِالْمَطَارِقِ فَأَرْحَمَ النَّاسُ لَهُ مَنْ جَمَعَ يَدَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِمَا رَأْسَهُ فَعُدَّ بِذَلِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ.

فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَفَهُمَ وَدَرَى، وَنَظَرَ أُمُورَ الْخَلِيلِ وَمَا عَلَيْهِ جَرَى، هَذِهِ مَدَائِحُهُ كَمَا تَرَى، وَمَنْ صَابَرَ الْهَوَى رِيحَ وَاسْتَفَادَ، وَمَنْ عَقَلَ فَاتَهُ الْمُرَادُ. وينشد:

فُنيْتُ بِرُؤْيَاكُمْ عَنِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ فَأَوْجِبْتُ مُؤْلِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ حِسِّي
وَأَرْقَى إِلَى الْعُلْيَا أَرْوَمُ التَّفَاتَةِ فَخُوطِبْتُ مِنْ نَفْسِي إِلَى أَيْنَ نَفْسِي
إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى سَمَوْتُ بِهِمَّتِي فَأَقْنَى عَنِ الْأَكْوَانِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ

سُبْحَانَ مَنْ أَخْرَجَ هَذَا السَّيِّدَ مِنْ آزَرٍ، ثُمَّ أَعَانَهُ اللَّهُ بِالتَّوْفِيقِ فَعَصَدَ وَآزَرَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ الْمَتَابَ فَأَعَانَ وَآزَرَ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ قَدْ رَحَلَ عَنِ الْمَنْجِنِيقِ وَسَافَرَ وَلَمْ يَتَزَوَّدْ إِلَّا التَّسْلِيمَ، ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، عَبْدٌ تَرَكَ نَفْسَهُ لَنَا فَبَلَّغْنَاهُ الْمُنَى، وَعَلَّمْنَاهُ الْمَنَاسِكَ عِنْدَ الْبَيْتِ وَمِنَى، وَلَمَّا رُمِيَ فِي النَّارِ لِأَجْلِنَا، قُلْنَا لَهَا بِلِسَانِ التَّفْهِيمِ: ﴿يَنْتَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾.

قَدَّمَ مَالَهُ إِلَى الضُّيْفَانِ، وَسَلَّمْ وَلَدَهُ إِلَى الْقُرْبَانِ، وَاسْتَسَلَّمَ لِلرُّمَى فِي النَّيِّرَانِ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ مُجِبَّنَا فِي بَيْدَاءِ الْوَحْيِ يَهِيْمُ ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾.

ابْتَلَيْنَاهُ ﴿بِكَلْبَتٍ فَاتَمَّهْنُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤]، وَأَرَيْنَاهُ قُدْرَتَنَا يَوْمَ ﴿فَصُرْهَنْ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠]، وَكَسَّرَ الْأَصْنَامَ غَيْرَةً لَنَا مِنْهُمْ، فَلَمَّا أُجِّجَتِ النَّيِّرَانُ ذَهَبَتْ بِلُطْفِنَا حَرَارَتُهُنَّ، وَغَرَسْنَا شَجَرَةَ الْجَنَّةِ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩].

بَنَوْا لَهُ بُنْيَانًا فِي سَفْحِ الْجَبَلِ، وَاحْتَطَبَ لِأَجْلِهِ مَنْ شَرِبَ وَأَكَلَ، وَأَلْقَوْهُ فِيهَا، وَقَالُوا: قَدْ اشْتَعَلَ، فَخَرَجَ نَمْرُودُ يَنْظُرُ مَاذَا فَعَلَ، وَقَدْ خَرَجَ تَوْفِيعُ الْقَدَمِ مِنَ الْقَدِيمِ ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾.

قَابَلَ الْقَوْمَ نَبِيًّا بِأَفْبَحِ تَكْذِيبٍ، وَقَصَدُوا خَلِيلَنَا بِأَشَدِّ تَعْذِيبٍ، فَمَا شَكَ وَلَا شَكَى إِلَىٰ بَعِيدٍ وَلَا إِلَىٰ قَرِيبٍ، فَلَمَّا هَاجَ بِنَفْسِهِ وَصَبَرَ عَلَىٰ الْهَوْلِ الْعَظِيمِ، ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾.

أَمَّا اعْتَرَضَهُ وَتَعَرَّضَ لِحَوَائِجِهِ الْمَلِكُ حِينَ قَطَعَ بَيْدَاءَ الْهَوَىٰ وَسَلَكَ، فَقَالَ بِلِسَانِ الْحَالِ: مَعِيَ مَن مَلَكٌ، فَإِيَّاكَ وَالتَّعَرُّضَ لِمَا لَيْسَ لَكَ، فَلَمَّا لَمْ يَتَعَلَّقْ بِخَلْقِي دُونِي إِذْ ضَيِّمٌ، ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾.

تَعَرَّضَتْ بِهِ الْأَمْلاَكُ فَكَفَّهَا كَفًّا، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ لَا يَمُدُّ إِلَىٰ غَيْرِنَا كَفًّا مَدْحَنَاهُ، وَيَكْفِي فِي مَدْحِنَا الَّذِي وَقَا، وَاجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ يَنْظُرُونَ مَن صَفَا؟ فَلَمَّا أَتَانَا وَقَتَ الْقَلْبِ بِقَلْبِ سَلِيمٍ ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾.

تَنَحَّ يَا جَبْرِئِيلُ فَمَاذَا مَوْضِعُ الرَّحْمَةِ، وَخَلِّني وَخَلِيلِي فَإِلَيْهِ الرَّحْمَةُ، وَهَلْ بَذَلْتُ لَهُ إِلَّا لَحْمَةً تَبْلَىٰ أَوْ شَحْمَةً، فَلَمَّا أَنْ وَظَنَ نَفْسَهُ عَلَىٰ أَنْ يَصِيرَ فَحْمَةً وَحُوشِي مَن ذَاكَ ذَاكَ الْكَرِيمُ. ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾، كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تَدْعِي الْغِنَىٰ بِالطَّاعَةِ، فَخَرَجَ هَارُوثُ وَمَارُوثُ، فَخَسِرَتْ الْبِضَاعَةُ، وَشَاهَدُوا يَوْمَ الْخَلِيلِ مَا لَيْسَ لَهُمْ اسْتِطَاعَةٌ رَأَىٰ مَا رَأَىٰ وَلَا أَرْعَاهُ وَلَا رَاعَهُ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ لَنَا سَاكِنًا وَالْأَمْلاَكُ فِي مَقْعَدٍ مُّقِيمٍ: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِالْخَلِيلِ فِي مَنَزَلَتِهِ، وَالْحَبِيبِ فِي مَرَاتِبَتِهِ، وَبِكُلِّ مُخْلِصٍ فِي طَاعَتِهِ أَنْ تَغْفِرَ لِكُلِّ مَنَّا عَنْ زَلَّتِهِ، يَا حَلِيمُ يَا كَرِيمُ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المَجْلِسُ الثَّامِنُ

في بناءِ الكَعْبَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ، الْمُنَزَّهَ عَنِ النَّظِيرِ، وَالْعَدِيلِ الْمُنْعَمِ بِقَبُولِ الْقَلِيلِ الْمُكْرَمِ بِالطَّاعَةِ الْعَطَاءِ الْجَزِيلِ، تَقَدَّسَ عَمَّا يَقُولُ أَهْلُ التَّعْطِيلِ، وَتَعَظَّمَ عَمَّا يَعْتَقِدُ أَهْلُ التَّمْثِيلِ، بَعَثَ لِلْعَقْلِ عَلَى وُجُودِهِ أَوْضَحَ دَلِيلٍ، وَهَدَى إِلَى وُجُودِهِ أَبْيَنَ سَبِيلٍ، وَجَعَلَ لِلْمَجْدِ حَظًّا إِلَى مِثْلِهِ يَمِيلُ، وَأَمَرَ بِنَاءِ بَيْتٍ وَجَلَّ عَنِ السُّكْنَى الْجَلِيلُ ﴿وَإِذْ يَفْعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٧] لَمَّا قَصَدَهُ أَصْحَابُ الْفِيلِ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ [الفيل: الآيتان ٣، ٤].

أَحْمَدُهُ كَمَا نَطَقَ بِحَمْدِهِ وَقِيلَ، وَأُصْلِيَ عَلَى رَسُولِهِ النَّبِيِّ النَّبِيلِ وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ الَّذِي يُبْغِضُهُ إِلَّا كُلُّ ثَقِيلٍ، وَعَلَى عُمَرَ وَفَضْلِهِ طَوِيلٌ، وَعَلَى عُثْمَانَ وَكَمٍ لَهُ مِنْ فِعْلٍ جَمِيلٍ، وَعَلَى عَلِيٍّ وَجَحْدُ قَدْرِهِ تَغْفِيلٌ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الْمُسْتَسْقَى بِشَيْئَتِهِ فَإِذَا الشُّعْبُ تَسِيلٌ.

قال الله العظيم: ﴿وَإِذْ يَفْعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٧] لَمَّا عَلَا كَعْبُ الْكَعْبَةِ عَلَى سَائِرِ الْبِقَاعِ بِقَاعِ الْعَلَمِ أَبْرَزَتْهَا كَفُّ الْإِيجَادِ كَالْكَاعِبِ قَبْلَ وُجُودِ الْأَرْضِ، فَكَانَ آدَمُ أَوَّلَ مَنْ سَاسَ الْأَسَاسَ ثُمَّ بَيْتٌ لِلْبَيْتِ الْبَيَّاتُ، فَلَمَّا آنَ طَوَافُ الطُّوفَانِ فَحَلَّ مَا حَلَّ بِحُلَّتِهِ أَزْرَارَ حُلِّ الْحُلِّ، فَلَمَّا هَاجَرَ الْخَلِيلُ بِهَا جَرَ وَابْنَهَا أَوْضَعَ بِهِمَا فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَلَّى رَاضِيًا بِمَنْ تَوَلَّاهُ

أَمَرَنِي بِأَمْرِ. قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ. قَالَ: أَوْ تُعِينُنِي وَأُعِينُكَ؟ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. وَحَارَ إِذْ لَمْ يَعْلَمْ مُرَادَ الْأَمْرِ، فَإِذَا سَحَابَةٌ تَسْحَبُ ذَيْلَ الدَّلِيلِ قَدْ قَدَّرَهَا الْمُهَنْدِسُ الْقَدْرِيُّ عَلَى قَدْرِ الْبَيْتِ، فَوَقَفْتُ فَنَادَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ عَلِّمْ عَلَى ظِلِّي، فَلَمَّا عَلَّمَ كَمَا عَلَّمَ هَبَّتْ فَذَهَبَتْ فَسُرَّ بِمَا فُسِّرَ لَهُ مِنْ مُشْكِِلِ الشَّكْلِ. فَلِذَلِكَ سِرُّ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: الآية ٢٦].

قَالَ: فعند ذلك رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهِذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ.

فَجَعَلَ مَكَانَ اسْتِرَاحَةِ الْبِنَاءِ الْمُعْنَى ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا﴾ [البقرة: الآية ١٢٧].

فَلَمَّا فَرَغَا فَعَرَا فَمَ السُّؤَالِ يَرْشُفَانِ ضَرْعَ الضَّرَاعَةِ ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَا﴾ [البقرة: الآية ١٢٨] فَلَمَّا شَرَفَتْ الْكَعْبَةُ بِإِضَافَةٍ ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: الآية ٢٦] قَصَدَهَا فَوْجُ الْفِيلِ فَقَبِلَ مُرَادُهُمْ لَمَّا بَاتُوا عَلَى مَا بَاتُوا بَيْتُوا أَقْبَلَ ﴿طَرًّا أَبَايِلَ﴾ [الفيل: الآية ٣] رُمُوا كَالْغَمَامِ ﴿بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: الآية ٤]، فَكَانَتْ قَطْرَاتُهُ لِلْحَصَادِ لَا لِلْبَذْرِ فَأَصْبَحَ لِزْزَعِ أَجْسَامِهِمْ كَالْمُنْجَلِ الْهَاشِمِ لِيَكُونَ مُعْجَزَةً لِّظُهُورِ نُورِ ابْنِ هَاشِمٍ فَأَمْسُوا فِي بَيْدَرِ الدِّيَاسِ ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: الآية ٥]. وينشد:

مَا أَشْرَقَنِي إِلَى نَسِيمِ الرَّفْدِ	يَشْفِي سَقَمِي إِذَا أَتَى مِنْ نَجْدِ
وَالشَّيْخُ فَإِنَّهُ مُشِيرُ الْوَجْدِ	شَوْقِي شَوْقِي لَكُمْ وَوَجْدِي وَجْدِي
سَلَّمْتُ عَلَى النَّسِيمِ إِذْ أَهَبَّ صَبَا	فَارْتَاحَ إِلَيْهِ سِرُّ قَلْبِي وَصَبَا
أَنْجَدُ لَقَدْ زِدْتُ فُؤَادِي وَصَبَا	هَلْ يَرْجِعُ فِيكَ عَصْرُ وَضْلِي وَصَبَا
النَّاسُ بِطَيْبِ وَضْلِهِمْ قَدْ سَعِدُوا	وَأَنَا الْمُضْنَى بِهِجْرِكُمْ مُنْفَرِدُ
هَآ قَدْ وَجَدُوا وَهَكَذَا مَا وَجَدُوا	مَا جَنَّ بِهِمْ مِثْلَ جُنُونِي أَحَدُ

قال علماء السير: وُلِدَ لِإِسْمَاعِيلَ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا، وَاتَّخَذَهُ اللَّهُ نَبِيًّا، وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَمَالِيقِ وَجُرْهَمَ وَقَبَائِلِ الْيَمَنِ فَنَهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. وَتُوفِّيَتْ هَاجِرُ

وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً، وَإِسْمَاعِيلَ عِشْرُونَ سَنَةً فَدَفَنَهَا فِي الْحِجْرِ، وَعَاشَ مِائَةً وَسَبْعًا وَسِتِّينَ سَنَةً. وَفِي الْحِجْرِ قَبْرُهُ وَدَبَّرَ أَمْرَ الْحَرَمِ بَعْدَهُ ابْنُهُ نَابِتٌ، وَيُقَالُ نَبْتُ، ثُمَّ غَلَبَتْ جُرْهُمُ عَلَى الْبَيْتِ فَانْهَدَمَ فَبَنَتْهُ الْعَمَالِقَةُ ثُمَّ بَنَتْهُ جُرْهُمُ. فَسُبْحَانَ مَنْ خَصَّ مِنْ عِبَادِهِ الْأَخْيَارَ، فَجَعَلَ مِنْهُمْ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَبْرَارَ، وَأَبْعَدَ الْعَصَاةَ وَالْفُجَّارَ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: الآية ٦٨].

وعظ:

يَا مَنْ لَا يَزِدُّهُ مَا يَسْمَعُهُ، يَا مَنْ لَا يَنْفَعُهُ مَا يَجْمَعُهُ، أَمَا الْقَبْرُ عَنْ قَلِيلٍ مَوْضِعُهُ، أَمَا اللَّحْدُ عَنْ قَرِيبٍ مَضْجَعُهُ، أَمَا يَرْجِعُ عَنْ مَنْ يُشِيعُهُ، وَيُؤْخَذُ مَا يَجْمَعُهُ، كَمْ يَخْرِقُ خَرْقًا بِالْخَطَايَا ثُمَّ لَا يُرْقِعُهُ، كَمْ يَحْطُطُ الْقَبِيحُ وَالنُّصْحُ لَا يُرْفَعُهُ، كَمْ يَعْلَمُ غُرُورَ الْهَوَى وَهُوَ يَتَّبَعُهُ، لَا تَعْدِلْتُهُ فَإِنَّ الْعَدْلَ يُؤْلَعُهُ، كَمْ قُلْتُ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ، وَآ عَجَبًا لِمَنْ يَقْطَعُ الْمَفَاوِزَ لِيَرَى الْبَيْتَ فَيُشَاهِدَ آثَارَ الْأَنْبِيَاءِ، كَيْفَ لَا يَبْدَأُ بِقَطْعِ نَفْسِهِ عَنْ هَوَاهُ فَيَصِلُ إِلَى قَلْبِهِ فَيَرَى آثَارَ وَيَسْعُرِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَا مُذْنِبِينَ مُصِيبَتُنَا فِي التَّفْرِيطِ وَاحِدَةٌ وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ، فَوَاسُوْنِي فِي الْبُكَاءِ، كَذَاكَ الْحَزِينُ يُوَاسِي الْحَزِينَا، يَا مُوَافِقِينَ فِي سَفَرِ الطَّرْدِ أَنْزِلُوا النِّيَاحَةَ فِي سَفَرِ سِيَاحَةِ السِّيَاحَةِ، أَنْذَبُوا طِيبَ أَوْطَانِ الْوَصْلِ، وَاسْتَغِيثُوا مِنْ هَجِيرِ الْهَجْرِ، لَعَلَّ الْغَيْمَ يَنْقَلِبُ عَمَامَةً. وينشد:

وَنَاشِدَانِي بِخُلَانٍ وَعُشَاقِي
رَوْحًا لِقَلْبِي وَتَسْهِيلًا لِأَخْلَاقِي
وَاسْتَنْقَذْتُ مُهْجَتِي مِنْ أَسْرِ أَشْوَاقِي
وَنَفْسُهُ بَلَغَتْ مِنِّي إِلَى الرَّاقِي
مِمَّنْ أَحَبُّ عَلَى مَظِلِّ وَإِمْلَاقِي
وَلَا حَصَلْتُ عَلَى عِلْمٍ مِنَ الْبَاقِي

يَا صَاحِبِي أَطِيلًا فِي مُوَانَسَتِي
وَحَدَّثَانِي حَدِيثَ الْخَيْفِ أَنَّ لَهُ
مَا ضَرَّ رِيحَ الصَّبَا لَوْ نَاسَمْتُ حَرْقِي
دَاءً تَقَادَمَ عِنْدِي مَنْ يُعَالِجُهُ
يَمْضِي الزَّمَانُ وَآمَالِي مُصَرَّمَةٌ
وَاضْيَعَةُ الْعُمُرِ لَا الْمَاضِي انْتَفَعْتُ بِهِ

وعظ:

إخواني، كَمْ غُرَّ الْمَغْرُورُ غُرًّا مَدَّ لَهُ أَطْنَابُ الطَّمَعِ عَلَى أَوْتَادِ الْهَوَى، وَسَامَرُهُ فِي جِهَةِ الْمُنَى يُمَلَى عَلَيْهِ آمَالُ الْأَمَانِي، وَمَا أَجَالُ فِي مَا أَجَالُهُ الْآجَالُ

ثم وَجَّهَ وَجْهَهُ إِلَى وَجْهَةِ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ، فَسَلَّمَ إِلَيْهِ مَنْشُورَ التَّسْوِيفِ، فَلَمَّا ضَرَبَ بُوقَ الرَّحِيلِ وَقُرِبَ نُوقُ الرِّحْلَةِ سَلَّمَ مَا سَلَّمَ إِلَيْهِ فَأُلْقِيَ كَاللَّقَاءِ عَلَى بَابِ النَّدَمِ. وينشد:

إِلَامَ أُمْنِي النَّفْسِ مَا لَا تَنَالُهُ وَأَذْكُرُ عَيْشًا لَمْ يَعُدْ مُذْ تَصَرَّمَا
وقد قَالَتِ السُّنُونُ لِلَّهِوِ وَالْهَوَى دَعَا لِي أَسِيرِي وَأَذْهَبَا حَيْثُ شِئْتُمَا

السَّجْع:

لو رَأَيْتَ أَرْبَابَ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ وَقَدْ أَخَذُوا أَهْبَةَ التَّعَبُّدِ فِي الْأَسْحَارِ، وَقَامُوا فِي مَقَامِ الْخَوْفِ عَلَى قَدَمِ الْإِنْكَسَارِ، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَنْقَلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: الآية ٣٧]، عَقَدُوا عَقْدَ الصِّيَامِ وَمَا جَاءَ النَّهَارُ وَسَجَنُوا الْأَلْسِنَةَ فَهَلْ فِيهَا مِهْذَارٌ، وَغَضُّوا أَبْصَارَهُمْ وَلَا زَمُوا غَضَّ الْأَبْصَارِ، أَحْزَانُهُمْ أَحْزَانُ تَكَلَّى مَا لَهَا اضْطِبَارٌ، وَدُمُوعُهُمْ لَوْلَا التَّحَرِّيُّ لَجَرَتْ كَالْأَنْهَارِ، وَوُجُوهُهُمْ مِنْ الْخَوْفِ قَدْ عَلَاهَا الْإِضْفِرَارُ، وَالْقَلَقُ قَدْ أَحَاطَ بِالْقَوْمِ وَدَارَ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَنْقَلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

جَدُّوا فِي انْطِلَاقِهِمْ إِلَى خِلَافِهِمْ، وَأَرَاضُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَحْسِينِ أَخْلَاقِهِمْ، فإِذَا بِهِمْ قَدْ آذَى بِهِمْ كَرَبُ اشْتِيَاقِهِمْ، أَتَدْرِي مَا الَّذِي حَبَسَكَ عَنْ إِلْحَاقِهِمْ؟ حُبُّ الدَّرْهِمِ وَالذِّينَارِ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَنْقَلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

أَيَقْظَنَّا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ وَرَزَقْنَا اتِّبَاعَ النَّفُوسِ الْمُحْسِنَةِ، وَآتَانَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَوَقَانَا عَذَابَ النَّارِ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المَجْلِسُ التَّاسِعُ في قِصَّةِ الذَّبِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْشَأَ وَبَرَأَ وَخَلَقَ الْمَاءَ وَالثَّرَى، وَأَبْدَعَ كُلَّ شَيْءٍ ذَرًّا، لَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ ذَيْبُ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ إِذَا سَرَى، وَلَا يَغُزُّ عَنْهُ مَا عَنْ وَمَا طَرَأَ، اضْطَفَى آدَمَ ثُمَّ عَفَى عَمَّا جَرَى، وَابْتَعَتْ نُوحًا فَبَنَى الْفُلْكَ ثُمَّ سَرَى، وَنَجَّى الْخَلِيلَ مِنَ النَّارِ فَصَيَّرَ حَرَّهَا ثَرَى، ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِذَبْحٍ وَلَدِهِ فَأَذْهَشَ صَبْرُهُ الْوَرَى، ﴿يُبَيِّنُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَى﴾ [الصفافات: الآية ١٠٢].

أَحْمَدُهُ مَا قُطِعَ نَهَارٌ يَسِيرُ وَلَيْلٌ بِسُرَى، وَأَصْلَنِي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ فِي أُمِّ الْقُرَى، وَعَلَى صَاحِبِهِ فِي الدَّارِ وَالْعَارِ بِلَا امْتِرَى، وَعَلَى عُمَرَ الْمُحَدَّثِ فِي نَفْسِهِ فَهُوَ بِنُورِ اللَّهِ يَرَى، وَعَلَى عُثْمَانَ زَوْجِ ابْنَتَيْهِ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يُوسُف: الآية ١١١]، وَعَلَى عَلِيٍّ أَسَدِ أَسَدِ الثَّرَى، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الرَّفِيعِ الْقَدْرِ الشَّامِخِ فِي الذَّرَى.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَى﴾ [الصفافات: الآية ١٠٢] المُرَادُ بالسَّعَى: مَشْيُهُ مَعَهُ وَتَصَرُّفُهُ، وَكَانَ حِينَئِذٍ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَهَذَا الزَّمَانُ أَحَبُّ مَا يَكُونُ الْوَلَدُ إِلَى الْوَالِدِ؛ لِأَنَّهُ وَقْتُ يَسْتَغْنِي فِيهِ عَنِ مَشَقَّةِ الْحَضَانَةِ وَالتَّرْيِيبَةِ وَلَمْ يَبْلُغْ وَقْتُ الْأَذَى وَالْعُقُوقِ، فَكَانَتْ الْبُلُوى أَشَدَّ.

وَاللُّعَمَاءُ فِي الذَّبِيحِ قَوْلَانِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَيُوسُفُ بْنُ مِهْرَانَ وَالْقُرْطُبِيُّ وَآخَرُونَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِسْحَاقُ. فَرَوَى الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الذَّبِيحُ إِسْحَاقُ». وَهَذَا قَوْلُ عُمَرَ وَعَلِيِّ وَالْعَبَّاسِ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَكَعْبٍ وَوَهْبٍ وَمَسْرُوقٍ فِي خَلْقِ كَثِيرٍ وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَرَوَى الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَنِ الْعَبَّاسِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ دَاوُودُ: إِلَهِي أَسْمِعُ النَّاسَ يَقُولُونَ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَاجْعَلْنِي رَابِعًا». وَقَالَ لَهُ: لَسْتُ هُنَاكَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَعِدْ بِي شَيْئًا إِلَّا اخْتَارَنِي عَلَيْهِ، فَإِنَّ إِسْحَاقَ جَادَ لِي بِنَفْسِهِ، وَإِنَّ يَعْقُوبَ فِي طَوْلٍ مَا كَانَ لَمْ يَيْئُسَ مِنْ يُوسُفَ. كَيْفَ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحِينَ» وَلَمْ يُذَبِّحْ أَحَدٌ مِنْهُمَا حَقِيقَةً. مَا قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ، فَأَمَّا سَبَبُ أَمْرِهِ بِذَبْحِهِ فَرَوَى الْعَدِيُّ عَنْ أَشْيَاخِهِ أَنَّ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمَّا بَشَّرَ سَارَةَ بِإِسْحَاقَ قَالَتْ مَا آيَةُ ذَلِكَ؟ فَأَخَذَ عُودًا يَابِسًا فِي يَدِهِ فَلَوَّاهُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَاهْتَزَّ أَخْضَرَ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: هُوَ إِذْنُ اللَّهِ، فَلَمَّا كَبُرَ إِسْحَاقُ أَرَى إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهُ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَاسْتَيْقَظَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ نَوْمِهِ وَأَقْبَلَ عَلَى ابْنِهِ يُقَبِّلُهُ وَيُعَانِقُهُ بَعْدَ لَيْلَتِهِ تِلْكَ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: يَا سَيِّدِي يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا لَكَ لَا تَتْرُكُ ابْنِي وَفُرَّةَ عَيْنِي يَنَامُ اللَّيْلَةَ؟ فَقَالَ لَهَا: لَقَدْ أَدْرَكْتَنِي اللَّيْلَةُ إِلَيْهِ مَحَبَّةً عَظِيمَةً، لَكِنْ إِذَا أَصْبَحَ اللَّهُ بِالصَّبَاحِ مِنَ الْغَدِ اغْمِدي إِلَيْهِ، فَطَهِّرِيهِ وَاغْسِلِي رَأْسَهُ بِمَاءِ الْوَرْدِ وَالْكَافُورِ غَسْلًا جَيِّدًا، وَالْبَسِيهِ أَنْفَى ثِيَابِهِ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ مَعِيَ إِلَى الْجَبَلِ لَا تَقْرَبَ فِيهِ قُرْبَانًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ اللَّهُ بِالصَّبَاحِ مِنَ الْغَدِ عَمِدَتْ إِلَيْهِ وَالدُّنَّةُ فَجَعَلَتْ تَغْسِلُ رَأْسَهُ بِمَاءِ الْوَرْدِ وَالْكَافُورِ، فَقَالَ لَهَا: يَا وَالدَّتِي مَا لِي أَرَاكِ تَغْسِلِينِي هَذَا الْغُسْلَ وَهُوَ جَهَازُ الْمَوْتَى مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ؟ فَقَالَتْ لَهُ: حَبِيبِي يَا بَنِي بِذَلِكَ

أَمَرَنِي أَبُوكَ وَلَا أَعْصِي لَه أَمْرًا. فَقَالَ: فَعَسَلْتُهُ غَسَلًا جَيِّدًا ثُمَّ أَلْبَسْتُهُ أَنْقَى ثِيَابِهِ وَبَخَّرْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ.

قَالَ: وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمِدَ إِلَى بَيْتِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ حَبَلًا وَشَفْرَةً أَدْخَلَهُمَا فِي كُمِهِ خِيفَةً مِنْ أَمْرَاتِهِ وَمِنْ ابْنِهِ.

ثُمَّ انْطَلَقَ مَعَهُ يُرِيدَانِ الْجَبَلَ، فَلَمَّا سَارَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ تَصَوَّرَ لَهُ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ أَبْيَضَ شَائِبِ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَسْفَى أَسْفَى عَلَيْكَ يَا غُلَامُ وَأَبُوكَ يُرِيدُ أَنْ يَذْبَحَكَ. فَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ، وَهَلْ رَأَيْتَ قَطُّ وَالِدًا يَذْبَحُ وَلَدَهُ؟ قَالَ لَهُ الْمَلْعُونُ إِبْلِيسُ: أَبُوكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِذَلِكَ، وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ. قَالَ لَهُ: إِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ أَبِي بِذَلِكَ فَحَقٌّ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ وَلَا يَعْصِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ. قَالَ: فَرَجَعَ إِبْلِيسُ حَاتِبًا.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ إِسْحَاقَ أَقْبَلَ إِلَى أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ، أَمَا سَمِعْتَ مِنْ قَوْلِ هَذَا الشَّيْخِ؟ فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: يَا بُنَيَّ أَظْنُهُ إِبْلِيسَ، فَلَا يَهْوِلَنَّكَ كَلَامُهُ وَثِقْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ رَبُّكَ يُرِيدُ مِنْ آيَاتِهِ عَجَبًا.

قَالَ: وَانْطَلَقَا سَائِرِينَ إِلَى الْجَبَلِ، فَإِذَا بِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ قَدْ تَصَوَّرَ لَهُ فِي صُورَةِ الطَّيْرِ، فَرَفَرَ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا إِسْحَاقُ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّكَ تَنْطَلِقُ إِلَى الْمَوْتِ، وَأَنَّ الْجَبَلَ الَّذِي تَسِيرُ إِلَيْهِ تُضْجَعُ وَتُذْبَحُ بِالسَّكِينِ كَمَا تُذْبَحُ الْبَهَائِمُ. قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلَامَ الطَّيْرِ أَقْبَلَ إِلَى أَبِيهِ فَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنْ كَانَ الشَّيْخُ كَاذِبًا فَإِنَّ الطَّيْرَ لَا يَكْذِبُ، وَهُوَ يُخْبِرُنِي أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَذْبَحَنِي. فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بُنَيَّ اسْتَغْلِمْ لِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُضِيعُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ. قَالَ: فَلَمَّا أَيْسَ مِنْهُمَا إِبْلِيسُ اللَّعِينُ سَارَ مَذْمُومًا مَذْخُورًا.

فَلَمَّا صَعِدَ الْجَبَلَ، فَإِذَا إِبْلِيسُ اللَّعِينُ يُنَادِي مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، وَيَقُولُ يَا إِسْحَاقُ: لَوْ عَلِمْتَ أَنَّكَ تُذْبَحُ عَلَيَّ، وَيُهْرَاقُ دَمُكَ عَلَى ظَهْرِي، وَيَكُونُ قَبْرُكَ فِي جَوْفِي، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ افْتَحَرْتُ بِكَ عَلَى سَائِرِ الْجِبَالِ. قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْبَلَ عَلَى أَبِيهِ، وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ إِنْ كَانَ الشَّيْخُ كَاذِبًا، وَالطَّيْرُ كَاذِبًا فَإِنَّ الْجَبَلَ لَا يَكْذِبُ وَمَا عَلَيْهِ حِسَابٌ وَلَا عِقَابٌ، وَهُوَ

يُخْبِرُنِي أَنَّكَ الْآنَ تَذْبَحُنِي عَلَى ظَهْرِهِ.

قَالَ: فَتَرَكُهُ إِبْرَاهِيمُ وَأَقْبَلَ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ، فَلَمَّا رَأَهُ إِسْحَاقُ كَذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى الْبُكَاءِ وَالِدُعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْبَلَ عَلَى ابْنِهِ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: يَا أَبَتِ، أَيْنَ قُرْبَانُكَ؟ قَالَ: ﴿يَبْنَىٰ إِلَيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصَّافَات: الآية ١٠٢].

وعظ:

إخواني، احذروا الدنيا لَمَّا ابْتُلِيَ الْخَلِيلُ بِنَمْرُودَ فَسُلِّمَ بِالنَّارِ فَسَلِمَ، امْتَدَّ سَاعِدُ الْبَلَاءِ إِلَى الْوَلَدِ الْمُسَاعِدِ، فَظَهَرَتْ عِنْدَ الْمَحَاوَرَةِ وَالْمُشَاوَرَةِ نَجَابَةٌ ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصَّافَات: الآية ١٠٢]، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَعَانَقَا وَرَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا بِالْبُكَاءِ، وَأَنَّ الْابْنَ وَهُوَ يُوصِي الْأَبَ ويقول: يَا أَبَتِي أَشَدُّ رِبَاطِي؛ لِيَمْتَنِعَ ظَاهِرِي مِنَ التَّزَلُّزِ كَمَا سَكَنَ قَلْبِي مَسْكَنَ السُّكُونِ، وَاكْفُفْ ثِيَابَكَ عَنْ دَمِي لِئَلَّا يُصِيبَهَا عَنْ دَمِي فَتَحْزَنَ لِرُؤْيَيْهِ أُمِّي وَافْرَأُ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنِّي. فَقَالَ: نِعَمَ الْعَوْنُ أَنْتَ يَا بُنَيَّ.

ثُمَّ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَوَاطِنَ كَفِّهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: إِلَهِي وَمَوْلَايَ وَسَيِّدِي، أَعْلَمُ أَنَّكَ كَرِيمٌ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ خَلِيلَكَ غَيْرُ مُخَالِفٍ لَكَ لَا يَرُدُّهُ عَنْكَ رَادٌّ، فَارْحَمْ صَغِيرِي وَحَبِيبِي وَفُرَّةَ عَيْنِي وَلَا تُفْجِعْ قَلْبِي فِيهِ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦].

ثُمَّ أَخْرَجَ الشَّفَرَةَ مِنْ كُمَّهِ، فَلَمَّا رَأَهُ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ وَبَكَى. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ إِبْرَاهِيمُ: يَا بُنَيَّ اسْتَغْسِلْ لَأَمْرَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ بِكَ، وَشَمَّرَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَاعِدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: يَا أَبَتِ إِنَّ لِلْمَوْتِ حَرَارَةً شَدِيدَةً، وَلَكِنْ شَدَّ كِتَافِي بِالْحَبْلِ، وَضَعَ يَدَكَ عَلَى عُنُقِي لِئَلَّا أَضْطَرِبَ فَيُصِيبَكَ شَيْءٌ مِنْ دَمِي فَلَا يَكُونُ لِي عِنْدَ اللَّهِ خَلَاقٌ، وَأَنْظُرْ إِلَيَّ يَا أَبَتِ بِوَجْهِكَ أَتَرَوُدُ مِنْكَ قَبْلَ فِرَاقِي مِنَ الدُّنْيَا. قَالَ: فَبَكَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَكَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَقَالُوا: يَبْنَىٰ لِهَذَا الْعَبْدِ أَنْ يَتَّخِذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا.

ثُمَّ أَخَذَ الْحَبْلَ وَشَدَّ بِهِ كِتَافَ ابْنِهِ وَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ

إِلَى أَوْدَاجِ حَلْقِكَ وَالشَّفْرَةَ يَقْطَعُهَا وَأَنْتَ حَبِيبِي وَفَرَّةُ عَيْنِي. فَقَالَ: يَا أَبَتِ رُدَّ وَجْهَكَ إِلَى نَاحِيَةِ كَيْ لَا تَحْزَنَ عَلَيَّ فَلَا تَقْدِرْ عَلَى ذَبْحِي، وَإِذَا ذَبَحْتَنِي فَكَفِّنِّي فِي ثِيَابِي هَذِهِ، وَاحْمِلْنِي إِلَى وَالِدَتِي تَتَزَوَّدُ مِنِّي، وَأَقْرَأْهَا مِنِّي السَّلَامَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَبَكَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَضَعَ الشَّفْرَةَ عَلَى عُنُقِهِ، ثُمَّ أَمَرَ الشَّفْرَةَ عَلَى مَرِيءِ الْمَرْءِ فَمَا مَرَّتْ، غَيْرَ أَنَّ حَسْرَاتِ الْفِرَاقِ لِلْعَيْشِ أَمَرَتْ قَطْعَنَ بِهَا فِي الْحَلْقِ فَنَبَتْ لَكِنْ حُبُّ الرِّضَا فِي حَبَّةِ الْقَلْبِ نَبَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنَّ مِنْ عَادَةِ السُّكَّانِ أَنْ يَقْطَعَ، وَمِنْ عَادَةِ الصَّبِيِّ أَنْ يَجْزَعَ، فَلَمَّا نَسَخَ الذَّبِيحُ نُسَخَةَ الصَّبْرِ، وَمَحَى مَسْطُورَ الْجَزَعِ قَلْبُنَا عَادَةَ الْحَدِيدِ فَمَا مَرَّ وَلَا قَطَعَ، وَلَيْسَ مُرَادُنَا مِنَ الْإِبْتِلَاءِ أَنْ نُعَذِّبَ، وَلَكِنَّا نَبْتَلِي لِنُهْدِّبَ.

إِخْوَانِي، أَيْنَ الْمُعْتَبِرُونَ بِقَصَّتِهِمَا فِي غُصَّتِهِمَا، لَقَدْ حَصَّحَصَ الْحَقُّ فِي حِصَّتِهِمَا، لَقَدْ جَعَلَ الطَّاعَةَ إِلَى الرِّضَا سُلْمًا، سَلَّ مَا نُودِيَ فَسَلَّمَا، بَيْنَمَا هُمَا عَلَى تَلٍّ وَتَلَّهُ جَاءَ بَشِيرٌ ﴿فَدَّ صَدَقَتِ الرُّزْيَا﴾ [الصَّافَات: الْآيَةُ ١٠٥] فَارْتَدَّ أَعْمَى الْحُزْنَ بَصِيرًا بِقَمِيصٍ ﴿وَفَدَيْتَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصَّافَات: الْآيَةُ ١٠٧] يَا إِبْرَاهِيمُ، أَتُرْكُ مَا أَمَّاكَ، وَتُحْدِثُ مَا عَلَى يَمِينِكَ، فَرَدَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجْهَهُ عَنْ يَمِينِهِ، فَإِذَا بِكَبْشٍ فَأَخَذَهُ وَخَلَّى عَنْ ابْنِهِ.

فَلَمَّا ذَبَحَ الْكَبْشَ حَلَّ وَلَدَهُ، وَجَعَلَ يُقَبِّلُهُ وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ تَقَبَّلَ اللَّهُ سَعْيَكَ وَزَكَّى عَمَلَكَ وَغَفَرَ لِي وَلَكَ. يَا بُنَيَّ الْيَوْمَ وَهَبْتُ لِي، وَرَجَعَا إِلَى مَنْزِلِهِمَا.

وَفِي خَبَرِ الْوَالِدَةِ قَوْلَانِ؛ أَحَدُهُمَا: قَالَ شُعَيْبُ الْحِثْيَانِيُّ: لَمَّا عَلِمَتْ بِذَلِكَ مَاتَتْ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي: لَقِيَتْهُمَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى ابْنَيْهَا وَأَثَرِ الْبُكَاءِ عَلَى وَجْهِهِ، قَالَتْ لَهُ: يَا حَبِيبِي مَا الَّذِي دَهَاكَ؟ فَقَصَّ لَهَا جَمِيعَ مَا اتَّفَقَ لَهُ مَعَ أَبِيهِ فَتَرَامَتْ عَلَيْهِ وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ تَزَلْ تَحْرُسُهُ حَتَّى أَتَى أَمْرٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبُشِّرَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّهُ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَلِدَ النَّبِيَّ وَالصَّالِحِينَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَسَلَمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: الآية ١٠٣]، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: صَرَعَهُ عَلَى جَبِينِهِ فَصَارَ أَحَدُ جَبِينَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ وَهُمَا جَبِينَانِ، وَالْجَبْهَةُ بَيْنَهُمَا. ﴿وَنَدَيْتُهُ﴾ [الصفات: الآية ١٠٤]، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: نُودِيَ مِنَ الْجَبَلِ ﴿وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَابَرَهُمْ﴾ (١٤) قَدْ صَدَقَتِ الرَّزِيَّةُ ﴿[الصفات الآيتان: ١٠٤، ١٠٥]، فِيهِ قَوْلَانِ:

أحدهما: قد علمت ما أمرت به، وذلك أنه فصَدَ الذَّبِيحُ بِمَا أُمِّكَنَهُ وَطَاوَعَهُ الابْنُ مِنَ التَّمَكِينِ مِنَ الذَّبْحِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ صَرَفَ ذَلِكَ كَمَا شَاءَ فَصَارَ كَأَنَّهُ ذَبَحَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلِ الذَّبْحَ.

والثاني: أَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ مُعَالَجَةَ الذَّبْحِ وَلَمْ يَرَ إِرَاقَةَ الدَّمِ، فَلَمَّا فَعَلَ فِي الْيَقَظَةِ مَا رَأَى فِي الْمَنَامِ قِيلَ لَهُ: ﴿قَدْ صَدَقَتِ الرَّزِيَّةُ﴾ [الصفات: الآية ١٠٥].

إخواني، لَيْسَ الْعَجَبُ أَمْرُ الْخَلِيلِ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مُبَاشَرَةُ الذَّبْحِ بِيَدِهِ، وَلَوْلَا اسْتِغْرَاقُ حُبِّ الْأَمْرِ لَمَا هَانَ مِثْلُ هَذَا الْمَأْمُورِ.

كَانَتْ زَلِيخًا مَشْغُوفَةً بِيُوسُفَ، فَلَمَّا قَرَّتِ الْمَحَبَّةَ قَلْبَهَا فَرَاوَدَتْهُ فَأَذْبَرَ، قَدَّتِ الْقَمِيصَ مِنْ دُبُرٍ، فَلَمَّا ذَاقَتْ مَحَبَّةَ الْحَبِيبِ الْأَعْلَى أَعْرَضَتْ عَنْ يُوسُفَ بَعْدَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، فَنَادَاهَا لِسَانُ الْعُجْبِ؛ وَأَيْنَ حُبُّكَ الْمُتَقَدِّمُ يَا زَلِيخَا؟ فَقَالَتْ: إِنَّ لِي عَنْكَ يَا يُوسُفَ شُغْلًا بِرَبِّكَ فَإِنِّي رَأَيْتُ جَمَالَ ظَاهِرِكَ يَتَغَيَّرُ وَجَمَالَ الْبَاقِي الْبَاقِي.

وعظ:

يَا مَنْ مَعَاصِيهِ جَمَّةٌ مَشْهُورَةٌ، وَنَفْسُهُ بِمَا يَجْنِي عَلَيْهَا مَسْرُورَةٌ، أَفِي الْعَيْنِ عَمَى أَوْ عَشَا؟ أَكْذَا الْأَمْرُ يَجْرِي كَمَا تَشَاءُ؟ أَعَلَى الْقَلْبِ حِجَابٌ، أَمْ غِشَاءٌ، يَا كَثِيرَ الْمَعَاصِي قَعْدَ أَوْ مَشَى، عَظُمَتْ ذُنُوبُكَ، فَمَتَى تَغْضِي، يَا مُقِيمًا وَهُوَ فِي الْمَعَاصِي يَمْضِي، لَا فِي الشَّبَابِ أَصْلَحْتَ وَلَا فِي الْكُهُولِ.

أَفْلَحْتَ آهَ لِلِّسَانِ نَطَقَ بِالْإِثْمِ، كَيْفَ عَقَلَ عَنْ قَوْلٍ: ﴿نَخْتُمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ؟﴾ أَوْ لَيْدٍ امْتَدَّتْ إِلَى الْحَرَامِ كَيْفَ نَسِيَتْ ﴿الْيَوْمَ نَخْتُمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: الآية ٦٥]؟ أَوْ لَقَدْ سَعَتْ فِي الْأَجْرَامِ كَيْفَ لَمْ يَتَذَبَّرُوا ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ؟﴾ أَوْ لَقَدْ فَعَرَهُ لِتَقْرِيعِ كَأْسِ الْخَمْرِ لَمَا بَلَغَهُ زَجْرُ ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: الآية ٩٠].

يَا مَنْ رَاحَ فِي الْمَعَاصِي وَغَدَى وَيَقُولُ: سَأَتُوبُ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا. كَيْفَ تَجْمَعُ قَلْبًا قَدْ صَارَ فِي الْهَوَى مُبَدَّدًا؟ كَيْفَ تُلِينُهُ وَقَدْ أَمْسَى بِالْجَهْلِ جَلْمَدًا، لَقَدْ ضَاعَ قَلْبُكَ فَاطْلُبْ لَهُ مُنْشِدًا، تَفَكَّرْ بِأَيِّ وَجْهِ تَلْقَى الرَّدَى، تَذَكَّرْ لَيْلَةً تَبَيَّنَتْ فِي الْقَبْرِ مُنْفَرِدًا ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: الآية ٣٦] بَيْنَ يَدَيِ مَنْ ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: الآية ٢٨]. وَاعْجَبَا أَيْنَ أَنْتَ وَالْأَحْبَابُ كَمْ بَيْنَ الْقُشُورِ وَاللُّبَابِ؟

يَا مُعْجَبًا بِتَعَبُدِهِ تَأْمَلْ فَضَائِلَ السَّابِقِينَ سَابِقَهُ الْقَدَرِ قَضَتْ لِقَوْمٍ بِدَلِيلِ ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مَّا أَحْسَنُ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠١]، وَعَلَى قَوْمٍ بِدَلِيلِ ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: الآية ١٠٦] فَوَاقِفًا ﴿أَيْنَ الْمَفْرُغُ﴾ [القيامة: الآية ١٠] تَوْفِيقُ تَلْقِيحِ سَبَقَتْ، نَوَّرَ قُلُوبَ الْجِنِّ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: الآية ١]، وَخَذَلَانُ ﴿غَلَبَتْ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] أَعْمَى بِصِيرَةِ قُلُوبِ قُرَيْشٍ فَ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: الآية ٢٤].

يَا مُؤَخَّرًا تَوَبَّتْهُ بِمَظِلِّ التَّسْوِيفِ ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلَتْ﴾ [المُرسلات: الآية ١٢]، كُنْتَ تَقُولُ إِذَا شَبِتَ ثُبْتُ، فَهَذِهِ شُهُورُ الصَّيْفِ قَدْ انْقَضَتْ، وَيَحْكُ قَدْ نَفَدَ السَّلِيْطُ فَاسْتَدْرِكْ ذُبَالَةَ الْمِصْبَاحِ. وينشد:

لَقَدْ ظَهَرَتْ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمَه لَا يَعْرِفُ الْقَمَرَا
وَقَدْ سَفَرْتُمْ إِلَى مَنْ قَدْ فَنِي بِكُمْ حَتَّى إِذَا مَا تَجَلَّيْتُمْ لَهُ ظَفَرَا
لَقَدْ فَنِي وَتَلَاشَى عِنْدَ رُؤْيَيْتِكُمْ فَمَا تَرَكْتُمْ لَهُ عَيْنًا وَلَا أَثَرَا

إِخْوَانِي، عِبَارَاتُ النَّسِيمِ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا الْمُشْتَقُّ. وَحَدِيثُ الْبُرُوقِ لَا يَرُوقُ إِلَّا لِلْمُشْتَقِّ، خَلَوْا وَاللَّهُ بِالْحَبِيبِ فِي دَارِ الْمُنَاجَاةِ، فَكَسَاهُمْ ثِيَابَ الْمُوَاصَلَةِ وَضَمَّحَهُمْ بِطِيبِ الْمُعَامَلَةِ، وَغَالِيَةُ السَّحَرِ غَالِيَةُ يُضْبِحُونَ وَعَلَيْهِمْ سِيَمَاءُ الْقُرْبِ تَفُوحُ أَرْوَاحُ نَجْدٍ مِنْ ثِيَابِهِمْ، فَتَأَسَّفُ يَا جِنَّةَ النَّوْمِ وَابْنُكَ عَلَى تَخْلُفِكَ يَا عُرْيَانَ الْعَقْلِ. أَتَدْرِي كَيْفَ مَرَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ؟ أَلَمْ عَلِمَ بِمَا جَرَى لِلِقَوْمِ؟ أَيْعَلَمُ سَالِ كَيْفَ بَاتَ مُتَيْمٌ. شعر:

كَانَ رَقِيبًا سَدَّ مَسَامِعِي عَنِ الْعَذْلِ حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ

كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي فما بينهما في كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَضَلُّ
إِخْوَانِي، رَحَلَتْ رُقُقَةٌ تَتَجَافَى قَبْلَ السَّحْرِ، وَمَطْرُودُ النَّوْمِ فِي حَبْسِ الرُّقَادِ
فَمَا فَكَ عَنْهُ السُّبْحَانُ قَيْدَ الْكَرَى حَتَّى اسْتَقَرَّ بِالْقَوْمِ الْمَنْزِلُ.
وَأُنْشَدَ لِسَانُ الْحَالِ:

يَا رَا حِلِينَ إِلَى الْحَبِيبِ تَرَفَّقُوا فَلِلْقَلْبِ بَيْنَ رِحَالِكُمْ خَلَفْتُهُ
أُبْكِي إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ تَشَوْقًا فِي طُولِ لَيْلٍ فِي هَوَاكَ سَهْرْتُهُ
وَأُنُوحُ إِنْ فَاحَ الْحَمَامُ ضَحَى عَلَى إِلْفٍ فَقَدْتَ الصَّبْرَ حِينَ فَقَدْتُهُ
مَا لِي سِوَى قَلْبِي وَفِيكَ أَذْبْتُهُ مَا لِي سِوَى دَمْعِي وَفِيكَ سَكَبْتُهُ
مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مَا الْعَرَامُ وَلَا الْأَسَى وَالشَّوْقُ وَالتَّبَرُّيحُ حَتَّى دُقْتُهُ

إشارة:

سُبْحَانَ الْمَفَاوِثِ بَيْنَ الْخَلْقِ، يُقَالُ لِلْخَلِيلِ: اذْبَحْ وَلَدَكَ، فَيَأْخُذُ الْمُدِيَّةَ،
وَيُضْجِعُهُ لِلذَّبْحِ، وَيُقَالُ لِقَوْمِ مُوسَى: ﴿أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [البقرة: الآية ٦٧]،
﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧١]، يَخْرُجُ أَبُو بَكْرٍ مِنْ جَمِيعِ مَالِهِ،
وَيَبْخُلُ ثَغْلَبَةً بِالزُّكَاةِ، وَيَجُودُ حَاتِمٌ بِقُوَّتِهِ، وَيَبْخُلُ بِضَوْءِ نَارِهِ الْحَبَّاحُ.
وكَذَلِكَ فَاءَتْ بَيْنَ الْفُهْمِ، فَسُحْبَانُ أَنْطَقَ مُتَكَلِّمٌ، وَبَاقِلٌ أَقْبَحُ وَأَخْرَسُ،
وَفَاوَتْ بَيْنَ الْأَمَاكِنِ فَزُرُودٌ تَشْكُو الْعَطَشَ، وَالْبَطَائِحُ تَصْبِيحُ الْعَرَقِ.

إِخْوَانِي، اصْحَبُوا الصَّالِحِينَ وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ إِذَا أُحْيِيَ عَزِيزٌ
أُحْيِيَ حِمَارُهُ، وَلَمَّا بُعِثَ أَهْلُ الْكَهْفِ بُعِثَ كُلُّهُمْ.

إِخْوَانِي، كَمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصَّالِحِينَ مِنْ مَفَازَةٍ مَا فِيهَا، مَا مِنْ جِبَالٍ مَا فِيهَا
جَادَّةٌ، يَا مَنْ أَبْعَدَتْ عَنْهُمْ الذُّنُوبُ وَطَرَدَتْهُ عَنْ جُمْلَتِهِمُ الْعُيُوبُ، يَا عَاصِي
خَلَيْتَ أَوْصَافَ الْقَوْمِ وَمَا اسْتَقْتَحَبْتَ الدُّنْيَا، غَلَبَ عَلَى قَلْبِكَ ضَرِبَتْ عُرُوقُ
أَمَالِكَ فِي ثَرَى الْعَقْلَةِ، فَمَا تُزْعِنُغُ تَحْلَةً أَمَالِكَ الْعَوَاصِفُ، مَا أَظُنُّ إِلَّا قَدْ فَاتَ
أَمْرُكَ، وَمَا أَرَى لِلْخَيْرِ أَمَارَةً وَتَحْضُرُ مَجَالِسَ الذِّكْرِ خَمْسِينَ سَنَةً، وَأَنْتَ أَنْتَ
عَلِقَ شَرُّكَ الْهَوَى بِجَنَاحِكُنَّ فَكَسَرَهُ، فَإِنْ تَحَرَّكَتْ فَحَرَكَهُ الْمَقْعَدُ وَاجْتِلَاجُ

الْمَذْبُوحَ، وَيَحَكَ إِنَّ الْمُنْقَطَعَ فِي الْبَادِيَةِ أَكِيلَةٌ لِلسَّبَاعِ. شعر:

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُعْدَى بَلِيلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةَ غَرِّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عُلقَ الْجَنَاحُ
فَلَا بِاللَّيْلِ نَالَتْ مَا تَمَنَّتْ وَلَا بِالصُّبْحِ صَحَّ لَهَا رَوَاحُ

قال علماء أهل السَّيْرِ: لم يَمُتْ إبراهيمُ حَتَّى نُبِّئَ بِإِسْحَاقَ، وَبُعِثَ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ زَوَّجَ إِسْحَاقَ أَرْوَكَهَ بِنْتَ بَثَاوِيلَ، فَوَلَدَتْ لَهُ الْعِيصُ وَيَعْقُوبَ وَهُوَ ابْنُ سِتِّينَ سَنَةً، فَأَمَّا الْعِيصُ فَتَزَوَّجَ بِنْتَ عَمِّهِ إِسْمَاعِيلَ، فَوَلَدَتْ لَهُ الرُّومَ وَكُلُّ بَنِي الْأَصْفَرِ مِنْ وَلَدِهِ وَكَثُرَ أَوْلَادُهُ حَتَّى غَلَبُوا الْكَنْعَانِيِّينَ بِالشَّامِ، وَسَارُوا إِلَى الْبَحْرِ وَالسَّوَاغِلِ فَصَارَ الْمَلُوكُ مِنْ وَلَدِهِ وَهُمْ الْيُونَانِيُّونَ.

وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَتَزَوَّجَ لَيَّا فَوَلَدَتْ لَهُ أَكْثَرَ أَوْلَادِهِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ أُخْتَهَا رَاحِيلَ فَوَلَدَتْ لَهُ يُوسُفَ وَابْنَ يَامِينَ، وَعَاشَ إِسْحَاقُ نَحْوَ مِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، وَتُوفِّيَ بِفِلَسْطِينَ وَدُفِنَ عِنْدَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وينشد:

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانٌ وَرَبْحُهُ دُونَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانٌ
يَا عَامِرًا لِخَرَابِ الدَّارِ مُجْتَهِدًا تَاللهِ هَلْ لَخَرَابِ الْعُمَرِ عُمَرَانٌ

السَّجْعُ:

يَا مُعْرِضًا عَنِ الْهُدَى لَا يَسْعَى فِي طَلَبِهِ، يَا مَشْغُولًا بِلَهْوِهِ مَفْتُونًا بِلُغْبِهِ، يَا مَنْ قَدْ صَاحَ بِهِ الْمَوْتُ عِنْدَ أَخِيذِ صَاحِبِهِ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

جُزْ عَلَى قَبْرِ الصَّدِيقِ وَتَلَمَّحْ آثَارَ الرَّفِيقِ، يُجْزِكَ عَنْ حُسْنِهِ الْأَيْقِ إِنَّهُ اسْتَلْبَبَ بِكَفِّ التَّمْزِيقِ، هَذَا لِحُدِّهِ وَأَنْتَ فِي عَذَابِهِ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

كَمْ نُهِيَ عَنِ الْخَطَايَا فَمَا أَنْتَهَى، كَمْ زَجَرْتُهُ الدُّنْيَا ثُمَّ سَعَى لَهَا، هَذَا رُكْنُهُ الْوَثِيقُ قَدْ وَهَا وَهَا أَنْتَ فِي سَلْبِهِ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: الآية ١٢٣].

أَيْنَ مَنْ عَتَا وَظَلَمَ، وَلَقِيَ النَّاسَ مِنْهُ الْأَلَمَ، افْتَطَعَهُ الرَّدَى افْتِطَاعَ الْحَلِمِ

فَمَا نَفَعَهُ مَا جَمَعَ وَلَا وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ عِزُّ مَنْصِبِهِ، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

بَاتَ فِي لَحْدِهِ أَسِيرًا لَا يَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا نَقِيرًا، بَلْ عَادَ يُوَزَّرُ ذَنْبُهُ عَقِيرًا
وَأَصْبَحَ مِنْ مَالِهِ فَقِيرًا، عَلَى عِزِّ نَسَبِهِ وَكَثْرَةِ نَسَبِهِ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

الْكِتَابُ يَحْوِي حَتَّى النُّظْرَةَ، وَالْحِسَابُ يَأْتِي عَلَى الذَّرَّةِ، وَخَاتِمَةُ
كَأْسِ اللَّذَاتِ مُرَّةٌ، وَالْأَمْرُ جَلِيٌّ لِفُهُومٍ مَا يَشْتَبِهُ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ
بِهِ﴾.

يُجْمَعُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي صَعِيدٍ، وَيَنْقَسِمُونَ إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، فَقَوْمٌ قَدْ حَلَّ
بِهِمُ الْوَعِيدُ وَقَوْمٌ قِيَامُهُمْ نُزْهَةٌ وَعِيدٌ، وَكُلُّ عَامِلٍ يَعْرِفُ مِنْ مَشْرِئِهِ، ﴿مَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

وَإِنَّمَا يَقَعُ الْجَزَاءُ عَلَى أَفْعَالِكَ، وَإِنَّمَا تَلْقَى فِي غَدٍ غَبَّ أَعْمَالِكَ، وَقَدْ
نَصَحْنَاكَ بِهِ بِقُصْدٍ إِصْلَاحِ حَالِكَ، فَإِنْ كُنْتَ مُسْتَقِظًا فَاغْمَلْ بِذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتَ
قَائِمًا فَانْتَبِهْ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: الآية ١٢٣].

اللَّهُمَّ أَخْرِجْنَا إِلَى نُورِ الْيَقِينِ مِنْ هَذَا الظُّلَامِ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ رَأَى الصُّبْحَ
فَنَامَ. اللَّهُمَّ عَافِ عُيُونَ الْفَهْمِ مِنْ رَمَدِ الْبَلَادَةِ. اللَّهُمَّ لَا تُعَذِّبْ نَفْسًا قَدْ عَذَّبَهَا
الْخَوْفُ مِنْكَ. اللَّهُمَّ كَمَا بَادَرْنَا مَا بَادَرْنَا إِنْ تَنْهَنَا فَانْتَهَيْنَا وَلَا تُخْرِسْ لِسَانًا كُلَّ
عَنْ كُلِّ مَا يُرَوَى عَنْكَ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلِمَنْ وَلَدْنَا وَلِمَنْ غَابَ عَنَّا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا كَثِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المَجْلِسُ العَاشِرُ فِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحمد لله الَّذِي أَحْكَمَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا صُنْعًا، وَتَصَرَّفَ كَمَا شَاءَ إِعْطَاءً وَمَنْعًا، أَنْشَأَ الْآدَمِيَّ مِنْ قَطْرَةٍ فَإِذَا هُوَ حَيٌّ يَسْعَى، وَخَلَقَ لَهُ عَيْنَيْنِ لِيُبْصِرَ الْمَسْعَى، وَوَالَى لَدَيْهِ النِّعَمَ وَثَرًا وَشَفْعًا، وَضَمَّ إِلَيْهِ زَوْجَتَهُ تَدَبَّرُ أَمْرَ الْبَيْتِ وَتَرَعَى، وَأَبَاحَهُ مَحَلَّ الْحَرْثِ وَقَدْ فَهِمَ مَقْصُودَ الْمَرْعَى، فَتَعَدَّى قَوْمٌ إِلَى الْفَاحِشَةِ الشَّنْعَى، وَعَدُّوا سِتًّا وَسَبْعًا وَرُجِمُوا بِالْحِجَارَةِ، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ صَرَعَى، ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا يَهُودِيٍّ﴾ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿هُود: الْآيَةُ ٧٧﴾.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَرْسَلَ سَحَابًا وَأَنْبَتَ بِهِ زَرْعًا، وَأَصْلَى عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ نَبِيِّ عِلْمٍ أُمَّتُهُ شَرْعًا، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانَتْ نَفَقَتُهُ لِلْإِسْلَامِ نَفْعًا، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي ضَيَّقَ الْإِسْلَامَ بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ الْمُسْتَدْعَى، وَعَلَى عُثْمَانَ ذِي النُّورَيْنِ الَّذِي ارْتَكَبَ مِنْهُ الْفُجَارُ بِدْعًا، وَعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي يُحِبُّهُ أَهْلُ السُّنَّةِ طَبْعًا، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الَّذِي ثَبَتَ دُعَاؤُهُ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ قَطْعًا.

قال الله العظيم: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا يَهُودِيٍّ﴾ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿هُود: الْآيَةُ ٧٧﴾، كَانَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنُ هَارَانَ بْنِ تَارَحَ وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنَ النَّارِ، وَاخْتَبَنَ لُوطٌ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، فَنَزَلَ إِبْرَاهِيمَ فَلَسْطِينُ وَنَزَلَ لُوطٌ الْأُرْدُنَّ فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى لُوطًا إِلَى أَهْلِ سَدُومَ.

وقصته: لَمَّا تَهَاوَى قَوْمُ لُوطِ هُوَّةَ أَهْوَائِهِمْ وَنَادَوْا فِي جِهَاتِ جَهْلِهِمْ ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ [النمل: الآية ٥٦] بعثت الأملاك لانتزاع أملاك الحياة من أيديهم، فنزلوا في مَنْزِلِ لُوطِ مَنْزِلَ النَّزِيلِ، فَهُمْ فِي أَفْسَحِ بَيْتٍ مِنَ الْكَرَمِ، غَيْرَ أَنَّ حَارِسَ حَدَرِهِ يُنَادِي ﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ خَافَ مِنْ قَوْمِهِ أَذَاهُمْ، فَإِذَا هُمْ يُهْرَعُونَ، فَأَخَذَ يُدَافِعُ تَارَةً بِمَشُورَةٍ ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾، وَتَارَةً بِتَقَاةٍ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَتَارَةً بِسُؤَالٍ ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾، وَتَارَةً بِتَوْبِيخٍ ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: الآية ٧٨] فلما كَلَّ كُلُّ سِلَاحِهِ وَأَعْيَتْ جِهَاتُ جِهَادِهِ بِرَمَزٍ ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ [هود: الآية ٨٠] فَحَجَبَهُمْ جَبْرِيلُ بِحِجَابٍ فُطِرَتْنا وَانْتَأَشَهُ مِنْ أَسْرِ الْغَمِّ بَلْفِظَ ﴿فَأَسِرْ﴾ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَشُوقُ إِلَى تَعْجِيلِ التَّعْذِيبِ فَنَادَتْ عَوَاطِفُ الْحِلْمِ ﴿أَلَيْسَ الْأُصْبَحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: الآية ٨١].

﴿وَسَارَ بِأَهْلِيهِ﴾ [القصص: الآية ٢٩] على أعْجَازِ نَجَائِبِ النِّجَاجِ إِلَّا عَجُوزَ الْعَجْزِ عَنْ عِرْفَانِ الْمُعْجِزَةِ، فَإِنَّهَا لَحَقَّتْ بِالْعَجْزَةِ، فَلَمَّا لَاحَ مُصْبَاحُ الصَّبَاحِ احْتَمَلَ جَبْرِيلُ قُرَى مَنْ جَنَا عَلَى قَرَى جَنَاحِهِ، وَكَانَتْ خَمْسَ قُرَى أَعْظَمُهَا سَدُومَ فَمَا يَنْكَسِرُ فِي وَقْتِ رَفْعِهِمْ إِنَاءٌ وَلَمْ يُرَقْ فِي ضَعُودِهِمْ مَا فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نُبَاحَ كِلَايِهِمْ، أَسْرَعَتْ كَفَ انْقِلَابِهِمْ فِي انْقِلَابِهِمْ. فَتَفَكَّرَ كَيْفَ جُوزُوا بِالْقَلْبِ عَلَى قَلْبِ الْحِكْمَةِ، وَكَيْفَ عُوْقِبُوا عَلَى قَطْعِ السَّبِيلِ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ، فَلَتَحْذَرُ مَظَنَّةَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ، فَإِنَّهَا بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعَطَبِ ثَاوُبٌ، وَدَارَ هَاتِفِ الْعِبْرَةِ عَلَى دَرْبِ دَارِهِمْ يَنَادِي.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً﴾ [العنكبوت: الآية ٣٥]، فَلْيَحْذَرِ الْعَازِمُونَ عَلَى طَرِيقِ طَرِيقِهِمْ مِنْ وَعِيدٍ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: الآية ٨٣]. قِيلَ غُصَصِ الْجَرَضِ وَالْمِ الْحَرَضِ عِنْدَ حُلُولِ الْمَرَضِ حِينَ يَعْتَقِلُ اللِّسَانُ، وَيَتَحَيَّرُ الْإِنْسَانُ، وَتَسِيلُ الْأَجْفَانُ وَيَزُولُ الْعِرْقَانُ وَتُشْشِرُ الْأَكْفَانُ، فَيَا عَجَبًا كَيْفَ لَقِيَ لَذَّةَ الْعَيْشِ الْفَانِي وَقَدْ مَرَّ فَأَمَرَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ﴾ [الرحمن: الآية ٢٦]. وينشد:

الدَّهْرُ خَطِيبٌ كَافٍ الْفَكْرُ طَبِيبٌ شَافٍ

كَمْ قُطِعَ الزَّرْعُ قَبْلَ التَّمَامِ، يُوسَفُ الْعَقِيلُ يَنْتَظِرُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَزَلِيخَا الْهَوَى تَتَلَمَّحُ الْعَاجِلَ، يَنْبَغِي لِمَنْ أُلِيسَ ثَوْبَ الْعَافِيَةِ أَنْ لَا يُدْنِسَهُ بَوْسَخُ الزَّلَلِ،

يَا مَنْ قَدْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ وَبَطَشَ بِعَقْلِهِ حِسَّهُ اسْتَدْرِكُ صَيَانَةَ الْيَقَظَةِ، وَأَصِحْ بِسْمِعِ قَلْبِكَ لِلْمَوْعِظَةِ. وينشد:

يَا نَفْسُ تُوبِي فَإِنَّ الْمَوْتَ قَدْ حَانَ	وَأَعْصِي الْهَوَى فَالْهَوَى مَا زَالَ فِتْنَانَا
أَمَا تَرَيْنَ الْمَنَايَا كَيْفَ تَلْقَطُنَا	لَقَطًا وَتُلْحِقُ أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَيِّتٌ نُشِيعُهُ	نَرَى بِمَضْرَعِنَا آثَارَ مَوْتَانَا
يَا نَفْسُ مَالِي وَلِلْأَمْوَالِ أَتْرُكُهَا	خَلْفِي وَأَخْرُجُ مِنْ دُنْيَايَ غُرِيَانَا
أَبْعُدْ خَمْسِينَ قَدْ قَضَيْتُهَا لِعَبَا	قَدْ آنَ تَقْصِيرِي قَدْ آنَ قَدْ آنَا
مَا بَالُنَا نَتَعَامَى عَنْ بَصَائِرِنَا	نَنْسَى بِغَفْلَتِنَا مَنْ لَيْسَ يَنْسَانَا
نَزَادُ حِرْصًا وَهَذَا الدَّهْرُ يَزْجُرُنَا	كَأَنَّ زَا جَرْنَا بِالْحَرْصِ أَغْرَانَا
أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ وَمَنْ	كَانَتْ تَخِرُّ لَهُ الْأَذْقَانُ إِذْعَانَا
صَاحَتْ بِهِمْ حَادِثَاتُ الدَّهْرِ فَانْقَلَبُوا	مُسْتَبْدِلِينَ مِنَ الْأَوْطَانِ أَوْطَانَا
خَلُّوا مَنَازِلَ كَانَ الْعِزُّ مَفْرَشَهَا	وَاسْتَفْرَشُوا حُفْرًا غُبرًا وَقِيعَانَا
يَا رَاكِضًا فِي مِيَادِينِ الْهَوَى مَرَحًا	وَرَاغِبًا فِي ثِيَابِ الْعَيِّ نَشْوَانَا
مَضَى الزَّمَانُ وَحَلَّ الْعَمْرُ فِي لَعِبٍ	يَكْفِيكَ مَا قَدْ مَضَى قَدْ كَانَ مَا كَانَا

أَيْنَ الزَّادُ يَا مُسَافِرًا لَقَدْ أَنْشَبَ الْمَوْتُ فَيْكَ الْأَظَافِرَ، كَيْفَ تَصْنَعُ إِنْ غَضِبَ الْغَافِرُ، يَا مُبَارِزًا بِالْقَبَائِحِ؟ أَمْ كَافِرٌ؟ يَا نَائِمًا عَنْ صَلَاحِهِ مَا هَذَا الْهُجُوعُ، يَا دَائِمَ الْحُضُورِ عِنْدَنَا هَلْ عُمُرُكَ إِلَّا أُسْبُوعُ، تَتَلَمَّقُ لِلدُّنْيَا بِقَلْبِكَ وَتَعْتَذِرُ بِلَفْظِ مَصْنُوعٍ إِضْرَارُكَ كَالصَّحِيحِينَ، وَإِقْلَاعُكَ حَدِيثَ مَوْضُوعٍ مَزَّقَ أَمْلَكَ فَالْعُمُرُ قَصِيرٌ حَقٌّ عَمَلُكَ فَالْثَّاقِدُ بَصِيرُ.

كَانَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا يَبْكِي حَتَّى رَقَّ خُدُّهُ وَبَدَتْ أَضْرَاسُهُ هَذَا، وَقَدْ كَانَ عَلَى الْجَادَّةِ فَكَيْفَ بِمَنْ ضَلَّ؟ وَآ عَجَبًا مِنْ بُكَائِهِ وَمَا تَمَّ مَا تَمَّ فَكَيْفَ بِمَنْ مَا انْقَضَى يَوْمٌ إِلَّا وَتَمَّ مَا تَمَّ؟ يَا هَذَا إِنْ كَانَ قَدْ أَصَابَكَ دَاءٌ دَاوُودَ فَنُحْ نُوْحٍ نُوْحٍ تَحْيَا حَيَاةَ يَحْيَى. وينشد:

يَا لِدَيْغِ هَوَاهُمْ دَرِيَا	لَا تَحْسَبَنَّ مَاءَ الْعَيُونِ فَإِنَّهُ لَكَ
بِأَسْهُمٍ لَا تُرْتَجَى مِنْ أَسْرِهَا إِطْلَاقُ	شَنُّوا الْإِغَارَةَ فِي الْقُلُوبِ

وَاسْتَعَذَّبُوا مَاءَ الْجُفُونِ فَعَذَّبُوا أَسْرَ الْغَرَامِ فَدَرَّتِ الْآمَاقُ

إخواني، الدنيا سُمُومٌ قَاتِلَةٌ، والنفوسُ عن مكائدها غَافِلَةٌ، كم لَذَّةٌ تَجْلُو في العاجلةِ ومَرَارَتُهَا لَا تُطَاقُ في الآجَلَةِ، يا ابن آدم قلبُك قلبٌ ضعيفٌ، ورَأْيُكَ في إطلاقِ الطَّرْفِ رَأْيٌ سَخِيفٌ، عَيْنُكَ مُطْلَقَةٌ في الحرامِ، ولسانُكَ مُطْلَقٌ في الآثامِ، وجَسَدُكَ مُتَعَبٌ في كتبِ الحُطَامِ، كم نَظْرَةٌ مُحْتَقَرَةٌ زَلَّتْ بِهَا الْأَقْدَامُ. وينشد:

وَأَنَا الَّذِي اجْتَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرَفَهُ فَمَنِ الْمُطَالِبُ وَالْقَتِيلُ الْقَاتِلُ

وَاعْجَبًا أَطَارِحُكُمْ حَدِيثَ الْعُذِيبِ وَأَنْتُمْ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ، يَا مَنْقَطِعِينَ عَنِ الصَّالِحِينَ، تَعَالَوْا نَمْشِي رُفْقَةً تَجْمَعُنَا مَا تَمُّ الْأَسَى مَوْعِدُنَا مَقَابِرُ الْأَسَفِ، يَا هَذَا عَاتِبَ نَفْسِكَ عَلَى تَفْرِيطِهَا ثُمَّ حَاسِبِهَا عَلَى تَخْلِيطِهَا، حَدِّثْهَا مَا بَيْنَ يَدَيْهَا، حَذِّرْهَا الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، ذَانِكَ يُفَرِّقَانِ بَيْنَ الْمَرِّ وَزَوْجِهِ، وَهَذِهِ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ الَّتِي سَحَرَتْ سَحَرَةً بَابِلُ إِنْ أَقْبَلْتَ شَعَلْتَ، وَإِنْ أَذْبَرْتَ قَتَلْتَ.

تجديد:

إِيَّاكَ وَالْدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ	إِنَّهَا دَارُ مَتَى سَأَلَمَتْهَا لَمْ تَسَلِمِ
كَمْ أَهْلَكَتْ مِنْ وَائِقٍ قَدْ رَامَهَا	وَمُسَالِمٍ تَسْقِيهِ سُمُّ الْأَرْقَمِ
وَعَلَيْكَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ مَيِّتٌ	وَاجْعَلْهُ وَاقِيَّةً لِحَرِّ جَهَنَّمَ
وَتَجَنَّبِ الظُّلْمَ الَّذِي هَلَكَتْ بِهِ	أُمٌّ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَظْلِمِ
وَاحْذَرْ لِسَانَكَ لَا يَقْوَدُكَ لِلرَّدَى	فَلَرُبَّمَا قَادَ اللِّسَانُ إِلَى الدِّمِ

إخواني، احذروا الدنيا، فإنها إذا صَفَتْ حَلَالُهَا كَدَّرَتِ الدِّينَ، فكيف إذا أَخَذَتْ مِنْ حَرَامٍ. إِنَّ لَحْمَ الدَّبِيحَةِ ثَقِيلٌ عَلَى الْمَعَاصِي، فكيف إذا كَانَ مَنْ مَسَّهُ الظُّلْمَةُ فِي الظُّلْمَةِ يَمْشُونَ وَعَلَى فِرَاشِ الْآثَامِ يُمْسُونَ، وَفِي جَمْعِ الْحُطَامِ يُصْبِحُونَ ﴿فَمَا رِيحَتْ يَجْرَثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٦].

مَنْ نَبَتَ جِسْمُهُ عَلَى الْحَرَامِ، فَمَكَاسِبُهُ كَبِيرَةٌ يُوقَدُ الْحَجَرُ الْمَغْصُوبُ فِي

البناء أساسُ الخرابِ، أترأهم نسُوا طِيَّ اللَّيَالِي سَالِفَ الْجَبَّارِينَ ﴿وَمَا بَلَغُوا
مَعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ [سبأ: الآية ٤٥] فما هذا الإغترارُ ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ
الْمَثَلُتُ﴾ [الزَّعْد: الآية ٦]، مَنْ لَهُمْ إِذَا طَلَبُوا الْعُودَ: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَيِّنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾
[سبأ: الآية ٥٤]، كَمْ بَكَتْ فِي تَنْعَمِ الظَّلَامِ عَيْنُ أَرْمَلَةٍ وَاحْتَرَقَ قَلْبُ يَتِيمٍ ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ
نَبَأُكَ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: الآية ٨٨]، مَا أَبْيَضَ وَجْهُ الرَّغِيفِ حَتَّى اسْوَدَّ وَجْهُ
الضَّعِيفِ، لَا تَحْقِرُوا دُعَاءَ الْمَظْلُومِ، فَشَرَّرَ قَلْبِهِ مَحْمُولٍ بِعَجِيجِ صَوْتِهِ إِلَى سَقْفِ
بَيْتِكَ، نَبَأُهُ مُصِيبٌ، وَنَبَلُهُ قَرِيبٌ، وَقَوْسُهُ حَرْقُهُ، وَوَتْرُهُ قَلْقُهُ، وَمَرَمَاتُهُ فِي هَدَفِ
تُعْرَتِكَ، وَسَهْمُ سَهْمِ الْإِصَابَةِ وَقَدْ رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجْرِيْبُ. شعر:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ يَرْجِعُ عَقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ
نَامَتْ جُفُونُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنْمِ

إخواني، كَمْ مِنْ دَارٍ دَارَتْ عَلَيْهَا دَوَائِرُ النَّقَمِ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ
تَكُنْ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: الآية ٢٤]. كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخَافُ مَعَ الْعَدْلِ، يَا
مَنْ يَأْمَنُ مَعَ الْعُدُولِ، أَي: بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَنْتِي عَشْرَةَ سَنَةٍ، فَقَالَ: الْآنَ تَخَلَّصْتُ مِنْ
حَسَابِي، وَاعْجَبًا أَقِيمَ أَكْثَرَ مِنْ سِنِي الْوِلَايَةِ أَفَيْتَنِي بِهِذَا رَاقِدُ الْهَوَى الظُّلْمِ أَمْ
ظُلْمَةٍ فِي نَهَارِ الْوِلَايَةِ وَجَذْبُ يَرَعَى لُحُومَ الرَّعِيَّةِ، وَالْعَدْلُ صُورَةٌ فِي صُورِ الْحَيَاةِ
يُبْعَثُ بِهِ مَوْتُ الْجَوْرِ أَحْسَنُ الشَّرَائِعِ شَرَائِعِ الْعَدْلِ. وينشد:

تَشَاغَلَ بِالدُّنْيَا أَنْاسٌ فَأَصْبَحُوا عَنِ الْبَابِ مَحْجُوبِينَ قَدْ مُنِعُوا الْقُرْبَا
وَأَهْلُ التَّقَى اللَّهُ تَسْرِي قُلُوبُهُمْ إِلَى غَايَةِ نَالُوا بِهَا الْمَشْرَبَ الْعَذْبَا
فَجَالُوا بِنُورِ الْعِلْمِ فِي رَوْضَةِ التَّقَى بِهَا أَنْفُسُ الْأَبْرَارِ قَدْ مُلِئَتْ حُبًّا
هُمْ قَطَعُوا الدُّنْيَا بِخَوْفٍ وَعِيْدِهِمْ فَذَكَرَهُمُ لِلْمَوْتِ أَوْرَثَهُمْ كَرْبَا

السَّجْع:

يَا عَجَبًا لِلْمَشْغُولِينَ بِأَوْطَارِهِمْ عَنْ ذِكْرِ أخطارِهِمْ، لَوْ تَفَكَّرُوا فِي حَالِ
صَفَائِهِمْ وَأَكْدَارِهِمْ لَمَّا سَلَكُوا طَرِيقَ اغْتِرَارِهِمْ، أَمَا يَكْفِي فِي وَعْظِهِمْ
وَأَزْدِجَارِهِمْ، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: الآية ٣٠]، الدُّنْيَا دَارُ
الْآفَاتِ وَالْفِتَنِ، كَمْ غَرَّتْ غِرًّا وَمَا فَطِنَ، أَرْنَتْ ظَاهِرَهَا وَالظَّاهِرُ حَسَنَ، فَلَمَّا فَتَحَ

عَيْنَ الْفِكْرِ مِنْ رُقَادِ الْوَسَنِ قَالَ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: الآية ٩٩] وَلَيْتُنَّ، ذُبِحَ الْمَغْرُورُونَ بِسَيْفِ اغْتِرَارِهِمْ وَالشَّرْعُ يَنْهَاهُمْ عَنْ أَوْزَارِهِمْ، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾.

أَيْنَ أَرْبَابُ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ؟ ذَهَبَتْ وَاللَّذَاتُ دُونَ التَّبَعَاتِ، وَنَدِمُوا إِذَا قَدِمُوا عَلَى مَا قَدْ فَاتَ، وَتَمَنَّوْا بَعْدَ يُبْسِ الْعُودِ، وَهِيَاهُ فَتَلَمَّحَ فِي الْأَنَارِ سُوءَ أَذْكَارِهِمْ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾.

نَاذَلَهُمُ الْمَوْتُ عَلَى الذُّنُوبِ، فَأَوْثَقُوا فِي قَيْدِ الْجَهْلِ وَالْعُيُوبِ، وَرَحَلَتْ لَذَاتُ حَلَّتْ عَلَى الْأَفْوَاهِ وَالْقُلُوبِ، وَحَزِنُوا عَلَى الْعَائِبِ وَلَا حُزْنَ يَعْقُوبَ حِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِي ثِيَابِ إِدْبَارِهِمْ، وَعَصِيَّ التَّوْبِخِ فِي أَدْبَارِهِمْ، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾، قُلْ لِلنَّاطِرِينَ إِلَى الْمُشْتَهَى فِي دِيَارِهِمْ هَذَا أُنْمُوذَجَ مِنْ دَارِ قَرَارِهِمْ، فَإِنْ اسْتَعَجَلَ أَطْفَالُ الْهَوَى فِدَارِهِمْ، وَعَدَهُمْ قُرْبَ الرَّحِيلِ إِلَى دَارِهِمْ، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾.

احْذَرُوا نَظْرَةَ تُفْسِدُ الْقُلُوبَ، وَتُخْفِي عَلَيْكُمْ الذَّمَّ وَالْعُيُوبَ، وَتُسَخِّطُ مَوْلَاكُمْ عَلَّامَ الْغُيُوبِ، وَلَقَدْ وَصَفَ الطَّيِّبُ حَمِيَّةَ الْمَظْلُوبِ، فَلَوْ اسْتَعْمَلُوا الْحَمِيَّةَ لَمْ تَتَعَرَّضِ الْحُمَى بِأَبْشَارِهِمْ، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾.

وَقَفَّنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِلْهُدَى وَعَصَمَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْجَهْلِ وَالرَّدَى، وَسَلَّمَنَا مِنْ شَرِّ النُّفُوسِ فَإِنَّهَا شَرُّ الْعَدَى، وَجَعَلَنَا مِنَ الْمُتَنَفِّعِينَ بِوَعْظِ أَخْيَارِهِمْ، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ [النور: الآية ٣٠] وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

الْمَجْلِسُ الْحَادِي عَشَرَ فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

الحمد لله ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: الآية ١] لُظْفَهُ وَفَكَ الْأَسْرَى،
وَأَجْرَى بِإِنْعَامِهِ لِلْعَالَمِينَ أَجْرًا، وَدَبَّرَ أَحْوَالَهُمْ غَنَى وَفَقْرًا، وَأَسْبَلَ بِكَرَمِهِ عَلَى
الْعَاصِينَ سِتْرًا، وَقَسَمَ بَيْنِي أَدَمَ عَبْدًا وَحُرًّا، كَمَا رَتَّبَ الْبَسِيطَةَ عَامِرًا وَفَقْرًا،
وَقَوَّى بَعْضَ عِبَادِهِ فَقَطَعَهَا شَبْرًا شَبْرًا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ
مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَكُونُ لِي عِنْدَهُ ذِكْرًا، وَأُصَلِّي عَلَى نَبِيِّهِ مُقَدِّمِ الْأَنْبِيَاءِ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَى، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي أَنْفَقَ الْمَالَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى آلَ
الْكُفِّ صِفْرًا، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي هَيَّبَتْهُ كَسْرَتُ كِسْرَى، وَعَلَى عُثْمَانَ الْمَقْتُولِ مِنْ
غَيْرِ جُرْمٍ صَبْرًا، وَعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ لِلنَّبِيِّ صِهْرًا، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ أَعْلَاهُمْ
فِي النَّسَبِ قَدْرًا.

قال الله العظيم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٨٣]، الَّذِينَ سَأَلُوا الرَّسُولَ ﷺ هُمْ الْيَهُودُ، وَفِي اسْمِ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَرْبَعَةُ
أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: عَبْدُ اللَّهِ، قَالَهُ عَلِيٌّ.

وَالثَّانِي: الْإِسْكَندَرُ، قَالَهُ وَهْبٌ.

وَالثَّالِثُ: عَبَّاسٌ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ.

وَالرَّابِعُ: الصَّعْبُ بْنُ جَابِرٍ، قَالَهُ ابْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ. وَاخْتَلَفُوا هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَمْ لَا عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا، قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَالضَّحَّاكُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَلَا مَلِكًا، قَالَهُ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبَهٍ: كَانَ مَلِكًا وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ، وَفِي زَمَانٍ كَوْنِهِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ مِنْ وَلَدِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ، قَالَهُ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ نَمْرُودٍ قَالَهُ الْحُسَيْنُ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ فِي الْفَتْرَةِ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قَالَهُ وَهْبٌ وَفِيهِ بُعْدٌ.

قوله تعالى: ﴿فِي عَذِيبٍ حَمِيمٍ﴾ [الكهف: الآية ٨٦]. قَالَ الْحَسَنُ: وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي مَاءٍ يَغْلِي كَغَلْيَانِ الْقُدُورِ، وَيَفِيضُ الْمَاءُ مِنْ تِلْكَ الْعَيْنِ الْحَارَّةِ حَتَّى يَفِيضَ حَوْلَهَا مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَلَا يَأْتِي عَلَى شَيْءٍ إِلَّا احْتَرَقَ ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: الآية ٨٦] لِبَاسُهُمْ جُلُودُ السَّبَاعِ وَلَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مَا أَخْرَقَتِ الشَّمْسُ مِنَ الدَّوَابِّ إِذَا غَرَبَتْ نَحْوَهَا وَمَا لَفْظَتِ الْعَيْنُ مِنَ الْحَيْتَانِ، ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: الآية ٨٦]، مَنْ قَالَ: هُوَ نَبِيٌّ، قَالَ: هَذَا وَحْيِي. وَمَنْ قَالَ: لَيْسَ نَبِيًّا. قَالَ: هَذَا إِلَهُامٌ.

﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَّأًا﴾ [الكهف: الآية ٨٩]، أَي: طَرِيقًا آخَرَ يُوصِلُهُ إِلَى الْمَشْرِقِ، فَلَمَّا أَفْرَغَ عَنْ غَرْبِ الْعَرَبِ عَلَى غَارِبِ الْعُرْبَةِ مَشَى نَحْوَ الْمَشَارِقِ، فَلَمْ يَزَلْ يَحُورُ الْكُنُوزَ إِلَى أَنْ طَلَعَتْ طَلَائِعَةُ الطَّلَعَةِ عَلَى مَطْلِعِ الشَّمْسِ، فَأَبْرَزَ إِبْرِيْزُ عَدْلِهِ الْمَشْرِقِ فِي الْمَشْرِقِ، فَوَجَدَ أَقْوَامًا عُرَاءَ فِي أَسْرَابٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مَا أَخْرَقَتِ الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، فَإِذَا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ خَرَجُوا مِنْ أَسْرَابِهِمْ فِي طَلَبِ مَعَايِشِهِمْ مِمَّا أَخْرَقَتْهُ، وَبَلَّغْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَكَانٍ لَا يَثْبُتُ فِيهِ بُنْيَانٌ. قَالَ

الحسن: كانوا إذا غَرَبَتِ الشَّمْسُ خَرَجُوا يَرْعُونَ كَمَا تَرعى الْوُحُوشُ.

﴿ثُمَّ أُنْعِمْ سَبَّأًا﴾ [الكهف: الآية ٨٩]، طَرِيقًا ثَالِثًا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ،
ثُمَّ رَأَى بَاقِيَ عَرْضِهِ فِي مَقْدَرَةِ ذِمَّتِهِ كَالَّذِينَ، فَسَلَكَ بَيْنَ السَّيِّدَيْنِ، قَالَ وَهَبُ بْنُ
مُنْبِيهِ: وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَيَقِّنَانِ فِي السَّمَاءِ وَمِنْ وَرَائِهِمَا الْبَحْرُ، فَأَمَّا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
فَهُمَا رَجُلَانِ مِنْ أَوْلَادِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ.

قال عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِنْهُمْ مَنْ طَوَّلَهُ شَبْرٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ طَوَّلَهُ مِفْرَطٌ وَلَهُمْ
شَعْرٌ يُوَارِيهِمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَكَانَ فَسَادُهُمْ قَتَلَ النَّاسَ.

قال علماء أهل السَّيْرِ: لَمَّا وَصَلَ إِلَى مُدُنٍ مُعْطَلَةٍ قَدْ بَقِيَ فِيهَا بَقَايَا سَأَلُوهُ
أَنْ يَسُدَّ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَأَمَرَ الصَّنَاعَ فَضَرَبُوا لَبَنَ الْحَدِيدِ طَوْلَ
كُلِّ لَبْنَةٍ ذِرَاعٌ وَنَصَفٌ وَسَمَّكُهَا شَبْرٌ، فَلَمَّا حَشَا حَشَا الْجَبَلَيْنِ بِالزُّبْرِ قَالَ سَلَامُ
الْتَرَجَمَانُ: رَأَيْتُ جَبَلًا أَمْلَسَ وَفِيهِ السَّدُّ، وَهُنَاكَ بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ وَلَهُ مِضْرَاعَانِ
مُغْلَقَانِ عَرْضُ كُلِّ مِضْرَاعٍ خَمْسُونَ ذِرَاعًا فِي ارْتِفَاعٍ خَمْسِينَ فِي ثُخْنٍ خَمْسَةِ
أَذْرُعٍ، وَقَائِمَتَاهُمَا فِي دَرَارَةٍ عَلَى الْبَابِ، وَعَلَى الْبَابِ قُفْلٌ طَوْلُهُ سَبْعَةُ أَذْرُعٍ فِي
غِلْظٍ ذِرَاعٍ، وَارْتِفَاعُ الْقُفْلِ مِنَ الْأَرْضِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَفَوْقَ الْقُفْلِ بِقَدْرِ
خَمْسِ أَذْرُعٍ، غَلَقَ طَوْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ طَوْلِ الْقُفْلِ، وَعَلَى الْغَلَقِ مِفْتَاحٌ مُعَلَّقٌ فِي
سِلْسِلَةٍ طَوْلُهَا ثَمَانِيَةُ أَذْرُعٍ فِي اسْتِدَارَةِ أَرْبَعَةِ أَشْبَارٍ، وَعَتَبَةُ الْبَابِ عَشْرَةُ أَذْرُعٍ.

وَرَأْسُ تِلْكَ الْحُصُونِ يَرْكَبُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فِي عَشْرَةِ فَوَارِسَ، مَعَ كُلِّ
فَارِسٍ مِرْزَبَةٌ مِنْ حَدِيدٍ فَيَضْرِبُ الْقُفْلَ بِتِلْكَ الْمِرْزَبَاتِ مَرَّاتٍ؛ لِيَسْمَعُوا الصَّوْتَ
فَيَعْلَمُوا أَنَّ هُنَاكَ حَفْظَةً.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَخْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، فَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَخْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ
يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَتَخْفِرُونَهُ غَدًا
فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ فَيَرَوْنَهُ كَأَشَدَّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ
عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا إِذْ كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا

فَتَحْفَرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى هَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفَرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ».

ثُمَّ إِنْ ذَا الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَادَ بَلَغَ بَابِلَ فَنَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَكَتَبَ إِلَى أُمِّهِ يُعْزِيهَا فِي نَفْسِهِ، وَكَانَ فِي كِتَابِهِ: اضْنَعِي طَعَامًا وَاجْمَعِي مَنْ قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ نِسَاءِ الْمُلُوكِ وَلَا يَأْكُلُ طَعَامَكَ مَعَ مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ ففَعَلْتُ فَلَمْ يَأْكُلْ أَحَدٌ فَعِلِمْتُ مَا أَرَادَ، فَلَمَّا وَصَلَ تَابُوتُهُ إِلَيْهَا تَلَقَّيْتُهُ أُمُّهُ بِعُلَمَاءِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: يَا ذَا الَّذِي بَلَغْتَ السَّمَاءَ حِكْمَتُهُ وَجَارَ الْأَقْطَارَ، مُلْكُهُ مَا لَكَ الْيَوْمَ يَا نَائِمًا لَا يَسْتَيْقِظُ، وَسَاكِتًا لَا تَتَكَلَّمُ، مَنْ يُبْلَعُكَ عَنِّي أَنْكَ وَعَظَمْتَنِي، فَاتَّعَظْتُ وَعَزَّيْتَنِي فَتَعَزَّيْتُ فَعَلَيْكَ السَّلَامُ حَيًّا وَمَيِّتًا. وَمَا يَنْفَعُ الْآدَابُ وَالْعَقْلُ وَالْحِجَى وَصَاحِبُهُ عِنْدَ الْكَمَالِ يَمُوتُ.

وعظ:

إِخْوَانِي، عَجَبًا كَمْ مَشَى بِهِ فِي مَحَجَّةِ الْمَشْرِقِ مُحَجَّلٌ، وَطَرَقَ بِهِ طَرِيقَ الْمَغْرِبِ مَغْرَبٌ، وَكَمْ تَقَدَّمَ فِي مُقَدَّمَتِهِ فِي مَقْنَعٍ مُقْنَعٌ وَشَاكَ فِي السَّلَاحِ كَافِرٌ غَيْرُ شَاكَ فِي الصَّلَاحِ، وَلَا كَافِرٌ مِمَّا رَدَّ عَنْهُ وَزُدَّ وَلَا كُفِّتْ، وَلَا فَرَّ بِهِ مِنْ مَنِيَّةٍ سَابِقٍ وَلَا سَكِّيتْ، فَكَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ مَا تَحَرَّكَ عَلَى حَارِكِ فَرَسٍ، وَلَا شَاكَ شَاكِلَتِهِ بِشَوْكَتِهِ بِشَوْكِ عَقَبٍ، بَلْ مَرَّ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَذَلَّ لِلْمَوْتِ وَقَبْلَهَا لَمْ يَهُنْ، فَتَلَمَّحَ آخِرُ الدُّنْيَا إِنْ كُنْتَ تَدْرِي، وَأَنْظُرْ فِي أَيِّ بَحْرِ الْهَلَاكِ تَجْرِي، وَأَصْبَحْ لِخُطَابِ الْخُطُوبِ وَافْتَهُمَ مَا يَجْرِي، كُنْ عَلَى نَصِيحَةٍ فَهَٰذَا الرِّكَايَةُ تَجْرِي أَوْ مَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ الدَّهْرِ أَفَلَا تُسَيِّئُ الظَّنَّ بِالْعُمُرِ؟ شعر:

الْقِشْرُ نَصِيبِي وَلِغَيْرِي اللَّبُّ فَالْعَيْنُ دَمًا لِأَجْلِ ذَا تَنْصَبُ
مَا أَصْنَعُ قَدْ زُجِرْتُ وَأَمْرِي صَعْبُ الْعُمُرُ مَضَى وَضَاعَ مِنِّي الْقَلْبُ

وعظ:

يَا ابْنَ آدَمَ وَيَحْكُ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَرَاضُ، وَأَمْرُ الدُّنْيَا عَرَضٌ، وَأَنْتُمْ لِأَسْهَمِهَا غَرَضُ، يَا مَنْ بَنَى كُلَّمَا بَنَى نَقَضَ، يَا مَنْ كُلَّمَا رَفَعَ انْخَفَضَ، يَا عَجِيبَ الدَّوَاءِ

وَالْمَرَضِ، كَمْ شَاهَدْتَ مَسْلُوبًا، وَكَمْ عَايَنْتَ مَغْلُوبًا، وَكَمْ مَخْفُوضٍ بَعْدَ الرَّفْعِ، وَكَمْ مَضْرُورٍ بَعْدَ النَّفْعِ، كَمْ مَذْفُوعٍ عَنْ أَغْرَاضِهِ أَقْبَحَ الدَّفْعِ بَيْنَا هُوَ فِي ثِيَابِ أَوْجَاعِهِ وَمُنَى السَّلَامَةِ تَخْطُرُ فِي أَطْمَاعِهِ، أَسْرَعَ الْمَوْتُ وَدَنَا لِانْتِزَاعِهِ فَعَجَزَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ وَعَنْ دِفَاعِهِ، فَحَارَتْ مِنْ حَالِهِ قُلُوبُ أَتْبَاعِهِ وَاشْتَغَلَ بِضِيَاعِ أَمْرِهِ عَنْ ضِيَاعِهِ، وَأَقْبَلْتَ قَبَائِلُهُ عَلَى قِبَلِ وَدَاعِهِ، وَبَكَى لِمَيْلِهِ إِلَى الْهَوَى عِنْدَ رَوْعِهِ وَنَزَاعِهِ، وَهَذَا مَصِيرُكَ فَاَنْتَبِهْ لَهُ وَرَاعِهِ.

إخواني، مَا بَالُ النَّفُوسِ تَعْرِفُ حَقَائِقَ الْمَصِيرِ، وَلَا تَصْرِفُ عَوَائِقَ التَّقْصِيرِ، وَقَدْ رَضِيتَ بِالزَّادِ الْيَسِيرِ، وَقَدْ عَلِمْتَ طُولَ الْمَسِيرِ، أَمْ كَيْفَ أَقْبَلْتَ عَلَى النَّذِيرِ، وَقَدْ حُذِرْتَ غَايَةَ التَّحْذِيرِ، أَمَا تَخَافُ زَلَلَ التَّعْثِيرِ؟ أَمَا حُوسِبَتْ عَلَى الْقِتْلِ وَالنَّقِيرِ. وينشد:

أَخْلَقَ الذَّنْبُ وَالْخَطِيئَةُ وَجْهِي	وَلَقَدْ كُنْتُ فِي الْبَقَاءِ نَبِيلاً
أَسْرَتْنِي الذُّنُوبُ فَاسْتَوْهَبْتَنِي	طَوَّفْتَنِي الذُّنُوبُ طَوْفًا ثَقِيلاً
طَرَدْتَنِي الذُّنُوبُ عَنْ بَابِ رَبِّي	أَوْرَثْتَنِي الذُّنُوبُ حُزْناً طَوِيلاً
مَا أَرَى لِي بَيْنَ الْعَصَاةِ نَظِيراً	لَا وَلَا لِي فِي الْمُذْنِبِينَ عَدِيلاً
نَكَّسَتْ رَأْسِي الْخَطِيئَةُ حَتَّى	صِرْتُ فِي النَّاسِ بِالذُّنُوبِ ذَلِيلاً

إخواني، حِبَالُ الدُّنْيَا رَثَاثٌ، وَسَاحِرُ الْهَوَى نَقَاثٌ، وَالْأَمَانِيُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَضْغَاثٌ، وَالْمَالُ الْمُذْخَرُ لِلزُّرَاثِ، عَجَبًا لِأَجْسَامِ ذُكُورٍ وَعُقُولِ إُنَاثٍ، إِلَى مَتَى الرِّوَاخُ فِي الْهَوَى وَالتَّغْلِيْسُ، وَإِلَى مَتَى الْبَقَاءُ فِي صُحْبَةِ إِبْلِيسَ؟ وَكَمْ بِهَرَجَةٍ فِي الْعَمَلِ، وَكَمْ تَدْلِيسٍ؟ أَيْنَ الْأَفْرَانُ؟ هَلْ لَهُمْ مِنْ حَسِينٍ؟ كَمْ يُرْمَى هَدَفُ سَمْعِكَ يَرِشِقُ بِكَلامٍ غَيْرِ مُصِيبٍ؟ لَا تَنْفَعُ الرِّيَاضَةُ إِلَّا فِي النَّجِيبِ. شعر:

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلٌ مَنْ لَا يَرْعَوِي عَنْ غِيَّهِ وَخَطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ

يَا بُعَيْدَ الصَّلَاحِ لَوْ سُقِيَ الْحَنْظَلُ مَاءَ السُّكَّرِ لَمْ يَخْرُجْ حُلُوءًا سَحَابُ الْهُدَى
قَدْ طَبَّقَ بَيْدَاءَ الْأَكْوَانِ، وَأَظُنُّ أَرْضَ قَلْبِكَ سَبْخَةً إِنَّمَا يَغْلِبُ هَذَا عَلَى ظَنِّي لُبْعِدِ

فَهَمِّكَ، وَإِلَّا قَدْ تَسْتَحِيلُ الْخَمْرُ خَلَا كَمْ تَحْضُرَ الْمَجْلِسَ وَمَا عَلِقَتْ مِنْهُ بِشْيءٍ
وَيَحْكُ هَذَا التَّنْفِيحُ يُطْرَحُ فِي السُّمُوسِمِ فَيَعْبُقُ مِنْهُ طَوْلُ السَّنَةِ وَكَذَلِكَ الْوَرْدُ فِي
الْأَسْنَانِ. وينشد:

مَالِي جُفَيْتُ وَكُنْتُ لَا أَجْفَى وَدَلَّيْلُ الْهَجْرَانِ لَا تَحْفَى
وَأَرَاكَ تَشْرَبُنِي وَتَمْرُجُنِي وَلَقَدْ عَهْدْتُكَ شَارِبِي صَرْفًا

إخواني، مَثَّلُوا أَنْفُسَكُمْ وَقَدْ وَقَفْتُمْ عَلَى النَّارِ وَقُلْتُمْ: ﴿يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ﴾
[الأنعام: الآية ٢٧] فَلَمَّا لَمْ تُجَابُوا صَحْتُمْ. يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا، يَا
مَذْنِبِينَ صَرَفْتُمْ هِمَّتَكُمْ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، وَأَعْرَضْتُمْ بِالْكُلِّيَّةِ عَنْ أُخْرَاكُمْ فَكَيْفَ بِكُمْ
إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ تَحْضُرُونَ الْمَجْلِسَ فُرْجَةً
وَتَجْعَلُونَ رَجَاءَ النَّفْعِ حُجَّةً، وَلَا تَسْلُكُونَ إِلَى الْعَمَلِ مَحَجَّةً ﴿وَمَا أُبْرِئِي نَفْسِي إِنْ
الْنَفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالشُّوْءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: الآية ٥٣]، رَبِّي يَا هَذَا تَهْيَأُ لِسَمَاعِ
الْمَوَاعِظِ بِحُضُورِ قَلْبِكَ يَنْفَعُكَ مَا تَسْمَعُ مَتَى حَضَرَ الْبَدَنُ وَغَابَ الْقَلْبُ ضَاعَ
الْحَدِيثُ إِذَا فَاضَ النَّهْرُ وَلَمْ تَحْقِرْ سَاقِيَةً إِلَى زَرْعِكَ لَمْ يَصِلِ الْمَاءُ إِلَى الْبُسْتَانِ.
شعر:

أَيُّهَا النَّائِبُ عَنْ نَهْجِ الْهُدَى وَهُوَ بَادٍ وَاضِحٌ لِلْسَّالِكِينَ
إِلَيْهِ عَنْ ذِكْرِ التَّصَابِي إِنَّهُ سَرَقَ عِنْدَ بُلُوغِ الْأَرْبَعِينَ

يَا غَافِلًا فِي بَطَالَتِهِ، يَا مَنْ لَا يُفِيقُ عَنْ سَكْرَتِهِ أَيْنَ نَدَمُكَ عَلَى ذُنُوبِكَ؟ أَيْنَ
حُزْنُكَ عَلَى غُيُوبِكَ؟ إِلَى مَتَى تُؤْذِي بِالذَّنْبِ نَفْسَكَ، وَتُضَيِّعُ يَوْمَكَ وَأَمْسِكَ، وَلَا
مَعَ الصَّادِقِينَ لَكَ قَدَمٌ، وَلَا مَعَ النَّادِمِينَ لَكَ نَدَمٌ، هَلَّا بَسَطْتَ فِي الدُّجَى لَكَ يَدًا
سَائِلَةً؟ وَأَجَرَيْتَ فِي السُّجُودِ دُمُوعَكَ سَائِلَةً؟

إخواني، انْتَبَهُوا لِخَلَاصِكُمْ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ أَنْتُمْ عَلَى الْإِزْعَاجِ فَمَا هَذَا
التَّوَاتُطُنْ، يَا مَنْ مَالَ بِهِ حُبُّ الْمَالِ، حَتَّى مَالَ إِلَى أَفْبَحِ مَالٍ لَوْ صَحَّ فَهَمُّكَ لَعِلِمْتَ أَنَّهُ
لَيْسَ لَكَ عَقْدٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾ [التوبة: الآية ١١١] وَبَيَانُ حُكْمِ الْبَيْعِ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: الآية ٧]، فَإِنْ قَصُرَتْ هِمَّتُكَ
فَعَامِلُنَا مُعَامَلَةَ التَّاجِرِ بِخَطَابٍ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥]،

فَإِنْ نَزَلْتَ عَنْ هَذَا الْمَقَامِ فَاحْذَرِ مِنْ تَوْبِيخِ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ [التوبة: الآية ٧٦]، أَوْ وَعِيدِ ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٠]، أَوْ عُقُوبَةِ ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: الآية ٣٥]. شعر:

يَجْنِي الْغِنَا لِلْيَامِ النَّاسِ لَوْ عَلِمُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ
هُمْ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَسُنَّ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرُوحُ يَلْتئمُ

إخواني، كَانَتْ الدُّنْيَا إِذَا قَدِمَتْ عَلَى الصَّالِحِينَ قَدْمُهَا إِلَى الْآخِرَةِ، أَيْنَ نَحْنُ مِنَ الْقَوْمِ؟ كَمْ بَيْنَ الْيَقْظَةِ وَالتَّوَمِّ لَمَّا جَلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُرُوسَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ نِثَارٍ، فَأَخْرَجَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِصْفَ مَالِهِ، فَتَنَزَّ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْكُلَّ، فَقَامَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَجْهِيزِ جَيْشِ الْعُسْرَةِ بَوْلِيمَةِ الْعُرْسِ، فَقَامَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بِحَالِ الْغِيَرَةِ فَبَتَّ طَلَاقَ الدُّنْيَا ثَلَاثًا، ثُمَّ رَأَى بَعْضَ جَهَازِهَا فِي بَيْتِهِ وَهُوَ الْخَاتَمُ فَرَمَى بِهِ فِي الصَّلَاةِ وَلَمْ يَقْطَعْ.

وَاعْجَبَا لَهُ سَلَمَ وَمَا سَالَمَ فَكَانَ الْقَوْمُ يَبْيَعُونَ الْفَانِي بِالْبَاقِي، وَأَنْتُمْ قَدْ عَكَسْتُمْ كَيْفَ تُطَلَّبُ الشَّجَاعَةُ مِنْ جَبَانٍ، يَا مَطْرُودِينَ أَمَا تَشْعُرُونَ بِالطَّرْدِ إِنَّمَا يَجِدُ وَقَعَ السَّيَاطِ مَنْ لَهُ حِسٌّ. تَاللَّهِ لَقَدْ أَفْلَقَكَ الْهَجْرُ مَا سَكَنْتَ غَيْرَ دَارِ الرَّاحَةِ؟ يَا هَذَا لَيْتَ صَوْتُ هَذَا الْهَاتِفِ وَصَلَ إِلَى سَمْعِ قَلْبِكَ، يَا لَهُ مِنْ عِتَابٍ لَوْ كَانَ لِلْمُعَاتَبِ قَلْبٌ.

إخواني، السُّنُونُ مَرَاجِلُ، وَالشُّهُورُ فَرَاسِخُ، وَالْأَيَّامُ أَمْيَالُ، وَالْأَنْفَاسُ خَطَوَاتُ، وَالطَّاعَاتُ رُؤُوسُ الْأَمْوَالِ، وَالْمَعَاصِي قُطَاعُ الطَّرِيقِ، وَالرَّبْحُ الْجَنَّةُ، وَالْخُسْرَانُ النَّارُ.

وَلِهَذَا الْخَطْبِ شَمَّرَ الصَّالِحُونَ عَنْ سَاقِ الْجِدِّ فِي سُوقِ الْمُعَامَلَةِ، وَوَدَّعُوا بِالْكُلِّيَّةِ بِلَادَ النُّفُوسِ، كُلَّمَا رَأَوْا مَرْكَبَ الْحَيَاةِ يَخْتَطِفُ فِي بَحْرِ الْعُمْرِ شَعْلُهُمْ هُوَ مَا هُمْ فِيهِ عَنِ الزُّهْرَةِ فِي عَجَائِبِ الْبَحْرِ فَمَا كَانَ إِلَّا عَنْ قَلِيلٍ حَتَّى قَدِمُوا مِنَ السَّفَرِ، وَأَعْقَبَهُمُ الرَّاحَةُ فِي طَرِيقِ التَّلَقِّي، فَدَخَلُوا بَلَدَ الْوَصْلِ وَقَدْ حَازُوا رِبْحَ الدَّهْرِ.

يَا جَبَانَ الْعَرَمِ لَوْ فَتَحَتْ عَيْنَ الْبَصِيرَةِ فَرَأَيْتَ بِإِنْسَانِ الْفِكْرِ مَا نَالُوا لَصَاحَ لِسَانِ التَّلَهُّفِ، يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ وَأَيَّنَ الْأَرْضُ مِنَ السَّمَاءِ لَا أَنْتُمْ مِنْهُمْ وَلَا

تَدْرِي مَنْ هُمْ، يَا حَسْرَةَ مَنْ فَاتُوهُ، يَا قَوَّامَ اللَّيْلِ اشْفَعُوا فِي الرَّاقِدِ، يَا أَحْيَاءِ
الْقُلُوبِ تَرَحَّمُوا عَلَى الْمَيِّتِ. شعر:

رَأَى الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَحَنَّنَ إِلَى النَّجْدِ وَبَاتَ أَسِيرُ الشَّقْوِ فِي قَبْضَةِ الْوَجْدِ
يُعَالِجُ قَلْبًا قَلْبَتَهُ يَدُ الْهَوَى عَلَى جَمْرَةِ التَّوَدُّعِ فِي لَهَبِ الْوَقْدِ
وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا زَفِيرٌ وَأَنَّهُ تَقَدُّ شِغَافَ الْقَلْبِ مِنْهُ وَلَا تُجَدِّ
وَمَا أَنْطَقَتْهُ الْبَارِقَاتُ تَشَوْقًا لِنَجْدٍ وَلَكِنْ لِلْمُقِيمِينَ فِي نَجْدِ

إخواني، مصاييحُ القلوبِ الظَّاهِرةِ في أَصْلِ الْفِطْرَةِ مُنِيرَةٌ قَبْلَ الشَّرَائِعِ، وَلَمَّا
أُضَاءَتْ أَنْوَارُ النُّبُوَّةِ رَأَتْهَا عَيْنُ بَلَالِ الْحَبَشِيِّ، وَعَمِيَتْ عَنْهَا عَيْنُ أَبِي لَهَبِ الْقُرَشِيِّ.

إخواني، اخذُوا نِيَالِ الْقُدْرَةِ كَانَ إِبْلِيسُ كَالْبَلَدَةِ الْعَاهِرَةِ بِالْعِبَادَةِ فَوَقَعَتْ
فِيهَا صَاعِقَةُ الشَّقَاءِ، فَهَلَكَ أَهْلُهَا ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾
[التَّمَلُّ: الْآيَةُ ٥٢]. شعر:

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلُّ إِحْسَانِهِ قَبِيحٌ

أَخَذَ كِسَاءَ تَرْهِيهِ فَجَعَلَ جُلًّا لِكَلْبِ أَهْلِ الْكَهْفِ، فَأَخَذَ الْمَسْكِينَ فِي
عَدَاوَةِ الْآدَمِيِّ، فَكَمَ بَالِغٌ وَاجْتَهَدَ وَمَا وَقَعَ فِي الْبِئْسِ إِلَّا مَنْ حَفَرَ إِنَّمَا هَلَكَ
إِبْلِيسُ بِكِبْرِيَاءِ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الْأَعْرَافُ: الْآيَةُ ١٢] وَسَلِمَ آدَمُ بِذُلِّ ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾
[الْأَعْرَافُ: الْآيَةُ ٢٣].

لَقِيَ إِبْلِيسُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَصَارَعَهُ عُمَرُ فَصَرَاعَهُ فَضَرَبَهُ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ بِلِسَانِ الْحَالِ: يَا عُمَرُ أَنَا الْمَقْتُولُ بَسِيفِ
الْخِذْلَانِ فَإِيَّاكَ عَنِّي لَا يَكُنْ بِكَ مَا بِي. يَا عُمَرُ، أَنْتَ كُنْتَ فِي زَمَانِ الْخَطَّابِ لَا
تَعْرِفُ طَرِيقَ الْبَابِ وَأَنَا الَّذِي كُنْتُ فِي سُدَّةِ السِّيَادَةِ وَأَتَّبَاعِي الْمَلَائِكَةُ، فَوَصَلَ
مَنْشُورٌ ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: الْآيَةُ ٢٣] فَعَزَلَنِي وَوَلَّاكَ فَكُنْتُ عَلَى حَذَرٍ مِنْ
تَحْوِيلِ الْحَالِ، فَإِنَّهُ الْحُسَامَ الَّذِي قُتِلْتُ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ. فَلَمَّا لَعِبَتْ أَيْدِي الْقَلَتِ
بِعُمَرَ بَادَرَ يَطْرُقُ بَابَ الْبَرِيدِ بِالْعَزْلِ وَالْوِلَايَةِ: يَا حُذَيْفَةَ هَلْ أَنَا مِنْهُمْ.

إخواني، أَسَفًا لِمَنْ إِذَا رَجَحَ الْعَامِلُونَ خَسِرَ، وَإِذَا أُطْلِقَ الْمُتَّقُونَ أَسِرَ مَنْ لَهُ

إِذَا خُوصِمَ وَلَمْ يَتَّصِرْ وَنُسِيَ يَوْمَ الرَّحْمَةِ فَمَا ذُكِرَ، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْغَافِلُ،
فَأَيَّامَ الْعَمْرِ كُلُّهَا قَلَائِلُ.

السَّجْع:

لَوْ رَأَيْتَ الْعُصَاةَ وَالْكَرْبُ يَعْشَاهُمْ، وَالنَّدَمُ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ وَكَفَاهُمْ،
وَالْأَسَفُ عَلَى مَا قَدْ فَاتَهُمْ قَدْ أَضْنَاهُمْ، يَتَمَنُّونَ الْعَافِيَةَ وَهَيْهَاتَ مِنْهُمْ، ﴿فَإِنَّ لَهُمْ
إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾، نَزَلَ بِهِم الْمَرَضُ، فَأَلْقَاهُمْ كَالْحَرَضِ، فَإِنْ كَفَّ أَمَلُهُمْ
وَانْقَبَضَ، وَانْعَكَسَ عَلَيْهِمُ الْغَرَضُ، وَرَجَمَهُمْ فِي مَرَضِهِمْ مَنْ عَادَاهُمْ، ﴿فَإِنَّ لَهُمْ
إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾، يَتَمَنُّونَ عِنْدَ الْمَوْتِ رَاحَةً، يَنَاقِشُونَ عَلَى الْخَطَايَا وَلَا سَمَاحَةَ
وَيَسْتَهْوُونَ مِنَ الْكَرْبِ اسْتِرَاحَةَ، فَهُمْ كَطَائِرٍ قَصَّ الصَّائِدُ جَنَاحَهُ، فِي حَبْسِ النَّزْعِ
وَالْكَرْبِ يَعْشَاهُمْ، ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٨].

أَلَمْ أَسْقِهِمْ أَشَدَّ مَا فِي الْعِلَّةِ، وَتَحَسَّرُهُمْ عَلَى كُلِّ مَا مَضَى مِنْ زَلَّةٍ،
وَجَبَلُ نَدَمِهِمْ قَدْ نَتَقَ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ بَعْدَ الْكِبَرِ قَدْ عَادُوا أَذِلَّةً وَتَمَلَّكَ
أَمْوَالُهُمْ هُمْ سِوَاهُمْ، ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٨]، مَا نَفَعَهُمْ مَا
تَعَبُوا لِتَحْصِيلِهِ وَجَالُوا، وَلَا رَدَّ عَنْهُمْ مَا جَمَعُوا وَاحْتَالُوا، جَاءَ الْمَرَضُ
فَأَذَلَّهُمْ بَعْدَ أَنْ صَالُوا فإِذَا قَالَ الْعَائِدُ لِأَهْلِيهِمْ كَيْفَ بَاتُوا؟ قَالُوا: إِنَّ السَّقَمَ
قَدْ وَهَأَهُمْ ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٨]، انْزَلُوا فِي بُطُونِ
الْقَلَاقِلَا يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ وَلَا ذُو وَدٍّ يَنْفَعُهُمْ بَلَى قَدْ أَضْنَاهُمْ بَلَاءُ الْبِلَى، فَلَوْ
رَأَيْتَهُمْ فِي الْبَلَاءِ هُمْ وَهُمْ بِلَاهُمْ ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٨]،
فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ الْفَوَاتِ، وَالْحِذَارَ الْحِذَارَ مِنْ نَوْمِ الْعَفَلَاتِ، يَوْمَ يَقُولُ
الْمُذْنِبُ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ﴾ ٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا [المؤمنون: الآيتان ٩٩، ١٠٠]،
وَيُقَالُ فَاتٌ، وَيُنَجِّ الْعَافِلِينَ عَنْ هَذَا هُمْ مَا أَعْمَاهُمْ، ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾
[محمّد: الآية ١٨] نَبَّهَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ وَالرَّقْدَةِ، وَذَكَّرَنَا الْمَوْتَ وَمَا
سَيَأْتِي بَعْدَهُ. اللَّهُمَّ اعصمهم أيضًا من فعل الخطايا.

اللَّهُمَّ انْزِعْ عَنْ قُلُوبِنَا مَكْنُونَ الرِّيَاءِ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِأَبْنَائِنَا وَلِجَمِيعِ
الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ الثَّانِي عَشَرَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، وَأَكْرَمَ الرَّازِقِينَ، وَمُكْرِمَ الْمُوَافِقِينَ، وَمُعْظِمِ الصَّادِقِينَ، وَمُجِلِّ الْمُتَّقِينَ، وَمُذِلِّ الْمُنَافِقِينَ، حَفِظَ يُوسُفَ لِعِلْمِهِ بِعِلْمِ الْيَقِينِ، فَأَلْبَسَهُ عِنْدَ الْهَمِّ دُرُوعَ الْيَقِينِ، وَمَلَكَهُ إِذْ مَلَكَ عِنَانَ الْهَوَى مَيْدَانَ السَّابِقِينَ فَذَلَّ لَهُ إِخْوَتُهُ يَوْمَ ﴿وَمَا كُنَّا سَرِيقِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٣]، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [يُوسُف: الآية ٩١].

أَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَشْرَفَ الذَّاكِرِينَ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ سَابِقِ الْمُبَكِّرِينَ، وَعَلَى عُمَرَ سَيِّدِ الْمُتَّقِينَ الْأَمِيرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْمُذَكِّرِينَ، وَعَلَى عُثْمَانَ الشَّهِيدِ بِأَيْدِي النَّاكِثِينَ وَالْمَاكِرِينَ، وَعَلَى عَلِيٍّ إِمَامِ الْعِبَادِ الْمُتَفَكِّرِينَ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الْمُقَدَّمِ عَلَى الْبَاقِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

قال الله العظيم: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿٢﴾ [يُوسُف: الآية ٣].

قال بعضهم: إِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ أَحْسَنَ الْقَصَصِ، لِأَنَّ مَالَ كُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْ ذُكِرَ فِيهَا كَانَ إِلَى الْخَيْرِ، وَلَمْ يَكُنْ مَالُهُمْ إِلَى شَرٍّ كَمَا كَانَ مَالُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ. أَلَا تَرَى مَا كَانَ لِإِبْلِيسَ فِي قِصَّةِ آدَمَ مِنْ طَرْدٍ وَلَعْنٍ.

وَذَكَرَ اللَّهُ قِصَّةَ نُوحٍ، وَكَانَ مَالٌ قَوْمِهِ إِلَى الطُّوفَانِ وَالْغَرَقِ. وَذَكَرَ قِصَّةَ هُودٍ وَكَانَ مَالٌ قَوْمِهِ إِلَى الرِّيحِ الْعَقِيمِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وَذَكَرَ قِصَّةَ صَالِحٍ وَكَانَ مَالٌ قَوْمِهِ إِلَى الصَّيْحَةِ وَالْدَّمَامَةِ.

وَذَكَرَ قِصَّةَ لُوطٍ وَكَانَ مَالٌ قَوْمِهِ أَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَمَاكِنَهُمْ ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: الآية ٧٤].

وَذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى فَكَانَ مَالٌ فِرْعَوْنَ إِلَى الْغَرَقِ وَالْهَلَاكِ. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْقَصَصِ. وَكَانَ مَالٌ جَمِيعٍ مِّنْ ذِكْرِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ إِلَى الْحَيْرِ وَالسَّعَادَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ رُدَّ عَلَيْهِ بَصْرُهُ، وَجُمِعَ لَهُ شَمْلُهُ، وَتَابَ عَلَى إِخْوَةِ يُوسُفَ، وَأَوْجَبَ عَلَى عِبَادِهِ الْإِيمَانَ بِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: الآية ١٣٦]، وَهُمْ الْأَسْبَاطُ، وَزَلِيحًا آمَنَتْ بِاللَّهِ وَنَالَتْ مَا أَرَادَتْ مِنْ يُوسُفَ حَلَالًا، وَنَالَ يُوسُفُ مِنَ الْمَمْلَكَةِ وَالْمُلْكِ مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ فَلِذَلِكَ كَانَتْ أَحْسَنَ الْقَصَصِ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ قَدْ وُلِدَ وَبُئِيَ فِي زَمَانِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ هُوَ وَالْعِيصُ تَوَآمِنَ وَاخْتَصَمَا فِي بَطْنِ أُمِّهِمَا عَلَى الْخُرُوجِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: طَرَّقَ لِي وَالْأُخْرَى أَتَحَرَّكَ حَرَكَةَ تَهْلُكٍ مِنْهَا الْوَالِدَةُ وَالْأُمُّ تَسْمَعُ فَطَرَّقَ لَهُ يَعْقُوبُ، فَخَرَجَ عِيصُ فَسَمِّيَ عِيصًا؛ لِأَنَّهُ عَصَى فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَخَرَجَ الْآخَرُ عَلَى عَقِبِهِ فَسَمِّيَ يَعْقُوبُ فَدَعَا إِسْحَاقُ وَهُوَ أَعْمَى لِعِيصِ فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ وَعَدَنِي رَبِّي بِاسْتِجَابَةِ دَعْوَةِ أُحِبُّ أَنْ تَكُونَ فَيْكَ وَقَدْ اشْتَهَيْتُ لَحْمَ الصَّيْدِ فَأَتِنِي بِهِ فَإِذَا أَخَذْتُ مِنْهُ شَهْوَتِي دَعَوْتُ لَكَ، فَخَرَجَ لَطَلَبِ الصَّيْدِ فَقَالَتِ الْوَالِدَةُ لِيَعْقُوبَ: عَجَلًا لِي سَخْلَةٌ مِنْ غَنَمِكَ فَادْبَحْهَا وَاشْوِهَا وَقَدِّمْهَا إِلَى أَبِيكَ ففَعَلَ، فَقَالَتِ الْوَالِدَةُ: هَذَا عِيصٌ قَدْ جَاءَكَ بِلَحْمِ الصَّيْدِ فَكُلْ، فَأَكَلَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمِيعَ أَنْبِيَائِكَ مِنْ نَسْلِ وَلَدِي هَذَا سِوَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي هُوَ مِنْ نَسْلِ أَخِي إِسْمَاعِيلَ، ثُمَّ جَاءَ عِيصُ بِلَحْمِ الصَّيْدِ وَقَالَ لَهُ: كُلْ يَا أَبَتِ وَادْعُ لِي. فَقَالَ: أَلَيْسَ جِئْتَنِي أَنْفًا؟ فَقَالَ: لَا. فَقَالَ لَهُ: قَدْ فَازَ بِهَا أَخُوكَ. فَقَالَ لَهُ عِيصُ: لَأَقْتُلَنَّكَ. فَقَالَتِ الْوَالِدَةُ لِيَعْقُوبَ:

يَا بُنَيَّ أَخْشَى عَلَيْكَ مَكَائِدَ أَخِيكَ وَلَكَ بِحَرَآنَ أَخْوَالِكَ أَصْحَابُ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ وَمَوَاشٍ فَأَقْصِدْهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكُمْ مَا شَاءَ، فَخَرَجَ يَعْقُوبُ هَارِبًا إِلَيْهِمْ يَمْشِي بِاللَّيْلِ وَيَكْمُنُ بِالنَّهَارِ حَذَرًا مِنْ أَخِيهِ أَنْ يُلْحَقَهُ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ إِسْرَائِيلَ.

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ أَصَاغُوهُ وَأَكْرَمُوهُ. وَكَانَ لِبَعْضِ أَخْوَالِهِ بَنَاتَانِ فَاطَّلَعَ يَعْقُوبُ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَمَالَ قَلْبُهُ إِلَيْهَا فَحَطَبَهَا مِنْ أُيْبِهَا فزَوَّجَهُ خَالَه بِنْتَهُ لَيَّا الْكُبْرَى، فَلَمَّا زُفَّتْ إِلَيْهِ وَلَمْ يَجِدِ الَّتِي مَالَ قَلْبُهُ إِلَيْهَا فَقَالَ لِخَالَهِ: إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَزَوِّجَنِي الصُّغْرَى فزَوَّجْتَنِي الْكُبْرَى.

فَقَالَ خَالَه: مِنْ عَادَتِنَا أَنْ تَزَوِّجَ أَوَّلًا الْكُبْرَى قَبْلَ الصُّغْرَى، وَاللَّهُ لَأَجْمَعَنَّ لَكَ بَيْنَهُمَا إِكْرَامًا لَكَ فزَوَّجَهُ الصُّغْرَى أَيْضًا وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: الآية ٢٣]، أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ أَحَلَّ الْجَمْعَ لَهُ بَيْنَهُمَا حَيْثُ حَرَّمَهُ عَلَيْنَا فَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا جَارِيَتَيْنِ فَجَمَعَ بَيْنَ أُخْتَيْنِ فَوَلَدَنَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَوْلَادًا.

وَكَانَ يُوسُفُ وَأَخُوهُ ابْنُ يَامِينَ مِنَ الْابْنَةِ الصُّغْرَى الَّتِي تُسَمَّى رَاحِيلَ، فَلَمَّا كَانَتِ الْوَالِدَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِنَّ كَانَ ابْنَاهَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِ الْبَنِينَ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ وَهُمْ الْأَسْبَاطُ. وَمَعْنَى ابْنِ يَامِينَ: ابْنُ الْوَجَعِ؛ لِأَنَّهَا مَاتَتْ فِي نَفَاسِهِ وَبَنُوهُمْ وَنَسْلُهُمُ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ شَرِبِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عِصًّا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦٠]، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْهُمْ عَيْنٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: الآية ١٢] مِنْ كُلِّ سِبْطٍ نَقِيبٌ.

فَلَمَّا طَالَتْ عَلَى يَعْقُوبَ الْمُدَّةُ أَحَبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى وَطَنِهِ وَزِيَارَةِ وَالِدَتِهِ، فَجَمَعَ أَوْلَادَهُ وَجَمَعَ مَا اجْتَمَعَ لَهُ وَاسْتَأْذَنَ أَخْوَالَهُ فِي الْخُرُوجِ فَأَذْنَوْا لَهُ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ كَنْعَانَ تَأَخَّرَ وَقَالَ لِبَنِيهِ: إِنْ اسْتَقْبَلَكُمْ رَجُلٌ أَشْقَرُ طَوِيلٌ ذُو سِلَاحٍ وَقُوَّةٍ وَبَاسٍ فَقَالَ لَكُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقُولُوا: نَحْنُ بَنُو يَعْقُوبَ الَّذِي هُوَ عَبْدُ عِصَى غَابَ عَنْ مَوْلَاهُ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ ثُمَّ اسْتَأْذَنَ إِلَى لِقَاءِ سَيِّدِهِ فَقَصَدَهُ بِبَنِيهِ وَرَقِيقِهِ وَمَوَاشِيهِ.

فَلَمَّا التَقَى بِهِمْ عِيْضٌ سَأَلَهُمْ فَأَجَابُوهُ بِالَّذِي أَوْصَاهُمْ أَبُوهُمْ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أَخِي وَابْنُ أُمِّي وَأَبِي لَا يَنْتَسِبُ إِلَى إِخْوَتِي، بَلْ يَنْتَسِبُ إِلَى عُبُودِيَّتِي فَمَنْ أَوْلَى مِنِّي بِتَرْكِ الْحَقِّدِ عَلَيْهِ وَإِظْهَارِ الْأُخُوَّةِ؟ فَرَمَى قَوْسَهُ وَسَيْفَهُ وَجَعَلَ يَبْكِي وَيَسْتَقْبِلُ أَحَاهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ رَقَّ لَهُ وَعَانَقَهُ.

قَالَ نَبِيْنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا دَخَلَ الرَّقُّ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا دَخَلَ الْخَرْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

فَلَمَّا طَلَعَتْ دُرَّةُ الْعِبْرَانِي عَلَى سَاحِلِ الْمَعَانِي كَتَبَ يَدُ الْقَدَرِ سَطَرَ ذَلِكَ الْبَيَانِ، ظَهَرَ شَرْحُ جَمَالِ يُوسُفَ وَبَانَ، وَكَانَ أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى يَعْقُوبَ لكونِهِ أَمِيلَ إِلَى أُمِّهِ، فَبَيْنَا يُوسُفُ يَجُرُّ ذَيْلَ النُّخْوَةِ، إِذْ وَثَبَ عَلَيْهِ أَسَدٌ حَسَدِ الْإِخْوَةِ فَرَأَى الْمَظْلُومَ مَالَ الظَّالِمِ فِي مِرَاةٍ ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٤]. وَكَانَ يُوسُفُ حِينَئِذٍ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ فَحَذَرَهُ أَبُوهُ بَعْدَ تَعْبِيرِ رُؤْيَاةٍ ﴿يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يُوسُفُ: الآية ٥]. وَذَلِكَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْحَسَدَ يَغْلِبُهُمْ. ثُمَّ أَحَالَ الْحَالَ عَلَى الشَّيْطَانِ لِشَفَقَتِهِ عَلَى بَنِيهِ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٥]، فَاِمْتَلَأَ قَلْبُ يُوسُفَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ وَصِيَّةَ أَبِيهِ حَتَّى قَصَّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ أَبَاهُ أَمْرَهُ بِذَلِكَ فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ أَزْدَادَ حَسَدَهُمْ.

إِخْوَانِي، اَعْلَمُوا أَنَّ الذُّنُوبَ تُعَجِّلُ وَرُبَّمَا تُؤَخِّرُ إِلَّا الْعُقُوقَ فَإِنَّهُ يُعَجِّلُ كَمَا عَجَّلَتْ عُقُوبَةُ يُوسُفَ حِينَ رَكِبَ نَهْيَ أَبِيهِ، حَيْثُ نَهَاهُ أَنْ يَقْصَّ رُؤْيَاةَ عَلَى إِخْوَتِهِ فَبِهَذَا الْقَدَرِ مِنَ الْعُقُوقِ نَالَ مَا نَالَ مِنَ الْمَحَنِ.

وقيل: مَكْتُوبٌ فِي الزُّبُورِ عَلَى بَابِ نَيْرُوزَ بِخَطِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِفْشَاءُ الْأَسْرَارِ يُورِثُ الْبَوَارَ، وَالْإِغْرَاضُ عَنِ النَّصِيحَةِ يُورِثُ الْفَضِيحَةَ، وَخَيْرُ الْمَوْجُودِ بِذُلِّ الْمَجْهُودِ، وَأَفْضَلُ الْمَوْرُودِ بَابُ الْمَلِكِ الْوَدُودِ.

رَجَعْنَا إِلَى الْقِصَّةِ؛ فَتَلَطَّفُوا بِخَدَاعٍ ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يُوسُفُ: الآية ١١]، وَشَوْفُوا يُوسُفَ إِلَى رِيَاضِ تَرْغٍ وَنَلْعَبٍ، وَقَالُوا لَهُ: سَلْ أَبَاكَ أَنْ يُرْسِلَكَ مَعَنَا فَاسْتَأْذَنَهُ فَأَذِنَ لَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ

وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ [يُوسُف: الآية ١٣]، وَذَلِكَ لِأَجْلِ رُؤْيَا رَأَيْتَهَا؛ رَأَيْتُ كَأَنِّي عَلَى ذِرْوَةِ جَبَلٍ، وَيُوسُفُ فِي بَطْنِ الْوَادِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ إِذَا قَدْ احْتَوَشْتُهُ عَشْرَةٌ مِنَ الذَّنَابِ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَأَرَدْتُ التَّهَوُّصَ إِلَيْهِ وَإِنْفَاذَهُ فَلَمْ أَجِدْ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي سَبِيلًا، ثُمَّ حَمَاهُ أَحَدُهُمْ وَأَنْشَقَّتْ لَهُ الْأَرْضُ فَتَوَارَى فِيهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ.

قال ابن عباس في تفسير هذه الرؤيا: إِنَّ عَشْرَةَ الذَّنَابِ إِخْوَتُهُ، وَالَّذِي حَمَاهُ أَخُوهُ الْأَكْبَرُ يَهُوذَا، وَشَقَّ الْأَرْضِ هُوَ الْجُبُّ الَّذِي أُلْقِيَ فِيهِ وَاللَّبْتُ فِيهِ ثَلَاثُ لَيَالٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أُخْرِجَ مِنَ الْجُبِّ بَعْدَ ثَلَاثٍ، وَكَانَ يُوسُفُ لَمَّا شَوَّفُوهُ جَعَلَ يَقْبَلُ يَدَ أَبِيهِ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: قَرَّةَ عَيْنِي بَعْدَمَا طَلَبْتَنِي أَنْتَ وَأَرَدْتَ ذَلِكَ لَا أَخَالِفُكَ، فَبَاتَ الْإِخْوَةُ فَرَحِينَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ كَأَنَّهُمْ أَصَابُوا الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا، وَبَاتَ يُوسُفُ فَرِحًا مَسْرُورًا يَقُولُ كُلَّ سَاعَةٍ: يَا أَبَتَاهُ، مَا أَطْوَلَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَيَقُولُ أَبُوهُ: مَا أَقْصَرَهَا مِنْ لَيْلَةٍ إِذَا أَرَدْتَ مُفَارَقَتِي فِيهَا. وينشد:

الْحُبُّ فِيهِ حَلَاوَةٌ وَمَرَارَةٌ وَالْحُبُّ فِيهِ شَدَائِدٌ وَنَعِيمٌ
وَالْحُبُّ أَهْوَنُهُ شَدِيدٌ فَادِحٌ وَالْحُبُّ أَضْعَفُهُ يَكُونُ عَظِيمٌ
وَالْحُبُّ دَافِيٌّ تَضُمُّهُ الْحَشَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْبَرَادِ مُقِيمٌ

فَلَمَّا أَصْبَحَ قَمَصَهُ بِقَمِيصِهِ، وَعَمَّمَهُ بِعِمَامَتِهِ، وَأَقْبَلَ يُوصِي بَنِيهِ عَلَيْهِ فَحَمَلُوهُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَلَمَّا أَبْعَدُوا أَظْهَرُوا الْمَقْتَلَ لَهُ وَرَمَوْا مَقْتَلَهُ فَنَسَخَ نَهَارُ رِفْقِهِمْ بِهِ لَيْلٌ بَقِيلِ انْتِهَارِهِمْ لَهُ، قَالُوا: عَجَلُوهُ وَلَا تُؤْجِلُوهُ وَاكْشِفُوا حَمَلًا بِهِ.

وَيَايَاكُمْ وَالْإِقَالَةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَى أَكْتَافِهِمْ حِينَ أَخْرَجُوهُ جَرَجَرُوهُ مَا كَانَ لَهُمْ عِلْمُ أَنْ الَّذِي صَالُوا عَلَيْهِ سَيَنْدَلِّلُونَ إِلَيْهِ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدَرُوا، وَمَا تَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ قُهِرُوا فَجَعَلَ يُوسُفُ كُلَّمَا التَّجَأَ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ضَرْبَهُ وَأَذَاهُ، فَكَلَّمَا فَطِنَ لِمَا عَزَمُوا عَلَيْهِ، جَعَلَ يَقْبَلُ يَدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَيَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ مَا أَسْرَعَ مَا نَسُوا عَهْدَكَ وَضَيَّعُوا وَصِيَّتَكَ، فَأَخَذَهُ رَوْبِيلَ وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ، وَبَرَكَ وَخَتَمَ عَلَى صَدْرِهِ لِيَقْتُلَهُ، وَقَالَ: يَا ابْنَ رَاحِيلَ قُلْ لِرُؤْيَاكَ تَحَلَّصُكَ. فَصَاحَ لِيَهُوذَا حَلْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ يُرِيدُ قَتْلِي. فَصَاحَ يَهُوذَا فِي بَقَايَا شَفَقِ الشَّفَقَةِ، إِذْ هُوَ يَبِينُ الْقَوْمَ

استيقظوا من سنة التَّوَم أخرجتموه من جوارِ الجبِّ ألقوه في غيابات الجب، فإذا يُوسُفُ يا إخواناه يا محل نجواه ما هكذا نخوة المروءة أبوكم جنا عليكم فما ذَنْبِي أنا إليكم فارحموا ضِعْفِي وَصِغْرِي، فَتَزْعُوا قَمِيصَهُ لِإِلْقَائِهِ فِي الْجُبِّ، فَقَالَ رُدُّوهُ عَلَيَّ أَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتِي وَيَكُونُ كَفَنًا فِي مَمَاتِي، وَجَعَلَ يَبْكِي وَيُنَادِي إِخْوَتَهُ ويقول: إِنَّ لِكُلِّ مَيِّتٍ وَصِيَّةً، وَوَصِيَّتِي إِيَّاكُمْ إِذَا اجْتَمَعْتُمْ مَعَ وَالِدِي فَادْكُرُوا وَحَدَّثِي، فَإِذَا آنَسْتُمْ بِجَمْعِكُمْ فَادْكُرُوا وَحَشْتِي، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَبَابًا فَادْكُرُوا شَبَابِي. غَيَّبُوهُ وَمَا رَجِمُوا لَهُ حَالًا. فَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ هَلَكَ جَاءَهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ مَلَكَ مَلِكٌ أَخْرَجَ لَهُ حَجْرًا مَرْتَفَعًا مِنَ الْمَاءِ فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهَا قَدَمَاهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٥]. وينشد:

في الحال عد بسلم على أناسٍ	أنا من بعدهم سقيم
واشرح لهم حال مُسْتَهَام	أنت بأحواله عليم
وقل غريب ثوى بأرضٍ	في عمرها قلبه مقيم
يجاهد الشوق حين يمسي	وتعترف في قلبه الشوم
لم يجر ذكر الصداق إلا	حن كما حنة المروم

فَذَبَحُوا جَدِّيَا، وَعَفَرُوا الْقَمِيصَ بِدَمِهِ، وَعَادُوا عِنْدَمَا عَادُوا بِالْعِشَاءِ عِشَاءً يَبْكُونَ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ لَمَّا تَأَخَّرَ إِيَّانَ بَنِي يَعْقُوبَ عَنِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ لَهُمْ أَحَسَّ قَلْبُهُ بِالْشَّرِّ، فَدَعَا بِجَارِيَةٍ فَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا إِلَى شَفِيرِ الْوَادِي، فَلَمَّا أَشْرَفُوا جَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا أَخَانَا يَا يُوسُفُ، فَلَمَّا سَمِعَ يَعْقُوبُ خَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ، فَلَمَّا انْتَبَهُوا إِلَيْهِ سَلَّمُوا عَلَيْهِ سَلَامًا ضَعِيفًا، فَقَالَ يَا بُنَيَّ: مَا لِي أَسْمَعُ عَوِيلَكُمْ شَدِيدًا وَسَلَامَكُمْ ضَعِيفًا مِنْ بَعِيدٍ؟ ﴿قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيَرْكَنَّا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَالْكَلْبُ الدِّثْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: الآية ١٧]، فَلَمَّا نَسَرُّوا الْقَمِيصَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِسْرَائِيلُ إِلَيْهِ نَادَى لِجَارِيَةِ الْقَدَرِ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَبِيلًا﴾ [يوسف: الآية ١٨] ولما ذكر الفوائد في هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْقِصَّةِ إِلَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ فَكَثِيرٌ.

أحدها: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ مِنَ التَّعْزِيزِ وَالتَّذْلِيلِ بِيَدِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ شَيْءٍ،

أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ طَلَبَ مُرَادَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَزِدَادُ عَنْ مَقْصُودِهِ بُعْدًا، كَمَا أَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ طَلَبُوا ازْدِيَادَ قُرْبِهِمْ عِنْدَ آبَائِهِمْ بِالْعُقُوقِ وَقَطَعَ الرَّحِمَ فَلَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا بُعْدًا.

الثانية: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ مِنَ التَّعْزِيرِ وَالتَّذْلِيلِ بِيَدِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا تَرَى أَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ أَرَادُوا إِذْلالَ يُوسُفَ فَأَذَلَّهُمْ اللَّهُ وَأَعَزَّهُ حَتَّى قَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالُوا: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يُوسُفَ: الآية ٨٨].

الثالثة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمَحَبَّةَ، وَإِنْ قَلَّتْ فَإِنَّهَا تَمْنَعُ الْمُحِبَّ عَنْ إِهْلَاكِ الْمَحْبُوبِ وَاسْتِئْصَالِهِ كَمَحَبَّةِ يَهُوذَا، وَإِنْ قَلَّتْ فَإِنَّهَا مَنَعَتْ مِنْ قَتْلِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يُوسُفَ: الآية ١٠] رَجَاءَ خَلَاصِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَلْقَظُهَا﴾ [يُوسُفَ: الآية ١٠]. وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ وَإِنْ عُوقِبَ لَمْ يَخْلُدْ فِي النَّارِ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ.

الرابعة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَنْ وَثِقَ بِمَخْلُوقٍ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ضَيَّعَهُ اللَّهُ عِنْدَ احتِياجِهِ إِلَيْهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا وَثِقَ بِمَقَالَةِ بَنِيهِ: ﴿وَلِنَا لَهُ لَحْفَظُونَ﴾ [يُوسُفَ: الآية ١٢] كَيْفَ ضَيَّعُوهُ، فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَوَكَّلَ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ عَلَى رَبِّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلَاق: الآية ٣].

الخامسة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَإِنَّهُ يُخْلَقُ عَلَى طَبْعِ الْبَشَرِيَّةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ شَوَّقُوهُ إِلَى اللَّعِبِ بِقَوْلِهِمْ: نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ وَطَمَعُوهُ فِي اللَّعِبِ حَتَّى صَارَ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ.

فَلِذَلِكَ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا لَعِبًا وَلَهْوًا، وَالشَّيْطَانُ يُعْرِثُ بِالدُّنْيَا الَّتِي هِيَ لَعِبٌ وَلَهْوٌ. فَيُوسُفُ لَمَّا اغْتَرَّ بِذَلِكَ اللَّعِبِ صَارَ إِلَى سِجْنِ الْعُبُودِيَّةِ، وَالسَّجْنِ وَالْعَبْدُ إِذَا اغْتَرَّ بِالْعِبَادَةِ صَارَ إِلَى سِجْنِ الْآخِرَةِ.

السادسة: أَنْ تَعْلَمَ بِأَنَّ الْعَبْدَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ الشَّهَوَاتِ. فَقَدْ قِيلَ: فَلَرُبَّ شَهْوَةٍ سَاعَةٍ قَدْ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا. كَمَا أَنَّ يُوسُفَ اتَّبَعَ شَهْوَةَ سَاعَةٍ فَأَوْرَثَتْهُ حُزْنًا طَوِيلًا.

السابعة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ يُورِثُ الْبَلَاءَ، وَالْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يُورِثُ الْعَطَاءَ. كَمَا أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يُوسُف: الآية ١٣]، فَأَوْرَثَهُ ذَلِكَ الْخَوْفَ الْبَلَاءَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: الآية ٤٦].

الثامنة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمَقْدُورَ لَا بُدَّ كَائِنُ، وَأَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْفَعُ مِنَ الْقَدَرِ، وَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ عَمِيَ الْبَصَرُ، وَإِذَا حَانَ الْقَضَاءُ ضَاقَ الْقَضَاءُ، أَلَا تَرَى أَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ يَقُولُ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠]، وَكَانَ يَقُولُ: ﴿لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يُوسُف: الآية ٥]، ثُمَّ اتَّيَمَنَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ تَغْيِيرَ رُؤْيَا الْوِلَايَةِ وَلَمْ يَعْلَمْ تَغْيِيرَ رُؤْيَا الْمِحْنَةِ، وَعَلِمَ أَنَّ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا إِخْوَتُهُ يَصِيرُونَ إِلَى أَنْ يَتَوَاضَعُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَمْ يَعْلَمْ تَغْيِيرَ رُؤْيَاهُ وَالذَّكَابِ الَّتِي اخْتَوَشْتَهُ لِتَمَرِّقَهُ. كَمَا قِيلَ لِلْهَذْهِدِ: كَيْفَ تَرَى الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَا تَرَى الشَّبَكَةَ تَحْتَ الثَّرَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا جَاءَ الْقَدَرُ عَمِيَ الْبَصَرُ.

التاسعة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ بَنِي يَعْقُوبَ كَانُوا يُكْرِرُونَ ﴿وَنَحْنُ غُصْبَةٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٨] حَتَّى أَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ مَا أَوْرَثَهُمْ. كَمَا قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَرْبَعُ كَلِمَاتٍ أَوْرَثَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَلَاءً وَهَيَّ: أَنَا، وَنَحْنُ، وَلِي، وَعِنْدِي. قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الْأَعْرَاف: الآية ١٢]، طَرِدَ وَلِعِنَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ مَحْنُوا. وَقَالَ فِرْعَوْنُ: أَلَيْسَ لِي غَرْفٌ؟ وَقَارُونُ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [الْقَصَص: الآية ٧٨] فَخُسِفَ بِهِ. فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَحْذَرَ الْعُجْبَ. وَكَانَ الْأُسْتَاذُ أَبُو جَعْفَرٍ الْوَاعِظُ يَقُولُ: إِذَا قَرَعَ الْقَارِعُ الْبَابَ، فَيَقَالُ: مَنْ؟ فَيَقُولُ: أَنَا. فَأَوَّلُ حَذَلَةٍ تَلْحَقُهُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟

العاشرة: أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٤]، جَعَلُوا الْخُسْرَانَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي أَكْلِهِ الذِّئْبُ، وَإِنَّمَا كَانَ الْخُسْرَانُ لِأَنْفُسِهِمْ حِينَ لَمْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ، فَرُبَّ خَاسِرٍ يَظُنُّ أَنَّهُ رَابِحٌ، وَرُبَّ رَابِحٍ يَظُنُّ أَنَّهُ خَاسِرٌ. أَلَا تَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا يَرَبِّحُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ وَذَلِكَ الرَّبِّحُ

حَقِيقَةُ الْخُسْرَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: الآية ١٥]، رجعنا إلى القصة.

ثُمَّ إِنَّ يَعْقُوبَ أَخَذَ الْقَمِيصَ يُقْبِلُهُ فَلَمْ يَرْ فِيهِ تَمَرِيْقًا، وَجَعَلَ يَشُمُّهُ وَيَقُولُ: مَا أَشْمُ فِي هَذَا الْقَمِيصِ رَائِحَةَ لَحْمِهِ وَلَا دَمِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعْظَفَ هَذَا الذُّبَابَ وَمَا أَرْفَقَهُ حَيْثُ افْتَرَسَ وَلَدِي وَأَكَلَهُ وَلَمْ يُمَرِّقْ ثِيَابَهُ.

وظَهَرَ لَهُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّ الذُّبَابَ لَمْ يَفْتَرِسْ يُوسُفَ وَإِنَّمَا أَمْسَى مَظْلُومًا، فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَتَوَخَّ وَيَقُولُ: وَلَدِي وَقُرَّةُ عَيْنِي، لَيْتَ شِعْرِي لَأَيِّ سَبْعِ عَرَضُوكَ، لَيْتَ شِعْرِي فِي أَيِّ بَيْتٍ طَرَحُوكَ؟ وَلَدِي وَقُرَّةُ عَيْنِي، لَيْتَ شِعْرِي فِي أَيِّ نَهْرٍ غَرَّقُوكَ؟ قُرَّةُ عَيْنِي، كَيْفَ أَنْتَ الَّذِي أَرْجُوكَ؟ لَيْتَ شِعْرِي أَقْتِيلُ أَنْتَ، أَمْ ذَبِيحٌ، أَمْ طَرِيدٌ، أَمْ طَرِيحٌ؟ مَعَشَرَ وَلَدِي دُلُونِي عَلَى وَلَدِي فَإِنْ كَانَ حَيًّا رَدَدْتُهُ، وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا دَفَنْتُهُ وَزُرْتُ قَبْرَهُ. وينشد:

لَيْنُ غِبْتَ عَنْ عَيْنِي وَشَطَّ بَكَ النَّوَى فَأَنْتَ بِقَلْبِي حَاضِرٌ وَقَرِيبُ
أَرَاكَ بِعَيْنِي الْوَهْمُ فِي مُضْمَرِ الْحَشَا وَلَيْسَ عَلَى عَيْنِ الضَّمِيرِ رَقِيبُ
خَيَالُكَ فِي وَهْمِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَمِثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ

قِيلَ: مَكَثَ يُوسُفُ فِي الْجُبِّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَإِخْوَتُهُ يَزْعَوْنَ حَوْلَهُ عَادَ الْجُبِّ صَدَفَةً، يُوسُفُ دُرَّتْهَا وَالْوَجْدُ خَيْمَةٌ يَعْقُوبُ فَأَيْمُتْهَا يُنَادِي: يَا مُقَدَّرَ الْإَيْنِ أَجْرَنِي مِنَ الْبَيْنِ رَسْنُ الْخِنَاقِ، أَهْوَنُ مِنَ الْفِرَاقِ، أَنْتَ أَوْجَدْتَ يُوسُفَ سَيِّدِي، أَنْتَ أَطْلَعْتَ قَمَرَ هِلَالِهِ فِي سَمَاءِ فِكْرِي، أَهْ أَنْتَ أَطْلَعْتَ قَمَرَهُ بَعْدَ الْعُرْجُونِ هِلَالًا فَبِأَيِّ سَبَبٍ هُوَ الْمَطْلُوبُ يَعْقُوبُ. وينشد:

الْمَوْتُ وَلَا فِرَاقَ مَنْ أَهْوَاهُ هَذَا كَيْدِي تَذُوبٌ مِنْ ذِكْرَاهُ
وَأَشَوْقِي مَا أَشَوْقَنِي مَتَى تُرَى أَلْفَاهُ مَا مَقْصُودِي مِنَ الْمُنَى إِلَّا هُوَ

فَلَمَّا آنَ أَوَانَ الْبَشَارَةِ جَاءَ رَكْبُ السَّيَّارَةِ أَدْلَى الْوَارِدُ دُلُوهُ بِلُطْفِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ ﴿قَالَ يَكْبَشْتَنِي هَذَا غُلَمٌ﴾ [يوسف: الآية ١٩]، وَكَانَ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْجُبِّ رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا يَقَالُ: بِشَارَةٌ، وَالْآخَرُ: بُشْرَى، فَأَخْرَجَاهُ وَأَتَيَا بِهِ إِلَى سَيِّدِهِمَا فَتَعَجَّبَ مِنْ حُسْنِهِ وَجَعَلُوا يَكَلِّمُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَيُجِيبُهُم بِالْعِبْرَانِيَّةِ.

إخواني، مَنْ قَيَّضَ السَّيَّارَةَ لِيُوسُفَ وَهُوَ فِي قَاعِ الْجُبِّ؟ مَنْ دَلَّاهُمْ عَلَيْهِ؟ مَنْ أَوْصَلَهُمْ إِلَيْهِ؟ مَنْ نَادَاهُمْ فَسَمِعُوهُ، وَاسْتَعَاثَ بِهِمْ فَأَعَاثُوهُ، أَوْ عُرِفُوا لَهُ مَكَانًا فَقَصَّدُوهُ، أَوْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَسَارَ إِلَيْهِمْ فَرَحِمُوهُ؟ إِنَّمَا لَطَفَ بِهِ وَأَنْقَذَهُ مِنَ الْمِحْنَةِ وَالْبَلَوَى، وَدَفَعَ أَسْقِيَّتَهُمْ وَعَطَّشَ أَكْبَادَهُمْ، وَأَتَى بِهِمْ إِلَيْهِ وَقَادَهُمْ مِنْ لَهُ آيَاتٌ ظَاهِرَةٌ وَمُعْجِزَةٌ بَاهِرَةٌ، وَدَلَالَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَيُّومُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَلَّ مِنْ حَكِيمٍ قَادِرٍ، وَعَزَّ مِنْ عَظِيمٍ قَاهِرٍ. قَالَ: وَإِخْوَتُهُ يَزْعُونَ حَوْلَهُ وَيَتَحَسَّسُونَ مِنْ خَبْرِهِ، فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ قَدْ أُخْرِجَ أَقْبَلُوا يُسَارِعُونَ إِلَيْهِ وَيَقُولُونَ: هَذَا مَمْلُوكٌ لَنَا أَبَقَ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَتَوَارَى فِي هَذَا الْجُبِّ. فَقَالُوا لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ: إِنَّ أَنْتَ أَقْرَزْتَ لَنَا بِالْعُبُودِيَّةِ نَجَوْتَ وَالْأَنْتِزَعْنَاكَ مِنْهُمْ وَنَقَتْلُكَ أَخْبَثَ قَتْلَةٍ، فَتَوَقَّفَ فِي هَذَا الْجَوَابِ. وينشد:

عَدَرْتُمْ وَلَمْ أَغْدِرْ وَخُنْتُمْ وَلَمْ أَخُنْ وَحُلْتُمْ عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَمَا حُلْنَا
سَأَلْتُ الَّذِي تَجْرِي الْأُمُورُ بِعِلْمِهِ لِيَجْمَعَنَا بَعْدَ الْفِرَاقِ كَمَا كُنَّا

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَهُوذَا وَقَالَ لَهُ: إِنَّهُمْ أَخْبَرُوا أَبَاكَ بِأَنَّ الذُّنْبَ أَكَلَكَ وَقَدْ صَدَّقَهُمْ، فَإِنْ أَنْكَرْتَ مَا أَرَادُوا مِنْكَ قَتْلُوكَ، وَإِنْ أَقْرَزْتَ مِنْهُمْ بِالْعُبُودِيَّةِ بَاعُوكَ وَنَجَوْتَ مِنَ الْقَتْلِ وَلَعَلَّ اللَّهَ يَأْتِيكَ بِالْفَرَجِ.

فَقَالَ لَهُمْ رَئِيسُ الْقَافِلَةِ: مَا هَذِهِ سِمَةُ الْعُبُودِيَّةِ، بَلْ هَذِهِ سِمَةُ الْأَخْرَارِ الْكِرَامِ. فَقَالُوا: إِنَّ أَبَانَا اشْتَرَى جَارِيَةً تُسَمَّى رَاحِيلَ، وَهَذَا لَهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِنَا وَتَوَسَّسَ بِسِمَتِنَا.

فَقَالَ لَهُمْ مَالِكٌ وَهُوَ رَئِيسُ الْقَافِلَةِ: مَا تَقُولُ يَا غُلَامُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. ثُمَّ سَأَلَهُمُ الْبَيْعَ. فَقَالَ لَهُمْ: مَا مَعَنَا دَرَاهِمُ إِلَّا عِشْرُونَ دِرْهَمًا. فَقَالُوا: عَلَى شَرْطِ أَنْ تُقَيِّدَهُ وَتُكَبِّلَهُ إِلَى مِصْرَ وَتَوَكَّلْ بِهِ مَنْ يَحْفَظُهُ، وَهَذَا مِنْهُمْ مَخَافَةٌ أَنْ يَفْلِتَ وَيَرْجِعَ إِلَى أَبِيهِ.

فَقَالَ لَهُمْ مَالِكٌ: لَكُمْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ اكْتُبُوا لِي كِتَابًا، فَكَتَبَ رُوبِيلُ بِاسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ؛ هَذَا مَا اشْتَرَى مَالِكٌ بَنُ زَعَرَ الْخُرَاعِيِّ مِنْ بَنِي

يَعْقُوبَ وَهُمْ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ الْعَشْرَةُ مَمْلُوكُهُمْ يُوسُفَ بَعِشْرِينَ دِرْهَمًا سِكَّةً.

فَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دِرْهَمَانِ بَاعَهُ الْإِخْوَةُ بَبْخُسِ الْأَثْمَانِ. فَكَانَ لَهُ شَأْنٌ مِنَ الشَّأْنِ. فَقَالَ يُوسُفُ لِيَهُودَا: لَا تَأْخُذْ مِنِّي؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ. وَاعْتَجَبَا لِقَمَرِ قَوْمٍ بِهِ بَاعُوا الصَّدَقَةَ وَلَمْ يَتَلَمَّحُوا الدَّرَّةَ. لَوْ دَامَ يُوسُفُ فِي صَدَقَةٍ كَنَعَانَ مَا ظَهَرَ سِرُّ حَالِهِ وَلَا بَانَ.

ذكر الفوائد في هذا القدر من القصة:

أحداها: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ إِذَا اشْتَدَّ يَكُونُ إِلَى الْفَرَجِ أَقْرَبَ. كَمَا قِيلَ كُنْ لِمَا لَا نَرْجُوا أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُوا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَظِيمُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَلْفَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: الآية ٢٨].

الثانية: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا قَدِمَ عَلَى الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرُّضْوَانِ. قَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: الآية ٣٠].

الثالثة: أَنَّ السَّيَّارَةَ طَلَبُوا شَيْئًا حَقِيرًا فَوَجَدُوا شَيْئًا خَطِيرًا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَاؤُوا يَسْقُونَ الْمَاءَ فَوَجَدُوا أَكْرَمَ النَّاسِ. وَمُوسَى طَلَبَ النَّارَ فَوَجَدَ النُّورَ. وَوَجْهَ مَا يُرَوَى فِي الْخَبَرِ الْمَرْوِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ قَوْمًا اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَاجْتَاَزَ بِهِمْ مُجْتَازٌ غَيْرُ قَاصِدٍ إِلَى مَقْصُودِهِمْ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ إِلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: إِنْ فَلَانًا بَيْنَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ قَاصِدٍ لِمَا قَصَدُوا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «هَمُّ الْقَوْمِ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُم».

رجعنا إلى القصة، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْتَرِي دَعَا بِقَيْدٍ مِنْ حَدِيدٍ وَعُلَّ فَعَلَّ بِهِ عُنُقَهُ. فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: لَا تَعْلَ عُنُقِي فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ لَهُ تَذَكَّرْتُ أَغْلَالَ أَهْلِ النَّارِ فَلَا يَهْنَأُ لِي الْعَيْشُ. فَقَالَ التَّاجِرُ: لَقَدْ قَطَعْتَ بِكَلَامِكَ نِيَاطَ قَلْبِي، وَلَكِنِّي

أَعْطَيْتُ مَوَالِيكَ عَهْدًا أَنْ أُقَيِّدَكَ إِلَى مِصْرَ. فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ الرِّحَالَ يُشَدُّ عَلَى
الْجِمَالِ لِلسَّيْرِ بَكَى بُكَاءً شَدِيدًا، وَأَنْشَدَ:

أَجَابَ رَحِيلِي دَاعِيَ الْبَيْنِ إِذْ دَعَا وَنَادَى غَرَابُ الْبَيْنِ جَهْرًا فَاسْمَعَا
وَفَارَقْنِي بِالْأَمْسِ مَنْ كَانَ مُؤْنِسِي وَبَدَدَ شَمْلًا بَعْدَ مَا قَدْ تَجَمَّعَا
وَأَضْعَبُ مَا يَلْقَى الْفَتَى فِي زَمَانِهِ فِرَاقُ بِلَادٍ كَانَ فِيهَا تَرَعْرَعَا
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْفِرَاقَ لَأَنَّهُ كَوَى بِعَلِيلِ الشَّوْقِ قَلْبِي فَأَوْجَعَا
كَأَنَّا خُلِفْنَا لِلنَّوَى وَكَأَنَّمَا حَرَامٌ عَلَى الْيَوْمِ أَنْ يَتَجَمَّعَا

فَقَالَ التَّاجِرُ: مَنْ الْبَاكِي عِنْدَ رَحِيلِنَا؟ فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً.
قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَنْ تَأْذَنَ لِي حَتَّى آتِيَ الَّذِينَ بَاعُونِي مِنْكَ فَأُودِّعَهُمْ. فَدَعَا
التَّاجِرُ بِأَسْوَدَ لَهُ قَدْ وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ، فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ بِهِ لِيُودِّعَ مَوَالِيَهُ، فَمَا رَأَيْتُ
قَوْمًا أَجْفَى بَعْدَ مِنْهُمْ لَكَ بِاعُوكَ بِأَبْخَسِ ثَمَنِ، وَزَعَمُوا أَنَّكَ لَصُّ آبِقَ، وَمَا رَأَيْتُ
عَبْدًا أَبْرَ بِمَوَالِيهِ مِنْكَ بِهِمْ.

فَتَقَدَّمَ يُوسُفُ يَجْرُ سِلْسِلَتُهُ، وَكَانُوا فِي اللَّيَالِي يَحْرُسُونَ السَّبَاعَ عَنِ الْغَنَمِ
فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ لَيْلَةً يَهُودًا، فَلَمَّا سَمِعَ صَلَصَلَةَ الْحَدِيدِ تَقْدَمَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ
يُوسُفُ يَتَوَدُّهُ الْأَسْوَدُ فِي السِّلْسِلَةِ، فَانْكَبَّ عَلَيْهِ يَبْكِي وَيَقُولُ: عَزَّ عَلَيَّ يَعْقُوبَ
مَسِيرُكَ، فَلِمَاذَا قَدِمْتَ؟ قَالَ: جِئْتُ لِأُودِّعَكُمْ، فَصَاحَ يَهُودًا بِهِمْ قُومُوا إِلَى مَنْ
أَتَاكُمْ مُقَيَّدًا مُغْلَغَلًا مُسَلْسَلًا مُكَبَّلًا يُرِيدُ أَنْ يودِعَكُمْ وَيُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ سَلَامَ مَنْ لَا
يَرْجُو لِقَاكُمْ أَبَدًا.

فَجَعَلَ يُوسُفُ يَنْكَبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَيُعَانِقُهُ بِصَدْرِهِ وَيَقُولُ: حَفِظْتُكُمْ
اللَّهُ، وَإِنْ ضَيَّعْتُمُونِي لَا أَخْذَلُكُمْ اللَّهُ، وَإِنْ لَمْ تَرْحَمُونِي شَرِبَةُ حُبِّ شَرِبْتُ فِي
صِغْرِي فَسُكْرِي الْيَوْمَ مِنْ بَقَايَاهَا، قَالَ: فَأَلْقَتْ حَوَامِلُ الْأَغْنَامِ مَا فِي بُطُونِهَا دَمًا
عَبِيْطًا لِشِدَّةِ هَذَا التَّوْدِيْعِ، ثُمَّ حَمَلَهُ الْأَسْوَدُ عَلَى قَتَبٍ بَعِيرٍ فَسَارَ بِهِ حَتَّى أَلْحَقَهُ
بِالْقَافِلَةِ. شعر:

وَلَمَّا تَدَانَا لِلرَّحِيلِ وَفُرِّبَتْ كِرَامُ الْمَطَايَا وَالرَّكَابُ تَسِيرُ
وَضَعْتُ عَلَى قَلْبِي يَدَيَّ مُبَادِرًا فَقَالُوا مُحِبُّ لِّلْعِنَاقِ يُشِيرُ

فقلت: وما يُغني العناق وإنما تداركْتُ قلبي حينَ كادَ يَطيُرُ

قال: فلمَّا وَصَلَتِ الْقَافِلَةُ مَقْبَرَةَ أَهْلِ كَنْعَانَ، وَأَشْرَفَ يُوسُفُ مِنَ الْبَعِيرِ عَلَى قَبْرِ أُمِّهِ حَنَّ إِلَيْهَا. شعر:

عَرَّجُوا بِالرِّفَاقِ نَحْوَ الرِّكْبِ وَقِفُوا سَاعَةً لَأَنْشِدَ قَلْبِي
فَلَمْ يَتَمَالِكْ أَنْ رَمَى بِنَفْسِهِ وَجَعَلَ يَحْبُو إِلَى الْقَبْرِ فَجَعَلَ يَعْتَنِقُهُ وَيَضْطَرِبُ
وَيَقُولُ: يَا أُمُّهُ ارْفَعِي رَأْسِكَ مِنَ الثَّرَى تَرَيِ وَلَدَكَ مُكَبَّلًا مَغْلُولًا مُسَلْسَلًا، يَا
أُمُّهُ: إِخْوَتِي لَمْ يَرْحَمُونِي، وَفِي الْجُبِّ طَرْحُونِي، وَيَبِيعُ الْعَبِيدَ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ
بَاعُونِي، فَلَوْ رَأَيْتَنِي بِمَا أَنَا فِيهِ لَرَحِمْتَنِي، فَرَقُوا بَيْنِي وَبَيْنَ وَالِدِي فِي حَيَاتِي قَبْلَ
مَمَاتِي. فَلَمَّا فَقَدَهُ الْأَسُودُ عَنِ الْبَعِيرِ جَعَلَ يَقْفُو أَثَرَهُ فَإِذَا هُوَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ: صَدَقَ
مَوَالِيكَ بِأَنَّكَ لِحْصِ أَبِي، ثُمَّ لَطَمَهُ لَطْمَةً خَرَّ مَعْشِيًا عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَرْكُضُهُ بِرِجْلِهِ، فَلَمَّا
أَفَاقَ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ مَمْلُوءَتَيْنِ دَمْعًا. فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ لِي خَطِيئَةٌ أَخْلَقْتَ
وَجْهِي عِنْدَكَ وَأَنْزَلْتَنِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ فَاسْأَلْكَ بِحَقِّ آبَائِي الْبَرَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
ويعقوبَ أَنْ تَعْفُو عَنِّي.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: يَا جَبْرِئِيلُ أَذْرِكْ عَبْدِي فَنَادَى جَبْرِئِيلُ مِنَ الْهَوَاءِ السَّلَامُ
عَلَيْكَ يَا يُوسُفُ. فَقَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا جَبْرِئِيلُ. فَقَالَ: غُضَّ صَوْتُكَ فَقَدْ
أُبْكَيْتَ مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْلِبَ الْأَرْضَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا؟ فَقَالَ يُوسُفُ:
تَثَبَّتْ يَا جَبْرِئِيلُ فَإِنَّ رَبِّي حَلِيمٌ لَا يَعْجَلُ. فَضْرَبَ جَبْرِئِيلُ بِجَنَاحِهِ الْأَرْضَ فَجَعَلَ
يَضْرِبُ بَعْضَهَا بَعْضًا فَهَبَّتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ فَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ، فَقَالَ رَئِيسُ الْقَافِلَةِ: مَنْ
أَتَى مِنْكُمْ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ فَلْيُتَّبَعْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا رَأَيْتُ بِهَذَا الطَّرِيقِ كَالْيَوْمِ.

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْأَسُودُ فَقَالَ: إِنَّ غَلَامَكَ الْعِبْرَانِيَّ أَبَقَ فَلَطَمْتُهُ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى
السَّمَاءِ وَقَالَ بِلِسَانِهِ شَيْئًا لَمْ أَفْهَمُهُ، وَلَا شَكَّ إِلَّا أَنَّهُ دَعَا عَلَيْنَا. فَدَعَا بِهِ التَّاجِرُ
فَقَالَ لَهُ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَقْتَصَّ فَنَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ فَاقْتَصَّ مِنْ شَيْءٍ. فَقَالَ يُوسُفُ:
مَا أَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَقْتَصُّونَ، قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ رَجَاءً أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِّي.

فَسَكَنَتِ الرِّيحُ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ، فَلَمَّا سَارُوا جَعَلَ يُوسُفُ يَزُورُ التَّاجِرَ فِي
كُلِّ يَوْمٍ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَدَعَا بِالْأَسُودِ

وقال: مَا بَالُ الْعِبْرَانِيِّ تَأَخَّرَ عَنْ زِيَارَتِنَا؟ فَقَالَ: إِنَّهُ عَلِيلٌ.

فَتَقَدَّمَ التَّاجِرُ وَقَالَ: مَا أَبْطَأَكَ عَلَيْنَا؟ فَقَالَ: جَرَحَ الْقَيْدُ سَاقِي، وَالْعُلُّ نَقْلَ فِي عُنُقِي. فَقَالَ لَهُ: صُبْحَةَ غَدٍ تَنْتَهِي إِلَى مِصْرَ فَتَحُلُّ عَنْكَ وَثَاقَكَ، وَنُخْرِجُكَ مِنَ الْعَهْدِ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ مَوَالِيكَ.

فَلَمَّا بَلَغُوا مِصْرَ ضَرَبَ التَّاجِرُ فُسْطَاطَهُ عَلَى سَاحِلِ النَّيْلِ وَحَلَّ عَنْهُ قَيْدَهُ، وَقَالَ لَهُ: أَذْخُلُ النَّيْلَ وَاعْتَثِلْ فَإِنِّي مُزَيِّنُكَ بِزِينَةِ الْعَبِيدِ. ثُمَّ أَلْبَسَهُ الْحَرِيرَ وَالذِّيبَاجَ، وَشَاعَ خَبْرُ نَوْرِهِ وَجَمَالِهِ فِي الْبَلَدِ، فَلَمْ يَبْقَ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى حَتَّى الْمُخَدَّرَاتِ، وَامْتَلَأَتِ الطَّرِيقُ وَأَعَالِي الْجِبْطَانِ وَنُودِي لَا حِجَابَ الْيَوْمَ عَلَى الْمُخَدَّرَاتِ، وَرَكِبَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى مَوْضِعٍ تَنْظُرُ فِيهِ يُوسُفَ، وَأَجْلَسَ يُوسُفَ عَلَى كُرْسِيِّ وَنَادَى عَلَيْهِ الْمُنَادِي: هَذَا الْعَبْدُ الْعَاقِلُ اللَّيِّبُ الْجَلِيلُ، فَبَلَغَ وَزْنُهُ وَرَقًا وَوَزْنُهُ ذَهَبًا، وَزَادَ حَتَّى بَلَغَ وَزْنُهُ مِسْكًَا وَعَنْبَرًا، وَزَادَ حَتَّى بَلَغَ وَزْنُهُ لَآئِي وَجَوَاهِرَ. وينشد:

كَمْ أَحْمِلُ فِي هَوَاكَ ذُلًّا وَعَنَا كَمْ أَصْبِرُ فِيكَ تَحْتَ سَقَمٍ وَضَنَا
لَا تَطْرُدْنِي فَلَيْسَ لِي عَنْكَ غَنَا هَذَا رُوحِي إِذَا رَضِيتَ الثَّمَنَا

قال: فَاشْتَرَاهُ الْعَزِيزُ قِطْفِيرٌ، وَكَانَ قَهْرْمَانُ الْمَلِكِ رِيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَذَهَبَ بِهِ الْعَزِيزُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَحًا مَسْرُورًا، وَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُلَهُ وَلَكِنَّ﴾. قِيلَ: الْعَجَبُ مِمَّنْ يَجْمَعُ بَيْنَ الْقُطْنِ وَالنَّارِ يَتَوَقَّعُ مِنْ جَمْعِهِمَا انْتِفَاعًا كَالْعَزِيزِ جَمَعَ بَيْنَ رَجُلٍ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا وَبَيْنَ امْرَأَةٍ كَذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُلَهُ وَلَكِنَّ﴾. وَمَا مِنْ رَجُلٍ خَلَا بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثَهُمَا وَتَوَلَّدَتْ بَيْنَهُمَا آفَةٌ وَلَوْ بِنَظَرَةٍ. ثُمَّ تَذَكَّرَ بَعْضُ الْفَوَائِدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ نَخْذُلُهُ وَلَكِنَّ﴾ [يُوسُفُ: الْآيَةُ ٢١]، فَإِنَّ كُلَّ مَا لَا يُمَكِّنُ فَطْلَهُ مُحَالٌ كَمَنْ يَطْلُبُ الْحَصَادَ مِنْ غَيْرِ زَرْعٍ تَقَدَّمَ فَذَلِكَ الطَّلَبُ مُحَالٌ. كَذَلِكَ الْعَزِيزُ طَلَبَهُ الْوَلَدَ مُحَالٌ مِنْ غَيْرِ مُبَاشَرَةٍ وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ: مَنْ لَا تَشْتَرِيهِ لَا يَكُونُ لَكَ عَبْدًا،

وَمَنْ لَمْ تَلِدْهُ لَا يَكُونُ لَكَ وَلَدًا، وَوَجْهُ الْإِشَارَةِ مَنْ طَلَبَ الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ مُبَاشَرَةٍ الْأَمْرِ وَمُجَانِبَةِ الْهَوَى مُحَالًا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا بِمَا كُنْتَ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٧) [الزخرف: الآية ٧٢].

رجعنا إلى القصة، قال وَهَبُ: مَكَثَ يُوسُفُ فِي دَارِ الْعَزِيزِ ثَلَاثَ سِنِينَ وَبَلَغَ الْحُلُمَ، فَلَمَّا فَاحَ مِنْ عَرَقِ نَسِيمِهِ لَزْلِيخًا مَا فَاحَ، أَعْلَنَ بُلْبُلٌ بَلْبَالٍ وَجَدَهَا بِالْإِفْضَاحِ بَرَّحَتْ بِالْوَجْدِ، إِذْ لَمْ تَجِدْ مِنْهُ الْخَلَاصَ مِنْ أَوْثَقِ طَائِرٍ سَرِيٍّ فِي هَذِهِ الْأَقْفَاصِ، مَنْ نَصَبَ هَذَا الشَّرْكَ لِإِقْتِنَاصِ قَلْبِي مَنْ فَوْقَ هَذَا السَّهْمِ لِإِخْتِلَاسِ لُبِّي قُلْ لِي فُديتُكَ مَنْ طَرَزَ حُلَّةَ جَمَالِكَ مَنْ رَسَمَ نُونَ حَاجِبِيكَ، مَنْ كَحَلَ حَدَقَتَيْكَ بِإِثْمِ بَابِلَ، مَنْ أَوْجَدَ هَذِهِ النِّهَايَةَ الْعِبْرَانِيَّةَ إِلَى كَمِّ يَا عِبْرَانِي تَصُدُّ وَأُعَانِي طُولَ الْعِتَابِ أَعْيَانِي، وَمَا غَيْرُكَ عُنَائِي. شعر:

صُنْ ذَا الْجَمَالِ فَمَا الْقُلُوبُ جَمَادُ	وَعِدِ الْجَمِيلَ فَلِلْأَنَامِ مَعَادُ
وَاحْبِبْ جَمَالَكَ إِنَّ وَجْهَكَ سَافِرُ	شَرِّكَ بِهِ حُبُّ الْقُلُوبِ تُصَادُ
أُمَجَرَّدُ الْعُضْبِ الصَّقِيلِ بِلَحْظَةٍ	مَهْلًا فَكُلُّ جَوَارِحِي أَعْمَادُ
وَلَقَدْ حَلَلْتُ مِنَ الْجَمَالِ بِمَنْزِلِ	لَو رَامَهُ قَمَرٌ لَكَادَ يَكَادُ
وَحَوِيْتُ مَا لَمْ تَحْوِ بَعْضُ جَمَالِهِ	هِنْدٌ وَلَا سَعِدَتْ بِذَاكَ سُعَادُ
حَتَّى تُشَاهِدَ بِالْجَمَالِ لَكَ الْوَرَى	وَالْفَضْلَ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَشْهَادُ
كَمْ سَافَرْتُ عَيْنِي إِلَيْكَ فَعَاقَهَا	ظَمًا عَلَى أَنْ الْمَدَامِيعَ زَادُ

فَلَمَّا شَغَفَ حُبُّهُ قَلْبَ سَيِّدَتِهِ وَقَرَأَ ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: الآية ٢٣] فَاثْمَتَعَ، قَالَتْ لَهُ: يَا حَبِيبِي يَا يُوسُفَ، هَذَا رِيَانُ بَنِ الْوَلِيدِ ابْنِ عَمِّي لَمْ يَتِمَّ لَهُ مِثْلُكَ مِضْرَ حَيْثُ لَمْ أَكُنْ عِنْدَهُ وَأَنْتَ تَفِرُّ مِنِّي. فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ غَرَامَهَا بَكَى بُكَاءً شَدِيدًا، فَجَلَسَتْ إِلَى جَانِبِهِ وَقَالَتْ: يَا حَبِيبِي يَا يُوسُفُ، إِنَّ الْحَبِيبَ إِذَا نَظَرَ إِلَى حَبِيبِهِ رَحِمَهُ، مَا أَقْسَى قَلْبَكَ وَأَرْقَ قَلْبِي عَلَيْكَ، وَأَقْبَلْتُ تَمَسِّحُ دُمُوعَهُ بِكُمِّهَا وَتَقُولُ: آوِ آوِ حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى أَكَايِدُ الْيَبْنَ يَا غُرَّةَ جَمَالِ الثَّقَلَيْنِ؟ قُلْ يَا حَبِيبِي لِشَقَايَ كَمَلِ هِلَالِكَ أَمْ لِعَنَائِي هَيْتَ لَكَ. شعر:

شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأَسَا بَعْدَ كَأَسٍ فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلَا دَوِيْتُ

قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: الآية ٢٣]،
 نَادَى الصَّدِيقُ، يَا زَلِيخًا كُفِّي عَنْ مَجَارِي السَّحْبِ وَالْبُحْرِ وَالْاِخْتِلَاقِ تِلْكَ فِطْرَةُ
 الْمَلِكِ الْخَلَاقِ، وَلَوْ أَبْصَرْتَ مُيَبَّرَةَ الْحَدَقَتَيْنِ فِي الثَّرَابِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ لَبَادَرْتَ إِلَى
 الْفِرَارِ وَلَمْ تَسْتَطِيعِي الْقَرَارَ، انْزُكِي طَلَبَ الْمَوَاصِلَةِ وَالْعِنَاقِ فِي دَارِ رَسْمِهَا
 الْفِرَاقِ وَلِسَانِ حَالِهَا يُنْشِدُ:

مِنْ قَبْلِكَ مَا رَأَيْتُ مَنْ يُعْجِبُنِي فِي الْخَلْقِ وَلَا سَمِعْتُ مَنْ يُطْرِبُنِي
 يَا مَنْ بِجَمَالِ وَجْهِهِ يَفْتُلُنِي مَا أَشَوْقُنِي إِلَيْكَ مَا أَشَوْقُنِي
 قَالَ: لَمْ تَزَلْ تُدِيرُ عَلَيْهِ دَوَائِرَ الْاِفْتِتَانِ حَتَّى سَارَ عَلَى أَقْدَامِ الطَّبَعِ لَا عَلَى
 أَقْدَامِ الطَّمَعِ فِي فَلَاتِ غَفَلَاتٍ ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رِءَا بَرُهْدَنَ رِيءَهُ﴾
 [يوسف: الآية ٢٤].

ذكر المهم والبرهان، فأهمل المعاني في هذه الكلمة على طَبَقَتَيْنِ؛ طَبَقَةُ
 ذَهَبَتْ إِلَى تَنْزِيهِ يَوْسُفَ عَنِ الْهِمَّةِ، وَطَبَقَةُ جَرَتْ عَلَى وجودِ الْهِمَّةِ. وَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَدْ أَثْبَتَ الْهِمَّةَ، وَكَذَلِكَ الْكَلْبِيُّ فَحِينَئِذٍ تَبَدَّى لَهُ فِي قِرَاءَةِ عَيْنِ
 الْعَبَّاسِ صُورَةُ يَعْقُوبَ عَاصًا عَلَى الْبَنَانِ قَائِلًا: يَوْسُفُ أَيْنَ مَلَابِسُ الْأَبْرَارِ، بُنِيَ
 أَشَدُّ مِثْرَ الْإِيمَانِ، إِيَّاكَ وَالْعِضْيَانَ فَأَنْقَذَ قُوَى الْقَرَارِ وَمَا اسْتَبَقَا فَاسْتَبَقَا فَانْبَسَطَتْ
 يَدُ الْعُدْوَانِ وَامْتَدَّتْ فَقَدَتْ. شعر:

سَقَانِي شَرْبَةً أَحْيَا فُؤَادِي فَلَا أَسْأَلُ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ

وكان قد القميص لاسْتِبانَةَ التَّخْصِيصِ جَدَّتْ فِي السَّيْرِ عَلَى مَحَجَّةِ الْأَرْتِيَابِ
 ﴿وَالْفَيَا سَدَّهَا لَدَا الْأَبَابِ﴾، نَطَقَتْ بِمَقَالٍ غَيْرِ سَلِيمٍ ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
 سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٢٥]. وَقَعَتِ الْمَعَارِضَةُ لَاحِتِ
 الْمُنَاقَضَةِ، نَطَقَ دُرَّةُ الْمَهْدِ بِالْإِغْلَامِ بِبِرَاءِ الصَّدِيقِ مِنَ الْآثَامِ، قَصَدَ نِسْوَةَ مَنْ
 الْمَدِينَةِ عَرِيْنٍ مِنَ الْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ [يوسف: الآية ٣١] صِرْنَ شَبَهُ
 السَّكَارَى أَوْ الْحَيَارَى، جَرَى حُبُّهُ مَجْرَى دَمِي فِي مَفَاصِلِ فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ
 شُغْلٍ بِهِ شُغْلٌ، فَلَمَّا نَظَرْتُ زَلِيخًا إِلَى تَحْيِيرِهَا قَالَتْ لَهَا: بِحَقِّي عَلَيْكَ إِلَّا
 أَعْطَيْتَنِي بِمَا فِي أَيْدِيكَ كَرَامَةً لَهُ، فَجَعَلَنَ يَقْطَعُنَ أَيْدِيَهُنَّ قِطْعًا وَهْنٌ يَحْسَبْنَ أَنَّهِنَّ
 يَقْطَعْنَ مَا فِي أَيْدِيَهُنَّ حَتَّى امْتَلَأَتْ حُجُورُهُنَّ دَمًا.

وَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ حَضَنَ لَمَّا رَأَيْنِ يُوسُفَ مِنَ الدَّهْشِ وَالتَّحِيرِ
وَعَلَبَةِ الشَّهْوَةِ حَتَّى لَمْ يَجِدَنَّ مَسَّ السَّكَائِينِ. وَيُوسُفُ يَقُولُ لَهُنَّ: وَيَحْكُنَّ
مَاذَا تَصْنَعْنَ بِأَيْدِيكُنَّ؟ أَنَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ رَبِّي، وَجَعَلْتَ زَلِيخًا تَضْحَكُ
وَتَعْجَبُ مِمَّا نَزَلَ بِهِنَّ مِنْ ذَهَابِ عُقُولِهِنَّ، فَلَمَّا غَابَ عَنْ أَعْيُنِهِنَّ قَالَتْ
لَهُنَّ: أَتُنْتَنَّ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلَّغَ مِنْ أَنْفُسِكُنَّ إِلَى مَا أَرَى فَلِمَ تُلْمَنِي وَأَنَا
مَعَهُ مِنْذُ سَبْعِ سِنِينَ؟

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٣١]، ثُمَّ
جَدَّدَنَّ فِي مَرَاوَدَتِهِ يَبْسِطُنَ بِسَاطَ مُوَافَقَتِهِ وَقُلْنَ لَزَلِيخًا: نَحْنُ نُوبِّخُهُ وَنَحْتُهُ عَلَى
طَاعَتِكَ. ثُمَّ قُلْنَ جَمِيعًا: يَا يُوسُفُ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تُطِيعَ سَيِّدَتَكَ؟ وَجَعَلْتَ كُلَّ
وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَخْلُو بِهِ تَرَى أَنَّهَا تُوبِّخُهُ فَإِذَا خَلَتْ بِهِ دَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا. فَقَالَ
يُوسُفُ: يَا رَبِّ كَانَتْ وَاحِدَةٌ فَصِرْنَ جَمَاعَةً، يَا مُقَدَّرَ الْأَيْنِ أَجْرَنِي مِنَ الْحَيْنِ.
وينشد:

قَلْبِي وَلَهُ وَجَفْنُ عَيْنِي دَامِي قَدْ حَرْتُ فَمَا أَبْصُرُ مَا قُدَّامِي
يَا عَاذِلُ كَمْ هَمَمْتُ بِالْإِفْدَامِي إِنْ أَهْجُرْكُمْ فَلَا مَشَتْ أَقْدَامِي

ثُمَّ أَخَذَتْ زَلِيخًا تَرْمِي يَمِينُ مَضْمَرَاتِ الْإِضْرَارِ يَمِينِ يَمِينِ ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ
مَاءَ أَمْرُهُ لِيَسْجَنَ﴾ [يوسف: الآية ٣٢]، فَاخْتَارَ دُرَّةَ فَهْمِهِ صَدَقَةَ الْحَبْسِ لِجَهْلِ النَّاقِدِ
﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: الآية ٣٣]. قَالَ: أَذْجَلُ يُوسُفُ السِّجْنِ يَوْمَ
الْحَمِيسِ فَبَكَى حَتَّى قَالَ لَهُ مَنْ فِي السِّجْنِ: حَرَمَتْنَا النَّوْمَ. فَقَالَ لَهُ السَّجَّانُ:
افْعَلْ مَا شِئْتَ فَإِنِّي أُجِيبُكَ.

فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: لَا تُحِبِّبْنِي فَإِنِّي اسْتَظَرِدْتُ بِحُبِّ بَنِي آدَمَ. أَحَبَّبَنِي أَبِي
يَعْقُوبُ فَلَقِيتُ مِنْ إِخْوَتِي مَا لَقِيتُ، وَأَحَبَّبَنِي زَلِيخًا فَصِرْتُ إِلَى السِّجْنِ، فَإِنْ أَنْتَ
أَحَبَّبْتَنِي فَأَخَافُ أَنْ أَلْقَى مِنْ حُبِّكَ بَلَاءً. قَالَ: وَلَمَّا غَابَ عَنْ عَيْنِ زَلِيخَا اشْتَدَّ
وَجْدُهَا وَعَظَمَ حُزْنُهَا. شعر:

إِذَا كُنْتَ قُوْتَ النَّفْسِ ثُمَّ هَجَرْتَهَا فَلَمْ تَلْبِثِ النَّفْسُ الَّتِي أَنْتَ قُوْتُهَا

قَالَ: كَانَتْ إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ تَصْعَدُ عَلَى قَصْرِهَا وَتَطْلُعُ عَلَى السِّجْنِ فَتَبْكِي

وَتَقُولُ: يَا حَبِيبِي يَا يَوْسُفُ، أَنَايْمُ أَنْتَ أَمْ يَقْظَانُ؟ أَجَائِعُ أَنْتَ أَمْ شَبَعَانُ، لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ أَمَرْتُ الْمَلِكَ بِحَبْسِكَ، وَتَبَكِّي لَيْلَتَهَا حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مَكَانِهَا، دَامَتْ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ سِنِينَ. شعر:

أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ حِذْرِي وَأَقْنَعُ مِنْكَ بِالنَّظَرِي
وَكَانَ هَوَاكَ لِي قَدَرًا فَأَيْنَ أَفْرُ مِنْ قَدْرِي
وَصَادَقَنِي الْهَوَى طِفْلًا فَشَيَّبَنِي عَلَى صِعْرِي

رَوِي أَنَّهُ مَاتَ مِنْ تِلْكَ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ سَبْعَ نِسُوءٍ وَجَدَا بِهِ وَكَمَدَا، فَطَرَّقَتْ بِهِ طَوَارِقُ الْأَحْلَامِ عَيْنَ الْمَنَامِ، فَلَمَّا ضَاقَ قَفْصُ الْحَضَرِ عَلَى بُلْبُلِ الطَّمَعِ تَرَنَّمَ بِصَوْتٍ ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٤٢]، عُوقِبَ بِنِسْيَانِ رَبِّهِ ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بَضَعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٤٢].

رَوِي عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالسِّيَرِ أَنَّهُ بَقِيَ فِي السِّجْنِ عَلَى عَدَدِ حُرُوفٍ ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٤٢]، لِكُلِّ حَرْفٍ عَقُوبَةُ سَنَةٍ، فَلَمَّا آوَأْنَ الْفَرَجَ جَرَتْ أَقْلَامُ الْمَشِيئَةِ بِذِكْرِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ، دَعَاهُ رَبُّهُ الْعَزِيزُ، دُعَاءَ بَرٍّ وَتَعَزُّيزٍ، وَقَالَ: ﴿مَا بَالُ النِّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٥٠]؟ قَالَ: سَلَهُنَّ.

فَقَالَ بِمَقَالِ سَلِيمٍ: ﴿إِنَّ رَبِّي يَكِيدُهُنَّ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٥٠].

أَظْهَرَتْ زَلِيخًا مَكْتُومَ السَّرَائِرِ، بَا حَتْ بِخَفِيَّاتِ الضَّمَائِرِ، قَالَتْ: ﴿الْكَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يُوسُفُ: الآية ٥١].

اعْلَمْ أَنَّ الْبَرِيءَ نَاجٍ وَالْمُجْرِمَ مُفْتَضِّحٌ، نَجَا يُوسُفُ بِالشَّاهِدِ وَافْتَضَّحَتْ زَلِيخَا، وَإِنْ كَانَتْ الْمُجْرِمَةُ نَجَتْ فِي الْوَقْتِ، وَصَارَ الْبَرِيءُ مَأْخُودًا فِي السِّجْنِ فَبَعْدَ الْمِحْنَةِ ظَهَرَ شَرَفُ الْبَرِيءِ وَبَرَاءَتُهُ، وَافْتَضَّحَتْ الْمُجْرِمَةُ حَتَّى قَالَتْ: ﴿أَنَا رَوْدُنْتُ عَنْ نَفْسِي﴾ [يُوسُفُ: الآية ٥١]. وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ، وَكُلُّ صَاحِبِ بَاطِلٍ نَاجٍ فِي نِعْمَةٍ، وَالْمُؤْمِنُ فِي شِدَّةٍ، وَعِنْدَ خُرُوجِهِمَا مِنَ الدُّنْيَا يَظْهَرُ شَرَفُ الْمُؤْمِنِ وَذُلُّ الْكَافِرِ.

رجعنا إلى القصة، بَادَرَ يُوسُفُ إِلَى رِكَابِ الرِّيَّانِ وَقَالَ: ﴿أَنَا لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: الآية ٥٢] - يَغْنِي قِطْفِيرَ - وَهُوَ الْعَزِيزُ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ اتَّخَذْتَنِي وَلَدًا، فَكَيْفَ يَنْبَغِي لِلْوَلَدِ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى أَبِيهِ؟ فَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ: يَا يُوسُفُ تَخَافُ الْمُشْرِكِينَ وَأَنَا أَمِينُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ أَمَا حَلَلْتَ الْهِمْيَانَ؟ أَمَا أَرَدْتَ الْبُهْتَانَ؟ لَوْلَا مَا رَأَيْتَ الْبُرْهَانَ وَوَلَّيْتَ غَضَبَانَ، فَاتَّبَعَهُ يُوسُفُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالْأَسْوَى إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٣].

ظَهَرَتْ أَعْلَامُ وَلَايَتِهِ مِلْكَ الرُّقَابِ، اسْتَوَلَى عَلَى مَنْ حَضَرَ لِمَضَرٍ وَغَابَ، هَذَا وَيَعْقُوبُ مُفْتَرِشٌ فِرَاشَ الْأَسَى عَلَى حَزَنِ الْحُزْنِ لَا يَلْدُ نَوْمًا وَلَا سِنَّةً حَتَّى نَحِلَ الْبَدَنُ وَذَهَبَ الْبَصَرُ. وينشد:

لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَكُمْ رَسْمٌ وَلَا طَلَلٌ إِلَّا وَلِلشَّوْقِ فِي أَرْجَائِهِ عَمَلٌ
إِذَا شَمَمْتُ نَسِيمًا مِنْ دِيَارِكُمْ فَقَدْتُ عَقْلِي كَأَنِّي شَارِبٌ ثَمَلٌ
وَكَمْ تَعَرَّضَ لِي لِلْوَصْلِ غَيْرُكُمْ يَسْتَأْذِنُونَ عَلَى قَلْبِي فَمَا دَخَلُوا

قَالَ: فَلَمَّا غَمَّ غَمُّ الْقَحْطِ أَهْلَ كَنْعَانَ خَرَجَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِطَلَبِ الْمِيرَةِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فِي ظِلَامٍ ظَلَمَهُمْ فَرَأَهُمُ الْمَظْلُومُ بَعِينٍ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ [يوسف: الآية ١٥]، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ نِقْمَةُ ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: الآية ٩]، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ سَائِلًا وَأَسْبَلَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ سَائِلًا، وَتَقَلُّلٌ تَقَلُّلُ الْوَاجِدِ، لِيَسْمَعَ خَبَرَ الْوَالِدِ. وينشد:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ لِي فِرَاقٌ وَغُرْبَةٌ أَمَرٌ مِنَ الصَّبْرِ الْمُدَابِ بِعَلْقَمِ
أَلَا يَا نَسِيمَ الرِّيحِ إِنْ كُنْتُ مُحْسِنًا إِلَيَّ فَعَرِّجْ بِالْحَبِيبِ وَسَلِّمْ
ظَفَرْتُمْ بِنَفْسٍ لَا تَزَالُ حَزِينَةً عَلَيْكُمْ وَقَلْبٍ صِدْثُمُوهُ بِأَسْهُمِ
جَمَعْتُمْ عَلَى قَلْبِي فِرَاقًا وَغُرْبَةً يَقِلُّ عَلَى هَذَا بَقَاءُ الْمُتَمِّمِ

قَالَ: ثُمَّ سَأَلَهُمْ فَقَالُوا: جِئْنَا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ وَلَنَا شَيْخٌ يَقَالُ لَهُ يَعْقُوبُ، وَهُوَ يَقِرُّ عَلَيْكَ السَّلَامُ. وينشد:

نَاشَدْتُكَ اللَّهُ إِنْ جِئْتَ الْعَقِيقُ ضَحَى فَاقْرِ السَّلَامَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُحْتَشِمِ
وَقَدْ تَرَكْتُ صَرِيْعًا فِي مَحَبَّتِكُمْ حَيًّا كَمَيِّتٍ بَغِيرِ الشَّقْمِ لِلْسَقْمِ

فَمِنْ فُؤَادِي لَهَيْبٌ نَابَ عَنْ قَبَسٍ وَمِنْ جُفُونِي دُمُوعٌ فَاضَ كَالدَّيَمِ
 آهًا لَا يَأْمِنَا بِالْخَيْفِ لَوْ بَقِيَتْ عَشْرًا وَوَاهَا عَلَيْهَا حِينَ لَمْ تَدِمِ
 وَلَا تُمْ لَا مَنِي فِي حُبِّكُمْ سَفَهَا كُفَّ الْمَلَامَةَ لَوْ أَحْبَبْتَ لَمْ تَلِمِ

قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ يُوسُفُ رِسَالَةَ أَبِيهِ إِلَيْهِ انْتَفَضَ طَائِرُ الْوَجْدِ لِذِكْرِ الْحَبِيبِ فَهَجَّ أَحْزَانُ الْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي، فَرَدَّ السَّلَامَ قَلْبُهُ قَبْلَ لِسَانِهِ، وَشَغَلَهُ كَثُّ شَأْنِهِ عَنْ شَأْنِهِ، فَقَالَ مَقُولٌ إِبْدَائِهِ بِعِبَارَةٍ صُعْدَائِهِ. وينشد:

إِنْ كُنْتُ ذَلَلْتُ بَعْدَ عِزٍّ فَاجِرٍ وَاسْتَغْرَقَكَ الْهَوَى بِبَحْرِ زَاخِرٍ
 فَاصْبِرْ فَالصَّبْرُ نِعَمٌ ذُخْرُ الدَّاخِرِ لَا بُدَّ لِكُلِّ أَوَّلٍ مِنْ آخِرٍ

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿أَتُؤْنِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ [يوسف: الآية ٥٩]، فَاحْتَالُوا بِحُجَّةٍ ﴿مَنْعَ مَنَا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: الآية ٦٣]، فَقَالَ يَعْقُوبُ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: الآية ٦٤]، ثُمَّ حَمَلَهُ احتياجه إلى الطَّعَامِ عَلَى شَرْطِ أَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ قَدَّمُوا ابْنَ يَامِينَ لِيَعْلَمَ الْمَلِكُ أَنَّهُمْ قَدْ جَاؤُوا بِالْأَخِ وَهُمْ عَلَى إِثْرِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ آتَيْتُمُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ؟ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ قَدْ أَطْعَمْنَاكَ وَاجْتَهَدْنَا وَجِئْنَاكَ بِهِ، وَمَعَنَا كِتَابٌ مِنْ أَبِيْنَا فِي شَأْنِهِ، فَلَمَّا قَرَأَهُ فَاضَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ لَمَّا سَمِعَ فِي الْكِتَابِ مِنْ حَالِ أَبِيهِ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ قَدْ قَالَ لِابْنِهِ رُوبِيلَ: اكْتُبْ كِتَابًا إِلَى مَلِكِ مِصْرَ، وَكَتَبَ مِنْ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلَ اللَّهُ ابْنِ إِسْحَاقَ ذَبِيحَ اللَّهِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ سَأَلْتَنِي عَلَى لِسَانِ أَوْلَادِي عَنْ حُزْنِي وَشَيْبِي وَوَهْنِ عَظْمِي وَانْحِنَاءِ ظَهْرِي وَعَمِي بَصْرِي، فَاعْلَمْ أَنِّي أَطَوَّلُ النَّاسَ حُزْنًَا وَأَحَقُّهُمْ وَأَخَوْفُهُمْ مِنْ رَبِّهِ وَأَذْكُرُهُمْ لِمَعَادِهِ.

وَأَمَّا كِبَرِي مَاتَ قَبْلَ أَوَانِهِ فَمِنْ ذِكْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَأَمَّا شَيْبَتِي قَبْلَ أَوَانِ الْمَشِيبِ فَمِنْ ذِكْرِ النَّارِ وَشِدَّةِ عَذَابِهَا. وَأَمَّا انْحِنَاءُ ظَهْرِي وَوَهْنُ عَظْمِي فَمِنْ الْحُزَنِ عَلَى قُرَّةِ عَيْنِي يُوسُفَ.

وَأَمَّا عَمِي بَصْرِي فَمِنْ كَثْرَةِ بُكَائِي عَلَيْهِ، وَكَانَ قُرَّةَ عَيْنِي وَثَمَرَةَ فُؤَادِي

وَنُورَ بَصَرِي، وَلَا أَدْرِي أَفِي الْبَرِّ هُوَ أَمْ فِي الْبَحْرِ، وَأَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مُوَكَّلٌ
بِنَا الْبَلَاءُ وَشَرَفُنَا بِذَلِكَ، وَلَا تَصْفُو لَنَا الدُّنْيَا وَلَا نَزَالُ فِيهَا مُمْتَحَنِينَ. وَقَدْ
بَلَغَنِي اهْتِمَامُكَ بِأَمْرِي حَتَّى سَأَلْتَ عَنِّي وَعَنْ حَالِي جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، وَكَفَى
بِاللَّهِ جَازِيًا.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا تُكْرِمُنِي بِكَرَامَةٍ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ تَعْجِيلِ سَرَاحِ أَوْلَادِي فَتَصِلُ
بِهِمْ وَحَدَّثَنِي وَتُوَظِّسُ بِهِمْ وَحَشَّتَنِي وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. وَهَذَا الْإِبْنُ الَّذِي سَأَلْتَنِي فِيهِ
كَانَ يُسَكِّنُ وَحَشَّتَنِي وَأَتَسَلَّى بِهِ فَسَلَّمْتُهُ لَكَ بِالْأَمَانَةِ حَتَّى تَرُدَّهُ سَالِمًا، وَالسَّلَامُ
عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

يَقُولُونَ لِي صَبْرًا وَقَدْ نَفَدَ الصَّبْرُ وَيَبِينُ الْحَشَا جَمْرٌ يَذُوبُ لَهُ الْجَمْرُ
أَفَارِقُ نَفْسِي بَعْدَ الْفِي وَمُونِسِي وَمَنْ كَانَ يَحْوِيهِ الْأَضَالِغُ وَالصَّدْرُ
فَلَيْسَ أُبَالِي بَعْدَهُ أَيَّ مَوْتَةٍ أَمُوتُ وَمَا لِي فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ عُذْرُ
سَعَى بَيْنَنَا دَهْرٌ فَفَرَّقَ شَمْلَنَا وَأَيُّ نَعِيمٍ لَا يُكَدِّرُهُ الدَّهْرُ

قال: ثُمَّ إِنَّ يَوْسُفَ أَمْرَ بَضِيئَةٍ حَسَنَةٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا تَوَآمِينَ كُلُّ اثْنَيْنِ
مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ عَلَى مَائِدَةٍ، فَبَقِيَ ابْنُ يَامِينَ وَحِيدًا فَبَكَى، وقال: لو كَانَ أَخِي حَيًّا
لَأَجْلَسَنِي مَعَهُ.

فَقَالَ لَهُ يَوْسُفُ: مَا لَكَ تَأَخَّرْتَ عَنِ الطَّعَامِ كَالْحَزِينِ تَبْكِي؟ قَالَ لَهُ: كَيْفَ لَا
أَبْكِي وَقَدْ تَذَكَّرْتُ أَحَا لِي لَا نَذْرِي أَحِيَّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟ ثُمَّ صُعِقَ وَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ،
وَوَقَعَتِ الصَّيْحَةُ فِي مَنْزِلِ يَوْسُفَ، أَنْ قَدْ مَاتَ مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ رَجُلٌ، فَنَزَلَ يَوْسُفُ
مِنْ سَرِيرِهِ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: هَلْ تُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا أَخُوكَ؟ قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ،
وَمَنْ يَجِدُ أَخًا مِثْلَكَ، وَلَكِنْ لَمْ يَلِدْكَ يَغْقُوبُ وَلَا رَاحِيلُ، فَبَكَى يَوْسُفُ وَجَعَلَ
يُؤَاكِلُهُ وَإِخْوَتُهُ يَقُولُونَ: أَمَا تَرَوْنَ مَا بَلَغَ ابْنُ يَامِينَ؟ فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ إِلَى كَنْعَانَ يَفْتَخِرُ
عَلَيْنَا. ثُمَّ قَالَ يَوْسُفُ: يَا فَتَى أَلَيْكَ زَوْجَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَلَيْكَ وَلَدٌ؟ قَالَ:
ثَلَاثَةٌ. قَالَ: فَمَا سَمَّيْتَ الْأَكْبَرَ؟ قَالَ: سَمَّيْتُهُ ذُبًّا. قَالَ: وَلِمَ سَمَّيْتُهُ ذُبًّا؟ قَالَ:
لَأَنَّ إِخْوَتِي زَعَمُوا أَنَّ أَخِي يَوْسُفَ أَكَلَهُ الذُّبُّ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَذْكُرَ ذَلِكَ. قَالَ:
فَمَا سَمَّيْتَ الثَّانِي؟ قَالَ: سَمَّيْتُهُ دَمًّا. قَالَ: وَلِمَ سَمَّيْتُهُ دَمًّا؟ قَالَ: لَأَنَّ إِخْوَتِي

جَاؤُوا عَلَى قَمِيصِ أَخِي يُوسُفَ بِدَمٍ كَذِبٍ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَذْكَرَ الدَّمَ الَّذِي عَلَى قَمِيصِ أَخِي يُوسُفَ. قَالَ: فَمَا سَمَّيْتَ الثَّالِثَ؟ قَالَ: سَمَّيْتُهُ يُوسُفَ لِئَلَّا يَخْرُجَ مِنَّا اسْمُهُ وَيُنْدَرِسَ. قَالَ: فَتَحَرَّكَ دَمُ يُوسُفَ وَاهْتَزَّ قَلْبُهُ حَتَّى كَادَ يَصِيحُ وَيُفْشِي السِّرَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا فَتَى تَخْلُو مَعِيَ فِي الْبَيْتِ؟ فَتَحَلَّى بِهِ وَأَرْخَى السُّنَرُ وَكَشَفَ الْقِنَاعَ وَيَكِّي.

فلما اعتنقا ضجبت الملائكة بالبكاء في السماء، وخرَّ ابنُ يامينَ مغشياً عليه مِنَ الْفَرَحِ. وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يُوسُفَ: الآية ٦٩]. ثُمَّ اخْتَالَ عَلَيْهِ بِحِيلَةٍ جَعَلَ السَّقَايَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ وَقْتُ التُّهْمَةِ ﴿أَذَنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [يُوسُفَ: الآية ٧٠]، فعَادُوا إِلَى أَبِيهِمْ بِشَجْنٍ عَلَى شَجْنٍ وَقَرِحَ عَلَى جُرْحٍ، فَتَقَوَّسَ قِوَامُ عَسَى عَلَى بَابِ عَشِيٍّ ثُمَّ بَعَثَهُ لُطْفٌ ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ [الزُّمَرُ: الآية ٥٣] عَلَى أَنْ بَعَثَهُمْ بِرِسَالَةٍ ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ [يُوسُفَ: الآية ٨٧].

فَلَمَّا رَجَعُوا دَخَلُوا فِي قَفْرِ الْفَقْرِ، فَاسْتَلَقُوا فِي سَاحَةِ الضَّرِّ يُنَادُونَ عَلَى عَلِيلٍ عَلِيلِ الدَّلِّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يُوسُفَ: الآية ٨٨]، يَا لَهَا سَاعَةً لَا يُشْبِهُهَا سَاعَةٌ يَنْدُمُ فِيهَا أَهْلُ الثَّقَى. فَكَيْفَ أَهْلُ الْإِضَاعَةِ ﴿تَاللَّهِ﴾ [يُوسُفَ: الآية ٧٣] لَقَدْ جُوزِيتْ أَيْدٍ مَذْهَبًا تَعَسَّرُ ﴿وَشَرُّهُ﴾ [يُوسُفَ: الآية ٢٠] أَنْ مُدَّتْ فِي طَرِيقِ دَلٍّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يُوسُفَ: الآية ٨٨].

فَلَمَّا عَرَفُوا اغْتَرَفُوا فَمَحَى مَا افْتَرَفُوا بِكَفِّ ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يُوسُفَ: الآية ٩٢] وَرَفَعَ مِنْ مَوَائِدِ تِلْكَ الْفَوَائِدِ نَصِيبَ الْوَالِدِ ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يُوسُفَ: الآية ٩٣]، فَهَبَّ نَسِيمُ الْفَرَحِ، فَخَرَّ رُكَامَ الزُّكَامِ، فَتَوَغَّلَ فِي خَيَاشِيمِ مَرِيضٍ كَالْفَرْخِ مِنْ رَوْحِ الْفَرَحِ، فَخَرَّ رُكَامُ الزُّكَامِ عَلَى مِنْخَرِ الضَّرِّ، وَانْقَشَعَ غَيْمُ الْغَمِّ عَنْ جَوْ الْقَلْبِ، فَنَادَى مُذْنِفُ الْوَجْدِ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يُوسُفَ: الآية ٩٤].

حَمَلَ النَّسِيمُ مِنَ الْحَبِيبِ رَوَائِحًا أَحْيَتْ فُؤَادَ الْهَائِمِ الْمُشْتَاكِ
جَاءَتْ بِتَوَقِيعِ الْأَمَانِ لِقَلْبِهِ أَنْ لَا يَرَى مُتَفَجِّعًا بِفِرَاقِ
إِخْوَانِي، مَا صَلَحَ لِبَصَرِ يَعْقُوبَ أَنْ يَقَعَ إِلَّا عَلَى يُوسُفَ، فَلَمَّا فَقَدَ التَّطَوُّرُ

ذَهَبَ النَّاطِرُ عَلَيْهِ فَلَمَّا عَادَ عَادَ. ينشد:

قَسَمًا بِسَابِقَةِ الْوِصَالِ فَإِنَّهُ قَسَمٌ يَحِقُّ لِطَيْبِهِ أَنْ يُذْكَرَا
إِنَّ الْغَرَامَ كَمَا عَهِدْتَ وَإِنَّمَا كَانَ الْغَرَامُ عَلَى التَّبَاعِدِ أَكْثَرَا
مَا زِلْتُ أَحْفَظُ عَهْدَكُمْ حَتَّى وَهَى عَظْمِي وَصَيَّرَنِي الْغَرَامُ كَمَا تَرَى

فَلَمَّا كَشَفَ يَعْقُوبُ فِدَامَ الْوَجْدِ بِكَفِّ ﴿إِنِّي لِأَجِدُ﴾ [يوسف: الآية ٩٤]
أَحَدَقْتُ بِهِ يَدَ عَوَازِلِ ﴿تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يَوْسُفُ﴾ [يوسف: الآية ٨٥] تَالَهُ، وَلَوْ
وَجَدُوا مَا وَجَدَ مَا أَنْكُرُوا مَا عَرَفَ. وينشد:

تَحَمَّلَ أَصْحَابِي وَلَمْ يَجِدُوا وَجْدِي وَلِلنَّاسِ أَشْجَانٌ وَلِي شَجْنٌ وَحْدِي
أَحِبُّكُمْ مَا دُمْتُ حَيًّا فَإِنْ أُمْتُ فَوَاكِبِي مَنْ ذَا يُحِبُّكُمْ بَعْدِي

إخواني، رِيحُ الْحَبِيبِ لَا يَسْتَشْفِقُهَا مَزْكُومٌ غَفَلَةٍ حَمَلْتُ الصَّبَا رِيحَ قَمِيصِ
يُوسُفَ، وَلَمْ يَفْضُضْ خِتَامَهَا إِلَّا يُوسُفُ مَا وَجَدَهَا أَهْلٌ مِصْرَ وَلَا غَيْرُهُمْ، وَمَنْ
عِنْدَهُمْ خَرَجَ، وَلَا يَهُودًا وَهُوَ الْحَامِلُ، وَلَا أَهْلُ كَنْعَانَ وَإِلَيْهِمْ وَصَلَ، وَإِنَّمَا قَالَ
صَاحِبُ الْوَجْدِ: ﴿إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ﴾ [يوسف: الآية ٩٤]، رَبِّ حَامِلِ فَقِهِ
إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

قِيلَ: ارْتَحَلَ يَعْقُوبُ فِي أَرْبَعَمِائَةٍ مِنْ أَوْلَادِهِ وَأَوْلَادِ أَوْلَادِهِ، قَالَ
وَهَبْ: كَانُوا تِسْعِينَ ذَكَرًا، وَالْآخَرُونَ إِنَاثًا، قَالَ: فَلَمَّا اعْتَنَقَ يَعْقُوبُ
يُوسُفَ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ جَعَلَ يَلْحَسُهُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَلْحَسُ الْبَقَرَةُ
عِجْلَهَا، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَخْبِرْنِي مَا فَعَلَ إِخْوَتُكَ مَعَكَ؟ قَالَ: يَا أَبَتِ نَحْمَدُ
اللهَ تَعَالَى وَنَشْكُرُهُ وَلَا نَذْكُرُ مَا مَضَى. قِيلَ: وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَلَفَ مَالُ زَلِيخَا
وَمَاتَ الْعَزِيزُ وَذَهَبَ بَصْرُهَا.

مَنْ لِي بِوَجْهِكَ كَي يَجْلُو قَدَى بَصْرِي

فَإِنَّ أَوْجَهَ قَوْمٍ يُورِثُ الرَّمْدَا

فَقِيلَ لَهَا: إِنَّكَ لَوْ تَعَرَّضْتَ لِلْمَلِكِ لَعَلَّهُ يَرْحَمُكَ بِشَيْءٍ. ثُمَّ قِيلَ: لَا تَفْعَلِي؛
لَأَنَّهُ رَبَّمَا يَتَذَكَّرُ بِمَا كَانَتْ مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُرَاوَدَةِ وَالسَّجْنِ فَيُسِيءُ إِلَيْكَ.

فَقَالَتْ: أَنَا أَعْرِفُ بِخُلُقِي حَبِيبِي وَقُرَّةَ عَيْنِي وَكَرَمِهِ وَجِلْمِهِ مِنْكُمْ. فَكَانَتْ تَجْلِسُ عَلَى الطَّرِيقِ وَتُنَادِيهِ فَلَا يَسْمَعُ، فَنَادَتْهُ يَوْمًا: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ، سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْعَبِيدَ بِالطَّاعَةِ مُلُوكًا، وَجَعَلَ الْمُلُوكَ بِالْمَعْصِيَةِ عَبِيدًا.

فَسَمِعَهَا يُوسُفُ وَبَكَى، وَقَالَ لِفَتَاةٍ: انْطَلِقِي بِهِذِهِ الْعَجُوزِ إِلَى الدَّارِ وَاقْضِي لَهَا كُلَّ حَاجَةٍ. قَالَ لَهَا الْغُلَامُ: مَا حَاجَتُكِ يَا عَجُوزُ؟ قَالَتْ: إِنَّ حَاجَتِي مُحَرَّمَةٌ أَنْ يَقْضِيَهَا غَيْرُ يُوسُفَ. فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ قَالَ لَهَا: مَنْ أَنْتِ يَا عَجُوزُ؟ قَالَتْ: أَنَا زَلِيخَا. قَالَ: مَا فَعَلَ حُسْنُكَ وَجَمَالُكَ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ بِهِ الَّذِي أَذْهَبَ ذَلِكَ وَمَسْكَنْتَكَ.

فَقَالَ لَهَا: لَكَ عِنْدِي قَضَاءُ ثَلَاثِ حَوَائِجٍ فَاسْأَلِي، فَوَحَقَّ شَيْبَةُ إِبْرَاهِيمَ لِأَقْضِيَنَّهَا لَكَ. فَقَالَتْ: حَاجَتِي الْأُولَى: أَنْ تَدْعُو اللَّهَ لِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصْرِي وَشَبَابِي. فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ عَلَيْهَا بَصَرَهَا وَشَبَابَهَا. ثُمَّ قَالَتْ: أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ حُسْنِي كَمَا كَانَ. فَدَعَا اللَّهَ فَرَدَّ عَلَيْهَا حُسْنَهَا وَزَيْدَ فِيهِ، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا بِنْتُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ لَهَا مِائَةٌ وَعَشْرُونَ سَنَةً. فَقَالَتْ: حَاجَتِي الثَّالِثَةُ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي، فَتَزَوَّجَ بِهَا فَأَصَابَهَا بِكْرًا وَأَوْلَدَهَا اثْنِي عَشَرَ وَلَدًا.

قَالَ ابْنُ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْمُنَادِي عَنْ وَهَبِ بْنِ الْمُثَنَّبِ وَغَيْرِهِ. وَأَقَامَ يَعْقُوبُ عِنْدَ يُوسُفَ أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً فِي أَهْنٍ عَيْشٍ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَوْصَى إِلَى يُوسُفَ أَنْ يَحْمِلَهُ إِلَى الشَّامِ حَتَّى يَدْفِنَهُ عِنْدَ أَبِيهِ إِسْحَاقَ فَقَعَلَ. ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ رَأَى أَنَّ أَمْرَهُ قَدْ تَمَّ فَقَالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يُوسُفَ: الْآيَةُ ١٠١]، فَأَوْصَى إِلَى يَهُوذَا.

إِخْوَانِي، تَلَمَّحُوا عُلُوَّ قَدْرِ يَعْقُوبَ بِبِلَائِهِ وَعِزَّ يُوسُفَ فِي صَبْرِهِ، وَلَكِنْ حَظُّكُمْ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ تَفَكُّرُ الْعَاصِي فِي لَذَاتِ فِتْنَةٍ وَتَبِعَاتِ بَقِيَّةٍ، وَلِيَتَذَكَّرَ الصَّابِرُ لَذَّةَ مُرِيحَةٍ ثَبَّتَتْ، وَمَرَارَةَ مَصَابِرَةٍ رَحَلَتْ، وَلِلْعَوَاقِبِ يَعْمَلُ الْمُتَيَقِّظُ. رَزَقَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ صَبْرًا يُزَيِّنُنَا، أَوْ عِصْمَةً مِنْ هَوَى تُشِينُنَا، فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ سَلِمَ دُنْيَانَا وَدِينُنَا إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: الآية ٨٣] وَهُوَ الْبِرُّ وَالْإِكْرَامُ. ﴿إِنَّمَا

يَلْغَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ، أي: لا تقل لهما كلامًا تَبَرُّمٌ فِيهِ بِهِمَا إِذَا كَبُرَا.

قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ اللُّغَوِيُّ: أَصْلُ أَفٍّ نَفْحُكَ لِلشَّيْءِ فَيَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْ تُرَابٍ أَوْ نَحْوِهِ وَلِلْمَكَانِ تُرِيدُ إِمَاطَةَ الْأَذَى عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا نَهَرُهُمَا﴾، أي: لا تُكَلِّمُهُمَا ضَجْرًا وَصَائِحًا فِي وُجُوهِهِمَا. قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَّاحٍ: لَا تَنْفُضْ يَدَيْكَ عَلَيْهِمَا ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، أي: لَيْتَا لَطِيفًا أَحْسَنَ مَا تَجِدُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، أي: أَلِنْ لَهُمَا جَانِبَكَ مُتَذَلِّلًا لَهُمَا.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي الْكَبَائِرِ الْعُقُوقَ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، أي: مِثْلَ رَحْمَتِهِمَا إِلَيَّ فِي صِغَرِي حِينَ رَبَّيَانِي.

السَّجْع:

الْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِعَاقٍ لَوَالِدَيْهِ، وَالْخِزْيُ كُلُّ الْخِزْيِ لِمَنْ مَاتَا غَضَبَانَيْنِ عَلَيْهِ أَفَّ لَهُ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ، أَتَّبِعِ الْآنَ تَفَرُّطَكَ فِي حَقِّهِمَا أَيْنُنَا وَزَفِيرًا ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

كَمْ أَثْرَاكَ بِالشَّهَوَاتِ عَلَى النَّفْسِ، وَلَوْ غَبَتْ سَاعَةً صَارَا فِي حَبْسٍ، حَيَاتُهُمَا عِنْدَكَ بَقَايَا شَمْسٍ قَدْ رَاعِيَا لَكَ طَوِيلًا فَرَاعِيَهُمَا قَصِيرًا ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

كَمْ لَيْلَةً سَهَرَا مَعَكَ إِلَى الْفَجْرِ يُدَارِيَانِكَ مُدَارَاةَ الْعَاشِقِ فِي الْهَجْرِ، فَإِنْ مَرَضْتَ أَجْرِيَا دَمْعًا لَمْ يُجِرْ بِاللَّهِ لَمْ يَرْضِيَا لِتَرْبِيَّتِكَ غَيْرَ الْكَفِّ وَالْحَجَرِ سَرِيرًا ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٤].

يُعَالِجَانِ أَنْجَاسَكَ وَيَخْتَارَانِ بَقَاءَكَ، وَلَوْ لَقِيتَ مِنْهُمَا أَدَى شَكُوتِ شَقَاءِكَ مَا تَشْتَاقُهُمَا إِذَا غَابَا عَنْكَ وَيَشْتَاقَانِ لِقَاءَكَ. كَمْ جَرَّعَاكَ حُلُوءًا وَجَرَّعَتْهُمَا مُرًّا

مَرِيْرًا ﴿وَقُلْ رَبِّ اَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّانِي صَغِيْرًا﴾ .

اَتَحْسِنُ الْاِسَاءَةَ فِي مُقَابَلَةِ الْاِحْسَانِ، اَمَّا تَأْنِفُ الْاِنْسَانِيَّةُ لِلْاِنْسَانِ كَيْفَ تُعَارِضُ حُسْنَ فَضْلِهِمَا بِقُبْحِ الْعِضْيَانِ؟ ثُمَّ تَرْفَعُ عَلَيْهِمَا صَوْتًا جَهِيْرًا ﴿وَقُلْ رَبِّ اَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّانِي صَغِيْرًا﴾ .

تُحِبُّ وَلَدَكَ طَبْعًا، فَأَحِبَّ وَالِدَيْكَ شَرْعًا، وَارْعَ أَصْلًا أَنْتَمَرَ لَكَ فَرْعًا، وَادْكُرْ لُطْفَهُمَا بِكَ وَطِيبَ الْمَرْعَى أَوَّلًا وَأَخِيْرًا ﴿وَقُلْ رَبِّ اَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّانِي صَغِيْرًا﴾ .

تَصَدَّقْ عَنْهُمَا إِنْ كَانَا مَيِّتَيْنِ، وَصَلِّ عَلَيْهِمَا، وَاقْضِ عَنْهُمَا الدَّيْنَ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمَا وَاسْتَلِمِ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ وَمَا تُكَلِّفُ إِلَّا أَمْرًا يَسِيْرًا ﴿وَقُلْ رَبِّ اَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّانِي صَغِيْرًا﴾ [الإِسْرَاءُ: الْآيَةُ ٢٤] .

اَللّٰهُمَّ اَيُّقِظْنَا مِنْ سِنَةِ الْعَفْلَةِ، وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الْأَشْرَارِ وَوَسْوَاسِ الْأَفْكَارِ .
اَللّٰهُمَّ اَقْسِمْ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَعْصِمُنَا بِهِ مِنْ فِتْنَتِهَا، وَمَا تُغْنِيْنَا بِهِ عَنْ أَهْلِهَا وَاعْفِرْ
لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى
آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيْمًا .

الْمَجْلِسُ الثَّالِثُ عَشَرَ فِي قِصَّةِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحمد لله الَّذِي ابْتَعَثَ بِلُطْفِهِ السَّحَابَ، فَرَوَى الْأَوْدِيَةَ وَالشُّعَابَ، وَأَنْبَتَ
الْخَلَائِقَ وَأَخْرَجَ الْأَعْنَابَ، وَأَلْبَسَ الْأَرْضَ أَثْوَابًا أَحْسَنَ مِنْ أَثْوَابِ الْعُنَابِ،
يَبْتَلِي لِيُدْعَى، فَإِذَا دُعِيَ أَجَابَ.

قَضَى عَلَى آدَمَ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ قَضَى أَنْ تَابَ. وَكَانَتِ السَّفِينَةُ مِنَ الْعُجَابِ.
أَكْرَمَ وَرَفَعَ إِدْرِيسَ بِلُطْفِهِ أَكْرَمَ جَنَابٍ. وَأَرْسَلَ الطُّوفَانَ وَكَانَتِ السَّفِينَةُ مِنَ
الْعُجَابِ. وَنَجَّى الْخَلِيلَ مِنْ نَارِ شَدِيدَةِ الْإِثْهَابِ. وَكَانَتْ سَلَامَةُ إِسْحَاقَ عِبْرَةً
لِأُولِي الْأَلْبَابِ. وَشَدَّدَ الْإِبْتِلَاءَ عَلَى أَيُّوبَ فَفَارَقَهُ الْأَهْلُ وَالْأَصْحَابَ. وَمَضَّغَهُ
الْبَلَاءُ إِلَى أَنْ أَكَلَ الظُّفْرَ وَالنَّابَ، فَتَنَادَى مُسْتَغِيثًا بِالمَوْلَى فَجَاءَ الْجَوَابُ، ﴿أَرْكُضْ
بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٤٢﴾ [ص: الآية ٤٢].

أَحْمَدُهُ حَمْدٌ مِّنْ أَخْلَصَ وَأَنَابَ، وَأُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ أَكْرَمَ نَبِيِّ نَزَلَ عَلَيْهِ
أَفْضَلُ الْكِتَابِ، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ مُّقَدِّمِ الْأَصْحَابِ، وَعَلَى الْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ
الْحَطَّابِ، وَعَلَى عُثْمَانَ شَهِيدِ الدَّارِ وَقَتِيلِ الْمِحْرَابِ، وَعَلَى عَلِيٍّ الْمَهْيَبِ وَمَا
سَلَّ سَيْفٌ بَعْدُ مِنْ قِرَابٍ، وَعَلَيْهِ عَمَّةُ الْعَبَّاسِ الْمُقَدِّمِ نَسَبُهُ عَلَى الْأَنْسَابِ.

قال الله العظيم: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ
وَعَذَابٍ﴾ ﴿٤١﴾ [ص: الآية ٤١]. أَيُّوبُ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ وَهُوَ أَيُّوبُ بْنُ مُوصٍ بْنِ

رَازِحَ بْنَ الْعِيصِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَبُوهُ مِمَّنْ آمَنَ بِالْخَلِيلِ يَوْمَ أُحْرِقَ، وَأُمُّ أَيُّوبَ بِنْتُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان أيوب في زمان يعقوب مُتَزَوِّجًا بِابْنَةٍ يَعْقُوبَ، وقد جُمِعَ له عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ كَثْرَةِ الْمَالِ وَحُسْنِ الْأَعْمَالِ، فَمَلَأَ مَدْحُهُ بِالْوِفَاقِ الْآفَاقَ، فَأَثَارَتْ تِلْكَ الْأَثَارُ حَسَدًا مِنْ إِبْلِيسَ، فَقَدْ تَقَادَمَ مِنْذُ آدَمَ فَقَالَ: يَا رَبِّ لَوْ سَلَّطَنِي عَلَيْهِ أَلْفَيْتُهُ فِي فِتْنَةِ الْمُفْتُونِينَ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ سَلَّطْنَاكَ عَلَى مَالِهِ وَوَلَدِهِ، فَمَالَ إِلَى جَمِيعِ عَفَارِيئِهِ فَفَرَّقَهُمْ فِي تَمْزِيقِ مَالِهِ وَتَفَرَّدَ إِبْلِيسُ لِبَيْنِهِ، فَجَمَعَ أَرْكَانَ الْبَيْتِ فَهَدَمَهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَتَى فِي صُورَةِ مُعَلِّمٍ يُعَلِّمُهُ فَرَأَى ذَلِكَ لَا يُؤْلِمُهُ، وَأَنْصَتَ الْعَدُوُّ لِيَسْمَعَ عَرْبِدَةَ الشُّكْرِ، فَإِذَا أَيُّوبُ يَتْلُو آيَةَ الشُّكْرِ، فَصَاحَ لِسَانُ حَسَدِهِ سَلَّطَنِي عَلَى جَسَدِهِ، فَسَلَّطَ وَقَدْ سَبَقَهُ الصَّبْرُ فَتَقَطَّعَ الْجِسْمَ وَدَادَ وَمَا تَقَطَّعَ رَسْمُ الْوِدَادِ.

قَالَ وَهَبٌ: كَانَ يَخْرُجُ عَلَيْهِ مِثْلُ تَذِي النَّسَاءِ ثُمَّ يَتَفَقَّأُ، فَأَخْرَجَهُ أَهْلُ قَرِيَّتِهِ وَجَعَلُوا لَهُ عَرِيْشًا عَلَى كِنَاسَةٍ، وَرَفَضَهُ الْخَلْقُ سِوَى زَوْجَتِهِ رُحْمَةً بِنْتِ أَفْرَائِيْمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ. وَكَانَتْ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ بِمَا يُضْلِحُهُ فَلَمْ يَزَلْ مَا نَزَلَ بِهِ حَتَّى بَدَأَ حِجَابُ بَطْنِهِ فَكَانَ يُبْصِرُ عِظَامَهُ وَيُرَى مِعَاؤُهُ. وينشد:

قَالُوا تَوَقَّ رَجَالَ الْحَيِّ إِنْ لَهُمْ عَيْنًا عَلَيْكَ إِذَا نِمْتَ لَمْ تَنِمِ
فَقُلْتُ إِنْ دَمِي أَقْصَى مُرَادِهِمْ وَمَا خَلْتُ نَظْرَةً مِنْهُمْ بِسَفْكِ دَمٍ

فَدَامَ عَلَيْهِ هَذَا الْبَلَاءُ سِنِينَ وَفَدَامَ الصَّمْتُ عَنِ الشُّكْوَى عَلَى فِيهِ يَبِينُ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ اللِّسَانِ لِلذِّكْرِ وَالْقَلْبِ لِلشُّكْرِ. وينشد شعراً:

قَدْ ذَابَ حَتَّى لَا يَرَاهُ حِمَامُهُ فَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ وَلَيْسَ يَرَاهُ

فلما كَعَّ إِبْلِيسُ لِقِي زَوْجَتِهِ فِي صُورَةِ مُتَطَيِّبٍ، فَقَالَ: عِنْدِي دَوَاؤُهُ بِشَرِطِ أَنْ يَقُولَ بِشَفَافَتِيهِ شَفِيتَنِي، وَقَدْ جَاءَتْ وَقَدْ أَنْسَاهَا طَوْلُ الْبَلَاءِ تَدَبَّرَ الْمَعْنَى فَأَخْبَرَتْ مِنْ خَبَرِ عَذْرِ الْعَدُوِّ فَغَضِبَ الْمُؤَدَّبُ عَلَى تَلْمِيذٍ مَا يَقُومُ بِطَوْلِ الصُّحْبَةِ فَحَلَفَ لَنْ شَفِي لِيَجْلِدَهَا مِائَةً جَلْدَةً.

فَبَيَّنَا الْمَرْءَ يُكَابِدُ الْمُرَّ مَرَّ بِهِ صَدِيقَانِ لَهُ فَقَالَا: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْ هَذَا خَيْرًا
مَا بَلَغَ بِهِ هَذَا الْأَمْرَ. فَمَا شَدَّ عَلَى سَمْعِهِ أَمْرًا أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ فَحَرَّ عَلَى
عَتَبَةِ فَلَا تُشْمِتُ وَاسْتَعَاثَ بِلَفْظِ ﴿مَسِيٍّ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٨] فجاء جبريلُ
برسالة ﴿أَرْكُضْ﴾ وليس العجب لو رَكَضَ جبرئيلُ، إِنَّمَا الْعَجَبُ أَنْ يَرْكُضَ
الْعَلِيلُ.

يَا أَيُّوبُ قَدْ تَجَلَّدْتَ فِي هَوَانَا وَصَبَرْتَ عَلَى بَلَانَا فَسَوْفَ نُبَلِّغُ أَمَالَكَ وَنَرُدُّ
عَلَيْكَ أَهْلَكَ وَمَالَكَ، وَنُسَبِّحُ لَكَ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ، وَنُحْضِرُكَ فِي حَضِيرَةِ
الْأَحْبَابِ وَنَكْتُبُ لَكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُعَسِّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٤٣﴾
فَتَنَسَّى بِنَسِيمِ الْعَافِيَةِ مَا أَلَمَ مِنْ أَلَمٍ وَرَدَّتْ يَدُ الْمِنَةِ كُلَّ مَا مَرَّ مِنْهُ وَذَهَبَ، فَكَانَ
تَيَّارُ الرِّضَا زَائِدًا عَلَى وَادِيهِ بَعْدَ أَنْ جَرَى أَدَاءَ صَبْرِهَا فَأَقْبَلَ لِسَانُ الْوَحْيِ جَرَادًا
مِنْ ذَهَبٍ، وَأَقْبَلَتْ زَوْجَتُهُ رَحْمَةً وَعَلَيْهِ يَمِينُ ضَرْبِهَا وَمَا كَانَ يَحْسُنُ فِي مُقَابَلَةِ
صَبْرِهَا، فَأَقْبَلَ لِسَانُ الْوَحْيِ يَتْلُو فَتَوَى الرَّحْمَةَ، وَرَاعَى مَا سَبَقَ مِنْ مُرَاعَاةِ
رَحْمَتِهِ ﴿وَحَذَّ يَدَيْكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ﴾، تَاللَّهِ مَا ضَرَّهُ مَا أَكَلَ مِنْ جِسْمِهِ
الدَّوْدُ لَمَّا اخْتَالَ فِي ثَوْبٍ مَوْدُودٍ، وَأَصْبَحَ مُضْطَجِعًا شَرَابِ الشَّرُورِ مِنْ جَوْدِ
الْجُودِ، فَزَنَّتْ قِنَانُ الْفَرَحِ إِذَا غَنَّتْ أَلْسِنَةُ الْمَدْحِ لَا تَعُودُ وَفَاحَ عَنَبُ الثَّنَاءِ فَزَادَ
نَشْرُهُ عَلَى كُلِّ عَوْدٍ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية ٤٤].
وينشد:

يَا مَنْ رَأَى وَخَشَيْتَنِي فَانْسَنِي	بِالْقُرْبِ مِنْ قُرْبِهِ وَأَنْعَشْنِي
يَا سَكْنِي لَا خَلَوْتُ مِنْ سَكْنِي	دَهْرِي وَيَا عُذَّتِي عَلَى الزَّمْنِي
هَرَبْتُ مِنْ مَسْكْنِي إِلَى سَكْنِي	نَعَمْ وَمِنْ مَوْطِنِي إِلَى وَطْنِي
وَعُدْتُ أَيْضًا وَعَادَ مُتَعَطِّفًا	كَذَاكَ مُذْ كَانَ مِنْهُ عَوْدُنِي

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ كَانَ الْمَوْتُ يُطَالِبُهُ فَكَيْفَ يَلْذُّ قَرَارًا، وَمَنْ كَانَ الدَّهْرُ
يُحَارِبُهُ فَكَيْفَ يُطِيقُ انْتِظَارًا، وَمَنْ كَانَ الْأَمَلُ مَطِيبَتَهُ زَادَ عِثَارًا، وَمَنْ كَانَ رَاجِلًا
إِلَى الْآخِرَةِ كَيْفَ يَتَّخِذُ الدُّنْيَا دَارًا، إِنْ هِيَ إِلَّا غَفْلَةٌ شَامِلَةٌ وَمَنِيَّةٌ عَاجِلَةٌ، جَرَى
بِهَا الْقَلَمُ وَمَضَى عَلَيْهَا الْأَمَمُ، لَقَدْ صَدَقَكُمْ صَرَفُ الزَّمَانِ فَمَا كَذَبَ وَوَعَّظَكُمْ
الدَّهْرُ بِمَنْ ذَهَبَ، وَأَرَاكُمْ مِنْ تَقْلِبِهِ بِكُمْ الْعَجَبَ، فَبَادِرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ وَالسَّبِيلُ

لَكُمْ هَدَفُ الْإِمْكَانِ قَبْلَ ضَيْقِ الْمَكَانِ، وَتَقْلُصُ اللِّسَانِ، وَاضْفِرَارِ الْبَنَانِ،
 واجتماع الإخوانِ، وعويلِ النسوانِ، وحُضورِ الجيرانِ، وتَسْوِيدِ الحِيطَانِ،
 لِتُزُولِ الْحَدَثَانِ، فَمَا ظَنُّكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِيَوْمِ بَضَائِعِهِ الْأَعْمَالِ، وَشُهُودِهِ الْأَوْصَالِ،
 وَسِجْنِهِ النَّارِ، وَحَاكِمِهِ الْجَبَّارِ، جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ شَمَلَتْهُ مِنَ اللَّهِ الْمِنَّةُ،
 وَوَجَبَتْ لَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ الْجَنَّةُ، إِنَّ أَبْلَغَ الْوَعْظِ وَأَجْمَعَهُ وَأَوْضَحَ الْقَوْلِ وَأَنْفَعَهُ،
 كَلَامٌ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ فَأَبْدَعَهُ، ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ
 الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ
 قِطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا
 الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ [إبراهيم: الآيات ٤٨ - ٥٢]. شعر:

دَعُ ذُنُوبِي فَحَقَّ لِي أَنْ أُنُوحَا لَمْ تَدْعُ لِي الذُّنُوبُ قَلْبًا صَحِيحًا
 أَخْلَقْتَ مُهْجَتِي أَكْفَ الْمَعَاصِي وَنَعَانِي الْمَشِيبُ نَعِيًا فَصِيحًا
 كَلَّمَا قُلْتُ قَدْ بَرَأَ جُرْحُ قَلْبِي عَادَ قَلْبِي مِنَ الذُّنُوبِ جَرِيحًا
 إِنَّمَا الْفَوْزُ وَالنَّعِيمُ لِعَبْدٍ جَاءَ فِي الْحَشْرِ آمِنًا مُسْتَرِيحًا

إخواني، بَادِرُوا قَبْلَ الْعَوَاقِبِ، وَاسْتَدْرِكُوا فَمَا كُلُّ طَالِبٍ لَاحِقٌ، وَاشْكُرُوا
 نِعْمَةً مَنْ سَتَرَكُمْ عَلَى الذُّنُوبِ، وَاعْرِفُوا قَدْرَ فَضْلِهِ فَقَدْ أَعْطَاكُمْ كُلَّ مَطْلُوبٍ.

مَا ضَرَّ أَيُّوبَ مَا جَرَى، كَأَنَّهُ سِنَّةٌ كَرَى، ثُمَّ شَاعَتْ مَدَائِحُهُ بَيْنَ الْوَرَى،
 وَإِنَّمَا يَصْبِرُ مَنْ فَهِمَ الْعَوَاقِبَ وَدَرَى، أُولَئِكَ الَّذِينَ رَفَضُوا الدُّنْيَا فَسَلِمُوا، وَطَلَبُوا
 الْآخِرَةَ فَمَا نَدِمُوا، فَيَا بُشْرَاهُمْ إِذَا قَدِمُوا، وَقَدْ رِيحُوا وَغَنِمُوا، وَكُلُّهُمْ بِلِسَانِ
 حَالِهِ وَيُسْتَدُّ:

صَبَرْتُ عَنِ اللَّذَاتِ حِينَ تَوَلَّيْتُ وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي الصَّبْرَ حَتَّى اسْتَمَرَّتْ
 وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أَطْمَعْتَ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ

إخواني، اعْرِفُوا قَدْرَ الْفَضْلِ بِالتَّوْفِيقِ لِلْإِنَابَةِ، ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَتْ
 عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]، فَإِنْ تَحَرَّكَتِ الطَّبَاعُ لِمَا أَلْفَتَهُ فَذَكِّرْهَا خَسَاسَةَ الْمَطْلُوبِ
 وَعِزَّةَ مَا لَقِيتُ، ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: الآية ٦١].

وينشد:

مَنْ يَعِشْ عِزًّا لَا يَرْثُوا لِعَانِيَةٍ فِي رَوْقِ الصَّبْرِ مَا تُغْنِي عَنِ الْكَدْرِ
 يَا عَازِمًا عَلَى سَفَرِ التَّوْبَةِ خُذْ لِلتَّعَرُّبِ أَهْبَةً، لَيْسَ كُلُّ مَنْ خَرَجَ إِلَى الْبَرِيَّةِ
 مُسَافِرًا النُّقْطَةُ قَبْلَ الدَّائِرَةِ ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: الآية ١٨٩]، اَنْدَمَ
 عَلَى مَا مَضَى مِنَ الْمَآتَمِ، وَارْذُدْ عَلَى الْغَارِمِينَ الْمَظَالِمَ، وَشَمِّرْ عَنِ سَاقِ الْجِدِّ
 تَقْوَى عَلَى طَلَبِ التَّقْوَى، فَلَا تُطِغْ أَصْدِقَاءَكَ عَلَى الْمَعَاصِي ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ
 إِلَيَّ﴾ [لقمان: الآية ١٥].

إخواني، الشيطان يُرَاصِدُ في جميع المَرَاصِدِ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا
 حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٧١] لَا تَزْدَرُوا حُلَّ الْفَقْرِ فَإِنَّ عَلَيْهَا أَنْوَارَ الْمَهَابَةِ، يَا تَائِبًا
 إِذَا قَالَ لَكَ رُفَقَاؤُكَ: امشِ مَعَنَا، فَقُلْ: أَقْعَدَنِي الْخَوْفُ، فَإِنْ قَالُوا: مَا الْخَبْرُ
 فَقُلْ: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: الآية ٩٨]. فَإِنْ قَالُوا: كَانَ فُلَانٌ جَبَلًا فِي
 الْمَعَاصِي، فَقُلْ: خَوْفُ الْوَعِيدِ جَعَلَهُ دُكَّا حَضَرْتُ مَجْلِسَ الذِّكْرِ فَذَكَّرَنِي عَهْدَ
 ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]؟ وَأَخْبَرَنِي قُرْبَ الْحِسَابِ عَلَى بِضَاعَةِ الْعُمُرِ
 فَتَنَظَرْتُ فِي دَسْتُورِي فَإِذَا بَنِي قَدْ مَرَّقَتْ رَأْسَ الْمَالِ بَكْفٍ اللَّعِبِ، فَبَكَيْتُ أَسْفًا
 وَصِحْتُ لَهْفًا. وينشد:

أَسْبَابُ هَوَاكَ أَوْهَنْتُ أَسْبَابِي مِنْ بَعْدِ جَفَاكَ فَالضَّنَا أَوْلَى بِي
 ضَاقَتْ حِيلِي وَأَنْتَ تَدْرِي مَا بِي اَرْحَمَ فَالْعَبْدُ وَاِقِفْ بِالْبَابِ

يَا عَاصِي إْحِمِ حَدِيدَةَ الْغَرَمِ فِي نَارِ التَّخْوِيفِ، فَاكُوْ بِهَا حُبَّ الدُّنْيَا فِي
 بَاطِنِ الطَّبْعِ تَجِدْ طَعْمَ الْعَافِيَةِ، أُمِّدْ يَدَ الْمُعَاهَدَةِ عَلَى الْوَفَاءِ فَمَزَّقْ بِهَا ثَوْبَ
 الْعَذْرِ اجْلِسْ بَصَرِ الْفِكْرِ فِيمَا جَنَيْتَ أَيَّامَ الْجَفَا تَسِيلُ الدُّمُوعُ سَيْلًا. شعر:

بَكَيْتُ عَلَى شَبَابٍ قَدْ تَوَلَّى فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ لَنَا يَعُودُ
 فَلَوْ أَنَّ الشَّبَابَ يُبَاعُ بَيْعًا لِأَعْطَيْتُ الْمُبَايَعِ مَا يُرِيدُ
 وَلَكِنَّ الشَّبَابَ إِذَا تَوَلَّى عَلَى شَرَفٍ فَمَظْلَعُهُ بَعِيدُ

أَمَّا بَعْدُ، يَا مَنْ يُبَارِزُ مَوْلَاهُ بِالْعَظَائِمِ، يَا حَلِيفَ الْآثَامِ وَالْجَرَائِمِ، حَتَّى
 مَتَى لَا تَذْكُرُ الرَّحِيلَ وَلَا تَعْلَمُ عَلَى مَا أَنْتَ قَادِمٌ، أَيْقُظَانُ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ

نَائِمٌ، كَأَنِّي بِكَ قَدْ جَاءَكَ الْمَرَضُ، وَفَاتَكَ مِنْ لَدَاتِكَ الْغَرَضُ، وَضَيَّقَ عَلَيْكَ الطُّوْلَ وَالْعَرَضَ مَا عَرَضَ.

فيا عَجَبًا لِمُطَرَفِكَ مَعَ هَذَا كَيْفَ اغْتَمَضَ، وَتَطَلَّبُ الْفَانِي وَتَتْرُكُ الدَّائِمَ، أَيْقِظَانُ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ؟ ثُمَّ يَأْتِيكَ مَلَكُ الْمَوْتِ بِجُنُودِهِ لِلْفِرَاقِ قَبْلَ الْرُوحِ التَّرَاقِ، وَانْهَمَكَ الدُّمُوعُ مِنَ الْأَمَاقِ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ طُبُّ الطَّيِّبِ وَلَا رَفَى رَاقٍ، فَيَا مَنْ سَيَبْلُغُ هَذَا وَيُلَاقِ، أَنْتَطَلِبُ الْفَانِي وَتَتْرُكُ الدَّائِمَ؟ أَيْقِظَانُ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ؟ فَيَا لَهَا مِنْ سَاعَةٍ حَسْرَةٍ، لَا يَنْفَعُ فِيهَا أَسْفٌ وَلَا عِبْرَةٌ، وَتَرَى فِي نَفْسِكَ كُلَّ مَا تَكْرَهُ، وَتَأْهَبُ فَمَا تَدْرِي أَعْشِيًا تَرْحَلُ أَوْ بُكْرَةً، وَتَطَلِبُ الْفَانِي وَتَتْرُكُ الدَّائِمَ؟ أَيْقِظَانُ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ؟ وَبَعْدَ مَا كَانَ إِلَّا سَاعَةً، وَتُشَاوِرُ فِي أَمْرِكَ الْجَمَاعَةَ، وَأَنْزَلُوكَ فِي جَوْفِ قَاعَةٍ، وَقَسَمُوا الْمَالَ وَبَضَعُوا الْبِضَاعَةَ، وَقَالُوا لِرُوصِيِّكَ: لَا سَمْعَ لَكَ وَلَا طَاعَةَ، وَتَطَلِبُ الْفَانِي وَتَتْرُكُ الدَّائِمَ، أَيْقِظَانُ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ؟ وينشد:

يَا قَلْبُ مَا لَكَ لَا تَرِقُ لِمُهْجَتِي خَالَفْتَ أَمْرِي فِي الْهَوَى وَعَصَيْتَنِي
لو كنت لي قلبًا ودُمت على الوفا ما كنت على العُهودِ غَدَرْتَنِي
مَا أَنْتَ لِي قَلْبٌ وَلَا لَكَ مُهْجَةٌ لَوْ كُنْتَ لَكَ جَوَانِحِي لَرَحِمْتَنِي

يَا قَلِيلَ الصَّبْرِ إِنَّمَا هِيَ مَرَاجِلُ، فَصَابِرٌ لُجَّةَ الْبَلَاءِ فَالْمَدْحُ سَاحِلُ. قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، اللَّهُ دَرُّ أَقْوَامٍ امْتَثَلُوا مَا أَمُرُوا، وَزَجَرُوا عَنِ الرَّلَلِ فَازْدَجَرُوا، فَإِذَا لَاحَتِ الدُّنْيَا غَابُوا، وَإِذَا حَضَرَتِ الْآخِرَى حَضَرُوا، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي الْقِيَامَةِ إِذَا حُشِرُوا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَسَهَرُوا، وَطَالَعُوا فِي الصُّحُفِ الذُّنُوبَ فَانْكَسَرُوا، وَطَرَفُوا بَابَ الْمَحْجُوبِ فَاعْتَدَرُوا، وَبَالَغُوا فِي الْمَطْلُوبِ ثُمَّ حَذَرُوا، فَانْظُرْ بِمَاذَا وَعِدُوا فِي الذِّكْرِ وَذَكَّرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

اتَّجَرُوا وَاللَّهُ وَمَا خَسَرُوا وَعَاهَدُوا فِي الزُّهْدِ فَمَا غَدَرُوا، وَاحْتَالُوا عَلَى نَفْسِهِمْ فَمَلَكُوا وَأَسَرُوا، وَتَفَقَّدُوا نِعَمَ الْمَوْلَى فَاعْتَرَفُوا وَشَكَرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [المؤمنون: الآية ١١١].

يُؤْتُهُمْ فِي خُلُوهَا كَالصَّوَامِعِ، وَعُيُونُهُمْ بِالتَّقَى تَنْظُرُ مِنْ طَرَفٍ خَاشِعٍ،
وَالْأَحْزَانُ قَدْ سَحَتْ سَحَبَ الْمَدَامِيعِ، تُسْقَى بَذَرِ الْفِكْرِ الَّذِي بَذَرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ
الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

وَاسْتَوْحَشُوا مِنْ كُلِّ جَلِيسٍ، شُغْلًا بِالْمَعْنَى النَّفِيسِ، وَزَمُّوا مَطَايَا الْجِدِّ
فَسَارَتِ الْعَيْسُ، وَبَادَرُوا الْفُرْصَةَ فَأَتُوا إِبْلِيسَ، لَا وَقَفُوا وَلَا فَتَرُوا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ
الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

قُلُوبٌ فِي الْخِدْمَةِ حَضَرَتْ، أَسْرَارٌ بِالصِّدْقِ عُمِرَتْ، كَمْ شَهْوَةٌ فِي
صُدُورِهِمْ انْكَسَرَتْ، أَخْبَارُهُمْ تُحْيِي الْقُلُوبَ إِذَا نُشِرَتْ، وَيَقَالُ عَنْ قَوْمٍ إِذَا نَشِرُوا
﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾. جَدُّوا فَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَلْعَبُ، وَرَفَضُوا الدُّنْيَا
فَتَرَكُوهَا تَحْرُبُ، وَأَذَابُوا أَبْدَانَهُمْ بِقِلَّةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، فَعَدَا يُقَالُ لَهُمْ: كُلْ يَا
مَنْ لَمْ يَأْكُلْ وَاشْرَبْ يَا مَنْ لَمْ تَشْرَبْ. أَذْكَارُهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ قَبِرُوا
﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَأَنَّ مَنْ وَافَقَ مُرَادَهَا فَارَقَ دِينَهُ، فَحَذَرُوا
مِنْ غُرُورٍ تُجْدِي عَيْنُهُ، فَرَكِبُوا مِنَ التَّقَى فِي سَفِينَةٍ شَحَنُوهَا بِالزَّادِ وَعَبَرُوا ﴿إِنِّي
جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

طُوبَى لَهُمْ وَالْأَمْلاكَ تَتَلَفَّاهُمْ، لَاحَتْ أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ فَوْقَاهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ
ظَمًا فَسَقَاهُمْ، فَكَشَفَ الْحِجَابَ لِعُيُونِهِمْ فَأَرَاهُمْ، هَذَا مَا أَقْصَى أَمَالِهِمْ وَقَدْ
ظَفِرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

بَلَّغَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ، وَأَسْمَعَنَا زَجَرَ النَّصَائِحِ فَقَدْ أُبْلَغَ، وَسَتَرْنَا مِنْ
الْعِقَابِ، فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا أَسْبَغَ وَلَوْلا عَوْنُهُ مَا قَدَرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾
[المؤمنون: الآية ١١١].

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا إِيْمَانًا يَصْحَبُهُ هُدَاكُ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ،
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا دَائِمًا كَثِيرًا بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ
بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْمَجْلِسُ الرَّابِعُ عَشَرَ فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

الحمد لله القديم فلا يُقال متى كان، العظيم فلا يحويه المكان، أنشأ آدم وأخرج ذريته بنعمان، ورفع إدريس إلى أعلى الجنان، ونجى نوحاً وأهلك كنعان، وسلم الخليل بلطفه يوم النيران، ويوسف من الفاحشة يوم البرهان، وبعث شعيباً إلى مدين ينهى عن البخس والعدوان، ويناديهم في ناديهم، ولكن صمت الأذان ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَكَّةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

أحمدُه حمداً يملأ الميزان، وأصلي على رسوله محمد الذي فاق دينه كل الأديان، وعلى صاحبه أبي بكرٍ أول من جمع القرآن، وعلى عمر الفاروق الذي كان يفر من ظل الشيطان، وعلى زوج ابنتي عثمان بن عفان، وعلى علي بن أبي طالب، وعلى سيّد الشجعان، وعلى عمه المستسقى بشيئته فأقبل السحّ التّهتان.

قال الله العظيم: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٥]، قال قتادة: مدين ما كان عليه قوم شعيب. وقال مقاتل: مدين هو ابن إبراهيم الخليل من صلبه.

وقال أبو سليمان الدمشقي: هو مدين بن مديان بن إبراهيم، والمعنى أرسلنا إلى ولد مدين. فعلى هذا هو اسم قبيلة، وشعيب هو ابن عيفان بن نوب بن مدين بن إبراهيم، أرسل إلى ولد مدين وهو ابن عشرين سنة، فكانوا

مَعَ كُفْرِهِمْ يَبْخُسُونَ الْمَكَائِلَ وَالْمَوَازِينَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ لِحُسْنِ مُرَاجَعَتِهِ قَوْمَهُ.

وقصته:

لَمَّا رَأَى شُعَيْبٌ شُعْبَ شِعَابِ قَوْمِهِ قَدْ امْتَلَأَتْ بِالْبَخْسِ وَالْجَوْرِ صَعِدَ مِنْبَرٌ التَّذْكِيرِ بِالْإِنْعَامِ، وَلَكِنْ بَعَيْنِ الْأَنْعَامِ فَخَوَّفَهُمْ مِنْ فَحْمِ مَحَلِّ الْفَحْطِ فِي إِشَارَةِ ﴿إِنِّي أَرْسَلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هُود: الآية ٨٤]، فَتَلَقَّوْهُ بِاسْتِهْزَاءٍ ﴿أَصَلُّوكُنَا أَنْ نَتَّزِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هُود: الآية ٨٧]، وَمَدُّوا بَاعَ النُّخْوَةِ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨]، وَتَعَلَّقُوا بِحُجَّةٍ ﴿مَا نَفَقَهُ﴾ [هُود: الآية ٩١]، وَانْتَهَوْا إِلَى عُتُوٍّ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا﴾ [الشعراء: الآية ١٨٧]، فَكَانَ آخِرَ أَمْرِهِ أَنْ قَالَ: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هُود: الآية ٩٣]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ارْتَقِبُوا الْعَذَابَ، فَإِنِّي مُرْتَقِبُ الثَّوَابِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: عَذَّبَ أَهْلُ مَدْيَنَ بِثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، فَلَمَّا اسْتَمَرَّ ظَلَامُ ظُلْمِهِمْ اسْتَحْلَكَ لَيْلُ إِدْبَارِهِمْ، وَاسْتَلْطَخَ نَهَارُ هَلَاكِهِمْ فَحَقَّقَ إِلَيْهِمْ مَا حَقَّ عَلَيْهِمْ مِنْ مُحَقَّقِهِمْ، فَأُظْلِلَ عَلَيْهِمْ ظُلْلُ ظَلَالِهِمْ عَذَابَ الظُّلَّةِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيحِينَ﴾ ٩١ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا [الأعراف: الآيتان ٩١، ٩٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: الآية ١٨٩]، فَارْتَجَّتْ أَرْجَاءُ بَيُوتِهِمْ بِرَجِّ الرَّجْفَةِ وَشَدَّ عَلَيْهِمْ شِدَّةُ الْحَرِّ، فَهَرَبُوا إِلَى الْبَرِّ لَا إِلَى الْبَرِّ، فَإِذَا سَحَابَةٌ تَسْحَبُ بُرْدَ الْبَرْدِ فَتَنَادُوا هَلُمُّوا إِلَى رَاحَةِ الرُّوحِ.

فَلَمَّا تَمَّ اجْتِمَاعُهُمْ فِي قَصْرِ الْحَضَرِ، فَظَنُّوا أَنَّهَا مِنْ حَرٍّ وَقَتِهِمْ نَزَلَتْ نَارٌ مِنْهَا فَأَخْرَقَتْهُمْ، فَسَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ فِي أَسْرِ إِدْبَارِهِمْ، وَسَارَ بَعْدَ بُعْدِهِمْ فِي إِدْبَارِهِمْ نَذِيرُ التَّحْذِيرِ مِنْ تَذْيِيرِهِمْ، وَدَعَا بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ عِقَابِهِمْ ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَلَيْنَ﴾ [هُود: الآية ٩٥].

فَلْيَحْذَرِ الْعُصَاةُ مِنْ مِثْلِ أَفْعَالِهِمْ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ أَعْمَى أَبْصَارِهِمُ الْبَصِيرَةَ شَبَهَ أَعْمَالِهِمْ، وَلْيَخَفِ الْمُطْغَفُّونَ مِنْ أَخَذِ التَّطْفِيفِ فِي مِكْيَالِهِمْ، وَلْيَسْمَعُوا نَذِيرَ الْعِبْرَةِ فَقَدْ أَوْحَى لَهُمْ شَرْحَ أَحْوَالِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ شُعَيْبًا زَوَّجَ ابْنَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ فَمَاتَ بِهَا، وَكَانَ عُمُرُهُ مِائَةَ سَنَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَدُفِنَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَيْثَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ. وينشد:

يَا مُقْلَتِي سُحِّي هُدَيْتِ دُمُوعًا شَوْقًا إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ سَرِيعًا
حُبًّا إِلَى خَيْرِ الْأَنَامِ مُحَمَّدٍ فَمَنْ التَّدَكُّرِ لَا أُطِيقُ هُجُوعًا
يَا رَايَحِينَ إِلَى الْعَقِيقِ أَوِ الصَّفَا أَكْرِمِ بِهَاتِيكَ الدِّيَارِ رُبُوعًا
شَوْقِي يَزِيدُ إِلَى النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ فَمَتَى أَرَى تِلْكَ الْقُبُورَ جَمِيعًا

إخواني، وَكَثَافَةُ الْعَقْلَةِ عَلَى قُلُوبِ الْغَافِلِينَ هِمَمُهُمْ مَقْصُورَةٌ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: الآية ٤٤]، سُبْحَانَ مَنْ أَعْمَى بَصَائِرَهُمْ مَعَ نَفُوذِ أَبْصَارِهِمْ، وَوَيْلٌ لِلْهَالِكِينَ فِي مَعَاصِيهِمْ إِذَا أُخِذُوا بِنَوَاصِيهِمْ، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: الآية ٤٨] وَاعْجَبًا لَكُمْ الْحَدِيثُ لَمَّا تَسْمَعُونَ كُلَّ الْأَسْمَاعِ، لَا يَتَفَاوَتْ فِي وُضُولِ الْكَلَامِ إِلَيْهَا، إِنَّمَا يَتَفَاوَتْ فِي فَهْمِ الْمُقْصُودِ الْقَطَرِ عَامٌ الْوَقْعِ غَيْرَ أَنْ حُكْمَ الشَّيْخِ غَيْرُ حُكْمِ الْجُرْزِ ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: الآية ٤]، الْحَذَرُ الْحَذَرُ قَبْلَ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَصْرَتِي﴾ [الزمر: الآية ٥٦]. وينشد:

لَمَّا رَأَيْتُ الْمَشِيبَ قَدْ نَزَلَا وَبَانَ مِنِّي الشَّبَابُ وَارْتَحَلَا
أَيَقِنْتُ بِالْمَوْتِ وَاعْتَبَرْتُ بِهِ وَكُلُّ حَيٍّ يُوَافِقُ الْأَجَلَا
لَوْ خَلَّدَ اللَّهُ فَأَعْلَمُوا أَحَدًا لَخَلَّدَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَا

رُويَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ يَبِيعُ طَعَامًا، فَسَأَلَهُ: «كَيْفَ تَبِيعُ؟» فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ أَدْخِلْ يَدَكَ فِيهِ، فَأَدْخَلَهَا فِيهِ فَإِذَا هُوَ مَبْلُوطٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ عَشَّ».

وقد رُوِيَنا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ أَنَّهُ رُئِيَ يَعْزُضُ حِمَارًا لَهُ عَلَى الْبَيْعِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَتَرْضَاهُ لِي؟ فَقَالَ: لَوْ رَضِيتُهُ لَمْ أَبْعُهُ.

وفي أفرادِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا ضُبِعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». وفي أفرادِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مِمَّا أَخَذَ

الْمَالِ أَمِنْ حَلَالٍ أَوْ مِنْ حَرَامٍ». وينشد:

إِذَا نُودِيَتْ قُمْ لِلْعَرَضِ فَافْرًا فَضَائِحَ وَالْفَضَائِحُ فِي الْكِتَابِ
وَأَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ وَقَفُوا حَيَارَى وَرَبُّ الْعَرْشِ يَغْضَبُ بِالْعَذَابِ
فَكَمْ مِنْ شَابٍّ يُنَادِي وَاشْبَابِي وَكَمْ شَيْخٍ يَنْوَحُ عَلَى الْمُصَابِ
وَكَمْ مَحْجُوبَةٍ مِنْ بَعْدِ سَثْرِ ثَقِيلٍ غُلَّهَا بَعْدَ الْخِطَابِ

أَيُّهَا الظَّالِمُ تَذَكَّرْ عِنْدَ جُورِكَ عَدَلَ حَاكِمٍ، تَفَكَّرْ حِينَ تَصْرُفُكَ فِي صَرْفِكَ
عَجَبًا لَكَ تَدْعِي الظَّرْفَ وَتَأْخُذُ الْمَظْرُوفَ وَالظَّرْفَ، كَلَّا فَفِي الظَّرَافَةِ رَأْفَةٌ
وَسَتَعْلَمُ أَيُّهَا الْغَرِيمُ قَدْرَ غَرَامِكَ. شعر:

إِذْ يَتَلَقَّى كُلُّ ذِي دَيْنٍ وَمَاطِلُهُ مِنَّا وَيَجْتَمِعُ الْمَشْكُوكُ وَالشَّاكِي

يَا أَرْيَابَ الدُّلِّ لَا تُعْرِيدُوا فِي سُكْرِ الْقُدْرَةِ فَصَاحِبُ الشَّرِطَةِ بِالْمِرْصَادِ، فَلَوْ
هَبَ سَمُومُ الْجَزَاءِ مِنْ مَهَبٍ ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٦]
فَلَعَثَ سُكَارَى ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: الآية ١٧٨]، فَإِذَا طُوفَانُ
التَّلَفِ يُنَادِي فِيهِمْ ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: الآية ٤٣]. وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَظْلُومُ
تَذَكَّرْ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ، فَإِنَّكَ لَا تَلْقَى الْكَدِرَ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْجِنَايَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: الآية ١١].

كَانَ لَبَانٌ يُخْلَطُ اللَّبَنَ بِالْمَاءِ فَجَاءَ السَّيْلُ فَذَهَبَ بِالْغَنَمِ، فَجَعَلَ يَبْكِي
وَيَقُولُ: اجْتَمَعَتْ تِلْكَ الْقَطْرَاتُ فَصَارَتْ سَيْلًا، وَلِسَانُ الْجَزَاءِ يُنَادِيهِ يَدَاكَ
أَوْكِتَا وَقُوكَ نُفُحَ، أَذْكَرُ غَفْلَتِكَ عَنِ الْأَمْنِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَقَتَ الْكَسْبِ، وَلَا
تَنْسَى اطِّرَاحَ التَّقْوَى عِنْدَ مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ، فَإِذَا انْقَضَ عَاصِفٌ فَسَمِعْتَ صَوْتَ
سَوْطِهِ يَضْرِبُ عَقْدَ الْكَسْبِ جَزَاءً لِحِجَايَةِ الْعُقُودِ فَلَا تَسْتَظِرُّ ذَلِكَ، فَأَنْتَ
الْجَانِي أَوَّلًا وَالْبَادِي أَظْلَمُ، يَا مَنْ عُمَرُهُ يَذُوبُ وَلَا يَتُوبُ، يَا مَشْغُولًا
بِأَمَلِهِ عَنِ ذِكْرِ أَجَلِهِ إِنَّمَا يَتِيهِ الْمُسَافِرُ فِي سَفَرِهِ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ يَقُومُ
عَلَى الْجَادَّةِ.

وَاعْجَبًا مِنْ تِيهِ خَمْسِينَ سَنَةً، يَا وَاقِفًا مَعَ الصُّورِ خَالِطَ عَالِمِ
الْمَعْنَى، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ تَغْرِيدَ الْحَمَامِ نِيَاحَةً، أَنْتَ تَظُنُّ الْبُلْبُلَ يُغْنِي إِنَّمَا

يَبْكِي عَلَى أَحْبَابِهِ . وينشد :

كَيْفَ لَا أَبْكِي دُمُوعًا وَدَمًا تَبْصِرُ الْحَقَّ وَنَزْدَادُ عَمَّا
تَسْمَعُ الْوَعْظَ وَتَأْبَى عِظَةً ثُمَّ أَرْدَادُ لِحَيْنِي صَمَمًا
كَيْفَ أَرْجُو نُقْلَتِي مِنْ غَفْلَتِي وَبِهَا صَارَ وَجُودِي عَدَمًا
لَيْسَ لِي حُكْمٌ وَلَا لِي قُدْرَةٌ إِذْ بِحُكْمِي لَمْ أَبْدَلْ قَدَمًا
لَا أَذْفَعُ عَنِّي ضَرَرًا لَا وَلَا أَصْرِفُ عَنِّي سَقَمًا
لَا وَلَا أَنْفَعُ نَفْسِي كَيْفَ لِي لَا وَلَا أَصْرِفُ عَنِّي أَلَمًا

يَا مُسْتَفْتِحًا بَابَ الْمَعَاشِ بِغَيْرِ مِفْتَاحِ التَّقْوَى، كَيْفَ تُوسِّعُ طَرِيقَ الْخَطَايَا
وَتَشْكُو ضَيْقَ الرِّزْقِ؟ لَوْ اتَّقَيْتَ مَا عَسَرَ عَلَيْكَ مَطْلُوبٌ لَا تَزَالُ بِحَارِ النِّعَمِ عَلَى
الْخَلْقِ ﴿حَتَّى يُعْرِضُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

يَا هَذَا الَّذِي أَعْجَبَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، هُوَ الَّذِي أَتَعَبَكَ وَأَفْنَاكَ، فَكَيْفَ بِكَ إِذْ
نَادَاكَ مَوْلَاكَ، يَا عَبْدِي مِنْكَ الْخَطَأُ وَمِنِّي الْعَطَاءُ؟ مِنْكَ الْجَفَاءُ وَمِنِّي الْوَفَاءُ،
مِنْكَ التَّوْبَةُ وَمِنِّي الْقَبُولُ.

عَبْدِي كَمْ تَعْصِيَنِي وَكَمْ أَسْتُرُكَ؟ وَتَتَمَادَى فِي الذُّنُوبِ وَأُمْهَلُكَ . أَمَا تَخْشَى
مِنْ عِقَابِي؟ أَمَا تَسْتَحْيِي مِنْ عِتَابِي؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُ لِأَصْبَنَّ عَلَيْكَ سَخَطِي،
وَلَا أُخْرِقَنَّ بِنَارِ غَضَبِي، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ غَسَلَ أَثْوَابَ شَيْبَتِهِ مِنْ أَدْنَسِ دُنُوبِهِ وَعَدَلَ
بِبَيَاضِ اللَّمَّةِ مِنْ سَوَادِ التُّهْمَةِ، مَا أَقْبَحَ بِذِي الشَّيْبَةِ الظَّاهِرَةِ أَنْ يَمِيلَ إِلَى الدُّنْيَا
بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ، تَيَقَّظْ يَا مُسْكِينُ ذَهَبَ عُمْرِكَ وَأَنْتَ فِي غَفْلَتِكَ، فَأَيْنَ الدَّلِيلُ
عَلَى سَلَامَتِكَ . شعر :

عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ لَا تَطْلُبْ مُكَائِرَةً فَالْقَصْدُ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْتَ طَالِبُهُ
فَاقْنَعْ بِحَالِكَ لَا تَحْسُدْ أَخَا نَسَبٍ فَعَنْ قَلِيلٍ يَرُدُّ الْمَالَ وَاهِبُهُ
فَالْمَرْءُ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا وَلَا يُفَكِّرُ مَا كَانَتْ عَوَاقِبُهُ
حَتَّى إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ وَفَارَقَهَا يَبِينُ الْغَبْنُ فَاشْتَدَّتْ مَصَائِبُهُ
فَصَارَ يَهْوِي بِأَنْ لَوْ كَانَ ذَا عَدَمٍ وَلَمْ تَكُنْ عَظُمَتْ فِيهَا مَكَاسِبُهُ

يَا مَشْغُولًا قَلْبُهُ بِلُبْنَى وَسُعْدَى، يَا مُسْتَأْنَسًا بِالرُّقَادِ، وَهَذِهِ الرِّكَائِبُ تُحْدَى،
يَا عَظِيمَ الْمَعَاصِي، يَا عَظِيمًا جِدًّا، يَا ظَالِمًا طَالَمًا عَنَّا وَنَعْدَى، كَمْ جَاوَزْتَ حَدًّا
تَأْتِي دَنْبًا عَمْدًا، يَا أَسِيرَ الْهَوَى قَدْ أَصْبَحَ لَهُ عَبْدًا، يَا نَاطِمًا خَرَزَاتِ الْأَمَلِ فِي
سِلْكِ الْمَنَى عِقْدًا، يَا مُعْرِضًا عَنَّا قَدْ حَلَّ عَقْدًا، كَمْ عَاهَدَ مَرَّةً وَقَدْ نَقَضَ عَهْدًا؟
مَنْ لَكَ إِذَا سَقَيْتَ كَأْسًا لَا تَجِدُ مِنْ شُرْبِهَا بُدًّا؟ مَزَجْتَ أَوْصَابًا وَصَبَابًا صَارَ
الصَّبَابُ عِنْدَنَا شَهْدًا، مَنْ لَكَ إِذَا لَحِقْتَ أَبَا وَأُمًّا وَعَمًّا وَجَدًّا، وَتَوَسَّدْتَ بَعْدَ
اللَّيْنِ حَجْرًا صَلْبًا صَلْدًا، وَسَافَرْتَ سَفَرًا يَا لَهُ مِنْ سَفَرٍ بُعْدًا، وَاسْتَوْحَشَكَ عَمَلُكَ
هَزَلًا كَانَ أَوْ جِدًّا، وَلَقِيتَ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا. فَهَلْ لَقِيتَ أَسَدًا؟ فَبَادِرْ قَبْلَ الْمَوْتِ فَمَا
تَسْتَطِيعُ لَهُ رَدًّا. وينشد:

نَهَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ وَالتَّصَابِي نُحُولُ الْجِسْمِ وَالرَّأْسِ الْخَضِيبُ
إِذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَأَبَاكَ بَعْضًا فَبَعْضُ الشَّيْءِ مِنْ بَعْضٍ قَرِيبُ

إخواني، ما هذه الْعَفْلَةُ عَنِ الْإِتْعَاطِ؟ وَمَا هَذِهِ الْقَسْوَةُ وَالْإِغْرَاضُ؟ وَمَا
هَذِهِ الرُّقْدَةُ وَأَنْتُمْ أَيْقَاطُ؟ وَاللَّهِ مَا قَسَى قَلْبُكَ حَتَّى عَظُمَ ذَنْبُكَ، وَحَيَائِي مَا
جَمَدَتْ عَيْنُكَ حَتَّى تَحَكَّمَ حَيْنُكَ، أَوَاهُ طَرْدُوكَ فَمَا تَأَمَّلْتَ مِنْ طَرْدِهِمْ، وَأَبْعَدُوكَ
فَمَا بَكَيْتَ مِنْ بُعْدِهِمْ، لَا جَرَمَ غَلَبَتْ عَلَيْكَ الْعَفْلَةُ، وَمَلَكَتْ قَلْبَكَ الْقَسْوَةُ،
وَأَمْرَاضُ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ، أَقْفَالٌ عَلَى الْمَسَامِيعِ وَالْقُلُوبِ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَبْلُغَ
مِنْ سَمْعِ الْوَعِظِ مُرَادَكَ، فَظَهَرِ بِالتَّوْبَةِ قَلْبَكَ وَفُؤَادَكَ، وَقِفْ مُتَذَلِّلًا بِالْبَابِ، وَأَدِّبْ
نَفْسَكَ بِحُسْنِ الْآدَابِ، فَسَوْءُ الْآدَابِ يَمْنَعُ مِنْ عُلوِّ الرُّتَبِ. شعر:

تَزَوَّجْ دُنْيَاكَ الْغَنِيِّ بِجَهْلِهِ وَقَدْ نَشَرْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِضَ الْمَهْرُ
تَطَهَّرْ بِبُعْدٍ مِنْ أَذَاهَا وَكَيْدِهَا فَتِلْكَ بَغْيٌ لَا يَصِحُّ لَهَا طَهْرُ
وَنَحْنُ كَرَكِبِ الْمَوْجِ مَا بَيْنَ بَعْضِهِمْ وَبَيْنَ الرَّدَى إِلَّا الدَّرَاعُ أَوِ الْقَبْرِ

السَّجْع:

يَا كَثِيرَ الْخِلَافِ، يَا عَظِيمَ الشَّقَاقِ، يَا سَيِّئَ الْآدَابِ، يَا قَبِيحَ الْأَخْلَاقِ، يَا
قَلِيلَ الصَّوَابِ، يَا عَدِيمَ الْوِفَاقِ، يَا مَنْ سَبَّيْكِي كَثِيرًا إِذَا انْتَبَهَ وَأَفَاقُ، ﴿وَاللَّفَتِ
الَسَّاقُ بِالَسَّاقِ﴾ ﴿٢٩﴾ [الْقِيَامَةُ: الْآيَةُ ٢٩].

أَيْنَ مَنْ أَنَسَ بِالْدُّنْيَا وَنَسِيَ الزَّوَالَ؟ أَيْنَ مَنْ عَمَّرَ الْقُصُورَ وَجَمَعَ الْمَالَ؟
تَقَلَّبْتَ بِالْقَوْمِ أَحْوَالُ الْأَهْوَالِ، كَمْ أَرَاكَ مَوْلَاكَ عِبْرَةً وَقَدْ قَالَ: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَتِنَا
فِي الْأَفَاقِ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٥٣].

أَيْنَ مَنْ صَدَّقَكَ بِصَدِيقِكَ الْمُوَانِسِ؟ أَيْنَ رَفِيقُكَ فِي الْأَفَاقِ الْمَجَالِسِ؟ أَيْنَ
مَنْ أَشْرَقَتْ بَنُورِهِ الْمَجَالِسُ؟ اِمْتَدَّتْ إِلَى الْكُلِّ كَفْتُ الْمَجَالِسِ، وَنَزَلُوا تَحْتَ
الْأَطْبَاقِ وَكَأَنَّكَ قَدْ رَحَلْتَ كَمَا رَحَلُوا، وَنَزَلْتَ وَشَيْكَا حِينَ نَزَلُوا، وَحُمِلَتْ إِلَى
الْقُبُورِ كَمَا حُمِلُوا، ﴿إِلَى رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [الْقِيَامَةُ: الآية ٣٠].

مَنْ لَكَ إِذَا أَلَمَ بِكَ الْأَلَمُ؟ وَسَكَنَ الصَّوْتُ وَتَمَكَّنَ النَّدَمُ، وَوَقَعَ
الْفَوْتُ وَأَقْبَلَ لِأَخْذِ الرُّوحِ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَجَاءَتْ جُنُودُهُ ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [٢٧]
[الْقِيَامَةُ: الآية ٢٧]، وَنَزَلْتَ مَنْزِلًا لَيْسَ بِمَسْكُونٍ، وَتَعَوَّضْتَ بَعْدَ الْحَرَكَةِ
وَالسُّكُونِ، فَوَا أَسْفَا كَيْفَ تَكُونُ، وَأَهْوَالُ الْقَبْرِ لَا تُطَاقُ، وَفُرَّقَ مَالُكَ
وَسُكِّنَ الدَّارُ، وَدَارَ الْبَلَاءُ فَمَا دَارَ إِذْ دَارَ، وَشَغَلَكَ الْوِزْرُ عَمَّنْ هَجَرَ أَوْ
زَارَ، وَلَمْ يَنْفَعَكَ نَدَمُ الرَّفَاقِ.

أَمَّا أَكْثَرُ عُمْرِكَ قَدْ مَضَى؟ أَمَّا مُعْظَمُ زَمَانِكَ قَدْ انْقَضَى؟ أَفِي أَفْعَالِكَ مَا
يَصْلُحُ لِلرِّضَا؟ إِذَا التَّقِينَا يَوْمَ التَّلَاقِ، يَا سَاعِيًا فِي هَوَاهُ تَصَوَّرَ دَمْسَكَ، يَا
مُوسَّعًا إِلَى خَطِيئِهِ خَطَاهُ، تَذَكَّرْ حَبْسَكَ، يَا مَأْسُورًا فِي سِجْنِ الشَّهَوَاتِ، خَلَّصْ
نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تَعِزَّ السَّلَامَةُ وَيَعْتَاقَ الْإِغْتَاقُ، وَيُنْصَبَ الصِّرَاطُ وَيُوضَعَ الْمِيزَانُ،
وَيُنْشَرَ الْكِتَابُ يَحْوِي مَا قَدْ كَانَ، وَيَشْهَدَ الْجِلْدُ وَالْمَلَكُ وَالْمَكَانُ، وَالنَّارُ
وَالْحَبْسُ وَالْحَاكِمُ الْخَلَاقُ، فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الْمَوْلُودُ، وَتَخْرُسُ الْأَلْسِنَةُ وَتَنْطِقُ
الْجُلُودُ، وَتُظْهَرُ الْوُجُوهُ مِنْ بَيَضٍ وَسُودٍ، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى
السُّجُودِ﴾ [الْقَلَمُ: الآية ٤٢].

فَبَادِرْ قَبْلَ أَنْ لَا يُمَكِّنَ، وَحَازِرْ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ الْمُمَكِّنُ، وَأَحْسِنْ قَبْلَ أَنْ لَا
تُحَسِّنَ، وَالْيَوْمَ الرَّهَانُ وَعَدَا السَّبَاقُ، فَانْتَهِزْ عُمْرًا يَفْنَى بِالْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ،
وَعَامِلٌ مَوْلَى يُجْزِلُ الْعَطَايَا وَالْأَرْبَاحَ، وَلَا تَبْخُلْ فَقَدْ حَثَّ عَلَى السَّمَاحِ، ﴿مَا
عِنْدَكُمْ يَفْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [التَّلْحُلُ: الآية ٩٦].

اللَّهُمَّ جَمِّلْ جَوَارِحَنَا بِمَحَاسِنِ الْفَقْرِ إِلَيْكَ، وَزَيِّنْهَا بِلِبَاسِ التَّقْوَى عِنْدَ
الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَانصُرْنَا فِي مَقَامِنَا هَذَا بِحُسْنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، وَاجْعَلْ
مَجْلِسَنَا هَذَا رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ جَنَّتِكَ، وَصَلِّ اللَّهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِكَ وَفِطْرَتِكَ،
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ الْخَامِسَ عَشَرَ فِي قِصَّةِ بَدَايَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا نِدَّ لَهُ فَيُبَارَى، وَلَا ضِدَّ لَهُ فَيُجَارَى، وَلَا مُعْتَرِضَ فَيُمَارَى، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فَيُدَارَى، بَسَطَ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَأَجْرَى فِيهَا أَنْهَارًا، وَأَخْرَجَ زُرْعًا وَثِمَارًا، وَأَنْشَأَ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَخَلَقَ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ دَارًا، فَغَفَلَ عَنِ النَّهْيِ وَمَا دَارَى، أَمَرَ أَنْ يَأْخُذَ يَمِينًا فَاخْتَارَ يَسَارًا، فَأُهْبِطَ فَقِيرًا قَدْ عَدِمَ يَسَارًا، غَيْرَ أَنَّهُ جَبَرَ مِنْهُ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ انْكِسَارًا، وَأَقَامَهُ خَلِيفَةً وَيَكْفِيهِ افْتِخَارًا، ثُمَّ بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَنَصَبَ لَهُمْ مِنْ أَدْلَتِهِ مَنَارًا، وَجَعَلَ إِدْرِيسَ وَنُوحَ ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴿طه: الآيتان ٩، ١٠﴾.

أَحْمَدُهُ سِرًّا وَجَهَارًا، وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي أَصْبَحَ وَادِي النُّبُوَّةِ بِرِسَالَتِهِ مِعْطَارًا، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الْمُتَّفِقِ سِرًّا وَجَهَارًا، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي لَأَتْ عَنْ وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ خِمَارًا، وَعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي صَرَفَ عَنْ جَيْشِ الْعُسُورَةِ بِإِنْفَاقِهِ إِعْسَارًا، وَعَلَى عَلِيٍّ أَخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ لَا يُتَمَارَا، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ أَعْظَمَ بِعُمُومَتِهِ افْتِخَارًا.

قال الله العظيم: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا ﴿طه: الآيتان ٩، ١٠﴾، (هَلْ) بِمَعْنَى قَدْ، كَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟» مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهِبِ بْنِ لَأَوَى بْنِ يَعْقُوبَ، وَاسْمُ أُمِّهِ بُؤَخَابِدُ وَبَيْنَ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ

ألف سنة، وكانت الكهنة قد أخبرت فرعون بوجود موسى، فانطلق موسى في ذبح الأطفال، ثم سكّ القبط إلى فرعون فقالوا: إن دُمت على الذبح لم يبق لنا من بني إسرائيل من يخدمنا، فصار يذبح سنة ويترك سنة، فذبح سبعين ألف مولود، فولد هارون في السنة التي لا ذبح فيها، وولد موسى في السنة التي يذبح فيها، فلما اتهمت أمه بالوضع أوضع الحرس إلى بيتها للطلب، فأدركها عند العلم الدهش فآلقت في التور إلقاء الحطب، فلما عادت فرأته قد سلّم شاهدت في ضمن ما قد صنعت أثر ﴿وَأَصْطَنَعْتُ لِنَفْسِي﴾ [طه: الآية ٤١].

فكانت سلامته من النار بعد الأجل وغد النجاة يوم اليم. فلما سعت بتأبوتيه إلى البحر ارتعشت يد التسليم فصاح فصيح الشجاعة بملء فيه ﴿أَن أَقْدِرْ فِيهِ﴾ [طه: الآية ٣٩]، فصدرت بعد إلقائه بصدر قد ألقى به لواعج الاشتياق ولا يعلم قد رمى به إلا من قد رمى به فتلقاه بالبشر بشير ﴿إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْنِ﴾ [القصاص: الآية ٧]، فلم تزل أمواج اليم تتيمم به مسالك القدر إلى أن جيئت جيب الثيل فشرعت في تناوله مشرعة دار فرعون فآلقت في بريّة ﴿فَالْقَطْعُ ۚ أَلْ فِرْعَوْنَ﴾ [القصاص: الآية ٨].

فلما فتحوه أسفر عن مسافر على نجيب النجاة قد ركب في سفينة السكينة، وجعل زاده في مزود ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾، ووشح قلادة الجب قد رصعت بدر ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: الآية ٣٩].

فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله فخرجت آسيه من كمين أتباعه تنطق على لسانه ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: الآية ١٠١]، وتنادي في مخدع خديعة الحرب ﴿فُتِرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصاص: الآية ٩]، وتجمع في كلامها ما هو فرد في لغة القدر ﴿عَسَى أَن يَنْفَعَنَا﴾ [القصاص: الآية ٩]، فلم يزل فرعون في عباس غرور ﴿يُذَبِّحُ﴾ [القصاص: الآية ٤] حتى طلع عزم صبح ﴿وَرِيدُ أَن تَمَنَّ﴾ [القصاص: الآية ٥]، فلما قص شوق أمه جناح صبرها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ ۖ مَرِيمُ ۖ فَصِيَّتُهَا ۖ فَصُرْتُ﴾ [القصاص: الآية ١١] في حريم ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصاص: الآية ١٢] فدام عليه الفدام لا يقبل ثدي امرأة لأن الرضاع

يُغَيِّرُ الطَّبَاعَ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مَا يُفْسِدُهُ فَذَنَّتْ فَذَنَنْتْ حَوْلَ الْحَيْلَةِ بِحَوْلٍ ﴿هَلْ أَذْكَرُ﴾ [الفَصَص: الآية ١٢]؟

فَلَمَّا حَفِظْتُ بَابَ الْمَكْرِ بِحَارِسٍ: ﴿يَكْفُلُونَهُ﴾ [الفَصَص: الآية ١٢] دَخَلَ طُفَيْلِي الْوَجْدِ مِنْ بَابٍ ﴿وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ [الفَصَص: الآية ١٢] فَجَاءَتْ بِأُمِّهَا يَوْمُهَا دَلِيلُ الطَّرَبِ فَكَادَتْ إِذَا حَضَرَتْ تَحْضُرُ فِي مِيدَانٍ ﴿لَتُبْدَى بِهِ﴾ فَكَبَحَهَا بِلِجَامٍ ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [الفَصَص: الآية ١٠]، فَخَافَتْ لِسَانَ جَهْرِهَا لَمَّا خَافَتْ فَسَلَّ مِنْ أَيْدِيهِمْ إِلَى سُلَمٍ تَسْلُمُهَا فَقَرَّ فِي ﴿كَيْ نَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [الفَصَص: الآية ١٣].

وَتَرَنَّمَتْ بِلَايِلُ الْوِصَالِ فَأُخْرَسَتْ بِلَايِلُ الْفِرَاقِ، فَلَمَّا تَمَّ رَضَاعُهُ رَدَّتْهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَأَخَذَهُ يَوْمًا فِي حَجَرِهِ فَجَبَذَ لِحِيَّتَهُ فَقَالَ: عَلَيَّ بِالذَّابِحِ. فَقَالَتْ أَسِيَّةُ: إِنَّمَا هُوَ صَبِيٌّ لَا يَعْقِلُ، وَأَخَذَتْ لَهُ يَافُوتًا أَحْمَرَ وَجَمْرًا، فَأَخَذَ جَمْرَةً فَطَرَحَهَا فِيهِ فَأَحْرَقَتْ لِسَانَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه: الآية ٢٧].

فَرُبِّي مُوسَى فِي رُبَا فِرْعَوْنَ وَنَمَا بَيْنَ نَمَارِقِهِ، وَالْحَقُّ إِذَا رَبًّا شَخْصًا رَبًّا فِي حَجَرَةٍ أَعْدَائِهِ بَيْنَ أَعْدَائِهِ إِلَى أَنْ أَوَانَ مُهَاجَرَتِهِ بَعْدَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَجَرَى الْقَدَرُ بِقَتْلِ الْقُبْطِيِّ الْكَافِرِ النَّافِرِ؛ لِيَكُونَ سَبَبًا فِي سِرِّ سِيرِ.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ فَسَعَى عَلَى أَرْجَاءِ رَجَاءٍ ﴿عَسَى رَيْتَ أَنْ يَهْدِيَنِي﴾ [الفَصَص: الآية ٢٢] فِيرِدَ مَوْرِدَ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَذْيَبٍ﴾ [الفَصَص: الآية ٢٣] فَسَقَى لِبِنْتِي شُعَيْبٍ وَاسْمُهُمَا صَفُورًا وَلَيًّا، فَاجْتَمَعَ شَمْلُ الصَّهْرِ بِوَاسِطَةِ ﴿إِنِّي أُنِي﴾ [الفَصَص: الآية ٢٥] فَزَوَّجَهُ شُعَيْبَ صَفُورًا فَبَقِيَ ضَمَانُ الْوَفَاءِ إِلَى مَائَةٍ ﴿فَلَمَّا فَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [الفَصَص: الآية ٢٩] أَخَذَ زَوْجَتَهُ.

وَاعْجَبًا لِفِرْعَوْنَ أَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ مَوْصُولَ الْحَقِّ بِزَعْمِهِ، وَالْقَضَاءُ يُمَضِّيه بِزَعْمِهِ، وَالْحَقُّ يَغَارُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيُرِيهِمْ آثَارَ الْاِخْتِصَاصِ حَتَّى فِي بَلَائِهِ.

خَلَّصَ الْحَلِيلَ مِنَ النَّارِ فَجَعَلَهَا ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩]، وَأَنَسَ يُؤْتَسُ بِنُورِ النَّسِيحِ فِي الظُّلُمَاتِ فَلَمْ يُبْقِ لَهُ ظَلَامًا، وَلَطَفَ بِيُوسُفَ الصَّدِيقِ وَهُوَ مَمْلُوكٌ ثُمَّ نَشَرَ لَهُ فِي الْمُلْكِ أَعْلَامًا، وَحَمَلَ الْكَلِيمَ فِي التَّابُوتِ إِشْعَارًا بِاللُّطْفِ وَإِعْلَامًا، لَمَّا أَذْبَرَ فِرْعَوْنَ وَعَصَى، وَوَجَدَ فِي كُتُبِهِ أَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ مَوْلُودٌ يَهْلِكُهُ

بِعَصَا، قَصَدَ الْعَدُوَّ حَسَمَ الْعِلَّةَ طَمَعًا فِي الْحَيَاةِ، فَفَتَحَ بَابَ ذَبْحِ الْأَطْفَالِ لِيُظْلَفَ بِصَاحِبِ الْآيَاتِ، وَلِسَانُ الطَّرْدِ يَهْتَفُ بِهِ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: الآية ٣٦]، يَأْقُوْتُ الْاِخْتِصَاصِ لَا تَعْمَلُ فِيهِ نَارُ الْبَلَاءِ، وَسَمْنَدُلُ الْمَحَبَّةِ لَا يُحْرِقُهُ لَهَيْبُ الْاِخْتِبَارِ وَالْاِبْتِلَاءِ، نُودِيَ يَا صَائِدَ الْبَغْيِ صُفُورُ الْعِنَايَةِ لَا تَقَعُ فِي حَبْلِكَ، يَا رَامِيَ الْغَيِّ مَنْ لَبَسَ دِرْعَ الْعِصْمَةِ كَيْفَ يُصَادُ بِنَبْلِكَ، يَا مُدْعِيًّا فِي الْمُلْكِ سَتَعْرِفُ غَدًا مَنْ مَلَكَ وَمَا يَمْلِكُهُ.

إِذْ يُلتَقَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ وَمَاطِلُهُ، وَمِنَّا يَجْتَمِعُ الْمَشْكُوُّ وَالشَّاجِي، لَيْسَ الْعَجَبُ أَنْ تَطْلُبَهُ فَلَا تَجِدُهُ وَهُوَ فِي مِصْرِكَ لَكِنِ الْعَجَبُ أَنْ يَسُوقَهُ فِي التَّابُوتِ إِلَى قَصْرِكَ لِتَعْلَمَ أَنِّي مَعَهُ وَلَا شَيْءَ مَعَكَ، وَأَنَّ الْحَقَّ لِلْمُرْتَهِنِ لَا لِلْمُدْعِي، يَا مَنْ فَخَرَ بِالْمَاءِ كَمَا فَخَرَ إِبْلِيسُ بِالنَّارِ، قَبْلَ قَاضِي عَقْلِهِ رِشْوَةُ الْهَوَى فَجَارَ، شَعَلَكَ جَرِي الْأَنْهَارِ عَمَّا يَجْرِي بِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَخَرَّتْ بِالْمَاءِ وَهُوَ سَبَبُ حَتْفِكَ، يَا بَنَ مُضْعَبٍ مَنْ أَقَامَ غُضْنَ قَامَتِكَ حَتَّى اسْتَوَى مِنْ غَرْبِهِ فِي دَوْحَةِ الْمُلْكِ، فَمَالَ رِيحُ الْهَوَى مَنْ مَدَّ أَرْضَ جَسَدِكَ مِنْ مِهْنِ النُّطْفَةِ، وَدَجَاهَا مَنْ زَمَّهَا بِالْعِظْمَةِ بِجِبَالِ الْعِظَامِ، وَأَرْسَاهَا مَنْ نَظَّمَ جَوَاهِرَ وَجُودِكَ بَعْدَ افْتِرَاقِهَا فِي سِلْكِ الْإِبْجَادِ، مَنْ قَرَنَ مَعْدِنَ جَسَدِكَ بِإِكْسِيرِ سِرِّ الرُّوحِ فَدَرَجَتْ إِلَى دَرَجَةِ الْحَيْرَانِ بَعْدَ الْجَمَادِ، لَقَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ بَصِيرَتِكَ، لَقَدْ عَقِرَتْ نَاقَةُ عَقْلِكَ وَمُسِخَتْ صُورَةُ سَرِيرَتِكَ.

إِخْوَانِي، سُكَارَى الْجَهْلِ يَفْرَحُونَ بِالْمَهَالِكِ فَرَحَ الْبَقِّ بِلَهَيْبِ النَّارِ هَلِ الْعَيْشُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَأْسٌ مُشَوَّبَةٌ بِالْأَكْدَارِ، ثُمَّ رَسُولُهَا الْمَوْتُ مَنْ لَمْ يَزَمْ جَوَارِحَهُ عَنِ الْعَيْبِ لَعِبَتْ بِهِ الْعُقُوبَةُ، فَالزَّمِ الزِّمَ الْعَقْلَةَ عَنْ سَهْمِ الْمُتُونِ الصَّائِبِ مَصَائِبُ. وينشد:

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُورًا بِأَوَّلِهِ إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَظْرُقْنَ أَسْحَارَا
لَا تَفْرَحَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أَوَّلُهُ فَرُبَّ آخِرٍ لَيْلٍ أَجَّجَ النَّارَا
أَفْنَى الْقُرُونِ الَّتِي كَانَتْ مُنْعَمَةً كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ إِفْبَالًا وَإِدْبَارَا
إِخْوَانِي، وَيَحْكُمُ أَعْمَارَكُمْ تُنْهَبُ، وَأَيَّامُكُمْ تَذْهَبُ، وَأَثَامُكُمْ تُكْتَبُ، أَصَمَّمْتُ عَنِ النَّصَائِحِ أَمَ عَمَى وَالْأَمْرُ وَاضِحٌ؟ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٧٨].

أَرَبَابُ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَجْلِسِ كَمَا دَخَلُوا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦]، رَأَيْتِ الذُّنُوبَ عَلَى الْقُلُوبِ.
فَالْمَوَاعِظُ تَحُومُ عَلَى الْمَنَافِدِ فَلَا تَجِدُ طَرِيقًا ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧].

إخواني، ومع هَذَا فلا بُاسَ، فَإِنَّ الْخَمْرَ يَنْقَلِبُ خَلًّا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ. خَرَجَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ أَفْسَى قَلْبًا أَوْجَبَتْ سَكَتَهُ مِنَ الصَّفَا فَلَانَ عِنْدَ الصَّفَا.
وينشد:

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ أَنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرًا
مَا دَامَ قَلْبُكَ عِنْدَ التَّوْبِخِ يَنْكَسِرُ، وَعَيْنُكَ عِنْدَ الْعِتَابِ تَدْمَعُ فَفِيكَ حَيَاةٌ
وَأِنَّمَا الْمَعَاصِي أَوْجَبَتْ سَكَتَهُ. وينشد:

السُّقْمُ عَلَى الْجِسْمِ لَهُ تَرْدَادُ وَالصَّبْرُ يَقِلُّ وَالْهَوَى يَزْدَادُ
مَا أَبْعَدُ شَقَّتِي وَمَا لِي زَادُ مَا أَكْثَرَ بَهْرَجِي وَلِي نَقَادُ
يَا مَنْ يُفَرِّطُ فِي أَعْمَالِهِ وَيَتَكَلَّمُ عَلَى الشَّفَاعَةِ رَبِّ أَمَلٍ خَائِبٍ، يَا هَذَا كُلَّ
يَوْمٍ تَحْضُرُ الْمَجْلِسَ وَيَقِفُ لَكَ الشَّيْطَانُ عَلَى الْبَابِ، عَلِمًا مِنْهُ بِضَعْفِ عَزِيمَتِكَ
فِي التَّوْبَةِ، فَإِذَا خَرَجْتَ كَمَا دَخَلْتَ قَالَ فُدَيْتُكَ مَنْ لَا يَفْلَحُ.

إخواني، تَخْرُجُونَ إِلَى سَبْعِ مَا آذَاكُمْ إِلَّا لِيَقَالَ عَنْ أَحَدِكُمْ مَا أَجْلَدَهُ فَكَيْفَ
تَتْرَكُونَ سَبْعَ الْهَوَى وَقَدْ افْتَرَسَكُمْ؟ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَبْكِي
عَبْدِي مِنْ خَشْيَتِي إِلَّا أَبْدَلْتُهُ ضَحْكًا فِي الْجَنَّةِ». وينشد:

دَمْعِي لِفِرَاقِكُمْ يُحَاكِي الْمُرْنَا وَالشَّوْقُ يَزِيدُ فَوْقَ وَجْدِي حُزْنًا
كَمْ أَخْدَعُ بِالْوَصَالِ قَلْبِي الْمُضْنَا أَرْجُو وَعَسَى هَجْرُكُمْ أَنْ يَفْنَى

يَا هَذَا حَاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبَ، وَهَدِّدْهَا قَبْلَ أَنْ تُعَاقَبَ، وَجَاهِدْهَا
الْجِهَادَ الْأَكْبَرَ، وَقُلْ عِنْدَ ذُبْحِهَا: بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَاجْعَلْهَا قُرْبَةً لِمَوْلَاكَ،
وَاعْتِمِمْهَا قَبْلَ أَنْ يَطْفِرَ بِكَ أَعْدَاؤُكَ مِنْ شَهَوَتِكَ وَهَوَاكَ، فَيَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مَا زَرَعَ
الْقُرْآنُ فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَتَرَاهُ قَرَّبَكُمْ مِنْ مَحَبُوبِكُمْ؟ وَبَلَّغَكُمْ إِلَى مَطْلُوبِكُمْ، أَمْ

قَصَّرْتُمُوهُ عَلَى أَلْسِنَتِكُمْ وَشَفَاهِكُمْ وَاتَّبَعْتُمْ بِتِلَاوَتِهِ خَسَاسَةً أَهْوَأَيْتُمْ.

أَمَّا عَلِمْتُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ رِبْعُ الْمُؤْمِنِ كَمَا أَنَّ الْغَيْثَ رِبْعُ الْأَرْضِ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمُ الْغَيْثُ النَّافِعُ فَأَيُّنَ الْخَائِفِ مِنْكُمْ؟ وَأَيُّنَ الْخَاشِعِ؟ وَأَيُّنَ حُضُورُ جَلِيسِكُمْ وَالسَّامِعِ؟ فَأَيُّقُطُوا قُلُوبَكُمْ لِتَفْهَمَ مَا أَنْتُمْ تَالُونَ قِرَاءَتَهُ، وَأَحْضِرُوا هِمَّتَكُمْ مُتَوَفِّرَةً لَهُ فَعَنْ قَلِيلٍ أَنْتُمْ لَهُ مُفَارِقُونَ، وَعَمَّا عَمِلْتُمْ مِنْهُ مَسْئُولُونَ، أَمَّا عَلِمْتُمْ أَنَّهُ يُقَالُ لِلْقَارِئِ: «اقْرَأْ وَارْقْ» فَمَوْضِعُهُ حَيْثُ انْتَهَتْ قِرَاءَتُهُ فَارْعَبُوا فِي الدَّرَجَاتِ وَالْقُصُورِ، وَمُشَاهِدَةِ الْمَلِكِ الْعَفُورِ، وَاعْرِفُوهُ وَاعْرِفُوا أَنْفُسَكُمْ. وينشد:

قَدْ كَانَ لِي مَشْرَبٌ يَصْفُو لِرُؤْيَيْتِكُمْ فَكَدَّرْتُهُ يَدُ الْأَيَّامِ حِينَ صَفَا

يَا هَذَا أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تَشْتَكِي؟ أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تَنْزِعَ نَفْسَكَ عَمَّا تَشْتَهِي؟ أَمَا أَنْتَ غَرَضٌ لِسَهَامِ الْمَنَايَا؟ أَمَا أَنْتَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْبَرَائِيَا؟ فَمَا لَكَ لَا تَنْتَبِهَ مِنْ رَفْدَتِكَ؟ وَتَتَّقِظَ مِنْ عَفْلَتِكَ؟ وَتَأْخُذَ مِنْ دُنْيَاكَ لِأَخْرَتِكَ، أَيْدِكَ كِتَابُ أَمَانٍ، أَمْ تَحْكَمَ عَلَيْكَ طَرْدُ وَجْزَمَانٍ، فَمَا أَسْعَدَكَ إِنْ أَنْتَ أُمِنْتَ، وَمَا أَشَقَّكَ إِنْ أَنْتَ حُرِمْتَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾.

قَوْمٌ عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا بِالْإِخْلَاصِ وَالطَّاعَةِ، وَفَارَزُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّبْحِ فِي الْبِضَاعَةِ، وَتَنَزَّهُوا عَنِ التَّقْصِيرِ وَالْغَفْلَةِ وَالْإِضَاعَةِ، وَلَبِسُوا ثِيَابَ التَّقَى وَارْتَدَّوْا بِالْقَنَاعَةِ، وَقَامُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى السَّهَرِ وَالْجَمَاعَةِ، فَيَا فَخْرَهُمْ إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ، وَقَدْ قُرِبَتْ لَهُمْ مَطَايَا التَّكْرِيمِ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾.

عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا بِالْوَحْدَةِ وَالْحُلُوةِ، وَاعْتَدَرُوا فِي الْأَسْحَارِ مِنْ زَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ، وَحَذَرُوا مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِبْعَادِ وَالْجَفْوَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُخْتَارُونَ وَالصَّفْوَةُ، وَالصَّدُوقُ قَرِينُهُمْ وَالصَّبْرُ نَدِيمُهُمْ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾ [الانفطار: الآية ١٣].

طَالَ وَاللَّهِ مَا تَعَبَتْ أَبْدَانُهُمْ مِنَ الْجُوعِ وَالسَّهَرِ، وَحَبَسُوا أَعْرَاضَهُمْ فِي الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا نَهَاهُمْ وَامْتَنَلُوا مَا أَمَرَ، وَتَغَنَّوْا بِكَلَامِهِ وَالْقَلْبُ قَدْ حَضَرَ، وَأَعَدُّوا مِنَ الزَّادِ مَا يَصْلُحُ لِلسَّفَرِ، وَالْخَوْفُ يُقْلِقُهُمْ فَمَنْعَهُمْ قَضَاؤُهُمُ الْوَطَرَ، وَالْعَيْنُ تَجْرِي وَالْقَلْبُ قَدْ اعْتَبَرَ، فَيَا حُسْنَهُمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَوَقْتُ

السَّحَرِ، السَّرِّ صَافٍ، وَالْحَالُ مُسْتَقِيمٌ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾ .

جَنَّ الظَّلَامُ فَرُزِمَتْ مَطَايَاهُمْ، وَجَاءَ السَّحَرُ فَتَوَفَّرَتْ عَطَايَاهُمْ، وَكَثُرَ
الاسْتِغْفَارُ فَحُطَّتْ خَطَايَاهُمْ، وَكُلَّمَا طَلَبُوا مِنْ فَضْلِ سَيِّدِهِمْ أَعْطَاهُمْ، فَسُبْحَانَ
مَنْ اخْتَارَهُمْ عَلَى الْكُلِّ وَاضْطَفَاهُمْ وَخَلَّصَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ مِنْ شَوَائِبِ الْكَدْرِ
وَصَفَّاهُمْ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْخَلْقِ بِالْمَحَبَّةِ سِوَاهُمْ أَرْعَجَتْهُمْ عَوَاصِفُ الْمَخَافَةِ
فَتَدَارَكُهُمْ مِنَ الرَّجَاءِ نَسِيمٌ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾ [الانفطار: الآية ١٣].

أَيَقْظَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَصَالِحِنَا، وَعَصَمَنَا مِنْ ذُنُوبِنَا وَقَبَائِحِنَا، وَاسْتَعْمَلَ فِي
طَاعَتِهِ جَمِيعَ جَوَارِحِنَا، اللَّهُمَّ أَقْدِمْنَا مِنْكَ عَلَى الرِّضَا وَالْأَمَانِ، وَانْقُلْنَا إِلَى
مَنَازِلِ الْجَنَانِ، وَمَتَّعْنَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَاعْفُزْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ
الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا
كَثِيرًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ السَّادِسُ عَشَرَ في تَكْلِيمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

لَمَّا خَرَجَ مُوسَى بِأَهْلِهِ مِنْ مَدِينَةِ مَدْيَنَ يَقْصِدُ أَرْضَ مِصْرَ، انْطَلَقَ طَلِقُ
الطَّلَقِ بِزَوْجَتِهِ، فَلَمَّا زَالَ يُكَادِحُ الْمَكَادِحَ فَزَاوِلَ قَدْحِ الْمُقَادِحِ فَلَمْ تُورْ؛ لِأَنَّ
عُرُوسَ الطَّوْرِ لَمَّا هَمَّتْ بِالتَّجَلِّيِ نُودِيَتْ النَّيْرَانُ بِلِسَانِ الْغِيَرَةِ مِنَ الْمُشَارَكَةِ غُضِي
فَقَامَ عَلَى أَقْدَامِ التَّحِيرِ فَهَتَفَ بِهِ أُنَيْسُ أَنْسَ فَأَنْسَ. وينشد:

وما عُرِضْتُ لِي نَظْرَةً مُذْ عَرَفْتُهُ فَأَنْظُرُ إِلَى الْأَرْكَانِ مِنْ حَيْثُ أَنْظُرُ
أَغَارُ عَلَى طَرْفِي لَهُ فَكَأَنَّنِي إِذَا رَامَ طَرْفِي غَيْرَهُ لَسْتُ أَبْصُرُ
فِيَا مُنْتَهَى سِرِّي وَدُخْرِي وَغَايَتِي وَدَاذُكَ فِي قَلْبِي إِلَى يَوْمٍ أَحْشُرُ

فَكَانَ لَمَّا أَظْلَمَ الْجَوُّ كَالْقَارِ، وَأَبَتْ الزُّنَادُ أَنْ تَنْقَدِحَ بِنَارٍ، لَاحَ لِبَصْرِ
بَصِيرَةِ الْاِخْتِيَارِ مِنْ جَانِبِ جَوَانِبِ جَبَلِ الطُّورِ نَارٌ فَانْسَ الْإِنْسُ فِي نُورِ نُورِيَّةِ
ذَلِكَ النَّبْرَاسِ، رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ بِتُحْفَةٍ أَسْرَارِ ﴿إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا﴾ [طه: الآية ١٠].

فَشَمَّرَ مُوسَى عَنْ سَاقِ الْقَصْدِ وَسَاقٍ وَأَعْمَلَ بِعَمَلَةِ الطَّلَبِ، فَإِذَا هُوَ بِنَارٍ
عَظِيمَةٍ تُورُ مِنْ فُرُوعِ شَجَرَةٍ خَضِرَاءَ شَدِيدَةِ الْخُضْرَةِ لَا تَزْدَادُ النَّارُ فِيمَا يَرَى إِلَّا
تَضَرُّمًا وَعُظْمًا، وَلَا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ عَلَى شِدَّةِ الْحَرِيقِ إِلَّا خُضْرَةً وَنَعْمًا، وَكَشَفَ
عَنْ بَصَرِهِ فَرَأَى الْمَلَائِكَةَ صُفُوفًا فَقَالَ لَهُمْ: فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ؟ وَلِمَاذَا عَلَيْهِ اجْتَمَعْتُمْ؟
قَالُوا: أُنْزِلْنَا عَنْ سَمَكِ السَّمَاءِ الْمَطَالِيعِ الْعُلُويَّةِ لِنَحْضُرَ فِي حَضَرِ خَضِيرَةِ اضْطِفَاءِ

الْهَيْئَةُ الْمُؤَسَّوِيَّةَ كَيْ نَسْمَعَ التَّكْلِيمَ وَنُشَاهِدَ التَّكْرِيمَ.

قَالَ مُوسَى: الْاسْمُ كَالْاسْمِ، وَالرَّسْمُ كَالرَّسْمِ لِيَتَنِي كُنْتُ صَاحِبَ هَذَا التَّعْظِيمِ، وَأَنَا شَرَفَ سِرِّ التَّكْرِيمِ، مَدَّ مُوسَى بَاعَ الطَّلَبِ وَسَطَ نَادِي الطَّرَبِ، وَنَارُ الْأَنْوَارِ تَتَأَجَّجُ عَلَى شَجَرَةِ الْأَسْرَارِ، نَادَاهُ عَالِمُ عِلْمِهِ، فَفَهَّمَهُ تُرْجَمَانُ فَهَمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّارِ عِنْدَ مُقَابَلَةِ الْأَشْجَارِ الْإِحْرَاقُ مَعَ الْإِشْرَاقِ؟ فَمَا بَالُ هَذِهِ النَّارِ تُشْرِقُ وَلَا تَأْكُلُ وَلَا تُحْرِقُ؟ إِنَّمَا هَذِهِ النَّارُ أَسْرَارٌ وَأَنْوَارٌ فَإِذَا بِحَضْرَتِهَا قَدْ صَارَتْ عُمُودًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَاشْتَدَّ خَوْفُهُ وَكَادَ يُخَالِطُ فِي عَقْلِهِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ فَنُودِيَ مِنَ الشَّجَرَةِ: يَا مُوسَى، فَأَجَابَ سَرِيعًا وَمَا يَدْرِي مَنْ دَعَاهُ.

فَقَالَ: لَبَّيْكَ أَسْمَعُ صَوْتِكَ وَلَا أَرَى مَكَانَكَ؟ فَأَيْنَ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فَوْقَكَ وَمَعَكَ وَأَمَامَكَ وَأَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْكَ. فَحِينَئِذٍ ذَاقَ لَذَّةَ التَّكْلِيمِ، جَرَحَ قَلْبَهُ نَسْلُ الشُّوقِ فَلَمْ يُدَاوِهِ إِلَّا طَيْبٌ ﴿وَوَعَدْنَا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]. وينشد:

وَسَقَوْهُ كَأْسَهُ وَهُوَ مَلَا	أَسْكُرُوهُ ثُمَّ قَالُوا لَا تُبِحْ
فَغَدَا مُفْتَضِحًا مُخْتَبِلًا	كَانَ مِنْ قَبْلِ التَّجَلِّي عَاقِلًا
عَاشِقًا مُتَّصِلًا مُنْفَصِلًا	ثَابِتًا زَلَّتْ بِهِ مَحْنَتُهُ
بِبَلَاءٍ لَمْ يَقُلْ إِلَّا بَلَا	كُلَّمَا هَدَّاهُ مَحْبُوبُهُ
صَاحَ أَوْ قَدْ سَقِيتُ الْحَنْظَلَا	وَإِذَا غُيِّبَ عَنْهُ سَاعَةً
لَيْتَ شِعْرِي مَا شَرِبْتُ الْعَسَلَا	هَكَذَا يُهْتَكُ سِرِّي فِي الْهَوَى
فَعَسَى يَحْيَا بِهَا مَنْ قُتِلَا	فَافْتُلُوزِي قَتْلَهُ أَحْيَا بِهَا

فبعث في حرب فرعون، فلم يزل مشغولاً بالجهاد إلى أن قبر القاتل في لحد اليم، فطلب قومه كتاباً يضبط شاربهم ويرد شاربهم ويرد نادمهم، فأمره الله عز وجل أن يصوم ثلاثين ليلة نهاره وليله، فأمسك عن مسك الإمساك بكف الكف في الوصال، فدام فدام فيه عن مطعم المطعم، فقل فقيد بقيد قوت القوت التافوت فصار في ذكر الوعد، فما انقضت الليالي حتى انقضت ظهر الصبر فقام ليرى أي هلال الوفاء بالأمر، فلاح في مطلع فلاح القصر، فبادر

يَسْعَى عَلَى أَقْدَامِ الْحُبِّ لِمِزَارَةِ رَنَحِ الْحَبِيبِ تَكَادُ تُقْلُهُ قُلَّةُ الْوَجْدِ وَتَحْمِلُهُ رَاحِلَةُ الشَّوْقِ، فَوَجَدَ الْهَوَى مُتَغَيِّرَ الرِّيحِ فِي عَرَصَةِ الْفَمِ، فَصَاحَ بِهِ فَصِيحُ لِسَانِ الْحَزْمِ مِنْ وَرَاءِ رَأْيِ الْعَزْمِ: يَا مُوسَى غَيَّرَ أَثَرَ الْأَزْمِ، فَتَنَاولَ مُضْعَةً مِنَ النَّبَاتِ فَمَضَعَهَا، فَقِيلَ لَهُ: أَيُّهَا الصَّائِمُ عَنْ أَمْرِنَا لِمَ أَفْطَرْتَ بِرَأْيِكَ؟ فَقَالَ: وَجَدْتُ لِفَمِي خَلُوفًا، وَمَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ خِلَافًا.

فَقِيلَ لَهُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ قَدْرَ قَوْرَةِ الْخُلُوفِ مِنْ قَدْرِ الْإِمْسَاكِ أَطْيَبُ عِنْدَنَا مِنْ قَارَةِ الْمِسْكِ، إِنَّا نَنْظُرُ إِلَى قَصْدِ الْفَاعِلِ لَا إِلَى صُورَةِ الْفِعْلِ. الدَّمُ نَجِسٌ مُجْتَنَبٌ، لَكِنَّهُ فِي حَقِّ الشَّهِيدِ شَهْدٌ زَمِّلُوهُمْ بِكُلُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ، فَارْجِعْ مُوسَى عَاكِفًا عَلَى مُعْتَكِفِ كَفِّهِ ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]، فَكَانَتْ الْعَشْرُ أَطْوَلَ مِنَ الثَّلَاثِينَ عِنْدَهُ، فَأَخْضَرَ حَتَّى حَضَرَ حَضِيرَةَ الْقُدْسِ فَنَسِيَ الْإِنْسَ بِمَا آتَى مِنَ الْإِنْسِ.

فَكُلُّ شَيْءٍ رَأَاهُ ظَنَّهُ قَدْ حَاقَ وَكُلُّ شَخْصٍ رَأَاهُ ظَنَّهُ بِالسَّاقِي، فَلَمَّا دَارَتْ فِي دَائِرَةِ دَارِ الْحُبِّ كُتُوسُ الْقُرْبِ، وَسَمِعَ النَّدَاءَ وَسَطَ النَّادِي بِلَا وَاسِطَةٍ، وَبُسِطَ لَهُ مِنْ وَسِيطِ أَقْدَاحِ الْمُنَى فِي الْمُنَاجَاةِ بِلَا وَسِيطٍ طَابَ لَهُ شَرَابُ الْوِصَالِ مِنْ أَوْطَابِ الْخِطَابِ فِي أَوَانِي سَمَاعِ الْكَلَامِ، فَنَادَاهُ بُوقُ شَوْقِهِ عِنْدَ دُوقِهِ أَوَانَتْ فِي هَذَا الْأَوَانِ رَأَى عَلَى الْفُورِ وَمِیْضًا فَاشْتَاقَ فَصَاحَ لِسَانُ الْوَجْدِ أَرِنِي.

قِيلَ: يَا حَكِيمَ الزَّمَانِ أَتَظْمَعُ فِي الرُّؤْيَةِ وَالْكَلامِ فِي قُرْنٍ، هَذِهِ دَارُ الْمَحْنِ لَنْ إِلَّا أَنْ جَزَعَ الْفِطَامِ سَكَنَ بَعْلَةٍ ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].

نَظَرَ بِعَيْنَيْهِ لِعَبْرِ الْمَقْصُودِ حُجِبَ عَنْ مُلَاحَظَةِ الْمَعْبُودِ كَمَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُحِبِّينَ أَنَّهُ أَطْلَبَ فِي وَصْفِ مَحَبَّتِهِ لِمَحَبُّوبَتِهِ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَمْتَحِنَ دَعْوَاهُ فَقَالَتْ لَهُ: لَوْ نَظَرْتَ إِلَى أُخْتِي لَسَقَطَتْ مِنْ قَلْبِكَ مَحَبَّتِي، فَتَشَوَّقْ مُلْتَفِتًا إِلَيْهَا وَسَأَلْ عَنْهَا أُخْتَهَا، فَقَالَتْ: هِيَ خَلْفِي، فَنَظَرَ إِلَيْهَا الْمُدْعِي الْمُكَلَّفِي فَقَالَتْ لَهُ: يَا بَطَّالُ تَدْعِي مَحَبَّتَنَا وَتَنْظُرُ إِلَى غَيْرِنَا مَا أَسْوَأَ حَالِكَ بَعْدَهَا مَعَنَا، وَالْمَحَبُّ لَا يَكُونُ لِعَبْرِ مَحَبُّوبِهِ لَاحِظًا، وَلَا بِكَلَامِ غَيْرِهِ لَافِظًا، وَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ سِوَى اللَّهِ حَافِظًا، لَوْ

اخْتَرَقَ الْمُحِبُّ بِالنَّارِ لَمْ يَشْعُرْ، لَوْ ضُرِبَ مِنْ خَلْفِهِ وَأَمَامِهِ لَمْ يَنْظُرْ، يَنْتَهِي
الْمُحِبُّ فِي الْمَحَبَّةِ إِلَى غَايَةٍ لَا يَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَلَا بِالْخَلْقِ، فَنِيَّ عَنْ وُجُودِهِ، وَبَقِيَ
مَعَ مُشَاهَدَةِ مَوْجُودِهِ. وينشد:

قَالَ وَلَقَدْ أَغْرَضْتُ صَدًّا عَلَى كَلْفٍ أَشْرَكْتَ فِي حُبِّنَا بِالْمَيْلِ فِي النَّظَرِ
فَلَيْسَ يَنْظُرُ مِنَّا مَنْ أَلَمَ بِنَا بِصَفْوٍ وَدَّمَاعِ الْإِشْرَاكِ وَالْغَيْرِ
فَقُلْتُ تَاللَّهِ مَا أَمَمْتُ مِنْ نَظَرٍ وَلَا صَغَيْتُ بِسَمْعٍ لَا وَلَا بَصَرٍ
وَلَا هَمَمْتُ بِشَرِّ كَيْ أَفْكَرُهُ إِلَّا وَأَنْتَ الَّذِي فِي السَّرِّ وَالْفِكَرِ
فَانْظُرْ بِسِرِّكَ سِرِّي إِلَى نَظْرِي إِلَى سِوَاكَ وَلَكِنْ غَيْرَ مُخْتَبِرِ
فَإِنْ وَجَدْتَ سِوَى التَّوْحِيدِ فِيهِ هَوًى إِلَى سِوَاكَ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَذَرِ

قال: فلما تَجَلَّى رُبُّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِلْجَبَلِ، فَخَرَّ مُوسَى فِي بَحْرِ الصَّعْقِ،
فَأَقْبَلَ سُهَى الْعَقْلِ فِي فَلَكَ النَّفْسِ لَمَّا تَجَلَّتْ شَمْسُ الْعَظَمَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ غَوَّاصُ
الْعَقْلِ إِلَى سَاحِلِ الْإِحْسَاسِ فَرَّقَ فَرَقِي ذِرْوَةَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ مَا انْبَسَطَ مُوسَى
بِقَوْلٍ: ﴿أَرِنِي﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] إِلَّا بِبَسْطِ سَلِينِي، وَلَوْ مِلْحَ عَجِينِكَ، وَلَوْ تَرَكَهُ
مَعَ رَعِيهِ الْغَنَمِ فِي شُعْبِ شُعَيْبٍ مَا جَالَ فِي ظَنِّهِ ذَلِكَ الطَّمَعُ، وَلَكِنْ اسْتَدْعَاهُ
بِالنَّدَاءِ وَأَنَسَهُ بِالتَّقْرِيبِ وَبَاسْطُهُ بِالتَّكْلِيمِ وَهَيْمَهُ بِالسَّمَاعِ سِوَاكَ.

هُوَ سَكْرَانٌ بِالْمُكَالَمَةِ فَلِمَ قَالَ: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ جَوَابَ، لِأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى
السُّؤَالِ وَمَا أُذِنَ لَهُ. قَالَ: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] لِأَنِّي طَلَبْتُ
الْأَعْلَى، وَمَقَامِي الْأَدْنَى كَانَ مُوسَى يَطُوفُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَقُولُ: مَنْ
يُحْمِلُنِي رِسَالَةَ إِلَى رَبِّي مَا كَانَ مُرَادُهُ إِلَّا أَنْ يُطَوَّلَ الْحَدِيثُ مَعَ الْحَبِيبِ.
ينشد:

فَقُلْتُ لَهُ كَرَّرَ الْحَدِيثَ الَّذِي مَعِيَ فَذَكَرْتُكَ مِنْ ذَاكَ الْحَدِيثِ أُرِيدُ
يُجَدِّدُ تَذْكَارُ الْحَدِيثِ مَوَدَّتِي فَذَكَرْتُكَ عِنْدِي وَالْحَدِيثُ جَدِيدُ
أُنَاشِدُهُ إِلَّا أَعَادَ حَدِيثَهُ كَأَنِّي بَطِيءُ الْفَهْمِ حِينَ يُعِيدُ

مَاتَ مُوسَى قَتِيلَ شَوْقٍ ﴿أَرِنِي﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠]، فَلَمَّا جَارَ نَبِيَّنَا ﷺ لَيْلَةَ

المعراج رَدَّه في الصَّلَوَاتِ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلِ التَّخْفِيفَ لِيَسْعُدَ بِرُؤْيَا مَنْ قَدْ رَأَى. وينشد:

إِنْ تُشَقَّ عَيْنِي بِهِمْ فَقَدْ سَعِدْتُ عَيْنُ رَسُولِي وَفَزْتُ بِالنَّظَرِ
وَكُلَّمَا جَاءَنِي الرَّسُولُ لَهُمْ رَدَدْتُ شَوْقًا فِي طَرْفَةٍ نَظَرِي
تَظْهَرُ فِي وَجْهِهِ مَحَاسِنُهُمْ قَدْ أَثَرْتُ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثَرِ
خُذْ مُقْلَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ عَارِيَةً فَانْظُرْ بِهَا وَاحْتَكِمْ عَلَى بَصَرِي

إخواني، إذا كَانَ وَصُولُ الْبَدَنِ إِلَى الْكَعْبَةِ لَا يَصِلُ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، فَكَيْفَ بِوُصُولِ الْقَلْبِ إِلَى صَاحِبِهَا؟ اَسْمَعُوا يَا أَرْبَابَ الْعَزَائِمِ لِنَلَّا تَلُومُوا الْقَائِلَ مَنْ لَمْ يَبْدُلْ نَفْسَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَالرَّأْيُ أَنْ يَرْجِعَ مِنَ الْكُوفَةِ. شعر:

يَا صَاحِبِي قَفَا عَلَيَّ بِقَدْرِ مَا أُسْقِي بِوَائِكِ عِبْرَاتِي أَطْلَالَهَا

يَا هَذَا أَتَيْنَ أَنْتَ وَالطَّرِيقُ سَبِيلٌ نُصِبَ فِيهِ آدَمُ، وَنَاحَ لِأَجْلِهِ نُوحٌ؟ وَرُمِيَ فِي النَّارِ الْخَلِيلُ، وَأُضْجِعَ لِلذَّبْحِ إِسْحَاقُ، وَبِنِعَ يُوسُفُ بِدَرَاهِمَ، وَنُشِرَ بِالْمُنْشَارِ زَكَرِيَّا، وَذُبِحَ الْحَصُورُ يَحْيَى، وَضُنِيَ بِالْبَلَاءِ أَيُّوبُ، وَزَادَ عَلَى الْمِقْدَارِ بُكَاءُ دَاوُودَ، وَتَنَعَّصَ فِي الْمُلْكِ عِيشُ سُلَيْمَانَ، وَتَحَيَّرَ بِرَدِّ ﴿لَنْ﴾ [الكهف: الآية ١٤] مُوسَى، وَهَامَ مَعَ الْوَحْشِ عِيسَى، وَعَالَجَ الْفَقْرَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَتَرِيدُهَا أَنْتَ بِاللَّهُوِ وَاللَّعِبِ. شعر:

فَيَا دِيَارَهُمْ بِالْحُزْنِ إِنْ مَزَارَهَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالٌ

أَوَّلَ قَدَمٍ فِي الطَّرِيقِ بِذُلِّ الرُّوحِ هَذِهِ الْجَادَةُ فَأَيْنَ السَّالِكُ؟ هَذَا قَمِيصُ يُوسُفَ، فَأَيْنَ يَعْقُوبُ؟ هَذَا طُورُ سَيْنَاءَ فَأَيْنَ مُوسَى؟ يَا جُنَيْدُ أَحْضُرْ يَا شَبْلِي، اَسْمَعْ يَا ابْنَ آدَمَ أَقْبِلْ. وينشد:

قَفْ بِالذِّبَارِ فَهَذِهِ أَثَارُهُمْ تُبْكِي الْأَحِبَّةَ حَسْرَةً وَتَشَوُّقًا
كَمْ لِي وَقَفْتُ بِهَا أَسْأَلُ مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مُشْفِقًا
فَأَجَابَنِي دَاعِي الْهَوَى فِي رَسْمِهَا فَارْقَتْ مَنْ تَهْوَى فَعَزَّ الْمُلْتَقَا

أَيْنَ الْقَوْمُ يَا قَوْمَ؟ مَرُّوا بَيْنَ أَيْدِينَا وَلَمْ يَبْقَ لَنَا سِوَى اللُّومِ.

إخواني، أَكْثَرُوا مِنْ غَرَسِ الطَّاعَاتِ؛ فَإِنَّهُ زَرَعَ مَا عَلَيْهِ خَرَجٌ.

إخواني، عَيْنُ الْعَقْلِ تَتَلَمَّحُ النِّهَايَاتِ، وَنَازِطُ الْحِسِّ لَا يَصِلُ إِلَى الْغَايَاتِ، الْعِلْمُ رَائِضٌ يَعْلَمُ حُسْنَ الْأَدَابِ، وَالْقَنَاعَةُ وَالصَّبْرُ وَالْعَفْوُ وَالتَّوَّاضُعُ وَالْعَزْلَةُ عَقَاقِيرُ كَيْمِيَاءِ النَّجَاةِ، يُبْلَغْنَ لِمُسْتَعْمِلِهِنَّ مَرْتَبَةَ الْغِنَاءِ، وَالْحِرْصُ وَالشَّرُّ وَالْعَضْبُ وَالْعُجْبُ وَالْعُجْرُ كُلُّهُنَّ مَجَانِينُ فِي مَارِسَاتِنِ الْعَقْلِ، وَهُوَ الْقِيَمُ عَلَيْهِنَّ فَلْيَحْذَرِ الْعَفْلَةَ عَنْهُنَّ، فَإِنَّهُ إِنْ أَفَلَتْ مَجْنُونٌ مِنْهُنَّ حَلَّ الْبَاقِينَ كَلَامِي سَهْمٌ لَا يَكَادُ يُخْطِئُ الْهَدَفَ أَبْلَغُ بِلْفِظِي مَنْزِلَ الْمَعْنَى وَمَا طَالَ سَفَرُ الْعِبَارَةِ لَا إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي لَطَافٌ. فَأَيُّ سِلْكِ فَهَمٌ دَقٌّ فَلْيَنْظَمْ فِيهِ فَإِنَّمَا يُنْظَمُ اللَّوْلُو فِي خَيْطٍ لَا فِي حَبْلِ إِذَا مَرَضَتِ الْأَفْهَامُ السَّلِيمَةُ مِنْ وَبَاءِ طَعَامِ الْعِبَارَاتِ الرَّكِيكَةِ عَمِلَ لَفْظِي فِي شِفَائِهَا وَلَا رُبِّي الْهِنْدَ كَلِمٌ يُدَاوِينُ كُلَّ كَلِمٍ جَوَاهِرُ كُلِّهَا بِيضٌ تُوجَدُ مَفْقُودَةً الْمِثَالِ، تَحَنَّبَ الْغَائِضُونَ عَنْهَا عَجْزًا، وَجَاشَتْ بِحَارِهَا لِي، جَمَعْتُ بَيْنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بَانْتِخَائِي هَذِهِ الْمَعَانِي فَهِيَ تُنَادِي السَّامِعِينَ وَلِدْتُ عَنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ.

إخواني، الْمَالُ دَرَجٌ لِلْعَاقِلِ إِلَى أَقْرَبِ الْقُرْبِ، وَدَرَكٌ لِلْعَافِلِ إِلَى أَبْعَدِ الْبُعْدِ. وَاعْجَبًا يَتَعَبُ النَّاسُ فِي اسْتِخْرَاجِ الذَّهَبِ مِنْ بَوَاطِنِ الْمَعَادِنِ وَيَنْصَبُونَ فِي سَبْكِهِ وَتَضْفِيفَتِهِ وَضَرْبِهِ، فَإِذَا مَلَكَهُ الْبَخِيلُ حَفَرَ لَهُ الْأَرْضَ وَأَعَادَهُ، وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ مِنْ فِعْلِ الْجَاهِلِ، فَإِنَّ جَوْهَرَ مَعْنَاهُ خَرَجٌ مِنْ أَرْضٍ طَبْعِهِ. إِنَّ تَوْفِيرَ الْمَالِ بِنَقْصِ الدِّينِ لَعَبْنٌ فَاحِشٌ، يَا مَنْ سَبَقَ نَظْرَاهُ بِجَمْعِ الْمَالِ لَقَدْ لَحِقَتْكَ التَّيَعَاتُ، يَا حَسْرَةَ مَنْ يَفْرَحُ بِشَبْرِ مِنَ الدُّنْيَا يَنَالُهُ، وَلَا يَحْزَنُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُخْرَى تَفُوتُهُ.

شعر:

إِذَا كُنْتَ ذَا مَالٍ وَلَمْ تَكُنْ رَاحِمًا فَأَنْتَ كَذِي نَعْلٍ وَلَيْسَ لَهُ رِجْلٌ
وَإِنْ تَكُ ذَا فَهَمٍ وَلَمْ تَكُ وَاعِيًا فَأَنْتَ كَذِي رِجْلٍ وَلَيْسَ لَهُ نَعْلٌ

إخواني، مَيِّزُوا بَيْنَ لَذَّةِ سَاعَةٍ وَحَسْرَةِ سِنِينَ، إِحْذَرُوا مِنَ الدُّنْيَا الَّتِي مَلَكَتُمُوهَا قَبْلَ أَنْ تَمْلِكَكُمْ، الرَّجُلُ مَنْ مَلَكَ الْأَشْيَاءَ لَا مَنْ مَلَكَتْهُ، وَتَصَرَّفَ فِيهَا لَا مَنْ تَصَرَّفَتْ فِيهِ كَثْرَةُ الْعَلَائِقِ عَوَائِقُ، وَقَدْ وَقَعْتُمْ فِي السَّرَكِ فَدَبَّرُوا إِنْ قَدَرْتُمْ،

يَا بَعِيدَ الْخَلَاصِ، يَا مَطْرُودًا عَنِ الْبَابِ، يَا مَضْرُوبًا بِسَوْطِ الْحِجَابِ، لَوْ وَفَيْتَ بَعْدَهُمْ، مَا رَمَوْكَ بِصَدِّهِمْ، لَوْ أَقَمْتَ عَلَى وِدَادِهِمْ لَسَلِمْتَ مِنْ بِعَادِهِمْ، لَوْ كَاتَبْتَهُمْ بِدَمْعِ الْأَسْفِ غَفَرُوا كُلَّ مَا سَلَفَ، لَوْ تَعَلَّقَ الْعَصَاةُ بِنَا لَوْجَدُونَا، لَوْ ذَاقُوا وَصَلْنَا مَا هَجَرُونَا. وينشد:

يَا مَنْ هَجَرُوا وَجَلَّتِي يَهُوَاهُمْ قَلْبِي سَكَنُوا فَلِمَ جَفَوْا مَاوَاهُمْ
مَا أَطْيَبَ فِي فَمِي لَهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَلْيَخْتَكِمُوا فَلَيْسَ لِي إِلَّا هُمْ

وَأَعْجَبَا لِمَاشٍ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ عَلَى مَحَجَّةِ الْفِكْرِ كَيْفَ زَلَّتْ قَدَمُهُ؟ يَا عَاصِي، إِذَا تَفَرَّعْتَ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَذَكِّرْهَا أَضْلَهَا مِنَ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ، فَإِنْ هَمَّتْ بِالزَّلَلِ فَعَرِّفْهَا قَدْرَهَا يَوْمَ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ قُلْ لَهَا قَدْ عَلِمْتَ مَا جَرَى عَلَى أَيْدِيكَ، وَبِكُفْيِكَ تَأْثِيرَاتِ الْمُخَالَفَاتِ عَلَى مَقَادِيرِهَا قَوِيَتْ زَلَّةُ آدَمَ فَخَرَجَ عُرْيَانًا، وَكَانَتْ غَلْطَةُ يُوسُفَ هَمًّا فَقَدَّ الْقَمِيصُ مَنْ عَصَى قُرْعَ بَعْصَا، وَمَنْ هَمَّ عُوتِبَ بِهِمْ مَنْ نَسِيَ الْاسْتِغْفَارَ ذَكَرَهُ الْعِقَابُ، يَا مَعْبُونِ الرَّأْيِ قَدْ يَقِي مِنَ الْعُمْرِ شَقَقُ، يَا قَلِيلَ الزَّادِ وَسَفَرُهُ بَعِيدَ الْمَدَى مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ مُحَرِّكٌ مِنْ بَاطِنِكَ فَالْخَلْقُ يَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ. وينشد:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشَ بِهِ ضَاعَ مِنِّي فِي تَقَلُّبِهِ
رَبِّ فَارْذُدْهُ عَلَيَّ فَقَدْ عَيْلَ صَبْرِي فِي تَطَلُّبِهِ
وَأَغِثْ مَا دَامَ بِي رَمَقُ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِ بِهِ

إِخْوَانِي، قَامَ الصَّالِحُونَ عَلَى أَفْدَامِ الْجِدِّ يَرْحَلُونَ الرِّكَائِبَ وَيَعْدُونَ الْمَسِيرَ لِيَلْحَقُوا الرَّعِيلَ الْأَوَّلَ، اسْتَقَامَتْ لَهُمُ الْجَادَّةُ فَلَمْ يَعْرِجُوا اهْتِمَامًا بِالسَّبْقِ فَكَيْفَ يَلْحَقُهُمْ أَعْرَجٌ عَنْ تَرْكِ الْمَالِ، وَابْتَدَلُوا الْأَسْمَالَ وَصَانُوا ثِيَابَ الزَّيْنَةِ لِعِيدِ الْقِيَامَةِ مَرْتَبَةِ الرُّتْبَةِ غَدًا تَتَبَيَّنُ جَدَّ الْقَوْمِ وَهَزَلَتْ وَسَتَبَكِي إِذَا صَعِدَ الْقَوْمُ وَنَزَلَتْ، اسْمَعْ يَا أَصَمُّ أَوْضَاعَ الْحَدِيثِ مَعَكَ إِذَا أُرْعِدْتَ سَحَابُ التَّخْوِيفِ انْزَعَجَ لَهَا قَلْبُ الْمُتَيَقِّظِ فَاَنْفَتَحَتْ أَصْدَافُ سِرِّهِ كَانِفَتَاحِ أَصْدَافِ الْبَحْرِ لِتَلْقَى قَطْرَةَ التَّيَّانِ فَقَطَرَتْ مِنْهَا قَطَرَاتٌ عَقَدَهَا لَوْلُؤُ رِيْعِ الْعِرْفَانِ، فَنَهَضَ الْقَلْبُ يَغْرِضُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْجَوَاهِرِ فَتَلْقَى بِالْقَبُولِ، أَيُّهَا الْعَافِلُ رِيْعَ الْقَوْمِ وَخَسِرْتَ، وَسَارُوا إِلَى الْحَبِيبِ

مُسْرِعِينَ وَمَا سِرْتَ وَقَامُوا بِالْأَمْرِ، وَضَيَّعَتْ مَا بِهِ أَمِرَتْ وَسَلَّمُوا مِنْ رِقِّ
الْهَوَى، وَاعْتَرَزَتْ فَأَسِرَتْ، فَالْدُّنْيَا تَخْدِمُهُمْ، وَالسَّعَادَةُ تَقْدِمُهُمْ حِينَ يُحْشَرُونَ،
﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

لَقَدْ شُوِّقْتُمْ إِلَى الْفَضَائِلِ فَمَا اسْتَقْتُمْ، وَزُجِرْتُمْ عَنِ الرِّذَائِلِ وَأَنْتُمْ فِي سُكْرِ
الْهَوَى مَا أَنْفَقْتُمْ، وَلَوْ حَاسَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَحَقَّقْتُمْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ بَغِيرٌ وَثِيقٌ، لَوْ
تَوَقَّعْتُمْ، فَاطْلُبُوا الْخَلَاصَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى فَقَدْ جَدَّ الطَّالِبُونَ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: الآية ٢٦].

وَأَسَفًا أَصِفْ وَأَصِفِّي وَيَسْرُبْ غَيْرِي، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ خَطِيئَةَ لَفْظِي، اللَّهُمَّ
سَدِّدْنَا فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْخَطَايَا وَالزَّلَلِ.

إِلَهِي ضَعْ فِي ضَعْفِي مِتَّةً، وَلَا تُبَدِّلْ مِنْكَ وَدْعْ فِي كَفِّي كَفًّا مِنْ غَيْرِكَ، وَلَا
تَبْدِلْ عَيْشَ الرُّوحِ بِجَحِيمِ حَرْصِ النَّفْسِ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ،
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّم
تَسْلِيمًا دَائِمًا كَثِيرًا كَثِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المَجْلِسُ السَّابِعُ عَشَرَ في قِصَّةِ مُوسَى والخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْعِلْمَ لِلْعُلَمَاءِ نَسَبًا، وَأَغْنَاهُمْ بِهِ وَإِنْ عَدِمُوا مَالًا
وَنَسَبًا، وَلَا أَجْلَهُ سَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ وَإِبْلِيسُ أَبِي، وَبِحِيلَةِ الْعِلْمِ اتَّكَأَ إِدْرِيسُ
فِي الْجَنَّةِ وَاجْتَبَى، وَلَطَلَبَهُ قَامَ الْكَلِيمُ وَيُوشَعُ وَانْتَصَبَا، فَسَارَا إِلَى أَنْ لَقِيَا فِي
سَفَرِهِمَا نَصَبًا، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِيَ حُقْبًا﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَدُومُ بِدَوَامِ الزَّمَانِ مَا هَبَّتِ الْجَنُوبُ وَصَبَا، وَأُصَلِّيَ عَلَى
رَسُولِهِ مُحَمَّدًا أَشْرَفِ الْخَلَائِقِ عَجَمًا وَعَرَبًا، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ الَّذِي أَنْفَقَ الْمَالَ
وَمَا زَالَ حَتَّى تَخْلَلَ بِالْعِبَا، وَعَلَى عُمَرَ جَدِيدِ الْجِدِّ فَمَا يَعْرِفُ لِعِبَا، وَعَلَى عُثْمَانَ
الَّذِي حَيَّيْتُهُ الشَّهَادَةَ فَقَالَ مَرْحَبًا، وَعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي مَا فَلَّ سَيْفُ شَجَاعَتِهِ قَطُّ سَبَا،
وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الْعَالِي نَسَبُهُ عَلَى جِبَالِ الشَّرَفِ وَالرُّبَا.

قال الله العظيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ
أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٠]، مَعْنَى الْكَلَامِ: اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ، إِذْ قَالَ
مُوسَى وَهُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ فَتَاهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ
يُلَازِمُهُ وَيَأْخُذُ عَنْهُ الْعِلْمَ وَيُخْدِمُهُ فِيهِ.

لا أزال أسيرُ حتَّى أبلغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، أي: مُلتَقَاهُمَا وهو الَّذِي وَعَدَهُ الله بِلِقَاءِ الْخَضِرِ فِيهِ. قال قتادة: هُوَ بَحْرُ فَارِسٍ وَبَحْرُ الرُّومِ وَهُمَا يَلْتَقِيَانِ، فَبَحْرُ الرُّومِ نَحْوَ الْمَغْرِبِ، وَبَحْرُ فَارِسَ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وفي اسمِ الْبَلَدِ الَّذِي بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ قولان؛ أَحَدُهُمَا: أَفْرِقِيَّةٌ، قاله أَبِي بَنْ كَعْبٍ. والثاني: طَنْجَةُ، قاله مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ: لَمَّا عَلَا أَشْرَفُ الْكَلِيمِ بِالتَّكْلِيمِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، وَلَمْ يَقُلْ فِيمَا أَعْلَمُ مَنْ صَعِدَ عَلَى مَنْصِبَةٍ أَنَا أَعْلَمُ أَنْزَلَ إِلَى دَرَجَةٍ ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾، يَا مَنْ يَرْتَقِي إِلَى مَرْتَبَةِ التَّكْلِيمِ أَنْزَلَ مَرْتَبَةَ التَّعْلِيمِ، فَابْتُلِيَ فِيمَا أَقْرَبَ بِهِ. وَأَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْخَضِرِ كَمَا يَقُومُ السَّلِيمُ بَيْنَ يَدَيِ الْأَعْلَمِ. قَالَ وَهْبٌ: اسْمُهُ الْيَسَعُ. وقال ابنُ الْمُبَارَكِ: إِرْمِيَا، وَهَلْ كَانَ نَبِيًّا فِيهِ قولان:

فَابْتِلَاءُ مُوسَى بِسُؤَالِ ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ [الكهف: الآية ٦٦]؟ فَتَلَقَّاهُ بِرَدٍّ: ﴿لَنْ﴾ [الكهف: الآية ٦٧] دَنَا إِلَى الْخَضِرِ لِلتَّعْلِيمِ فَلَفْظُهُ بِلَفْظِ ﴿لَنْ﴾ [الكهف: الآية ٦٧]، ثُمَّ زَادَهُ مِنْ زَادِ الرَّدِّ بِكَفٍّ ﴿وَكَيْفَ نَصِرُ﴾ [الكهف: الآية ٦٨]؟ فَلَمَّا سَامَحَهُ فِي نُوبَةِ السَّفِينَةِ قَالَ مُوسَى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ [الكهف: الآية ٧٦].

عَلِمَ أَنَّ الصُّحْبَةَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهَا فَوَقَعَ الشَّرْطُ مِنْ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ مِنْ مُوسَى لَا مِنِّي، وَقَدْ كُنْتُ أَنَا أُرَدْتُ ذَلِكَ؛ لِأَنِّي لَوْ صَحَبْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لَا تَفْضَحْتُ، لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنِّي أَنْ أُدَبِّ فِي ثَلَاثِ هَذِهِ ثَلَاثُ مَا بَقِيَ قَيْدُ فِي رَجُلٍ شَرَطَ الصُّحْبَةَ، وَوَجَّهَهُ بِالْعِتَابِ فِي كَرَّةِ الْغَلَامِ أَرَأَقَ مَاءَ الصُّحْبَةِ فِي حَالِ الْجِدَارِ ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: الآية ٧٨].

ثُمَّ فَسَّرَ لَهُ سِرَّ الْمُسْكِلِ، فَجَعَلَ يَشْرَحُ الْقَصَصَ فَصَلًّا فَصَلًّا يَقُولُ قَائِلٍ يَقُولُ: فَصَلًّا، وَكُلَّمَا ذَكَرَ أَضْلًا أَضْلًا لَمْ يَبْقَ لِمُوسَى عَيْنٌ تَرَاهُ أَضْلًا، وَكُلَّمَا سَلَ مِنْ حَدِّ الْعِتَابِ نَضْلًا صَاحَ لِسَانُ حَالِ مُوسَى: كَمْ فَصَلًّا: فَالْقَى تَفْسِيرَ الْأُمُورِ عَلَى الْكَلِيمِ، وَأَمَلَى وَالْقَدْرُ يَقُولُ هُوَ أَعْلَمُ أَمْ لَا؟ فَعَلِمَ مُوسَى وَيُوشَعُ أَيُّ عَبْدٍ، أَمَّا مِنْذُ ابْتَدَأَ الشَّرْحَ بـ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ [الكهف: الآية ٧٩].

ثُمَّ أَخَذَ لِسَانَ الْعِتَابِ بِذِكْرِ مَنْسِيٍّ مُوسَى أَتُنْكَرُ خَرَقَ السَّفِينَةِ لِظَاهِرِ إِفْسَادِ
نَظْمِ ضِمْنِهِ صَلَاحٌ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٩]، أَوْ تُنْكَرُ إِنْثِلَافَ
شَخْصٍ دَنِيٍّ لِإِنْبَاءِ دِينِ شَخْصَيْنِ؟ أَوْ كَرِهْتَ إِقَامَةَ الْجِدَارِ لِشُحِّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ
بِالْقَرَى؟ أَقَارَنْتِ أَنْتِ مِنَ الْأَصْفِيَاءِ مُعَامَلَةَ الْبُخْلَاءِ يَا مَنْ عَامَلَهُ بِالْبُخْلِ؟ أَمَّا
تَلَمَّحْتَ سِرَّ صِلٍ مَنْ قَطَعَكَ؟ لَقَدْ أَنْكَرْتَ مَا جَرَى لَكَ مِثْلُهُ فَضُرِبَ لَكَ هَذَا
مَثَلًا، حَدَّثْتَ يَوْمَ السَّفِينَةِ مِنَ الْعَرَقِ فَصِحَتْ بِإِنْكَارِ ﴿أَخْرَقَهَا﴾ [الكهف: الآية ٧١]؟

أَنْسَيْتِ يَوْمَ ﴿فَكَالَيْهِ فِي أَلْيَمٍ﴾ [القصص: الآية ٧]؟ وَكَأَنَّكَ لَا تَذْكُرُ انْفِلَاقَ
الْبَحْرِ لَكَ، أَنْكَرْتَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا بغيرِ نَفْسٍ؟ أَنْسَيْتِ يَوْمَ ﴿فَوَكَّزَهُ مُوسَى﴾ [القصص:
الآية ١٥] نَهَيْتِ عَنْ عَمَلٍ بِلاَ أَجْرِ؟ أَنْسَيْتِ يَوْمَ ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القصص: الآية ٢٤]؟

فَلَمَّا أَبَانَ الْبَيَانَ خَرَجَ الْخَضِرُ مِنْ دَارِ الدَّعْوَى، وَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ مِلْكِ
التَّصَرُّفِ، وَأَحَالَ الْحَالَ إِلَى مَنْ لَا يَحُولُ ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ [الكهف: الآية ٨٢].

فَحِينَئِذٍ أَيْقَنَ التَّلْمِيزُ بِالتَّأْدِيبِ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ حَرَّصَتْ عَلَى جَمْعِ رَحْلِ
الرَّحِيلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَعَلِمَتْ كَيْفِيَّةَ الْأَدَبِ فِي كَفَّةِ كَفِّ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى
الْعَالِمِ، وَأَشَارَتْ إِلَى الْعَالِمِ بِنَفْيِ دَعْوَى الْإِسْتِفْلَالِ فَصَاحَ نَصِيحُهَا بِذِي
الْلُبِّ: يَا صَاحِ دَعْوَاكَ فَعَلَى دَعْوَى كَلِيمٍ لِيْنِمَ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عَلِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٧٦]. شعر:

أَظْلُبِ الْعِلْمَ يَا فَتَى إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالطَّلَبِ
رَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَرَأَ وَدَعَا لِلَّذِي كَتَبَ
لَوْ قَرُبَ الدُّرُّ عَلَى طَلَابِهِ
مَا لَجَجَ الْغَائِضُ فِي طَلَابِهِ
لَوْ أَقَامَ لَأَزِمَ مَا أَضْدَافُهُ
لَمْ يَكُنِ التَّيْجَانُ فِي حِسَابِهِ
مَا لُوْلُو الْبَحْرِ وَلَا مَرْجَانُهُ
إِلَّا وَرَاءَ الْهَوْلِ مِنْ عُبابِهِ
مَنْ يَعْشَقِ الْحَسَنَاءَ يَلْقَى عِنْدَهَا
مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ مِنْ أَحْبَابِهِ

قال رسول الله ﷺ: «مَا سَلَكَ عَبْدٌ طَرِيقًا إِلَى الْعِلْمِ إِلَّا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قال أَبُو الدَّرْدَاءِ: الْعَالِمُ أَشَدُّ عَلَى إِبْلِيسَ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، وَلَوْ أَنَّ عَابِدًا مَاتَ فِي الْإِسْلَامِ مَا نَقَصَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا شَخْصُهُ، وَلَوْ أَنَّ عَالِمًا مَاتَ لَفَقَدْتُهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَمَا نَقَصَ عَالِمٌ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا تَثَلَّمَ فِي الْإِسْلَامِ ثُلْمَةٌ لَا تُسَدُّ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضَاءً لَهُ بِمَا يَصْنَعُ، وَلِمَدَادُ جَرَتْ بِهِ أَقْلَامُ الْعُلَمَاءِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ. وَلَيُودَنَّ رِجَالٌ قُبِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَبْعَثَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُلَمَاءَ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ فَضْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ. أَلَا وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دَرَاهِمَ وَلَا دَنَانِيرَ، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَصَابَ عِلْمًا فَقَدْ أَصَابَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ تَوْأَمَانِ أُمُّهُمَا عُלُوُّ الْهِمَّةِ.

أَيُّهَا الشَّابُّ: جَوِّهْ نَفْسَكَ بِدِرَاسَةِ الْعِلْمِ وَحُلِّهَا بِحِلْيَةِ الْعَمَلِ، فَإِنْ قِيلَتْ نَضِجِي لَمْ تَصْلُحْ إِلَّا لِصَدْرِ سَرِيرٍ أَوْ لِدُرَّةٍ مَنِيرٍ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ لَمْ يَذَرْ مَا مَعَهُ.

أَيُّهَا الْعَالِمُ: تَثَبَّتْ عَلَى الْمُبْتَدِي «وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ» [سبأ: الآية ١١] فَالْعَالِمُ رُسُوحٌ وَالْمُتَعَلِّمُ قَلِقٌ. وَيَا أَيُّهَا الطَّالِبُ: تَوَاضَعْ فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ الثَّرَابَ لَمَّا ذَلَّ لِأَخْمَصِ الْقَدَمَيْنِ صَارَ طَهُورًا لِلْوَجْهِ، «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ» [النساء: الآية ٤٣]، دُمَّ عَلَى حُضُورِ الْمَجْلِسِ. فَالطِّفْلُ يَحْتَاجُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ إِلَى الرِّضَاعِ، فَإِذَا صَارَ رَجُلًا صَبَرَ عَلَى الْفِطَامِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ طَرِيقَ الْفَضَائِلِ مَشْحُونَةٌ بِالْقَضَاءِ لِيَرْجِعَ عَنْهَا مُحِثُّ الْعِزِّ. شعر:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لِعَظَّمَا
أَغْرِسُهُ عِزًّا وَأَجْنِيهِ ذُلَّةً إِذَا فَاتَّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَسْلَمَا

إِخْوَانِي، مَنْ ذَبَحَ حَنْجَرَةَ الطَّمَعِ فِي الدُّنْيَا بِخَنْجَرِ الْبَاسِ أَعْتَقَ الْقَلْبَ مِنْ

أَسِرِ الرَّقْ، مَنْ دَفَنَ خَنْدَقَ الْحَرَصِ بِشُكْرِ الْقَنَاعَةِ ظَفَرَ بِكَيْمِيَاءِ السَّعَادَةِ، مَنْ قَطَعَ
فُضُولَ الْكَلَامِ بِشُفْرَةِ الصَّمْتِ وَجَدَ عَذُوبَةَ الرَّاحَةِ فِي الْقَلْبِ، مَنْ رَكِبَ مَرْكَبَ
الْخَوْفِ جَرَتْ بِهِ رَجَاءُ الْهُدَى إِلَى أَرْجَاءِ النَّجَاةِ. شعر:

قُرَّةَ عَيْنِي أَنَا الْغَرِيقُ فَخُذِي أَوْجَشَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ الزَّلَلُ
قُرَّةَ عَيْنِي أَنَا الْغَرِيقُ فَخُذْ كَفَّ غَرِيقٍ عَلَيْكَ يَتَّكِلُ

أَيُّهَا الْمُرِيدُ: قُلْ لِقَلْبِكَ الرَّاعِي فِي رِيَاضِ الْهُدَى احْذَرْ مِنْ لَفْتَةٍ إِلَى خَضِرَاءِ
الدَّمَنِ، فَمَرَعَاكَ أَطِيبُ وَشَرَابُكَ أَعَذْبُ، ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُّهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ
الْضَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: الآية ٣٢]. يَا هَذَا، النَّفُوسُ كَالْأَسْرَى فِي سُجُونِ الْأَبْدَانِ فَعَلَّهَا
فِي النَّزَاهَةِ عَنْ أَذْنَانِ الْأَجْسَادِ، لَعَلَّهَا تَبْقَى عَلَى شَرَفِهَا الْأَرْوَاحُ، طُيُورُ سَمَاوِيَّةٍ
حُبِسَتْ فِي أَقْفَاصِ شَهَوَائِيَّةٍ.

إِخْوَانِي، الْمُحَرَّمَاتُ حَرَمٌ، وَنَظَرُ الْمَمْلُوكِ إِلَى حَرَمِ الْمَالِكِ مِنْ أَفْبَحِ
الْجِنَايَةِ، مَنْ دَقَّ فِي الْيَوْمِ نَظْرُهُ جَلَّ فِي الْقِيَامَةِ خَطَرُهُ. وينشد:

لَا زَمْتُ بَابَكَ مُشْتَقًا وَلِي أَمَلٌ فَهَلْ يُبَلِّغُنِي شَوْقِي إِلَى أَمَلِي
وَحَقَّ عِرْكَ لَا خَلُوتُ مُنْصَرِّفًا عَنْهُ إِلَى أَنْ يُوَافِي الْمَوْتَ بِالْأَجَلِ

يَا عَاصِي: أَتَعَبْتَ الْكَاتِبَ وَسَوَّدْتَ الدَّفَاتِيرَ، يَا مَطْلُوبًا أَيْنَ الْفِرَارُ فَقَدْ
أَذْرَكَ الطَّالِبُ لَا تَتَّقِ بَوْعِدِ الْأَمَلِ وَعُدُّ الْأَمَلِ كَاذِبٌ، عَصَفْتَ رِيَاخَ الذُّنُوبِ
فَأَطْفَأْتَ دُبَالَهَ الْقُلُوبِ، أَوَاهُ لِعَاصٍ مُذْنِبٍ مَحْجُوبٍ مُعَذِّبٍ مَكْرُوبٍ، يَا عَاصِي:
الْجَنَّةُ فَوْقَكَ تُزْخَرَفُ، وَالنَّارُ تَحْتَكَ تُوقَدُ، وَالْقَبْرُ عَنْ قَلِيلٍ يُحْفَرُ، وَرُبَّمَا كَانَ
كَفْنُكَ الْيَوْمَ يُغَزَلُ وَأَنْتَ عَلَى الْمَعَاصِي دَائِمٌ، أَيْقِظَانِ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ، يَا
مَنْ بَلَغَ عُمُرُهُ سِتِّينَ قَدْ دَرَنَ جِسْمُ قَلْبِكَ بِالذُّنُوبِ؟ يَا مَنْ قَلْبُهُ أَعْمَى بَيْنَ الْقُلُوبِ،
يَا عَاصِي: إِذَا رَأَيْتَ مُذْنِبًا قَدْ نَهَضَ فَاتَّبِعْ إِثْرَهُ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ يَسْتَحْيِي مِنْ رَدِّ
الطُّفْلِيلِيِّ إِلَى كَمِ هَذَا التَّأَخُّرِ. وَاعْجَبَا بِوَمَةِ مَيِّتِكَ تَتَوَخَّعُ فِي خَرَابِ بَدَنِكَ عَلَى
أَطْلَالِ عُمُرِكَ. أَبْقِيَ اللَّهُوَ عَلَى بَعْدِ الْكِبَرِ مَوْضِعٌ؟ كَلَّا لِكُلِّ سِنٍّ سَنَةٌ. شعر:

طَوِيلُ الْعُمُرِ فِي الدُّنْيَا قَصِيرُ وَغَايَةُ كُلِّ مَا يَفْنَى يَسِيرُ
وَمَا أَحَدٌ عَلَى الْأَيَّامِ يَبْقَى وَكُلُّ سَلَامَةٍ فِيهَا غُرُورُ

يَحُثُّ بِنَا الْمَسِيرُ إِلَى الْمَنَايَا تُخَالُ بِنَا لِسُرْعَتِهَا تَطِيرُ
وَأَحْسَنُ حَالَةِ الْإِنْسَانِ فِيهَا كِفَافُ الْعَيْشِ وَالْعَمَلُ الْكَثِيرُ

يَا هَذَا لَيْلُ الْهَوَى مُظْلِمٌ، فَأَوْقَدْ مِصْبَاحَ الْفِكْرِ تَرَى الْعَوَاقِبَ، يَا مَنْ لَمَعَ لَهُ
سَرَابُ الْأَمَلِ فَبَدَّدَ مَاءَ الْإِحْتِيَاظِ، أَتَرَكَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْأَمَانِي خِمَارٌ؟ وَيَحَاكَ مَتَى
تَلْمَحُ الْعَوَاقِبَ فَتَرَى نَفْعَ الصَّبْرِ؟ أَتَمْلِكُ أَنْ تَقْبِضَ يَدَكَ عِنْدَ مُحَرَّمٍ، لِتَبْسُطَ لِسَانَكَ
فِي سُؤَالٍ ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥]. غَضُّ الْبَصَرِ تَجْتَلِبُ
لِلْقَلْبِ النُّورَ وَإِطْلَاقُهُ يُوقِدُ فِي الْقَوَادِ النَّارَ؛ لِأَنَّهُ عُلُقَةٌ لِنَارِ الْهَوَى، وَإِنَّهُ لَسَيْفٌ
يَقَعُ فِي الضَّارِبِ. شعر:

يَا أَيُّهَا الْخَالِي بِلَذَاتِهِ ابْكِ عَلَى الْمَوْتِ وَغُصَّاتِهِ
وَمَضْرَعٍ مِنْهُ عَلَى غِرَّةٍ وَعَلَّةٍ مِنْ بَعْضِ عِلَلَاتِهِ
وَجَاهِلًا عَنْ قُرْبِ سِيقَانِهِ فَكَيْفَ يَعْبُرُ بِهِ سَاعَاتِهِ
فَكَيْفَ تَغْتَرُّ بِهِ سَاعَةٌ لَعَلَّهَا وَقْتُ مُوَافَاتِهِ
مَا لَكَ أَصْبَحْتَ بِهِ مُوقِنًا وَجَاهِلًا عَنْ قُرْبِ مِيقَاتِهِ
كَمْ مُضِيحٍ صَارَ بِهِ آمِنًا قَدْ غَيَّرَ الْإِمْسَاءُ حَالَاتِهِ

سُبْحَانَ مَنْ يُرْسِلَ رِيَّاحَ الْمَوَاعِظِ فَتُثِيرُ فِي قُلُوبِ الْمُتَيَقِّظِينَ غَيْمَ الْعَمِّ عَلَى
مَا سَلَفَ فَتَسُوقُهُ إِلَى بِلَدِ الطَّمَعِ الْمُجْذِبِ بِرَعْدِ الْوَعْدِ وَبَرْقِ الْخَشْيَةِ، فَتَرْقَى دُمُوعُ
الْأَحْزَانِ مِنْ قَعْرِ بَحْرِ الْقَلْبِ إِلَى أَوْجِ الرَّأْسِ فَتَسِيلُ فِي مِيَازِينِ الشُّبُورِ عَلَى
سُطُوحِ الْوَجَنَاتِ، وَإِذَا أَغْشَبَ السَّرُّ يَهْتَزُّ فَرَحًا بِالْإِبَانَةِ. وينشد:

وَمَا تَطَابَقَتِ الْأَجْفَانُ عَنْ سِنَةٍ إِلَّا وَجَدْتُكَ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْحَدَقِ
هَلْ يَنَامُ حَزِينٌ مُوَجَّعٌ قَلْبُ أَجْفَانُهُ وَكُلَّتْ بِالسُّهْدِ وَالْأَرْقِ
شَعَلَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا وَأَنْتَ وَالرُّوحُ شَيْءٌ غَيْرُ مُفْتَرَقِ
فَكَمْ تُعَذِّبُهَا بِالصَّدِّ يَا أَمَلِي أَرْحَمَ بَقِيَّةَ مَا فِيهَا مِنَ الرَّمَقِ

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ: إِلَى كَمْ أَهْزُ أَشْجَارَ الْقُلُوبِ فِي رَبِيعِ التَّفَكُّرِ بِرِيحِ الْمَوَاعِظِ
وَمَا تَسْقُطُ ثَمَرَةٌ مِنْ فَنَنِ النَّدَمِ؟ يَا مَنْ خَيَّمَ الْهَوَى فِي صَحْرَاءِ قَلْبِهِ أَقْلَعَ

الْأُطْنَابَ فَقَدْ ضُرِبَ بُوقُ الرَّجُلِ.

أَمَا تَسْمَعُ صَوْتَ السَّوْطِ فِي طَرِيقِ الْأَمَلِ؟ أَمَا تَرَى عَجَلَةَ الشَّيْبِ وَفُزْبَ الْأَجَلِ؟ الشَّيْبُ أَذَانٌ، وَالْمَوْتُ إِقَامَةٌ، أَوَلَسْتَ عَلَى الطَّهَارَةِ؟ وَيَحَكَ عَجَلُ تَطْهِيرِ النَّفْسِ.

أَمَا خَوْفَنِي أَنْ يَكُونَ الْكَدِرُ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ الْهَبَاتُ ذَاهِبَاتٌ، وَالْمَنَايَا سَالِيَاتٌ. الدُّنْيَا وَإِنْ أَتَتْ فَاتَتْ وَأَنْتَ تَعْمُرُ الدُّنْيَا بِجِسْمٍ عَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدِمُ إِذَا ذَهَبَ مِنْكَ ذَهَبٌ ذَهَبَتْ تَبْكِي عَلَيْهِ، وَحُكْمُ الْفَنَاءِ دَائِمٌ فِي قَصْرِ ثَوْبِ الْعُمَرِ وَمَا تُحِسُّ بِهِ الْقَلْبَ غَائِبٌ فَمَنْ تُعَاتِبُ. شعر:

شَكُونَا إِلَى أَحْبَابِنَا طُولَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا
وَذَلِكَ بِأَنَّ النُّومَ يَغْشَى عُيُونَهُمْ وَنَحْنُ فَلَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمُ أَغْيِنَا
شعر:

الشَّيْبُ مِثْلُ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا فَغَيْبُهَا فِي وَقْتِهَا مُتَوَقَّعٌ
وَكَذَا الْمَنِيَّةُ لِلشُّيُوخِ بِمَرَضٍ عَمَّا قَلِيلٍ كَأَسْهَا يَتَجَرَّعُ

يَا هَذَا مَا كَانَ فِي مَا مَضَى عُمْرُكَ وَزَمَانُكَ مِنَ اللَّعِبِ مَا كَفَاكَ؟ وَلَا فِي مَا رَأَيْتَ مِنْ تَغْيِيرِ أَحْوَالِكَ مَا وَعَظُكَ وَنَهَاكَ، ذَهَبَ الْعُمْرُ فِي كَسْبِ مَا يَضُرُّ وَأَتَيْتَ الْآخِرَةَ بِمَا لَا يَسُرُّ.

حكاية:

قال بعضُ السَّادَةِ الصَّالِحِينَ: كَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ كَثِيرُ الْغَرَّةِ شَدِيدُ الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الْمَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَنْتَ فُلَانٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: لَعَلَّكَ اسْتَرَحْتَ مِنْ تَعَبِكَ وَسَكَنْتَ مِنْ نَصَبِكَ؟ فَقَالَ: هِيَاتَ، إِنَّمَا نَقُلْتُ مِنْ تَعَبٍ إِلَى تَعَبٍ، كُنْتُ فِي تَعَبِ الْأَمَالِ، وَأَنَا الْيَوْمَ فِي تَعَبِ الْمَحَاسَبَةِ وَالسُّؤَالِ وَانْتِظَارِ حَمْلِ الْمَقَامِ وَالْأَغْلَالِ، فَغَرَّقَ أَحْوَالِي بِحَالِي وَحَدَّثَنِي مَوْقِفِي وَسُؤَالِي. فَأَنْشَدْتُهُ:

مَا زِلْتَ فِي ضَرْتِكَ كَابِدُهُ حَتَّى قَطَعْتَ الْعُمْرَ خُسْرَانًا

وَأَتَيْتَ بِالْأَوْزَارِ تَحْمِلُهَا لَا كَانَ مَا كَانَ مِنْكَ لَا كَانَ
وَتَرَكْتَ أَحْزَانًا بُلِيَّتَ بِهَا وَرَأَيْتَ فِي عُقْبَاكَ أَحْزَانًا
فَعَسَى الْكَرِيمُ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَيُعِيدُ ذَلِكَ السُّؤَالَ إِحْسَانًا

إخواني، ابكوا على ساعة لا بُدَّ منها، أَمَا تَرَوْنَ الْمَوْتَ قَدْ أَفْنَى الْأَمَمَ
الْمَاضِيَةَ؟ وَهَدَمَ الْقُصُورَ الْعَالِيَةَ، وَعَظَلَ عِشَارَهُمْ وَخَرَبَ دِيَارَهُمْ، قَدْ صَارُوا فِي
الْقُبُورِ رَمِيمًا، وَلَقُوا اللَّهَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْتِ أَمْرًا عَظِيمًا.

إخواني، الموتُ يَقْصِمُ الْأَصْلَابَ، وَيُذِلُّ الرِّقَابَ، وَيَرُدُّ كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى
التُّرَابِ، فَيُقَرَّبُ الْمُؤْمِنَ إِلَى الْخَيْرِ وَحُسْنِ الْمَآبِ، وَيُسَوِّقُ الْفَاجِرَ إِلَى أَلِيمِ
الْعَذَابِ، مَسَاكِينُ أَهْلِ الذُّنُوبِ لَا بِالْقُرْآنِ عَمِلُوا، وَلَا فِي الْمَوْتِ تَفَكَّرُوا.

إخواني، أَمَا تَكُونُونَ مِنَ الْمَوْتِ عَلَى حَذَرٍ. وينشد:

جَرَرْتَ أَيَّامَ الْبَطَالَةِ لَاهِيًا كَأَنَّكَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْكَ ذُنُوبُ
وَأَمْلَيْتَ كِتَابَ الشُّمَالِ سَفَاهَةً بِكَثْرَةِ مَا تَأْتِي وَلَسْتَ تَتُوبُ
وَمَهْمَا يَغِبْ عَنْكَ الْحَمَامُ لِمُدَّةٍ سَتَبْلُغُهُ حَتْمًا وَأَنْتَ كَغَيْبُ
فَقُلْ لِي إِذَا وَافَى عَلَى غَيْرِ أَهْبَةٍ بِأَيِّ جَوَابٍ إِذَا دُعِيتَ تُجِيبُ

يَا هَذَا، أَصْدُقُ فِي بَاطِنِكَ تَرَى مَا تُحِبُّ فِي ظَاهِرِكَ، إِذَا أَرَدْتَ الْعُلُوَّ
فَارْتَقِ دَرَجَةَ التَّقْوَى، وَإِنْ شِئْتَ الْعِزَّ فَضَعْ جَبْهَةَ التَّوَاضُعِ، وَإِنْ أَثَرْتَ الرَّئَاسَةَ
فَارْفَعْ قَوَاعِدَ الْإِخْلَاصِ. لَمَّا سَلَّمَ الْخَلِيلُ جَاءَ لُطْفٌ ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾
[الأنبياء: الآية ٦٩]. وَاسْتَسَلَّمَ الذَّبِيحُ فَأَتَى رِفْقٌ ﴿وَفَدَيْنَهُ﴾ [الصافات: الآية ١٠٧].

إخواني، وينشد:

مِنْ أَجْلِ هَوَاكُم هَوَيْتُ الْعِشْقَا قَلْبِي كَلِفٌ وَدَمْعَتِي مَا تَرَقَا
فِي حُبِّكُمْ مَا يَهُونُ مَا قَدْ أَلْقَا مَا يَظْفَرُ بِالنَّعِيمِ مَنْ لَا يَشْقَا
يَا هَذَا، لَوْ شَرَحْتَ صَدْرَكَ لِسَمَاعِ مَا قُلْنَا لَا سَتَرَحْتَ وَاسْتَرَحْنَا

اللَّهُمَّ خَلِّصْنَا مِنْ قُبْحِ التَّصَنُّعِ وَالِدَّعْوَى، وَسَلِّمْنَا مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَالْبَلْوَى،

وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِحُسْنِ الْخَلَاصِ وَالتَّقْوَى، فَنَحْنُ الْعَبِيدُ وَأَنْتَ الْمَوْلَى.

اللَّهُمَّ تَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِذَلِكَ، وَنَجِّنَا مِنْ مَصَارِعِ الْعَطَبِ وَالْمَهَالِكِ، وَاسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ الْجَمِيلِ، وَجُدْ عَلَيْنَا بِفَضْلِكَ الْجَزِيلِ، وَأَنْصُرْنَا عَلَى عَدُوِّنَا فِي كُلِّ مَسْلَكٍ وَسَبِيلٍ، وَاجْعَلْ كَلَامَنَا هَذَا خَالِصًا لَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَاصْرِفْ عَنَّا بَعْفُوكَ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَطَيِّبْ وَقْتَنَا بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، مَا هَبَّ نَسِيمٌ وَسَجَّعَ وُزُقٌ بِصَوْتِ رَجِيمٍ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا كَثِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المَجْلِسُ الثَّامِنَ عَشَرَ في قِصَّةِ بُلْعَامِ بْنِ بَاعُورَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِذَا أَلْطَفَ أَعَانَ، وَإِذَا عَطَفَ صَانَ، أَكْرَمَ مَنْ شَاءَ كَمَا شَاءَ
وَأَهَانَ، وَأَخْرَجَ الْخَلِيلَ مِنْ أَرْزٍ وَمِنْ نُوحٍ كَنْعَانَ، يُمِيتُ وَيُحْيِي وَيُغْنِي وَيُبْقِي
﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية ٢٩].

يُزَيِّنُ بِمَوْهَبَةِ الْعِلْمِ فَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِهِ شَأْنٌ. خَلَعَ خِلْعَةَ الْعِلْمِ عَلَى بُلْعَامَ فَلَمْ
يَصْنَعْهَا. وَمَالَ بِهِوَاهُ إِلَى مَا عَنْهُ يَنْهَى، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ
مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥].

أَحْمَدُهُ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي انْشَقَّ لَيْلَةٌ
وَلَادَتْهُ الْإِنْيَوَانُ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ أَوَّلِ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَعَلَى عُمَرَ الْمَوْصُوفِ
بِالْعَدْلِ وَكَذَلِكَ كَانَ، وَعَلَى التَّقِيِّ الْحَبِيبِ عُثْمَانَ، وَعَلَى عَلِيٍّ سَيِّدِ الْعُلَمَاءِ
وَالشُّجْعَانِ، وَعَلَى عَمِّهِ الْمُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ التُّهْتَانُ.

أَيُّهَا الْمُتَعَبِّدُ، خَفِ مِنَ الْفِتَنِ وَلَا تَأْمَنْ، فَكَمْ أُخِذَ آمِنٌ فِي مَأْمَنِ، إِنَّهُ لَمْ
يَنْحُ مِنْ غَضَامِصِ بَحْرِ الْفِتَنِ الْأَعْظَمِ، حَافِظُ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ، بَلْ عَامَ بُلْعَامَ وَإِنْ
عَامَ، فَكَمْ نَمَسِيَ الْإِنْعَامَ، رَقَلَ فِي حُلُلِ النَّعَمِ كَالنَّعَمِ، غَافِلًا لَا يَتَعَامَى عَنِ
الْمُنْعَمِ، كَانَتْ بَيْتُهُ بَنَّةً تَعْبُدُهُ عَلَى رَمْلِ الرُّبَا، فَجَرَتْ تَحْتَهَا أَنْهَارُ التَّجَرِبَةِ فَانْهَارَ
بُنْيَانُهَا فَخَرَّتْ، كَانَ عَلَى دِينَارٍ دِينِهِ وَرَقَّةٌ رَقَّتْ، فَأَعْجَبَتْ نَظْرُهُ نَوَاطِرَ النَّاطِرِينَ.

فلما حَكَّهُ الْمُنتَقِدُ عَلَى حَجَرِ الْحِجْرِ افْتَضَحَ بَيْنَ أَهْلِ الْحِجَى، وَكَشَفَ بِالْمَعْصِيَةِ الْحِجَابَ، كَانَ ظَاهِرُهُ الْتِقَاءُ الثَّقَى وَبَاطِنُهُ بَاطِئُهُ بِحَمْرِ الْهَوَى، فَلَقَدْ جَنَى الْخَبَائِثُ فِي طَيِّ الطَّيِّبَاتِ، فَلَمَّا أَرَادَ الْمُقَدَّرُ تَنْبِيَهُ جَارِهِ عَلَى جَوْرِهِ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَدَرِ بِهَتِكِ سِتْرِهِ، فَأَتَاهُ وَهُوَ فِي عَقَرِ عَقَارِ الْهَوَى يُعَاقِرُ عَقَارَ الرِّيَاءِ، وَقَدْ رُفِعَتْ لَهُ عَقِيرَتُهَا عَاقِرَ الْفَهْمِ إِلَى أَنْ عَقَرَ لَعَقَرٍ قَلْبِهِ فَعَادَ عَقِيرًا، فَدَعَاهُ إِلَى صَفِّ صَفْصَفِ الْهَوَى لِلدَّعْوَى، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ لِإِضْرَارِهِ صَرَصَرَ الْعُجْبِ، فَمَزَقَتْ جِلْبَابَ التَّعَبِدِ، فَصَيَّرَهُ عَصْفَهَا عَصْفًا فَانْكَشَفَ عَوَارُ عَوْرَتِهِ فَعَوَى، فَإِذَا هُوَ كَلْبٌ عَقُورٌ وَفَصْهُ أَفْصَا بِهِ أَنَّ الْقَدَرَ سَاقَ الْكَلِيمِ إِلَى مُحَارَبَةٍ فُسَاقٍ بَلَدِهِ، وَكَانُوا كُفَّارًا.

وكان بلعام مُجَابَ الدَّعْوَةِ، فَأَتَاهُ قَوْمُهُ فَقَالُوا: هَذَا مُوسَى قَدْ جَاءَ يُخْرِجُنَا مِنْ بِلَادِنَا وَيَقْتُلُنَا، وَيَحْلُلُهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنَحْنُ قَوْمُكَ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ. فقال: وَيَلِكُمْ، نَبِيُّ اللَّهِ وَمَعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ فَكَيْفَ أَدْعُو عَلَيْهِمْ؟ فَلَمْ يَزَالُوا يَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى افْتَتِنَ، فَرَكِبَ حِمَارَهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى عَسْكَرِ مُوسَى، فَمَا سَارَتْ إِلَّا الْقَلِيلَ وَوَقَفَتْ لِيَقِفَ سِيرَ عَزْمِهِ فَأَهْوَى يَضْرِبُهَا حَتَّى أَصْرَبَهَا، فَقَامَتْ فِي الْمَحَجَّةِ تَتَكَلَّمُ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَقَالَتْ: وَيَحَكَ يَا بَلْعَامُ، أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَلَا تَرَى الْمَلَائِكَةَ أَمَامِي تَرُدُّنِي؟ أَمَا تَرَى نَبِيَّ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ؟ فَجَدَّ فِي ضَرْبِهَا فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى جَعَلَ لَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ إِلَّا صُرِفَ بِهِ لِسَانُهُ إِلَى قَوْمِهِ، وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صُرِفَ لِسَانُهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا أَنَّهُ دَعَا أَنْ لَا يَدْخُلَ مُوسَى الْمَدِينَةَ فَوَقَّعُوا فِي النَّيِّهِ.

فقال مُوسَى: يَا رَبِّ كَمَا سَمِعْتَ دُعَاءَهُ عَلَيَّ فَاسْمَعْ دُعَائِي عَلَيْهِ، فَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْزِعَ مِنْهُ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ، فَنَزَعَ مِنْهُ وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الْآنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمَكْرُ وَالْحِيلَةُ.

جَمَلُوا النِّسَاءَ وَأَعْطَوْهُنَّ السَّلْعَ، وَأَرْسَلُوهُنَّ إِلَى الْعَسْكَرِ يَبْعُنَهَا، وَمُرُوهُنَّ أَنْ لَا تَمْنَعَ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا مِنْ أَرَادَهَا، فَإِنَّهُ إِنْ زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ كَفَيْتُمُوهُمْ، ففَعَلُوا فَوَقَعَ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى امْرَأَةٍ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ الطَّاغُونَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَئِذٍ فَهَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا فِي السَّاعَةِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خَرَجَ مِنَ الْعِلْمِ ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: أَدْرَكَهُ ﴿فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيتِ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥] يَعْنِي الضَّالِّينَ.

قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ في هَاءِ الْكِنَايَةِ قَوْلَانِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا تَعُودُ إِلَى الْإِنْسَانِ الْمَذْكُورِ، قَالَهُ الْجُمْهُورُ.

والثاني: أَنَّهَا عَلَى الْكُفْرِ بِالْآيَاتِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ عَنِ الْكُفْرِ بِآيَاتِنَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: رَكَنَ إِلَى الدُّنْيَا وَسَكَنَ، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦] أَي: انْقَادَ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ الْهَوَى.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْعِلْمُ يَضُرُّكَ إِذَا لَمْ يَنْفَعَكَ، وَكَتَبَ حَكِيمٌ إِلَى حَكِيمٍ: يَا أَخِي إِنْ أُوتِيتَ عِلْمًا فَلَا تُدْنِسْ عِلْمَكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ فَتَبْقَى فِي الظُّلْمَةِ يَوْمَ يَسْعَى أَهْلُ الْعِلْمِ بِنُورٍ عَلَيْهِمْ.

وَكَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ، مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ الدُّفْلِيِّ يُعْجِبُ وَرَقُهُ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَيَقْتُلُ طَعْمُهُ مَنْ أَكَلَهُ، كَلَامُكُمْ دَوَاءٌ يُبْرِئُ الدَّاءَ، وَأَعْمَالُكُمْ دَاءٌ لَا يَقْبَلُ الدَّوَاءَ.

الْحِكْمَةُ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ، وَلَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آذَانِكُمْ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ، ثُمَّ لَا تَعِيهَا قُلُوبُكُمْ.

يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُخْبِرَ بِهِ وَلَا يَطْلُبُهُ لِيَعْمَلَ بِهِ. الْعِلْمُ فَوْقَ رُؤُوسِكُمْ، وَالْعَمَلُ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ فَلَا أُحْرَارَ كِرَامَ، وَلَا عَبِيدَ أَتْقِيَاءَ.

إِخْوَانِي، لَوْ فَتَحْتُمْ أَبْصَارَ الْبَصَائِرِ لَرَأَيْتُمْ الْمُذْنِبِينَ قَدْ طُمِسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، بَاغُوا الْبَاقِيَ بِالْفَانِي ﴿فَمَا رِيحَتْ يَحَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٦]، يُغْلِقُونَ الْأَبْوَابَ وَيَسْدُلُونَ الْحِجَابَ وَيُبَارِزُونَ الْمَلِكَ الْوَهَّابَ، أَمَا سَمِعُوا فِي الْكِتَابِ الْعِتَابَ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٠٨]، وَأَخْجَلَتْهُمْ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾، ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾ [المجادلة: الآية ٦]، فَحِينَئِذٍ

يَبْكُونَ وَلَا يُرْحَمُونَ. شعر:

لَوْ بَكَتْ عَيْنَاكَ يَا هَذَا دَمًا مَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْنَا قَدَمًا
كَيْفَ يَصْفُوكَ وَدُّ بَعْدَمَا نَشَرَ الْعُذْرُ عَلَيْكَ الْعَلَمَا
نُحْ عَلَيْنَا أَسَفًا أَوْ لَا تَنْحُ وَافْرِعِ السَّنَّ عَلَيْنَا نَدَمًا
إِنَّمَا يَصْفُو وَدَادِي لَامِرِي حَفِظَ الْعَهْدَ وَرَاعَى الذُّمَمَا
لَوْ أَرَدْنَاكَ لَنَا مَا فَتَنَّا أَوْ وَصَلْنَا حَبْلَنَا مَا انْصَرَمَا
مَا رَأَيْنَا مُنْصِفًا عَامِلُهُ مُنْصِفٌ فِي صَفْقَةٍ فَاخْتَصَمَا

يَا حَسْرَةَ الْعَاصِينَ ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: الآية ١٣]،
وَيَا حَسْرَةَ الْمُذْنِبِينَ يَوْمَ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتُ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ [الشورى: الآية ٤٥]، يَا
عَاكِفِينَ عَلَى مَرَابِلِ الْهَوَىٰ ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: الآية ٢٥].

نَجَائِبُ السَّبِيلِ قَدْ أُقِيمَتْ عَلَى السَّبِيلِ تَحْمِلُ الْمُتَقَطِّعِينَ بِلَا أَجْرِ فَيَتَقَاعِدُونَ
وَلَا عُذْرَ ﴿يَدْعُوكُمْ لِعِفْرِ لَكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]، لَيْتَهُمْ تَرَكُوا عُرَاءَ حِينَ قُطِعَتْ
لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ، لَيْتَهُمْ عَدِمُوا الْقُرْشَ وَالْغَطَاءَ حِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ، وَمِنْ
فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ، يَا مُبَارِزِينَ بِالْقَبَائِحِ ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨]،
اخْذَرُوا سَخَطًا إِنْ حَلَّ انْحِلَ بُنْيَانُ الْأَجْسَادِ ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾
[طه: الآية ٨١].

وعظ:

أَيُّ مُظْمَنٍ لَمْ يُزْعَجْ، وَأَيُّ قَاطِنٍ لَمْ يُخْرَجْ.

إخواني، قَدْ عُرِفَ الْمَنْهَجُ زَالَ وَاللَّهُ الشُّكُّ فَالْحَقُّ أَبْلَجُ، فَرَسُ الرَّجِيلِ
مُسَرَّجٌ وَإِلَى بَوَادِي الْقُبُورِ الْمُخْرَجُ وَالنَّعْشُ الْمَرْكُوبُ بَعْدَ الْهُودَجِ، وَالصَّرْفُ
يَكُونُ صِرْفًا لَا يُمَزَّجُ، مَا هَتَفَ الْمَوْتُ بِمُقِيمٍ إِلَّا أَدْلَجَ وَلَا اسْتَدْعَى بِنُطْقٍ فَصِيحٍ
إِلَّا تَلَجَّلَجَ.

إخواني، مَا جَرَى عَلَى الْإِخْوَانِ أَنْمُودَجٌ رَكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا الدَّيَّيَّةِ، وَيَسُوسُوا

مِنَ الرُّتَبِ السَّيِّئَةِ، حَتَّى إِذَا اعْتَرَفُوا بِهَا صَرََعَتْهُمْ أَيْدِي الْمَنِيَّةِ، سَلُّوا عَنِ الْجِيرانِ
الْمَنَازِلَ، وَقُولُوا لَهَا أَيْنَ النَّازِلُ لَا وَاللَّهِ مَا تُجِيبُ السَّائِلَ، بَلَى إِنَّ الْبِلَاءَ يَنْطِقُ
بِالْبَلَابِلِ. وَالدُّنْيَا ظِلٌّ زَائِلٌ، وَحَالٌ حَائِلٌ، وَرُكْنٌ مَائِلٌ، وَرَفِيقٌ خَازِلٌ، وَمَسْئُولٌ
بَاجِلٌ، وَسُمْ قَاتِلٌ، كَمْ تَعُدُّ الدُّنْيَا وَتُمَاطِلُ، وَكُلُّ وَعْدِهَا غُرُورٌ وَبَاطِلٌ، بِاللَّهِ مَا
فَرِحَ بِهَا عَاقِلٌ، وَمَكَّرَهَا لَا يَغُرُّ عَلَى لُقْمَانَ بَلْ عَلَى بَاقِلٍ. وينشد:

خَلِيلِي كَمْ مِنْ مَيِّتٍ قَدْ حَضَرْتُهُ وَلَكِنِّي لَمْ أَنْتَفِعْ بِحُضُورِي
وَكَمْ مِنْ خُطُوبٍ قَدْ طَوَّنِي كَثِيرَةً وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ قَدْ جَرَتْ وَأُمُورِي
وَمَنْ لَمْ يَزِدْهُ السَّنُ مَا عَاشَ عِبْرَةً فَذَاكَ الَّذِي لَا يَسْتَنْيرُ بِنُورِي

الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: الآية ٢]،
الاعتبار: النظر في الأمور ليُعرف بها شيء آخر من جنسها. والأبصار:
العقول، والمعنى تدبروا.

وعظ:

إخواني، الدُّنْيَا دَارُ الْعِبْرَةِ، مَا وَقَعَتْ فِيهَا خِبرَةٌ إِلَّا وَرَدَ فِيهَا عِبْرَةٌ. أَيْنَ مَنْ
عَاشَرْنَاهُ كَثِيرًا فَلِفْنَا؟ أَيْنَ مَنْ مِلْنَا إِلَيْهِ وَانْقَطَعْنَا؟ أَيْنَ مَنْ ذَكَرْنَاهُ بِالْمَحَاسِنِ
وَوَصَفْنَاهُ مَا نَعْرِفُهُمْ لَوْ عَنْهُمْ كَشَفْنَا، وَسَنَصِيرُ كَمَا صَارُوا، فَلَيْتَنَا أَنْصَفْنَاكُمْ
أَغْمَضْنَا مِنْ أَحِبَّائِنَا عَلَى كُرْهِهِمْ جَفْنَاكُمْ، كَمْ ذَكَرْتَنَا مَصَارِعُ مَنْ فِينِي وَهَلْ يَفْنَى؟
كَمْ عَزِيزٍ أَحْبَبْنَاهُ دَفَنَّا، وَأَنْصَرَفْنَا؟ كَمْ مِنْ مُؤَانِسٍ أَضْجَعْنَاهُ فِي اللَّحْدِ وَمَا وَقَفْنَا؟
أَمَا ضَرَّهُ التَّسْوِيفُ وَهَا نَحْنُ قَدْ سَوَّفْنَا؟

أَمَا التُّرَابُ مَصِيرُنَا فَلِمَ آذَا مِنْهُ أَنْفُنَا؟ إِلَامَ تُعْرُ بِالسَّلَامَةِ وَقَدْ تَلَفْنَا؟ أَيْنَ
حَبِيبُنَا الَّذِي كَانَ وَانْتَقَلَ؟ أَيْنَ كَثِيرُ الْمَالِ الطَّوِيلُ الْأَمَلِ؟ أَمَا خَلَا فِي لَحْدِهِ وَحْدَهُ
بِالْعَمَلِ؟

أَمَا سَافَرَ عَنَّا وَإِلَى الْآنَ مَا قَفَلَ؟ أَيْنَ مَنْ تَنَعَّمَ فِي قَصْرِهِ بَلْ فِي قَبْرِهِ نَزَلَ؟
فَكَأَنَّهُ فِي الدَّارِ مَا كَانَ فِي اللَّحْدِ لَمْ يَزَلْ، أَمَلَكَ أَمْوَالُهُمْ سِوَاهُمْ وَالْدُّنْيَا دُولٌ؟
خَلَا وَاللَّهِ مِنْهُمْ النَّادِي الرَّحِيبُ، وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ طَوْلُ الْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ، وَعَايَنُوا مَنْ

هَوَلِ الْمُطَّلَعِ كُلِّ أَمْرٍ عَجِيبٍ . وَسُئِلَ عَنْهُمْ عَاصِيَهُمْ فَلَمْ يَعْلَمْ كَيْفَ يُجِيبُ؟
وينشد:

يَا مَنْ بِعَاذِهِ دُمُوعِي أَجْرَى حَتَّى خَدَفَ فِي خُدُودِي مَجْرَى
كَمْ ذَا حُزْنًا وَكَمْ أَقَاسِي هَجْرًا مِنْ بُعْدِكَ مَا أَرَى لِلَّيْلِ فَجْرًا

يَا عَاصِي: لَوْ عَرَفْتَ قَدْرَ قَدْرِكَ مَا أَلْقَيْتَ جَوْهَرَ قَلْبِكَ فِي مَزَابِلِ الْهَوَى .
يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّمَا خُلِقْتَ الْأَكْوَانُ كُلُّهَا مِنْ أَجْلِكَ، فَالْذُّنْيَا لِيَتَزَرَعَ، وَالْآخِرَةُ
لِيَتَوَطَّنَ، وَالْمَلَائِكَةُ سُجُودٌ لَكَ فِي الْأُولَى وَخَدَمٌ فِي الْآخِرَةِ .

أَتَرَكَ تَعْرِفَ قَدْرَ أَذْكُرْكُمْ؟ أَوْ قِيَمَةَ يُحِبُّهُمْ؟ أَوْ مَرْتَبَةَ وَأَنَا إِلَى لِقَائِهِمْ أَشَدُّ
شَوْقًا. إِذَا صَعِدَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ مَجْلِسِ الذِّكْرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَيْنَ كُنْتُمْ وَهُوَ
أَعْلَمُ. قَالُوا: مِنْ عِبَادٍ يُسَبِّحُونَكَ وَيَمْدَحُونَكَ. فيقول: مَا الَّذِي طَلَبُوا، وَمِمَّا
اسْتَغَاثُوا؟ فَإِذَا شَرَحُوا الْحَالَ، قَالَ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ مَا طَلَبُوا وَأَمْنْتُهُمْ
مِمَّا خَافُوا .

السَّجْع:

كَمْ مِنْ ظَالِمٍ تَعَدَّى وَجَارَ، فَمَا رَعَى الْأَهْلَ وَلَا الْجَارَ، بَيْنَا هُوَ يَعْقِدُ عُقْدَ
الْإِضْرَارِ، حَلَّ بِهِ الْمَوْتُ فَحُلَّ مِنْ حُلَّتِهِ الْأَزْرَارُ ﴿فَاعْتَرِبُوا يَتَأُولِي الْأَبْصَرِ﴾ .

مَا صَحِبَهُ سِوَى الْكَفَنِ، إِلَى بَيْتِ الْبِلَى وَالْعَفَنِ، فَلَوْ رَأَيْتَهُ قَدْ حَلَّتْ بِهِ
الْمِحْنُ، وَشِينَ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْحَسَنَ، فَلَا تَسْأَلُ كَيْفَ صَارَ؟ ﴿فَاعْتَرِبُوا يَتَأُولِي
الْأَبْصَرِ﴾ .

سَالَ فِي اللَّحْدِ صَدِيدُهُ، وَبَلَى فِي الْقَبْرِ جَدِيدُهُ، وَهَجَرَهُ نَسِيبُهُ وَوَدُودُهُ،
وَتَفَرَّقَ حَشْمُهُ وَعَيْدُهُ، وَالْأَنْصَارُ، ﴿فَاعْتَرِبُوا يَتَأُولِي الْأَبْصَرِ﴾ .

تَقَطَّعَتْ بِهِ جَمِيعُ الْأَسْبَابِ، وَهَجَرَهُ الْقُرْنَاءُ وَالْأَثْرَابُ، وَصَارَ فِرَاشُهُ
الْجَنْدَلُ وَالثَّرَابُ، وَرُبَّمَا فُتِحَ لَهُ فِي اللَّحْدِ بَابٌ إِلَى النَّارِ، ﴿فَاعْتَرِبُوا يَتَأُولِي
الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: الآية ٢] .

خَلَا وَاللَّهُ بِمَا كَانَ صَنَعَ، وَاحْتَوَشَهُ النَّدَمُ مَا نَفَعَ، وَتَمَنَّى الْخَلَاصَ، وَهَيْهَاتَ قَدْ وَقَعَ، وَقَلَاهُ الْخَلِيلُ الْمُصَافِي وَانْقَطَعَ، وَاشْتَغَلَ الْأَهْلُ بِمَا كَانَ جَمَعَ، وَتَمَلَّكَ الضُّدُّ الْمَالَ وَالذَّارَ، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَاُولِي الْأَبْصَرِ﴾.

نَادِمٌ بِلَا شَكٍّ وَلَا خَفَاءَ، بَاكِ عَلَى مَا زَلَّ وَهَفَا، يَوَدُّ أَنْ صَافِيَ اللَّذَاتِ مَا صَفَا. وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ يَبْنِي عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَاُولِي الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: الآية ٢]. قَارَنَهُ عَمَلُهُ مَنْ سَاقَهُ الْحَيْنُ، فَهُوَ يَتَمَنَّى الْفِرَارَ، وَهَيْهَاتَ مِنْ أَيْنَ؟ وَيَقُولُ: ﴿بَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزحرف: الآية ٣٨]. فَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْوَحْدَةِ وَالْعَمَلِ ثَانِي اثْنَيْنِ، وَلَكِنْ لَا فِي الْعَارِ، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَاُولِي الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: الآية ٢].

وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ حَالُهُ مِنْ عَدَا، فَلِكُلِّ مِنْكُمْ مِثْلُهَا غَدَا، فَانْتَبَهُوا مِنْ رُقَادِكُمْ قَبْلَ الرَّدَى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: الآية ٣٦]؟ إِنَّمَا هِيَ جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَاُولِي الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: الآية ٢].

إِخْوَانِي، كَأَنِّي أَشُمُّ رِيحَ كَبِدٍ مُحْتَرِقَةٍ، أَي: قَلْبٍ قَدْ لَفَحَتْهُ نَارُ كَأْسِ الشُّوْقِ، وَفَاحَتْ رِيحُهُ هَذَا النَّفْسُ قَدْ وَصَلَ إِلَى الْعَرْشِ، فَإِذَا ضَرَبَتْ زِنَادُ الْمَوَاعِظِ حَجَرَ الْقَلْبِ عَلَقَتْ النَّارُ بِخِرَاقِ الْمَعْرِفَةِ فَلَمْ يَتِمَّ اقْتِنَاسُهَا إِلَّا بِنَفْخِ، لَوْلَا دُمُوعُ الْعَيْنِ تُطْفِئُ بَعْضَ نَارِ الْوَجْدِ لِأَسْرَعَ الْحَرِيقُ فِي دَارِ الْقَلْبِ صُعْدَاءُ الْأَنْفَاسِ تَشْرَحُ حَالَ الْوَجْدِ فَيَسْتَغْنِي بِهَا عَنْ كَشْفِ الْمُسْتَوْرِ.

يَا مَعْشَرَ الْعَصَاةِ: لَا يَهْوِلَنَّكُمْ مَا سَمِعْتُمْ فَكُلُّهُ يَنْدَفِعُ بِتَوْبَةٍ. وينشد:

إِلَى كَمْ عِتَابٍ يَسُدُّ الْفَضَا	سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مَضَى مَا مَضَى
بِحُرْمَةٍ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ	مِنْ الْوُدِّ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ إِلَى الْوَصْلِ
فَلَا تَحْرِمُونِي نَظْرَةً مِنْ جَمَالِكُمْ	فَلَنْ تَجِدُوا فِي الْحَيِّ عَبْدًا لَكُمْ مِثْلِي
فَوَاللَّهِ مَا يَهْوِي فُؤَادِي غَيْرَكُمْ	وَلَوْ تَرَشَّقُونِي بِالْأَسِنَّةِ وَالنَّبْلِ
مَتَى تَقْتُلُونِي أَسْتَرِخُ مِنْ عَذَابِكُمْ	عَذَابِكُمْ عِنْدِي أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ
أَرَى كُلَّ شَيْءٍ هَالِكًا مُتَغَيِّرًا	وَحُبُّكَ لَا يَبْلَى وَلَكِنَّهُ يُبْلِي

وَيَحْكُ يَا هَذَا، لَاحَتْ نَارُ الْهُدَى مِنْ زِنَادِ الْمَوَاعِظِ، فَقُمَ عَلَى أَقْدَامِ الْجِدِّ

لَعَلَّكَ تَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى .

إخواني، أَطْيَارُ الْبَلَاغَةِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ بُرْجِ الْقَلْبِ عَلَى غُصْنِ اللِّسَانِ
أَفْتَرَاهَا أَخْضَرْتُ رِيَاضَ الْأَذْهَانِ، لَيْسَ كُلُّ مَجْلِسٍ مَجْلِسُنَا، مَا كُلُّ قَمِيصٍ يَرُدُّ
عَيْنَ يَعْقُوبَ، كُلَّمَا سَحَّتْ أَجْفَانُنَا صَحَّتْ أَبْدَانُنَا، كُلَّمَا تَابَ خَوَانُنَا كَثُرَ إِخْوَانُنَا،
فَالَوْقْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ لَنَا، وَالزَّمَانَ زَمَانُنَا .

اللَّهُمَّ أَهْلُ الْقُبُورِ رَهَائِنُ ذُنُوبٍ لَا يَنْفَكُونَ، وَأَسَارَى وَخْشَةٍ لَا يُطْلَقُونَ،
وَعُرَبَاءُ سَفَرٍ لَا يُنْتَظَرُونَ، مَحْتِ دَارِسَاتِ التُّرَابِ مَحَاسِنَ وَجُوهِهِمْ، وَجَاوِرَهُمُ
الْهَوَامُّ فِي لُحُودِهِمْ، فَهُمْ خُمُودٌ لَا يَتَكَلَّمُونَ، وَسُكَّانُ لَحْدٍ إِلَى الْحَشْرِ لَا
يُطْعَمُونَ، فَمِنْهُمْ مُحْسِنُونَ وَمِنْهُمْ مُسِيئُونَ، اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُحْسِنًا فَزِدْهُ كَرَامَةً
وَحُبُورًا، وَمَنْ كَانَ مَلْهُوفًا فَبَدِّلِ اللَّهُمَّ حُزْنَهُ فَرَحًا وَسُرُورًا، فَإِنَّكَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ
الْحَقُّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرَّعْدُ: الْآيَةُ ٣٩]
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

الْمَجْلِسُ التَّاسِعَ عَشَرَ فِي قِصَّةِ قَارُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَمْحُو الرُّكُلَ وَيُضْفَحُ، وَيَغْفِرُ الْخَطَايَا وَيَسْمَحُ، كُلُّ مَنْ لَازَ بِهِ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَكُلُّ مَنْ عَامَلَهُ يَرْبَحْ، تَشْبِيهُهُ بِخَلْقِهِ قَبِيحٌ وَجَحْدُهُ أَقْبَحُ، رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ فَتَأَمَّلْ وَالْمَخْ، وَأَنْزَلَ الْفَطَرَ فَإِذَا الزَّرْعُ فِي الْمَاءِ يَسْبَحُ، وَأَقَامَ الْوُرُقَ عَلَى الْوُرُقِ تَشْكُرُ وَتَمْدَحُ، أَغْنَى وَأَفْقَرَ، وَالْفَقْرُ فِي الْأَغْلَبِ أَصْلَحُ، هَذَا قَارُونُ مَلِكَ الْكَثِيرِ وَبِالْقَلِيلِ لَمْ يَسْمَحْ، نُبَّهَ فَلَمْ يَزَلْ نَوْمُهُ، وَلَيْمَ وَلَمْ يَنْفَعْ لَوْمُهُ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ [الْقَصَص: الآية ٧٦].

أَحْمَدُهُ مَا أَمْسَى الْمَسَاءَ وَمَا أَصْبَحَ، وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشَّرح: الآية ١]، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِهِ فِي الدَّارِ وَالْغَارِ وَلَمْ يَبْرَحْ، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ فِي إِعْزَازِ الدِّينِ يَكْدَحُ، وَعَلَى عُثْمَانَ وَلَا أَذْكَرَ مَا جَرَى عَلَيْهِ وَلَا أَشْرَحَ، وَعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ فِي الْوُضُوءِ وَلَا يَمْسَحُ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ أَقْرَبِ الْكُلِّ نَسَبًا وَأَرْجَحَ.

كَانَ قَارُونُ نَظِيرَ بِلْعَامَ فِي حِكْمَتِهِ، وَكَانَ فِي النَّسَبِ إِلَى مُوسَى ابْنُ خَالَتِهِ، فَلَمَّا فَاضَتْ كَثْرَةُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ فَاطَتْ نَفْسُ عَمَلِهِ، وَكَانَتْ مَقَالِيدُ خَزَائِنَاتِهِ وَقَرَّ سِتِّينَ بَعْلًا، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي فَاتَهُ بِمَا قَالَهُ أَعْلَى وَأَعْلَى. سَحَبَ ذَيْلَ ﴿فَبَعَثَ﴾ [الْقَصَص: الآية ٧٦]، فَقَامَ قَوْمُهُ قَوْمَةً بَزَجِرِ ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ [الْقَصَص: الآية ٧٦]، وَأَلْقَوْا إِلَيْهِ نَصَائِحَ ﴿وَاتَّبَعَ﴾ [النِّسَاء: الآية ١٢٥]، ﴿وَلَا تَبْخُ﴾ [الْقَصَص: الآية ٧٧]، ﴿وَلَا تَنْسُ﴾، ﴿وَأَحْسِنَ﴾ [الْقَصَص: الآية ٧٧].

فَرَكِبَ يَوْمًا فِي وَفْتٍ افْتَدَارِهِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ، وَسُمِّ الهَوَى يَعْمَلُ فِي الْمُقَاتِلِ، وَرَكِبَ مَعَهُ فِي مَعْمَعَتِهِ ثَلَاثُمِائَةَ جَارِيَةٍ وَقَدْ أَنَسَاهُ سَفَهُ الْأَمَلِ أَنَّ سَفِينَةَ الْأَجَلِ جَارِيَةٌ.

قال ابن عباس: لَمَّا نَزَلَتِ الزَّكَاةُ أَتَى مُوسَى فَصَالَحَهُ عَلَى كُلِّ أَلْفٍ دِينَارٍ دِينَارًا، وَعَلَى كُلِّ أَلْفٍ دِرْهَمٍ دِرْهَمًا، وَعَلَى كُلِّ أَلْفٍ شَاةٍ شَاةً، فَوَجَدَ ذَلِكَ مَالًا كَثِيرًا فَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ: إِنَّ مُوسَى يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ أَمْوَالَكُمْ. قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَقَالَ: نَجْعَلُ لِفُلَانَةِ الْبَغِيِّ جُعْلًا فَتَقْدِفُهُ بِنَفْسِهَا، ففعلُوا.

ثُمَّ أَتَاهُ قَارُونُ فَقَالَ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ اجْتَمَعُوا لِتَأْمُرَهُمْ وَتَنْهَاهُمْ، فَخَرَجَ فَقَالَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ سَرَقَ قَطَعْنَا يَدَهُ، وَمَنْ افْتَرَى جَلَدْنَاهُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَمَنْ زَنَى وَلَيْسَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَلَدْنَاهُ مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَلَدْنَاهُ حَتَّى يَمُوتَ. فَقَالَ لَهُ قَارُونُ: وَإِنْ كُنْتُ أَنْتَ؟ قَالَ: وَإِنْ كُنْتُ أَنَا.

قَالَ لَهُ: فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ فَجَرْتَ مَعَ فُلَانَةِ الْبَغِيَّةِ. قَالَ: أَدْعُهَا. فَلَمَّا جَاءَتْ، قَالَ مُوسَى: يَا فُلَانَةُ، مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ؟ قَالَتْ: لَا بَلْ كَذَبُوا، وَإِنَّمَا جَعَلُوا لِي جُعْلًا عَلَى أَنْ أَقْذِفَكَ.

فَسَجَدَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا مُوسَى مَرِ الْأَرْضَ بِمَا شِئْتَ. فَقَالَ: يَا أَرْضُ خُذِيهِ، فَأَخَذَتْهُ حَتَّى عَيَّبَتْ قَدَمَيْهِ، فَمَا زَالَ قَارُونُ يُنَاشِدُهُ بِالرَّحِمِ وَمُوسَى يَقُولُ: يَا أَرْضُ خُذِيهِ حَتَّى عَيَّبَتْهُ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، يَا مُوسَى، مَا أَفْظَكَ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ اسْتَعَاثَ بِي لِأَعْتَهُ.

قال سمره بن جندب: يُخَسَفُ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ قَدَرٌ قَامَةٍ فَيَبْلُغُ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَقَالَ الْجَاهِلُونَ: إِنَّمَا بَادَرَ مُوسَى لِأَخْذِ بَدَرِهِ بِبِدَارِهِ. قَالَ حَاكِمُ الْغَيْبِ لِإِرَالَةِ الرَّبِّ وَبِدَارِهِ فَكَانَ الْخَسَفُ بِمَالِهِ وَبِدَارِهِ بَعْدَ خَسَفِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.

إخواني، الدُّنْيَا إِذَا طَلَعَتْ عَلَى الطَّعَامِ تُطْعِمُ، وَإِذَا بُغِيَ نِكَاحُهَا عَلَى الْعَفَافِ تَبْغِي، ثُمَّ إِنَّهَا تَقْصِدُ هَلَاكَ مُحِبِّهَا وَتَبْغِي، أَمَا سَحَبَتْ قُرُونُ قَارُونٍ مَعَ أَقْرَانِهِ إِلَى الْقَرَارِ فِي قَرْنٍ؟ أَمَا كَمْكَفَتْ كَفَتْ مَكْفُوفٍ مَعَ حُبِّهَا فَأَرْتَك يَوْمًا مِمَّا يَكُونُ فِيكَ فِي كَفْنٍ؟ تَالله لَقَدْ لَقِيَ الْغَنِيُّ الْغَنِيَّ عِبَّ غَبَاوَتِهِ، فَلَمَّا انْجَلَى عَيْنُهُ

عَيْهِ رَأَى الْعَبْنُ الْعَبْنَ. وينشد:

أَنَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلَا ذَنْبٍ وَلَا مَعْنَا
أَسَاؤُوا ظَنَّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ
فَإِنْ عَادُوا لَنَا عُدْنَا وَإِنْ خَانُوا فَمَا خُنَّا
وَإِنْ كَانُوا قَدِ اسْتَعْنَوْا فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَا

إخواني، إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُبَارِزِينَ بِالْخَطَايَا قَدْ اتَّسَعَ لَهُمْ مَجَالُ الْإِخْتِمَالِ فَلَا تَسْتَعْجِلْ ﴿إِنَّمَا تَمْلِكُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: الآية ١٧٨]، لَقَدْ فَرِحُوا بِمَا يُوجِبُ الْعَمَ، بَيْنَا أَرْضُ إِعْرَاضِهِمْ قَدْ أَخَذَتْ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَتْ جَعَلْنَاهَا ﴿حَصِيدًا كَانَتْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: الآية ٢٤]، تَرَكَهُمْ خَادِعُ الْقَدَرِ فِي غُرُورِ سُرُورِهِمْ ﴿حَتَّى إِذَا فُوحُوا بِمَا أَوْتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤]، بَاتُوا يَتَقَلَّبُونَ عَلَى فُرْشِ الْمَعَاصِي ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسْكُومًا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٥]، ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [يونس: الآية ٥٤]، فَقَدُوا النِّجَاةَ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ [آل عمران: الآية ٣٠]. طَالَ قِيَامُهُمْ فِي صَحَرَاءِ الْقِيَامَةِ ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٣١].

إخواني، أَمَا يَنْتَبِهْ لِشَرْحِ حَالِهِمْ مَنْ قَدْ رَقَدَ ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: الآية ١١١].

يَا مَعْشَرَ الْعَصَاةِ تُعْرَضُونَ عَنَّا وَنُقْبَلُ عَلَيْكُمْ، وَتُبَارِزُونَنَا وَنَسْتُرُكُمْ، وَتُنْفِقُونَ نِعْمَنَا عَلَى مُخَالَفَتِنَا، وَنُمِدُّكُمْ وَتَتَأَوَّنَ عَنْ جَنَابِنَا، وَنَتَعَرَّضُ لَكُمْ؛ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ يَا مَنْ قَالَ إِذَا شِبْتُ ثُبْتُ.

الْيَوْمَ عَهْدُكُمْ فَأَيْنَ الْمَوْعِدُ؟ هِيَاهُ لَيْسَ الْيَوْمَ عَهْدُكُمْ غَدُ، يَا هَذَا مَا لَكَ تَتَعَلَّلُ بِالْمَجَالِسِ، وَأَنْتَ جَالِسٌ، عَقْلُكَ يَحُثُّكَ عَلَى التَّوْبَةِ، وَهَوَاكَ يَعُوقُ. اخْلَعْ لِبَاسَ الْإِتْبَاسِ، وَمَرِّقْ رِدَاءَ التَّرَدُّدِ، فَالْعُرْيُ أَحْسَنُ مِنْ أَثَوَابِكَ إِنْ خَرَجْتَ وَمَا أَنْبَتَ فَلَسْتَ مِنْ أُولِي الْعِزِّ.

إخواني، فَرِّغُوا قُلُوبَكُمْ تَفْهَمُوا مَا تَسْعُونَ إِذَا سَكَنَ الْحَبِيبُ فِي دَارِ الْقَلْبِ

لَمْ يَبْقَ فِيهَا نَذَالَةٌ، فَإِذَا عَرَفَ الْقَلْبَ عَظَمَةَ السَّاكِنِ صَارَ قِبْلَتُهُ الَّتِي لَا يُقَابِلُ
سِوَاهَا، فِيهِ يَسْمَعُ وَبِهِ يَبْصُرُ. وينشد:

أَنْسَتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا أَوْحَشْتَنِي يَا مُوَحِّشِي بِبَعَادِهِ وَأَنْيَسِي
وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدِّثِي وَأَبْحَثُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي
فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أَنْيَسِي

إخواني، اغْتَبِرُوا بِمَنْ مَضَى مِنَ الْأَقْرَانِ، وَتَفَكَّرُوا فِي مَنْ بَنَى كَيْفَ كَانَ،
تَقَلَّبْتُ وَاللَّهِ بِهِمُ الْأَحْوَالُ، وَنَسِيَهُمْ أَحْبَابُهُمْ بَعْدَ لَيَالٍ، وَعَانَقُوا الثَّرَابَ وَفَارَقُوا
الْحَالَ، فَلَوْ أُذِنَ لِصَامِتِهِمْ لَقَالَ:

مَنْ وَرَاءَنَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مُوفٍ عَلَى قُرْبِ الزَّوَالِ
وَصُرُوفِ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا وَلَمَّا تَأْتِي بِهِ صُفْمُ الْجِبَالِ
رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ
وَالْأَبَارِيقُ عَلَيْهَا نَدَمٌ وَعِتَاقُ الْخَيْلِ تَزْهُو فِي الْحِجَالِ
عَمَرُوا دَهْرًا بِعَيْشٍ حَسَنِ أَمِنُوا دَهْرَهُمْ غَيْرَ عَجَالِ
ثُمَّ أَضْحَوْا لَعِبِ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالِ

وعظ:

يَا مَشْغُولًا بِالْأَمَلِ وَالْمُنَى، تَاهَبَ لِمَضْرَعٍ قَدْ قَارَبَ وَدَنَا، بِكَانِكَ بِكَ وَقَدْ مَدَّ
كَفَّهُ إِلَيْكَ الْمَجَالِسُ، وَافْتَرَسَكَ أَسَدٌ قَدْ فَرَى فِي الْفَرَائِسِ؟ وَحَلَلْتَ بِقَاعِ الْبِلَى
وَتَحَلَّلْتَ مِنْكَ بِقَاعِ الْمَجَالِسِ، وَنَفَرَ عَنْكَ الصَّدِيقُ الصَّدُوقُ الْوَدُودُ الْمَجَالِسِ،
وَأَصْبَحَ رُبْعُكَ بَعْدَكَ وَهُوَ خَالٍ دَارِسٌ، وَنَزَلْتَ لِحَدِّكَ وَحَدِّكَ فِي ظِلْمَةِ الْحَنَادِسِ،
وَبَكَى الْأَهْلُ سَاعَةً وَالرُّؤُوسُ لِلنَّوَى نَوَاجِسُ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحِلَّةِ وَكُلُّ فِي حُلَّتِهِ
آيِسُ، وَانْطَلَقُوا فَأَظْلَقُوا أَمْوَالَكَ الْحُبَّاسِ، وَأَنْتَ تَتَمَنَّى الْعَوْدَ كَلًّا وَالْعُوْدَ يَابِسُ،
وَتَعَوَّضْتَ الرِّغَامَ عَلَى الرِّغَمِ وَالثَّرَى مِنَ الثَّرَى بَعْدَ الْمَلَابِسِ، فَيَا بُؤْسَ هَذَا
الْمَلْبُوسِ، وَيَا ذُلَّ هَذَا اللَّائِسِ، فَلَوْ أَطْلَعَ عَلَيْكَ بَعْدَ يَوْمٍ خَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ، لَرَأَى
أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ قَدْ غَيَّرْتَهُ الطَّوَامِسُ، وَبَقِيتَ حَدِيثًا يَجْرِي عَلَى مَرِّ الْمَدَى فِي
الْمَدَارِسِ، فَاعْتَمِمْ حَيَاتَكَ قَبْلَ الْمَمَاتِ فَأَنْفَاسُ النَّفْسِ نَفَائِسُ. وينشد:

أَلَا كُلُّ مَوْلُودٍ فَلِلْمَوْتِ يُؤَلَّدُ وَلَيْسَ تَرَى حَيًّا يَعِيشُ وَيُخَلَّدُ
تَجَرَّدَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ إِنَّمَا خَرَجْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ مُجَرَّدُ
وَأَفْضَلُ شَيْءٍ نِلْتَ مِنْهَا فَإِنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَضْمَحِلُّ وَيَنْقُودُ
وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ أَعْقَبَ الدُّلَّ عِزَّةً فَأَصْبَحَ مَذْمُومًا وَقَدْ كَانَ يُحْمَدُ
فَلَا تَحْمَدِ الدُّنْيَا وَلَكِنْ ذُمَّهَا وَمَا بِالْ شَيْءٍ ذَمَّهُ اللَّهُ يُحْمَدُ

وعظ:

أَيْنَ أَرْبَابُ الْقُصُورِ هَذِهِ طُلُوعُهَا يَنْطِقُ بِالْخَرَابِ سُورُهَا؟ قُلْ لَهَا: أَيْنَ
عَامِرُهَا وَأَيْنَ نَزِيلُهَا؟ يَا كَثِيرَ الْأَسْوَلةِ لَهَا كَمْ تُطِيلُهَا. كَانَتْ فِيهَا حَبْرَةٌ تَمَّ أَنْ
رَحِيلُهَا، أَمَرَ لَهَا مَرْدُهَا مَرَّتَ بِهِ مَرْدُهَا وَكُھُولُهَا.

أَمَّا يَكْفِي الْقُلُوبَ الْعَافِلَةَ وَعَظًا دَلِيلُهَا؟ يَا لِنُفُوسِ أَمْرَضَهَا الْهَوَى فَمَا يُشْفَى
عَلِيلُهَا، أَمَا هَذَا طَرِيقُهَا؟ أَمَا هَذَا سَبِيلُهَا؟ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ كَمْ نُسَمِعُهَا وَكَمْ نَقُولُهَا؟
خَلَجَ وَاللَّهِ الْبَيْنَ مِنَ الْقَوْمِ مَنْ خَلَجَ، أَمِ الْمَوْتُ آمَنَهُمْ فَلَا يُسْأَلُ كَيْفَ انْزَعَجَ.

وَاسْتَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعَالِي الدَّرَجِ فَدَرَجَ، وَسَارُوا فِي عَسْكَرِ الْبَلَى فَالتَقَفَهُمْ
الْوَهَجُ، وَزَفَرَتْ أَبْدَانُهُمْ بَعْدَ طَيْبِ الْأَرْجِ، فَنَسَجَ لَهُمُ الْبَلَى ثَوْبًا، فَيَا بَيْسَ مَا نَسَجَ.

وَعَامُوا فِي بَحْرِ الْأَسَى فَلَجَّجَ بِهِمْ فِي اللَّجَجِ، وَلَقِيَهُمْ مِنَ الْبَلَايَا مَا ضَوْعَفَ
وَمَا ازْدَوَجَ، وَاسْتَعَاثُوا وَلَكِنْ فِي غَيْرِ إِبَّانِ الْفَرَجِ، وَطَلَبُوا رَاحَةً وَلَكِنَّهُ زَمَانُ
الْحَرَجِ، وَسُئِلُوا فَفَقَدُوا تَحْقِيقَ الْجَوَابِ وَتُصْحِيحَ الْحُجَجِ، فَيَا أَسَفًا لِمَسْئُولِهِمْ فَلَا
فَارَ وَلَا أَفْلَحَ. وينشد في الحال:

أَمُرُّ عَلَى الْمَنَازِلِ وَهِيَ قَفْرٌ مِنَ الْأَحْبَابِ خَالِيَةُ الْمَعَانِي
أَلَا يَا دَارُ بَدْرِكَ أَيَّنَ وَلَّى فَمَا لِي أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي
فَقَالَتْ سَارَ عَنِّي عَنْ قَرِيبٍ وَلِلْبَلَوَى بِفُرْقَتِهِ دَهَانِي
فَلَوْ أَنِّي مَلَكَتُ عِنَانَ نَفْسِي لَمِتُّ مِنَ التَّفَجُّعِ فِي مَكَانِي

وعظ:

يَا هَذَا إِعْرِضْ نَفْسَكَ قَبْلَ عَرْضِكَ، هَلْ أَنْتَ مِنَ الدِّينِ ﴿إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢]؟ أم أنت من الذين ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ [السجدة: الآية ١٦]؟
 أو من الذين ﴿لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: الآية ٣٧]؟ أو طُبِعَتْ شَقِيًّا،
 فَكَلَّمَا صَدَمَكَ الْوَعْظُ قِيلَ: ﴿لَا بُدَّ لِي لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠]. لَيْسَ لِلْمَوَاعِظِ
 مَوْضِعٌ عِنْدَ قَوْمٍ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩]، بِاللَّهِ عَلَيْكَ مَثَلٌ
 لِنَفْسِكَ صِيْحَةُ الصُّورِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الصافات: الآية ١٩]، وَصَوْرٌ لِنَفْسِكَ
 فَنَاءِ الصُّورِ فِي اللَّحُودِ ﴿كَأَبَدًا كُمُ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩].

يَا هَذَا تَلَمَّحَ بِعَيْنِ الْإِيمَانِ أَهْلَ الْقُبُورِ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ
 مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: الآية ٧]، ثُمَّ يُحْشَرُونَ إِلَى الْحِسَابِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [٣٠]
 [الْقِيَامَةُ: الآية ٣٠]، فَيَقْفُونَ حَيَارَى ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَأَنْفَرُ﴾ [١٦] [الْقِيَامَةُ: الآية ١٠]،
 يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ عَجَزَ الْوَاصِفُونَ عَنْ هَوْلِهِ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [١٧]
 [الانفطار: الآية ١٧]، يَقْفُونَ عَلَى الْأَقْدَامِ خَمْسِينَ أَلْفَ عَامٍ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
 لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦] [المطففين: الآية ٦].

يَا مَعْشَرَ الْعَافِلِينَ فِي لَذَاتِهِمْ ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [التبأ: الآية ٤٠]،
 بَانَ وَاللهِ الرَّابِحُ مِنَ الْخَاسِرِ ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ [التغابن: الآية ٩] ذَكَرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ
 طَرَدَ النَّوْمَ عَنْ جُفُونِ الْعُقَلَاءِ.

إِخْوَانِي، مَا أَحْسَنَ الْإِيَابَ بِالشَّبَابِ، وَمَا أَقْبَحَ الْخَطَابَ لِمَنْ شَابَ.
 يَا شَيْخُ كَمْ هَذَا التَّسْوِيفُ؟ كَمْ يَبْقَى الْوَرَقُ عَلَى الشَّجَرِ فِي الْخَرِيفِ. وَيَنْشُدُ:

إِذَا رَحَلَ الشَّبَابُ وَحَلَّ شَيْبٌ فَهَلْ بَعْدَ الْمَشَيْبِ سِوَى الْحِمَامِ

إِخْوَانِي، مَجْلِسُنَا بَحْرٌ يَرِدُ فِيهِ الْفَيْلُ وَالْعُصْفُورُ، فَيَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
 عَلَى قَدْرِ حَوْصَلَتِهِ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِئَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦٠]، كَمْ بَيْنَ
 حِدَّةِ نَظَرِ الْهُدْهِدِ وَبَيْنَ عَشْيِ عَيْنِ الْخُفَّاشِ، يَا مَنْ هَدَمَ قَوَاعِدَ التَّوْبَةِ، أَرْفَعَ
 قَوَاعِدَ الْإِخْلَاصِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ بَعْدَ التَّوْبَةِ، أَقْبَحُ مِنْ سَبْعِينَ قَبْلَهَا. أَتَرَاكَ مَا
 تَسْتَحْيِي يَوْمًا عِنْدَ التَّائِبِينَ أَنْ تَمْشِيَ بَيْنَهُمْ وَثِيَابٌ تَقْوَاهُمْ جُدُدٌ وَقَمِيصُكَ مَرْقُوعٌ.
 وَيَنْشُدُ:

هَلِ الدَّهْرُ يَوْمًا بِوَصْلٍ يَجُودُ وَآيَامُنَا بِاللَّوَى هَلْ تَعُودُ

زَمَانٌ تَقْضَى وَعَيْشٌ مَضَى بِنَفْسِي وَاللَّهِ تِلْكَ الْعُهُودُ
أَلَا قُلْ لِسُكَّانِ وَادِي الْحَبِيبِ هَنِئِئًا لَكُمْ فِي الْجَنَانِ خُلُودُ
أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ فَيُضَا فَنَحْنُ عَطَاشٌ وَأَنْتُمْ وَرُودُ

وعظ:

إخواني، دَنَتْ عَسَاكِرُ الْبَطَالَةِ ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: الآية ٤١]،
خُذُوا مِنَ الدُّنْيَا قَدْرَ مَا يُعْبَرُ بِهِ الْقَنْطَرَةُ، وَلَعْمَرِي إِنَّ ضَرُورَاتِ الْمَعَاشِ تُغْبِرُ فِي
وَجْهِ الزُّهْدِ فَيَتَعَثَّرُ السَّالِكُ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: الآية ٢].

إخواني، الْحَذَرُ الْحَذَرُ كُلُّكُمْ تَسْمَعُونَ كَلَامِي، لَكِنْ فَرَقٌ بَيْنَ سَمَاعٍ
وَسَمَاعٍ، كُلُّ النَّسْوَةِ رَأَيْنَ يُوسُفَ ﷺ وَلَكِنْ زَلِيخًا وَاحِدَةً. يَا هَذَا إِذَا رَكِبْتَ
الْجَادَةَ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: الآية ١١٢].

يَا فِتْيَانِ التَّوْبَةِ زُورُوا الْمَقَابِرَ وَجَالِسُوا الْفِكَرَ وَجَانِبُوا رُقُقَاءَ الْهَوَى، فَإِنْ
قَالَ لَكُمْ بَعْضُهُمْ: أَقْنَعْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِخِرْقَةٍ وَمِنَ اللَّعِبِ بِخِرْقَةٍ؟ فَقُولُوا: هَذَا هُوَ
الْعَيْشُ لَوْ صَفَا، وَيُقَاسُ الَّذِي أَنْتَ لَهُ مُسْتَقْبِحٌ مَا عَلَى اسْتِحْسَانِهِ عِنْدِي مَزِيدٌ،
فَإِذَا نَحْنُ تَبَايْنَا كَذَا فَاسْتَمَاعُ الْعَدْلِ شَيْءٌ لَا يُفِيدُ.

وعظ:

يَا هَذَا إِذَا قَالَ لَكَ رُقُقَاؤُكَ: امْشِ مَعَنَا فَقُلْ: أَقْعَدَنِي الْخَوْفُ، يَا فِتْيَانِ
التَّوْبَةِ إِنْ تَحَرَّكَتْ نُفُوسُكُمْ إِلَى بَعْضِ مَا اعتَادَتْ قُولُوا: انْقَضَى زَمَانُ الرِّضَاعِ
وَلَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْفِطَامِ، وَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ مُقَيَّدٌ، إِيَّاكَ وَمُوَافَقَةُ النَّفْسِ
إِنَّهَا مُؤَنِّتَةٌ وَطَاعَةُ النِّسَاءِ نَدَامَةٌ، وَمَا يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ
الرَّفْقِ بِالضَّلَعِ الْعَوْجَاءِ فَلَا تَحَقِّقْ أَيُّهَا الزَّاجِرُ بِالسَّيْرِ، فَإِنَّ سَوْفَكَ بِالْقَوَارِيرِ إِذَا
لَمْ تَلْطَفْ بِالنَّاقَةِ لَمْ تَصِلْ إِلَى مَنَى فَهَلْ لَكَ غَيْرَ هَذَا الْقَلْبِ قَلْبٌ؟ وَهَلْ لَكَ غَيْرُ
هَذَا الرُّوحِ رُوحٌ. وينشد:

يَا نَدِيمِي صَحَا الْقَلْبُ صَحَا فَاطْرُدَا عَنِّي الصَّبَا وَالْمَرَحَا
شَمَّرَا بُرْدَيَّ لِلنُّسُكِ وَلَا تَعَجَبَا مِنْ فَاسِدٍ قَدْ صَلَحَا

وَأَتْرُكَا مَا قَدْ فَنَيْ فِي حُبِّهِمْ وَلَا تَرَاهُ الْعَيْنُ إِلَّا شَبَحَا

السَّجْعُ عَلَى الْآيَةِ:

للهِ دَرَّ قَوْمٌ مَالُوا إِلَى اللَّهِ وَتَرَكُوا الْمَالَ، وَأَغْلَقُوا بَابَ الطَّمَعِ فِي فَضْلَةِ
الْأَمَالِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الدُّنْيَا شُغْلًا بِالْمَالِ، وَأَنَسُوا بِمُنَاجَاتِهِ فَتَنَسُوا الْأَهْلَ
وَالْمَالَ، فَإِذَا تَلَقَّاهُمْ مَوْلَاهُمْ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْوُفُودِ ﴿فِي سِدْرِ تَخْضُودٍ﴾^(٢٨)
[الوَاقِعَةُ: الْآيَةُ ٢٨] وَرَدُّوا إِلَيْهِ أَكْرَمَ وَرُودٍ، وَأَمِنُوا فِي وَصَالِهِمْ عَوَائِقَ الصُّدُودِ
وَأَتَعَبُوا الْأَغْضَاءَ فِي خِدْمَتِهِ وَالْجُلُودَ، فَمَنَحَهُمْ طِيبَ الْعَيْشِ فِي جَنَاتِ الْخُلُودِ
﴿فِي سِدْرِ تَخْضُودٍ﴾^(٢٨).

شَكَرُوا مَنْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ خَيْرٍ
وَجُودٍ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ الْمَقْصُودُ، فَاسْتَعَدُّوا لِلْيَوْمِ الْمَشْهُودِ ﴿فِي سِدْرِ
تَخْضُودٍ﴾^(٢٨).

وَتَمَسَّكُوا بِالْكِتَابِ الْقَدِيمِ، وَبَالَغُوا فِي طَلَبِ التَّقْدِيمِ، فَطَلَبُوا مِنَ الْمُنْعِمِ
الْكَرِيمِ أَنْ يَعْمَهُمْ بِالْفَضْلِ وَالتَّكْرِيمِ، فَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْخَيْرِ الْعَمِيمِ فَهُمْ فِي الْجَنَانِ
فِي أَعْلَى نَعِيمٍ عِنْدَ مَلِكٍ كَبِيرٍ عَظِيمٍ لَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ ﴿فِي سِدْرِ تَخْضُودٍ﴾^(٢٨)
وَطَلَّحَ مَضُودٍ ﴿الوَاقِعَةُ: الْآيَتَانِ ٢٨، ٢٩﴾، أَعَدَّ لَهُمْ أَوْفَى الذَّخَائِرِ، وَهَذَّبَ مِنْهُمْ
الْبَوَاطِنَ وَالظَّوَاهِرَ، وَجَعَلَهُمْ بَيْنَ عِبَادِهِ كَالنُّجُومِ الزَّوَاهِرِ، وَبَنَى لَهُمُ الْعُرْفَ
بِالْأَلْبَائِ وَالْجَوَاهِرِ، فَهُمْ فِي مَجْدٍ كَرِيمٍ وَسَعْدٍ ﴿غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ [هُود: الْآيَةُ ١٠٨]،
﴿فِي سِدْرِ تَخْضُودٍ﴾^(٢٨)، اسْتَزَادَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، وَخَصَّصَهُمْ بِكَرَامَتِهِ فَأَنَعَمَ عَلَيْهِمْ
بِرُؤُوسِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ مِنْ رِعَايَتِهِ، فِي ظِلِّ عَمِيمٍ دَائِمٍ مَمْدُودٍ، ﴿فِي
سِدْرِ تَخْضُودٍ﴾^(٢٨) [الوَاقِعَةُ: الْآيَةُ ٢٨]. اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ الْأَبْرَارِ، وَأَسْكِنَا
مَعَهُمْ فِي دَارِ الْقَرَارِ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْمُخَالِفِينَ الْفُجَّارِ.

اللَّهُمَّ نَوِّرْ دِينَنَا بِضَوْءِ مِنْ تَوْفِيقِكَ، وَقَاطِعْ أَيَّامَنَا بِالْإِتِّصَالِ بِكَ، وَانْظُمْ
شَتَاتَنَا فِي سِلْكٍ طَاعَتِكَ.

اللَّهُمَّ افْتَحْ مَسَامِعَ الْأَفْهَامِ لِقَبُولِ مَا يَنْفَعُ، وَصَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا
مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا دَائِمًا.

المَجْلِسُ العِشْرُونَ

في نُصْرَةِ داوود عليه السَّلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحمدُ لله ربِّ الأربابِ، ومُسَبِّبِ الأسبابِ ومُنْزِلِ الْكِتَابِ، حَفِظَ الْأَرْضَ بِالْجِبَالِ مِنَ الاضْطِرَابِ، وَقَهَرَ الْجَبَّارِينَ وَأَذَلَّ الصُّحَابَ، وَسَمِعَ خَفِيَّ النُّطْقِ وَمَهْمُوسَ الْخِطَابِ، وَأَبْصَرَ فَلَمْ يَسْتُرْ بَصَرَهُ حِجَابٌ، أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فَحَثَّ فِيهِ عَلَى اكْتِسَابِ الثَّوَابِ، وَزَجَرَ عَنِ أَسْبَابِ الْعِقَابِ ﴿كَتَبُ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذْبَرُوا ءَايَتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: الآية ٢٩].

ابْتَلَى الْمُصْطَفِينَ بِالذُّنُوبِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ ثَوَابٌ، أَمَا سَمِعْتَ بِرِّلَةِ آدَمَ وَمَا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ عِتَابٍ، ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٦١﴾﴾ [ص: الآية ٢١].

أَحْمَدُهُ عَلَى رَفْعِ الشُّرْكِ وَالْاِزْتِيَابِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى سِتْرِ الْخَطَايَا وَالْعِتَابِ، وَأَقْرُّ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ إِقْرَارًا نَافِعًا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَأَعْتَرِفُ لِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ أَنَّهُ لُبَابُ اللَّبَابِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى مِنَ الْأَصْحَابِ، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ فِي الْمَجْلِسِ طَابَ، وَعَلَى عُثْمَانَ الْمَقْتُولِ طُلُمًا وَمَا تَعَدَّى الْحِسَابِ، وَعَلَى عَلِيِّ الْبَدْرِ يَوْمَ الْبَدْرِ وَالصَّدْرِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الَّذِي نَسَبُهُ أَشْرَفُ الْأَنْسَابِ.

اللَّهُمَّ يَا مَنْ ذَلَّتْ لَهُ جَمِيعُ الرِّقَابِ، اخْفِظْنَا فِي الْحَالِ وَالْمَايَ، وَارْزُقْنَا الْاِعْتِبَارَ لِسَالِفِ الْأَثْرَابِ، وَهَبْ لَشَيْبِنَا مَعَاصِيَ الشُّبَابِ، وَارْزُقْنِي وَالْحَاضِرِينَ عِمَارَةَ قُلُوبِ الْخَرَابِ، بِرَحْمَتِكَ يَا كَرِيمُ يَا وَهَّابُ.

قال الله العظيم: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا لِّلْحَرَابِ﴾ ﴿٢١﴾ [ص: الآية ٢١]، دَاوُودُ هُوَ ابْنُ إِيشِيَا بْنِ عُوَيْدٍ مِنْ نَسْلِ يَهُودَا ابْنِ يَعْقُوبَ، وَكَانَ مَبْدَأُ أَمْرِهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ طَالُوتَ مَلِكًا خَرَجَ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ثَمَانُونَ أَلْفًا لِقِتَالِ جَالُوتَ، فَقَالُوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩]، فَلَمْ يَلْبَثْ مَعَهُ غَيْرَ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ.

وكان فيهم أَبُو دَاوُودَ وَثَلَاثَةُ عَشَرَ ابْنًا لَهُ وَدَاوُودُ أَصْغَرُهُمْ، وَأَنَّهُ مَدَّهُ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ وَكَلَّمَهُ وَقُلْنَ: يَا دَاوُودُ خُذْنَا نَقْتُلْ بِنَا جَالُوتَ فَأَخَذَهُنَّ وَمَشَى إِلَى جَالُوتَ، فَوَضَعَهُنَّ فِي قُدَافَتِهِ فَصِرْنَ حَجَرًا وَاحِدًا، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَصَكَ بَيْنَ عَيْنَيْ جَالُوتَ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ هَلَكَ طَالُوتُ، فَمَلَكَ دَاوُودَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيًّا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الرُّبُورَ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ الْحَدِيدِ وَالْأَنَّهُ لَهُ، وَأَمَرَ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ أَنْ يُسَبِّحْنَ مَعَهُ.

وَكَانَ إِذَا قَرَأَ الرُّبُورَ تَصْنِخُ لَهُ الْوُحُوشُ حَتَّى يَأْخُذَ بِأَعْنَاقِهَا.

وَكَانَ كَثِيرَ التَّعَبِّدِ وَتَذَاكُرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَوْمًا عِنْدَهُ هَلْ يَأْتِي عَلَى الْإِنْسَانِ يَوْمٌ لَا يُصِيبُ فِيهِ ذَنْبًا؟ فَأَضْمَرَ أَنَّهُ يُطِيقُ ذَلِكَ فَأَبْتُلِيَ يَوْمَ عِبَادَتِهِ بِالذَّنْبِ حَتَّى نَكَسَ رَأْسَ الرِّئَاسَةِ عَلَى عَتَبَةِ الذُّلِّ، رَمَاهُ سَهْمُ الْقَضَاءِ فِي دِرْعٍ لِيَالِي الْفِتَنِ فَقَضَى عَلَيْهِ بِمَا قَدَّرَ الدَّرَاعُ عَلَى رَدِّهِ بِدِرْعِهِ وَقَدَّرَهُ.

وَإِذَا سَهْمُ الْمَقَادِيرِ رَمَى، فَدَرُوعُ الْمَرءِ أَعْوَانُ النَّصَالِ، ظَنٌّ لِقُوَّةِ عِصْمَتِهِ لِقَاءَ قَرْنِ الْهَوَى فَلَا حَتَّ لَهُ فِي حِمَى دَعْوَاهُ حَمَامَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَذَهَبَ يَصِيدُهَا فَوَقَعَ فِي شَرَكِ عَيْنِهِ. وينشد:

ظَنَّ غَدَاةَ الْبَيْنِ أَنْ قَدْ سَلِمَا لَمَّا رَمَى سَهْمًا وَمَا أَجْرَى دَمَا
فَعَادَ يَسْتَقْفِرِي حَشَاهُ فَإِذَا فُؤَادُهُ مِنْ بَيْنِهَا قَدْ عَدِمَا

لَمْ يَذَرِ مِنْ أَيْنَ أُصِيبَ قَلْبُهُ، وَإِنَّمَا الرَّامِي دَرَى كَيْفَ رَمَى، أَتَبَعَ الْحَمَامَةَ بَصَرُهُ، فَإِذَا بَامْرَأَةٍ فَخَطَبَهَا مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ أُورِيَا، قَدْ خَطَبَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَأَعْتَمَّ أُورِيَا فَعُوقِبَ إِذْ لَمْ يَتْرُكْهَا لِخَاطِبِهَا الْأَوَّلِ، وَهَذَا أَجُودُ مَا قِيلَ فِي فِتْنَتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَزَّيْ فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣].

وَأَمَّا مَا يُنْقَلُ أَنَّهُ بَعَثَ رُوحَهَا فِي الْعَرَوَاتِ حَتَّى قُتِلَ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا. طَافَ عَلَى بَابِهِ طَيْبُ الْأَلْطَافِ فَأَرَادَ اسْتِخْرَاجَ النَّصْلِ مِنْ بَاطِنِ الشَّغَابِ فَجَنَى عَلَى عَتَبَةِ عَتَابِهِ يَا عَثُوبَةَ خَصْمَانِ فَقَضَى عَلَى نَفْسِهِ بِصَرِيحٍ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فَيَيْنَمَا هُوَ يَلَا حِظَ لَفْظِ الْقِصَّةِ مَعًا مَعَانِي بِالْمَعَاصِي فَفُطِنَ فَفْتَنَ فِي الْفَتَى الْفَاتِنُ فَتَنَ فَتَنَاهُ ﴿وَطَنَّ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: الآية ٢٤]، فَنَزَلَ عَنْ مَرْكَبِ الْعِزِّ إِلَى سِتْرِ مَسْجِدِ الذَّلِّ فَافْتَرَشَ فِرَاشَ مَنْ أَسَاءَ فِي دَارِ الْأَسَى، وَخَلَعَ خِلْعَ الْفَرَحِ، وَلَبَسَ جِلْبَابَ الْحُزْنِ فَأَسْكَتَ الْحَمَامَ بِنُوحِهِ وَشَغَلَهَا عَنْ صَدْحِهَا بِصَوْتِهِ، فَبَالَغَ حَرِيقُ النَّدَمِ فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ، وَأَقْلَقَ الْأَفْئِدَةَ بِشَجِيٍّ شَجِيَّتِهِ، وَمَاتَ خَلْقٌ مِنَ الْخَلْقِ بِتَرْتُمِ شَجْوِهِ، فَشَرِبَ عِرْقَ الْعُشْبِ مِنْ عَيْنِ عَيْنِهِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي مُنَاجَاتِهِ: خَرَجْتُ أَسْأَلُ أَطِبَاءَ عِبَادِكَ أَنْ يَدَاوُوا لِي جُرْحَ خَطِيئَتِي فَكُلُّهُمْ عَلَيْكَ يَدُلُّنِي، إِلَهِي أَمَدَّ عَيْنِي بِالْذُّمُّوعِ وَضَعْفِي بِالْقُوَّةِ حَتَّى أَبْلُغَ رِضَاكَ عَنِّي. وينشد:

يَا مَنْ تَجَنَّبَ صَبْرِي فِي تَجَنُّبِهِ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ
حَتَّى مَتَى زَفَرَاتِي فِي تَصَعُّدِهَا إِلَى الْمَمَاتِ وَدَمْعِي فِي تَصَوُّبِهِ
وَلِي فُؤَادٌ إِذَا طَالَ الْعَرَامُ بِهِ هَامَ اسْتِيْقًا إِلَى لُفْيَا مُعَذِّبِهِ

فَمَا زَالَ يَغْسِلُ الْعَيْنَ مِنْ عَيْنِ الْعَيْنِ وَلِسَانُ الْعِتَابِ يَقُولُ: يَا بُعْدَ النَّقَا وَكُلَّمَا رَفَعَ فَصَّتَهُ غُصَّةٌ جَاءَ الْجَوَابُ بِزِيَادَةِ الْجَوَى وَهُوَ يَسْتَعِيْثُ وَيُنَادِي حَتَّى أَقْلَقَ الْحَاضِرَ وَالْبَادِي. وينشد:

إِنَّ شَفِيعِي إِلَيْكَ عَنِّي دُمُوعُ عَيْنِي وَحُسْنُ ظَنِّي
فَبِالَّذِي قَادَرَنِي ذَلِيلًا إِلَيْكَ إِلَّا عَفْوَتُ عَنِّي
رَمَى الْهَوَى مُهْجَتِي بِسَهْمٍ أَدَامَ إِذْمَانُ قَرْعِ سِنِّي

يَا هَذَا مَنْ اجْتَهَدَ وَجَدًا وَجَدًا، وَلَيْسَ مَنْ سَهَرَ كَمَنْ رَقَدَ. وَالْفَضَائِلُ تَحْتَاجُ إِلَى وَثْبَةِ الْأَسَدِ، لَقَدْ رَضِيَتِ الْعَبْنُ وَالْعَبْنُ، وَبِعَتْ عُمْرَكَ بِأَقْلِ الثَّمَنِ، وَأَنْفَقَتْ فِيمَا يُرِيدُكَ الزَّمَنُ، يَا مَغْرُورًا بِخَضِرَاءِ الدَّمَنِ، يَا جَامِعًا مَا نَعَا قُلْ لِي: لِمَنْ كَيْفَ يَنَالُ الْفَضَائِلُ مُسْتَرِيحُ الْبَدَنِ؟ سَلِّعُ الْمَعَالِي غَالِيَاتُ الثَّمَنِ.

إِخْوَانِي، مَنْ يُوقِدُ مِصْبَاحَ الْفِكْرِ تَلُحُّ لَهُ الْأَعْلَامُ. وينشد:
 إِذَا مَا الْخِيَامُ الْبَيْضُ لَاحَتْ لَدَائِمِي
 فَعَرَجْنَا بَعْدَهَا بِقَلِيلِ
 تَرَانَا لَدَى الْأُظْنَابِ صَرَعَى مِنَ الْهَوَى
 تُكْفِكِفُ دَمْعًا لِافْتِقَادِ خَلِيلِ
 وَكَمْ أَنَّةٍ أَرْدَفْتُهَا بِتَنَفُّسِ
 وَكَمْ عَبْرَةٍ أَتْبَعْتُهَا بِعَوِيلِ
 قُمْوْا وَانْظُرُوا ذُلِّي وَعِزَّ مُعَذِّبِي
 تَرَوْا عَجَبًا مِنْ قَاتِلِ وَقَتِيلِ

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: الآية ٢٤]. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: بَقِيَ فِي سُجُودِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَّا لَوْفَتِ صَلَاةً مَكْتُوبَةً أَوْ لِحَاجَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا، وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، فَأَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَنْبَيْهِ وَنَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دُمُوعِهِ وَهُوَ يَقُولُ فِي سَجُودِهِ: رَبِّ زَلِّ دَاوُودَ زَلَّةً أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: وَكَانَتْ خَطِيبَتُهُ فِي كَفِّهِ مَكْتُوبَةً. قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: بَلَّغْنَا أَنَّهُ كَانَ يَمْكُثُ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُنَاجِيَهُ سَبْعًا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ، وَيُخْرِجُ لَهُ مِنْبَرًا إِلَى الْبَرِيَّةِ، وَيَأْمُرُ سُلَيْمَانُ مُنَادِيًا يُنَادِي فِي الْبِلَادِ وَالْبَرَاري، أَلَا مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ نَوْحَ دَاوُودَ فَلْيَأْتِ.

قَالَ: فَتَأْتِي الْوُحُوشُ وَالسَّبَاعُ وَالْهَوَامُّ وَالطَّيْرُ وَالرُّهْبَانُ وَالْعَذَارَى مِنْ خُدُورِهِنَّ، وَيَجْتَمِعُ النَّاسُ لِذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَأْتِي دَاوُودَ حَتَّى يَرْتَقِيَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَيُحِيطُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَكُلُّ صِنْفٍ عَلَى حِدَةٍ.

قَالَ: وَسُلَيْمَانُ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ فَيَأْخُذُ بِالشَّئِءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَضْجُونَ بِالْبُكَاءِ وَالصُّرَاخِ. ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَتَمُوتُ طَائِفَةٌ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ وَمِنْ كُلِّ مَنْ حَضَرَ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ وَأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي النِّيَاحَةِ فَتَمُوتُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ طَائِفَةٌ، فَإِذَا رَأَى سُلَيْمَانُ مَا كَثَرَ مِنَ الْمَوْتِ نَادَى يَا أَبْنَاهُ: قَدْ مَرَقْتَ الْمُسْتَمْعِينَ كُلَّ مُمَرِّقٍ، فَيَقْطَعُ النِّيَاحَةَ وَيَأْخُذُ فِي الدُّعَاءِ فَيُعْشَى عَلَيْهِ

فِيُحْمَلُ عَلَى سَرِيرٍ، فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ سُلَيْمَانُ: مَا فَعَلَ عَبْدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ مَا فَعَلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟ فَيَقُولُ: مَاتُوا، فَيَدْخُلُ فِي بَيْتِ عِبَادَتِهِ وَيُغْلِقُ عَلَيْهِ بَابَهُ.

وَيُنَادِي أَعْضَبَانِ أَنْتَ عَلَى دَاوُودَ؟ قَالَ عُلَمَاءُ السَّيْرِ: كَانَتْ لَهُ جَارِيَتَانِ قَدْ أَعَدَّهُمَا، فَكَانَ إِذَا جَاءَهُ الْخَوْفُ سَقَطَ وَاضْطَرَبَ، فَفَعَدَتَا عَلَى صَدْرِهِ وَرِجْلَيْهِ مَخَافَةً أَنْ تَتَفَرَّقَ أَعْضَاؤُهُ. وَيُقَالُ: لَوْ وُزِنَتْ دُمُوعُهُ عَدَلْتُ دُمُوعَ الْخَلَائِقِ. وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَاتَ.

وعظ:

إِخْوَانِي، إِذَا تَمَكَّنَ الْحُبُّ اسْتَحَالَ السُّلُوءُ، وَإِذَا تَعَلَّقَ يَدُ الْمَحَبَّةِ بِتَلَايِبِ الْقَلْبِ فَلَا يُمَكِّنُهُ التَّخَلُّصُ مِنْ غَرِيمِ الْغَرَامِ فَيَدُورُ مَعَهَا فِي دَارِ الْمُدَارَاةِ إِذَا نَزَلَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ بِسَاحَةِ الْقَلْبِ، فَدَخَلَ عَلَى بَابِ الْوَجْدِ حُرْسَتِ الطَّرِيقِ مِنَ الطَّرَاقِ، وَأَغْلَقَ بَابَ السُّلُوءِ، وَفُتِحَ بَابُ الْأَشْوَاقِ فَتَرَى الْمُحِبَّ تَارَةً وَاجِمًا، وَتَارَةً يَسْهَرُ اللَّيْلَ وَيَرَعَى الْكَوَاكِبَ، وَتَارَةً مُهَنْدِسًا يُنْشِئُ نَوَاعِيرَ الْقَلْقِ بِمِيَاهِ الْبُكَاءِ لِيَسْقِيَ بَذْرَ الْهَوَى. وينشد:

أُبْكِي وَحَقُّ لَهُ إِزْسَالُ دَمْعَتِهِ عَبْدٌ تَبَاعَدَ عَنْ مَوْلَاهُ وَانْتَزَحَا
سَقَتْهُ لَوْعَتُهُ أَنْوَاعَ عَبْرَتِهِ إِذَا انْقَضَى قَدْحُ أَهْدَتْ لَهُ قَدْحَا
كَذَا الْمُحِبِّ إِذَا صَحَّتْ مَوَدَّتُهُ أَيَّامَ فُرْقَتِهِ لَا يَعْرِفُ بِهِ الْفَرَحَا

وعظ:

إِخْوَانِي، اخْذَرُوا الْمَعَاصِي فَيُسَسِّ الْمَطْلُوبُ، مَا أَقْبَحَ آثَارَهَا فِي الْوُجُوهِ وَالْقُلُوبِ، يَا حَاضِرِينَ بِالْأَبْدَانِ وَقُلُوبُهُمْ عَلَى الْمَرَاحِلِ، انْتَبَهُوا مِنْ رَفَدَاتِ الْعَفْلَةِ وَاجْتَنِبُوا خَمْرَ الْهَوَى، فَمَنْ صَحَا صَحَّةَ هَذَا زَمَانٍ اللَّقَطِ لِلْقَاطِ، يَا زَمَنًا لَقَدْ أَتَى الْحَرِيفُ وَأَيُّ الْحَرِيفِ.

إِخْوَانِي، فِي الشَّيْبِ فِضَّةٌ سَبَكْتُهَا يَدُ الزَّمَانِ، وَرَسْمُهَا ﴿فَيَأْتِي الْآلَ رِيكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: الآية ٢١]، يَا عَاصِي لَاحِتِ الشَّعْرَاتِ الْبَيْضُ، فَجَعَلَتْ تَفْرِخَ وَتَبْيِضُ، فَتَقْيِضُ لِنَفْسِكَ وَادْكُرْ زَوَالَكَ، وَدَعِ الْأَمَلَ وَلَوْ طَوِي لَكَ الدُّنْيَا وَزَوِي لَكَ، فَكَأَنَّكَ بِالْمَوْتِ قَدْ حَيَّرَكَ وَأَبْدَى كَلَالَكَ، وَنَسِيكَ الْحَبِيبُ؛ لِأَنَّهُ

أَرَادَكَ لَهُ لَا لَكَ، وَشَاهَدْتَ أَمْرًا أَفْطَلَعَكَ وَهَالِكَ، تَوَدُّ أَنْ تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِالدُّنْيَا لَوْ أَنَّهَا لَكَ، فَتَبَّهَ مِنْ رُقَادِ الْهَوَى لِمَا هُوَ أَوْلَى لَكَ، وَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُكَ أَعْمَى لَكَ، وَأَفْعَالُكَ أَفْعَى لَكَ.

لَوْ كَانَ لَكَ بَاعِثٌ مِنْ نَفْسِكَ مَا اخْتَجَتَ إِلَى مُحَرِّكِ مِنْ خَارِجٍ.

هَذَا الدِّيكُ يَصْبِحُ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ يُؤَدِّي وَظَائِفَهَا بِبَاعِثِ الطَّبْعِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَرِيَةِ دِيكٌ غَيْرُهُ وَأَنْتَ تُؤَخِّرُ وَظَائِفَ صَلَوَاتِكَ وَتَنْقُضُ مِنْ وَاجِبَاتِ عِبَادَتِكَ، فَإِنْ بَكَيْتَ فِي الْمَجْلِسِ فَلِبُكَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَإِذَا خَلَوْتَ خَلَوْتَ مِنْ مُحَرِّكِ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظْ لَمْ تَنْفَعُهُ الْمَوَاعِظُ. وينشد:

لَا يَنْفَعُ الزَّجْرُ قَلْبًا قَاسِيًا أَبَدًا وَلَا يَلِينُ لِقَوْلِ الْوَاعِظِ الْحَجَرُ
وَلَا أَرَى أَثَرًا لِلذِّكْرِ فِي جَسَدِي وَالْحَبْلُ فِي الْحَجَرِ الْقَاسِيِ لَهُ أَثَرُ
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ فِي الدُّنْيَا لَهُ سَفَرٌ إِذَا انْقَضَى سَفَرٌ مِنْهَا أَتَى سَفَرٌ
لَهَا حَلَاوَةٌ عَيْشٍ غَيْرِ دَائِمَةٍ وَفِي الْعَوَاقِبِ مِنْهَا الْمُرُّ وَالصَّبْرُ

وعظ:

عِبَادَ اللَّهِ مَنْ اسْتَحْضَرَ عَقْلَهُ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ فِعْلِهِ وَأَمْرِهِ بِالزُّرُودِ لِرَحِيلِهِ. قَالَ بَعْضُ الْمُتَعَبِّدِينَ: لَمَّا خَلَوْتُ بِالْعَقْلِ فِي بَيْتِ الْفِكْرِ عَلِمْتُ أَنِّي مَخْلُوقٌ لِلتَّكْلِيفِ، مُعَاقَبٌ عَلَى التَّحْرِيفِ، لَسْتُ بِمُهْمَلٍ فَاسْهُو، وَلَا بِمَتْرُوكٍ فَالْهُو، رَأَيْتُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَقُودَانِي إِلَى قَبْرِي، وَيُفْنِيَانِي فِي سِيرِهِمَا عُمْرِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْهَلَكَ أَخُو السَّلَامَةِ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ.

فَلَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي مُكَلَّفٌ مُحَاسَبٌ، مَثَابٌ عَلَى الْفِعْلِ وَمُعَاقَبٌ، هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَضَ نَهْضَةً عَازِمٍ صَدُوقٍ إِلَى دَارِ التَّكْلِيفِ وَقَضَاءِ الْحُقُوقِ فَفَيَّدْتَنِي نَفْسِي بِقِيُودِ الْهَوَى، أَفْسَدَتْ مِنْ حَالِي مَا اسْتَقَامَ وَاسْتَوَى، فَبَقِيْتُ أَتَفَكَّرُ فِي مَا جَرَى، وَأَمْسَحُ مِنْ عَيْنِي سِنَةَ الْكَرَى، وَأَقُولُ: مَاذَا مَنَعَنِي مِنْ مَقْصُودِي؟ وَأَيُّ شُغْلٍ شَغَلَنِي عَنْ مَعْبُودِي؟ وَمَا لِي أَقْصُرُ فِي سِيرِي؟ وَكَيْفَ سَبَقَنِي إِلَى الْفَضَائِلِ غَيْرِي، فَتَعَجَّبْتُ مِمَّا نَابَنِي، وَحَزَنْتُ لِمَا أَصَابَنِي، وَلَمْ أَزَلْ أَنْظُرُ فِي الْمَوَاضِعِ حَتَّى فَهَمْتُهَا، وَأَنْدَبَرُ

طَرِيقَ الْهُدَى حَتَّى عَلِمْتُهَا، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَبَلَ النَّفْسَ عَلَى حُبِّ الشَّهَوَاتِ وَجَعَلَهَا فِي حَبْسِ الْعَقْلَةِ، وَجَعَلَ لَهَا مِنْ رَائِقِ مَقْصُودِهَا مَا شَغَلَهَا وَجُودُهُ عَنْ وَجُودِهَا وَهِيَ تَمِيلُ إِلَى مُشْتَهَاهَا وَإِنْ أَذَاهَا إِلَى الْمَهَالِكِ.

لَمَّا وَضَعَ فِي قَلْبِهَا مِنْ حُبِّ ذَلِكَ، فَلَمَّا وَضَعَهَا الْحَقُّ عَلَى هَذَا وَالْفَهْمُ وَخَاطَبَهَا لِمُخَالَفَةِ طَبْعِهَا، وَكَلَّفَهَا وَحَذَّرَهَا مِنَ الرَّلَلِ وَخَوْفَهَا، وَضَمِنَ لَهَا أَنَّهَا إِنْ جَاهَدَتْ أَسْعَفَهَا، وَإِنْ تَرَكَتْ إِعْرَاضَهَا أَخْلَفَهَا، وَمَا وَعَدَهَا وَعْدًا قَطُّ فَأَخْلَفَهَا، وَأَوْضَحَ لَهَا غُيُوبَ الْعَاجِلَةِ وَكَشَفَهَا، وَرَغَّبَهَا فِي لَذَاتِ جَنَّتِهِ وَوَصَفَهَا، وَحَذَّرَهَا جَهَنَّمَ وَأَسْفَهَا، وَغَيَّظَهَا عَلَى الْعَصَاةِ وَلَهَفَهَا، وَأَعْلَمَهَا أَنَّ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

فَلَقَدْ أَنْصَفَهَا فَعَدَلْتُهَا وَفَرَّغْتُهَا وَأَوْعَدْتُهَا وَأَسْمَعْتُهَا، فَلَمْ تَرْتَدِعْ عَنْ هَوَاهَا وَلَمْ تَرْغَ عَمَّا أَذَاهَا، وَرَأَتْ مَصَارِعَ الْقُرْنَاءِ وَمَا كَفَاهَا، وَلَمْ تَأْتَفْ مِنْ ذُنُوبِهَا، وَذُلُّ الْمَعَاصِي قَدْ عَلَاهَا، فَكَانَ الْخِطَابُ الَّذِي أَتَى مِنْ سَوَاهَا إِلَى سَوَاهَا، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يُحَاسِبُهَا وَتَفْتَقِرُ إِلَى مَنْ يُطَالِبُهَا، وَلَا تَسْتَغْنِي عَنْ مُوَبِّخٍ يُعَاتِبُهَا، فَالْعَجَبُ مِنْ عَرَفَ نَفْسَهُ كَيْفَ أَهْمَلَهَا، وَاللَّهُ لَقَدْ ضَرَّهَا وَقَتَّلَهَا.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَزُولُ قَدَمَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَسْأَلَكَ عَنْ أَرْبَعٍ: عُمْرِكَ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ، وَجَسَدِكَ فِيمَا أَتْلَيْتَهُ، وَمَالِكَ مِنْ أَثَرِ اكْتَسَبْتَهُ، وَأَيْنَ أَنْفَقْتَهُ». وينشد:

تَعَاظَمَ ذَنْبِي حِينَ حَانَتْ مَنِيَّتِي فَقُلْ لِي مَتَى تَرْجُو الزِّيَادَةَ فِي الْعَمَلِ
وَقَدْ عَرَّنِي التَّسْوِيقُ حَتَّى تَقْطَعَتْ عَرَى الْعَيْشِ مِنْ عُمْرِي وَجَاءَنِي الْأَجَلُ
فَهَا أَنَا قَدَّمْتُ زَادًا لِرِحْلَتِي وَلَا تَمَّ لِي مَا كُنْتُ أَرْجُو مِنَ الْأَمَلِ
فِيَا أَسْفَى مِنْ يَوْمٍ عَرَضِي وَمَوْقِفِي إِذَا قُمْتُ مَا بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالْحَجَلِ
إِخْوَانِي، الْيَأْمُ سُنُّنُ رَوَاحِلُ وَمَا يُحَسِّنُ يَسِيرَهَا الرَّاحِلُ حَتَّى يَبْلُغَ الْبَلَدَ أَوْ
السَّاحِلَ، فَلْيَبَادِرِ الْمُسْتَدْرِكَ، وَمَا أَطْنُهُ يُدْرِكُ، مَا هَذِهِ الْعَقْلَةُ وَالْفُتُورُ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ
مُنْتَهَى السُّرُورِ؟ أَمَا الْأَجْدَاثُ الْمَنَازِلُ إِلَى التُّشُورِ، إِمَّا الْمَالُ إِلَى اللَّحُودِ وَالْقُبُورِ
﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: الآية ٣٦] بِبَعْضِ فِعْلِكَ تَهْلِكُ، أَيُّهَا
الشَّيْخُ، أَنْ الرَّحِيلُ عَنْ أَهْلِكَ، أَيُّهَا الْغَافِلُ مَا أَنْدَرَكَ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِكَ؟

السَّجْعُ عَلَى الْآيَةِ:

أَيُّهَا الضَّالُّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، أَمَا تَسْمَعُ صَوْتَ الْحَادِي قَدْ حَدَى مِنْ لَكَ إِذَا
ظَهَرَ الْجَزَاءُ وَبَدَأَ، وَرُبَّمَا كَانَ فِيهِ أَنْ تَشْقَى أَبَدًا ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ ،
وَيَحْكُ إِنَّ الرَّقِيبَ حَاضِرٌ يَرَعَى عَلَيْكَ اللِّسَانَ، وَالنَّاظِرُ، وَهُوَ إِلَى جَمِيعِ أَفْعَالِكَ
نَازِرٌ، إِنَّمَا الدُّنْيَا مَرَاحِلٌ إِلَى الْمَقَابِرِ، وَسَيَنْقُضِي هَذَا الْمَدَى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدىً﴾ .

مَا لِي أَرَاكَ فِي الدُّنُوبِ تُعَجِّلُ؟ فَإِذَا زُجِرَتْ عَنْهَا لَا تَقْبَلُ، وَيَحْكُ انْتَبِهْ
لِقَبِيحِ مَا تَفْعَلُ، إِنَّ الْأَجَالَ تَعْمَلُ فِي الْأَيَّامِ عَمَلَ الْمَدَى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدىً﴾ .

سَتَرَحَلُ مِنْ دُنْيَاكَ فَقِيرًا وَلَا تَمْلِكُ مِمَّا جَمَعْتَ نَقِيرًا، بَلَى قَدْ صِرْتَ بِالدُّنُوبِ
عَقِيرًا بَعْدَ أَنْ رَدَّاكَ التَّلَفُ رِدَاءَ الرَّدَى، ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ .

كَأَنَّكَ بِالْمَوْتِ قَدْ قَطَعَ وَبَتَّ وَبَدَّدَ الشَّمْلَ الْمُجْتَمَعَ وَشَتَّ وَأَثَّرَ فِينِكَ
النَّدَمَ حِينَئِذٍ وَبَتَّ، انْتَبِهْ لِنَفْسِكَ فَقَدْ أَشْمَتَ وَاللهُ الْعِدَى، ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدىً﴾ .

كَأَنَّكَ بِبِسَاطِ الْعُمُرِ وَقَدْ انْطَوَى بِعَوْدِ الصَّحَةِ وَقَدْ دَوَى، وَبِسَلِّكَ الْأَمَالَ قَدْ
قَطَعَ فَهَوَى، اسْمَعْ يَا مَنْ قَتَلَهُ الْهَوَى، وَمَا رَدَى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ .

بِاللهِ مَا يَقَالُ وَمَا يُعَدَّرُ، فَإِنْ كُنْتَ نَائِمًا فَانْتَبِهْ وَاحْذَرْ، كَمْ وَعَظَكَ أَحَدٌ غَيْرَكَ
وَكَمْ أَغْدَرَ مَنْ أُنْذِرَ قَبْلَ مَجِيئِهِ فَمَا اعْتَدَى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ .

بَادِرْ زَمَانَكَ وَاحْذَرْ الْقَوْتَ، وَأَصْبَحْ لِلزَّوَاجِرِ فَقَدْ رَفَعْتَ الصَّوْتَ وَتَذَكَّرْ
فَطَالَ مَا قَدْ سَهَوْتَ، وَاعْلَمْ قَطْعًا وَيَقِينًا أَنَّ الْمَوْتَ لَا يَقْبَلُ الْفِدَا ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ
أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ .

تَاللهِ انْهَضْ إِلَى التَّقْوَى بِقَرِيحَةٍ، وَابْكِ الدُّنُوبَ بِعَيْنِ الْقَرِيحَةِ وَارْزَعْ لِلْجَدِّ
أَغْضَاءَكَ الْمُسْتَرِيحَةَ، تَاللهِ لَئِنْ لَمْ تَقْبَلْ هَذِهِ النَّصِيحَةَ لَتَنْدَمَنَّ غَدًا ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ
أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: الآية ٣٦].

اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا فِي سَاعَتِنَا هَذِهِ أَدَبًا يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ وَإِلَى مَقَامِ الْخَاشِعِينَ وَفَهْمِ
 الْعَارِفِينَ، وَأَخْرِجْنَا بِعَفْوِكَ مِنْ سُجُونِ الْعَافِلِينَ الْمُذْنِبِينَ إِلَى تَمَتُّعِ رِيَاضِ
 الْعَامِلِينَ، وَاجْعَلْ مَجْلِسَنَا هَذَا لَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ حَتَّى تُبَلِّغَنَا بِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ،
 وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ
 الطَّاهِرِينَ، وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا دَائِمًا كَثِيرًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ الحَادِي والعِشْرُونَ في قِصَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَعَالِي عَنِ الْأَنْدَادِ الْمُتَقَدِّسِ عَنِ الْأَضْدَادِ، الْمُتَنَزِّهِ عَنِ الْأَوْلَادِ، الْبَاقِي عَلَى الْآبَادِ، رَافِعِ السَّبْعِ الشَّدَادِ عَالِيَةِ بَغْيِ عِمَادٍ، مُزَيَّنَةِ بِكُلِّ كَوْكَبٍ مُنِيرٍ وَقَادٍ، سَطْحِ الْأَرْضِ مُثَبَّتَةِ بِالرَّاسِيَّاتِ الْأَطْوَادِ، الْمُطْلِعِ عَلَى سِرِّ الْقَلْبِ وَضَمِيرِ الْفُؤَادِ، مُقَدِّرِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنَ الضَّلَالِ وَالرَّشَادِ، فِي بَحْرِ لُطْفِهِ تَجْرِي مَرَائِبُ الْعِبَادِ، وَعَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ مَنَاحُ الْعِبَادِ، وَفِي مِيدَانِ حُبِّهِ تَجُولُ خَيْلُ الزُّهَادِ، وَبِعَيْنِهِ مَا يَتَحَمَّلُونَ مِنْ ثِقَلِ الاجْتِهَادِ، أَعْطَى فَلَمْ يَخْفِ الْأَعْوَانُ وَالنَّفَادَ.

وَجَادَ عَلَى السَّائِلِينَ فَزَادَهُمْ مِنَ الرِّادِ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَلْفَ بَيْنَ الْأَجْسَادِ فَلَمْ يُشْبِهِ الْأَجْسَادَ، وَخَلَقَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وَتَوَحَّدَ بِالْأَنْفِرَادِ، ابْتَلَى بِالْغَفْلَةِ أَهْلَ الْيَقَظَةِ وَالْاجْتِهَادِ، لِيَنْكَسِرُوا بِالزَّلَلِ وَانْكَسَارُ الْعَبْدِ الْمُرَادِ، وَبَسَطَ لِسُلَيْمَانَ النَّيْلَ فَوَقَعَ الْمَيْلُ إِلَى الْخَيْلِ عَنْ بَعْضِ الْأُورَادِ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصُّفُوفُ الْإِيَادُ﴾ [ص: الآية ٣١].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَفُوقُ الْأَعْدَادَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ الْوَاحِدَ لَا كَالَاحَادِ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الْمَبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي بَدَّلَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَجَادَ، وَعَلَى عَمَرِ الْفَارُوقِ الَّذِي بَالَعَ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَأَجَادَ، وَعَلَى عُثْمَانَ الشَّهِيدِ، فَيَا فَحْرَهُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَعَلَى عَلِيِّ الَّذِي يَفْنَى الْبَحْرُ وَمَا لِعِلْمِهِ نَفَادُ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَآلِهِ الْأَمْجَادِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنًا نَّعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية ٣٠]،
دَاوُودُ، اسْمٌ أُعْجِمِيٌّ وَسُلَيْمَانُ اسْمٌ عِبْرَانِيٌّ، وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ مِنَ الْفِطْنَةِ مَا بَانَ بِهَا
الصَّوَابُ فِي حُكْمِهِ دُونَ حُكْمِ أَبِيهِ فِي قِصَّةِ الْحَارِثِ وَغَيْرِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنًا﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩]، فَمَاتَ دَاوُودُ وَمَلَكَ
سُلَيْمَانُ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةً فَزَادَهُ اللَّهُ عَلَى مُلْكِ دَاوُودَ وَسَخَّرَ لَهُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ وَالطَّيْرَ، وَكَانَ عَسْكَرُهُ مَائَةً فَرَسَخٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ لِلْوُحُوشِ وَخَمْسَةٌ
وَعِشْرُونَ لِلطَّيْرِ، وَكَانَ لَهُ أَلْفُ بَيْتٍ مِنْ قَوَارِيرَ فِيهَا ثَلَاثُمِائَةِ زَوْجَةٍ وَسَبْعُمِائَةِ سَرِيَّةٍ،
وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَتْ بِهِ الرِّيحُ إِلَى سَمْعِهِ.

وَكَانَ إِذَا جَلَسَ عَلَى الْبِسَاطِ وَأَشْرَافَ الْإِنْسَ مِمَّا يَلِيهِ، وَأَشْرَافَ الْجِنَّ مِنْ
وَرَائِهِمْ، ثُمَّ يَدْعُو الطَّيْرَ فَتُظِلُّهُمْ، ثُمَّ يَدْعُو الرِّيحَ فَتَحْمِلُهُمْ وَالطَّبَّاخُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ لَا
يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ عَمَلٌ فَيُطْعِمُ النَّاسَ النَّقِيَّ، وَيُطْعِمُ أَهْلَهُ الْخَشْكَارَ، وَيَأْكُلُ هُوَ الشَّعِيرَ.

وَرَوَى يَسَارٌ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ
سُلَيْمَانُ وَالْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ، فَأَمَرَ الرِّيحَ فَحَمَلَتْهُمْ حَتَّى سَمِعُوا
زَجَلَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ بِالتَّقْدِيسِ، ثُمَّ أَمَرَهَا فَحَظَّتْهُمْ حَتَّى مَسَّتْ أَقْدَامَهُمْ
الْبَحْرَ فَسَمِعُوا صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: لَوْ كَانَ فِي الْقَلْبِ صَاحِبِكُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ
الْكِبْرِ لَخَسَفَتْ بِهِ أَبْعَدَ مِمَّا رَفَعْتُهُ. وينشد:

يُحِبُّ الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الْحَيَاةَ فَنَاءُ
زِيَادَتُهُ فِي الْعُمُرِ نَقْصُ حَيَاتِهِ وَلَيْسَ عَلَى نَقْصِ الْحَيَاةِ نَمَاءُ
إِذَا مَا طَوَى يَوْمًا طَوَى الْيَوْمَ بَعْضَهُ وَيَطْوِيهِ إِنْ جَنَّ الْمَسَاءُ مَسَاءُ
جَدِيدَانِ لَا يَبْقَى الْجَمِيعُ عَلَيْهِمَا وَلَا لَهُمَا بَعْدَ الْجَمِيعِ بَقَاءُ

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَّعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، هَذَا نَهَايَةُ فِي الْمَدْحِ ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾
[ص: الآية ٣٠]، أَي: رَجَّاعٌ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَمَّا يَقَعُ مِنْ سَهْوٍ وَغَفْلَةٍ ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ
بِالْعَنِيِّ﴾ وَهُوَ مَا بَعْدَ الزَّوَالِ وَ﴿الْصَّافِنْتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: الآية ٣١] هِيَ الْحَيْلُ وَفِيهَا
قولان:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا الْقَائِمَةُ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمَ وَقَدْ أَقَامَتِ الْأُخْرَى عَلَى طَرَفِ

الْحَافِرِ مِنْ يَدٍ أَوْ رَجُلٍ وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ بْنِ زَيْدٍ، وَاخْتَارَهُ الزَّجَّاجُ وَاحْتَجَّ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَلِفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا

وَالثَّانِي: أَنَّهَا الْقَائِمَةُ سَوَاءٌ كَانَتْ عَلَى ثَلَاثٍ أَوْ غَيْرِ ثَلَاثٍ. قَالَ الْفَرَاءُ: عَلَى هَذَا رَأَيْتُ الْعَرَبَ وَأَشْعَارَهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا الْقِيَامُ خَاصَّةً. وَاحْتَجَّ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَلَى هَذَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقُومَ لَهُ النَّاسُ صُفُوفًا» - أي: قِيَامًا - «فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». وَأَمَّا الْحِيَادُ فَهِيَ السَّرَاعُ فِي الْمَشْيِ وَالْجَرِيِّ، وَسَبَبُ عَرْضِهَا عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ، وَفِي عَدْوِهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ.

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَمْ تَزَلْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ غَابَتِ الشَّمْسُ فَفَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَلَمْ يُذَكِّرُوهُ، وَلَئِنَّهُ كَانَ مَهِيئًا لَا يَبْتَدِئُهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ فَلَمَّا غَابَتْ ذَكَرَهُ ﴿فَقَالَ إِنَِّّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ - يَعْنِي أَثَرْتُ الْخَيْلِ - قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رُدُّوْهَا﴾ أي: أَعِيدُوا الْخَيْلَ، ﴿فَطَفِقَ مَسَاحًا بِالسُّوقِ﴾ [ص: الْآيَةُ ٣٣]، فَهِيَ جَمْعُ سَاقٍ، وَفِي الْمُرَادِ بِالْمَسْحِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ضَرَبَهَا بِالسَّيْفِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَرَى سَوْقَهَا وَأَعْنَقَهَا وَحَبَسَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَكَاهُ النَّعَلِيُّ وَالْعَلَمَاءُ عَلَى الْأَوَّلِ، لَمَّا نَظَرَ الْحَقُّ إِلَى حُسْنِ قَصْدِهِ فِي عَقْرِ الْخَيْلِ بَعَثَ اللَّهُ خَيْلًا لَا تَمْشِي بِالْأَرْجْلِ فَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ. وَيُنْشَدُ:

أَهْلُ الْمَحَبَّةِ لَا تَخْفَى شَوَاهِدُهُمْ ذَلُّوا فَعَزُّوا كَذَا حَالُ الْمُطِيعِينَ

الصَّبْرُ إِنْ مُنِعُوا وَالشُّكْرُ إِنْ رُزِقُوا فَالْقَوْمُ بِاللَّهِ فِي الْحَالَيْنِ رَاضِينَ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: الْآيَةُ ٣٤]، أي: ابْتَلَيْنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ وَالْجَسَدُ هُوَ الشَّيْطَانُ، يُقَالُ لَهُ صَخْرٌ وَلَمْ يَكُنْ مِمَّنْ سَخَّرَ لَهُ ثُمَّ أَنَابَ، أي: رَجَعَ عَنْ ذَنْبِهِ. وَقِيلَ: إِلَى مُلْكِهِ.

وَفِي سَبَبِ ابْتِلَائِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَانَ بَيْنَ أَهْلِهَا وَبَيْنَ قَوْمِ خُصُومَةٍ فَقَضَى بَيْنَهُمْ

بِالْحَقِّ إِلَّا أَنَّهُ وَدَّ لَوْ كَانَ الْحَقُّ لِأَهْلِهَا فَعُوقِبَ إِذْ لَمْ يَكُنْ هَوَاهُ بَيْنَهُمْ وَاحِدًا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وَالثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ الزَّوْجَةَ كَانَتْ مِنْ أَثَرِ النِّسَاءِ عِنْدَهُ، فَقَالَتْ لَهُ يَوْمًا: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ فَلَانَةَ خُصُومَةً وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ تَقْضِيَ لِي. فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَمْ يَفْعَلْ فَاثْنِي لِأَجْلِ مَا قَالَ، قَالَهُ السَّيِّدِيُّ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّ هَذِهِ الزَّوْجَةَ كَانَ قَدْ سَبَّاهَا فَأَسْلَمَتْ، فَكَانَتْ تَبْكِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَتَقُولُ: أَذْكُرُّ أَبِي وَمَا كُنْتُ فِيهِ، فَلَوْ أَمَرْتُ الشَّيَاطِينَ أَنْ يُصَوِّرُوا صُورَتَهُ فِي دَارِي أَتَسَلَّى بِهَا فَفَعَلَ، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ تَسْجُدُ لَهُ هِيَ وَوَلَائِدُهَا، فَلَمَّا عَلِمَ كَسَرَ تِلْكَ الصُّورَةَ وَعَاقَبَ الْمَرْأَةَ وَوَلَائِدَهَا.

قَالَ وَهَبٌ فِي كَيْفِيَّةِ ذَهَابِ الْخَاتَمِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا عَلَى شَطِّ شَاطِئِ الْبَحْرِ فَوَقَعَ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ شَيْطَانًا أَخَذَهُ.

ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَمَّا سُلَيْمَانُ، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ مُلْكُهُ انْطَلَقَ هَارِبًا فِي الْأَرْضِ فَكَانَ يَسْتَظْعِمُ فَلَا يُطْعَمُ فَيَقُولُ: لَوْ عَرَفْتُمُونِي أَعْطَيْتُمُونِي، أَنَا سُلَيْمَانُ، فَيَطْرُدُونَهُ حَتَّى أَعْطَتْهُ امْرَأَةٌ حُوتًا فَشَقَّهُ فَوَجَدَ الْخَاتَمَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فِي قَوْلِ الْحَسَنِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: بَعْدَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ مُلْكَهُ وَبَهَاءَهُ وَأَظْلَمَتِ الطَّيْرُ، أَقْبَلَ لَا يَسْتَقْبِلُهُ إِنْسِيٌّ وَلَا جِنِّيٌّ وَلَا طَائِرٌ وَلَا حَجَرٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا سَجَدَ لَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَنْزِلِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَجِئَ بِهِ فَجَعَلَهُ فِي صُنْدُوقٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَأَقْفَلَ عَلَيْهِ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وينشد:

مَوْلَى يَجُودُ عَلَى الْعَاصِي وَيَسْتُرُهُ وَقَدْ تَقَرَّبَ بِالْعِصْيَانِ مِنْ نِقَمِهِ
وَيُثْبِتُ الذَّنْبَ إِحْسَانًا وَمَغْفِرَةً فَنَحْنُ فِي حُكْمِهِ غَرْقَى وَفِي نِعَمِهِ
فَيَا مُقِيمًا عَلَى الْعِصْيَانِ مُجْتَهِدًا وَمَا أَرْعَوَيْتَ وَمَا اسْتَحْيَيْتَ مِنْ كَرَمِهِ

إِخْوَانِي، تَأَمَّلُوا هَذَا السُّلْطَانَ الْعَظِيمَ كَيْفَ نَزَلَ بِالزَّلَلِ، وَاخْتَلَّتْ أُمُورُهُ بِالْخَلَلِ. فَخَطُّوهُ أَوْجَبَ خُرُوجَهُ مِنَ الْمَمْلَكَةِ، وَلَقَمَهُ آدَمُ كَادَتْ تُرْفَعُهُ فِي مَهْلَكَةِ،

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّقْوَى فَإِنَّهَا سَبِيلُ السَّلَامَةِ، فَمَنْ أَخْطَأَهَا أَخْطَأَتْهُ الْكَرَامَةُ، أَي: مَتَى رَأَيْتُمْ الْعَقْلَ يُؤَثِّرُ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي؟ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُسِخَ مَنْ رَكِبَ ظَهَرَ التَّفْرِيطُ نَزَلَ بِهِ مَنْزِلَ النَّدَمِ. أَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّ دَاوُودَ أُعْطِيَ نِعْمَةً نِعْمَةً كَانَ يَقِفُ لَهُ الْمَاءُ وَالطَّيْرُ فَاِمْتَدَّتْ يَدُ التَّفْرِيطِ فَقَدَّتْ فَمِئِصَ الْعِفَّةِ فَأَثَّرَ زَلَّتُهُ حَتَّى فِي التَّلَاوَةِ. وينشد:

يَا بَعِيدَ الدَّارِ عَنْ وَطْنِهِ	مُفْرَدًا يَبْكِي عَلَى شَجَرِهِ
كُلَّمَا جَدَّ النَّحِيبُ بِهِ	زَادَتِ الْأَسْقَامُ فِي بَدَنِهِ
وَلَقَدْ زَادَ الْفُؤَادُ شَجَى	هَاتِفٌ يَبْكِي عَلَى فَنَنِهِ
شَقُّهُ مَا شَقَّنِي فَبَكََا	كُلُّنَا نَبْكِي عَلَى سَكْنِهِ

إخواني، إِذَا قَرَعَ الْمَرْءُ بَابَ الْكُھُولَةِ فَلَقَدْ اسْتَأْذَنَ عَلَى الْبَلَاءِ فَقَطَعَ وَاللهُ الْمَشِيبُ سِلْكَ الْعُمُرِ، وَدَهَبَتِ الْقُوَى فِي الْهَوَى وَلَمْ يَبْقَ حِيلَةٌ إِلَّا الْانْكِسَارُ، وَالْبُكَى كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الشَّبَابِ، شَهْرٌ وَكُلُّ شَهْرٍ دَهْرٌ؛ فَإِذَا نَزَلَ الْمَشِيبُ نَفَدَ الْحِسَابُ، سُقِيَ مِنَّا وَلِيَالِي الْخَيْفِ مَا شَرِبْتَ، أَيُّهَا الشَّيْخُ مَاتَتْ لَذَّةُ الْهَوَى وَخَلَقْتَ عِنْدِي خِرْقَةً الْأَسَى. شعر:

يَا يَوْمَ مُفْتَرَقِ الرَّفَاقِ	تَرَى تَعُودُ لِمُلْتَقَاهَا
هَكَذَا تَذُوبُ عَلَيْكُمْ نَفْسِي	وَمَا بَلَغَتْ مُنَاهَا
وَاهَا عَلَيْهَا وَلَوْلَا أَنْ	يَلُومَ اللَّائِمُونَ لَزِدْتُ آهًا

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ لِأَصْحَابِهِ: لَوْ رَأَيْتُمْ فِي الْجَنَّةِ رَجُلًا يَبْكِي أَمَا كُنْتُمْ تَعَجَّبُونَ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: وَأَعْجَبُ مِنْهُ رَجُلٌ يَضْحَكُ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَذْهَبُ إِلَى مَا يَصِيرُ.

يَا أَيُّهَا الْمُعْجَبُ بِنَفْسِهِ تَأَمَّلْ أَصْلَكَ نُظْفَةً، بِالْأَمْسِ جِيفَةً، فِي الْعَدِ عَاجِزٌ، فِي الْحَالِ إِذَا أَثَارَ عَجَاجُ غُبَارِهِ الْعُجْبِ عَطَى عَيْنِ الْبَصَائِرِ، وَإِذَا غَضِبَتْ فَاسْكُتْ فَنِعَمَ السَّمْتُ الصَّمْتُ إِنَّهُ لَيَسْتَرُ الْمَعَايِبَ مَتَى تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ.

مَا سَعَدَ مَنْ سَعِدَ إِلَّا بِنَقْصِ الْهَوَى، رُؤْيُكَ لِنَفْسِكَ يُورِثُ الْعَمِيَّ عَنِ

الْحَقَائِقِ . سُكُوتُكَ إِلَى مَدْحِكَ كَمِينُ مَكْرِ بِكَ نَفْسُكَ إِلَى الدَّمِّ أَحْوَجُ مِنْهَا إِلَى الْمَدْحِ . كَيْفَ لَا وَطَاعَتُهَا تَدْعُوكَ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَرِضَاهَا تَحْمِلُكَ عَلَى سَخَطِهِ ، وَيَحْكُ أَرْضُ الْفِطْرَةِ زَكِيَّةً ، فَاَنْظُرْ مَاذَا تَعْرِسُ إِنْ عَرَسْتَ أَشْجَارَ التُّقَى أَثْمَرَتْ حَلَاوَةَ الْأَبَدِ ، وَإِنْ بَذَرْتَ بُذُورَ التَّبْذِيرِ فَكُلُّ ثِمَارِهَا مُرٌّ . شعر :

مَجْلِسُنَا مَا تُمْ لِلذُّنُوبِ فَاْبْكُوا فَقَدْ حَانَ مِنَّا الْبُكَاءُ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ مِيعَادُنَا لِكَشْفِ السُّتُورِ وَهَتْكَ الْغِطَاءُ

فَيَا مَنْ عَمَلُهُ بِالنِّفَاقِ مَغْشُوشٌ يَتَزَيَّنُ لِلنَّاسِ كَمَا يَتَزَيَّنُ الْمَنْقُوشُ . إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى الْبَاطِنِ لَا إِلَى النَّقُوشِ ، إِذَا هَمَمْتَ بِالْمَعَاصِي فَادْكُرْ يَوْمَ النُّعُوشِ ، فَكَيْفَ تُحْمَلُ إِلَى قَبْرِ الْجَنْدَلِ مَفْرُوشٌ . مَنْ لَكَ إِذَا جُمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالْوُحُوشُ؟ وَقَامَ الْعَاصِي مِنْ قَبْرِ حَيْرَانَ مَذْهُوشٌ ، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝﴾ [القارعة: الآية ٥] .

السَّجْع:

يَا مَنْ أَغْصَانُ إِخْلَاصِهِ ذَاوِيَّةٌ ، وَصَحِيفَتُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ حَاوِيَّةٌ ، لَكِنَّهَا لِكِتَابِ الذُّنُوبِ حَاوِيَّةٌ . كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبُطُونِ الطَّائِوِيَّةِ؟ كَمْ بَيْنَ طَائِفَةِ الْهُدَى وَالْعَاوِيَّةِ؟ أَعْلِمِ أَعْضَاءَكَ أَنَّهَا فِي الثَّرَابِ ثَاوِيَّةٌ ، لَعَلَّكَ تَتَفَرَّدُ بِالْجِدِّ فِي زَاوِيَةِ قَبْلِ أَنْ تَعْجِزَ عِنْدَ الْمَوْتِ الْقُوَّةُ الْمُتَقَاوِيَّةُ . وَتَرَى عُتْقَ الْمِيزَانِ لِقَلَّةِ الْخَيْرِ لَاوِيَّةٌ ، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَّةٌ ۝﴾ [القارعة: الآيتان ٨ ، ٩] .

ذِكْرُ الْحِسَابِ أَطَارَ عَنْ أَعْيُنِ الْمُتَّقِينَ النَّعَاسَ ، وَلَثَقِيلُ الْمِيزَانِ فَرَعَتْ أَكْيَاسَ الْأَكْيَاسِ مَنْ قَدَّمَ مَالَهُ فَهُوَ لَهُ وَمَا خَلَقَهُ بَعْدَهُ فَلَيْسَ لَهُ . وينشد :

كَيْفَ الرَّحِيلُ بِلَا زَادٍ إِلَى وَطَنِ لَا يَنْفَعُ الْمَرْءَ فِيهِ غَيْرُ تَقْوَاهُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَهُ التَّقْوَى فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذْرٌ عِنْدَ مَوْلَاهُ

السَّجْع:

يَا مَنْ أَرْكَانُ إِخْلَاصِهِ وَاهِيَّةٌ ، أَمَّا لَكَ مِنْ عَقْلِكَ نَاهِيَّةٌ؟ إِلَى مَتَى نَفْسُكَ

سَاهِيَةً؟ مُعْجَبَةً بِالدُّنْيَا زَاهِيَةً، مُفَاخِرَةً لِلْأَقْرَانِ مُضَاهِيَةً، النَّارُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَتَكْفِي دَاهِيَةً، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾.

يَوْمَ تَقُومُ مِنْ قَبْرِكَ ضَعِيفَ الْجَاشِ، قَدْ جَالَ قَلْبُكَ فِي بَدَنِكَ وَجَاشَ، وَابِلُ الدَّمْعِ يَسْبِقُ الرَّشَاشَ، أَتَدْرِي مَا تُلَاقِي فِي الْعُطَاشِ الظَّامِيَةِ؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ ﴿١١﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾ [القارعة: الآيتان ١٠، ١١].

لَوْ رَأَيْتَ الظَّالِمَ قَدْ شَقِيَ يَصْبِيحُ فِي الْمَوْقِفِ وَأَقْلَقِي، اشْتَدَّ وَاللهُ عَطَشُهُ وَمَا سُقِيَ، وَشَرُّ النَّارِ إِلَيْهِ تَقِي، فَمَنْ يَتَّقِي تِلْكَ الرَّامِيَةَ؟ ﴿نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾ [القارعة: الآية ١١].

لَوْ رَأَيْتَهُ يُقَاسِي حَرَّهَا، وَيُعَانِي ضَرَّهَا، جَحِيمَهَا وَقَرَّهَا، وَاللهُ لَا يَدْفَعُ الْيَوْمَ شَرَّهَا، إِلَّا عَيْنُ هَامِيَةٍ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾ [القارعة: الآيتان ١٠، ١١].

أَيْنَ مَنْ عَلَا وَتَكَبَّرَ؟ أَيْنَ مَنْ عَتَا وَتَجَبَّرَ؟ أَيْنَ مَنْ لِلدُّوَلِ بِالظُّلْمِ دَبَّرَ؟ مَسْكَنُهُ الْهََاوِيَةُ، ﴿نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾.

يَوْمَ يَفِرُّ الْوَلَدُ مِنْ أَبِيهِ، وَالْأَخُ مِنْ أَخِيهِ، وَكُلُّ قَرِيبٍ مِنْ ذَوِيهِ، إِسْمَعْ يَا مَنْ مَعَاصِيهِ نَامِيَةٌ ﴿نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾.

لِهَذَا كَانَ الْمُتَّقُونَ يَتَّقُونَ، وَيَخَافُونَ وَيَتَّقُونَ، فَكَمْ جَرَتْ مِنْ عُيُونِهِمْ عُيُونٌ، كَانَتْ جُفُونُهُمْ دَائِمَةً دَامِيَةً، ﴿نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾ [القارعة: الآية ١١].

اللَّهُمَّ رَدَّنَا إِلَيْكَ رَدًّا جَمِيلًا. اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِلْهَوَى عَلَى عُقُولِنَا سَبِيلًا. اللَّهُمَّ رَعْبْنَا فِيمَا بَيْنَقَى. اللَّهُمَّ زَهْدْنَا فِيمَا يَفْنَى. اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّنَا بِالْخَبِيَةِ مَطْرُودِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا دَائِمًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ الثَّانِي والعِشْرُونَ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ مَعَ بَلْقِيسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لِقُدْرَتِهِ يَخْضَعُ مَنْ يَعْبُدُ، وَلِعَظَمَتِهِ يَخْشَعُ مَنْ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ،
وَلِطِبِّ مُنَاجَاتِهِ يَسْهَرُ الْعَابِدُ وَلَا يَرْقُدُ، وَلِطَلَبِ ثَوَابِهِ يَقُومُ الْمُصَلِّي وَيَقْعُدُ. وَإِذَا
دَخَلَ الدَّخْلُ فِي الْعَمَلِ يَفْسُدُ.

وَإِذَا قُصِدَتْ بِهِ سُوءُ الْخَلْقِ يَكْسُدُ، يَجِلُّ كَلَامُهُ عَنْ أَنْ يُقَالَ مَخْلُوقٌ
وَيَبْعُدُ مَنْ شَبَّهَ أَوْ عَطَّلَ لَمْ يَرْشُدْ، مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَنَا أَوْ فِي السُّنَّةِ لَمْ تَرُدُّ،
فَلَمَّا أَنْ تَقُولَ فِي الْخَالِقِ بِرَأْيِكَ فَإِنَّهُ يَبْزُدُ، أَلَيْسَ هَذَا اعْتِقَادُكُمْ يَا أَهْلَ الْخَيْرِ؟
وَكَيْفَ لَا اتَّفَقَدَ الْعَقَائِدَ خَوْفًا مِنَ الضَّيْرِ؟ فَإِنَّ سُلَيْمَانَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ، ﴿فَقَالَ مَالِكُ
لَا أَرَى الْهَذْهَذَ﴾؟

أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ يُرْشِدَ بِالْوُقُوفِ عَلَى بَابِهِ فَلَا يَشْرُدُ، وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ
مُحَمَّدٍ الَّذِي قِيلَ لِحَاسِدِهِ فَلْيَمْدُدْ، وَعَلَى الصَّدِيقِ الَّذِي فِي قُلُوبِ مُجِبِّيهِ فَرَاحَتْ،
وَفِي صُدُورِ مُبْغِضِيهِ فَرَاحَتْ فِيهَا تَوْقُدُ، وَعَلَى عَمَرَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُقَوِّي الْإِسْلَامَ
وَيَعُضِّدُ، وَعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي جَاءَتْهُ الشَّهَادَةُ فَلَمْ يَرُدُّ، وَعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ
يَنْسِفُ زَرْعَ الْكُفْرِ بِسَيْفِهِ وَيَحْصُدُ، وَعَلَى عَمِّهِ الَّذِي يَغْلُو نَسَبُهُ الْأَنْسَابَ وَيَمْجُدُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَذْهَذَ﴾ [النمل: الآية ٢٠]؟
رَكِبَ سُلَيْمَانَ يَوْمًا مَرْكَبَ الرِّيحِ فَرَاخَتْ بَوَادِرُهُ عَلَى وَادِي النَّمْلِ فَتَدَثَّ نَمْلَةٌ
فَنَادَتْ أَخَوَاتَهَا بِنَدَّةٍ ﴿لَا يَحِطُّنَّكُمْ سُلَيْمَنٌ وَخُودُهُ﴾ [النمل: الآية ١٨]، ثُمَّ قَامَتْ

فَأَقَامَتْ لِعَذْلِهِ عُدْرَ ﴿وَهَرَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: الآية ١٨]، فَحَمَلَتْهُ أَرْبِحِيَّةُ الشُّكْرِ عَلَى طَرَبٍ ﴿فَبَسَسَ صَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾ [النمل: الآية ١٩]، وَذَلِكَ أَنَّهَا بِلْفِظَةٍ ﴿يَا﴾ نَادَتْ ﴿أَيُّهَا﴾ نَبَّهَتْ النَّمْلَ، حَدَرَتْ ﴿أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾، أَمَرَتْ ﴿لَا يَحِطَمَنَّكُمْ﴾، نَبَّهَتْ ﴿سُلَيْمَنُ﴾، خَصَصَتْ ﴿وَجُودُكُمْ﴾، عَمَّتْ ﴿وَهَرَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: الآية ١٨] عَذْرَتْ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] مُلْكُهُ ﴿عَلَىٰ وَادِ الْأَنْمِلِ﴾ [النمل: الآية ١٨] وَقَعَ فِي مَفَازَةٍ لَا يَرَىٰ فِيهَا عَيْنَ الْمَاءِ عَلَىٰ مَا عَلِمْنَا فَجَاشَ جَاشٌ صَدَرَ الْجَيْشِ لِفَقْدِهِمْ فِي الْفَقْرِ إِلَى الْمَاءِ، وَكَانَ الْهُدْهُدُ يَذُّلُهُمْ عَلَى الْمَاءِ فَعَابَ، ﴿فَقَالَ مَا لَكِ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ؟ - وَالْمَعْنَى مَا لِلْهُدْهُدِ لَا أَرَاهُ؟ - أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَايِينِ﴾ ٢٠ لَا عَذْبَتُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحَتْهُ﴾ [النمل: الآية ٢٠، ٢١].

قال ابن عباس: يَنْتِفِفُ رِيشُهُ.

وَقَالَ الصَّحَّاحُ: شَدَّ رِجْلِيهِ وَتَشَمَّسِيهِ ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: الآية ٢١]، أَي: بِحُجَّةٍ، وَكَانَ الْهُدْهُدُ حِينَ نَزَلَ سُلَيْمَانُ قَدْ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ يَتَأَمَّلُ الْأَرْضَ، فَرَأَى بُسْتَانًا لِبَلْقَيْسَ فَمَالَ إِلَى الْخُضْرَةِ فَإِذَا هُوَ بِهُدْهُدٍ لَهَا، فَقَالَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَقَالَ: مِنَ الشَّامِ مَعَ صَاحِبِي سُلَيْمَانَ.

فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ هَذَا هِدِ الْبِلَادِ وَمَلِكُتُهَا بَلْقَيْسُ، فَاَنْطَلَقَ مَعَهُ فَرَأَى بَلْقَيْسَ وَمُلْكَهَا.

وَبَلْقَيْسُ لَقَبٌ، وَاسْمُهَا بَلْقَمَةُ بِنْتُ ذِي سَرَجٍ. وَقِيلَ: بِنْتُ شَيْطَانٍ مَلِكٍ سَبَأً، ثُمَّ احْتَضَرَ فَاسْتَحْلَفَهَا لِمَا رَأَى مِنْ رَأْيِهَا وَتَذْيِيرِهَا فَمَلَكَتْ وَكَانَتْ سَاكِنَةً فِي أَرْضِ سَبَأٍ وَهِيَ مَارِبُ.

وَكَانَ تَحْتَ يَدِهَا الْمُلُوكُ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْهُدْهُدُ رَجَعَ. قَالَ سُلَيْمَانُ: مَا الَّذِي غَيَّبَكَ؟ ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: الآية ٢٢]. وَسَبَأٌ: هِيَ الْقَبِيلَةُ الَّتِي مِنْ أَوْلَادِ سَبَأَ بْنِ يَشْحُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَهُوَ اسْمُ رَجُلٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سَبَأَ أَرَجُلٍ، أَمْ امْرَأَةٍ، أَمْ أَرْضٍ؟ فَقَالَ: بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلِدَ لَهُ عَشْرَةُ أَوْلَادٍ فَسَكَنَ الِیْمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةً، وَبِالشَّامِ أَرْبَعَةً، فَأَمَّا الِیْمَانِيُّونَ؛ فَمُدْحِجٌ وَكَنْدَةٌ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْجَارٌ وَحَمِيرٌ. وَأَمَّا الشَّامُ؛ فَلَحْمٌ وَجَذَامٌ وَعَامِلَةٌ وَعَسَانٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ - يَعْنِي بَلْقِيسَ - ﴿وَأُوْتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُعْطَاهُ الْمُلُوكُ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٢٣] وَهُوَ السَّرِيرُ. وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ قَوَائِمُهُ مِنْ جَوْهَرٍ مُكَلَّلٍ بِاللُّلُؤِ. ثُمَّ كَتَبَ كِتَابًا وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ وَدَفَعَهُ إِلَى الْهُذْهِدِ وَقَالَ: ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَي: اسْتَتِرْ، ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: الآية ٢٨] أَي: يردون مِنَ الْجَوَابِ.

فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَى رَأْسِ الْمَرْأَةِ رَفَرَفَ سَاعَةٌ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ فَרَفَعَتْ رَأْسَهَا فَأَلْقَتْ الْكِتَابَ مِنْ قَادَةِ مَنْقَارِهِ فِي حِجْرِهَا، فَرَأَتْ الْيَقْظِي يَنْفِطَانِ فَهَمَّهَا كِتَابًا مَخْتُومًا وَكَلَامًا عَجِيبًا وَحَامِلًا غَرِيبًا، فَصَادَهَا الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ فَصَادَاَهَا فَاسْتَشَارَتْ قَوْمَهَا فَأَوْمَرُوا إِلَى الْحَرْبِ بِلَفْظِ ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْوَءِ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٣٣] - وَالْمَعْنَى نَقْدِرُ عَلَى الْقِتَالِ -، ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، أَي: أَخْرَبُوهَا وَأَذَلُّوا أَهْلَهَا، فَصَدَّقَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: الآية ٣٤]، فَعَلِمَتْ أَنَّ مَنْ جُنْدُهُ الطَّيْرُ لَا يُقَاوِي وَبَقِيَتْ مَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الدَّعْوَةِ وَالِدَّعَاوِي ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: الآية ٣٥] وَاعْجَبَا لِلذَّهَبِ إِذَا ذَهَبَ سَهْمُهُ وَلَا يُخْطِئُ وَلِلرَّشَا إِذَا رَشَتْ مَزَالِقَ أَفْدَامِ الْعَقْلِ لَا يُيْطِئُ. وينشد:

لَا يَغُرَّتْكَ مِنَ الْمَرْءِ رِذَاءُ رَفَعَهُ وَقَمِيصٌ فَوْقَ كَعْبِ السَّاقِ مِنْهُ رَفَعَهُ
وَجَبِينٌ لَاحٍ مِنْهُ أَثَرٌ قَدْ صَنَعَهُ أَرَاهُ الدَّرْهَمَ تَعْرِفُ غِيَّهَ أَوْ وَرَعَهُ

فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ ثَلَاثَ لَبَنَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي كُلِّ لَبْنَةٍ مِئَةُ رَطْلٍ وَيَا قُوَّةَ حَمَرَاءَ طُولُهَا شِبْرٌ مَثْقُوبَةٌ، وَثَلَاثِينَ وَصِيفًا وَثَلَاثِينَ وَصِيفَةً أَلْبَسَتْهُمْ لِبَاسًا وَاحِدًا فَلَا يُعْرِفُ الذَّكَرُ مِنَ الْأُنْثَى، ثُمَّ كَتَبَتْ إِلَيْهِ قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْخَلَ فِي الْيَاقُوتَةِ خَيْطًا وَاخْتَمَّ عَلَى طَرَفَيْهِ بِخَاتَمِكَ، وَمَيَّزَ بَيْنَ الْجَوَارِي وَالْعِلْمَانِ.

فَدَعَا بِالذَّرَّةِ وَرَبَطَ فِيهَا خَيْطًا وَأَدْخَلَهَا فِي ثُقْبِ الْيَاقُوتَةِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ

طَرَفَهَا الْآخِرَ، ثُمَّ جَمَعَ طَرَفَيَّ الْخَيْطِ فَخَتَمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ مَيَّزَ بَيْنَ الْغُلَّامِ وَالْجَوَارِي بِأَنْ أَمَرَهُمْ بِالْوُضُوءِ.

قَالَ قَتَادَةُ: بَدَأَ الْغُلَّامُ بِغَسْلِ ظَوَاهِرِ السَّاعِدِ وَالْجَوَارِي عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ، ثُمَّ صَاحَ سُلَيْمَانُ بِعَزْرٍ: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ﴾ [النمل: الآية ٣٦]؟ ثُمَّ قَالَ لِلرَّسُولِ: ﴿أَنْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ [النمل: الآية ٣٧] لَيْسَ الشَّأْنُ فِي تَحْصِيلِ أَلْفَاظِ الْعِلْمِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي تَحْصِيلِ الْمَعْنَى. أَظَرَفَ الْأُمُورَ انْقِيَادُ الْعَقْلِ إِلَى طَاعَةِ الْحِسِّ وَهُوَ يَعْلَمُ غَيْبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ. وَآسَفًا عَلَى حُرِّ اسْتِعْبَادِهِ الْهَوَى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٠]، فَقَدِّمُ يَا أَخِي فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَاعْتَنِمَ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْآخِرَةَ مِرْأَةُ الدُّنْيَا فَمَا عَمِلْتُهُ فِي هَذِهِ رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ تَعْمَلُ وَغَدًا تَرَى، فَإِنْ كُنْتَ عَاقِلًا فَابْنِكْ عَلَى مَا جَرَى، وَادْكُرْ مَا قَدَّمْتَ فَكَأَنَّكَ قَدْ وَصَلْتَ. وينشد:

ذَكَرْتُ إِسَاءَتِي فَازْدَدْتُ حُزْنًا وَمِثْلِي مَنْ تَذَكَّرْتُ نَاحَا
قَطَعْتُ الْعُمُرَ عِضْيَانًا وَجَهْلًا وَجَانِبْتُ الْمُرُوءَةَ وَالصَّلَاحَا
سَيَّبِدِي الْعِرْضُ مِنْ يَوْمٍ حَشْرِي لِأَهْلِ الْعَرَضِ أَحْوَالًا قَبَاحَا

يَا هَذَا، تَدَّرَعُ بِدُرُوعِ أَهْلِ التَّقَى تَقِي، ثُمَّ انْدَمَ عَلَى مَا فَاتَ، فَعِنْدَ الْمَمَاتِ تَظْهَرُ الْمُخْبَاطُ، وَيَحْكُ يَا رَاحِلُ وَمَا حَصَلَتْ عَلَى طَائِلٍ، إِلَى كَمْ تَنَامُ وَظِلَامُ لَيْلِكَ عَادَ صَبَاحُ؟ بِاللَّهِ أَمَا عَلَيْكَ فِي قُبْحِ فِعْلِكَ جَنَاحُ؟ لَكِنْ طَائِرُ جِدِّكَ مَقْضُوصُ الْجَنَاحِ، وَيَحْكُ بِذَلِكَ أَقْدَامَ النَّدَامَةِ قَبْلَ الْإِقْدَامِ عَلَى صِرَاطِ الْقِيَامَةِ، فَكَمْ مِنْ أَمِيرٍ كَانَتْ لَهُ جُنُودٌ وَأَبْطَالٌ حَالُهُ بِالْحِمَامِ قَدْ حَالَ، وَكَمْ مِنْ آمِنٍ فِي سِرْبِهِ نَادَى مُنَادِي الْمَنَابَا يَسْرِبُهُ، أَوَّاهُ كَمْ مِنْ رَجُلٍ كَانَ عَلَى عِيَالِهِ شَدِيدَ الْحَذَرِ غَيْرَةَ غَيْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ مَلَكَهِنَّ غَيْرُهُ وَبَاتَ فِي قَبْرِهِ فِي حَيْرَةٍ. وينشد:

مُقِيمٌ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ خَلْقَهُ لِقَاؤُكَ لَا يُرْجَى وَأَنْتَ قَرِيبُ
تَزِيدُ بَلَى فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَتُبْلَى كَمَا تُبْلَى وَأَنْتَ حَبِيبُ
إِخْوَانِي، الْحَرَصُ يَضْرِبُ ظَهَرَ الْحَرِيصِ بِعَصَا الْحُبِّ، فَلَوْ قَدْ عَصَى كُفَّ

الْعَصَا، اسْلُكُوا سَبِيلَ الْقَنَاعَةِ مَا زَادَ عَلَى الْقُوْتِ مُسْتَخْدِمٌ لِصَاحِبِهِ، الْحِشُّ
أَعَشَى وَالْعَقْلُ عَيْنُ الْهُدْهِدِ.

يَا هَذَا، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَقَادِيرَ إِذَا سَاعَدَتْ أَلْحَقَتْ الْعَاجِزَ بِالْحَازِمِ، وَيَحَكُّ
الْهَوَى أَهْوَى بَكَ فِي دَقِّ قَلْبِكَ دَوًى، فَهُوَ يَمْنَعُ وَقُوْعَ سَهْمِي فِي مَرْمَى سِرِّكَ لَا
بِالتَّسْوِيفِ تَسْتَوِي وَلَا بِالتَّخْوِيفِ تَرْعَوِي، وَيَحَكُّ اقْطَعْ طَرِيقَ الطَّبْعِ بِأَقْدَامِ
الْمُجَاهِدَةِ، فَإِنْ خَلَصْتَ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَصَلْتَ إِلَى عَيْنِ الْحَيَاةِ، وَاجْتَمَعَ لَكَ مِثْلُكَ
الْإِسْكَندَرِ فِي طَوْلِ عُمَرِ الْخَضِرِ، أَشْرَافُ الْأَوْصَافِ أَوْصَافُ الْأَشْرَافِ، سَادَاتُ
الْعَادَاتِ عَادَاتُ السَّادَاتِ، أَحْرَارُ الشَّيْمِ شَيْمُ الْأَحْرَارِ.

إخواني، أَفِيكُمْ مَنْ يُعَيِّنُنِي عَلَى شَجْنِي؟ أَفِيكُمْ مَنْ يُسَاعِدُنِي عَلَى حُزْنِي؟
سَبِّقُونِي وَمَا تَرَكْتُ، أَرَادُونِي وَمَا أَرَادُونِي فَرِّدُونِي. وينشد:

فَأَضْبَحْتُ كَالْبَازِي الْمُنْتَفِ رِيْشُهُ يَرَى حَسْرَاتٍ كُلَّمَا طَارَ طَائِرُ
يَرَى طَائِرَاتِ الْجَوِّ يَخْرِقْنَ فِي الْهَوَى فَيَذْكُرُ رِيْشًا مِنْ جَنَاحِيهِ وَافِرُ
وَقَدْ كَانَ دَهْرًا فِي الرِّيَاضِ مُنْعَمًا عَلَى كُلِّ مَا يَهْوِيهِ مِنَ الصَّيْدِ قَادِرُ
إِلَى أَنْ أَصَابَتْهُ مِنَ الدَّهْرِ نَكْبَةٌ فَهَا هُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحَيْنِ خَاسِرُ

رَجَعْنَا إِلَى الْقِصَّةِ، فَلَمَّا صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَهَا مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَثَبَتْ وَثَبَّةً عَلَى
أَقْدَامِ الطَّلَبِ، وَهَيَّأتْ مَرَائِبَ الْقَصْدِ فَرَحَلَتْ فِي هَجِيرِ شَمْسِ الْهُدَى عَلَى
نَجَائِبِ الْهَجْرَةِ، فَلَمَّا سَمِعَ سُلَيْمَانُ بِرَحِيلِهَا أَرَادَ تَقْوِيَةَ دَلِيلِهَا فَنَادَى فِي نَادِي
عَفَارِيَّتِهِ مُسْتَعْرِضًا جُنْدَ بَطْشِهَا ﴿أَنْتُمْ يَا بَنِي بَعْرُشَهَا﴾ [النمل: الآية ٣٨]؟ فَلَمَّا جِيءَ بِهِ
سَرَّهُ بِقَوَامِ ﴿نَكْرُوا﴾ [النمل: الآية ٤١]، ثُمَّ ابْتَلَاهَا لِيَرَى ذِكَاءَهَا ﴿هَكَذَا عَرْشُكَ﴾
[النمل: الآية ٤٢]؟ ثُمَّ صَرَخَ بِلَفْظِ ﴿أَدْخِلِي الصَّخْرَ﴾.

وَكَانَ قَدْ وَقَعَ الشَّيَاطِينُ فِيهَا عِنْدَهُ قَالُوا: رِجْلُهَا كَرِجْلِ الْحِمَارِ. فَأَمَرَ
أَنْ يَرَى ذَلِكَ فَشَبَّهَ لَهَا بِضَعْفِهَا عَنْ إِطَاقَةِ كَأْسِ سَاقِيْنَهَا ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ
سَاقِيْنَهَا﴾، فَلَمَّا وَصَلَتْ وَسَلَّمَتْ أَسْلَمَتْ فَسَلِمَتْ وَحَلَّتْ قَبْلَ أَنْ حَلَّتْ نِطَاقَ
النُّطْقِ، فَنَشَرَتْ خَرَزَاتِ نِظَامِهِ عَلَى نَظْمِ الْعُذْرِ ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أَيِ:
بِمَا سَبَقَ مِنَ الْكُفْرِ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: الآية ٤٤].

فَتَزَوَّجَهَا سُلَيْمَانُ وَرَدَّهَا إِلَى مُلْكِهَا، وَكَانَ يَزُورُهَا فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً وَيُقِيمُ عِنْدَهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَبَقِيَ مُلْكُهَا إِلَى أَنْ مَاتَ سُلَيْمَانُ فَزَالَ مُلْكُهَا بِمَوْتِهِ.

إِخْوَانِي، اسْمَعُوا هَذَا كُمْ اللَّهُ: عَقَرَ سُلَيْمَانُ الْخَيْلَ فَسَخَّرَنَا لَهُ الرِّيحَ. وَاسْمَعْ يَا بَخِيلُ، غَدًا يَقُولُ الْمَحْبُوسُونَ لِلسُّؤَالِ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْمُبْرُؤُونَ مِنَ الْعَيْبِ؟ فَيَقَالُ: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٩].

فَيَقُولُونَ: مَا حَالُهُمْ؟ فَيَقَالُ: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَثَابٍ﴾ [الرعد: الآية ٢٩]، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا بَدَأَ لَهُمُ الْحَزَنَةُ بِالتَّسْلِيمِ إِنَّمَا لِرَفْعِ التَّكْلِيفِ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الرُّم: الآية ٧٣]، فَتِلْكَ جَنَّةٌ ﴿أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: الآية ٣٥].

يَا هَذَا تَأَمَّلْ بِعَيْنِ الْفِكْرِ بَاطِنَ مَا خَدَعَكَ ظَاهِرُهُ تَرَى الْوَسْخَ مَحْشُوءًا فِي وِعَاءِ الْحُسْنِ ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧]. وينشد:

أَقُولُ لَمَّا نَأَتْ نُزُلُ الْحِمَالِ بِهِمْ
وَالْقَلْبُ فِي وَجَلٍ وَالْجِسْمُ فِي عِلَلٍ
قِفُّوا بِفَضْلِكُمْ كَيْمَا أُوَدِّعُكُمْ
قَبْلَ الرَّحِيلِ فَقَدْ أَدْنَيْتُمْ أَجَلِي
قَالُوا فُدَيْتُكَ يَا هَذَا فَقُلْتُ لَهُمْ
إِنِّي خَفَيْتُ عَنِ الْأَذْهَانِ وَالْمُقَلِّ
قَالُوا فَفِي الْحُبِّ مَنْ أَضْنَيْتَ قُلْتُ لَهُمْ
كُفُّوا فَإِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ عَذْلِي
قَالُوا بِعَيْشِكَ أَخْبَرْنَا فَقُلْتُ لَهُمْ
فِي حُبِّ مَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ

السَّجْعُ عَلَى الْآيَةِ:

يَا مُعْتَرِضًا بِالذَّنْبِ لِلْعِقَابِ، يَا غَافِلًا عَنْ يَوْمِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، يَا مُبَارِزًا بِالْمَعَاصِي رَبَّ الْأَرْبَابِ، يَا مَنْ أَعْظَمَ جُرْأَةً مِنْكَ عَلَى الْعَذَابِ، قُلْ لِي مَنْ أَضَبُّ

﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

لَقَدْ أَنَاخَ التَّقْصِيرُ وَالتَّمَادِي بِبَابِكَ، وَقَدْ آنَ يَعْبَقُ بِرِيحِ الثَّوَابِ شَيْءٌ مِنْ أَثْوَابِكَ، وَالشَّيْطَانُ يَجْرِي مَجْرَى الدَّمِ مِنْ آرَائِكَ، فَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْكَ إِذَا قُمْتَ فِي مُحَرَابِكَ، مِنْ حِينَ قَوْلِكَ اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

تَقُومُ إِلَى صَلَاتِكَ وَأَنْتَ مُتَكَاسِلٌ، وَتَدْخُلُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْقَلْبُ غَافِلٌ، وَتَسْتَعْجِلُ فِي الصَّلَاةِ لِأَجْلِ الْعَاجِلِ، وَإِذَا نَظَرْنَا بَعْدَ الْفَرَاغِ إِلَى الْحَاصِلِ، فَالْجَسَدُ أَقْبَلَ وَالْقَلْبُ أَذْبَرَ ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

يَا مَنْ ذُلُّ الْمَعَاصِي تَعْلُوهُ، يَا مُظْلَمَ الْقَلْبِ مَتَى تَجْلُوهُ؟ هَذَا الْقُرْآنُ يُتْلَى عَلَيْكَ وَتَتْلُوهُ، وَلَكِنْ مَا تَدَبَّرُ، ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

يَا مُعْتَرَا بِالزَّخَارِفِ وَالنَّمُوِيهِ، وَتَعَجَّبُ بِمَا تَجْمَعُهُ وَتَحْوِيهِ، هَلَكَ وَاللَّهِ كُلُّ ذِي عَجَبٍ أَوْ كِبَرٍ أَوْ تِيهِ، وَنَجَى وَاللَّهِ أَشْعَثُ أَغْبَرُ ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

أَنْتَ فِي دَارِ انْزِعَاجٍ لَا تَأْمَنُهَا، وَلَا تَرَكُنْ إِلَيْهَا، وَاحْذَرِ مِنْهَا وَإِنَّمَا أَسْكَنْتَهَا لِتَخْرُجَ مِنْهَا، فَتَأْهَبَ لِلنَّفْلَةِ فَلِلْمُسْتَوْطِنِ مُعْتَرٌ ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

أَيْنَ مَنْ كَانَ يَتَنَعَّمُ فِي قُصُورِهَا قَدْ فَسَحَ لِنَفْسِهِ فِي بَوَائِنِهَا وَقُصُورِهَا، فَخَدَعَتْهُ وَاللَّهِ بِغَرِيرِ غُرُورِهَا، بَعْدَ أَنْ سَاسَ الرَّرَايَا وَدَبَّرَ ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

نَقَلَتْهُ وَاللَّهِ سَرِيعًا، وَسَلَبَتْهُ مَا جَمَعَهُ جَمِيعًا وَبَزَّتْهُ كِبَرًا كَبِيرًا وَعِزًّا مَينِعًا، أَتَرَاهُ يَفْخَرُ فِي قَبْرِهِ أَوْ يَتَكَبَّرُ، ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

خَلَا بِعَمَلِهِ فِي ظِلَامٍ لَحْدِهِ، لَمْ يَنْفَعْهُ غَيْرُ اجْتِهَادِهِ وَجِدِّهِ، وَلَوْ قُضِيَ بِرُجُوعِهِ وَرَدُّهُ لَحَدَّثْنَا بِهِذَا وَأَخْبَرَ ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

فَتَنَبَّهَ مِنْ رُقَادِكَ وَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ فِي حَيَاتِكَ، فَقَدْ بَالَغَتِ الزَّوَاجِرُ فِي عِظَاتِكَ، كَمْ تَسْمَعُ مَوْعِظَةً وَتَجْلِسُ تَحْتَ مِنبَرٍ ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمِيَّ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ .

يَا لَهَا مِنْ نَصِيحَةٍ لَوْ وَجَدْتَ نَفَاذًا هِيَ حِجَّةٌ عَلَيْكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ مَلَاذًا
وَالشَّيْءُ إِذَا لَمْ يَنْفَعْ قُرْبًا آذَى. وَأَنْتَ يَا هَذَا بِنَفْسِكَ أَخْبِرُ ﴿يَبْزُوا الْإِنْسُنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا
قَدَّمُوا﴾ [القيامة: الآية ١٣].

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ الْإِضْرَارِ عَلَى الْمَعَاصِي، اللَّهُمَّ قُدْنَا إِلَى طَاعَتِكَ، يَا
مَنْ بِيَدِهِ جَمِيعُ النَّوَاصِي، اللَّهُمَّ اهْدِنَا بِالْهُدَى، وَاعْفِرْ لَنَا فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى،
وَصَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ.

المَجْلِسُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ فِي قِصَّةِ سَبَأَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَمَرِّدِ بِالْعِزِّ وَالْجَلَالِ، الْمُتَفَضِّلِ بِالْعَطَاءِ وَالْإِفْضَالِ، مُسْخِرِ السَّحَابِ الثَّقَالِ، مُرَبِّي الزَّرْعِ تَرْبِيَةً الْأَطْفَالِ، جَلَّ عَنْ مِثْلٍ وَمِثَالٍ، وَتَعَالَى عَنْ حُكْمِ الْفِكْرِ وَالْخِيَالِ، قَدِيمٍ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يَنْفَضِّلُ بِالْإِنْعَامِ، فَإِنْ شُكِرَ زَادَ، وَإِنْ لَمْ يَشْكُرْ أَزَالَ. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

أَحْمَدُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَشْرَفٍ مَنْ نَطَقَ وَقَالَ، وَعَلَى صَاحِبِهِ بَازِلِ النَّفْسِ وَالْمَالِ، وَعَلَى عُمَرَ الْعَادِلِ فَلَا جَارَ وَلَا مَالَ، وَعَلَى عُثْمَانَ الثَّابِتِ لِلشَّهَادَةِ ثُبُوتِ الْجِبَالِ، وَعَلَى عَلِيٍّ بِحَرِّ الْعُلُومِ وَبَطْلِ الْأَبْطَالِ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الْمُتَقَدِّمِ فِي نَسَبِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَهْلِ وَالْأَلِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سَبَأُ: الْآيَةُ ١٥]. سَبَأٌ: هِيَ قَبِيلَةٌ مِنْ أَوْلَادِ سَبَأَ، وَكَانَتْ بَلْقِيسُ لَمَّا مَلَكَتْ قَوْمَهَا رَأَيْهُمْ رَأَتْهُمْ يَقْتُلُونَ عَلَى مَاءٍ وَادِيهِمْ، فَجَعَلَتْ تَنْهَاهُمْ وَلَا يُطِيعُونَهَا، فَتَرَكَتْ مُلْكَهَا وَانْطَلَقَتْ إِلَى قَصْرِهَا وَنَزَلَتْ. فَلَمَّا كَثُرَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ أَتَوْهَا فَسَأَلُوهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى مُلْكِهَا فَأَبَتْ فَقَالُوا: لَتَرْجِعَنَّ أَوْ لَنَقْتُلَنَّكَ. فَقَالَتْ: إِنَّكُمْ لَا تُطِيعُونَنِي. فَقَالُوا: إِنَّا نَطِيعُكَ، فَجَاءَتْ إِلَى وَادِيهِمْ، وَكَانُوا إِذَا مُطِرُوا أَتَاهُ السَّيْلُ مِنْ مَسِيرَةِ أَيَّامٍ، فَأَمَرَتْ بِسَدِّ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ بِمَسْنَاةٍ، وَحَبَسَتْ الْمَاءَ مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ، وَجَعَلَتْ لَهُ أَبْوَابًا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَبَنَتْ مِنْ دُونِهِ بَرْكَةً، وَجَعَلَتْ فِيهَا اثْنَيْ عَشَرَ

مَخْرَجًا عَلَىٰ عَدَدِ أَنْهَارِهِمْ، فَكَانَ الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنْهَا بِالسَّوِيَّةِ إِلَىٰ أَنْ أَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيْمَانَ فَكَانَتْ لَهُمْ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، وَأَخْصَبَتْ أَرْضُهُمْ وَكَثُرَتْ فَوَاكِهُنَّ، فَإِنْ كَانَتِ الْمَرَأَةُ لَتَمُرَّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَالْمِكْتَلِ عَلَىٰ رَأْسِهَا فَتَرْجِعُ وَقَدْ امْتَلَأَتْ مِنَ الثَّمَرِ وَلَا تَمَسُّ يَدَيْهَا شَيْئًا مِنْهُ.

ولم يكن يرى في بلادهم حياة ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث، فَبَعَثَ اللَّهُ بَعْدَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَبِيًّا، وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَ بَلَدُ طِبْنَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ أَي: هَذِهِ بَلَدٌ لَمْ تَكُنْ سَبْحَةً وَلَا فِيهَا مَا يُؤْذِي، ﴿وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ [سبأ: الآية ١٥] أَي: وَاللَّهُ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ وَكَذَّبُوا الْأَنْبِيَاءَ فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴿[سبأ: الآية ١٦]، وَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْعَرِمَ: الشَّدِيدُ. وَقِيلَ: السَّيْلُ الَّذِي لَا يُطَاقُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ اسْمُ الْوَادِي.

وَالثَّلَاثُ: الْمِيَاهُ. وَقِيلَ: الْعَرِمُ: جَمْعُ عَرِمَةٍ، وَهِيَ السَّكْرُ وَالْمُسْنَأَةُ.

وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ الْجُرْدُ الَّذِي ثَقَبَ عَلَيْهِمُ السَّكْرَ. وَفِي وَصْفِ إِرسَالِ هَذَا السَّيْلِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ عَلَى سِكْرِهِمْ دَابَّةً فَتَقَبَّتْ فِي سِكْرِهِمْ ثَقْبًا فَسَالَ ذَلِكَ الْمَاءُ إِلَى غَيْرِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانُوا يَنْتَفِعُونَ بِهِ.

قَالَ فَتَادَةُ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جُرْدًا فَسَمِّيَ الْخَلْدُ، وَالْخَلْدُ: الْفَأْرُ الْأَعْمَى فَتَقَبَّهُ مِنْ أَسْفَلِهِ فَأَغْرَقَ اللَّهُ جَنَاتِهِمْ وَخَرَّبَ بِهِ أَرْضَهُمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مَاءً أَحْمَرَ فَشَقَّ السَّدَّ وَهَدَمَهُ وَحَفَرَ الْوَادِي.

السَّجْعُ:

يَا أَهْلَ الذَّنُوبِ لَا يَعْرِتْكُمْ الْإِمْهَالُ، فَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ وَلَيَالٍ، وَرُبَّ مَشْغُولٍ بِلَذَّائِهِ، عَنْ ذِكْرِ تَخْرِيْبِ ذَاتِهِ يَلْهُو بِأَمْلِهِ عَنْ تَحْوِيلِ عَمَلِهِ يَتَقَلَّبُ فِي أَغْرَاضِهِ،

نَاسِيًا قُرْبَ أَمْرَاضِهِ، بَعَثَهُ الْفَاجِعُ بِبَاسِهِ فَشَغَلَهُ عَنِ أَهْلِهِ وَجَلَّاسِهِ، كَمْ مَأْخُودٍ عَلَى الزَّلَلِ، حُتِمَ لَهُ بِسُوءِ الْعَمَلِ، نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَيَا هَوْلَ مَا نَزَلَ، فَأَسْكَنَهُ الْقَبْرَ فَكَأَنَّ لَمْ يَزَلْ، فَهَذَا مَصِيرُ الْعَاقِلِ لَوْ عَقَلَ، ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾.

كَمْ نَائِمٍ عَلَى فِرَاشِ التَّقْصِيرِ، مُغْتَرٍّ بِالْعُمْرِ الْقَصِيرِ، صَاحَ بِهِ وَلَمْ يَبَالِ النَّذِيرَ، فَاسْتُلِبَ عَلَى الْخَطَا وَالتَّبَذِيرِ، فَلَمَّا أَحَسَّ الْبَاسَ ثَارَتْ مِنْ نِيرَانِ النَّدَمِ شُعْلٌ، ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾.

كَمْ مِنْ مُسْتَحِلٍّ شَرَابِ الْهَوَى، شَرِبَ مِنْ كَأْسٍ حَتَّى ارْتَوَى بَيْنَمَا هُوَ عَلَى جَادَةِ أَغْرَاضِهِ هَوَى، فَمَا نَفَعَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مَا حَوَى، وَلَا شَرِبَ وَلَا مَأْكَلٌ، ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: الآية ٣]. لَا تَغْتَرَّ بِنَعِيمِ الْقَوْمِ، فَإِنَّ عَدَا بَعْدَ الْيَوْمِ دَعْمُهُمْ يُؤَثِّرُ فِيهِمْ لُؤْمٌ، وَهَلْ يَسْرُحُ التَّحْرِيكَ مَيِّتًا وَهَلْ ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: الآية ٣].

إِخْوَانِي، إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَادْخُلُوا دَارَ الْخُلُوةِ، وَشَاوِرُوا نَصِيحَ الْفِكْرِ وَحَاسِبُوا شَرِيكَ الْخِيَانَةِ، وَتَلَمَّحُوا تَفْرِيطَ الثَّوَانِي فِي بِضَاعَةِ الْعُمْرِ وَيَكْفِي مَا قَدْ مَضَى فَلْيَحْذَرِ الْأَعْمَى الْحَجَرَ. وينشد:

أَيَا سَامِعًا لَيْسَ السَّمَاعُ بِنَافِعٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْمَلْ بِمَا أَنْتَ سَامِعُ
إِذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الْخَيْرِ عَاجِزًا فَمَا أَنْتَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ صَانِعُ

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ: الآية ١٨]، هَذَا مَعْظُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ [سبأ: الآية ١٥]، وَالْمَعْنَى: وَكَانَ مِنْ قِصَصِهِمْ أَنَّا جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴿هَذَا وَهِيَ قُرَى الشَّامِ﴾ قُرًى ظَاهِرَةً، أَي: مُتَوَاصِلَةٌ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ فَكَانُوا يَعْدُونَ فَيَقِيلُونَ فِي قَرْيَةٍ وَيَرْوَحُونَ فَيَسِيْتُونَ فِي قَرْيَةٍ. قَالَه الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ. وَقِيلَ: أَنَّهُ جَعَلَ مَا بَيْنَ الْقَرْيَةِ وَالْقَرْيَةِ مِقْدَارًا وَاحِدًا، قَالَه ابْنُ قُتَيْبَةَ. ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: الآية ١٨] أَي: لَيْلًا وَنَهَارًا؛ آمِنِينَ مِنْ مَخَافِ السَّفَرِ مِنْ جُوعٍ وَعَطَشٍ أَوْ سَبْعٍ أَوْ ذُبِّ فَبَطَرُوا النُّعْمَةَ،

وَمَلُّوْهَا كَمَا مَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَصْفَارِنَا﴾،
 قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو: (وَبَعْدُ)، وَالْباقُونَ: ﴿بَعْدُ﴾. ﴿وَطَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾
 بِالْكَفْرِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِمَا فَعَلَ بِهِمْ
 ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سَبَأ: الآيَة ١٩]، أَي: فَرَقْنَاهُمْ فِي كُلِّ وَجْهِ مِنَ الْبِلَادِ كُلِّ
 التَّفْرِيقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَغْرَقَ مَكَانَهُمْ بُدِّدُوا فِي كُلِّ بِلَادٍ. وَقَدْ حَدَّثَتْ
 هَذِهِ الْقِصَّةُ وَبَيَّنَتْ عِقَابَ تَارِكِي الشُّكْرِ. وينشد:

أَتَعْمَى عَنِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ بَصِيرٌ	وَتَجْهَلُ مَا فِيهَا وَأَنْتَ خَبِيرٌ
وَتُصْبِحُ تَبْنِيهَا كَأَنَّكَ خَالِدٌ	وَأَنْتَ غَدًا عَمَّا بَنَيْتَ تَسِيرٌ
فَلَوْ كَانَ يَنْهَاكَ الَّذِي أَنْتَ عَارِفٌ	لَقَدْ كَانَ فِيهَا قَدْ بَلَوْتَ نَذِيرٌ
مَتَى أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ شَيْئًا فَلَمْ يَكُنْ	لَهَا مُخْبِرًا إِنَّ الْبَقَاءَ يَسِيرٌ
فَدُونُكَ فَاصْنَعْ كُلَّمَا أَنْتَ صَانِعٌ	فَلِإِنَّ بُيُوتَ الْمَيِّتِينَ قُبُورٌ

وعظ:

وَأَسَفًا مِنَ الصَّحِيفَةِ إِنَّ أَشْهَرَهَا، وَاحْزَنَّا عَلَى الذُّنُوبِ إِذْ أَظْهَرَهَا،
 وَاحْسَرَتَا عَلَى الْخَطَايَا مَا غَفَرَهَا، مَنْ لِمَنْ حَادَ عَنِ الطَّرِيقِ وَقَدْ أَبْصَرَهَا مَنْ لِمَنْ
 شَاهَدَ نَجَاتَهُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَرَهَا.

تَاللَّهِ لَقَدْ آذَى الْعَاصِي نَفْسَهُ وَعَثَرَهَا، كَمْ سَمِعَ مِنْ مَوْعِظَةٍ مِنْ مُذَكِّرٍ كَرَّرَهَا،
 ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ فَهَمَهَا وَتَدَبَّرَهَا، يَا بَائِعًا نَفْسَهُ أَرْضِيَتْ الْفَانِي مِنْ ثَمَنِكَ؟
 أَيْنَ زَادَ رَحِيلُكَ وَعِدَّةُ كَفَنِكَ؟ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَلَاحِ نَفْسِكَ وَتَلَاقِيكَ؟ وَكُلَّمَا
 ذَكَرَهُ الْغَائِبُ وَتَلَاقَيْكَ، أَمَا يُزِعْجُكَ ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف:
 الآيَة ٥٩]؟ أَمَا يُنْذِرُكَ إِعْلَامُ ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ [هود: الآيَة ١٠٢]؟
 أَمَا يَقْصُرُ مِنْ قُصُورِكُمْ ﴿وَيَبِّرُ مَعْطَلَهُ وَقَصِيرَ مَشِيدِهِ﴾ [الحج: الآيَة ٤٥]؟ أَمَا رَأَيْتَ
 شِمَالَ الْعُقُوبَةِ قَدْ فَرَّقَتْ شَمْلَهُمْ، لَقَدْ مَرَّتْ فِي جَوْ التَّخْوِيفِ تَهْتِفُ بِالْعُصَاةِ ﴿فَكَلَّا
 أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: الآيَة ٤٠]. يَا هَذَا أَلَا نَوْمٌ أَثْقَلُ مِنَ الْعَفْلَةِ؟ وَلَا رِقٌّ أَمْلَكَ
 مِنَ الشَّهْوَةِ؟ وَلَا مُصِيبَةٌ كَمَوْتِ الْقَلْبِ؟ وَلَا نَذِيرٌ أَبْلَغُ مِنَ الشَّيْبِ؟ وينشد:

أَلَا تَسْلُو فَتَقْصُرُ عَنْ هَوَاكَ فَقُلْ لِمَشَيْبِ رَأْسِكَ كَانَ ذَاكَ

أَكُلُ الدَّهْرِ أَنْتَ كَمَا أَرَاكَ نَرَاكَ إِلَى الْمَمَاتِ كَذَا نَرَاكَ
أَرَاكَ تَزِيدُ حَذَقًا بِالْمَعَاصِي وَتَغْفُلُ عَنْ نَصَائِحِ مَنْ دَعَاكَ

يَا قَوْمَ غَرَقَتِ السَّفِينَةُ وَنَحْنُ نِيَامُ، أَبُوكُمْ لَمْ يُسَامَحْ فِي حَبَّةِ حِنْطَةٍ، وَدَاوُدُ لَمْ يُسَاهَلْ فِي نَظَرَةٍ، يَا مُدْمِنَ الذُّنُوبِ. مُذْ كَانَ غُلَامًا فَعَلَى مَا عَوَّلْتَ؟ قُلْ لِي عَلَى مَا أَتَى؟ مَنْ أَتَى حَرَامًا تَرَى مَا حَلَّ بِهِمْ؟ إِلَيْكَ قَدْ تَرَى مَا آوَى لِحُجْنِ عِلْمٍ مَا سَيَلَقَى كَيْفَ يَلْقَى مَنَامًا؟ أَيْنَ الْمُجْتَمِعُونَ عَلَى خُمُورِهِمْ وَالنَّدَامَا، كُلُّ الْقَوْمِ فِي قُبُورِهِمْ نَدَامَا. أَمَا مَا جَرَى عَلَى الْعَصَاةِ يَكْفِينِي إِمَامًا مَا لِي أَرَى نِيرَانَ تَخْوِيفِكَ قَدْ صَارَ بَرْدًا وَسَلَامًا. وينشد:

فَذَكِّرِ النَّفْسَ هَوْلًا أَأَنْتَ رَاكِبُهُ وَكُرْبَةً سَوْفَ تَلْقَى بَعْدَهَا كَرَمًا
إِذَا أَتَيْتِ الْمَعَاصِي فَاخْشِ غَايَتَهَا مَنْ يَزِرْعِ الشُّوكَ لَمْ يَحْصُدْ بِهِ عِنَبًا

كَانَ الشُّبْلِيُّ يُنَادِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ قُرَّةَ عَيْنِي وَسُرُورَ قَلْبِي، مَا الَّذِي أَسْقَطَنِي مِنْ عَيْنِكَ يَا أَرْبَابَ الدَّنَسِ؟ يَا أَوْسَاخَ الذُّنُوبِ لَا تَفْنَعُوا بِصَبِّ مَاءِ التَّوْبَةِ عَلَى ظَاهِرِ الْجَسَدِ، بُلُّوا الشَّعْرَ وَأَنْقُوا الْبَشْرَةَ مَا لَمْ تَمْسَحْ بِدَمْعِ عَيْنِكَ لَمْ تَأْتِ بِسُنَّةِ الْغُسْلِ، أَبْلُغِ الْمَرَاهِمَ فِي دَوَاءِ الْخَطَايَا النَّدَمُ، وَأَحْسِنُ رُبَّةَ التَّائِبِ الْإِنْكَسَارُ. وينشد:

هَذَا كُلِّي بِكُلِّكُمْ مَشْغُولُ وَالْقَلْبُ بِفَرْطِ شَوْقِكُمْ مَثْبُولُ
وَالرُّوحُ بِسَيْفِ هَجْرِكُمْ مَقْتُولُ أَنْتُمْ قَضَيْدِي وَمُنِيَّتِي وَالسُّؤْلُ

يَا عَاصِي تَصَلِّي وَتَصُومُ وَلَكِنْ بِلَا قَلْبٍ، فَلَّةُ الْمَعْرِفَةِ تُفْقِرُ رُبْعَ التَّعَبُّدِ، مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ كَفَاهُ أَنْ يَبْكِيَ بِالنَّهَارِ. إِمَّا أَنْ تَحْرِقَ مَنْزِلَ قَلْبِكَ بِنَارِ النَّدَمِ، وَالشَّوْقِ لِلْحَبِيبِ وَلَا فَنَارُ النَّدَمِ أَشَدُّ حَرًّا؟ وَآ عَجَبًا أَسَلَّيْكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، وَهَلْ هِيَ إِلَّا جَيْفَةٌ. شعر:

مَا لِي أَعْلَلُ نَفْسِي بِالْوُقُوفِ عَلَى مَنَازِلٍ قَدْ خَلَتْ مِنْكُمْ وَأَظْلَالَ
وَآ عَجَبًا تَنْتَبِهَ الْحَيَوَانَاتُ بِاللَّيْلِ وَتُصَوِّتُ، وَأَنْتَ غَافِلٌ، وَيْحَكَ، وَيْحَكَ
إِذَا فَتَحْتَ عَيْنَيْكَ فِي الدُّجَى فَصَحَّ بِقَلْبِكَ.

إخواني، مُصِيبَتُنَا فِي التَّفْرِيطِ وَاحِدَةٌ، وَأَهْلُ الْأَحْزَانِ أَهْلٌ يَا هَذَا، لَوْ
أَشْرَفْتَ عَلَى وَادِي الدُّجَى لَرَأَيْتَ خَيْمَ الْقَوْمِ عَلَى شَاطِئِ أَنْهَارِ الدُّمُوعِ، خَلَوْا
وَاللَّهِ بِالْحَبِيبِ فَطَالَ الْحَدِيثُ، عَيْنُ تَبْكِي مِنَ الْمَحْبُوبِ، وَأُخْرَى تَبْكِي عَلَيْهِ،
لَفُظَّةٌ تَشْكُو مِنْهُ، وَأُخْرَى تَشْكُو إِلَيْهِ، رِيٌّ نَأْمُ لَجَبَّتِهِ، وَعَطَشٌ مُحْرِقٌ إِلَى رُؤْيَتِهِ،
مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ تَقْوَاهُمْ لَمْ يَعْلَمْ مَا الَّذِي أَبْكَاهُمْ، مَنْ لَمْ يُشَاهِدْ جَمَالَ يُوسُفَ
لَمْ يَعْلَمْ مَا الَّذِي آَلَمَ قَلْبَ يَعْقُوبَ. وينشد:

مَنْ لَمْ يَبْتَ وَالْحُبُّ حَشْوُ فَوَادِهِ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَفَتَّتِ الْأَكْبَادُ

شعر:

هَذَا وَلَهِي وَكَمْ كَتَمْتُ الْوَلَهَا صَوْتًا لِحَدِيثِ مَنْ هَوَى النَّفْسَ لَهَا
يَا آخِرَ مِخْنَتِي وَيَا أَوْلَهَا أَيَّامَ عَنَايَ فِيكَ مَا أَطْوَلَهَا

وعظ:

ذُنُوبُكَ ظَاهِرَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى التَّنْقِيشِ، حَيَّةٌ لِسَانِكَ فِي الْمَنَاهِي مِنْ
الْحَيَاتِ الْمَنَاهِيشِ، كَيْفَ تُلْحَقُ الصَّالِحِينَ وَهَلْ يَطِيرُ طَائِرٌ بِلَا رِيْشٍ؟ تَغْتَابُ
الرُّفَقَاءَ وَتَعِيبُ الْأَصْدِقَاءَ مَعَ مَنْ تَعِيشُ؟ لَا عَمَلُكَ لَنَا خَالِصٌ وَلَا تَقَاكَ لِهَوَاكَ
قَانِصٌ، لَقَدْ رَضِيتَ الْمَعَائِبَ وَالنَّقَائِصَ، أَمَا ظِلُّ الْحَيَاةِ ظِلٌّ نَاقِصٌ، كَمْ قَبْضَ
الْمَوْتِ كَفَّ قَانِصٍ؟ كَمْ أَشْخَصَ الرَّدَى مِنْ طَرْفِ شَاخِصٍ كَأَنَّكَ قَدْ جَاءَكَ
الْمُغَافِصُ، وَلَقِيتَ كُلَّ الْأَذَى مِنْ أَذَى الْقَوَارِصِ، وَرَأَيْتَ هَوْلًا تَرَعَدُ مِنْهُ
الْفَرَائِصُ، فَصَاحُوا ثُمَّ قَالُوا خَلُّوهُ فَهُوَ غَائِصٌ فَبَكَى لِمَصْرَعِكَ الْعَدُوَّ وَالْوَلِيَّ
الْخَالِصُ. وينشد:

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ أَنْاسٍ هَلَكُوا فَبَكُوا أَحْبَابَهُمْ ثُمَّ بُكُوا
تَرَكُوا الدُّنْيَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ لَيْتَهُمْ لَوْ قَدَّمُوا مَا تَرَكُوا
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ مُلُوكٍ شَوْقَةً وَرَأَيْنَا شَوْقَةً قَدْ مَلَكُوا
قَلْبَ الدَّهْرِ عَلَيْهِمْ فَلَكَا فَاسْتَدَارُوا حَيْثُ دَارَ الْفَلَكَ

السَّجْع:

يَا مَنْ عَلَيْهِ مَنَازِلُ الْمَوْتِ تَدُورُ، وَهُوَ مُسْتَأْنَسٌ بِالْمَنَازِلِ وَالْدُّورِ، لَا بُدَّ أَنْ

تَخْرُجَ مِنَ الْقُصُورِ عَلَى التَّوَانِي وَالْقُصُورِ، أَهْلَكَ وَاللهُ الْغُرُورَ، وَلَا بُدَّ مِنَ الرَّحِيلِ إِلَى بِلَادِ الْقُبُورِ، عَلَى الْغَفَلَاتِ وَالْفُتُورِ، أَهْلَكَ وَاللهُ الْغُرُورَ، بِفُنُونِ الْخِدَعِ وَالْغُرُورِ.

يَا مُظْلِمَ الْقَلْبِ وَمَا لِلْقَلْبِ نُورٌ، الْبَاطِنُ خَرَابٌ وَالظَّاهِرُ مَعْمُورٌ، لَوْ ذَكَرْتَ الْقُبُورَ وَالْحُقُورَ، كَادَتْ عَيْنُ الْأَعْيُنِ تَعُورُ، لَوْ تَفَكَّرْتَ فِي الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، دَفَنْتَ الْأَسْتِغْفَارَ بَيْنَ السُّطُورِ، لَوْ تَصَوَّرْتَ النَّفْخَ فِي الصُّورِ، وَالسَّمَاءَ تَتَغَيَّرُ وَتَمُورُ، وَالنُّجُومَ تَتَكَدَّرُ وَتَعُورُ، وَالصُّرَاطَ مَمْدُودٌ لَا بُدَّ مِنْ عُيُورٍ، وَأَنْتَ مُتَحَيِّرٌ فِي الْأُمُورِ، تَبْكِي عَلَى خِلَافِ الْمَأْمُورِ، سَتَحَاسِبُ عَلَى الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ، وَتَرَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ فُجُورٍ، فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالْغُورِ، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

سَتَحْزَنُ بَعْدَ الشُّرُورِ عَلَى تِلْكَ الشُّرُورِ، إِذَا وُفِّيَتِ الْأَجُورُ بَانَ الْمَوْصُولُ مِنَ الْمَهْجُورِ، وَنَجَّى الْمُخْلِصُونَ دُونَ أَهْلِ الزُّورِ، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

تُصَلِّي وَلَكِنْ بَلَا قَلْبٍ وَلَا حُضُورٍ، وَتَصُومُ وَالصَّوْمُ بِالْغَيْبَةِ مَعْمُورٌ، لَوْ رَأَيْتَ الْوِلْدَانَ وَالْحُورَ لَسَأَلْتَهُمْ وَقْتَ السَّحُورِ، كَمْ نَتَلَطَّفُ بِكَ يَا نَفُورٌ؟ كَمْ تُنْعَمُ عَلَيْكَ يَا كَفُورٌ؟ كَمْ بَارَزْتَ بِالْقَبِيحِ وَالْكَرِيمِ غُفُورٌ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: الآية ١٩].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَالْعَافِيَةَ مِنَ النَّارِ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ. وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِلْحَاضِرِينَ وَالْغَائِبِينَ مِنْ إِخْوَانِنَا، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَلِأَبَائِنَا وَلِأُمَّهَاتِنَا وَلِوَالِدِينَا وَلِذُرِّيَّاتِنَا، وَاجْعَلْ لَهُمْ وَافِرَ حَظٍّ وَنَصِيبٍ فِي كُلِّ رَحْمَةٍ تَمُنُّ عَلَيْنَا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا دَائِمًا كَثِيرًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ الرَّابِعُ والعِشْرُونَ في قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْمَجِيدِ، الْعَظِيمِ الدَّائِمِ الْقَائِمِ الْعَالِمِ الْقَدِيمِ، الْقَدِيرِ
الْبَصِيرِ النَّصِيرِ الْحَلِيمِ، قَضَى فَأَسْقَمَ الصَّحِيحَ وَعَافَى السَّقِيمَ، وَقَسَمَ عِبَادَهُ إِلَى
قِسْمَيْنِ؛ مُطِيعٍ وَآثِمٍ، وَجَعَلَ مَالَهُمْ إِلَى دَارَيْنِ دَارِ النَّعِيمِ وَدَارِ الْجَحِيمِ، فَمِنْهُمْ
مَنْ عَصَمَهُ مِنَ الْخَطَايَا فَكَأَنَّهُ فِي حَرِيمٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى لَهُ أَنْ يَبْقَى عَلَى الذُّنُوبِ
وَيُقِيمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدُورُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَالْعَمَلِ لِلْخَوَاتِيمِ.

خَرَجَ مُوسَى رَاعِيًا فَعَادَ وَهُوَ كَلِيمٌ، وَذَهَبَ ذُو النُّونِ مَغَاضِبًا ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ
وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: الآية ١٤٢].

وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَتِيمًا فَصَارَ الْكَوْنُ لِذَلِكَ الِيتِيمِ.

وَعَصَى آدَمُ وَإِبْلِيسُ فَهَذَا مَرْحُومٌ وَهَذَا رَحِيمٌ فَإِذَا سَمِعْتَ بِنَبْلِ
الْمَمَالِكِ، وَرَأَيْتَ وَقُوعَ الْمَهَالِكِ، فَقُلْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٦].

أَحْمَدُهُ وَكَيْفَ لَا يُحْمَدُ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
الْأَمْجَدُ، وَرَسُولُهُ الْأَوْحَدُ، أَخَذَ لَهُ الْمِيثَاقَ عَلَى أَقْرَبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَبْعَدِ. وَأَقَامَ
عَيْسَى يَقُولُ: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: الآية ٦].

وَبِهِ تَوَسَّلْ آدَمُ وَقَدْ سَجَدَ لَهُ مَنْ أَسْجَدَ، مِنْ كُلِّ مَلِكٍ كَرِيمٍ ﷺ مَا سَلَكَ

الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، السَّابِقَ إِلَى الْإِيمَانِ
وَالْتَّصِدِيقِ، وَالْمُحِبَّ الشَّفِيقِ، وَالرَّفِيقَ الرَّفِيقَ حِينَ سَافَرَ وَحِينَ يُقِيمُ، وَعَلَى عُمَرَ
الَّذِي عَمَرَ مِنَ الدَّيْرِ مَا عَمَرَ، وَدَمَعَ الْكُفْرَ وَدَبَّرَ أَحْسَنَ تَذْيِيرٍ وَأَكْمَلَ تَقْوِيمٍ، وَعَلَى
عِثْمَانَ الشَّرِيفِ قَدْرُهُ الْكَثِيفُ سِتْرُهُ، وَعِنْدَ اللَّهِ صَبْرُهُ عَلَى مَا ضَمَّ، وَعَلَى عَلِيٍّ
مَدَارِ الْعُلَمَاءِ وَقُطْبِهِمْ، وَمُقَدِّمِ الشُّجْعَانِ فِي حَرْبِهِمْ، الْمُسْتَبِقِ مِنْ كَرْبِهِمْ، مُقْعِدِ
مُقِيمٍ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ صِنْوِ أَبِيهِ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ نَسَبًا يَلِيهِ صَمِيمٍ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافَات: الآية ١٣٩].
يُونُسُ: اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ وَفِيهِ سِتُّ لُغَاتٍ، ضَمُّ النُّونِ وَفَتْحُهَا وَكَسْرُهَا، وَالْهَمْزَةُ مَعَ
اللُّغَاتِ الثَّلَاثِ، فَكَانَ يُونُسُ مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ، وَكَانَ عَابِدًا مِنْ عَبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،
فَرَأَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَخَافَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ عُقُوبَةٌ، فَخَرَجَ هَارِبًا بِنَفْسِهِ وَذُرِّيَّتِهِ
حَتَّى كَانُوا بَنِينَوًى مِنْ أَرْضِ مَوْصِلَ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ رَسُولًا إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ
وَأَمَرَهُمْ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلُوا أَخْبَرَهُمْ أَنَّ
الْعَذَابَ مُصَبِّحُهُمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ.

قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمْ يَبْقَ بَيْنَ الْعَذَابِ وَبَيْنَهُمْ إِلَّا قَدْرٌ مِثْلُ
وَوَجَدُوا حَرَّهُ عَلَى أَكْتَافِهِمْ، فَلَمَّا أَيْقَنُوا الْهَلَكَ لِسُوءِ الْمَسْئُوحِ، وَحَثُّوا عَلَى
رُؤُوسِهِمُ الرَّمَادَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فِي النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ، وَعَجُّوا إِلَى اللَّهِ
بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ، وَقَالُوا: آمَنَّا بِمَا جَاءَ بِهِ يُونُسُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ. فَقِيلَ
لِيُونُسَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ. فَقَالَ: كَيْفَ أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فَيَجِدُونِي كَذَابًا. وَكَانَ مَنْ يُكَذِّبُ
فِيهِمْ يُقْتَلُ. فَكَرِبَ السَّفِينَةَ فَإِنْ قِيلَ: لِمَ غَاضَبٌ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ غَاضَبٌ قَوْمَهُ قَبْلَ
التَّوْبَةِ وَاشْتَهَى أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، عَانَى مِنْ تَكْذِيبِهِمْ فَعُوقِبَ عَلَى كَرَاهِيَّةِ
الْعَفْوِ عَنْهُمْ.

فَلَمَّا رَكِبَ السَّفِينَةَ وَقَفَتْ. فَقَالَ: مَا لِسَفِينَتِكُمْ؟ قَالُوا: لَا نَذْرِي؟ قَالَ: لَكِنِّي
أَذْرِي، فِيهَا عَبْدٌ أَبَقَ مِنْ رَبِّي، وَإِنَّهَا وَاللَّهِ لَا تَسِيرُ حَتَّى تُلْقَوْهُ. فَقَالُوا لَهُ: أَمَّا أَنْتَ يَا
نَبِيَّ اللَّهِ فَلَا نُلْقِيكَ. قَالَ: فَأَقْرِعُوا. فَفَرَعَ يُونُسُ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصَّافَات:
الآية ١٤١]، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصَّافَات: الآية ١٤٢]،
أَي: مَذْنِبٌ، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصَّافَات: الآية ١٤٣]، ﴿لَلَبِثَ﴾ [الصَّافَات: الآية ١٤٤]،

أي: مِنَ الْمُصَلِّينَ قَبْلَ التَّقَامِهِ الحوت، وفي قَدْرِ مَكْنِهِ في بَطْنِ الحُوتِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ، وَكَيْفِيَّةُ خُرُوجِهِ أَنَّ الحوتَ تَثَابَ فَرَأَى يُونُسُ ضَوْءَ الشَّمْسِ فَقَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]، ﴿فَبَدَّلْنَاهُ﴾.

قوله: ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ وهي الأرض التي لا يتواري فيها شجر ولا غيره، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصفات: الآية ١٤٥] أي: مريض. قال ابن مسعود: كَهَيْئَةِ الفَرْخِ المَمْعُوطِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ رِيشٌ ﴿وَأَلْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ [الصفات: الآية ١٤٦] وهي الدُّبَاءُ لِيُعْطَى بِهِ وَرَقُهَا وَيَمْنَعَهُ الدُّبَابُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْقُطُ عَلَى وَرَقِهِ دُبَابَةٌ، وَقِيضَتْ لَهُ أَرْوَاةٌ مِنَ الْوُحُوشِ تَرُوحُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً فَيَشْرَبُ مِنْ لَبَنِيهَا.

فَنَامَ وَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ يَبَسَتْ الدُّبَابُ، فَحَزَنَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ لَمْ تَخْلُقْ، وَلَمْ تَسْقِ، وَلَمْ تُنْبِتْ، تَحْزُنْ عَلَيْهَا! وَأَنَا الَّذِي خَلَقْتُ مِثَّةَ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ يَزِيدُونَ ثُمَّ رَحِمْتُهُمْ فَشَقَّ عَلَيْكَ. وفي الزيادة على مِثَّةِ أَلْفٍ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ.

إخواني، انظروا إلى التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ كَيْفَ أَثَّرَتْ وَوَقَعَ الْعَذَابُ فَدَفَعَتْ وَنَفَعَتْ، فَلْيُلْجَأِ الْعَاصِي إِلَى حَرَمِ الْإِنَابَةِ، وَلْيَطْرُقْ بِالسَّحَارِ بَابُ الْإِجَابَةِ فَمَا صَدَقَ صَادِقٌ فَرْدٌ، وَلَا أَتَى الْبَابَ مُخْلِصٌ فَصَدَّ، فَكَيْفَ يُرَدُّ مَنْ اسْتُدْعِيَ فَقِيلَ لَهُ: تَوْبُوا، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي صِدْقِ التَّوْبَةِ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ نُطْقَ اللِّسَانِ، إِنَّمَا هِيَ نَدَمُ الْقَلْبِ وَعَزْمُهُ أَنْ لَا يَعُودَ.

ومن شَرِطِ صِحَّتِهَا أَنْ تَكُونَ قَبْلَ مُعَايَنَةِ أُمُورِ الْآخِرَةِ، فَمَنْ عَايَنَ الْمَوْتَ فَقَدْ فَاتَهُ مُوسِمُ الْقَبُولِ، نَسْأَلُ اللَّهَ يَفْظَةً تُحَرِّكُنَا إِلَى الْبِدَارِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ وَالْحِسَابُ.

إخواني، الْأَجَلُ وَالْأَيَّامُ مَرَاجِلُ، وَسَيَصِلُ الرَّاحِلُ، يَا خَاسِرًا رَأْسَ مَالِهِ وَمَا يَفْتَقِدُهُ، يَا مَغْرُورًا بِالْأَمَلِ بِئْسَ مَا تَعْتَقِدُهُ، يَا طَالِبًا طَوْلَ الْبَقَاءِ مَا تَجِدُهُ.

وينشد:

أَنْتَ فِي غَفْلَةٍ وَقَلْبُكَ سَاهِي نَفَذَ الْعُمُرُ وَالذُّنُوبُ كَمَا هِيَ

لَمْ تُبَادِرْ بِتَوْبَةٍ مِنْكَ حَتَّى صِرْتَ شَيْخًا فَعَظُمَتْكَ الْيَوْمَ وَاهِي
يَا تَائِبًا طَوَّلَ لَيْلِهِ، وَغَافِلًا جَمِيعَ نَهَارِهِ، وَهَلِ الْخَاسِرُ إِلَّا أَنْتَ، وَهَلِ الشَّقِيُّ
إِلَّا مِثْلُكَ، قَلْبٌ لَا يَلِينُ لَوَعْظٍ، وَعَيْنٌ لَا تَدْمَعُ مِنْ ذَنْبٍ، وَلِسَانٌ لَا يَفْتُرُ مِنَ الشَّرِّ،
وَسِرٌّ لَا يَهْبُ عَلَيْهِ نَسِيمُ الْوَجْدِ، حَيَاةٌ عَلَى غُرُورٍ، وَمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ، وَمَصِيرٌ إِلَى
حَسْرَةٍ، وَقِيَامٌ إِلَى الْحِسَابِ بِلا حُجَّةٍ، جَوَاهِرُ الْحِكْمِ لَدَيْكَ وَلَكِنْ يَدُ التَّنَاوُلِ شَلَّتْ
عَرَائِصُ الْهُدَى تُجَلَّى وَلَكِنْ عَيْنُ التَّأَمُّلِ عَمِيَتْ، وَنَحَكَ بَادِرٌ مَدَى الْعَافِيَةِ.

إخواني، ضَرْبَ بُوْقِ الرَّحِيلِ وَأَطْرُشُ الْعَقْلَةِ مَا يَسْمَعُ. وينشد:

تَزَايَدَ مَا أَلْقَى وَقَدْ جَاوَزَ الْمَدَى وَكَانَ الْهَوَى مَرْحًا فَصَارَ الْهَوَى جَدًّا
وَقَدْ كُنْتُ جَلْدًا ثُمَّ أَوْهَنَيْتِ الْهَوَى كَذَاكَ الْهَوَى مَا زَالَ يَسْتَوْهِنُ الْجَلْدَا
أَتَيْتُكَ أَسْتَعِيدِي عَلَيْكَ مِنَ الْهَوَى وَمَنْ كَانَ مِثْلِي لَا يُلَامُ إِذَا اسْتَعْدَا

يَا هَذَا أَبْعُدَ عَنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ تَحْسِرُ فِي مُقَارَبَتِهِمْ دِينًا، فَهُوَ أَكْثَرُ مِمَّا
تَرِيحُ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَلَا تُصَادِقُ فَاسِقًا وَلَا تَتَّقِ بِهِ، فَإِنَّ مَنْ خَافَ أَوَّلَ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ
فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَكَ، تَعَرَّضَ لِحَنَابِ الْكَرَمِ فَمَدُّ بَحْرِ الْجُودِ بِلا جَزَرٍ، وَابْعُدَ عَنْ
الْجَهَالِ فَإِنَّ الطَّنْعَ لَصٌّ لَا تَنَالُ مَا تُرِيدُ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهِي، وَلَا تَبْلُغُ مَا تَرْجُو إِلَّا
بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ.

إخواني، كُفُّوا كَفَّ الْهَوَى عَنِ الْفُضُولِ، فَالْمُؤَاخِذُ بِالْمَرَصِدِ، سَلْسِلُوا
سَبَاعَ الْأَلْسُنِ فَإِنْ انْحَلَّتْ فَرَسَتْكُمْ، لَا تُرَاْمُوا بِأَسْهُمِ الْعُيُونِ فَيَكُفُّكُمْ تَقَعٌ، كَمْ كَلِمَةٍ
كَلِمَتٌ صَاحِبَهَا، وَكَمْ نَظْرَةٍ لَمْ تُنَاصِرْ، لَا تَحْقِرَنَّ زَلَّةً صَغِيرَةً، قُرْبٌ مَدْرَةٍ صَرَعَتْ
فِيهَا، تَذَكَّرُوا تَأْيِيرَ لُقْمَةِ آدَمَ وَنَعْتَبِرْ نَظْرَةَ دَاوُودَ. وينشد:

وَإِنِّي لَمَجْلُوبٌ إِلَى الشَّوْقِ كُلِّمَا تَنَفَّسَ بَاكِ أَوْ تَأَلَّمَ ذُو وَجْدٍ
تَعَرَّضَ حَادِي الشَّوْقِ وَالرَّكْبُ هَاجِعٌ فَأَيُّظَنِّي مِنْ بَيْنِ نَوَامِهِمْ وَجَدِي

إخواني، تَذَكَّرُوا أُمُورَكُمْ تَدَبَّرْ نَاطِرٍ، أَيْنَ السُّلْطَانُ الْكَبِيرُ الْقَاهِرُ، كَمْ جَمَعَ
فِي مَمْلَكَتِهِ مِنْ عَسَاكِرٍ، وَكَمْ عَلَا عَلَى الْمَنَابِرِ ثُمَّ لَاحِزَ الْأَمْرِ الْمُقَابِرُ، الْعَاقِلُ
يَنْظُرُ فِيمَا سَبَاتِي، وَيَقْهَرُ بِعَزْمِهِ شَرَّ الْهَوَى الْعَانِي، فَإِذَا قَالَتِ النَّفْسُ: حَظِّي.
قَالَ: حَظِّي نَجَاتِي.

إِخْوَانِي، احْذَرُوا الرِّبَاءَ، فَإِنَّ الْمُرَائِيَّ يَحْشُو جَرَابَ الْعَمَلِ رِمَالًا يَثْقُلُهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، رِيحُ الْمُرَائِيَّ جَيْفَةٌ تَتَجَاوَاهَا مَشَامُ الْقُلُوبِ وَمَا يَخْفَى الْمُرَائِيَّ عَلَى الْفِطَنِ، يَا قَاسِيَ الْقَلْبِ تَسْمَعُ هَذَا، وَمَا جَرَى دَمْعُكَ وَلَا هَمَى يَدِ عِصْيَانِكَ هَذَا مَا شَيْدَ الْإِحْسَانِ، وَهَذَا مَا عَدَمَ الْمَعَانِي ذَلِكَ الْعَانِي أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّكَ فَانٍ؟ وَمَا قُلْتَ كَفَانِي، مَا لِي أَرَى اسْمَكَ فِي الْقَبَائِحِ قَدْ سَمَا، أَنْتَ غَافِلٌ عَنْ ضُرِّ مَا قَدْ شُبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَضُرِّ مَا يَا مُوَلِّي! أَيْنَ الذَّهَابُ ارْجِعْ إِلَى الْمَلِكِ الْوَهَّابِ.

وينشد:

أَتَلْتَمِسُ الرِّضَا مِنَّا وَقَلْبُكَ مُعْرِضٌ عَنَّا

فَإِنْ أَوْفَيْتَ وَافَيْنَا وَإِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنَّا

تَضَرَّعُ إِنْ أَرَدْتَ الْقُرْبَ فِي اللَّيْلِ إِذَا جَنَى

تَنَلُ فِيهِ رِضَى الْمَوْلَى عَنِ الْعَبْدِ إِذَا جَنَى

يَا هَذَا مَضَى عَنْكَ عُثْوَانُ الشَّبَابِ وَقَدْ وَلَّى، مَا قَبَلَ الشَّيْبُ قَدْ تَقَشَّعَ وَاسْتَوَلَى، وَيَحْكُ جَنِّ عُوْدُكَ، فَأَيْنَ جُودُكَ؟ وَذَهَبَ شَبَابُكَ، فَأَيْنَ مَتَابُكَ؟ وَدَنَا رَحِيلُكَ، فَأَيْنَ عَوِيلُكَ؟ وَقُرُبَ مَصِيرُكَ، فَأَيْنَ نَصِيرُكَ بِاللَّهِ؟ أَمَا لِظُلْمَةِ لَيْلِكَ صَبَاحٌ؟ أَمَا لِفَسَادِ عَمَلِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ صَلَاحٌ؟ فُدَيْتُكَ اسْمَعْ لِخِطَابِ خَطِيبِ الْوَاعِظِ الزَّاجِرِ، سَمَاعَ الْمُخْلِصِ الْحَاضِرِ، ضَحِكَ الشَّيْبِ بِرَأْسِكَ فَأَنْذَرَ، وَدَنَا حِمَامُكَ فَأَخْبَرَ أَنْتَ لَأَسْوَأَ الْمَصَائِرِ، يَا ظَالِمُ صَائِرٍ عِبَادَ اللَّهِ النَّظَرَ النَّظَرَ إِلَى الْعَوَاقِبِ أَيْنَ تَعْبَ مَنْ صَابَرَ الْهَوَاجِرَ؟ وَأَيْنَ لَذَّةُ الْعَاصِي الْفَاجِرِ؟ رَحَلَتِ اللَّذَاتُ مِنَ الْأَفْوَاهِ إِلَى الصَّحَائِفِ، وَذَهَبَ نَصَبُ الصَّالِحِينَ بِجَزَعِ الْخَائِفِ فَكَأَنَّ لَمْ يَتَعَبَ مَنْ صَابَرَ اللَّذَاتِ وَكَأَنَّ لَمْ يَلْتَذَّ مَنْ نَالَ الشَّهَوَاتِ. وينشد:

حَصَلُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَجْدَاثِ	مِنْ كُلِّ مَا عَمَرُوا عَلَى الْأَجْدَاثِ
فَإِذَا الَّذِي جَمَعُوا طُولَ حَيَاتِهِمْ	نَهَبُ الْعِدَى أَوْ قِسْمَةُ الْوَرَاثِ
حَالَتْ مَنَازِلُهُمْ عَلَى طُولِ الْمَدَى	وَوُجُوهُهُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ ثَلَاثِ
يَا مَنْ يَسُرُّ بِبَيْتِهِ وَأَثَاثِهِ	لَكَ فِي الثَّرَى بَيْتٌ بِغَيْرِ أَثَاثِ

السَّجْع:

أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي اللَّذَاتِ يَتَقَلَّبُونَ وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَى الْخَلَائِقِ وَلَا يُغْلَبُونَ
مُزِجَتْ لَهُمْ كُؤُوسُ الْمَنَآيَا يَتَجَرَّعُونَ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ (٢٧).

مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الْحَرَامِ، وَأَكْثَرُوا مِنَ الزَّلَلِ وَالْإِثْمِ، فَكَمْ وُعْظُوا بِمَنْثُورٍ
وَمَنْظُومٍ مِنَ الْكَلَامِ، لَوْ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ (٢٧).

حُمِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي الْكَفَنِ إِلَى بَيْتِ الْبَلَاءِ وَالْعَفَنِ فَمَا صَحَبَهُمْ غَيْرُهُ
مِنَ الْوَطَنِ وَكُلِّ مَا كَانُوا يَجْمَعُونَ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ (٢٧).

صَمَّهْمُ وَاللَّهُ التُّرَابُ، وَشَدَّ عَلَيْهِمْ فِي ثَوَاهُمْ الْبَابُ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ،
وَالْأَحْيَاءُ يَرْجِعُونَ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ (٢٧).

أَيْنَ أَمْوَالُهُمُ وَالذَّخَائِرُ؟ أَيْنَ أَصْحَابُهُمْ وَالْعَشَائِرُ؟ دَارَتْ عَلَى الْقَوْمِ الدَّوَائِرُ
فَقِيمَ أَنْتُمْ تَظْمَعُونَ، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ (٢٧).

شُغِلُوا عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ، وَافْتَقَرُوا إِلَى الْبَسِيرِ مِنَ الزَّادِ، وَبَاتُوا عَلَى
النَّدَمِ عَلَى أَحْسَنِ مِهَادٍ وَإِنَّمَا هَذِهِ حَصَادُ مَا كَانُوا يَزْرَعُونَ، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُمْتَعُونَ﴾ (٢٧).

لَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي حُلَلِ النَّدَامَةِ، إِذَا بَرَزُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَيْهِمْ لِلْعِقَابِ
عَلَامَةٌ يُسَافُونَ بِالذَّلِّ لَا بِالْكَرَامَةِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُمْتَعُونَ﴾ (٢٧).

يَا مَعَاشِرَ الْعَاصِينَ قَدْ بَقِيَ الْقَلِيلُ، وَالْأَيَّامُ تُنَادِي قَدْ دَنَا الرَّحِيلُ،
وَكَمْ صَاحَ بِكُمْ إِلَى الْهُدَى الدَّلِيلُ إِنْ كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُمْتَعُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ: الْآيَةُ ٢٠٧].

اللَّهُمَّ نَوِّرْ بِكِتَابِكَ أَبْصَارَنَا، وَأَطْلِقْ بِهِ أَلْسِنَتَنَا، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا وَأَحْيِ قُلُوبَنَا
بِنُورِ الْيَقِينِ، وَاعْفِرْ لَوَالِدَيْنَا وَلِذُرِّيَّتِنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ الخَامِسُ والعِشْرُونَ في قِصَّةِ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَظِيمًا عَلِيًّا، يَحْذُلُ عَدُوًّا وَيَنْصُرُ وَلِيًّا، أَنْشَأَ الْآدَمِيَّ خَلْقًا سَوِيًّا، ثُمَّ قَسَمَهُمْ رَشِيدًا وَغَوِيًّا، رَفَعَ السَّمَاءَ سَقْفًا مَبْنِيًّا، وَسَطَحَ الْأَرْضَ بِسَاطًا مَدْحِيًّا، وَرَزَقَ الْخَلَائِقَ بَرًّا وَبَحْرِيًّا، كَمَا أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ سَرِيًّا أَخْرَجَ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا، وَكَمْ أُعْطِيَ ضَعِيفًا مَا لَمْ يُعْطِ قَوِيًّا، فَبَلَّغَهُ عَلَى الضُّعْفِ ضِعْفَ الْمُرَادِ، وَوَهَبَ عَلَى الْكِبَرِ الْأَوْلَادَ. ﴿كَمِيعَصَ﴾ ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ ﴿١﴾ [مريم: الآيتان ١، ٢].

أَحْمَدُهُ إِذَا أُعْطِيَ، وَأَفْضَلَ شَبْعًا وَرِيًّا، وَأَصْلَى عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلَ مَنْ رَكِبَ وَامْتَطَى سَرِيًّا. وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ الَّذِي أَنْفَقَ وَمَا قَلَّلَ حَتَّى تَخْلَلَ وَيَكْفِي زِيًّا. وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي كَانَ مُقَدِّمًا فِي الْجِدِّ جَرِيًّا. وَعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَفِيفًا حَيِيًّا. وَعَلَى عَلِيٍّ أَشْجَعَ مَنْ حَمَلَ حَظِيًّا. وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الْمُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ فَانْتَفَعَتِ الْأَرْضُ رِيًّا.

قِصَّةُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام:

لَمَّا قَدِمَ زَكَرِيَّا بِإِقَامَةِ الْإِقَامَةِ لِمَرْيَمَ رَأَى وَكَيْلَ الْغَيْبِ يَسْبِقُهُ بِالْإِنْفَازِ عَلَى يَدِ الْقُدْرَةِ فِي كِنِ كُنْ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ ثَمَّةَ جَاءَ فَإِذَا ثَمَارُ الشَّمَارِ قَدْ ثَمَّتْ، فَكَمْ قَدْ أَلْفَا أَلْفَا الْفَاكِهَةِ الْفَائِقَةِ لَا فِي حِينِهَا، فَتَلَمَّحَ بَعَيْنِ زَرْقَاءِ الْفَهْمِ، فَرَأَى نَفَقَةَ الْجَارِيَةِ جَارِيَةً، وَكَيْسُ الْأَسْبَابِ عَلَى خَتَمِهِ، فَصَاحَ لِسَانُ الدَّهْشِ ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ فَأَحَالَتْ الْحَالَ عَلَى الْمُسَبِّبِ ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٧].

فَنَبَّهَتْ هَذِهِ الْآيَةُ رَاقِدَ طَبْعِهِ بَعْدَ أَنْ طَالَ وَسَنَةٌ سَنَةٌ فَسَنَّ عَلَى سِنَةِ خَرَابٍ وَجْهِهِ مَا زَجَا مَاءَ آسِنٍ مِمَّا لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَقَامَ الشَّيْخُ بَعْدَ أَنْ تَقَعُوسَ وَتَشَعُّشَعَ وَعَشَا عَلَى بَابِ عَسَى فِي مُحَرَّابٍ ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣٨] قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: الآية ٣]، الْمُرَادُ بِالنِّدَاءِ الدُّعَاءُ، وَإِنَّمَا أَخْفَاهُ لِئَلَّا يَقُولَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يَسْأَلُ الْوَلَدَ عَلَى الْكِبَرِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضَعْفٌ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْعَظْمَ لِأَنَّهُ الْأَضْلُ فِي التَّرْكِيبِ.

قال مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: شَكِيَ ذَهَابَ أَضْرَاسِهِ ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: انْتَشَرَ الشَّيْبُ فِيهِ وَكَثُرَ كَمَا يَنْتَشِرُ شُعَاعُ النَّارِ فِي الْحَطَبِ ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤] أي: لَمْ أَكُنْ لِأَتَعَبَ بِالدُّعَاءِ. ثُمَّ لِأَخِيبَ لَأَنَّكَ وَعَدْتَنِي الْإِجَابَةَ، فَلَمَّا أُوْرِدَ فِي قِصَّتِهِ مَا يُرِيدُ فِي حَمْلِهَا يُرِيدُ الرَّجَاءَ إِلَى مَنْ عَوَّدَ الْعَوْدَ بِكُشْفِ الْجَوَى فِي الْجَوَابِ.

قوله: ﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٧].

قال ابنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يُسَمَّ قَبْلَهُ يَحْيَى فَشُرِّفَ بِأَنْ سَمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَحْيَى وَلَمْ تَكُنْ تَسْمِيَّتُهُ إِلَى أَبَوَيْهِ، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: الآية ٨]؟ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِيَعْلَمَ أَيُّتِيهِ الْوَلَدُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، أَمْ يُرَدُّ هُوَ وَزَوْجَتُهُ إِلَى حَالَةِ الشَّبَابِ.

قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: الآية ٨]، وَهُوَ نُحُولُ الْعَظْمِ وَيُبْسُهُ. ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾، أي: الْأَمْرُ كَمَا قِيلَ لَكَ مِنْ هَبَةِ الْوَلَدِ عَلَى الْكِبَرِ.

قال ابنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ سِنُّهُ يَوْمَئِذٍ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً وَامْرَأَتُهُ بِنْتُ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي: خَلَقَ يَحْيَى عَلَيَّ سَهْلًا، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ [مريم: الآية ٩] أي: أَوْجَدْتُكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [مريم: الآية ١٠] أي: عَلَامَةً عَلَى وُجُودِ الْحَمْلِ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَعْجَلَ السُّرُورَ وَيُبَادِرَ الشُّكْرَ.

﴿قَالَ آيُتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٠]، والمعنى؛
تُمنَعُ الكلامَ وَأَنْتَ سَلِيمٌ سَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ خَرَسٍ ﴿فَنَجَّحَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [مريم: الآية ١١]
وَهَذَا صَبِيحَةُ اللَّيْلَةِ الَّتِي حَمَلَتْ فِيهَا امْرَأَتُهُ مِنَ الْمَحْرَابِ أَيُّ مُصَلَّاهُ ﴿فَأَوْحَى
إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: الآية ١١]، وفيه قولان:

أَحَدُهُمَا: كَتَبَ إِلَيْهِمْ فِي كِتَابٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وَالثَّانِي: أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ وَيَدَيْهِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ﴿أَنْ سَخَّحُوا﴾ [مريم: الآية ١١]
أَي: صَلُّوا لِلَّهِ ذَرَّةَ خَدَمٍ حَتَّى شَابَ، ثُمَّ طَلَبَ نَائِبًا عَلَى الْبَابِ فَأَصْبَحَ مَيِّتٌ أَمَلِهِ
بُوجُودٌ يَحْيَى يَحْيَى، فَلَمَّا وُلِدَ لَهُ يَحْيَى لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ يَافِعٍ إِلَّا وَهُوَ وَلَدٌ نَافِعٌ كَانَ
صَبَا الصَّبَى تَمِيلُ بِالصَّبِيَّانِ وَلَا تَهْزُهُ.

فَإِنْ قَالُوا: هَلَمْ بَنَّا نَلْعَبُ، قَالُوا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْعِبَادِ، أَي: لِلتَّعْبِ فِي الْخِدْمَةِ
لِلَّهِ لَا لِلْعِبَادَةِ فَقَطَّ لَهُ الْقَدَرُ قَطَا مِنْ عِصَامِ الْعِصْمَةِ مَا قَطَّ قَطَّ لِأَحَدٍ فَمَا خَطَأَ إِلَى
خَطَأٍ وَلَا هَمَّ.

قوله: ﴿يَبْحَثُ خُذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ﴾ وَهِيَ التَّوَرَاةُ، أَي: بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ فِي
الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْكَلِمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٢]، وَفِي سَنَةِ يَوْمِئِذٍ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: سَبْعُ سِنِينَ، رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالثَّانِي: ثَلَاثُ سِنِينَ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَمِقَاتِلٌ، لَقَدْ رَمَى الدُّنْيَا عَنْ يَدِ التَّمَسُّكِ
وَعَلَا عَلَى فُضُولِهَا عَلَى مَا قَالَ الْقَائِلُ، فَنَبَّئِ صَغِيرًا فِي زَمَنِ أَبِيهِ، فَسَاحَ فِي
الْأَرْضِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ طَعَامُهُ الْجَرَادَ وَقُلُوبُ الشَّجَرِ.

لَقَدْ دَوَا فِي دَوِّ فُؤَادِهِ غَيْمُ الْعَمِّ، فَغَدَا الْعَرَقُ يَدُقُّ إِلَى أَنْ فَاضَ قُلَيْبُ قَلْبِهِ
فَانْقَلَبَتْ عَيْنَاهُ عَيْنًا حَتَّى قَرَّتْ فَحَفَرَتْ فِي خُدُودِ الْخُدُودِ مَجْرَى، وَلَمْ يَزَلْ مِعُولٌ
دَمْعِهِ يَحْفِرُ رَكِيَّةَ خَدِّهِ حَتَّى بَدَتْ فِيهِ أَضْرَاسُ فِيهِ، فَكَانَ يَأْخُذُ الْقَدَحَ لِيَصُبَّ مِنْ
مَائِهِ فَيَصُوبُ صَبَبٌ دَمْعِهِ مِنْ سَمَائِهِ حَتَّى يَفِيضَ الْمَاءُ بِالْذَّمْعِ.

فَيَا عَجَبًا مِنْ بُكَاءٍ مِنْ مَا عَصَى وَلَا هَمَّ وَضَحِكَ مَنْ كِتَابُهُ بِالذُّنُوبِ قَدْ
اذْهَبَ.

عَنْ وَهَيْبِ ابْنِ الْوَرْدِ. قَالَ: كَانَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَاءَ لَهُ خَطَّانٌ فِي خَدَيْهِ مِنَ الْبُكَاءِ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ زَكَرِيَاءُ: إِنِّي إِنَّمَا سَأَلْتُ اللَّهَ وَلَكِنَّهُ تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي. فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ إِنَّ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَنِي أَنَّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَفَازَةً لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا كُلُّ بَالِكٍ.

قَالَ عُلَمَاءُ السَّيْرِ: لَمَّا حَمَلَتْ مَرْيَمُ اتَّهَمَتِ الْيَهُودُ زَكَرِيَاءَ وَقَالُوا: هَذَا مِنْهُ فَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ فَتَجَوَّفَتْ فَدَخَلَ فِيهَا، فَجَاؤُوا يَطُوفُونَ بِالشَّجَرَةِ فَرَأَوْا هُدْبَةً تَوْبِهِ فَقَطَعُوا الشَّجَرَةَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَتَّى خَلَصُوا إِلَيْهِ فَقَطَعُوهُ، وَاخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ ذَنْبِ يَحْيَى. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَعَثَ عِيسَى يَحْيَى فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ، فَكَانَ فِيهِمَا نَهْوُهُمْ عَنْهُ نِكَاحُ ابْنَةِ الْأَخِ، وَكَانَ لِمَلِكِهِمْ ابْنَةٌ أَخٌ تُعْجِبُهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وَكَانَ لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ حَاجَةٌ مَقْضِيَّةٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أُمُّهَا وَقَالَتْ لَهَا: إِذَا سَأَلَكَ الْمَلِكُ حَاجَتَكَ فَقُولِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَى. فَقَالَ: سَلِّبْنِي غَيْرَ هَذَا. قَالَتْ: مَا أَسْأَلُ غَيْرَهُ. فَدَعَا يَحْيَى فَذَبَحَهُ، فَبَذَرَتْ قَطْرَةً مِنْ دَمِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَلَمْ تَزَلْ تَغْلِي، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ بُحْتًا نَصَرَ فَقَتَلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ حَتَّى سَكَنَ الدَّمُ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَّصَهُ مِنْ ذَنْبِ الذَّنْبِ ﴿يَوْمَ وَلَدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: الآية ١٥].

وعظ:

إخواني، مَا مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ، وَبَابُ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا قَدْ سُدَّ، كَمْ قَدْ فِي الْقَبْرِ قَدْ قُذِّ؟ كَمْ خُدَّ فِي الْأَخْدُودِ قَدْ خُدَّ؟ يَا مَنْ ذُنُوبُهُ لَا يُحْصَى إِذَا شَكُوتَ، عُدَّ يَا مَنْ أَتَى بَابَ الْإِنَابَةِ كَاذِبًا فَرُدَّ، كَيْفَ يَعْجَلُ مَنْ بِضَاعَتُهُ الْقَبَائِحُ؟ كَيْفَ يَعْمَلُ مَنْ شُهُودُهُ الْجَوَارِحُ؟ وينشد:

يَا مَنْ تَجَاوَزَ بِالْإِسَاءَةِ حَدَّهَا	وَجَفَا الْحَقَائِقَ مُعْرِضًا مُتَحَرِّفًا
ذَهَبَتْ حَيَاتُكَ فِي الْخِيَانَةِ وَالْجَفَا	وَأَتَى الْحِسَابُ مُطَالِبًا لَكَ بِالْوَفَا
مَاذَا تَقُولُ إِذَا دُعِيتَ فَلَمْ تَجِدْ	عَنْ دَعْوَةِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ تَخَلَّفَا
وَنُقِلْتَ مِنْ تَعَبِ الْحَيَاةِ لِمَوْقِفٍ	مَا زِلْتَ مِنْ لَوْعَاتِهِ مُتَحَوِّفَا

فَاخْتَرَ لِنَفْسِكَ مَا يَكُونُ جَوَابَهَا فَشَرَابُ حُزْنِكَ بِالنَّدَامَةِ قَدْ صَفَا
فَاسْتَقْبَلَ الْعُقْبَى بِذِلَّةٍ نَادِمٍ مُتَأَلِّمًا مُتَهَجِّجًا مُتَلَهِّفًا
فَارْعَبَ إِلَى الْمَوْلَى الْكَرِيمِ فَلَمْ يَزَلْ يَعْفُو وَيَرْحَمُ مُنْعِمًا مُتَعَطِّفًا

إخواني، أَيُّنَ الَّذِينَ سَلَبُوا سُلْبُوا، طَالَ مَا غَلَبُوا فَعَلَبُوا، عَمَرُوا دِيَارَهُمْ
فَلَمَّا تَمَّتْ لَهُمْ حَرْبُوا، وَرِيْقَتْ لَهُمْ كُؤُوسُ الْمَنَايَا وَأَكْرَهُوا فَشَرِبُوا. وينشد:

سَيْرُ اللَّيَالِي إِلَى أَعْمَارِنَا خَبَبٌ فَمَا يَبِينُ وَلَا يَعْتَانُهَا نَصَبٌ
وَمَا إِقَامَتُنَا فِي مَنْزِلٍ هَتَفَ فِيهِ بِنَا مُنْذُ سَكَنَّا رَبْعَهُ النُّوبُ
وَأَذَابَتُنَا وَقَدْ بَانَ عِمَارَتُهُ بَأَنَّهُ عَنِ قَلِيلٍ دَاثِرٌ خَرِبُ

عَنْ لَيْثٍ أَنَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى الدُّنْيَا فِي صُورَةٍ عَجُوزٍ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ
زِينَةٍ، فَقَالَ لَهَا: كَمْ تَزَوَّجْتَ؟ فَقَالَتْ: لَا أَحْصِيهِمْ. فَقَالَ: وَكُلُّهُمْ مَاتُوا عَنْكَ،
أَوْ كُلُّهُمْ طَلَّقَكَ؟ فَقَالَتْ: بَلْ كُلُّهُمْ قَتَلْتُ. فَقَالَ عَيْسَى: بُؤْسًا لَأَرْوَاجِكَ الْبَاقِينَ
كَيْفَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِأَرْوَاجِكَ الْمَاضِينَ؟ يَا مَنْ قَدْ لَعِبَ الْهَوَى بِفَهْمِهِ، وَسَوَدَّتْ
شَهَوَاتُهُ وَجَهَ عَزْمِهِ، يَا مَبْنِيًّا قَدْ عَزَمَ الْبَانِي عَلَى هَدْمِهِ، يَا مَحْمُولًا إِلَى الْبِلَاءِ
لِتَمْزِيقِ لَحْمِهِ، أَمَا يَكْفِيكَ مُنْذَرًا وَهْنُ عَظْمِهِ؟ كَمْ تُقَرِّبُكَ وَأَنْتَ مُتَبَاعِدٌ؟ كَمْ
تُنْهَضُكَ إِلَى الْعُلَى وَأَنْتَ قَاعِدٌ؟ كَمْ تُحَرِّضُكَ وَمَا تُسَاعِدُ؟ كَمْ تُؤَفِّظُكَ وَأَنْتَ فِي
الْهَوَى رَاقِدٌ؟ يَا أَعْمَى الْبَصِيرَةِ وَمَا لَهُ قَائِدٌ، يَا قَتِيلَ الْأَمَلِ لَسْتَ بِخَالِدٍ، يَا
مُصْرَفَ الْهُمُومِ وَالْمَقْصُودِ وَاحِدٌ، إِنَّ لَاحِتِ الدُّنْيَا فَشَيْطَانٌ مَارِدٌ، تُقَاتِلُ عَنْهَا
فَتَكْرُ وَتُطَارِدُ، وَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ فَقُلْتَ غَائِبٌ وَجِسْمٌ شَاهِدٌ، وَتَقُولُ: قَدْ صَلَّيْتُ
أُبْهَرِجُ عَلَى النَّاقِدِ مَا تَعْرِفُ رَبَّكَ إِلَّا فِي الْأَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ، أَمَا ذُنُوبُكَ كَثِيرَةٌ فَمَا
لِلطَّرَفِ جَامِدٌ، مَلَكُكَ الْهَوَى وَنَحْنُ نَدُقُّ فِي حَلِيدٍ بَارِدٍ. وينشد:

وَرُبَّمَا غُوفِصَ ذُو غَفْلَةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْقَمِ

يَا وَاضِعَ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ خَاطَبَكَ الْقَبْرُ وَلَمْ تَفْهَمْ
يَا أَخِي، كَمْ لَيْلَةٍ سَهَرْتَهَا فِي الذُّنُوبِ؟ كَمْ خَطِيئَةٍ أَمْلَيْتَهَا فِي الْمَكْتُوبِ؟ كَمْ
صَلَاةٍ تَرَكْتَهَا مُهْمَلًا لِلْوُجُوبِ؟ يَا أَعْمَى الْقَلْبِ بَيْنَ الْقُلُوبِ، سَتَدْرِي دَمْعَ مَنْ
يَجْرِي وَيَذُوبُ، أَيُّنَ الْفِرَارِ وَفِي كَفِّ الطَّالِبِ الْمَطْلُوبِ؟ تَبَّهَ لِلْخَلَاصِ أَيُّهَا

الْمُسْكِينُ، أَعْتَقَ نَفْسَكَ مِنَ الرُّقِّ، يَا رَهِيْنُ أَفْلَحَ أَصْلَ الْهَوَى فَعِرْزُ الْهَوَى مَكِيْنُ .
 اخْذَرْ غُرُورَ الدُّنْيَا فَمَا لِلدُّنْيَا يَمِيْنُ، كَيْفَ تَرَى حَالَكَ إِذَا عُرِيَتْ الشَّمَالُ
 بِالْيَمِيْنِ؟ ثُمَّ نُقِلْتَ وَلُقِيْتَ بِالْمِيْتِ الدَّفِيْنِ، وَآسَفًا لِعَظَمِ حَسْرَتِكَ سَاعَةَ التَّلَقِيْنِ،
 يَا مَسْتُوْرًا عَلَى الذُّنُوْبِ عَدَا تَتَجَلَّى عَنْكَ وَتَبِيْنُ، تَرَى مَتَى هَذَا الْقَلْبُ الْقَاسِي
 يَلِيْنُ؟ وَآعْجَبًا لِقَسُوْتِهِ وَهُوَ مَخْلُوْقٌ مِنْ طِيْنٍ . وينشد:

وَقَبْلَ شُخُوْصِ الْمَرْءِ يَجْمَعُ زَادَهُ وَثُمْلًا مِنْ قَبْلِ الرَّمَاءِ الْكَنَائِنُ
 حَصَادُكَ يَوْمًا مَا زَرَعْتَ وَإِنَّمَا يُدَانُ امْرُءٌ يَوْمًا بِمَا هُوَ دَائِنُ

سَاعَاتُ السَّلَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ مَبْدُوْلَةٌ، فَسَابِقُ سُيُوفِ الْآفَاتِ فَإِنَّهَا مَسْلُوْلَةٌ،
 وَبَادِرُ مَا دَامَتْ الْمَعَاذِيْرُ مَقْبُوْلَةٌ، وَاقْرَأْ عُلُومَ النَّجَاةِ فَإِنَّهَا مَنْقُوْطَةٌ مَشْكُوْلَةٌ، وَافْتَحْ
 عَيْنِيكَ فَآلَى كَمْ بِالنَّوْمِ مَكْحُوْلَةٌ؟ وَغَيْرَ خَلَائِقِكَ الْقَبَائِحَ الْمَرْذُوْلَةَ، يَا لَهَا مِنْ
 نَصِيْحَةٍ غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ عَلَى الْخِلَافِ مَجْبُوْلَةٌ.

السَّجْع:

وَيْحَ الْعُصَاةِ لَقَدْ عَجَّلُوا، لَوْ تَأَمَّلُوا الْعَوَاقِبَ مَا فَعَلُوا، أَيْنَ مَا شَرِبُوا؟ أَيْنَ
 مَا أَكَلُوا؟ بِمَاذَا يُجِيبُوْنَ إِذَا أُحْضِرُوا وَسُئِلُوا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
 عَمِلُوا﴾؟

أَوِ لَهُمْ فِي أَيِّ حُزْنٍ مِنَ الْحَزَنِ نَزَلُوا، لَقَدْ جَدَّ بِهِمُ الْوَاعِظُ غَيْرَ أَنَّهُمْ
 هَزَلُوا، إِنَّمَا كَانَتْ وِلَايَةُ الْحَيَاةِ يَسِيرًا ثُمَّ عَزَلُوا، وَانْفَرَدُوا فِي زَاوِيَةِ الْأَسَى
 وَاعْتَزَلُوا، وَإِذَا شَاهَدُوا ذُنُوْبَهُمْ مَكْتُوبَةً ذَهَلُوا، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ
 بِمَا عَمِلُوا﴾، ذَهَبَتْ مِنْ أَفْوَاهِهِمُ الْحَلَاوَةُ، وَبَقِيَتْ آثَارُ السَّقَاوَةِ حُطُّوا إِلَى
 الْحَضِيضِ مِنْ أَعْلَى رُبَاوَةٍ، وَحُمِّلُوا عِذْلَ الْمَوْتِ وَالْفُوتِ وَالْحَسْرَةِ عِلَاوَةً
 وَأَعْجَزَهُمُ وَاللَّهُ مَا حَمَلُوا بِمَا فَعَلُوا، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
 عَمِلُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾ [المجادلة: الآية ٦]، اجْتَمَعَتْ كَلِمَةُ إِلَى
 كَلِمَةٍ وَنَظَرَةٌ إِلَى نَظَرَةٍ إِلَى خَاطِرٍ قَبِيْحٍ إِلَى فِكْرَةٍ فِي كِتَابٍ يَحْصِي حَتَّى الذَّرَّةِ

وَالْعَصَاةُ مِنَ الْمَعَاصِي فِي سَكْرَةٍ، فَجَنُّوا مَنْ جَنَى مَا جَنُّوا ثَمَارَ مَا عَرَسُوهُ، ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾.

كَمْ تَنَعَّمَ بِمَالِ الْمَظْلُومِ ظَالِمٌ وَبَاتَ لَا يُبَالِي إِلَى الْمَظَالِمِ وَالْمَسْلُوبِ
يَبْكِي فَيَبْكِي الْحَمَائِمُ مَا كَفَاهُ أَخْذُ مَالِهِ حَتَّى حَبَسُوهُ، ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾.

أَيْنَ مَا كَانُوا جَمْعُوهُ، كَمْ لِيُمُّوا وَمَا سَمِعُوهُ، كَمْ قِيلَ لَهُمْ: لَوْ قَبِلُوهُ. ذَهَبَ
الْعَرَضُ غَيْرَ أَنَّ الْعَرَضَ دَنَسُوهُ، ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾، كَمْ كَاسِبٌ لِلْمَالِ مِنْ
حَرَامِهِ وَحَلَالِهِ فَيُحَاسِبُ شَرِيكَهُ عَلَى عَوْدِ خِلَالِهِ، وَلَا يُنْفِقُ مِنْهُ شَيْئًا فِي تَقْوِيمِ
خِصَالِهِ، فَلَمَّا وَقَعَ صَرِيحًا بَيْنَ أَشْبَالِهِ، اشْتَغَلُوا عَنْهُ بِانْتِهَابِ مَالِهِ، ثُمَّ فِي اللَّحْدِ
نَكْسُوهُ، ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: الآية ٦].

جَعَلَنَا اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ عَرَفُوا وَرَأَوْا الْحَقَّ فَاتَّبَعُوهُ، وَزَجَرُوا الْهَوَى عَنْهُمْ
وَرَدَّعُوهُ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ بِالْقُرْآنِ فِي مَوْقِفِ الْعَرَضِ عَلَيْكَ ذُلَّ مَقَامِنَا، وَاعْفِرْ لَنَا
وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ
أَجْمَعِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْمَجْلِسُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا شَأْنَ يَشْغُلُهُ، وَلَا نِسْيَانٌ يُذْهِلُهُ، وَلَا قَاطِعٌ لِمَنْ يَصِلُهُ، وَلَا نَافِعٌ لِمَنْ يَخْذُلُهُ، جَلَّ عَنْ مِثْلِ يُطَاوِلُهُ، أَوْ نِدٍّ يُشَاكِلُهُ، أَوْ نَظِيرٍ يُقَابِلُهُ. يُثَبِّتُ بِالْعَمَلِ الْقَلِيلَ وَيَقْبِلُهُ، وَيَحْكُمُ عَنِ الْعَاصِي فَلَا يُعَاجِلُهُ، وَيَدْعِي الْكَافِرَ لَهُ شَرِيكًا وَيُْمِهِّلُهُ.

ثُمَّ إِذَا بَطَشَ هَلَكَ كِسْرَى وَصَوَاهِلُهُ، وَذَهَبَ فَيَصْرُ وَمَعَاقِلُهُ، اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَمَا الْعَرْشُ حَامِلُهُ، وَيَنْزِلُ لَا كَالْمُنْتَقِلِ تَخْلُو مَنَازِلُهُ، هَذِهِ جُمْلَةُ اعْتِقَادِنَا، وَهَذَا حَاصِلُهُ، مَنْ ادَّعَى عَلَيْنَا التَّشْبِيهَ فَاللَّهُ يُقَاتِلُهُ، مَذْهَبُنَا مَذْهَبُ أَحْمَدَ وَمَنْ كَانَ يُمَاتِلُهُ، وَطَرِيقُنَا طَرِيقُ الشَّافِعِيِّ وَقَدْ عَلِمْتَ فَضَائِلُهُ، وَتَرْفُضُ قَوْلَ جَهْمٍ وَقَدْ عُرِفَ بَاطِلُهُ، وَأَصْلِي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي ارْتَجَبَتْ لَيْلَةٌ وَلَادَتْهُ أَعَالِي الْإِيْوَانِ وَأَسَافِلُهُ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ ثَانِي اثْنَيْنِ فَلْيَعْرِفْ قَائِلُهُ، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي صَفَّى الْإِسْلَامَ بِحَدِّهِ وَعَذَّبَتْ مَنَاهِلُهُ، وَعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي زَارَتْهُ الشَّهَادَةُ وَمَا تَعَبَتْ رَوَاجِلُهُ، وَعَلَى عَلِيٍّ بِحَرِّ الْعُلُومِ فَمَا يُدْرِكُ سَاحِلُهُ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ أَقْرَبُ الْخَلْقِ نَسَبًا فَمَاذَا يُشَاكِلُهُ.

قال الله العظيم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: الآية ١٦]، الْكِتَابُ: الْقُرْآنُ. وَمَرْيَمُ: اسْمُ أَعْجَمِيٍّ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّهَا حَنَّةً قَدْ حَنَّتْ إِلَى وَلَدِهَا فَكَبَّرَ عَلَيْهَا امْتِنَاعُهُ وَاسْتَوْلَى الْكِبَرُ فَرَأَتْ يَوْمًا طَائِرًا يَغُرُّ فَرَحًا فَرَحًا، أَمَلَهَا الْبُؤْسُ

فَرَجًّا فَسَالَتْ عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَلَدَيْهَا وَلَدًا، فَلَمَّا عَلِمَتْ بِالْحَمْلِ أَكْسَبَهَا السُّرُورَ وَلَهَا، فَوَهَبَتْهُ بِلِسَانِ النَّذْرِ لِمَنْ وَهَبَهُ لَهَا مُحَرَّرًا خَادِمًا لِلْكَنِيسَةِ فَقَالَ الْقَدَرُ: يَا مَالِكَ التَّصَوُّيرِ صَيِّرِ الْحَمْلَ أُثْنَى لِيَيْنِ أَثَرِ الْكَرَمِ فِي قَبُولِ النَّاقِصِ.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ [آل عمران: الآية ٣٦] وَضَعَتْهَا بِأَنَامِلِ الْإِنْكَسَارِ عَنْ سَرِيرِ السُّرُورِ وَحَمَلَتْهَا إِلَيْهِمْ فَجَبَرَ كَسْرَهَا جَابِرٌ ﴿فَنَقَبَلَهَا﴾، وَسَاقَ عَنَانَ اللَّطْفِ إِلَى سَاقِي زَرْعِهَا فَرَبَا فِي رَبَا ﴿وَأَنْبَتَهَا﴾ [آل عمران: الآية ٣٧]، وَلَمَّا انْطَلَقَتْ بِهَا الْأُمُّ تَوْمُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ لِبَسِ الْقَوْمِ لَأَمْتُهُمْ فِي حَرْبٍ ﴿يُلْفُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٤٤]، فَثَبَّتَ قَلَمَ زَكْرِيَّا، إِذْ زَيْنَتِ الْأَقْلَامُ فَكَفَّتْهَا ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ [آل عمران: الآية ٣٧] أَي: ضَمَّهَا وَكَفَّلَهَا فَأَرَاهَا الْمُسَبِّبُ غِنَاهَا عَنِ السَّبَبِ بِأَيَّةِ عِنَايَةٍ ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: الآية ٣٧] فَرَبَاهَا مِنْ رَبَّهَا فَتَشَأَتْ لَا تَرَى إِلَّا رَبَّهَا، فَلَمَّا بَلَغَتْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ﴿فَأَنْبَذَتْ﴾ [مريم: الآية ٢٢] أَي: تَنَحَّتْ عَنْ أَهْلِهَا ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٦] مِمَّا يَلِي الْمَشْرِقَ ﴿فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَي: حَاجِزًا يَمْنَعُ مِنَ النَّظَرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضَرَبَتْ سِتْرًا لِتَطْهُرَ مِنَ الْحَيْضِ وَتَمْتَشِطَ، ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وَهُوَ جِبْرِئِيلُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ [مريم: الآية ١٧] أَي: تَصَوَّرَ لَهَا فِي صُورَةِ الْبَشَرِ التَّامِ الْخِلْقَةِ.

قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فِي صُورَةِ شَابٍّ جَعِدٍ قَطِيطٍ حِينَ اخْضَرَ شَارِبُهُ ﴿قَالَتْ إِنْجِ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٨]، الْمَعْنَى أَنَّكَ إِنْ كُنْتُ تَتَّقِي اللَّهَ فَتَنْتَهِي لِتَعْوِذِي مِنْكَ. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أَي: لَا تَخَافَنَّ ﴿لَأَهَبَ لَكَ﴾ أَي: أَرْسَلَنِي ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٩] أَي: طَاهِرًا مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أَي: كَيْفَ يَكُونُ ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ﴾ تَعْنِي الزَّوْجَ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٠] أَي: فَاجِرَةً. قَالَ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ [مريم: الآية ٢١] أَي: يَسِيرٌ أَنْ أَهَبَ لَكَ غُلَامًا مِنْ غَيْرِ أَبِي ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أَي: دَلَالَةً عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أَي: لِمَنْ تَبِعَهُ وَآمَنَ بِهِ ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢١] أَي: مُحْكُومًا بِهِ وَمَفْرُوعًا مِنْهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَفَنَحَّ جَبْرَائِيلُ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا فَمَرَّتِ الْمَرْأَةُ حَامِلًا فِي الْوَقْتِ وَفِي مِقْدَارِ حَمْلِهَا سَبْعَةُ أَقْوَالٍ؛ فَلَمَّا عَلِمَتْ أَلِمَتْ بِمَا حَمَلَ عَلَيْهَا بِالْحَمْلِ فَأَخْرَجَهَا حَيَاءُ الْحَيِّ عَنِ الْحَيِّ.

قوله تعالى: ﴿فَانْبَذَتْ بِهِ﴾ أي: بِالْحَمْلِ ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٢] أي: بَعِيدًا. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقٍ: مَشَتْ سِتَّةَ أَمْيَالٍ فِرَارًا مِنْ قَوْمِهَا أَنْ يُعَيِّرُوهَا بِوِلَادَةِ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ وَالْمَعْنَى فَجَاءَهَا، وَالْمَخَاضُ وَجَعُ الْوِلَادَةِ ﴿إِلَى جَنَعِ النَّخْلَةِ﴾، وَهُوَ سَاقُ نَخْلَةٍ يَابِسَةٍ فِي الصَّحَرَاءِ لَيْسَ لَهَا رَأْسٌ وَلَا شُعْبٌ، فَلَمَّا تَحَيَّرَتْ مِنْ وُجُودِ وَلَدٍ وَمَا فَجَرَتْ، فَجَرَتْ عَيْنُ الدَّمْعِ، فَصَاحَ لِسَانُ الْحَفَرِ بِلِسَانِ النَّدْبِ ﴿يَلْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الْيَوْمَ. وَهَذَا الْأَمْرُ قَالَتْهُ حَيَاءٌ مِنَ النَّاسِ.

﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٣] أي: يَا لَيْتَنِي لَمْ أَكُ شَيْئًا ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ [مريم: الآية ٢٤] وَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: الْمَلَكُ، وَكَانَتْ عَلَى نَشْرِ.

وَالثَّانِي: عِيسَى لَمَّا وَلَدَتْهُ ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ شَرِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٤] وَالسَّرِيُّ النَّهْرُ الصَّغِيرُ، وَكَانَتْ قَدْ حَزَنْتَ لِجَذْبِ مَكَانِهَا وَخُلُوقِهِ عَنْ مَاءٍ وَطَعَامٍ، فَقِيلَ لَهَا: قَدْ أَجْرَيْنَا لَكَ نَهْرًا وَأَطْلَعْنَا لَكَ رُطْبًا، وَفِي ذَلِكَ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِيجَادِ عِيسَى فَهَزَّتْ جِذْمَ جَذَعٍ مَائِلٍ قَائِمٍ مِنَ الْحُطْبِ، فَتَسَاقَطَ عَلَيْهَا فِي الْحَالِ رُطْبُ الرُّطْبِ فَأَخَذَهَا الْجَوَى فِي إِعْدَادِ الْجَوَابِ. فَقِيلَ لَهَا: ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي﴾ [مريم: الآية ٢٦] كُلِّي كُلَّ الْكُلِّ إِلَى مَنْ لَهُ الْكُلُّ كُنْتُ بِمَعْزِلٍ مِنْ وُجُودِ الْوَلَدِ فَتَكُونِي بِمَعْزِلٍ مِنْ إِقَامَةِ الْعُذْرِ فَالَّذِي تَوَلَّى إِيجَادَهُ يُقِيمُ عُذْرَ الْعُذْرَاءِ، لَا تَعْجَبِي مِنْ وُجُودِ حَمْلٍ سَافَرَ عَنْ أَرْضِ الْقُدْرَةِ فَلَمْ يَصْلُحْ يَنْزِلُ إِلَّا بِمَنْزِلٍ أَرْكَانُهُ عَلَى عُمْدٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَأَمْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٤٢].

إِخْوَانِي، كَمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُتَّقِينَ الْأَبْرَارِ، مَلَكْتُكُمْ الدُّنْيَا وَمَلَكُوهَا، فَالْقَوْمُ أَحْرَارٌ كَانَتْ لَهُمْ أَنْفَةٌ فَاحْتَمَوْا مِنَ الْعَارِ، وَعَرَفُوا قَدْرَ الزَّمَانِ فَانْتَهَبُوا الْأَعْمَارَ،

فَلَوْ مَدَدْتُمْ بَاعَكُمْ مَا كَانَتْ فِيهِمْ إِلَّا كَالْأَشْبَارِ، لَوْ أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِمْ فِي وَقْتِ
الْأَسْحَارِ، لَرَأَيْتُمْ نُجُومَ الْهُدَى، بَلْ هِيَ أَفْئَامٌ فَأَمُوا جَمِيعَ الدَّجَى عَلَى قَدَمِ
الْإِعْتِدَارِ. وينشد:

بَاَحْتُ بِسِرِّي فِي الْهَوَى أَذْمُعِي وَدَلَّتِ الْوَاشِي عَلَى مَوْضِعِي
يَا قَوْمَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى مَذْهَبِي فِي الْوَجْدِ وَالْحُزْنِ فَنُوحُوا مَعِي
يَحِقُّ لِي أَبْكِي عَلَى زَلَّتِي فَلَا تَلُومُونِي عَلَى أَذْمُعِي

مَالَتْ بِالْعَارِفِينَ رِيحُ الْأَسْحَارِ مِثْلَ الْأَسْحَارِ مِثْلَ الشَّجَرِ بِالْأَغْصَانِ، هَزَّ
الْخَوْفُ أَفْتَانَ الْقُلُوبِ فَانْتَشَرَتِ الْأَفْتَانُ، فَالْلسَانُ تَضَرَّعُ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ، وَالْوَقْتُ
بُسْتَانٌ.

خَلَوْتُهُمْ بِالْحَبِيبِ تَشَعَّلُهُمْ عَنْ نَعَمٍ وَنُعْمَانٍ، أَطْلَعَ مِنْ خَوْخَةِ التِّيْقِظِ
بِعَيْنِ التَّأَمُّلِ تَرَى الْبُرْهَانَ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْهُمْ مَا نَأَيْمُ كَيْفَظَانٍ، كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ،
أَيْنَ الشُّجَاعُ مِنْ جَبَانٍ؟ مَا لِلْمَوَاعِظِ فَيْكَ مَوَاضِعُ الْقَلْبِ بِالْهَوَى مَلَانٌ، يَا
هَذَا قِفْ عَلَى بَابِ النَّجَاحِ وَلَكِنْ وَقُوفْ لَهْفَانٍ، ارْكَبْ سُفْنَ الصَّلَاحِ فَهَذَا
الْمَوْتُ طُوفَانٌ، أَيْكُونُ بَعْدَ هَذَا إِيضَاحٌ أَوْ مِثْلُ هَذَا تَبْيَانٌ. يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ
سَحَبَتْ ذَيْلَ الْفَصَاحَةِ فَحَارَ سُحْبَانُ بَعْدَ أَذِيَّةِ إِمَامِيَّةِ نَاصِرِيَّةٍ لَا يَعْرِفُ ضَرْبَ
خُرَاسَانَ. شعر:

بَرَرْنِي مَعْرُوفُكُمْ قَبْلَ أَبِي وَغَذَانِي بَرُّكُمْ قَبْلَ اللَّبَنِ
فَإِذَا أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ فَإِذَا أَنْتُمْ لَمْ تُؤَالُونِي فَمَنْ

مَنْ نَزَلَ عَنْ مَطِيَّةِ الْإِخْلَاصِ مَشَى فِي حَسَكِ التَّغْيِيرِ فَتَقَطَّعَ قَدَمُ الصَّدِّيقِ وَلَمْ
يَبْلُغِ الْمَنْزِلَ، الرِّيَاءُ أَضَلُّ النِّفَاقِ، نِفَاقُ الْمُنَافِقِينَ صَيَّرَ الْمَسْجِدَ مَزْبَلَةً وَقَالَ
الْمُنَزَّهُ: ﴿لَا نَفْعَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: الآية ١٠٨] لَا تَعَجَّبُوا بِصُورَةِ التَّعَبُّدِ وَتَلَمَّحُوا
حُسْنَ الْمَقْصِدِ، لَيْسَ كُلُّ مُصَلٍّ بِمُتَعَبِّدٍ، وَلَا كُلُّ صَائِمٍ بِزَاهِدٍ، وَلَا كُلُّ بَاكِ
بِخَاشِعٍ، وَلَا كُلُّ مُتَصَوِّفٍ بِصَافٍ، لَيْسَ التَّكْحُلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالْكُحْلِ، كَمْ حَوْلَ
مَعْرُوفٍ مِنْ دَفِينٍ ذَهَبَ اسْمُهُ كَمَا بَلَى رَسْمُهُ، وَمَعْرُوفٌ مَعْرُوفٌ وَذَهَبَ أَهْلُ
التَّحْقِيقِ وَبَقِيَ بُيَانُ الطَّرِيقِ.

وَأَعَجَبًا لَقَدْ رَحَلَ الْقَوْمُ وَبَقِيَ أَهْلُ السَّنَةِ وَالنَّوْمِ. كَانَ الصُّوفِيَّةُ قَدِيمًا
يَسْخَرُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالْآنَ الشَّيْطَانُ يَسْخَرُ بِالْقَوْمِ. الْوَقْتُ يَنْقُضُ بِكَ يَا
عَاصِي، فَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ، وَمُنَادِي الْوِصَالِ عَلَى بَابِ الْقَبُولِ يُنَادِي ﴿وَسَارِعُوا إِلَى
مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣]. شعر:

لَيْسَ جَلَّ ذَنْبِي وَارْتَكَبْتُ الْمَأْتَمَا	وَأَصْبَحْتُ فِي بَحْرِ الْخَطِيئَةِ عَائِمًا
أَجْرَرْتُ ذَيْلِي فِي مُتَابَعَةِ الْهَوَى	لَأَقْضِيَ أَوْطَارَ الْبَطَالَةِ هَائِمًا
فَهَا أَنَا يَا رَبِّ أَفْرَرْتُ بِالَّذِي	جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي وَأَصْبَحْتُ نَادِمًا
أَجَلُ ذُنُوبِي عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِي	حَقِيرَ وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي عِظَامًا

يَا هَذَا، بَادِرْ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ الْقَفْصَ وَيَنْطَلِقَ الطَّائِرُ، وَلَا تَغْتَرَّ بِالْمُهْلَةِ،
فَطَائِرُ عُمْرِكَ طَائِرٌ كَمْ أَنْتَ بِالْمَلَاهِي لَاهِي. لِمَ لَا تُطِيعُ حِينَ أَسْرَفْتَ فِي الْمَنَاهِي
نَاهِي؟ أَفِقْ أَيُّهَا السَّائِخُ فِي بَحَارِ الْعَمَرَاتِ، فَمَا مِنْ حُسْنِ الْأَخْلَاقِ أَنْ يَكُونَ
ثِيَابُ عَمَلِكَ أَخْلَاقَ إِلَى كَمْ أُجْرَرُ فِي الْخِلَافِ؟ أَرْدَانِي فَمَا أَرْدَانِي؟ وَلَا أَعْمَضُ
عَنِ الْمَحَارِمِ أَجْفَانِي، إِلَى كَمْ تَسْحَبُ ذَيْلَ التَّوَانِي يَا وَانِي وَحَتَّى مَتَى تَصْحَبُ
التَّجَانِي يَا جَانِي؟ انْظُرْ وَيَحَكَ إِلَى الْمُسْتَحْسِنِ فِي لَحْدِهِ وَقَدْ سَالَ نَازِرُهُ عَلَى
حَدِّهِ وَقَدْ تَبَدَّلَ مَبِيضُهُ بِمُسْوَدِّهِ؟ وَقَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ بِضِدِّهِ. وينشد:

جَاءَتْ تَزْوُرُ وَسَادَتِي بَعْدَمَا دُفِنْتُ	فَظِلْتُ أَلْتُمُ خَدًّا زَانَهُ الْجِيدُ
فَقُلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي قَدْ بُعِثَتْ لَنَا	فَكَيْفَ ذَا وَطَرِيقُ الْقَبْرِ مَسْدُودُ
قَالَتْ هُنَاكَ عِظَامِي فِيهِ مُلْحَدَةٌ	تَجُولُ فِيهَا الْهَوَامُ وَالْحَيَّاتُ وَالِدُّودُ
وَهَذِهِ النَّفْسُ قَدْ جَاءَتْكَ زَائِرَةٌ	كَذَا زِيَارَةُ مَنْ فِي الْقَبْرِ مَلْحُودُ

يَا هَذَا، بَادِرْ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ الْقَفْصُ وَيَنْطَلِقَ الطَّائِرُ وَلَا تَغْتَرَّ بِالْمُهْلَةِ، فَطَائِرُ
عُمْرِكَ طَائِرٌ، كَمْ أَنْتَ بِهِ يَا هَذَا حَتَّى مَتَى لَا تَلْزُمُ بَابَ طَبِيِّكَ، وَإِلَى كَمْ وَكَمْ لَا
تُدْمِنُ الْقُرْعَ وَسَيْلَةَ لِحْيَيْكَ؟ أَمَا فُتِحَ لَكَ الْبَابُ؟ أَمَا رُفِعَ لَكَ الْحِجَابُ؟ أَمَا
ضَمِنَ لَكَ الْمَثَابُ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ مُنْزِلِ الْكِتَابِ ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾
[طه: الآية ٨٢]؟ وَمَاذَا تَقُولُ مَا مَعْنَى إِذَا نَادَاكَ سَيِّدُكَ؟ أَيُّ قَاطِعٍ قَطَعَكَ عَنَّا؟
أَيُّ مَانِعٍ مَنَعَكَ مِنَّا؟ يَا مَنْ عَظَانَا غَدًا نَرَاكَ وَلَا تَرَانَا؟ يَا مَنْ إِذَا رَشَقْتَهُ النَّوَائِبُ

جَزَع؟ يَا مَنْ شَابَ وَلَا ارْتَجَعَ؟ يَا مَنْ آمَنَ لَا تَأْمَنُ؟ وَهَدَدَ النَّفْسَ لِيَوْمِ الْفَرَجِ؟
 أَرَضَى بِالْبَطَالَةِ وَغَيْرِكَ جَدًّا إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَبَلَغَ شَمْسُ حَيَاتِكَ قَدْ أَعْلَمَ بِالْغُرُوبِ
 بَعْدَ مَا بَرَعَ؟ يَا مَعْرُوفًا بِتَرْكِ الْمَعْرُوفِ؟ يَا مَنْ هُوَ بِكَسْبِ الْقَبَائِحِ مَوْصُوفٌ؟
 وَإِلَى كُلِّ خَدَعٍ مُحَالِفٍ مَأْلُوفٍ؟ إِلَى كَمْ تَعْتِقُ الْمَمَالِكِ وَأَنْتَ لَا تُعْتَقُ وَتُطْلِقُ
 الْأَسَارَى وَأَنْتَ مِنْ أَسْرِ شَهْوَتِكَ لَا تُطْلِقُ؟ مَا لِغَيْرِكَ وَقْفٌ وَأَنْتَ لَا تُوقِفُ؟
 لَيْسَ الْعَفْلَةُ عَنِ الْحَقِّ بِحَقٍّ انْهَضَ فَلَيْسَ مُتَأَخِّرٌ كَمَنْ سَبَقَ؟ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ
 عَاشَ، وَمَنْ جَهَلَ حَقَائِقَ الْمَعْرِفَةِ طَاشَ، تَاللهِ مَا وَقَعَ عَلَى حَقِيقَةِ الطَّاعَةِ، مَنْ
 تَرَكَ النَّفْسَ مُطَاعَةً. وينشد:

قَدْ تَنَاهَيْتُ فِي بَلَائِي حَيْلِي	وَبَلَائِي كُلُّهُ مِنْ قَبْلِي
كُلَّمَا قُلْتُ تَجَلَّتْ غُمَّتِي	عُدْتُ فِي نَائِبَةٍ مَا تَنْجَلِي
لَعَبْتُ بِي شَهْوَاتِي فَاِنْقَضَتْ	لِي حَيَاتِي فِي غُرُورِ الْأَمَلِ
وَأَحَلَّتْ فِي ذُنُوبِي سَقَمًا	كَيْفَ لِي بِالْبُرِّ مِنْهُ كَيْفَ لِي
وَرَمْتَنِي سَيِّئَاتِي وَالْهَوَى بِسَهَامٍ	فَأَصَابَتْ مُقْلَتِي
وَأَتَى شَيْبِي وَحَالِي كَالَّذِي	كُنْتُ فِيهِ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

رَجَعْنَا إِلَى الْقِصَّةِ، فَلَمَّا سَكَنْتَ وَسَكَنْتَ بَعْدَ أَنْ قَامَتْ وَقَعْدَتْ أَقَامَتْ أَيَّامُ
 النَّفَاسِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمَّا مَرَّتْ عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَطَهَّرَتْ مِنْ
 نَفَاسِهَا ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: الآية ٢٧] فَتَادُوا مِنْ أُنْدِيَةِ التَّوْبِيخِ إِذَا مَا شَهِدُوا
 قَطُّ أُخْتَهَا ﴿يَتَأَخَذُ هَذُونَ﴾ [مريم: الآية ٢٨]، وَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ؛ فَأَضْجَرُوا مَرِيضًا قَدْ
 ضَنَى مِنْ أَنْيْنٍ ﴿أَلَيْكَ هَذَا﴾ [آل عمران: الآية ٣٧] عَلَى فِرَاشٍ ﴿يَلْتَنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾
 [مريم: الآية ٢٣] فَلَمَّا أَشَارَتْ أَرَى الرَّأْيِ أَشَارَتْ فَأَخَذَتْ أَلْسِنَةً تَعْجِبُهُمْ تَعُجُّ بِهِمْ
 ﴿كَيْفَ نَكَلِمُ﴾ [مريم: الآية ٢٩] فَكَانَهَا قَالَتْ لَهُمْ: أَنَا طَرِيقٌ وَهَذَا مُسَافِرٌ، وَالْمُسَافِرُ
 يَسْأَلُ عَنِ الطَّرِيقِ لَا الطَّرِيقُ عَنِ الْمُسَافِرِ، فَنَزَعَ مِنْ فِيهِ ثَدْيَهَا وَقَامَ يَمَخَضُ أَوْطَابَ
 الْخَطَابِ عَلَى مِنْبَرِ الْخَطَابَةِ فَأَبْرَزَ بِالْمَخَضِ مَخَضَ إِبْرِيْزِ الْإِقْرَارِ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي
 الْكِتَابَ﴾ [مريم: الآية ٣٠].

قَالَ عِكْرَمَةُ: قَضَى أَنْ يُؤْتِيَنِي الْكِتَابَ وَأَوْصَى إِلَى وُجُودِهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي فِي

إِشَارَةً ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: الآية ٣٢] فَكَانَ وَاسِطَ عَقْدٍ ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: الآية ٦]، فَلَمَّا تَمَّ سِنُّ السَّبَابِ جَلَسَ عَلَى بَابِ الْمُعْجِزَةِ يُعْطِي الْعَافِيَةَ الْعَافِيَةَ ﴿وَتُرِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ [المائدة: الآية ١١٠] فَرُبَّمَا أُلْقِيَ بِبَابِهِ خَمْسِينَ أَلْفًا يُبْرِئُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَلَقَدْ تَرَكَ الدُّنْيَا وَطَلَّقَهَا أَيَّ تَطْلِيْقٍ وَأَبْغَضَهَا لَا كِبْغُضِ الرَّافِضِيِّ الصَّدِّيقِ فَعَزَّاهَا بِجُنْدِ الزُّهْدِ بَيْنَ مُسْرَحٍ وَمُلْجَمٍ وَفَتَكَ كَمَا فَتَقَ بِالتَّقَى ابْنِ مُلْجَمٍ مَا أَلْتَمَتَ إِلَيْهَا قَطُّ وَجَهَ عَزْمِهِ وَلَا صَافَحَهَا يَوْمًا كَفَّ قَلْبِهِ وَلَا غَازَلَهَا سَاعَةً لِسَانٍ فِكْرِهِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: دَخَلَ عَيْسَى يَوْمًا فَدَخَلَ خَلْفَهُ ذُو دَخْلٍ فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شِبْهُهُ فَقَتَلَهُ الْيَهُودُ وَصَلَبُوهُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: الآية ١٥٧].

قَالَ عُلَمَاءُ النَّقْلِ: رُفِعَ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، وَأُلْبَسَ النُّورَ وَكُسِيَ الرِّيشَ وَقُطِعَتْ عَنْهُ لَذَّةُ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ فَأَصْبَحَ إِنْشِيَاً مَلَكِيًّا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: رُفِعَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَكَانَ عُمُرُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَشْهُرًا، وَمَاتَتْ أُمُّهُ بَعْدَ رَفْعِهِ بِسِتِّ سِنِينَ، وَكَانَ عُمُرُهَا أَرْبَعًا وَخَمْسِينَ سَنَةً.

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ عَيْسَى يَنْزِلُ عَلَى الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيَقْتُلُ الدَّجَالَ، وَيَتَزَوَّجُ، وَيُولَدُ مِنْهُ وَيَمُكُّ خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَيَمُوتُ وَيُدْفَنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وعظ:

مَا يُزَادُ تَاهَبٌ لِلْمُنْقَلَبِ فَلَسْتَ بِمُقِيمٍ، وَتَهَيَّأِ لِلرَّحِيلِ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. وينشد:
تَزَوَّدَ قَرِينَا مِنْ فِعَالِكَ إِنَّمَا قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
فَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَى الْقَبْرِ إِلَّا الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ
أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ يُقِيمُ قَلِيلًا عِنْدَهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ

وعظ:

إِلَى كَمْ تَعْصِي وَتَتَمَرَّدُ وَأَقْبِحُ مِنْ قَبِيحِكَ أَنْكَ تَتَعَمَّدُ، يَا رَدِيَّ الْغَرَمِ، يَا

سَيِّئِ الْمَقْصِدِ، يَا تَقِيَّ الثَّوْبِ وَالْقَلْبِ أَسْوَدُ، مَا هَذَا الْأَمَلُ وَلَسْتَ بِمُخْلَدٍ؟ أَمَا تَخَافُ مِمَّنْ هَدَّدَ وَأَوْعَدَ؟ يَا مَسْئُولًا عَنِ الْقَبِيحِ أَتُقِرُّ أَمْ تَجْحَدُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ السَّفَرَ بَعِيدٌ فَمَتَى تَتَزَوَّدُ؟ يَا مَنْ شَابَ وَلَا تَابَ هَذَا الدَّأْبُ مَذْكَتُ أَمْرَدَ؟ أَتَشْتَرِي الدُّنْيَا لَذَّةَ سَاعَةٍ بِعَذَابٍ سَرْمَدٍ؟ يَا مَرْمِيًّا فِي جُبِّ حُبِّ الْهَوَى هَذَا الْجَبَلُ وَمَا تَصْعَدُ، يَا اللَّهَ عَلَيْكَ تَأَمَّلْ نُصْحِي وَتَفَقَّدْ، أَمَا الطَّرِيقُ طَوِيلَةٌ فَأَقْبِلْ مِنِّي وَتَزَوَّدْ تَخَلَّصْ فَإِلَى كَمْ تُفَقِّدُ، مَيِّزْ مَا يَبْقَى مِمَّا يَفْنَى ثُمَّ اظْلُبِ الْأَجُودَ.

مَا أَرَى قَوْلِي يُؤَثِّرُ فِيكَ وَلَوْ دُرِسَ مُجَلَّدٌ، أَظَرَفَ مِنْ فِعْلِكَ قَلْبُ فَهْمِكَ وَأَنْتَ تَتَبَعُدُ، أَسَفًا لِأَيَّامٍ مَضَتْ فِي الذُّنُوبِ وَتَوَلَّتْ، تَحَمَّلْتَ فِيهَا النَّفْسُ فَأَفْسَدَتْهَا إِذَا تَوَلَّتْ، وَعَلَى لِيَالِي كَشَفَتِ الصَّحَائِفُ لَوْنَهَا فَرَكَسَتْ وَأَذَلَّتْ، آه لَشَيْبٍ كَانَ الشَّبَابُ فِيهِ أَصْلَحَ، وَلِذِي عَيْبٍ مَا قَوَّمَهُ الْعِتَابُ وَلَا أَصْلَحَ، وَلِمُفْرِطٍ يَخْسِرُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَا يَرْبِيحُ، أَوْ لِمُتَخَبِّطٍ فِي ظِلَامِ الظُّلَمِ وَالصُّبْحِ قَدْ أَصْبَحَ.

السَّجْع:

لَوْ رَأَيْتَ التَّائِبَ جَفَنًا مَقْرُوحًا، تَسْمَعُهُ فِي الْأَسْحَارِ عَلَى بَابِ الْإِعْتِذَارِ مَطْرُوحًا، سَمِعَ قَوْلَ الْإِلَهِ يُوحِي فِيَمَا يُوحَى ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ مَطْعَمُهُ يَسِيرٌ، وَحُزْنُهُ كَثِيرٌ، وَمُزْعِجُهُ مُشِيرٌ، وَكَأَنَّهُ أَسِيرٌ، قَدْ رُمِيَ مَجْرُوحًا، ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾.

أَنْحَلَ بَدَنَهُ الصِّيَامَ، وَأَتَعَبَ قَدَمَهُ الْقِيَامَ، وَحَلَفَ بِالْعَزْمِ عَلَى هَجْرِ الْمَنَامِ، فَبَدَلَ جَسَدًا وَرُوحًا ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾.

الذُّلُّ قَدْ عَلَاهُ، وَالْحُزْنُ قَدْ وَهَاهُ، يَذُومُ نَفْسَهُ عَلَى هَوَاهُ، وَبِهَذَا صَارَ مَمْدُوحًا ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾.

أَيْنَ مَنْ يَبْكِي عَلَى جَنَائَاتِ الشَّبَابِ الَّتِي بِهَا اسْوَدَّ الْكِتَابُ؟ أَيْنَ مَنْ يَأْتِي الْبَابَ يَجِدُ الْبَابَ مَقْتُوحًا؟ ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التَّحْرِيمُ: الْآيَةُ ٨].

اللَّهُمَّ عَرَّفْنَا بَرَكَهَ هَذَا الْجَمْعِ السَّعِيدِ، وَاجْعَلْهُ لَنَا وَسِيلَةً فِي طَلَبِ الزُّلْفَى
وَالْمَزِيدِ، وَبَلِّغْنَا مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي طَاعَتِكَ مَا تُرِيدُ، وَاحْشُرْنَا فِي
جُمْلَةِ الطَّائِعِينَ مِنَ الْعَبِيدِ، وَاعْفِرْ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِمَشَائِخِنَا وَلِجَمِيعِ
الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ
النَّبِيِّينَ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

المَجْلِسُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَغْتَرِيهِ دَاءٌ وَلَا يَتَغَيَّرُ أَبَدًا، لَمْ يَزَلْ وَاحِدًا أَحَدًا، وَلَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، اخْتَارَ مَنْ شَاءَ فَنَجَّاهُ مِنَ الرَّدَى، وَأَنْقَذَ أَهْلَ الْكَهْفِ وَأَرْشَدَ فَهْدَى، وَأَخْرَجَهُمْ بِقَلْقِ رَاحٍ بِهِمْ وَعَدَا، فَاجْتَمَعُوا فِي الْكَهْفِ يَقُولُونَ: كَيْفَ حَالُنَا غَدًا؟ وَأَرَا حُهُمُ بِالنَّوْمِ مِنْ تَعَبِ التَّعَبُّدِ مُدَدًا ﴿١٠﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١١﴾ فَضَرْبَنَا عَلَى عَازَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْغُرَبَاءِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٣﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٤﴾ [الكهف: الآيات ١٠ - ١٣].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا عَلَى مَا ارْتَجَزَ حَادٍ وَحَدَا، وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَشْرَفِ مَتَّبِعٍ وَأَفْضَلِ مُقْتَدَى، وَعَلَى صَاحِبِهِ الْمُتَّخِذِ بِالْإِنْفَاقِ عِنْدَ الْإِسْلَامِ يَدًا، وَعَلَى عُمَرُ فَمَا جَارَ عِنْدَ وَلَايَتِهِ وَلَا اعْتَدَى، وَعَلَى عُثْمَانَ الصَّابِرِ فِي الشَّهَادَةِ عَلَى وَقَعِ الْمُدَى، وَعَلَى عَلِيٍّ مَحْبُوبِ الْأَوْلِيَاءِ وَمُيَيَّدِ الْعَدَدِ وَالْعَدَى، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ أَشْرَفِ الْكُلِّ نَسَبًا وَمُحْتَدَى.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: الآية ٩]، كَانَ رَقْمٌ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَعْلَا كَهْفِ قُلُوبُ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَالْكَهْفُ غَارٌ فِي الْجَبَلِ إِلَّا أَنَّهُ وَاسِعٌ فَإِذَا صَغُرَ فَهُوَ غَارٌ،

وفي الرِّقِيمِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ؛ فَلَمَّا نَصَبَ مَلِكُهُمْ شَرَكَ الشَّرِكِ بَانَ لَهُمْ خَيْطُ الْفَخِّ فَفَرُّوا، خَرَجُوا مِنْ ضَيْقِ الْحَبْسِ إِلَى فُضَاءِ الْقَضَاءِ، فَمَا رَاعَهُمْ فِي الطَّرِيقِ إِلَّا رَاعَ رَافِقَهُمْ فَوَافَقَهُمْ كَلْبُهُ فَأَخَذُوا فِي ضَرْبِهِ لَكُونِهِمْ لَيْسُوا مِنْ ضَرْبِهِ، فَصَاحَ لِسَانُ حَالِهِ لَا تَطْرُدُونِي لِمَبَايَتِي جِنْسَكُمْ، فَإِنَّ مَعْبُودِي لَيْسَ مِنْ جِنْسِكُمْ، أَنَا فِي قَبْضَةِ إِيثَارِكُمْ أَسِيرٌ إِنْ سِرْتُمْ وَأَحْرَسٌ إِنْ نِمْتُمْ.

فَلَمَّا دَخَلُوا دَارَ ضِيَاةِ الْعُزْلَةِ اضْطَجَعُوا عَلَى رَاحَةِ الرَّاحَةِ مِنْ أَرْبَابِ الْكُفْرِ فَغَلَبَ النَّوْمُ الْقَوْمَ ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: الآية ٢٥] بِحِرَاسَةِ حُلَّتِهِمْ مِنْ بَلَاءٍ بَلَى، وَأَعْيَنُهُمْ مَفْتُوحَةً، لِئَلَّا يَذُوبَ بِإِطْبَاقِ الْأَطْبَاقِ وَيَدُ اللَّطْفِ تُقَلِّبَ أَجْسَادَهُمْ لِتَسْلَمَ مِنْ أَفَنِ الْعَفْنِ، وَجَرَتِ الْحَالُ فِي كُلِّهِمْ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴿[الكهف: الآيتان: ١١، ١٢]، أَي: لِنَعْلَمَ خَلَقْنَا. وَأَرَادَ بِالْحِزْبَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَكَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَهُمْ تَنَازُعٌ فِي مِلَّةٍ لَبِثَهُمْ.

وَالْوَصِيدُ: الْفِنَاءُ وَالْبَابُ. قَالَ وَهَبٌ: وَخَرَجَ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي طَلَبِهِمْ فَوَجَدُوهُمْ نِيَامًا، فَكَانَ كُلُّمَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِمْ أَخَذَهُ الرَّعْبُ.

فَقَالَ قَائِلٌ لِلْمَلِكِ: أَلَيْسَ أَنَّكَ أَرَدْتَ قَتْلَهُمْ؟ قَالَ: بَلَى. فَأَبْنِ عَلَيْهِمْ بَابَ الْكَهْفِ حَتَّى يَمُوتُوا جُوعًا وَعَطْشًا. فَفَعَلَ فَمَا ضَاعَ حَتَّى ضَاعَ الْمَلِكُ فِي بَيْدَاءِ الْمَلِكِ فَانْسَابَ رَاعٍ إِلَى سَبَبِهِمْ فَفَتَحَ بَابَ الْكَهْفِ لِيُحْرِزَ الْعَنَمَ فَهَبَّ الْهُوَى فَهَبَّ الرَّاقِدُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: جَلَسُوا فَرَحِينَ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لَا يَرُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ مَا يُنْكِرُونَهُ إِنَّمَا هُوَ كَهَيْئَتِهِمْ حِينَ رَقَدُوا وَهُمْ يَرُونَ أَنَّ مَلِكَهُمْ فِي طَلَبِهِمْ، وَتَرَنَمَ أَحَدُهُمْ بَلَفْظَ ﴿كَمْ لَبِثْنَا﴾ فَأَجَابَهُ أَحَدُهُمْ ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ [الكهف: الآية ١٩].

ثُمَّ رَأَى بَقِيَّةَ الشَّمْسِ فَاتَّقَى بِالْوَرَعِ وَرَطَاتِ الْكَذِبِ فَعَادَ يَتَّبِعُ أَوْبَ ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: الآية ١٩] فَلَمَّا قَفَلُوا مِنْ سَفَرِ النَّوْمِ إِلَى دِيَارِ الْعِبَادَةِ زَادَ

تَقَاضِي الطَّبْعِ بِالزَّادِ فَخَرَجَ رَئِيسُهُمْ فِي ثَوْبٍ مُتَنَكِّرًا مُسْتَخْفِيًا مُتَخَوِّفًا أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ فَضَلَّتْ مَعْرِفَتُهُ بِالْمَعَاهِدِ فَأَقْبَلَ يَتَّبِعُهُمُ الْيَقْظَةُ وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ فِي الْحُلُمِ وَمَا أَشْبَهَ الدُّنْيَا بِالدُّنْيَا، فَمَدَّ إِلَى بَائِعِ الطَّعَامِ بَاعَهُ فَمَا بَاعَهُ فَظَنَّ أَنَّهُ وَجَدَ كَنْزًا، وَلَقَدْ وَجَدَ كَنْزًا ﴿وَرَدْنَاهُمْ هُدًى﴾، بَلْ حَصَلَ لَهُمْ بَائِعُ الطَّعَامِ يَتَعَجَّبُ إِلَى مُلْكٍ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: الآية ١٣] وَجَعَلَ بَائِعُ الطَّعَامِ يَتَعَجَّبُ مِنْ نَقْشِ الْوَرَقِ ثُمَّ أَلْقَاهُ إِلَى آخَرٍ فَجَعَلُوا يَتَطَارَحُونَهُ بَيْنَهُمْ وَيَتَشَاوِرُونَ فَفَرَّ مِنْهُمْ وَظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوهُ. فَقَالَ: أُمْسِكُوا طَعَامَكُمْ فَلَا حَاجَةَ لِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَهُ الْقَوْمُ إِلَى الْوَالِي، فَقَالَ: إِنَّهُ لِمَالِي.

إخواني، لَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ نَائِمٍ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ مَا مَرَّ مِنْ نَوْمِهِ، إِنَّمَا الْعَجَبُ مَنْ نَامَ فِي يَقْظَةٍ عَمَرِهِ.

إخواني، خَرَجَ أَهْلُ الْكَهْفِ مِنْ بُيُوتِ الرَّفَاهِيَّةِ، فَجَدُّوا فِي قَطْعِ فَلَاةِ الْجِدِّ فَاسْتَلَبَ ثَوْبَهُمْ أَرْمَةً نُزِقَهُمْ فَأَفْضَاهَا بِالْقَوِيِّ فِي مَهْدِ الرَّفْقِ، فَنَامُوا وَقَامَتْ عَزَائِمُهُمْ تَتَعَبَّدُ، نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ، مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَ اللَّهِ خَيْرًا مِنْهُ. وينشد:

طَالَ وَاللَّهِ بِالذُّنُوبِ اشْتِغَالِي	وَتَمَادَيْتُ فِي قَبِيحِ فِعَالِي
لَيْتَ شِعْرِي إِذَا أَتَيْتُ فَرِيدًا	وَالْمَوَازِينُ قَدْ نُصِبْنَ حَوَالِي
وَالدَّوَاوِينَ قَدْ نُشِرْنَ جَمِيعًا	ثُمَّ لَمْ يُغْنِنِي هُنَاكَ مَالِي
مَا احْتِيَإِلِي وَمَا أَقُولُ لِرَبِّي	فِي سُؤَالِي وَمَا يَكُونُ مَقَالِي

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلَّهُ، وَانْتَهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ كُلَّهُ».

وعظ:

إخواني، يَا هَذَا مَا الَّذِي يُجْزِي عَنْكَ وَقُوفُكَ بِالْمِحْرَابِ، وَقَلْبُكَ مِنَ التَّقْوَى خَرَابٌ؟ فَيَا مَنْ هَتَكَ سِتْرَ الْمَحَارِمِ وَتَهَاوَنَ تَعْظِيمَ الْجَرَائِمِ. أُمْسِيقُظْ أَنْتَ أَمْ نَائِمٌ؟ مُصِيبَتُكَ مُصِيبَةٌ صَعْبَةٌ، تَهَاوَنْتَ بِالذُّنُوبِ وَتَأَخَّرْتَ عَنِ التَّوْبَةِ.

لَوْ عَرَفْتَ أَنَّكَ مُسَافِرٌ عَلَى مَطِيَّةٍ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ إِلَى حُفْرَةِ مَصَارِعِ الْحَرَامِ
وَمَضَاجِعِ الْوَحْشَةِ وَالْآلَامِ، مَا طَابَ لَكَ الشَّرَابُ وَلَا الطَّعَامُ. وينشد:

تَفَكَّرْتُ فِي ذُنُوبِي وَأَسْهَرْتُ مَقْلَتِي وَهَيَّجْتُ أَحْزَانِي وَأَسْبَلْتُ دَمْعِي
فَمَنْ لِي إِذَا غُمِضْتُ أَوْ قِيلَ قَدْ مَضَى وَأَظْفُوا سِرَاجِي وَاسْتَخَفُّوا بِحُرْمَتِي
وَمَنْ لِي إِذَا شُدَّتْ إِلَى الرَّأْسِ لِحْيَتِي وَسُجِّجَتْ فِي ثَوْبِي وَعَزُّوا قَرَابَتِي
وَنُقِلْتُ مِنْ فُرْشِي إِلَى لَوْحِ مَغْسَلِي وَجُرِّدْتُ أَثَوَابِي وَبُدِّلْتُ كِسْوَتِي
وَمَنْ لِي إِذَا أُدْرِجْتُ فِي الدَّرْعِ وَالرَّدَى وَشِيعْتُ مَحْمُولًا فَيَا طَوْلَ غُرْبَتِي
وَحَلَفِي كَرِيمَاتٍ عَلَيَّ بِوَإِيَا وَفِيهِنَّ أُمِّي وَشَقِيقِي وَعِثْرَتِي
يُنَادُونَ خَلْفَ النَّعْشِ مَنْ لَا يُجِيبُهُمْ وَقَدْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا إِبْجَابَتِي
وَصَلَّى عَلَيَّ الْقَوْمُ صَفًّا فَأَسْرَعُوا بِسَيْرِي إِلَى لَحْدِي يُوَارُونَ سَوَاتِي
وَأُحْدِثُ مِنْ نَعْشِي إِلَى الْقَبْرِ صَاغِرًا صَرِيعًا عَلَى خَدِّي وَقَامَتْ قِيَامَتِي
وَحَتَّى عَلَيَّ الثَّرَبُ مَنْ كُنْتُ أَلْفُهُ وَعَادَ هَوَانِي مِنْ عَظِيمِ كَرَامَتِي
وَسَأَلْتُ مِنَ الْأَجْفَانِ عَيْنِي عَلَى الثَّرَى وَمَزَقَ كَفَّ الْمَوْتِ جِسْمِي وَجُثَّتِي
وَسَارُوا إِلَى دَارِي يُرِيدُونَ إِزْنَهُمْ فَنُودِيتُ بِاسْمِي وَاسْتَخَفُّوا بِكُنْيَتِي
وَقَدْ هَجَرُوا قَبْرِي فَمَا يَعْرِفُونَهُ وَقَدْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا كَثِيرًا زِيَارَتِي
فَيَا رَبِّ بَارِكْ فِي ضَرْيَحِ سَكْنَتِهِ فَإِنْ لَمْ تُبَارِكْ لِي فَيَا شَوْمَ صَرَعَتِي

وعظ:

يَا هَذَا كَيْفَ جَفَّتْ مِنْكَ الْمُقْلُ وَالْأَجْفَانُ مَعَ قُرْبِ فِرَاقِ الْأَحْبَابِ
وَالْخُلَّانِ؟ أَنْفَقْتَ فِي الْبَطَالَةِ مَا مَضَى مِنْ أَيَّامِكَ، فَأَيْنَ مَا كُنْتَ تَجِدُهُ مِنْ أَيَّامِ
شَبَابِكَ؟ أَيْنَ بِهِجَتِكَ بِإِخْوَانِكَ وَأَتْرَابِكَ؟ أَيْنَ جُمْلَةُ أَهْلِكَ وَأَحْبَابِكَ؟ قَدْ نَظَّمَ
الْبَيِّنُ جَوْهَرَ شَمْلِهِمْ فِي سِلْكِ الْفُرْقَةِ وَالشَّتَاتِ كَمَا نَثَرَ الْمَوْتُ جَوَاهِرَ أَشْخَاصِهِمْ
فِي حُفْرِ اللَّحُودِ الْمُظْلِمَاتِ، فَلَا لِأَحْبَابِكَ بَكَيْتَ، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ تَأَلَّمْتَ،
فَاسْتَيْقِظْ فَأَيُّ حَسَنَةٍ لَكَ أَبْقَيْتَ. وينشد:

لَا عُذْرَ لِي قَدْ أَتَى الْمَشِيبُ فَلَيْتَ شِعْرِي مَتَى أَتُوبُ

إِذَا انْقَضَىٰ لِلشَّقِيّ ذَنْبٌ تَجَدَّدَتْ بَعْدَهُ ذُنُوبٌ
وَمِنْ وَرَائِي حُلُولُ قَبْرِ سَاكِنُهُ مُفْرَدٌ غَرِيبٌ
وَلَسْتُ أَدْرِي إِذَا أَتَانِي رَسُولُ رَبِّي بِمَا أُجِيبُ
هَلْ أَنَا عِنْدَ الْجَوَابِ مَتَى أَخْطِئُ فِي الْقَوْلِ أَمْ أُصِيبُ
أَمْ أَنَا عِنْدَ الْحِسَابِ نَاجٍ أَمْ لِي فِي نَارِهِ نَصِيبُ
وَإَسْفَى لَوْ سَفَحْتُ دَمْعِي وَالنُّوحُ فِي مِثْلِ ذَا يَطِيبُ
يَا رَبِّ جُدْ لِي فِي رَجَاءٍ بِمِثْلِهِ مِنْكَ لَا أَخِيبُ

رَجَعْنَا إِلَى الْقِصَّةِ، قِيلَ لِمَلِيحَا: أَيْنَ الْكَنْزُ الَّذِي وَجَدْتَ؟ قَالَ: مَا وَجَدْتُ كَنْزًا، وَلَكِنْ هَذِهِ وَرَقٌ أَبَائِي وَنَقَشُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَضَرْبُهَا وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا شَأْنِي وَلَا مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَكَانَ الْوَرَقُ مِثْلَ أَخْفَافِ الْإِبِلِ، قَالَ: وَإِنَّمَا كُنَّا فِتْنَةً أَكْرَهْنَا عَلَى فِتْنَةٍ فَخَرَجْنَا عَشِيَّةَ أَمْسٍ فَنَمْنَا فِي بَاطِنِ كَهْفٍ.

فَلَمَّا انْتَبَهْنَا خَرَجْتُ لِابْتِنَاعِ قُوْتٍ فَصَارَ الْقَوْمُ مَعَهُ فِي عَسْكَرٍ يَتَعَجَّبُ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ قَدْ ظَنُّوا لِإِبْطَائِهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ أُخِذَ، إِذْ سَمِعُوا الْأَصْوَاتَ وَجَلَبَةَ الْخَيْلِ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ رُسُلٌ دُفِئَانُوسَ فَقَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَسَلَّمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَسَبَقَ يَمَلِيحَا إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَبْكِي فَبَكُّوا مَعَهُ وَسَلَّوْهُ عَنْ شَأْنِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبْرَهُ فَعَرَفُوهُ أَنَّهُمْ كَانُوا نِيَامًا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أُوقِظُوا لِيَكُونُوا آيَةً لِلنَّاسِ وَتَضَدِيقًا لِلْبُعْثِ، وَجَاءَ مَلَكُهُمْ فَاعْتَنَقَهُمْ وَبَكَى.

فَقَالُوا نَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ. فَبَيَّنَّا الْمَلِكُ قَائِمٌ، رَجَعُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَتَوَفَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ، وَحَجَبَهُمْ بِحِجَابِ الرُّعْبِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ فَجَعَلَ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ مَسْجِدًا يُصَلِّي فِيهِ، وَصَارَ عِيْدُهُمْ عِنْدَ كُلِّ سَنَةٍ، وَقَدْ نَبَّهَتْ قِصَّتُهُمْ عَلَى أَنَّ مَنْ فَرَّ إِلَى اللَّهِ حَرَسَهُ وَلَطَفَ بِهِ، وَجَعَلَهُ سَبِيًّا لِهِدَايَةِ الصَّالِحِينَ. شعر:

إِذَا اشْتَغَلَ الْإِلَهِونَ عَنْكَ بِشُغْلِهِمْ جَعَلْتُ اشْتِغَالِي فِيكَ يَا مُنِيتِي شُغْلِي
مَنْ لِي بِأَنْ أَلْقَاكَ فِي سَاعَةِ الرِّضَا وَمَنْ لِي بِأَنْ أَلْقَاكَ وَالْكُلُّ مَوْلِي

وعظ:

لَقَدْ رِبَحَ الْقَوْمُ وَأَنْتَ نَائِمٌ، وَخَبْتَ وَرَجَعُوا بِالْغَنَائِمِ وَأَنْتَ بِاللَّيْلِ نَائِمٌ،
وَبِالنَّهَارِ هَائِمٌ، وَغَايَةُ مَا تَشْتَهِي مُشَارَكَةُ الْبَهَائِمِ، نَظَرُوا فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ،
فَقَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ، يَا هَذَا لَا تَكُنْ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ عَبْدًا مَا وَجَدْتَ مِنَ
الْعُبُودِيَّةِ بُدًّا. وينشد:

جِئْتُ مُسْتَخْفِيًّا وَقَدْ عَرَفُونِي وَأَنَا تَائِبٌ تَرَى يَقْبَلُونِي
أَنَا بِالْبَابِ وَقِفْتُ لِي ذَهْرًا كُلَّمَا رُمْتُ وَضَلَّهُمْ طَرْدُونِي
أَبْعَدُونِي وَقَرَّبُوا الْغَيْرَ دُونِي وَرَأَوْنِي مُقْصِرًا تَرْكُونِي
مَا أَنَا أَهْلٌ وَضَلِكُمْ لَا وَلَكِنْ أَنْتُمْ بِالْوِصَالِ أَطْعَمْتُمُونِي

يَا غَائِبَ الْقَلْبِ فِي صَلَاتِهِ، يَا مُشْتَتِ الْهَمِّ فِي جِهَاتِهِ، يَا مَشْغُولًا بِآفَاتِهِ
عَنْ ذِكْرِ وَفَاتِهِ، يَا قَلِيلَ الرَّادِ مَعَ قُرْبِ مَمَاتِهِ، يَا مَنْ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ طُولَ
حَيَاتِهِ، يَا مَنْ يَرَحُلُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ عَنِ الدُّنْيَا مَرَحَلَةً وَكِتَابُهُ قَدْ حَوَى حَتَّى مِقْدَارِ
خَرْدَلَةٍ، وَمَا يَنْتَفِعُ بِالنَّذِيرِ وَالنَّذْرُ مُتَّصِلَةٌ، وَنُورُ الْهُدَى قَدْ بَدَا وَمَا رَأَى وَمَا تَأَمَّلَهُ،
وَهُوَ يَأْمُلُ الْبَقَاءَ وَقَدْ رَأَى مَصِيرَ مَنْ أَمَّلَهُ، وَأَجَلُهُ قَدْ دَنَى وَلَكِنْ أَمَّلَهُ قَدْ شَغَلَهُ،
وَقَدْ اْنَعَكَفَ عَلَى الْعَيْبِ بَعْدَ الشَّيْبِ بِصَبَابَةٍ وَوَلَّهِ، وَيُحْضِرُ بَدَنَهُ فِي صَلَاتِهِ، وَأَمَّا
الْقَلْبُ فَقَدْ أَهْمَلَهُ، وَكُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَبَيْنَ يَدَيْكَ الْحِسَابُ وَالزَّلْزَلَةُ، بَادِرْ مَا بَقِيَ
مِنَ الْعُمْرِ وَاسْتَدْرِكْ أَوَّلَهُ فَبَاقِي عُمَرِ الْمُؤْمِنِ لَا قِيَمَةَ لَهُ.

السَّجْع:

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ، ظَنَّ قَارُونَ أَنَّهَا مَنَحَتُهُ، وَنَمَرُودُ أَنَّهَا قَدْ
صَالَحَتُهُ، وَبُلْعَامُ أَنَّهَا قَدْ بَايَعَتُهُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ ذَبَحَتْهُ وَكَسَرَتْ سَكِينَتَهُ، ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ﴾، أُمِرُوا بِالطَّاعَةِ فَعَمِلُوا بِأَعْمَالِ الْفَجَّارِ، وَقُرِبُوا مِنَ الْجَنَّةِ،
فَهَرَبُوا إِلَى النَّارِ.

أَمَّا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْجَبَّارِ حِينَ قَسَمَ وَاخْتَارَ، هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، أَيُّ
غَيْبَةٍ ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: الآية ٢٠].

اللَّهُمَّ لَا تَفْضَحْنَا إِذَا جَمَعْتَنَا، اللَّهُمَّ وَمَعَ الْفَائِزِينَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَدْخِلْنَا، اللَّهُمَّ
 عَمِّرْ بِالْحُزْنِ عَلَى الْآخِرَةِ خَرَابَ قُلُوبِنَا، وَطَهِّرْ بِالْعَفْوِ جَوَارِحَنَا مِنْ دَنَسِ زَلَّاتِنَا
 وَذُنُوبِنَا، اللَّهُمَّ زَيِّنْ أَقْوَالَنا بِبَهْجَةِ الصَّالِحِينَ، وَتَوَجَّنَا بِبُرْهَانِيَةِ الْخَائِفِينَ، وَاجْعَلْنَا
 فِي كَلَامِنَا هَذَا مِنَ الْمُحَقِّقِينَ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ
 عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا
 كَثِيرًا.

المَجْلِسُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ في أَمْرِهِ ﷺ وَفَضْلِهِ ورضاعه وهجرته ومولده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ قَاهِرِ الْمُتَجَبِّرِ وَمُذِلِّهِ، وَرَافِعِ الْمُتَوَاضِعِ وَمُجِلِّهِ، رَفَعَ مَنْ شَاءَ بِإِعْزَازِهِ كَمَا حَظَّ مَنْ شَاءَ بِذُلِّهِ، وَاخْتَارَ مُحَمَّدًا مِنَ الْخَلْقِ، فَكَانَ الْخَلْقُ خُلُقُوا مِنْ أَجْلِهِ، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

أَحْمَدُهُ عَلَى أَجَلِ الْإِنْعَامِ وَأَقْلَهُ، وَأَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ شَهَادَةً مُصَدِّقِ قَوْلِهِ بِفَعْلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لِنَقْضِ الْكُفْرِ وَجَلِّهِ، فَقَامَ مُعْجَزَتُهُ تُنَادِي ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٣] ﷺ.

وَعَلَى صَاحِبِهِ وَاصِلِ حَبْلِهِ، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي كَانَ يَفِرُّ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ، وَعَلَى عُثْمَانَ مُجَهِّزِ جَيْشِ الْعُسْرَةِ وَعَاقِدِ شَمْلِهِ، وَعَلَى أَخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ وَمُقَدِّمِ أَهْلِهِ، وَعَلَى عَمِّهِ صَنِوِ أَبِيهِ وَأَصْلِهِ^(١).

اللَّهُمَّ يَا مَنْ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَى فَضْلِهِ، يَا مُنْعِمًا بِالْجَزِيلِ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، سَامِعُ كُلِّ مَنَّا فِي جِدِّهِ وَهَزْلِهِ، وَارْزُقْنَا أَقْدَامَ شُجَاعٍ وَإِلَى الْعَدُوِّ وَجْهَهُ وَلَمْ يُولِّهِ، وَارْحَمْنَا يَوْمَ يَذْهَبُ كُلُّ خَلِيلٍ عَنْ خَلِّهِ، وَانْفَعْنِي وَالْحَاضِرِينَ بِمَا اجْتَمَعْنَا لِأَجْلِهِ، خَلَقَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ أَرْضَى الْأَرْضِ

(١) في نسخة وأهله.

أَرْضًا، وَأَصْفَى أَصْفَى الْأَوْصَافِ وَضَفًا، وَظَهَرَ آبَاءَهُ مِنْ زَلِ الزَّنَا إِلَى أَنْ صَدَقَتْ بِتِلْكَ الذَّرَّةِ صَدَقَةُ آمَنَةٍ.

قَالَ عُلَمَاءُ السَّيْرِ: لَمَّا حَمَلَتْ بِهِ آمَنَةُ قَالَتْ: مَا وَجَدْتُ بِهِ ثِقْلًا، وَلَا وَجَعًا وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِلْيَلْتَيْنِ حَلَّتَا مِنْ رَيْبِ الْأَوَّلِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِعَشْرِ خَلَوْنَ مِنْهُ. وَتُوَفِّي أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ حَمْلٌ، فَخَلَّفَ لَهُ خَمْسَةَ أَجْمَالٍ وَقِطْعَةَ غَنَمٍ، وَأُمُّ أَيْمَنَ، فَكَانَتْ تَحْضِنُهُ فَوَثِبَتْ لِرِضَاعِهِ ثَوْبِيَّةٌ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ أَيَّامًا، ثُمَّ قَضَتْ بَاقِيَ الدِّينِ حُلِيمَةً فَقَامَ بَنَاتُهُ مُسْتَخْفِيًا عَلَى سُوقِهِ، مُسْتَعْجِلًا قِيَامَ سُوقِهِ، فَتَشَأَ فِي حُكْمِ هَجْرِ الْكَلَامِ كَمَا قَدِمَتْ حُلِيمَةُ وَالْجَذْبُ عَامِرٌ فِي الْعَامِ فَأَعْرَضْنَ الْمُرْضِعَاتِ فَأَعْرَضَ الْيَتِيمُ وَمَا كُلُّ مَا ضَرَّ فِي يَعْرِفُ يَتِيمَةَ الدَّهْرِ إِلَى أَنْ رَاحَتْ حُلِيمَةُ إِلَى حِلَّتِهَا فَتَابَ لَبْنُهَا وَلَبَنُ رَاحِلَتِهَا فَبَاتُوا بِبَرَكَهٍ رُؤْيَاهُ رِوَاءً، وَهَبَّ عَلَى مَبَارِكِهِمْ نَسِيمٌ نَسَمَةٍ مُبَارَكَةٍ، وَكَانَ الرِّعَاءُ تَسْرُحُ فَيَعْقِرُهَا سَرَحَانُ الْجَذْبِ وَرَاعِي حُلِيمَةَ لِلْحِفْظِ وَالرَّعْيِ يُعِيدُ الْغَنَمَ بِالْغَنَمِ.

فَبَيْنَمَا الصَّبِيُّ مَعَ الصَّبِيَّانِ هَبَّتْ صَبَا الْخَيْرِ لِحَبْرِيئِيلَ فَجَاءَهُ فُجَاءَةً فَشَقَّ عَنِ الْقَلْبِ، ثُمَّ شَقَّهُ وَمَا شَقَّ عَلَيْهِ فَعَلَقَ بِيَدِهِ مِنْ بَاطِنِهِ بَاطِنَةً عُلقَةً، وَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ قَطَعْنَا عُلقَةً ثُمَّ أَعَادَ قَلْبُهُ بَعْدَ أَنْ قَلْبُهُ وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ فَبَقِيَ أَثَرُ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ بَاقِيَ عُمُرِهِ بِإِظْهَارِ سُورَةِ ﴿الزَّحْرَفِ﴾ [الشرح: الآية ١].

فَلَمَّا بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ أَلْوَى الْمَوْتَ بِالْوَالِدَةِ، فَجَدَّ فِي كِفَالَتِهِ الْجَدُّ عَامِرِينَ، ثُمَّ طَلَبَ الْمَوْتَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَمَا أَتَى الطَّالِبَ وَمَا اشْتَغَلَ بِأَوْصَابِهِ، حَتَّى أَوْصَى بِهِ أَبَا طَالِبٍ، فَخَرَجَ وَقَدْ رَأَاهُ أَنَّهُ كَالْتَّاجِ تَاجِرًا، فَتَبَيَّنَ بِالْيَتِيمِ مَنْزِلَ تَيْمَاءَ فَرَأَاهُ بُحَيْرَاءَ بِتَجَرِبَةٍ فَقَرَأَ سِمَاتِ النَّبُوَّةِ مِنْ شِمَائِلِ يَعْرِفُونَهُ فَشَامَ بَرَقَ فَضْلِهِ فَلَاحَ مِنْ شَيْمَتِهِ شَامَتُهُ، فَقَالَ لِعَمِّهِ. احْفَظْ هَذِهِ الشَّامَةَ مِنْ شَامَةٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَرَجْتُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سَفَاحٍ». فَسُبْحَانَ مَنْ فَضَّ لَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا فَضَّلَهُ وَكَسَاهُ مِنْ حُلْلِ الْفَخْرِ الْجَمِّ مَا جَمَّلَهُ، جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي جَنَّتِهِ، وَأَحْيَانَا عَلَى كِتَابِهِ وَسُنَّتِهِ. آمِينَ.

وعظ:

يَا عِبَادَ اللَّهِ أَذْكُرُوا الْعَهْدَ الْأَوَّلَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]،
﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]، مَا تَفْسِيرُ الْعَهْدِ إِلَّا أَنْ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: الآية ٤٠] مَا تَمَامُ الْعَهْدِ إِلَّا الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ ﴿فَأَقْضُوا اللَّهَ مَا
أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦].

إخواني، الشَّابُّ التَّائِبُ كَمُسِيلِ الْمَاءِ فِي طَرِيقِ الْحِجَازِ، وَالشَّيْخُ التَّائِبُ
كَسَاقِي الْمَاءِ عَلَى الدُّجْلَةِ.

إخواني، الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَرُبَّمَا هَجَمَتِ الْعُقُوبَةُ قَبْلَ
الْإِنَابَةِ. وينشد:

أَهْلُ الْغَرَامِ تَجَمَّعُوا الْيَوْمَ عِتَابِنَا قُومُوا بِنَا بِحَيَاتِكُمْ نَمْشِي إِلَى أَحْبَابِنَا
نَعَقَ الْغُرَابُ بَيْنَنَا فُغْرَابُنَا أَغْرَابِنَا إِنَّ الَّذِينَ نُحِبُّهُمْ قَدْ وُكِّلُوا بِعَذَابِنَا

يَا قُلُوبَ التَّائِبِينَ اذْهَبِي، يَا نُفُوسَ الْمُذْنِبِينَ ارْهَبِي، يَا أَفئِدَةَ الْمُشْتَاقِينَ
أُطْرِبِي، يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي، مَنْ مَشَى إِلَيَّ هَرَوَلْتُ إِلَيْهِ، دَعَوْنَاكَ بِالْوَسَائِطِ فَلَمْ
تَأْتِ فَأَتَى الْمُرْسِلُ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، الثُّطُقُ مُتَشَابِهٌ وَالذُّوقُ مُحْكَمٌ، كَأَنِّي
أَرَى الْخَلَعَ قَدْ خُلِعَتْ عَلَى الْمُقْبُولِينَ، كَأَنِّي أَرَى الْمَلَائِكَةَ تُصَافِحُ التَّائِبِينَ فَتَعَالَوْا
نَبِّكْ عَلَى الْمَطْرُودِينَ. وينشد:

يَا مُوَحِّشَ نَاطِرِي وَقَلْبِي مَاوَاهُ أَشْكُو إِلَيْكَ آهٍ مِنْ هَجْرِكَ آهٍ
إِنْ كَانَ فِي بَشْرِكَ الْمَوْدَعُ فَآهٍ فَاجْعَلْ حُرْقَ الْغَرَامِ وَالصَّدَّ جَزَاهُ

وعظ:

يَا هَذَا كُلَّمَا تَفَرَّحَ بِهِ فِي الدُّنْيَا لَا بُدَّ مِنْ حُزْنٍ يَزِيدُ عَلَى فَرَحِهِ، إِمَّا أَنْ
تَذْهَبَ عَنْهُ، وَإِمَّا أَنْ يَذْهَبَ عَنْكَ، وَأَكْثَرَ مَا يَضُرُّكَ مَا تُحِبُّ، وَيَحْكُ مَتَى
تَسْتَوْحِشُ مِنْ مُعَاشِرَةِ الْخَلْقِ، مَتَى تَسْتَأْنِسُ مُنَاجَاةَ الْحَقِّ.

إخواني، لَمَّا أَخْطَأَ أَبُوكُمْ آدَمُ بِتِلْكَ اللَّقْمَةِ بَدَتْ لَهُ سَوَائِهِ فَانْطَلَقَ هَارِبًا،

فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ يَا آدَمُ أَفْرَارًا مَنِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ حَيَاءٌ مِمَّا جَنَيْتُ بِهِ.

فَنَزَعَ جَبْرِئِيلُ النَّاجَ عَنْ رَأْسِهِ وَحَلَّ مِيكَائِيلُ الْإِكْلِيلَ عَنْ جَبِينِهِ، فَلَمَّا أَهْبَطَ بَكَى ثَلَاثَمِائَةَ عَامٍ حَتَّى سَالَتْ الْأُودِيَّةُ مِنْ دُمُوعِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مَا هَذِهِ الْبَلِيَّةُ الَّتِي قَدْ أَحَاطَتْ بِكَ؟ قَالَ: إِلَهِي عَظُمْتَ مُصِيبَتِي، وَأَحَاطَتْ بِي خَطِيئَتِي فَكَيْفَ لَا أَبْكِي. شعر:

تَذَكَّرْتُ أَيَّامًا مَضَتْ وَلَيَالِيَا جَرَتْ وَجَرَتْ مِنْ ذِكْرِهِنَّ دُمُوعُ
أَلَا هَلْ لَهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ أَوْبَةٌ وَهَلْ لِي إِلَى أَرْضِ الْحَبِيبِ رُجُوعُ
وَهَلْ بَعْدَ إِغْرَاضِ الْحَبِيبِ تَوَاضُلٌ وَهَلْ لِبُذُورٍ قَدْ أَفْلَنَ طُلُوعُ

صفة رسول الله ﷺ:

كَانَ رَبْعًا لَيْسَ بِالطَّوِلِ^(١) وَلَا بِالْقَصْرِ^(٢)، أَزْهَرَ اللَّوْنِ، رَجُلَ الشَّعْرِ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ، أَجْوَدَ ذَا مَشْرِبَةٍ، تَزَوَّجَتْهُ خَدِيجَةُ وَلَهُ خَمْسُ وَعَشْرُونَ سَنَةً، جَاءَتْ مِنْهُ بِزَيْنَبَ وَرُقِيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومَ وَفَاطِمَةَ وَالْقَاسِمَ وَالطَّاهِرَ وَالطَّيِّبَ. وقيل: ولدت له عبد الله فلُقِّبَ بالطاهر والطيب.

وَوَلَدَتْ لَهُ مَارِيَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَا زَالَ نَشْرُهُ يَصُوعُ وَلَا يَضْرَعُ، وَالصَّدُوقُ صَدِيقُهُ، وَالْحَيَاءُ رَفِيقُهُ، وَالْعَفَافُ حَدِيثُهُ، وَالتَّقْوَى دِينُهُ، وَالْمَحَبَّةُ زَادُهُ، وَالْمُرَاقَبَةُ مُرَادُهُ إِلَى أَنْ تَمَحَّضَتْ حَوَامِلُ النُّبُوَّةِ فِي إِبَانِ التَّامِّ.

فَأَثَرُ الْخُلُقِ طَلَاقَ الْخُلُقِ فَتَحَرَّى غَارَ حِرَاءَ لِلْفِرَاقِ، فَرَاغَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَأَغَارَ خَيْلَ الْوِصَالِ فِي ذَلِكَ الْغَارِ فَأَفَاضَ عَلَيْهِ حُلَّةً ﴿أَقْرَأُ﴾ [الإسراء: الآية ١٤] فَأَفَاضَ إِلَى حُلَّةٍ «زملوني» فَسَكَنَتْ خَدِيجَةُ غُلَّتُهُ بِغَلَّةٍ عَلَّةٍ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّجَمَ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ إِلَى وَرَقَةٍ فَقَرَأَ مِنْ وَرَقَةٍ سِيَمَاهُ نَقَشَ فَضْلُهُ فَتَبَقَّظَ لِفَهْمِ أَمْرِهِ إِذْ نَامُوا فَقَالَ، هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، وَلَقَدْ عَرَفَهُ الْأَحْبَارُ فِي الْكِنَائِسِ وَالرُّهْبَانُ فِي الصَّوَامِعِ، وَأَنْذَرَ بِهِ الرَّبِّيَّ، وَأَخْبَرَ بِهِ التَّابِعَ، وَكَانَتْ تُسَلَّمُ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ الْأَحْبَارُ وَتُبَسَّرُهُ بِمَا أَوْلَاهُ الْأَشْجَارُ، وَكَانَ خَاتِمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَسَرَايَا الرُّعْبِ

(١) وفي نسخة بالطويل.

(٢) وفي نسخة بالقصير.

تَتَرَكُ مَعَهُ كَالْكِسْرَةِ بَنَ يَدَيْهِ، أَلَيْسَ إِهَابَ الْمَيِّتِ، وَتَوَجَّ تَاجَ السِّيَادَةِ وَضُمَّحَ بِأَذْكَى خَلْقٍ أَدْكَى الْأَخْلَاقِ، وَأَحْلَّ دَارَ الْمَدَارَةِ، وَأَجْلَسَ عَلَى صَفْحَةِ الصَّفْحِ، وَلَقِمَ لَقَمَ لُقْمَانَ الْحِكْمَةِ، وَوَضِعَتْ لَهُ أَكْوَابُ التَّوَاضُعِ، وَأُذِيرَتْ عَلَيْهِ كُؤُوسُ الْكَيْسِ مُتَضَمِّنَةً حَلَاوَةَ الْحِلْمِ خِتَامُهَا مِسْكُ النَّسْكِ، وَأُعْطِيَ لِقْطَعَ مَفَازَةِ الدُّنْيَا جَوَادُ الْجُودِ وَتَوَوَّلَ قَلَمَ الْعِزِّ فَوَقَعَ الْبَعَثَ عَلَى صَحَائِفِ الْكَدِّ «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

بُعِثَ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ بِحِرَاءِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ لِسَبْعِ عَشْرَةِ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ.

وَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ كَرَبَ لَهُ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ، وَعَرِقَ جَبِينُهُ وَرُمِيَتْ الشَّيَاطِينُ بَعْدَ عَشْرِينَ يَوْمًا مِنْ مَبْعَثِهِ، وَبَقِيَ ثَلَاثَ سِنِينَ يَسْتَتِرُ بِالنُّبُوَّةِ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿فَاصْصَبْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: الآية ٩٤] فَأَعْلَنَ الدُّعَاءَ، ثُمَّ أُسْرِيَ بِهِ فِي سَنَةِ اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَغَزَا سَبْعًا وَعَشْرِينَ غَزْوَةً.

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعُوذُ الْمَرَضَى، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمَالِكِ، وَيَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَلْبِسُ الْحَشِينَ، وَيَأْكُلُ الشَّعْبَ، وَيَبِيتُ اللَّيَالِي طَاوِيًا يَتَقَلَّبُ فِي فَقْرِ الْفَقْرِ، وَلِسَانُ الْحَالِ يُنَادِيهِ يَا مُحَمَّدُ: نَحْنُ نَظُنُّ بِكَ عَنِ الدُّنْيَا لَا بِهَا عَنْكَ.

وَلَقَدْ شَارَكَ الْأَنْبِيَاءَ فِي فَضَائِلِهِمْ وَزَادَ عَلَى كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ. ذَهَبَتْ مُعْجَزَاتُهُمْ بِمَوْتِهِمْ وَمُعْجَزَتُهُ الْكُبْرَى قَائِمَةٌ عَلَى مَنْارٍ ﴿لَا تُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩] تُنَادِي ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٣].

وَلَقَدْ أَعْرَبَ عَنْ تَقْدِيمِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَدَمَ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَيْنَ مَا وَسَعَهُمَا إِلَّا اتَّبَاعِي، فَإِذَا نَزَلَ عِيسَى صَلَّى مَأْمُومًا؛ لَأَنَّا يُدْنَسُ بِغُبَارِ الشُّبْهَةِ وَجْهَهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَخَطِيبُ الْخَلَائِقِ إِذَا وَقَدُوا، وَمُبَشِّرُ الْقَوْمِ إِذَا يَسُّوا، وَالْأَنْبِيَاءُ قَدْ سَكَنُوا لِنُطْقِهِ، وَالْأَمْلَاقُ قَدْ اعْتَرَفُوا بِحَقِّهِ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ تَحْتَ أَمْرِهِ، وَالْحُرَّانُ دَاخِلُونَ فِي دَائِرَةِ حُكْمِهِ، وَكَلَامُ غَيْرِهِ قَبْلَ قَوْلِهِ لَا يَنْفَعُ، وَلَا شَفَاعَةٌ لِأَحَدٍ حَتَّى يَشْفَعَ، وَجَوَابُ الْحَيِّبِ لَهُ

قُلْ مَا تَسْمَعُ، مَا ضَرَّهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا فَاتَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ. وينشد:

الْمَوْتُ لَا وَالِدَ أَبْقَى وَلَا وَلَدًا هُوَ السَّبِيلُ إِلَى أَنْ لَا تَرَى أَحَدًا
لِلْمَوْتِ فِينَا سَهَامٌ غَيْرَ مُخْطِئَةٍ مَنْ فَاتَهُ الْيَوْمَ سَهْمٌ لَمْ يَفْتَهُ غَدًا
مَاتَ النَّبِيُّ لَمْ يُحْلَدْ لَأُمِّتِهِ لَوْ خَلَدَ اللَّهُ عَبْدًا قَبْلَهُ خَلَدَا

أَعْقَلَ النَّاسِ مُحْسِنٌ خَائِفٌ، وَأَحْمَقُ النَّاسِ مُسِيءٌ آمِنٌ. قَالَ أَبُو طَارِقٍ: شَهِدْتُ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مَاتُوا فِي مَجْلِسِ الذِّكْرِ يَمْشُونَ بِأَرْجُلِهِمْ صَحَاحًا إِلَى الْمَجْلِسِ وَأَجْوَأْفُهُمْ وَاللَّهُ فَرِحَهُ، فَإِذَا سَمِعُوا الْمَوْعِظَةَ انْصَدَعَتْ قُلُوبُهُمْ فَمَاتُوا.

حكاية:

قَرَأَ فِي مَجْلِسِ الشُّبْلِيِّ قَارِئٌ فَرَزَقَ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ الشُّبْلِيُّ: اللَّهُ. فَرَزَقَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ لَهُ الشُّبْلِيُّ: اللَّهُ. فَرَزَقَ ثَالِثَةً وَرَابِعَةً وَمَاتَ. فَجَاءَهُ وَالِدُهُ فَادَّعَى عَلَيْهِ أَنَّهُ قَتَلَهُ، فَرَفَعَ إِلَى الْخَلِيفَةِ فَسُئِلَ الشُّبْلِيُّ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رُوحٌ حَنْتَ فَرَنْتَ فَسَمِعْتَ فَعَلِمْتَ فَصَاحَتْ فَدُعِيتَ فَأَجَابْتَ، فَمَا ذَنْبِي أَنَا؟ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: لَا ذَنْبَ لَهُ خَلُّوا سَبِيلَهُ. شعر:

خَلِيلِي هَلْ بِالشَّامِ عَيْنٌ حَزِينَةٌ تَبْكِي عَلَى نَجْدٍ فَإِنِّي أُعِينُهَا
قَدْ أَسْلَمَهَا الْوَأَشُونَ إِلَّا حَمَامَةً مُطَوِّقَةً وَرَقَاءَ فَاتَ قَرِينُهَا

ذَكَرْتُ نَفُوسَ الْقَوْمِ الْعَذَابِ، فَأَنْتَ وَتَفَكَّرْتُ فِي شِدَّةِ الْعَذَابِ، فَرَنْتَ وَتَذَكَّرْتَ مَا جَنَّتْ فَحَنْتَ أَزْعَجَهَا الْحَذَرُ، وَلَوْ لَا الرَّجَاءُ مَا اِظْمَأَّتْ، أَوْ لِنَفْسٍ قَدْ ظَنَنْتَ بِمَا بَدَّلُوهُ، ثُمَّ رَجَبْتَ مَا نَالُوهُ بِئْسَ مَا ظَنَنْتَ، مَا نَفْسٌ سَابِقَةٌ كَنَفْسٍ تَأَنْتَ. وينشد:

مَا يَقْرَأُ وَأَنْنَى يَقْرَأُ وَاشِ كِتْمَانِي لَوْ أَنَّ دَمْعِي لَمْ يَنْطِقْ بِتَبْيَانِي
مَاءٌ وَلَكِنَّهُ ذُوبُ الْهُمُومِ وَهَلْ مَا ثَوَّلَدَهُ نَيْرَانُ أَحْزَانِي
لَيْتَ النَّوَى إِذْ سَقَتْنِي سُمْ أَسْوَدَهَا سُدَّتْ سَبِيلُ أَمْرِي فِي الْحُبِّ تَلْجَافِي
قَدْ قُلْتُ بِالْجَزَعِ لَمَّا أَنْكَرُوا جَزَعِي مَا أَبْعَدَ الصَّبْرُ مِمَّنْ شَوْقُهُ دَانِي
عَجَّ لِي عَلَى الرَّبْعِ يُسْتَسْقَى لَهُ مَطَرًا فَفَاضَ دَمْعِي فَأَرْوَاهُ أَظْمَانِي

لَا تُطِيعَنَّ الْبَطَالَ فِي مَنَازِلِ الْأَبْطَالِ، إِنَّ مَنَازِلَ الرَّاحَةِ لَا تُنَالُ بِالرَّاحَةِ، مَنْ زَرَ حَصَدًا، وَمَنْ جَدَّ وَجَدَ، أَيُّ مَطْلُوبٍ نِيلَ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، وَأَيُّ مَرْغُوبٍ لَمْ يَبْعُدَ عَلَى طَالِبِهِ الشُّقَّةَ، الْمُلْكُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالتَّعَبِ، وَالْعِلْمُ لَا يُتْرَكُ إِلَّا بِالطَّلَبِ، وَاسْمُ الْجَوَادِ لَا يَنَالُهُ الْبَخِيلُ، وَلَقَبُ شُجَاعٍ بَعْدَ نَصَبٍ طَوِيلٍ، يَا أَرْبَابَ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ لَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، يَا أَهْلَ الْخَوْفِ مِنْ عَوَاقِبِ الذُّنُوبِ طَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]. قُلُوبُكُمْ عَلَى أَصْلِ الظَّهَارَةِ وَإِنَّمَا نَشَأَتْ بَيْنَ أَنْجَاسِ الْمَعَانِي، فَكَلَّمَا لَطَفَ الْفَهْمُ زَادَ الْحِظُّ مِنَ الْخَيْرِ. وينشد:

مَا رَأَيْنَا قَطُّ الْفَضَائِلَ إِلَّا فِي خِفافِ الرِّجَالِ لَا فِي الثِّقَالِ
يُنْظَمُ الدَّرُّ فِي السُّلُوكِ وَتَأْبَى عِزَّةُ الدَّرِّ نَظْمُهُ فِي الْحِبَالِ

وعظ:

أَسْبَابُ حِرْصِكَ عَلَى الدُّنْيَا قَوِيَّةٌ، وَالْهَمَّةُ خَسِيسَةٌ لَيْسَتْ بِعَلِيَّةٍ، قَدْ ضَاعَ مَا مَضَى فَاسْتَذِرْكَ الْبَقِيَّةَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ عَمَلُكَ فَلْيَكُنْ لَكَ نِيَّةٌ، فَعَرُورُنَا بِأَحَادِيثِ الْمُنَا ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥] يَا مَنْ جَنَى الْحُطَامَ وَلَمْ يَدِرْ مَا جَنَى، كُلُّ مَا جَنَيْتَ مَكْتُوبٌ عِنْدَنَا.

هَذَا الْفَقِيرُ يَأْخُذُ مِنَّا وَلَنَا، فَإِنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعْنَا الْخَيْرَ أَنْفُسَنَا، فَاجْتَهِدُوا يَا مَعَاشِرَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، قَصْدُنَا إِنْ كُنْتَ تَلْقَى السَّيْفَ وَالْقَنَا فَالْقَنَا، أَمَا سَمِعْتُمْ ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: الآية ٩٦]، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥].

اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةَ وَالْإِمَامَ وَالْأُمَّةَ، وَمَنْ وَلَيْتَهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ حَكَمْتَهُ ضُرًّا أَوْ نَفْعًا لِأَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

تَمَّ اللَّهُمَّ أَحْوَالَنَا وَأَحْوَالَهُمْ بِالصَّلَاحِ، وَاجْعَلْنَا وَإِيَّاهُمْ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ وَوَفَّقْنَا وَإِيَّاهُمْ لِلسَّادِدِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المَجْلِسُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ فِي قِصَّةِ الْغَارِ وَفَضْلِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْكَمَ بِحُكْمَتِهِ مَا فَطَرَ وَبَنَى، وَقَرَّبَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ خَلَقَهُ
 وَدَنَا، وَرَضِيَ الشُّكْرَ مِنْ بَرِيَّتِهِ لِنِعْمَتِهِ ثَمَنًا، وَأَمَرَنَا لِيُخْدَمَتِهِ لَا لِحَاجَةٍ بَلْ لَنَا، بَيْنَ
 لِقَاصِدِيهِ سَبِيلًا وَسَنًّا، وَأَثَابَ حَامِدِيهِ أَلَدَّ مَا يُحِبُّنَا، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
 سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩].

أَحْمَدُهُ مُسِرًّا لِلْحَمْدِ وَمُعْلِنًا، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ أَشْرَفَ مَنْ تَرَدَّدَ بَيْنَ جَمْعٍ
 مِنَّا، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الْمُتَحَلِّلِ بِالْعَبَا رَاضِيًا بِالْعَنَا، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ بِقَوْلِهِ
 وَعَنَى ﴿ثَاقِبٌ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ
 مَعْنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، وَعَلَى عُمَرَ الْمُجِدِّ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ فَمَا وَنَا، وَعَلَى
 عُثْمَانَ الرَّاضِي بِالْقَدَرِ وَقَدْ حَلَّ بِالْفَنَاءِ الْفَنَاءُ، وَعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي إِذَا بِالْغَنَاءِ فِي
 مَدْحِهِ فَالْفَخْرُ لَنَا، وَعَلَى عَمِّهِ الَّذِي أَسَّسَ اللَّهُ بِهِ قَاعِدَةَ الْمَجْدِ وَبَنَى.

اعْلَمْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ مَعْرُوفُ الْفَضْلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ. وَوُلِدَ بِمِنَى، وَاسْمُهُ
 عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَعِيدِ بْنِ تَيْمٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ.

وَعِنْدَ مُرَّةَ يَلْقَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النِّسْبَةِ وَأُمُّهُ أُمُّ الْخَيْرِ بِنْتُ صَخْرٍ أَسْلَمَتْ
 وَكَانَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَشْيَاقُ. وَهِيَ الدِّيَاثُ وَالْمَعْرُومُ، فَكَانَ إِذَا احْتَمَلَ شَيْئًا

فَسَأَلَ فِيهِ قُرَيْشًا صَدَقُوهُ وَأَمْضُوا حِمَالَةَ مَنْ نَهَضَ مَعَهُ. وَإِنْ اِخْتَمَلَهَا غَيْرُهُ حَذَلُوهُ.

وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَلَقَّبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَتِيقًا لِجَمَالِ وَجْهِهِ. وَقَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي اثْنِي عَشَرَ خَلِيفَةً أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ لَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا».

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يَكْفِيهِ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَرَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْسَى أَمَامَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَتَمْسِي أَمَامَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ». شعر:

وَسَائِلُ عَنْهُمْ مَاذَا يُقَدِّمُهُمْ فَقُلْتُ فَضْلُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ بَانُوا

كَمْ عَرَضُوا لِلْمَتَايَا الْحُمُرِ أَنْفُسَهُمْ فَخَانَ قَوْمٌ تَوَقَّوْهَا وَمَا خَانُوا

وَاعْجَبًا لِعَنِّي يَبْحُلُ بِمَا يَفْنَى، وَلِفَقِيرٍ لَا يَصْبِرُ عَلَى مَا لَا يَلْقَى.

إِخْوَانِي، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبُولَ نَفَقَةٍ مُنْفِقٍ قَدَّرَ لَهَا فَاقَةً مُحْتَاجَ أَحْوَجَ مَا كَانَ الْإِسْلَامُ فِي زَمَانِ أَبِي بَكْرٍ؛ فَلَذَلِكَ حَلَاهُ بِحِلْيَةٍ مَا يَنْفَعُنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ.

أَنْفَقْتُ خَدِيجَةً وَفِي نَفَقَتِهَا شَائِبَةٌ هَوَاهَا، وَأَنْفَقْتُ عُثْمَانَ وَالْأَمْرُ قَدْ تَنَاهَا، وَنَفَقَةُ أَبِي بَكْرٍ لِقَاعِدَةٍ بَنَاهَا. تَالله لَقَدْ نَهَضَ وَحْدَهُ عَلَى قَدَمِ الْوَحْدَةِ، إِلَى جَمِيعِ الشُّرَكَ فَرَدَّهُمْ بِنَفْسِهِ يَوْمَ الرَّدَّةِ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي الْإِسْلَامِ وَالْعَوْنِ مِنْ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَتَمَ إِيمَانَهُ فَخَافَتْ، وَنَفْسُ الصَّدِيقِ يَوْمًا حُذِرَتْ وَلَا خَافَتْ، وَهُوَ أَكْرَمُ مَنْزِلَةٍ مِنْ صَاحِبِ يَسَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ جَاهَدَ سَاعَةً، وَأَبُو بَكْرٍ جَاهَدَ مَعَ النَّبِيِّ سِنِينَ، نَطَقَتْ بِفَضَائِلِهِ الْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَى بَيْعَتِهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ.

فَيَا مُبْغِضِيهِ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ ذِكْرِهِ نَارٌ، إِذَا ثَلَيْتَ آيَاتُهُ عَلَا عَلَيْهِمْ فَصَارَ ﴿ثَانِي﴾ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴿[التوبة: الآية ٤٠]﴾، دُعِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَمَا تَلَعَّمْ وَلَا أَبِي، وَصَبَرَ فِي مَكَّةَ عَلَى هُدَى الْعِدَا، وَأَنْفَقَ مَالَهُ حَتَّى تَحُلَّلَ بِالْعَبَا تَالله لَقَدْ

زَادَ فِي السَّبَكِ عَلَى كُلِّ دِينَارٍ دِينَارًا، ﴿ثَافِكُ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

حُبُّهُ وَاللَّهُ رَأْسُ الْحَنِيفِيَّةِ، وَبُعْضُهُ يَدُلُّ عَلَى حُبِّهِ الطَّوْبَةِ، وَلَوْلَا صِحَّةُ إِيمَانِهِ مَا زَهَدَ فِي الدُّنْيَا الدُّنْيَا، مَهَلًا مَهَلًا دَمَ الرَّوَافِضِ قَدْ فَازَ، ﴿ثَافِكُ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

لَقَدْ وَجَبَ حُبُّ الصَّدِيقِ عَلَيْنَا، فَنَحْنُ نَقْضِي بِمَدَائِحِهِ دُنْيَا وَدِينًا، فَمَنْ كَانَ رَافِضِيًّا فَلَا يَعُدُّ إِلَيْنَا وَلِيَقُلْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَعْذَارًا، ﴿ثَافِكُ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

لَقَدْ دَخَلَ النَّبِيُّ مَوْضِعًا لَيْسَ فِيهِ مَآكِثٌ، فَاسْتَوْحَشَ الصَّدِيقُ مِنْ خَوْفِ الْحَوَادِثِ فَارْتَفَعَ الطَّيْشُ وَطَابَ عَيْشُ الْمَآكِثِ، وَقَامَ مُنَادِي الصُّبْحِ يُنَادِي بَابَ الْغَارِ، ﴿ثَافِكُ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

مَنْ ذَا الَّذِي سَبَقَهُ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الصَّحَابَةِ؟ مَنْ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى مَعَهُ؟ مَنْ آخِرُ مَنْ صَلَّى بِهِ؟ مَنْ ذَا الَّذِي ضَاجَعَهُ فِي تَرْابِهِ؟ فَاعْرِفُوا يَا قَوْمَ حَقَّ الْجَارِ ﴿ثَافِكُ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: الآية ٤٠]. شعر:

أَعَاذِلُ أَنَّ الْمَالَ غَيْرُ مُحَلَّدٍ وَأَنَّ الْغِنَى عَارِيَةٌ فَتَزَوَّدَ
وَكَمْ مِنْ جَوَادٍ يُفْسِدُ الْيَوْمَ جُودَهُ وَسَاوِسُ قَدْ خَوَّفَتْهُ الْفَقْرَ فِي الْغَدِ

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾، وَاعْجَبَا لِنَفْسِ الْمَوْتِ مَوْتِهَا، وَالْقَبْرِ مَنْزِلِهَا، وَاللَّحْدِ مَدْخَلِهَا، ثُمَّ يَسْؤُهُ عَمَلُهَا ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾، كَمْ قَطَعَ زَمَانُهُ بِالتَّسْوِيفِ، وَبَاعَ دِينَهُ بِالْحَبَّةِ وَالرَّغِيفِ مُشْتَرِي الْوَيْلِ بِتَطْفِيفِ الطَّفِيفِ يَتَمَنَّى الْعُودَ إِذَا رَأَتْ نَفْسُهُ مَا يُذْهِلُهَا ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾.

كَمْ مَشْغُولٍ بِالْقُصُورِ يَعْمُرُهَا؟ لَا يُفَكِّرُ فِي الْقُبُورِ وَلَا يَذْكُرُهَا، وَقَعَ فِي أَشْرَاكِ الْمَنَايَا وَهُوَ لَا يَنْظُرُهَا، أَفَّ لِدُنْيَا هَذَا آخِرُهَا، أَوَّاهُ مِنْ أُخْرَى هَذَا أَوَّلُهَا، ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ [المنافقون: الآية ١١].

إِذَا مَلَكَ شَمْسَ الْحَيَاةِ الْمَغِيبُ، قَامَ عَنِ الْمَرِيضِ الطَّيِّبُ، وَأَخَذَ النَّفْسَ

مِنْ بَاطِنِهَا التَّوْبِيخُ وَالتَّائِبُ، فَلَوْ رَأَيْتَهَا تَسْأَلُ عَمَّا بِهَا، وَلَا تُجِيبُ مَنْ يَسْأَلُهَا،
﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾.

أَوْ لِسَاعَاتٍ شَدِيدَةِ السَّكَرَاتِ فِيهَا عَمَرَاتٌ لَيْسَتْ بِنَوْمٍ وَلَا سُبَاتٍ،
وَالْمَرِيضُ عَلَى فِرَاشِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَأَوْ تَمَّ أَوْ مِنْ جِبَالٍ حَسَرَاتٍ تُحْمِلُهَا ﴿وَلَنْ
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾.

لَقَدْ صَاحَ بِكَ الصَّائِحُ بِأَخْذِ غَاذٍ وَرَائِحٍ وَيُكْفِي مَا مَضَى مِنَ الْقَبَائِحِ فَأَقْبَلِ
الْيَوْمَ هَذِهِ النَّصَائِحَ بِأَخْذِ غَاذٍ وَرَائِحٍ، فَإِنَّ الْمُسْكِينَ مَنْ لَا يَقْبَلُهَا ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ
نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ [المنافقون: الآية ١١]. شعر:

عُرِيتُ مِنَ الثِّيَابِ وَكُنْتُ غَضًّا	كَمَا يُعْرَى مِنَ الْوَرَقِ الْقَضِيبُ
فَنَحْتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمْعٍ عَيْنِي	فَلَا نَفْعَ الْبُكَاءِ وَلَا النَّحِيبُ
أَلَا لَيْتَ الشَّبَابُ يَعُودُ يَوْمًا	فَأُخْبِرُهُ بِمَا صَنَعَ الْمَشِيبُ

إِخْوَانِي، لَمَّا أَغَارَتْ قُرَيْشُ حَيْلَ الْحَتْلِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ خَرَجَ إِلَى
غَارٍ لَوْ دَخَلَهُ غَيْرُهُ كَانَ غَرَرًا، فَأَمَّا الْغَارُ فَهُوَ الثَّقُبُ فِي الْجَبَلِ وَهَذَا الْغَارُ
هُوَ جَبَلُ ثَوْرٍ بِمَكَّةَ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَشُقُّ ثَوْبَهُ وَيَسُدُّ الْأَثْقَابَ، فَبَقِيَ ثَقْبٌ
فَسَدَّهُ بِعَقِبِهِ.

فَمَكَّنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ فِي الْغَارِ فَعَرَبْتُ قُرَيْشٌ بِالطَّلَبِ فَنَبَتْ شَجَرَةٌ فَسَدَّتْ بَابَ
الطَّلَبِ، ثُمَّ حَاكَتْ وَجْهَ الْمَكَانِ فَحَاكَتْ ثَوْبَ نَسِجِهَا سِتْرًا، ثُمَّ حَمَى اللَّطْفُ
الْحِمَى بِحِمَامَتَيْنِ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ سَكَنَّا مِنَ الْغَارِ فَمَا بَانَ الْمُسْتَتِرُ فَأَتَّخَذْنَا مِنَ
الْغَارِ عُشًّا فَعُشِيَ فَأَعُشِيَ مِنْ عُشَى الْعَشَى عَلَى أَبْصَارِ الْمُفْتَقِدِينَ، فَصَارُوا
كَالْأَعْشَى.

فَرَاغَ الْأَعْدَاءُ نَحْوَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ فَرَأَوْا دَلِيلَ فَرَاغِ الْغَارِ الْفَارَّ وَالسَّكِينَةَ فِيهِ
سَاكِئَةً فَعَادُوا عَمَّنْ عَادُوا عَوْدًا بَحْتًا بِلَا بَحْثٍ، فَقَالَ الصَّدِيقُ عَنْ حَرٍّ وَقَدْ وَجَدَ:
لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا. فقال الْمُصْطَفَى: «مَا ظَنُّكَ بِأَنْتَيْنِ اللَّهُ
ثَالِثُهُمَا».

فَلَمَّا رَحَلَا لِحَقِّهِمَا سُرَاقَةً فَسَرَقَتِ الْأَرْضُ قَوَائِمَ فَرَسِهِ، فَلَمَّا رَأَى أَرْضًا

صَلَدًا قَدْ فَرَسَتِ الْفَرَسَ فَرَسَتْ إِلَى بَطْنِهَا وَكَادَ يُقَارِنُ قَارُونَ فِي الْخَسْفِ،
أَشْرَقَتْ نَفْسُهُ عَلَى الْيَقِينِ بِطَنْهَا، فَأَخَذَ يَعْرِضُ الْمَالَ عَلَى مَنْ رَدَّ مَفَاتِيحَ الْكُنُوزِ
وَيُقَدِّمُ الرِّادَ إِلَى شُبْعَانَ أَبِي ثَعْلَبَةَ عِنْدَ رَبِّي، فَجَارَ خِيَمَةً أُمِّ مَعْبِدٍ، فَأَضْبَحَتْ شَاتَهَا
وَأَضْبَحَتْ تَشْهَدُ، فَوَصَلَا إِلَى يَثْرِبَ عَلَى نَجَابِ السَّلَامَةِ وَفَاتِ الْخَيْرِ مَكَّةَ،
وَفَارَتِ الْمَدِينَةُ بِالْكَرَامَةِ. شعر:

إِنْ عَيْشًا إِلَى الْفَنَاءِ مَصِيرُهُ لَحَقِيقٌ أَنْ لَا يَدُومَ سُورُهُ
وَسُرُورٌ يَكُونُ آخِرُهُ الْمَوْتُ سَوَاءٌ طَوِيلُهُ وَقَصِيرُهُ
وَيَحْكُ ابْنُكَ عَلَى دِيَارٍ خُلِقَتْ لِلتَّقْوَى كَيْفَ أَخْرَبَتْهَا بِالذُّنُوبِ

إخواني، الدنيا فاجرة إذا تزوجها ذو غيرة طلق وما يدوم على صحبتها إلا
مُحَنَّتٌ.

كَانَ الصَّالِحُونَ يَعْرِفُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ، وَالْآنَ الْفِرَارُ مِنَ اللَّهِ إِلَى الدُّنْيَا
وَيَحْكُ اسْتَدْرِكَ مَا فَرَطَ مِنْ عُمْرِكَ وَفَاتَ قَبْلَ حُضُورِ الْوَفَاةِ.

أَمَّا بَلَعَكَ فِعْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْمَقَابِرِ فَيَنَادِي: «يَا أَهْلَ
الْقُبُورِ إِنَّ أَمْوَالَكُمْ قَدْ قُسِمَتْ، وَنِسَاءَكُمْ قَدْ نُكِحَتْ، وَمَنَازِلُكُمْ لَغَيْرِكُمْ عُمِرَتْ، يَا
أَهْلَ دَارِ الْبَلَاءِ وَالْوَحْدَةِ، وَالْغُرْبَةِ وَالْوَحْشَةِ، قَدْ أَنْبَأْنَاكُمْ مَا كَانَ بَعْدَكُمْ، فَلَيْتَكُمْ
أَنْبَأْتُمُونَا بِمَا عِنْدَكُمْ، فَلَوْ أُذِنَ لَكُمْ لَقُلْتُمْ: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا وَقَدْ حَلَلْنَا
مَنَازِلَ الْأَمْوَاتِ، وَقَدْ بَلَّيْتَ الْعِظَامُ فَهِيَ رُفَاءٌ، وَقَدْ حَلَّتْ مِنَّا الْمَنَازِلُ وَالْدِّيَارُ،
وَدَرَسَتِ الْأَنَارُ وَنُسِيَتِ الْأَخْبَارُ، وَمَلْنَا الْأَبَاءَ، وَهَجَرْنَا الْإِخْوَانَ وَالْأَقْرَبَاءَ، وَتَرَكْنَا
مَسَاكِنَنَا لِلْوَارِثِينَ، وَصِرْنَا أَحَادِيثَ وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ. إِنَّ أَقْوَامًا أَلْهَتْهُمْ الْأَمَانِيُّ
بِالْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا بِلَا حَسَنَةٍ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: إِنِّي أَحْسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّي،
وَكَذَبَ وَاللَّهِ لَوْ أَحْسَنَ الظَّنِّ بِرَبِّهِ لَأَحْسَنَ لَهُ الْعَمَلُ». وينشد:

أَوَّمِّلْ تَوْبَةً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَأَرْجُو الْعَفْوَ مِنْ مَوْلَى الْمَوَالِي
وَمَا لِلْعَبْدِ أَنْ رَكِبَ الْخَطَا يَا كَقَرَعِ الْبَابِ فِي ظُلَمِ اللَّيَالِي
عَسَى الْمَوْلَى الْكَرِيمُ يَجُودُ يَوْمًا عَلَى ضَعْفِي وَيُضْلِحْ سُوءَ حَالِي
يَا هَذَا، كَيْفَ تَطْمَعُ بِكَرَامَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَأَنْتَ تُكْرِمُ الْعَنِيَّ وَتُهَيِّنُ

الْمُسْكِينِ؟ كَأَنَّكَ أَمِنْتَ الْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذَا وُضِعَتِ الْمَوَازِينُ،
وُنُشِرَتِ الدَّوَابِينُ، ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) [الشُّعْرَاءُ: الآية ٩١]، وَخُتِمَ عَلَى
اللِّسَانِ، وَنَطَقَتِ الْأَعْضَاءُ بِالْبَيَانِ، وَشَهِدَتِ الْجَوَارِحُ وَظَهَرَتِ الْفَضَائِلُ^(١).

وَقِيلَ لِلظَّالِمِ: تَقَدَّمَ وَلِلْمَظْلُومِ تَحَكَّمَ ﴿هُنَاكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾
[يونس: الآية ٣٠]، فَإِنَّ أَنْتَ أَفْسَدْتَ جِسْمَكَ بِالْمَعَاصِي فَالْوَيْلُ لَكَ مِنَ الْأَخْذِ
بِالنَّوَاصِي، فَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ طَلَبَ الْأَمَانِ، وَاحْذَرْ عَلَى طَاعَتِكَ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ نَصِيبٍ أَنْتَ؟ وَلَايِي دَارِ خُلِقْتَ، وَفِي أَيِّ دِيْوَانٍ
أُتِيتَ؟ أَتَرَكَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْجَنَانِ؟ أَمْ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ وَالتَّيْرَانِ؟
فَيَا مَنْ يَسْعَى كُلَّ يَوْمٍ عَلَى مَا قَدَّمَ زَلَّاتِهِ إِلَيْهَا هَلْ لَكَ صَبْرٌ عَلَيْهَا؟ فَانْظُرْ
نَفْسَكَ، وَتَفَقَّدْ أَحْوَالَكَ، وَتَذَلَّلْ لِمَوْلَاكَ، فَإِنَّهُ كُلَّ وَقْتٍ يَرَاكَ. وينشد:

فَهَبْ لِي رِضَاكَ سَيِّدِي تَضَرَّعًا مَنْ لِي إِذَا صِرْتُ غَدًا إِلَى الْبِلَا مُشِيْعًا
وَعُدْتُ رَهْنًا بِالَّذِي كُنْتُ لَهُ مُجْمِعًا وَاحْسَرْنَا لَوْ أَنَّنِي أَذْكُرُ ذَاكَ الْمَضْرَعَا

وَقَدْ عَقَدْتُ تَوْبَةً لَعَلَّهَا أَنْ تَنْفَعَا، اللَّهُمَّ جُدْ عَلَيَّ فَضَائِحِنَا بِشَرِكِ الْجَمِيلِ،
وَجُدْ عَلَيَّ أَعْسَارِنَا بِعِطَائِكَ الْوَاسِعِ الْجَزِيلِ، وَفَرِّجْ بِرَحْمَتِكَ هُمُومَنَا، وَيَسِّرْ
بِفَضْلِكَ أُمُورَنَا، وَاشْرَحْ بِبَهْدَايَتِكَ صُدُورَنَا، وَطَيِّبْ لَنَا وَقْتَنَا وَخُضُورَنَا، وَلَا
تَكْتُبْنَا مِنَ الْعَافِيَيْنِ، وَلَا تَضَرْفُنَا عَنْ بَابِ رَحْمَتِكَ خَائِبِينَ، وَفَرِّجْ عَنِ الْمَرْضَى
وَالْمَكْرُوبِينَ، وَأَصْلِحْ وَلَاةَ الْمُسْلِمِينَ، وَاکْتُبْ سَلَامَةَ الْمُسَافِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا
وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَآلِهِ
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

المَجْلِسُ الثَّلَاثُونَ

فِي فَضْلِ عُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَرَازِقِ كُلِّ مَرْزُوقٍ، سَابِقِ الْأَشْيَاءِ فَمَا دُونَهُ مَسْبُوقٌ، مُوجِدِ الْمَنْظُورِ وَالْمَسْمُوعِ وَالْمَلْمُوسِ وَالْمَلْبُوسِ وَالْمَذُوقِ، أَنْشَأَ الْآدَمِيَّ بِالْقُدْرَةِ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ مَذْقُوقٍ، وَرَكَّبَ فِيهِ الْعَقْلَ يَدْعُو إِلَى مُرَاعَاةِ الْحَقُّوقِ، وَالْهَوَى يَحْتُّ عَلَى مَا يُوجِبُ الْعُقُوقَ، فَاحْذَرُوا وَفَاقِ الْمُشْتَهَى فَإِنَّهُ يَرْمِي لَا مِنْ فَوْقِ فُوقٍ، سَمَحَ دَاوُودُ لِنَفْسِهِ بِنَظَرَةٍ فَاتَّسَعَتِ الْخُرُوقُ، وَغَفَلَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عَنْ طَاعَتِهِ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالْسُوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: الآية ٣٣].

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا يَفْضِي وَيَسُوقُ، مِمَّا يَعُمُّ وَمَا يَشُوقُ، وَأُقِرُّ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ هَاجِرًا يَغُوثَ وَيَعُوقَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَقَدْ أَزْدَحَمَتْ سُوقُ الْبَاطِلِ فِي أَرْوَاجِ سُوقٍ، وَدَمَعٌ لِحَقِّهِ أَهْلَ الزَّيْغِ وَأَرْبَابَ الْفُسُوقِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الصَّدُوقِ، وَعَلَى عُمَرَ الْفَارُوقِ، وَعَلَى عُثْمَانَ الصَّابِرِ عَلَى الشَّهَادَةِ عَلَى مَرِّ الْمَذُوقِ، وَعَلَى عَلِيٍّ مُطْلَقِ الدُّنْيَا فَمَا غَرَّهُ الزُّخْرُفُ وَلَا الرُّرُوقُ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ أَكْرَمِ الْكُلِّ إِلَيْهِ نَسَبًا وَأَخْصَ الْعُرُوقِ.

اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمَسَالِكِ وَالسُّرُوقِ، اخْفَظْنَا مِنْ مَسَاءَةِ الْخَوَاتِمِ وَالظُّرُوفِ، وَهَبْ لَنَا مِنْ فَضْلِكَ مَا يَصْفُو وَيَرُوقُ، وَزِدْ لَنَا مِنْهُ إِحْسَانِكَ فَوْقَ مَا نَرْجُو وَيَتُوقُ، وَافْتَحْ لِي وَلِلْحَاضِرِينَ مُوقَ بَصَرِ الْبَصِيرَةِ لِنَتَجَنَّبَ الْمُوقِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ فِيْمَنْ مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ نَاسٌ يُحَدِّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، أَخْرَجَاهُ، أَي: مُسْلِمٌ وَابْنُ بَخْرٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّ عُمَرَ مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ الْحُسْنَى، وَكَانَ مُقَدِّمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ. أَمَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَتْ لَهُ السَّقَايَةُ وَالْمُفَاخَرَةُ، فَإِنْ وَقَعَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مُفَاخَرَةٌ بَعَثُوهُ سَفِيرًا، وَإِذَا فَاخَرَهُمْ حَيٌّ بَعَثُوهُ مُفَاخِرًا وَرَضُوا بِهِ.

وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَفَضَائِلُهُ كَثِيرَةٌ، وَهُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بْنُ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى بْنِ رِيَّاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَرْطِ بْنِ رِيَّاحِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَعِنْدَ كَعْبٍ يَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّسَبِ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ مُتَقَلِّدًا السَّيْفَ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ قَالَ: أَيْنَ تَعْمِدُ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّدًا. قَالَ: كَيْفَ تَأْمَنُ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي زُهْرَةَ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا صَبَوْتُ وَتَرَكْتُ دِينَكَ.

قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْعَجَبِ يَا عُمَرُ؟ إِنَّ خَتْنَكَ وَأَخْتَكَ قَدْ صَبَوَا وَتَرَكََا دِينَكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ. فَمَشَى عُمَرُ عَائِدًا حَتَّى أَتَاهُمَا وَتَبِعَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يُقَالُ لَهُ خَبَّابٌ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابٌ حِسَّ عُمَرَ تَوَارَى فِي الْبَيْتِ، فَدَخَلَ عُمَرُ فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْقِسِيمَةُ الَّتِي أَسْمَعُهَا عِنْدُكُمَا؟ قَالَ: وَكَانُوا يَقْرَأُونَ ﴿طه﴾، فَقَالَ: مَا هَذَا حَدِيثًا تَحَدَّثُنَا بَيْنَنَا. قَالَ: لَعَلَّكُمَا قَدْ صَبَأْتُمَا؟ فَقَالَ لَهُ خَتْنُهُ: أَرَأَيْتَ يَا عُمَرُ أَنَّ الْحَقَّ فِي غَيْرِ دِينِكَ. فَوَثَبَ عَلَى خَتْنِهِ فَوَطَّئَهُ وَطَاءً شَدِيدًا فَجَاءَتْ أُخْتُهُ فَدَفَعَتْهُ عَنْ زَوْجِهَا فَفَتَحَهَا بِبَدْنِهِ فَدَمَى وَجْهَهَا، فَقَالَتْ وَهِيَ غَضْبَانَةٌ: يَا عُمَرُ، إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

فَلَمَّا يَسَّ عُمَرُ قَالَ: أَعْطُونِي هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي عِنْدَكُمْ فَأَقْرَأُهُ. فَقَالَتْ أُخْتُهُ: إِنَّكَ رَجَسٌ نَجِسٌ وَلَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَقُمْ فَاغْتَسِلْ أَوْ تَوَضَّأْ. فَقَامَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَ ﴿طه﴾ [طه: الآية ١] حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: الآية ١٤].

قَالَ عُمَرُ: دُلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَابَ قَوْلِ عُمَرَ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَبَشِّرْ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ لَيْلَةً الْخَمِيسِ «اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَوْ بِأَبْنِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ». قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّارِ الَّتِي فِي أَصْلِ الصَّفَا، فَاَنْطَلَقَ عُمَرُ حَتَّى أَتَى الدَّارَ وَعَلَى بَابِ الدَّارِ حَمْرَةٌ وَطَلْحَةُ وَأَنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى حَمْرَةَ عُمَرُ وَجَلَ الْقَوْمُ مِنْ عُمَرَ. فَقَالَ حَمْرَةٌ: فَهَذَا عُمَرُ، فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِعُمَرَ خَيْرًا يُسْلِمَ وَيَتَّبِعِ النَّبِيَّ ﷺ، وَإِنْ يُرِدْ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ يَكُنْ قَتْلُهُ هَيْنَا عَلَيْنَا، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَاخِلٌ يُوحَى إِلَيْهِ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عُمَرَ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ أَثَوَابِهِ وَحَمَائِلِ السَّيْفِ فَقَالَ: «مَا أَنْتَ مُنْتَهِيَا يَا عُمَرُ حَتَّى يُنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ مَا أَنْزَلَ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، اللَّهُمَّ اهْدِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ». فَقَالَ عُمَرُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَأَسْلَمَ.

قال ابن عباس: لما أسلم عمر كبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد. وَقَالَ: أُخْرِجْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتْنَا وَإِنْ حَيَيْنَا؟ قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ». قَالَ: فَفِيمَا الْاِخْتِفَاءُ؟ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَنُخْرِجَنَّ. قَالَ عُمَرُ: فَأَخْرَجْنَاهُ فِي صَفَيْنِ، حَمْرَةٌ فِي أَحَدِهِمَا، وَأَنَا فِي الْآخِرِ لَهُ كَدِيدٌ كَكَدِيدِ الطَّلِحِينَ، حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَنَظَرْتُ فَرِيشَ إِلَى حَمْرَةٍ وَإِلَى عُمَرَ فَأَصَابَتْهُمْ كَابَةٌ لَمْ تُصِبْهُمْ مِثْلُهَا.

قَالَ: فَسَمَّانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ الْفَارُوقُ، وَفَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ.

الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٨)، وَوُجُوهٌ أَدْعَنَتْ وَذَلَّتْ، وَوُجُوهٌ أَلْفَتِ السَّجُودَ فَمَا مَلَتْ، وَوُجُوهٌ تَوَجَّهَتْ إِلَيْنَا وَعَنْ غَيْرِنَا تَوَلَّتْ زَالَتْ عَنْهَا فَتْرَةُ الْهَجْرِ وَتَجَلَّتْ فَجَلَّتْ غَانِمَةٌ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٨) [الغاشية: الآية ٨] تَجْرِي دُمُوعُهُمْ فِي الْخُدُودِ كَالْمِيَاهِ فِي الْأَخْدُودِ، وَتَعْمَلُ نَارُ الْحَذَرِ فِي الْكُبُودِ، فَيَتَمَنُّونَ

عَدَمَ الْوُجُودِ، فَهُمْ بَيْنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَنَضَبِ الْأَقْدَامِ الْقَائِمَةِ، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (٨).

يَتَفَكَّرُونَ فِي السَّابِقَةِ، وَيَحْذَرُونَ مِنَ اللَّاحِقَةِ، وَكَأَنَّهُمْ يَتَّقُونَ صَاعِقَةً، وَكَأَنَّ السُّيُوفَ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ بَارِقَةً، فَيَا شِدَّةَ فَلَقِهِمْ مِنَ الْحَاتِمَةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (٨) [الْعَاشِيَةِ: الْآيَةُ ٨].

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) طَالَ مَا أَطَالُوا الْبُكَاءَ فِي اللَّيْلِ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ مِثْلَ جَرِي السَّيْلِ وَتَسْبِقُ فِي صَحْرَاءِ الْخُدُودِ كَالْحَيْلِ، وَإِنَّمَا يُكَالُ لِلْعَبْدِ عَلَى قَدْرِ الْكَيْلِ، فَإِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ فَلِكُلِّ عَيْنٍ جَارِيَةٌ جَارِيَةٌ، ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢).

جَنَّ اللَّيْلُ وَهُمْ قِيَامٌ، وَجَاءَ النَّهَارُ وَهُمْ صِيَامٌ، وَنَزَعُوا قَبْلَ الْكَلَامِ، وَسَلَّمُوا عَلَى الدُّنْيَا لِذَارِ السَّلَامِ، فَالْبُطُونُ جَائِعَةٌ، وَالْأَجْسَادُ عَارِيَةٌ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) ائْتَزَرُوا بِمَنْزَرِ الْقَنُوعِ، وَارْتَدُّوا بِرِذَاءِ الْجُوعِ وَالْخُشُوعِ، وَاسْتَلَذُّوا بِشُرْبِ الدُّمُوعِ، لَوْلَا صَحْوُ السَّهْرِ وَالْجُوعِ كَمَا بَانَ عِنْدَ الْجَبَلِ هَلَالٌ يَا سَارِيَّةُ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) [الْعَاشِيَةِ: الْآيَةُ ١٢].

وعظ:

يَا غَافِلًا عَنْ هَذِهِ الدَّارِ، يَا رَاضِيًا عَنِ الصَّفَاءِ بِالْأَكْدَارِ، الْبِدَارَ الْبِدَارَ سَابِقَ وَفُوقَ الْمَوْتِ قَبْلَ قُوْتِ الْأَقْدَارِ، وَيَحْكُ أَمَّا تَرَى سَبَقَ الْأَخْيَارِ، أَمَّا شَوْفَكَ مَدْحُ الْأَبْرَارِ؟ أَمَّا تَخَافُ الشَّيْنِ؟ أَمَّا تَحْذَرُ الْعَارِ؟ إِلَى كَمْ هَذَا الْجَهْلُ وَالنَّفَارُ؟ وَمَا هَذَا التَّقَاعْدُ وَالْمُحَقُّ قَدْ سَارَ؟ إِنَّ طُوفَانَ الْهَلَاكِ قَدْ دَارَ حَوْلَ الدِّيَارِ، يَا سَكْرَانَ الْهَوَى كَمْ قَتَلَ الْحَمَارُ؟ يَا بَصِيرًا وَهُوَ أَعْمَى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الْحَجَّ: الْآيَةُ ٤٦]. شعر:

إِنَّمَا الدُّنْيَا بَلَاءٌ لَيْسَ لِلدُّنْيَا ثُبُوتٌ إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْتٌ نَسَجَتْهُ الْعَنْكَبُوتُ
إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِنْهَا أَيُّهَا الرَّاعِبُ قُوْتٌ

وعظ:

يَا مَنْ أَنْفَاسُهُ مَحْفُوظَةٌ، وَأَعْمَالُهُ مَلْحُوظَةٌ، أَتَتَفَقُّ الْعُمَرَ النَّفِيسَ فِي نَيْلِ

الْهَوَى الْخَسِيسِ، جَدَّ الزَّمَانُ وَأَنْتَ تَلْعَبُ، وَالْعُمُرُ فِي لَا شَيْءٍ يَذْهَبُ، كَمْ كَمْ تَقُولُ عَدَا أَتُوبُ عَدَا، عَدَا وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ، أَمَّا عُمْرُكَ كُلُّ يَوْمٍ يَنْهَبُ، أَمَّا الْمُعْظَمُ مِنْهُ قَدْ ذَهَبَ، فِي أَيِّ شَيْءٍ فِي جَمْعِ الذَّهَبِ، تَبْخُلُ بِالْمَالِ وَالْعُمُرُ يَذْهَبُ، يَا مَنْ إِذَا تَخَلَّى تَفَكَّرَ وَحَسِبَ، تَأْمَلُ فَأَمَّا نُزُولُ الْمَوْتِ فَمَا حَسِبَ، تَطْلُبُ النَّجَاةَ لَكِنْ لَا مِنْ بَابِ الطَّلَبِ، تَقِفُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّ صَلَاتَكَ لَعَجَبُ، الْجِسْمُ حَاضِرٌ فِي شَعْبِ الْحَسْرِ بِالْعِرَاقِ، وَالْقَلْبُ فِي الْحَلَبِ، الْفَهْمُ أَعْجَمِي، وَاللَّفْظُ لَفْظُ الْعَرَبِ، أَنَا أَعْلَمُ بِكَ مِنْكَ حُبُّ الدُّنْيَا قَدْ غَلَبَ. وينشد:

طُوبَى لِمَنْ قَلْبُهُ بِاللَّهِ مُشْتَغِلٌ يَبْكِي النَّهَارَ وَطُولَ اللَّيْلِ يَبْتَهِلُ
خَوْفُ الْوَعِيدِ وَذِكْرُ النَّارِ أَحْزَنُهُ فَالِدَمْعُ مِنْهُ عَلَى الْخَدَيْنِ يَنْهَمِلُ

وفي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ».

وفي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عُمَرُ سِرَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ». وفي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ.

وفي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى. فَنَزَلَتْ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى﴾ [البقرة: الآية ١٢٥]. وقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ نِسَاءَكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَحْتَجِبْنَ. فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. وَاجْتَمَعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاؤُهُ فِي الْغِيَرَةِ. فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّنْ﴾ [التحریم: الآية ٥]. وفي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «عُمَرُ سِرَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ». وفي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ». وفي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيًّا لَكَانَ عُمَرُ».

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: الآية ٢١] أي: واعظ ما أَكْثَرَ الْمُذَكِّرِينَ وَمَا أَقَلَّ الْمُتَذَكِّرِينَ، النِّعْمَةُ تُذَكِّرُكَ، وَتُغَيِّرُ أَحْوَالَكَ يُنْذِرُكَ، وَأَخْذُ الْقُرْنَاءِ يُحْذِرُكَ، غَيْرَ أَنَّ الصَّمَامَةَ فِي سَمْعِ الْقَبُولِ فَمَا تَنْتَفِعُ بِقَوْلِ مَنْ

يَقُولُ، يَا مُقِيمًا قَدْ حَانَ سَفَرُهُ، يَا مَنْ عَسَاكِرُ الْمَوْتَى تَنْتَظِرُهُ، سَيَعُودُ الصَّحَّةَ
السَّقَمُ وَسَيَغْلِبُ الْوُجُودَ الْعَدَمُ. لِلْسَّاعَاتِ مَرَاجِلُ، وَالْمَوْتُ سَاحِلُ، الْبِدَارَ الْبِدَارُ
قَبْلَ فَوَاتِهِ، اجْمَعِ الزَّادَ قَبْلَ شَتَاتِهِ، كَمْ أَخْلَى الْمَوْتُ دَارًا دَارًا؟ كَمْ تَرَكَ الْمَعْمُورَ
قِفَارًا؟ كَمْ أَوْقَدَ مِنَ الْأَسْفِ نَارًا؟ كَمْ أَذَاقَ الْغُصَصَ الْمُرَّةَ مِرَارًا؟ لَقَدْ جَاءَتْ
يَمِينًا وَيَسَارًا، فَمَا حَاشَا فَقْرًا وَلَا يَسَارًا. شعر:

إِنَّ الْمَشَايخَ بَعْدَ طُولِ حَيَاتِهِمْ تَمَرُّتْ غَرْقَ فِي ذُرَى الْأَسْحَارِ
إِذَا سَقُوطُ بِالرِّيَّاحِ إِذَا جَرَتْ أَوْ لَا مَحَالَةَ بَعْدُ بِالْأَمْطَارِ
وَكَذَا الْمَنِيَّةُ لَيْسَ مِنْهَا مَهْرَبٌ طَرَفْتُ بِلَيْلٍ أَوْ ذَكَرْتُ^(١) بِنَهَارِ

رَحَلَ الْقَوْمُ فَاسْأَلِ الْأَطْلَالَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ فَفَنِيَتِ الْأَجَالَ، سَارُوا إِلَى دَارِ
الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا جَمَعُوا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَنَدَبُوا عَلَى فُبْحِ
الْحَطَايَا وَالْأَفْعَالِ، وَأَلَتْ أَمْوَالُهُمْ إِلَى كَفِّ الْأَلِ، بَضَعَ الْأَهْلُ بَضَائِعَهُمْ وَقَفَلُوا
إِلَى الْأَقْفَالِ، هَذَا مَصِيرُكُمْ عَنْ قَرِيبٍ، أَمَا يَمُرُّ لَكُمْ عَلَى بَالٍ، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٥]. شعر:

إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ تَذَكَّرَ يَوْمَهَا هَانَتْ عَلَيْهِ حَوَادِثُ الْأَيَّامِ
وَلَهَى عَنِ اللَّهْوِ الْمُضِرِّ بِأَهْلِهِ وَلَهَى عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْآثَارِ

خوف الحساب وما عليه ملام

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْحَيَاةِ وَحُبَّهَا أَلْفَيْتَهَا حُلُمًا مِنَ الْأَحْلَامِ

إِخْوَانِي، كَأَنَّكُمْ بِالْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ قَدْ حَلَّتْ، وَبِالدُّنْيَا الَّتِي قَدْ تَوَلَّتْ تَوَلَّتْ
وَبِالنَّفْسِ الْعَزِيزَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ قَدْ ذَلَّتْ، حَتَّى يُقَالَ هَذِهِ الْعَمْرَةُ قَدْ حَلَّتْ قَدْ تَجَلَّتْ
فَيَا وَبِحَ نَفْسٍ كُلَّمَا عَقَدْنَا نَفْعَهَا حَلَّتْ.

الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الْعَاشِيَةِ: الآية ٢١].

أَحْضِرُوا قُلُوبَكُمْ لِلنُّصْحِ وَالتَّوَاصِي، أَحْذَرُوا يَوْمَ الْأَخْذِ بِالنَّوَاصِي، تَذَكَّرُوا

جَمِيعَ الدَّانِي وَالْقَاصِي، أَسَمِعْتَ يَا مَنْ يَرُوحُ فِي الْمَعَاصِي وَيُذَكِّرُ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾.

وَاعْجَبًا كَيْفَ تُحَدِّثُ السَّكْرَى، وَقَدْ مَلَأَتْهُمْ الْعَفْلَةُ سُكْرَى، أَمَا يَعْقِلُونَ الْإِنْظَارَ وَالْتَّكْرَى، فَكَمْ يُنَلَى عَلَيْهِمُ الْوَعْظُ ذُكْرَى، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنَّمَا تَنْفَعُ الذُّكْرَى الْمُتَذَكِّرُ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾.

أَيُّهَا النَّصِيحُ أَتَرَى الْمَنْصُوحَ أَصَمَّ بَيْنَ لَهُ قُبْحَ مَا جَمَعَ وَضَمَّ؟ وَأَنْ أَفْعَالُهُ جَمِيعًا تُوجِبُ الذَّمَّ، حَتَّى رَأَيْتَ النَّسِيَانَ لِلْعَوَاقِبِ قَدْ عَمَّ عَمَّ؟ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾.

كَمْ مَوْعُوظٍ زَجَرَ فَارَعَوَى؟ كَمْ فَاسِدٍ ذُبِحَ فَاسْتَوَى؟ كَمْ مُسْتَقِيمٍ بِالْوَعْظِ بَعْدَمَا التَّوَى، ثُمَّ عَادَ إِلَى الزَّلَلِ بِمُوَافَقَةِ الْهَوَى، إِنَّ الْهَوَى يُعَيِّرُ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: الآية ٢١].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَقْوَالٍ يُرَادُّ بِهَا سَوَاكَ، وَأَعْمَالٍ لَا يُوَافِقُ رِضَاكَ.

اللَّهُمَّ اسْتَعْمَلْنَا بِمَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ بِرَحْمَتِكَ وَيُحِلُّنَا بِهِ دَارَ الْقَرَارِ مِنْ جَنَّتِكَ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ مَنْ صَارَ مِنَ وَالِدَيْنَا إِلَيْكَ.

اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا وَلَهُمْ فِي الْمَصِيرِ إِلَيْكَ وَفِي الْقُدُومِ عَلَيْكَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

المَجْلِسُ الحَادِي والثَّلَاثُونَ

فِي فَضْلِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَدِيمًا دَائِمًا خَبِيرًا بِالْأَسْرَارِ وَعَالِمًا، قَرَّبَ مَنْ شَاءَ فَجَعَلَهُ صَائِمًا وَقَائِمًا، طَرَدَ مَنْ شَاءَ فَصَارَ فِي بَيْدَاءِ الضَّلَالِ هَائِمًا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَإِنْ بَاتَ الْعَبْدُ رَاغِمًا، يَقْبَلُ تَوْبَةَ التَّائِبِ إِذَا أَمْسَى نَادِمًا .

أَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنْ التَّقْصِيرِ سَالِمًا، وَأُقِرُّ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ مُوقِنًا عَالِمًا، وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي سَافَرَ إِلَى قَابِ قَوْسَيْنِ ثُمَّ عَادَ غَانِمًا، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ رَفِيقًا مُلَائِمًا، وَعَلَى عَمَرَ الَّذِي لَمْ يَعْبُدْ رَبَّهُ مُسِرًّا كَاتِمًا، وَعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي قُتِلَ مَظْلُومًا وَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا، وَفِيهِ نَزَلَ ﴿أَمَنْ هُوَ فَنِتْ عَانَاءَ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: الآية ٩]، وَعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ فِي الْعُلُومِ بَحْرًا وَفِي الْحُرُوبِ صَارِمًا، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ حَوْلَ نُصْرَتِهِ حَائِمًا .

اللَّهُمَّ اجْعَلْ ذِكْرَ الْآخِرَةِ لِقُلُوبِنَا مُلَازِمًا، وَوَقِّفْنَا لِلتَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ تَوْفِيقًا جَازِمًا، وَذَكِّرْنَا رَحِيلَنَا قَبْلَ أَنْ نَرَى الْمَوْتَ هَاجِمًا، وَاقْبَلْ صَالِحَنَا وَاعْفِرْ لِمَنْ كَانَ آثِمًا .

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ عُثْمَانُ رَضِيتُ عَنْهُ فَارْضَ عَنْهُ» .

وَأَعْلَمَ أَنَّ عُثْمَانَ مِمَّنْ تَقَدَّمَ إِسْلَامُهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ رَسُولُ اللَّهِ دَارَ الْأَرْقَمِ .
وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: أَشْرَفَ عُثْمَانُ مِنَ الْقَصْرِ وَهُوَ مَحْصُورٌ
فَقَالَ: «أُنْشِدُ بِاللَّهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ إِذَا اهْتَزَّ الْجَبَلُ فَوَكَزَهُ بِقَدَمَيْهِ
وَقَالَ: «أُسْكُنْ حِرَاءَ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ». وَأَنَا مَعَهُ فَأُنْشِدُ لَهُ
رِجَالًا وَقَالَ: وَأُنْشِدُ بِاللَّهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ جَيْشِ الْعُسْرَةِ قَالَ: «مَنْ
يُنْفِقُ الْيَوْمَ نَفَقَةً مَّتَابَلَةً»، فَجَهَّزْتُ نِصْفَ الْجَيْشِ مِنْ مَالِي .

قَالَ: فَأُنْشِدَ لَهُ رِجَالًا، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ عَلِيٌّ إِلَى عُثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ
وَقَدْ أَعْلَقَ الْبَابَ وَمَعَهُ حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَعَلَيْهِ سِلَاحُهُ فَقَالَ لِلْحَسَنِ: أَذْخُلُ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَقْرِئُهُ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: إِنَّمَا جِئْتُ لِنُصْرَتِكَ فَمُرْنِي بِأَمْرِكَ، فَدَخَلَ
الْحَسَنُ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ لِأَبِيهِ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُقْرِئُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ
لَكَ: لَا حَاجَةَ لِي فِي الْقِتَالِ وَإِهْرَاقِ الدِّمَاءِ . قَالَ: فَتَنَزَّ عِمَامَةً سَوْدَاءَ فَرَمَى
بِهَا بَيْنَ يَدَيِ الْبَابِ وَجَعَلَ يُنَادِي ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ [يوسف: الآية ٥٢] .

وعظ:

مَنْ عَرَفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، لَمْ يُؤْثِرِ الْهَوَى وَلَمْ يَلْتَمِثْ إِلَيْهِ، وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي رَحِيلِ مَنْ
كَانَ لَدَيْهِ، صَارَ النَّهْوضُ مُتَيَقِّنًا عَلَيْهِ، كَمْ فَرِحَ بِشَهْرَةٍ وَإِهْلَالِهِ مُتَهَلِّلٍ بِرُؤْيَا هَلَالِهِ،
اخْتَطَفَهُ الْمَوْتُ مِنْ خِلَالِهِ، كَمْ مَئِلٍ إِلَى جَمْعِ مَالِهِ تَرَكَّهُ وَرَاءَ بَأْتِقَالِهِ، هَلْ رَحِمَ
الْمَوْتُ مَرِيضًا لَضَعْفٍ أَوْ صَالِحًا؟ هَلْ تَرَكَ كَاسِبًا لِأَجْلِ أَطْفَالِهِ . وينشد:

لَقَدْ أَخْبَرْنَاكَ الْحَادِثَاتُ نَزْوَلَهَا وَنَادَتْكَ إِلَّا أَنَّ سَمْعَكَ ذُو وَفْرِ
تَنُوحُ وَتَبْكِي لِلْأَحْبَةِ أَنْ مَضَوْا وَنَفْسُكَ لَا تَبْكِي وَأَنْتَ عَلَى الْإِثْرِ

وَيَحَكَ يَا هَذَا، أَتَسْمَعُ مَا يَجْرِي، وَمَا لَكَ عَيْنُ تَجْرِي؟ وَوَيْحَكَ وَيَحَكَ
تَعْرِفُ قُبْحَ مَا تَأْتِي ثُمَّ تُدْعَى إِلَى التَّوْبَةِ وَمَا تَأْتِي، حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ،
وَيَحَكَ إِنَّمَا نَمْرُودُ رُمِيَ بِسَهْمٍ وَاحِدٍ وَيَدُّ تَشْخُصُكَ فِي الْقَوْسِ لَا تَبْرُحُ، كُلَّمَا نَفَدَ
نُسَابُكَ اسْتَقْرَضْتَ، سَتَنْدِمُ إِذَا شَاهَدْتَ عَمَلَكَ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿٢٥﴾

[النَّازِعَات: الآية ٣٥]. وَاعْجَبًا مَتَى تَنْتَبَهُ مِنْ رَقْدَةِ الْعَفْلَةِ. وينشد:

يَا قَلْبُ مَا أَطْوَلَ هَذَا الْغَرَامَ يَوْمَ نَأَى الْحَيِّ وَيَوْمَ الْمَقَامِ
مَتَى تَفِيئُ الْيَوْمَ مِنْ نَشْوَةٍ وَأَنْتَ سَكْرَانٌ بِغَيْرِ الْمُدَامِ

يَا وَحِيدًا عَنِ السَّالِكِينَ، يَا بَعِيدًا عَنِ الْعَابِدِينَ، فُتِحَ الْبَابُ لِأَرْبَابِ
الْأَلْبَابِ، وَرُدَّ فِي وَجْهِكَ أَمَّا لَكَ لِسَانُ تَسْأَلُنَا بِهِ؟ أَمَّا لَكَ وَفَتْ تُنَاجِنَا فِيهِ؟
وَلَا قَلْبُ تَجِدُنَا عِنْدَهُ؟ أَمْسْتَوْحِشُ أَنْتَ مِمَّا جَنَيْتَ؟ فَأَحْسِنْ إِذَا شِئْتَ
وَاسْتَأْنِسْ بِاللَّهِ، وَمَا أَظُنُّ فَسَاوَةَ قَلْبِكَ إِلَّا مِنْ أَثَرِ سَخَطِكَ، وَاللَّهُ إِنَّ الرَّمْدَ لَا
يَخْفَى مِنَ الْعَمَى.

إخواني، إِذَا رَأَيْتُمْ بَاكِيًا فَلَا تَعْجَبُوا مِنْ قَاسِيِ الْقَلْبِ قَرَعَهُ سَوْطُ الْمَوَاعِظِ
فَسَالَتْ عَيْنُهُ فَإِذَا مُوسَى ضَرَبَ بَعْصَاهُ الْحَجَرَ ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾
[البقرة: الآية ٦٠]. وينشد:

صَحَا كُلُّ غُذْرِيٍّ الْغَرَامِ عَنِ الْهَوَى وَأَنْتَ عَلَى حُكْمِ الصَّبَابَةِ نَازِلُ
نَزَلْنَا عَلَى التَّوْدِيعِ مِنْ دَارَةِ الْحِمَى فَظَنَنْتَ عَلَيْنَا بِالسَّلَامِ الْمَنَازِلُ
وَأَنْكَرَ صَحْبِي رَسْمَ دَارِ عَرَفْتُهَا مَعَالِمُهَا بَعْدَ الْحَبِيبِ مَجَاهِلُ
مَنَازِلُ كَانَتْ لِلْبُدُورِ مَطَالِغُ وَلَكِنَّهَا بِالْبَيْنِ عَنْهَا أَوَافِلُ

إخواني، الْعُمَرُ أَنْفَاسُ تَسِيرُ، لَا بَلْ تَطِيرُ، الْأَمَلُ مَنَامٌ لَا يُرَى فِيهَا إِلَّا
الْأَحْلَامُ، هَذَا سَيْفُ الْمَوْتِ قَدْ دَنَا، فَإِنْ ضَرَبَ قَدْنَا فَهَذَا حَادِي الرَّجُلِ وَلَا زَادَ
عِنْدَنَا، انْتَبَهُوا مِنْ رَقَادِ الْعَفْلَةِ، تَقَيُّظُوا مِنْ نَوْمِ الْيَقْظَةِ، عَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْبَطَالَةِ،
ابْعُدُوا عَنْ دِيَارِ الْوَحْشَةِ، أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ الْقَبْرِ، فَمَنْ مَاتَ فَقَدْ حُطَّ رَحْلُ
السَّفَرِ، وَسَائِرُ الْوَرَى سَائِرٌ مَنْ كَانَ فِي سِجْنِ الثَّقَى فَالْمَوْتُ يُطْلِقُهُ، وَمَنْ كَانَ
هَائِمًا فِي بَوَادِي الْهَوَى فَالْمَوْتُ لَهُ حَبْسٌ يُؤَبِّقُهُ، مَوْتُ الْمُتَعَبِّدِينَ عِتْقٌ لَهُمْ مِنْ
أَسْرِ قَلْقِ الْكَدِّ وَرِفْقٌ لَهُمْ مِنْ تَعَبِ الْمُجَاهِدَةِ، وَمَوْتُ الْعَصَاةِ سَبَبٌ يُسْتَرْقُونَ بِهِ
لِطُولِ الْعَذَابِ مَنْ كَانَ وَائِقًا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْخِيَانَةِ فَرِحَ بِفِكَ بَابِ السَّجْنِ لَمَّا
تَوَاعَدَ فِرْعَوْنُ السَّحْرَةَ بِالصَّلْبِ أَنْسَاهُمْ أَمَلُ لِقَاءِ الْحَبِيبِ مَرَارَةَ الْوَعِيدِ، ﴿قَالُوا إِنَّا

إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ [الأعراف: الآية ١٢٥]. يَا فِرْعَوْنُ غَايَةَ مَا تَعْمَلُ أَنْ تُحْرِقَ
الْجِسْمَ مَنْ لَاحَتْ لَهُ مِنِّي نَسِي تَعَبَ الْمَدَارِجِ. شعر:

أَبْصَرَ الرِّكْبَ عَلَى الْجَزَعِ ضَحَا	فَتَوَلَّى دَمْعُهُ مُنْسَفِحَا
يَا خَلِيلِي بِجَرَعَاءِ الْحَمَى سَائِلَا	مَنْ جَلَّ ذَاكَ الْأَبْطَحَا
وَحُذَا عَنِّي أَحَادِيثَ الْغَضَى	بَخِلَ الرَّائِي بِهَا أَوْ سَمَحَا
وَاسْتَمَلَاهَا بِدَمْعِي وَاكْتَبَا	عَنْ أَخِي الشَّوْقِ جَوَى مَا شَرَحَا
وَإِذَا هَبَّ الصَّبَا فُؤُولَا لَهُ	عُدَّ فَقَدْ هَيَّجَتْ قَلْبًا مَا صَحَا
يَا أَهْيَلَ الْحَيِّ مِنْ كَاظِمَةٍ	عَادَ مَسْتُورُ الْهَوَى مُفْتَضِحَا

رَوَى حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ قَالَ: خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ إِلَى النَّاسِ مَا قُتِلَتْ أُمُّهُ
قَطُّ يَوْمَ الدَّارِ. فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمَ، إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا قُتِلَتْ أُمُّهُ قَطُّ نَبِيًّا إِلَّا قُتِلَ مِنْهَا
مَكَانُهُ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَلَا قُتِلَتْ أُمُّهُ قَطُّ خَلِيفَةً إِلَّا قُتِلَ مِنْهَا مَكَانُهُ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ
أَلْفًا فَأَحْرِقُوا الْبَابَ. فَقَالَ عُثْمَانُ: مَا عِنْدَهُمْ بَعْدَ هَذَا بَقِيَّةٌ، ثُمَّ دَخَلُوهُ فَقَتَلُوهُ.
شعر:

قَتَلُوهُ مَظْلُومًا مِنْ لَدَى الْمِحْرَابِ	مِنْ غَيْرِ مَا جُرِمَ سِوَى الْأَحْقَادِ
ثُمَّ اسْتَحَلُّوهُ عَقِيلَةَ مَالِهِ	وَنَسُوا جَمِيلًا لَهُ وَأَيَادِي

أَخْرَجَ عُثْمَانُ الْمَالَ رَاضِيًا، فَمَاتَ عَنْهُ الرَّسُولُ رَاضِيًا، مَا كَانَ لِلدُّنْيَا عِنْدَهُ
قَدْرٌ، إِذَا وَازَنَهَا الْبَخِيلُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، تَأَوَّلَ بِإِعْطَاءِ الْأَقَارِبِ صِلَةَ الرَّحِمِ، فَوَقَعَتْ
فَتْوَاهُ بِيَدٍ مَنْ فِهِمْ، فَنَهَضَ إِلَى قَوْمٍ وَثَارُوا، وَلَوْ كَانُوا الَّذِينَ أُعْطُوا مَا سَارُوا.
شعر:

فَكَيْفَ يَدِيهِ ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ	وَأَيَّقَنَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ
وَقَالَ لِأَهْلِ الدَّارِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ	عَفَا اللَّهُ عَنْ ذَنْبِ امْرِئٍ لَمْ يُقَاتِلِ

قال: رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ قَتْلِهِ وَهُوَ يَقُولُ: أَفْطِرُ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ، فَأَصْبَحَ
صَائِمًا، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ضَرَبَهُ رَجُلٌ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَ يَدَهُ. فقال: أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهَا
لَأَوَّلُ كَفِّ خَطَتِ الْمُفْصَلِ.

فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ قَطَعُوا يَدَهُ فَاقْطَعْ أَيْدِيَهُمْ. قَالَ: وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ عَشِيَّةً، يَدُورُونَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ لِلْكَلامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ أَسْلَمٍ﴾.

عَزَّتِ الدَّارُ وَجَلَّ الْمَرَامُ، وَنَالَ سَاكِنُهَا فَوْقَ الْمَرَامِ، فَانْتَبَهَ يَا مَشْغُولًا عَنْهَا بِأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ، دَارُ الْإِعْزَازِ وَالْإِكْرَامِ، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ أَسْلَمٍ﴾.

بُنِيَتْ لِقَوْمِ كِرَامٍ لَا غُرْمَ فِيهَا وَلَا عَرَامَ، مَا سَاكِنُهَا مَنْ يُضَامُ، تَمَنَّا يَا مُشْتَرِينَ صَلَاةً وَصِيَامًا، نَعِيْمُهَا فِي دَوَامٍ، لَذَائِهَا فِي تَمَامٍ، الْحُورُ فِي الْقُصُورِ وَالْحِيَامِ، شَهَوَاتُهَا لَمْ تُحْطَرْ عَلَى الْأَوْهَامِ، انْتَبَهُوا لِطَلَبِهَا يَا نِيَامَ، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ أَسْلَمٍ﴾.

قَدْ جُمِعَتْ كُلُّ مُشْتَهَى، وَزَادَتْ عَلَى الْعَرَضِ وَالْمُنْتَهَى، عَجَبًا لِمَنْ غَفَلَ عَنْهَا وَسَمَى، انْهَضْ عَلَيْهَا يَا غَلَامُ، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ أَسْلَمٍ﴾ [يونس: الآية ٢٥].

أَيُّهَا السَّكْرَانُ بِالْأَمَلِ لَقَدْ آنَ الرَّحِيلُ، وَمَشَيْبُ الرَّأْسِ وَالْقَرِينِ لِلْمَوْتِ دَلِيلُ، فَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَةِ الْغَفْلَةِ فَالْعُمُرُ قَلِيلُ، أَطْرَحُ سَوْفَ وَحَتَّى فَهَمَا دَاءٌ دَخِيلُ.

إِخْوَانِي، لَقَدْ وَعَظْتُكُمُ الزَّمَانَ وَمَا قَصَرَ، وَتَكَلَّمْتُ الصَّامِتُ وَمَا أَقْصَرَ، وَلَا حَ الْهَوَى وَإِنَّمَا الشَّانُ فَيَمَنْ أَبْصَرَ، وَنَطَقَتِ الْمَوَاعِظُ بِزَجْرِ لَا يُحْصَرُ، هَلَكْتَ ثُمَّودُ بِصِيْحَةٍ، وَعَادُ بِرِيحِ صَرْصَرٍ، وَكِسْرَى وَقَصُرُ قَيْصَرَ تَالَهُ مَا يُبَالِي مِيزَانُ الْجَزَاءِ أَرِيحُ أَمْ أَخْسَرُ، وَلَا حَاكِمُ الْعَدْلِ بِمَنْ أَفْلَسَ وَأَعْسَرَ، هَذَا أَمْرٌ مُجْمَلُ، وَفِي غَدٍ يُفَسَّرُ، أَيُّهَا الْمُتَحَرِّكُ فِي الدُّنْيَا لَا بُدَّ مِنْ سُكُونٍ، لَا يَغْرُنَاكَ سَهْلُهَا فَبَعْدَ السَّهْلِ حَزُونُ، كَمْ سَلَبَتْكَ مِنْ حَبِيبٍ وَبَعْدَ الْفَسْخِ يَهُونُ، مَا فَرَجُهَا مُسْتَتَمٌ وَلَا تَرَحُّهَا مَأْمُونُ، إِنَّهَا الدَّارُ الْعُرُورِ وَدَائِرَةُ الْمَنُونِ، كَمْ تَلُومُ وَلَكِنْ أَيْنَ الْعَاقِلُ مِنَ الْمَجْنُونِ. وَيَقَالُ:

وَكُلُّ حَيٍّ فَوْقَهَا يَفْجَعُ
وَضَهْرُهَا مِنْ جَمْعِهِمْ بَلَقُعُ
وَبَعْدَ عَادٍ هَلَكْتَ تُبْعُ
هَلْ لَكَ فِيمَا قَدْ مَضَى مَطْمَعُ

يَا عَجَبًا لِلْأَرْضِ مَا تَشْبَعُ
وَقَوْمُ نُوحٍ أَذْخَلَتْ بَطْنَهَا
ابْتَلَعَتْ عَادًا فَأَفْنَتْهُمْ
يَا أَيُّهَا الرَّاجِي لِمَا قَدْ مَضَى

وعظ:

يَا مَنْ عَاهَدَنَا عَلَى الطَّاعَةِ فِي الإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ كَيْفَ اسْتَحَلَّ عَقْدَ التَّوْبَةِ وَعَقْدَ
الْإِضْرَارِ؟ وَمَتَى يَخْرُجُ الْعَاصِي مِنْ هَذِهِ الدَّارِ؟ شَيْبٌ وَعَيْبٌ نَهَايَةُ الإِدْبَارِ، أَمَا عَلِمْتَ
أَنَّ الدُّنْيَا غَدَارَةٌ؟ أَمَا بَرْدُ لَدَاتِهَا يَنْقَلِبُ حَرَارَةً؟ أَمَا رِيحُهَا عَلَى التَّحْقِيقِ خَسَارَةٌ؟ أَمَا
يَنْقُصُ الدِّينُ كُلَّمَا زَادَتْ عِمَارَةٌ؟ أَمَا قَتَلْتُ أَحْبَابَهَا وَإِلَيْكَ الْإِشَارَةُ؟ إِذَا قَالَ مُجِيبُهَا
عَلَى التَّحْقِيقِ أَهْلَكَتُهُ وَقَالَتْ: اسْمَعِي يَا جَارَةٌ، يَا مُتَلَطِّخًا بِقُدَارِ الظُّلْمِ بَادِرِ الْعَسَلِ
قَبْلَ أَنْ تَحْزَنَ، لَا يُعَزِّنُكَ عَيْشُ أَحَلَى مِنَ الْعَسَلِ، فَالْمُحَاسَبَةُ أَمْرٌ مِنَ الْعَلَقَمِ.

إخواني، مَنْ رَأَى تَصَرُّفَ الدَّهْرِ انْتَبَهَ، أَمَا فِي الْقَبْرِ عِبْرَةٌ مَهْدُ الطُّفْلِ عُنْوَانُ
اللَّحْدِ رِيحُ الْأَجَلِ، تَفْشَعُ غَيْمَ الْأَمَلِ، الشَّبَابُ بَاكُورَةُ الْحَيَاةِ، وَالشَّيْبُ رِدَاءُ
الرَّذَى، لَوْ أَنَّ أَيَّامَ الشَّبَابِ يُبَاعُ لَبَدَلْنَا فِيهَا أَنْفُسَ الْأَنْفُسِ، إِذَا قَرَعَ الْمَرْءُ بَابَ
الْكُهُولَةِ فَقَدْ اسْتَأْذَنَ عَلَى الْبَلَاءِ، مَنْ عَرَفَ السُّتَيْنِ أَنْكَرَ نَفْسَهُ، مَنْ بَلَغَ السَّبْعِينَ
اخْتَلَفَ إِلَيْهِ رُسُلُ الْمَيِّتَةِ، يَا عَاصِي قَطَعَ الشَّيْبُ سِلْكَ الْعُمَرِ فَالْتَقِطْ بَاقِيَ الْحُزْنِ
وَا فَضِيحَتَاهُ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّتُهُ وَلَا يَنْشُدُ قَلْبُهُ، وَافَضِيحَتَاهُ مِمَّنْ يُشْفِقُ أَنْ يُنْفِقَ
دَرَاهِمَهُ وَقَدْ ضَيَّعَ عُمُرَهُ. وينشد:

يَا صَاحِ إِنْ كُنْتَ لِي أَوْ مَعِي	فَعُدْ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ نَرْتَعِي
وَسَلِّ عَنِ الْوَادِي وَأَرْبَابِهِ	وَأَنْشُدْ فُؤَادِي فِي رُبَا الْمَجْمَعِي
عِنْدَ مَنْى كُنْتُ وَكَانَ الْهَوَى	فَصَمَّ لَاعَنَهُمْ مَسْمَعِي
لَهْفِي عَلَى طَيْبِ لَيَالٍ خَلَتْ	عُودِي تَعُودِي مُذْنَقًا قَدْ نَعِي
إِذَا تَذَكَّرْتُ زَمَانًا مَضَى	فَوَيْحَ أَجْفَانِي مِنَ الْأَذْمَعِي

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ مِنَ الْمَقْبُولِينَ. اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِالْعِلْمِ،
وَزَيَّنَّا بِالْحِلْمِ وَالْوَرَعِ. اللَّهُمَّ عَلَّمْنَا عِلْمًا نَافِعًا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْتَعُ.
اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِنَا أَعْظَمَ بَرَكَهٍ عَلَيْنَا. اللَّهُمَّ أَدِمْ صَلَاحَنَا مَا أَبْقَيْتَنَا.
اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ عَنَّا صَالِحَ مَا آتَيْتَنَا. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَوَالِدَيْنَا وَلِدْرَيْتِنَا وَلِجَمِيعِ
الْمُسْلِمِينَ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا كَثِيرًا.

الْمَجْلِسُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ

فِي فَضْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَصْبَحَتْ لَهُ الْوُجُوهُ دَلِيلَةً عَائِنَةً وَحَذَرَتْهُ النَّفُوسُ مُجِدَّةً مُتَوَانِيَةً.

وعظ:

قَدَّمَ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةَ الْفَانِيَّةَ، وَشَوَّقَ إِلَى جَنَّةٍ قُطُوفُهَا دَائِنِيَّةٌ، وَخَوَّفَ عَطَّاشَ
الْهَوَى أَنْ يُسْقُوا مِنْ عَيْنِ آيَةٍ.

أَحْمَدُهُ عَلَى تَقْوِيمِ شَأْنِهِ، وَأَسْتَعِيدُ مِنْ شَرِّ شَانٍ وَشَانِيَّةٍ، وَأُحْصِنُ بِتَحْقِيقِ
التَّوْحِيدِ إِيْمَانِيَّةٍ، وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ صَلَاةً مُمَهِّدَةً لِعِزَّةٍ بَائِنِيَّةٍ، وَعَلَى صَاحِبِهِ
السَّابِقِ فِي الرَّفَاقِ وَالْإِنْفَاقِ وَالصُّحْبَةِ فِي الدَّارِ وَالْغُرْبَةِ فِي الْغَارِ أَرْبَعَ لِفَخْرِ بَائِنَةٍ
وَلَهُ فَضِيلَةُ التَّقَلُّلِ وَالتَّحَلُّلِ وَالرَّأْفَةِ وَالْخِلَافَةِ صَارَتْ ثَمَانِيَّةً، وَعَلَى عُمَرَ مُقِيمِ
السِّيَاسَةِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ جَائِنِيَّةٍ، وَعَلَى عُثْمَانَ اخْتَارَهُ الرَّسُولُ بَعْدَ مَوْتِهِ لِابْنَتِهِ
الثَّانِيَّةِ، وَعَلَى عَلِيٍّ الْمُنْزَلِ فِيهِ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِّلِ وَالْإِثْكَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الْمُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ إِذَا أَسْبَابُ
الْعَيْثِ وَالْعَوْتُ دَائِنِيَّةٌ.

اعْلَمْ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُزَاحَمُ فِي قُرْبِ نَسَبِهِ، وَقَدْ أَقَرَّ الْكُلُّ بِفَضْلِهِ
وَعِلْمِهِ، وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ فَتَبِعَهُ وَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ يَكْشِفُ
الْكُرُوبَ عَنْ وَجْهِهِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَتَيْنَا
الْكَعْبَةَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْلِسْ»، وَصَعِدَ عَلَى مَنْكِبِي، فَذَهَبْتُ لَأَنْهَضَ بِهِ،
فَرَأَى مِنِّي ضَعْفًا فَنَزَلَ وَجَلَسَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «اضْعُدْ عَلَى مَنْكِبِي»،
فَصَعِدْتُ عَلَى مَنْكِبِيهِ، قَالَ: فَنَهَضَ بِي، قَالَ فَإِنَّهُ يُخِيلُ إِلَيَّ أَنِّي لَوْ شِئْتُ لَنِلْتُ أَفَقَ
السَّمَاءِ حَتَّى صَعِدْتُ عَلَى الْبَيْتِ وَعَلَيْهِ تِمْنَالُ صِغَرٍ أَوْ نُحَاسٍ فَجَعَلْتُ أَزَاوِلُهُ عَنْ يَمِينِهِ
وَعَنْ شِمَالِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ حَتَّى إِذَا اسْتَمَكَنْتُ مِنْهُ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«اقْذِفْ بِهِ»، فَقَذَفْتُ بِهِ فَتَكَسَّرَ كَمَا يَتَكَسَّرُ الْقَوَارِيرُ، ثُمَّ نَزَلْتُ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا
وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَسْتَبِقُ حَتَّى تَوَارَيْنَا بِالْبُيُوتِ خَشْيَةً أَنْ يَلْقَانَا النَّاسُ.

وَكَانَ الْخَلْقُ يَحْتَاجُونَ إِلَى عِلْمِ عَلِيٍّ حَتَّى قَالَ عُمَرُ: آه مِنْ مُعْضَلَةٍ لَيْسَ
فِيهَا أَبُو حَسَنِ، فَلَمَّا وُلِّيَ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا. وَكَانَ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ
يَقُولُ: إِنَّ عَلِيًّا يَقُولُ: مَا زَانَتْهُ الْخِلَافَةُ وَلَكِنْ هُوَ زَانَهَا. وينشد:

مَا زَانَهُ الْمَلِكُ إِذَا حَوَاهُ بَلْ هُوَ شَيْءٌ بِهِ يُزَانُ
جَرَى فَنَاتِ الْمُلُوكِ سَبْقًا فَلَيْسَ قُدَّامَهُ عَنَانُ
نَالَتْ يَدَاهُ ذُرَى فِعَالٍ يَعْجِزُ عَنْ مِثْلِهَا الْعَنَانُ

أَيُّهَا الْمُفْتَدِي عَلَىكَ بِالْعُزْلَةِ، فَإِنَّهَا تَضُمُّ شَتَاتَ قَلْبِكَ وَتَحْفَظُ مَا لَفَقْتَ مِنْ
عَزَائِمِكَ؛ لِأَنَّ حَالَكَ كَمُرْقَعَةٍ بِالْيَةِ إِنْ تَحَرَّكَتْ فِيهَا تَمَرَّقَتْ الْعُزْلَةُ حَمِيَّةً مِنْ
التَّخْلِيْطِ، وَكُفَّتْ كَفَّ التَّبْذِيرِ تَخَطَّ عَيْنَ بَانِي الْهَوَى فَتَأَلَّفَ الْفِطَامَ عَنِ الطَّيْرَانِ
عُزْلَةُ الْمَرْءِ عِزُّهُ، وَاسْتَوْحِشَ مِمَّا لَا يَدُومُ مَعَكَ، وَاسْتَأْنَسَ بِمَنْ لَا يَفَارِقُكَ عُزْلَةُ
الْجَاهِلِ فَسَادُ، وَأَمَّا عُزْلَةُ الْعَالِمِ فَمَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِدَاؤُهَا إِذَا اجْتَمَعَ الْعَقْلُ
وَالْيَقِينُ فِي بَيْتِ الْعُزْلَةِ، وَاسْتَحْضِرَا وَجَرَتْ بَيْنَهُمَا مُنَاجَاةٌ أُنْخِنَتْ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ
بِالسُّوءِ بِجَرَاحَاتِ اللَّوْمِ، فَإِذَا التَّبِي كَانَتْ فَجَرَتْ قَدْ انْفَجَرَتْ فَجُرَتْ فَتَفَجَّرَتْ
الْأَحْزَانُ بِسَوَاقِي الدَّمْعِ فَتَرَوِي حَرْتَ النَّدَمِ فَتَرَى حَرْتَ الثَّقَى قَدْ اسْتَوَى عَلَى
سُوقِهِ. وينشد:

قَدْ أَضْبَحَ جِسْمِي لِلْسَّقَامِ عَرَضًا وَالْعُمْرُ مَضَى وَمَا بَلَغْتَ الْغَرَضَا
فِي حُبِّكُمْ السُّلُو لِي مَا عَرَضَا وَالْجَوْهَرُ قَدْ مَضَى فَبَقُوا الْعَرَضَا

قَدْ صِرْتُ بِهِجْرَتُكُمْ وَحُزْنِي حَرَضًا إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ بِهِذَا فَرَضًا
وَصَلِّي مَعَكُمْ كَانَ زَمَانًا وَمَضَى كَالْبَرْقِ عَلَى السَّحَابِ أَوْ مَا وَمَضَى

إخواني، شَهَوَاتُ الدُّنْيَا لِعِبْ وَلَهُوَ الْخِيَالِ، وَنَظَرُ الْجَاهِلِ مَقْصُورٌ عَلَى الظَّاهِرِ، فَأَمَّا ذَوَا الْفَهْمِ فَيَرَى مَا وَرَاءَ السُّتْرِ لَاحٍ لِلْأَوْلِيَاءِ حُبُّ الْمُشْتَهَى، فَلَمَّا مَدُّوا أَيْدِي التَّنَاوُلِ بَانَ لَهُمْ بِأَبْصَارِ الْبَصَائِرِ خَيْطُ الْفَخِّ فَطَارُوا بِأَجْنِحَةِ الْحَذَرِ، وَصَوَّتُوا إِلَى الرَّعِيلِ الثَّانِي ﴿بَلَّغْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٦٧﴾ [يس: الآيتان ٢٦، ٢٧].

يَا مَنْ انطوى بُرْدُ شَبَابِهِ وَخِيَّتْ حُلُلُ تَلَفِهِ وَبَلَغَتْ سَفِينَةُ عُمْرِهِ، قَفَّ عَلَى ثِيَّةِ الْوَدَاعِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَظْرَةٌ بِتَنْعَمَ لَوْ فَتَحَتْ عَيْنَ الْيَقْظَةِ رَأَيْتَ حَيْطَانَ الْعُمْرِ قَدْ انْهَدَمَتْ، صَاحَ دِيكَ الْإِيقَاطِ فِي سَحَرِ لَيَالِ الْعَبْرِ فَمَا اسْتَيْقَظْتَ فَسَتَنْتَبِهْ إِذَا نَعَقَ غُرَابُ الْبَيْنِ بَيْنَ الْفَيْنِ، لَا تَحْسِبُوا الْأَمْرَ سَهْلًا نَيْلُ السَّهْلِ أَسْهَلُ. وينشد:

يَا قَلْبُ إِلَامَ تُطَالِبُنِي بِلِقَاءِ الْأَحْبَابِ وَقَدْ رَحَلُوا
أَرْسَلْتُكَ فِي طَلْبِي لَهُمْ لَتَعُودَ فَضَعْتَ وَمَا حَصَلُوا
سَلِّمْ وَاضْبِرْ وَاخْضَعْ لَهُمْ كَمْ مِثْلَكَ قَبْلَكَ قَدْ قَتَلُوا
مَا أَحْسَنَ مَا عَلِقْتَ بِهِمْ أَمَّا لَكَ مِنْهُمْ لَوْ فَعَلُوا

يَا مُهْلِكًا نَفْسَهُ الَّتِي لَا قِيَمَةَ لَهَا، لِأَجْلِ دُنْيَا لَا وَقَعَ لَهَا، إِلَى مَتَى هَذَا الْحِرْصُ وَمَا تَنَالُ مِنْهَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَكَ؟ أَمَا رَأَيْتَ مَرْزُوقًا لَا يَتَعَبُ وَمُتَعَبًا لَا يُرْزَقُ. هَذَا مُوسَى فِي تَقْلُقَلَةِ أَرْنِي وَمَا رَأَى، وَمُحَمَّدٌ ﷺ يُزْعَجُ مِنْ مَنَامِهِ وَمَا طَلَبَ. شعر:

قَضَاهَا لِغَيْرِي وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا يَطْلُبُ مُوسَى التَّجَلِّيَ وَيُرْزَقُ الْجَبَلُ

إخواني، ائْتَمِعُوا أَنْفُسَكُمْ مَلَاذَ مُبَاحِهَا لِيَقَعَ الصُّلْحُ عَلَى تَرْكِ الْحَرَامِ، لَيْسَ مَنْ بَارَزَنَا بِالْمُحَارَبَةِ كَمَنْ أَقَلُّ فِعْلٍ الدُّنْيَا تَمْزِيْقُ الْعُمْرِ بِكَفِّ التَّبْذِيرِ، وَيَحْكُ خَاصِمَ نَفْسِكَ عِنْدَ حَاكِمِ عَقْلِكَ لَا عِنْدَ قَاضِي هَوَاكَ، فَحَاكِمِ الْعَقْلِ دَيْنٌ وَقَاضِي الْهَوَى يَجُودُ.

أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا وَرَاءَكَ وَالْآخِرَةُ أَمَامَكَ، وَالطَّلَبُ لِمَا وَرَاءَكَ هَزِيمَةٌ، إِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِنَ الدُّنْيَا مَنْ لَا فَهْمَ لَهُ كَمَا أَنَّ أَضْعَافَ أَحْلَامٍ تَسُرُّ النَّائِمَ.

الدُّنْيَا نَهْرٌ طَالُوتٌ، وَالْفَضَائِلُ تُنَادِي «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي» [البقرة: الآية ٢٤٩]، لَيْسَ مَعْدِنُ الْيَاقُوتِ كَمَعْدِنِ الْجَصِّ، أَبْدَانُ الْعَارِفِينَ أَقْفَاصٌ لِطُيُورِ الْأَرْوَاحِ فَتَمَنَّى الْخُرُوجَ إِلَى الْحَيِّبِ، وَأَجْسَادُ الْغَافِلِينَ إِضْطَبَلٌ لِدَوَابِّ الْهَوَى تَمْضَعُ اللَّجَمَ حُبًّا لِلْعَلَفِ، إِذَا مَاتَ الْمُقْصِرُ تَشَبَّثَ الرُّوحُ بِالْجَسَدِ تَقُولُ: مَا أَحْبُّ أَنْ تَبْرَحَ، وَإِذَا مَاتَ الصَّالِحُ تَشَبَّثَ الْجَسَدُ بِالرُّوحِ، الْجَسَدُ يَقُولُ خُذْنِي مَعَكَ. وينشد:

سَارُوا وَأَقَامَ فِي فُؤَادِي كَمَدٌ لَمْ يَلْقَ كَمَا لَقِيتُ وَقَلْبِي أَحَدٌ
شَوْقٌ وَجَوَى وَنَارٌ وَجِدٍ تَقْدٌ مَا لِي جَلَدٌ ضَعُفَتْ مَا لِي جَلَدٌ

رَوَى أَحْمَدُ حَدَّثَنَا وَهَبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ جَاءَهُ ابْنُ النَّبَّاحِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ امْتَلَأْ بَيْتَ الْمَالِ مِنْ صَفَرَاءَ وَبَيْضَاءَ. قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ. قَالَ: فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى ابْنِ النَّبَّاحِ حَتَّى قَامَ عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَالِ لِلْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَقُولُ: يَا صَفَرَاءُ يَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي هَا وَهَا حَتَّى مَا بَقِيَ فِيهِ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ. ثُمَّ أَمَرَ بِنَضْحِهِ وَصَلَّى فِيهِ رُكْعَتَيْنِ.

قَالَ ضِرَارُ بْنُ ضَمْرَةَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلِيًّا فِي بَعْضِ مُوَافِقِهِ وَقَدْ أَرَخَى اللَّيْلُ سُجُوفَهُ وَغَارَتْ نُجُومُهُ، وَقَدْ مَثَلَ فِي مِحْرَابِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلَّمُ تَمَلُّمَ السَّلِيمِ وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ كَأَنِّي أَسْمَعُهُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيَّ تَعَرَّضْتَ أَمْ بِي تَشَوَّقْتَ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، وَقَدْ بَتَّلْتُكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ لِي فِيكَ فَعُمُرُكَ قَصِيرٌ، وَعَيْشُكَ حَقِيرٌ، وَخَطْرُكَ كَثِيرٌ إِلَّا مِنْ قِلَّةِ الرَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ.

كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ خَطَبَ فَاطِمَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَنْتَظِرُ

بِهَا الْقَضَاءُ». فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ، فَقَالَ: رَدَّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَحَطَبَهَا عُمَرُ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ: لَعَلِّي أَخْطُبُ فَاطِمَةَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا حَاجَتُكَ؟» قَالَ: ذَكَرْتُ فَاطِمَةَ. فَقَالَ: «مَرْحَبًا وَأَهْلًا». فَأَخْبَرَ النَّاسَ بِمَا قَالَ. فَقَالُوا: قَدْ أَعْطَاكَ الْأَهْلَ وَالْمَرْحَبَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا تُصَدِّقُهَا؟» قَالَ: مَا عِنْدِي أَصْدُقُهَا. قَالَ: «فَأَيْنَ دِرْعُكَ الْخُطْمِيَّةُ؟» قَالَ: عِنْدِي، قَالَ: «أَصْدُقُهَا إِيَّاهَا»، فَتَزَوَّجَهَا فَأَهْدَيْتَ لَهُ وَمَعَهَا حَمِيلَةٌ وَمِرْفَقَةٌ مِنْ أَدَمَ حَشَوْهَا لَيْفٌ وَقِرْبَةٌ وَمُنْخُلٌ وَقِدْحٌ وَرَحًا وَجَرَّتَانِ وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ وَمَا لَهَا فِرَاشٌ غَيْرُ جِلْدِ كَبْشٍ يَنَامَانِ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ وَيُغْلَقُ عَلَيْهِ النَّاصِحُ بِالنَّهَارِ. وَكَانَتْ هِيَ خَادِمَ نَفْسِهَا بِاللَّهِ مَا ضَرَّهَا ذَلِكَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهَا: «أَلَا تَرْضَيْنِ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأَمَةِ» - أَوْ - «نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ»؟

وعظ وفصاحة:

لَمَّا تَبَخَّرَ جَمَالُ فَاطِمَةَ فِي جَلْبَابٍ كَمَالِهَا حِينَ شُرُوعِ الشَّرْعِ فِي وَصْفِ جَلَالِهَا نَهَضَ الصَّدِيقُ خَاطِبًا لَهَا فِي خِطَابِهِ فَسَكَتَ الرَّسُولُ عَنْ جَوَابِهِ، فَتَهَضَّ عُمَرُ نَهْضَةَ اللَّيْلِ مِنْ غَابَةِ، فَلَمْ يُجِبْ فَاشْتَدَّ الْجَوَى بِهِ، فَلَمَّا نَهَضَ عَلِيٌّ عَلَى أَقْدَامِهِ لِيُخَاطِبَهَا وَجَدَ الْوَحْيَ قَدْ سَبَقَهُ قُدَّامَهُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ، فَزَوَّجَهَا فِي صَفَرٍ وَبَنَى بِهَا فِي ذِي الْحِجَّةِ، فَوَلَدَتْ لَهُ الْحَسَنَ فِي نِصْفِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَوَلَدَتْ لَهُ الْحُسَيْنَ لِثَلَاثِ خَلَوْنَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاضِعًا الْحَسَنَ بَنَ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ». وَقَدْ رَوَى أَبُو سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ». شعر:

حُبُّكُمْ يَنْفَى عِنْدَ الْمَرْءِ الظَّنَّ
شُكْرًا لِهَاتِيكَ الْمِنَّةَ
غَيْرُودِ النَّاسِ إِيَّاكُمْ ثَمَنَ
لَعَنَ اللَّهُ الْهَوَى فِيمَنْ لَعَنَ

يَا بَنِي بِنْتِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
إِنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا مِنَّْا حُبُّكُمْ
أَنْتُمْ مَنْ لَمْ يُرَدْ مُعْطَى الْهُدَى
أَنَا عَبْدُ الْحَقِّ لَا عَبْدُ الْهَوَى

السَّجْع:

سُبْحَانَ مَنْ كَسَى أَهْلَ الْبَيْتِ نُورًا، وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يَبْقَى الرَّجْسَ
وَسُورًا، فَإِذَا تَلَقَّوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَلَقَّوْا حُبُورًا، ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ
مَشْكُورًا﴾ ﴿٢٢﴾.

مَنْ مِثْلُ عَلِيٍّ؟ مَنْ مِثْلُ فَاطِمَةَ؟ كَمْ صَبَّوْا عَلَى أَمْوَاجِ بِلَايَا مِتْلَاطِمَةِ وَأَثَرُوا
الْعَفْرَاءَ وَنَارَ الْجُوعِ خَاطِمَةَ، فَلَهُمَا نَصَارَةُ الْوُجُوهِ وَالْأَهْوَالُ لِلْوُجُوهِ خَاطِمَةُ، يَا
سُرْعَانَ مَا انْقَلَبَ حُزْنُهُمْ سُرُورًا، ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٢٢﴾.

كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَلِيٌّ أَعَزَّ الْخَلْقِ عَلَيْهِ،
وَجَعَلَ اللَّهُ رِيحَانَتِيهِ مِنَ الدُّنْيَا وَلَدَيْهِ، فَإِذَا أَخْضَرَهُمُ الْحَقُّ غَدًا عِنْدَهُ وَلَدَيْهِ أَكْرَمَهُمْ
إِكْرَامًا عَظِيمًا مَوْفُورًا، ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٢٢﴾.

وَاعْجَبًا ذِكْرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ نَعِيمُ الْجَنَّاتِ، مِنَ الْمَلْبُوسِ وَالْمَشْرُوبِ
وَالْمَطْعُومَاتِ وَالْأَرَائِكِ وَالْقُصُورِ وَالْعِيُونِ الْجَارِيَاتِ، وَلَمْ تُذَكَّرِ النِّسَاءُ وَهُنَّ
غَايَاتُ اللَّذَاتِ احْتِرَامًا لِفَاطِمَةَ أَشْرَفِ الْبَنَاتِ. وَمَنْ يَصِفُ الزَّهْرَاءَ لَا يَذْكُرُ
حُورًا، ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٢٢﴾ [الإنسان: الآية ٢٢].

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا إِيمَانًا بِكَ، وَكِفَافًا مِنْ رِزْقِكَ. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْعِفَّةَ وَالْعَافِيَةَ.
اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنَ النُّعْمَةِ تَمَامِهَا، وَمِنَ الْعِصْمَةِ دَوَامِهَا، وَمِنَ الرَّحْمَةِ شُمُولِهَا،
وَمِنَ الْعَافِيَةِ حُصُولِهَا، وَمِنَ الْمِنَّةِ كَمَالِهَا، وَمِنَ الْمَحَنِّ زَوَالِهَا.

اللَّهُمَّ شَرِّفْنَا بِالتَّقْوَى، وَجَمِّلْنَا بِالْعَافِيَةِ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِذُرِّيَّتِنَا
وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَذُرِّيَّتِهِ الطَّاهِرِينَ أَجْمَعِينَ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

المَجْلِسُ الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُونَ

فِي فَضْلِ عَائِشَةَ وَأَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الْقَدِيمِ، الْمَاجِدِ الْعَظِيمِ، الْمَنَّانِ الْكَرِيمِ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَنْعَمَ بِالْعَطَايَا فَإِنْعَامُهُ عَمِيمٌ، وَسَتَرَ الْخَطَايَا فَهُوَ الْحَلِيمُ، ابْتَلَى بِمَا شَاءَ وَهُوَ بِمَا يَكُونُ عَلِيمٌ، فَالْوَاجِبُ مِنْ بَلَايَةِ الرِّضَاءِ وَالتَّسْلِيمِ، سَافَرَتْ عَائِشَةُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ يَخْصُصُهَا بِالتَّقْدِيمِ، فَانْتَرَحَتْ لِشُغْلِهَا وَالشُّغْلُ بِهَا عَظِيمٌ، فَحَمَلُوا هُوْدَجَهَا ظَنًّا أَنَّهُ فِي الْكِنَاسِ الرَّيْمِ، فَصَادَفَهَا صَفْوَانٌ وَقَلْبُ الرَّجُلِ سَلِيمٌ، فَبَلَعَهَا قَوْلُ: مَنْ بَاتَ يَأْفُكُ وَيَفْتِكُ وَيَهْتِكُ الْحَرِيمَ، فَمَا زَالَ السَّلِيمُ يَبْكِي مِثْلَ بُكَاءِ السَّلِيمِ حَتَّى بَدَأَ هَلَالُ الْهُدَى فِي فَيْلِ الْبَلَاءِ الْبَهِيمِ، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَرُهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

أَحْمَدُهُ كُلَّمَا عَمَّتِ الْغَافِلِينَ غَفْلَاتُهُمْ، وَأَصَلَّنِي عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي هَلَكَتْ بِهِ عُرَاؤُهُمْ وَلَا تُتْهُمْ، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي سُلِّمَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ الْمَوْتِ صَلَوَاتُهُمْ، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي تَقَوَّمَتْ بِهِ حَالَاتُهُمْ، وَعَلَى عُثْمَانَ مُنْفِقِ الْمَالِ إِذَا حَافَتْ بِالْبُخْلَاءِ أَفَاتُهُمْ، وَعَلَى عَلِيٍّ الرَّاهِدِ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَنَعَتْ أَرْبَابَهَا شَهَوَاتُهُمْ، وَعَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ الطَّاهِرَاتِ اللَّوَاتِي نَزَهَتْ جِهَاتُهُمْ، ﴿الَّتِي أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ أَخِذِ الْبَيْعَةِ لَهُ عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا حُمِدَتْ مَسْعَاتُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور: الآية ١١]، أَجْمَعَ

المُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا بَعْدَهَا نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَالْإِفْكُ الْكَذِبُ وَالْعُصْبَةُ الْجَمَاعَةُ.

وفي المُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ قَوْلَانِ:
أَحَدُهُمَا: عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ.

وَالثَّانِي: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَائِشَةُ. وَالْمَعْنَى تُوَجَّرُونَ، وَالْأَجْرُ يُعْطَى الْمَكْرُوهَ. وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلْإِنْسَانِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَا سَلِمَ أَحَدٌ مِنْ شَرِّ النَّاسِ، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الْعُصْبَةِ الْكَاذِبَةِ، ﴿اَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: الآية ١١] أَيْ: جَزَاءُ مَا اجْتَرَحَ مِنَ الذَّنْبِ عَلَى قَدْرِ خَوْضِهِ فِيهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُقَدِّمُ عَائِشَةَ عَلَى جَمِيعِ أَزْوَاجِهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ وَرَجُلٌ يَحْمِلُكَ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَقُولُ إِنَّ يَكُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ يُمِضُهِ».

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَتَزَوَّجَ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ، ثُمَّ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، وَتَزَوَّجَ حَفْصَةَ فَطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً فَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرَا جَعَ حَفْصَةَ فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ فَرَا جَعَهَا.

وَتَزَوَّجَ أُمَّ سَلَمَةَ، وَأُمَّ حَبِيبَةَ، وَزَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، وَزَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ، وَجُؤَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ وَقَدْ كَانَ أَصَابَهَا فِي غَزَاةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَوَقَعَتْ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فَكَانَتْهَا فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابَتَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ بِذَلِكَ أَرْسَلُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ سَبَايَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَأَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ. وَتَزَوَّجَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيٍّ، وَمَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ.

وَكَانَ آثَرُ الْكُلِّ عِنْدَهُ عَائِشَةُ وَبَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ.

وَفِي أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلَتْ وَادِيًا فِيهِ شَجَرٌ قَدْ أُكِلَ مِنْهَا وَوَجَدْتَ شَجَرًا لَمْ يُؤْكَلْ مِنْهَا فِي أَيِّهِمَا كُنْتَ تَرْتَعُ؟

قَالَ: «فِي التَّيِّ لَمْ يَزَعْ مِنْهَا أَحَدٌ» - يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرٍّ غَيْرَهَا - . شعر:

مِنَ الْعَارِ بَعْدَ الْمُتَجِدِّينَ هُجُوعِي وَعَذْرُهُمْ أَنْ لَا تَسْحَ دُمُوعِي
وَلِي زَفَرَاتٌ كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا يَقُومُ مِنْهُنَّ اغْوَجَا جُ ضُلُوعِي
سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الدِّيَارِ فَإِنَّهَا دِيَارِي الَّتِي أَشْتَاقُهَا وَرُبُوعِي

مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ، إِنَّهُ مِنْذُ فَارَقَهُ أَخَذَ الْجِسْمُ فِي الذُّبُولِ، وَاحْسَرَتَا مَا أَحَرَ الْفِرَاقَ وَأَغْلَقَ نِيرَانَهُ بِالْكَبُودِ، كَانَ مِعْوَلُ الْأَحْزَانِ يَنْقُبُ قَلْبَ أَبِي بَكْرٍ وَالنَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ إِلَى أَنْ عَرَقَبَ الْأَسَاسَ فَوَقَبَ^(١) حَائِطُ الْعَمْرِ. وينشد:

وَخِيَالِ الْجِسْمِ لَمْ يُخْلَلْهُ الْهَوَى لَحْمًا فَيَخْلُهُ السَّقَامُ وَلَا دَمًا
وَخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتَ خُفُوقَهُ يَا جَنَّتِي لَطَنَنْتِ فِيهِ جَهَنَّمََا
وَاشْوَاقُهُ إِلَى تِلْكَ الْوُجُوهِ وَاطْرَبَا عِنْدَ تِلْكَ الْقُبُورِ

إِخْوَانِي، تَعَالَوْا نَنْدُبِ الذُّنُوبَ السَّالِفَاتِ، وَالطَّاعَاتِ الْفَانِيَاتِ، وَنَبْكِي عَلَى كُلِّ قَلْبٍ كَانَ حَيًّا فَمَاتَ، تَخَلَّفْنَا فِي الْبَيْدَاءِ وَالْقَوْمُ فِي الْعَرَافَاتِ. وينشد:

كَتَمْتُ اسْمَ الْحَبِيبِ مِنَ الْعِبَادِ وَرَدَدْتُ الصَّبَابَةَ فِي فُؤَادِي
فَيَا شَوْقِي إِلَى بَلَدٍ خَلِّي لَعَلِّي بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى أَنْادِي

كَانَتْ عَائِشَةُ شَدِيدَةً مَحَبَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لَهَا. فَلَمَّا آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا نَزَلَ لِتِسْعِ وَعَشْرِينَ. فَقَالَتْ لَهُ: حَلَفْتَ شَهْرًا. فَقَالَ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعَشْرُونَ». فَقَالَتْ: طَالَ عَلَيْنَا زَمَنُ الْهَجْرِ فَقَصَرَتْهُ بِالْحِسَابِ. شعر:

عَدَدْتُ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لَا أَعُدُّ اللَّيَالِيَا

يَا عَائِشَةُ مَا هَذَا الشَّوْقُ الشَّدِيدُ؟ قَالَ لِسَانُ حَالِهَا: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرَّحْمَنُ: الْآيَةُ ٦٠]؟ لَمَّا جَرَتْ كَلِمَاتٌ مِنْ عَفِيفَةٍ مَا فَجَرَتْ بَلْغَ الْحَسُودِ مَا تَمَنَّى يَوْمَ إِنْ كُنْتُ هَمَمْتُ وَكَانَ أَضْعَبُ مَا عُرِضَ إِعْرَاضُ كَيْفَ تِيكُمْ

وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِي عَلَيَّ صُدُودُكُمْ فَتَجَلَّدَ جِلْدَ الصَّبْرِ عَلَى حَمْلِ أَثْقَالِ الْبُعْدِ إِلَى أَنْ تَعْلَلَ بِالْمُشَاوَرَةِ حَتَّى بَلَغَ الْبَحْثُ عَنِ الْبَرَاءَةِ إِلَى بَرِيرَةَ. قَالَ لِلْمَرْأَةِ: مَا تَعْلَمِينَ مِنْ عَائِشَةَ. وينشد:

أَلَا أَيُّهَا الرَّكْبُ الْيَمَانُونَ عَرَّجُوا عَلَيْنَا فَقَدْ أَمْسَى هَوَانًا يَمَانِيًّا

قال: فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُ الْبَلَاءِ أَجَلَهُ حُلَّتْ مُرَاجَعَةُ الْوِصَالِ فَانْعَقَدَ عَقْدُ التَّرَكِّيَةِ بِنُزُولِ الْبَرَاءَةِ فَكَانَتْ أَشْرَفَ مِنْ كِتَابِ مَهْرَ ظَنِّ الْحَسُودِ إِلَّا جَمَعَ فَإِذَا الدَّارُ مِنِّي. ويقال: وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ السَّتِينَ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا. فَتَدْبَهَا الْأَبُّ إِلَى اسْتِرْضَاءِ الْبُعْلِ قُومِي فَقَبِّلِي، فَعَلِمْتَ الْحَبِيبَةَ أَنَّهُ قَدْ أَغْنَى عَنْ شَفِيعٍ فَحَمَلَتْ عَلَى عَرَضِ الْإِعْرَاضِ عِلَاقَةَ الْإِدْلَالِ بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ.

إخواني، فَضَائِلُ عَائِشَةَ كَثِيرَةٌ بَعْضُهَا يَكْفِي وَبِحَسْبِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَاتٍ يُتْلَى فِيهَا.

رَوَى أَحْمَدُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَخَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسٍ دَحِيَّةٍ وَهُوَ يُكَلِّمُ رَجُلًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْتُكَ وَاضِعًا يَدَكَ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسٍ دَحِيَّةٍ الْكَلْبِيِّ وَأَنْتَ تُكَلِّمُهُ. قَالَ: «أَوْ رَأَيْتِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «ذَلِكَ جَبْرِئِلُ وَهُوَ يُقَرِّتُكَ السَّلَامَ». قَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَانْظُرُوا إِخْوَانِي كَيْفَ لَمْ يُوَاجِهِهَا جَبْرِئِلُ بِالسَّلَامِ لِأَجْلِ زَوْجِهَا فَمَنْ هَذِهِ حَالَتُهَا مَعَ جَبْرِئِلَ كَيْفَ يَجُوزُ عَلَيْهَا الرُّؤُوسُ وَالْأَبَاطِيلُ.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَقُلُوبُهُمْ بِالْفَرَحِ عِنْدَ مَدْحِ عَائِشَةَ طَائِشَةً، وَأَمَّا الرَّافِضَةُ فَيَأْخُذُهُمْ حُمَى النَّافِضَةِ.

وعظ:

إخواني، مَاتَ أَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَخَلَّتِ الدِّيَارُ، ذَهَبَ الْمُجَاهِدُونَ وَمُحِيتِ الْأَثَارُ، وَمَا بَقِيَ غَيْرُ قُبُورِ الْقَوْمِ تَزَارُ، وَاعْجَبَا مِنْ أَحْيَاءٍ تَمُوتُ بِرُؤْيَيْهِمِ الْقُلُوبُ، وَمِنْ أَمْوَاتٍ تَحْيَا بِزِيَارَتِهَا النُّفُوسُ. وينشد:

يَا صَاحِبِي سَلَا الْأَطْلَالَ وَالِدَمْنَا مَتَى يَعُودُ إِلَى الْأَوْطَانِ مَنْ ظَعَنَّا
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ قَوْمًا مَا ذَكَرْتُهُمْ إِلَّا تَحَدَّرَ مِنْ عَيْنِي مَا خُزِنَا
اشْتِيَاقُهُمْ كَاشْتِيَاقِ الْأَرْضِ وَإِلَيْهَا وَالْأُمِّ وَاجِدَهَا وَالْغَائِبِ الْوَطْنَا

وعظ:

يَا مَنْ كَانَ لَهُ مَشْرَبٌ فِي الْمَحَبَّةِ فَتَكَدَّرَ، يَا مَنْ كَانَ عَلَى جَادَةِ طَرِيقِ
مُسْتَقِيمَةٍ فَتَعَثَّرَ، انْتَدَبَ لِلنَّدْبِ عَلَى مَا أَصَابَكَ وَافْرَعَ بِابِكَ أَسْفًا عَلَى مَا نَابَكَ،
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمُحْسِنَ حَيٌّ وَإِنْ مَاتَ، وَالْمُسِيءُ مَيِّتٌ وَإِنْ كَانَ فِي الْحَيَاةِ، يَا لَهَا
مِنْ مَوَاعِظَ لَوْ وَجَدْتُ سَامِعًا وَجَوَاهِرَ، لَوْ رَأْتُ جَامِعًا وَسِلَعَ نَصَائِحَ لَا تَرَى لَهَا
مُشْتَرِيًا وَلَا بَائِعًا. شعر:

يَا خَلِيلِي فِي الْقَلَائِدِ عِنْدِي كَثِيرَةٌ فَاطْلُبُوا لَهَا أَجْيَادًا
كُلَّمَا اسْتَنْهَضْتُهُمْ كَلِمَاتِي ضَرَبُوا فِي ذُيُولِهِمْ أَوْتَادًا
وَأَسْفًا أَصِفُ عَنَقَاءَ مُغْرِبًا وَأَجَلُ رُزْمَةً مَا لَهَا مُشْتَرٍ لَكِنْ لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ
أُخْرِجَ الْحَزِينَ إِلَى بُسْتَانٍ لَعَلَّ غَمَّهُ يَقِلُّ هَذَا بُسْتَانُ وَصَفِ الْمُحِبِّينَ فَإِنْ كَانَتْ بِكَ
زَكَمَةٌ تَمْنَعُ شَمَّ رِيحَانٍ فَافْتَحْ عَيْنِكَ تَرَى الْخُضْرَةَ. وينشد:

يَا صَاحِبِي قَضِيبُ الرُّنْدِ رِيَانُ
وَالْبَدْرُ مُلْتَحِفٌ وَالصُّبْحُ غُرِيَانُ
وَالنَّرْجِسُ الْعَضُّ سَاهٍ وَالْعَمَامُ نَدٍ
وَالظَّلُّ فِي طَرْدِ الرِّيحَانِ حَيْرَانُ
قِفَا لَنَا بِعَسَى بِالذِّكْرِ وَاخْتَلَسَا لُبِّي
فَقَدْ نَفَحَ النَّسْرِينُ وَالْبَانَ
أَوْ عَرَضَا بِهَوَى حُبِّي قَلْبِي وَلَهُ
فِي مَوْقِفِ الْوُدَّانِ عَرْضُتُمَا شَانُ
فَالْيَاسُ وَرِدِّي إِذَا سُحِبَ الْمُنَا
هَطَلْتُ وَالصَّبْرُ زَادِي إِذَا أَهْلُ الْحَمَى خَانُوا

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ

لَأُمِّ سَلَمَةَ: «لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ وَاللهَ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ غَيْرَهَا». هِيَ اخْتِيَارُ الْعَظِيمِ الْعَلِيِّ لِلنَّبِيِّ، وَمِنْ طُفُولَتِهَا تُعَرَّفُ بِالْعَزِّ الْأَبِّيِّ، وَلَهَا عَقْلُ الْكِبَارِ فِي سِنِّ الصَّبِيِّ، وَهَلْ يَضُرُّهَا قَوْلُ الْجَهْلُولِ الْعَبِيِّ؟ أَوْ يَقْدَحُ فِي رِيحِ الْمِسْكِ الذِّكْرِيِّ إِلَّا يَهَيِّمُ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مَا تَزَوَّجَ الرَّسُولُ بِكْرًا سِوَاهَا، وَلَا أَحَبَّ زَوْجَةً كَحُبِّهِ إِيَّاهَا جَاءَهَا جَبْرِئِيلُ فِي سَرَقَةٍ فَجَلَّاهَا وَتَكَلَّمَ اللهُ بِإِرَاءَتِهَا، سُحَّانَ مَنْ أَعْطَاهَا، وَمَا يَرْمِي الْأَصْحَاءَ بِالسُّقْمِ إِلَّا سَقِيمٌ، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مَا خَفَا عَلَى حُسَادِهَا طَهَارَةُ ذَيْلِهَا، وَخِيلَهَا غَيْرَ أَنَّ الطَّبَاعَ الرَّدِيَّةَ فِي مِيلِهَا، هَجَمَتْ عَلَيْهَا الْأَحْزَانُ بِرَجْلِهَا وَخِيلَهَا. فَكَانَتْ طُولَ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا تَبْكِي بُكَاءَ الْيَتِيمِ، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

تَكَلَّمُوا فِيهَا بِتُرَّهَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَرَامُوا أَدَمَ السَّمَاءِ وَهَيْهَاتَ، يَا عَابِيهَا إِنْ عَرَفْتَ عَيْنًا فَهَاتِ، كَفَانَا اللهُ شُرْمَ عُقُوقِ الْأُمَّهَاتِ، فَإِنَّهُ فَبِيحَ دَمِيمٍ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مَا كَانَ سِوَى عَيْنٍ غَمَّ تَجَلَّى وَانْصَرَفَ الْحُزْنُ وَتَوَلَّى، بِالْفَرْجِ الَّذِي تَوَلَّى، وَلَيْسَ الْمَمْدُوحُ أَحْسَنَ الْحُلِيِّ وَتَجَلَّى، وَتَوَلَّى الْقَادِحُونَ إِنْثَامًا وَكَلًّا أَيْقَدَحُ الْعُقَلَاءُ فِي أُمَّهَاتِهِمْ كَلًّا وَهِيَ مِنْهُمْ عَقِيمٌ، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

حُوشِيَتْ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ أَوْ رَيْبٍ أَوْ فُجُورٍ، إِنَّمَا زِيدَتْ بِمَا جَرَى فِي الْأَجُورِ، لِتَرْهَبَ أُمُّ الْعَدُولِ أَوْ تَجُورَ، وَإِنَّمَا وَقَعَتْ فِي أَغْبَاشِ ظَلَامٍ دَنِيْجُورٍ، ثُمَّ بَانَ النُّورُ فِي سُورَةِ النُّورِ فَتَزَلَّ فِي الْكِتَابِ الْقَوِيمِ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

اللَّهُمَّ خَلِّصْنَا مِنْ ذُنُوبِنَا، وَطَهِّرْنَا مِنْ عُيُونِنَا. اللَّهُمَّ إِنَّا آمَنَّا وَبَيْنَ لَنَا. اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ خَوْفَنَا مِنْكَ قَاطِعًا لِرَجَائِنَا لَكَ. اللَّهُمَّ بِأَحْسَنِ الصُّحْبَةِ عَلَّمْنَا بِحِلْمِكَ بَعْدَنَا مِنْكَ فَقَرَّبْنَا، وَمَخَافَتِكَ تَوَمَّنًا مِنْكَ فَأَهْدِنَا يَا مَنْ يَدُهُ بِالْعَطَاءِ ابْسُطْ مِنْ أَلْسِنَتِنَا بِالْدُعَاءِ وَاعْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِذُرِّيَّتِنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ الرَّابِعُ والثَّلَاثُونَ فِي فَضْلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْعَقْلَ سِرَاجًا لِأَرْبَابِ الْحَقَائِقِ بِبَصَائِرِ الْيَبَّانِ، وَأَوْدَعَهُ مِنْ أَسْرَارِ سَرَائِرِ رَحْمَتِهِ^(١) مَا لَا تَصِلُ إِلَى إِدْرَاكِهِ سَوَابِقُ الْأَذْهَانِ، وَأَبْدَعَ مِنْ لَالِي أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ الْبَرْهَانِي مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ عَالَمِ الْإِنْسَانِ، وَأَنْطَقَ بِمَوَادِّ فَيْضِ شَمْسِهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْبَسِيطَةِ كُلِّ لِسَانٍ، فَقَالَ مَنْ شَهِدْتُ بِكَمَالِهِ قَوَاطِعِ الْبُرْهَانِ، ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن: الآيتان ١، ٢] قَدَحَ زِنَادَ الْحِكْمَةِ بِأَحْجَارِ الْقَهْرِ فَتَنَجَ مِنْ اخْتِكَائِكَ أَحْجَارَهَا وَجُودُ الزَّمَانِ، وَبَسَطَ بِسَاطَ صُنْعَتِهِ عَلَى صَفَحَاتِ الْمَوْجُودَاتِ دَلَالَةً عَلَى وَجُودِهِ قَبْلَ خَلْقِ الْمَكَانِ، وَأَلَفَ بَيْنَ أَجْزَائِهَا الْمُتَضَادَّةِ فِي التَّرْكِيبِ كَمَا فَرَّقَ بَيْنَهَا فِي الصُّورِ وَالْأَلْوَانِ، وَفَضَّلَ عَلَى جَمِيعِ النُّسَخِ نُسْخَةَ عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَالْعَيَانِ، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٢) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٣)﴾ [الرحمن: الآيتان ٣، ٤]، كَحَلِّ عُيُونِ الْعَنَاصِرِ بِمَرَاوِدِ الْأَمْرِ فَقَارَ مِنْ بَيْنِهِمَا بُخَارُ كَالِدُحَانٍ، وَفَتَقَ رَبْقَهُ عِنْدَ التَّكَائُفِ مِنْ غَيْرِ خَاصِيَّةٍ وَلَا أَعْوَانٍ، فَقَامَتِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ بِأَمْرِهِ تَرْفُلُ فِي حُلَلِ الزُّمُرِّدِ وَالْعَقِيَانِ، وَنَثَرَ دَنَائِيرَ الشُّهْبِ عَلَى زُرْقَةِ وَجْهِ السَّمَاءِ فَكَانَتْهَا عُيُونُ رُومٍ فِي مَحَاجِرِ سُودَانٍ.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن: الآية ٥]، جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ

(١) وفي نسخة حكمته.

يَتَعَاقَبَانِ عَلَى مَدَدِ الْأَرْمَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية ٦]، وَالسُّحُبُ أَمْطَرَهَا بِالْوَابِلِ الْمَتَّانِ، صَنَعَةً ظَاهِرَةً تَشْهَدُ لَهُ بِالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ فِي كُلِّ أَوَانٍ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية ٧]. فَانْظُرُوا إِلَى الْبَدْرِ كَيْفَ يَرْفُلُ عِنْدَ التَّمَامِ فِي ثِيَابِ الْعُنْفَوَانِ، وَكَيْفَ قَدْرُهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ عِنْدَ النُّقْصَانِ.

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ فِيهَا فَكِيهَةٌ ﴿وَالنَّحْلُ ذَاتُ الْآكَامِ﴾ [١١] وَلَحَبٌ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿﴾ [الرَّحْمَنُ: الآيات ١٠ - ١٢].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا دَائِمًا مُتَرَدِّدًا عَلَى نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ، حَمْدًا لَا يَكِلُ مِنْهُ لِسَانٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَطَعَ بِقَوَاطِعِ الْبُرْهَانِ عَبْدَةَ الْأَوْثَانِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَجَمِيعِ أَصْحَابِهِ صَلَاةً دَائِمَةً فِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ وَسَلَمَ تَسْلِيمًا.

قال الله العظيم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَهِدَ لَهُ بِالرِّسَالَةِ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَهُ ﴿أَشِدَّاءُ﴾، وَهُوَ جَمْعُ شَدِيدٍ، وَالرُّحَمَاءُ جَمْعُ رَحِيمٍ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يُغْلَظُونَ عَلَى الْكُفَّارِ وَيَتَوَادُّونَ بَيْنَهُمْ.

﴿تَرَبَّؤُا لَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾، يَصِفُ كَثْرَةَ صَلَوَاتِهِمْ ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، وَهُوَ الْجَنَّةُ، ﴿وَرِضْوَانًا﴾ [الْفَتْحُ: الآية ٢٩] وَهُوَ رِضَاءُ اللَّهِ عَنْهُمْ وَهُوَ مَحَبَّتُهُ لَهُمْ.

وَاعْلَمُ أَنَّ فَضَائِلَ الصَّحَابَةِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ظَاهِرَةٌ، وَكَانَ لِسَبَبِ سَبْقِهِمْ سَبَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: خُلُوصُ الْبَوَاطِينِ مِنْ شَكٍّ بِقُوَّةِ الْيَقِينِ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: «مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ لِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَّ فِي صَدْرِهِ».

وَالثَّانِي: بَذَلَ النَّفْسَ بِالْمُجَاهَدَةِ وَالْاجْتِهَادِ. وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا جَرَى لِمُوسَى مَعَ أَصْحَابِهِ، وَعَلِمَ صَبْرَ صَحَابَتِنَا، وَلَمَّا اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ الْمِقْدَادُ: لَوْ ضَرَبْتَ بَطُونَهَا حَتَّى تَبْلُغَ بَرَكَ الْعِمَادِ لَتَابَعْنَاكَ وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا.

وَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَ أُحُدٍ: يَقُولُ: نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ. قَالَ أَبُو مُوسَى: كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ أَرْبَعُونَ أَلْفًا مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ رَوَى عَنْهُ وَسَمِعَ مِنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَنِي وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابًا فَجَعَلَ مِنْهُمْ وُزَرَآءَ وَأَنْصَارًا وَأَصْهَارًا فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». شعر:

وَأَسَفًا مِنْ فِرَاقِ قَوْمٍ	هُمُ الْمَصَابِيحُ وَالْحُصُونُ
وَالْمُزْنُ وَالْأَمْنُ وَالرَّوَاسِي	وَالْخَيْرُ وَالْعَقْلُ وَالسُّكُونُ
لَمْ تَتَغَيَّرْ لَنَا اللَّيَالِي	حَتَّى تَوَفَّقَتْهُمْ الْمَنُونُ
فَكُلُّ نَارٍ لَنَا قُلُوبٌ	وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عُيُونُ

وعظ:

إِخْوَانِي، مَرَّ الْأَحْبَابُ عَلَى مَدْرَجَةٍ وَخِيُولُ الْبَاقِينَ عَلَى الرَّحِيلِ مُسَرَّجَةً، يَا مَنْ شَاخَ فِي الْأَوْسَاحِ إِلَى كَمْ تُمْلِئُ وَلَا تَمَلِّ، لَقَدْ أَنْعَبَتِ النَّسَاجُ، يَا مَنْ ضَيَّعَ الشَّبَابَ وَلَا يَسْمَعُ الْعِتَابَ وَقَدْ شَاخَ، تَأَهَّبْ لِلرَّحِيلِ فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا مَنَاحٌ، كَمْ بَاتَ مِنْ تَارٍ فِي بَيْتٍ فَأَصْبَحَ فِيهِ الصُّرَاحُ، الدُّنْيَا سُفْرَةٌ وَلَا عِبْهَا يُفْنِي الْبَيَادِقَ وَالرُّحَاحَ. وينشد:

خَفِ اللَّهُ وَانْظُرْ فِي صَحِيفَتِكَ	الَّتِي حَوَتْ كُلَّمَا قَدَّمْتَهُ مِنْ فِعَالِكَ
وَقَدْ خَطَّ مِنْهُ الْكَاتِبَانِ فَأَكْثَرَا	وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَقُولَا بِذَلِكَ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي إِذَا مَا لَقِيتُهَا	أَتَوْضَعُ فِي يُمْنِكَ أَمْ فِي شِمَالِكَ

وعظ:

أَيُّهَا الْمَشْغُولُ بِاللَّذَاتِ الْفَانِيَاتِ مَتَى تَسْتَعِدُّ لِمِلَمَّاتِ الْمَمَاتِ؟ أَتَطْمَعُ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا فِي لِحَاقِ السَّادَاتِ وَأَنْتَى نَجْعَلُكَ مِنْهُمْ وَأَنْتَى هَيْهَاتَ، يَا عَظِيمَ الْجُرْأَةِ

يَا كَثِيرَ الْإِنْسِاطِ أَمَا تَخَافُ عَوَاقِبَ هَذَا الْإِفْرَاطِ؟ أَلَيْكَ صَبْرٌ يُقَاسِي أَلَمَ السَّيَاطِ؟
أَلَيْكَ قَدَمٌ يَصْلُحُ لِلْمَشْيِ عَلَى الصَّرَاطِ؟ أَيْعِجِبُكَ لِبَاسُ الْبُصْحَبَةِ وَثَوْبُ الْبَلَاءِ
يُخَاطُ. وينشد:

وَكَمْ مِنْ فَتَى يُمَسِّي وَيُضْبِحُ آمِنًا وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي
إِخْوَانِي، يَا شِدَّةَ الْوَجَلِ عِنْدَ حُصُولِ^(١) الْأَجَلِ، يَا حَسْرَةَ الْفَوْتِ عِنْدَ
حُضُورِ الْمَوْتِ، يَا حَجَلَةَ الْعَاصِينَ، يَا أَسَفَ الْمُقْصِرِينَ. وينشد:

إِلَى حَتْفِي سَعَى قَدَمِي أَرَى قَدَمِي أَرَا قَدَمِي
فَمَا أَنْفَسَكَ عَنْ نَدَمِي فَهَانَ دَمِي فَهَانَ دَمِي

وعظ:

اسْتَلَبَ زَمَانُكَ يَا مَسْلُوبٌ، وَغَالِبَ هَوَاكَ يَا مَغْلُوبٌ، وَحَاسِبَ نَفْسِكَ
فَالْعُمُرُ مَحْسُوبٌ، وَامُحَ قَيْحِكَ فَالْقَبِيحُ مَكْتُوبٌ، وَاعَجَبًا لِنَائِمٍ وَهُوَ مَطْلُوبٌ،
وَلِضَاحِكٍ وَعَلَيْهِ ذُنُوبٌ. وينشد:

أَلَا ذَكَرَانِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْمَوْتُ وَعَرَفَنِي رَبِّي طَرِيقَ سَلَامَتِي
وَيُبْنَى لِجُثْمَانِي بِدَارِ الْبِلَاءِ بَيْتٌ وَبَصَّرَنِي لِكُنِّي قَدْ تَعَامَيْتُ
وَقَالُوا مَشِيبُ الرَّأْسِ يَحْدُو إِلَى الْبِلَاءِ فَقُلْتُ أَرَانِي قَدْ قُرْبْتُ وَدَانَيْتُ

فَضْلُ:

لِلَّهِ دَرُّ قَوْمٍ أَخْلَصُوا الْأَعْمَالَ وَحَقَّقُواهَا، وَقَيَّدُوا شَهَوَاتِهِمْ بِالْخَوْفِ
وَأَوْثَقُواهَا وَسَابَقُوا السَّاعَاتِ بِالطَّاعَاتِ فَسَبَقُواهَا، وَخَلَّصُوا أَعْمَالَهُمْ مِنْ
أَشْرَاكِ الرِّيَاءِ وَأَظْلَقُواهَا، وَفَهَرُوا بِالرِّيَاضَةِ أَعْرَاضَ النُّفُوسِ الرَّدِيَّةِ فَمَحَقُّواهَا،
فَعَنْ إِبْعَادِهِمْ وَقَعَ نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَقِ وَالْعَشْيِ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ ﷻ [الأنعام: الآية ٥٢]، خَلَّصُوا الْأَعْمَالَ مِنَ الْأَكْدَارِ نَفْلًا وَفَرْضًا،
وَاجْتَهَدُوا فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُمْ لِيَرْضَى، وَخَلَّصُوا أَنْفُسَهُمْ لَطَلَبِ الْحِطِّ الْأَحْظِ
حِطًّا، وَعَضُّوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ غَضِّ الشَّهَوَاتِ غَضًّا فَإِذَا أَبْصَرْتَهُمْ رَأَيْتَ أَجْسَادًا

(١) وفي نسخة حضور.

مَرْضَى، وَعُيُونًا قَدْ أَلْفَتِ الشَّهْرَ كَمَا تَكَادُ تَظْمَعُ غَمَضًا، بَادَرُوا أَعْمَالَهُمْ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا سَاعَاتٌ تُقْضَى فَأَمَدَهُمْ بِالْعَوْنِ السَّرْمَدِيِّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾.

ابْتَلَاهُمْ فَرَضُوا وَصَبَرُوا، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فَأَعْتَرَفُوا وَشَكَرُوا، وَجَاوُوا بِكُلِّ مَا يَرْضَى ثُمَّ اعْتَذَرُوا وَجَاهَدُوا الْعَدُوَّ فَمَا انْقَشَعَتِ الْحَرْبُ حَتَّى ظَفِرُوا، وَنَالُوا غَايَةَ الْإِمْكَانِ الْعَلِيِّ، ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: الآية ٥٢].

مَنْ صَعِدَ إِلَى السُّتَيْنِ تَعَبَ، مَنْ مَشَى إِلَى السَّبْعَيْنِ قَعَدَ، مَنْ قَارَبَ الثَّمَانِينَ وَقَعَ، مَا بَقِيَ لِلشَّيْخِ مِنْ مَنَاسِكِ حَجِّ الْعُمْرِ إِلَّا الْوِدَاعَ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ صَفًّا، أُمِّي مِنْهُمْ ثَمَانُونَ صَفًّا». وَرَوَى أَحْمَدُ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ حَكَمٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى». فَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَا صَبِيانَ الْهَوَى إِنْ تَرَكَ الْحُرُوفُ فَلِلذَّبْحِ يُؤَخَّرُ وَكَمْ يُسَلَّبُ رَضِيعٌ فَأَقْضُوا مَا أَمَرَ رَبُّكُمْ عَجَلًا، وَيَحَاكَ وَيَحَاكَ كُلَّمَا عَلَتْ سِنُّكَ وَقَعَتْ آجِرَةٌ مِنْ حَائِطِ عُمْرِكَ. وينشد:

إِذَا قَلَّ عَقْلُ الْمَرْءِ قَلَّتْ هُمُومُهُ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا مُقْلَةٍ كَيْفَ يَرْمُدُ
الْمُتَيْقِظُ يَذْكُرُ لُبْسَ الْكَفَنِ فَلَا يَلِدُّ لَهُ الْمَلَبْسُ وَيَتَفَكَّرُ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ
فَلَا يَطْعَمُ لَهُ مَطْعَمٌ وَيَتَصَوَّرُ قُرْبَ الرَّحِيلِ فَلَا يَظْمَرُنُّ لَهُ مَنَزِلٌ. وينشد:

وَلَمَّا وَقَفْنَا بِإِسْلَامٍ تَبَادَرَتْ دُمُوعِي إِلَى أَنْ كِدْتُ بِالْدَّمْعِ أَغْرُقُ
فَقُلْتُ لِعَيْنِي هَلْ مَعَ الْوَصْلِ عِبْرَةٌ فَقَالَتْ أَلْسِنَا بَعْدَهُ نَتَفَرَّقُ

وعظ:

وَيَحَاكَ أَتَذَرِي مَا صَنَعْتَ بِغَتِ الْقُرْبِ بِالْبُعْدِ، وَالْعَقْلِ بِالْهَوَى، وَالذِّينَ بِالدُّنْيَا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَلَا أَنْتَ مَعَ أَرْبَابِ الدُّنْيَا فِي لَدَاتِهَا، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْآخِرَةِ فِي عِبَادَاتِهَا مَا وَقَعَ بِبَيْدِكَ مِنَ النَّيِّدِ إِلَّا الْبَنْجُ تَضَعُ قَاعِدَةَ التَّوْبَةِ عَلَى طَرَفِ اللِّسَانِ فَإِذَا تَحَرَّكَتْ وَقَعَتْ مَا بَقِيَ لَذَّةُ الْخِيَانَةِ بِرَدَّةِ الْجِنَايَةِ، كَمْ ذَاقَ آدَمُ غُصَّةَ بَعْدَ تِلْكَ اللَّقْمَةِ، تُذْهِبُ اللَّذَّةَ وَيَرْسُبُ الْأَسْفُ، وَيَبْقَى عَضُّ الْيَدَيْنِ عَلَى قُبْحِ مَا سَلَفَ،

مَنْ قَلَّلَ فَمَ اللَّذَّةُ عَصَّتْهُ أَسْنَانُ النَّدَامَةِ مَضَتْ وَاللهُ اللَّذَاتُ، وَبَقِيَتِ التَّبِعَاتُ،
ذَهَبَ مَا فِي خَرِيْطَةِ شَهْرِكَ، وَبَقِيَتْ شَهْرَةُ الْخِيَانَةِ. تَاللهِ مَا يُسَاوِي النُّضَابُ خَجَلَ
الْفَضِيْحَةِ فَكَيْفَ بِالْمِ الْقَطْعِ. وينشد:

مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عَوْضٌ إِنْ مُتُّ شَوْقًا وَلَا فِيْهَا لَهَا ثَمَنٌ
وَيَحَكَ مَا خُلِفْتَ لِلدُّنْيَا إِنَّمَا هِيَ مَعْبَرَةٌ رَفِيْقَكَ قَيْسِي وَأَنْتَ يَمَانِي، وَيَحَكَ
مَا أَكَلْتَهُ فَلِجِسْمِكَ، وَمَا تَصَدَّقْتَ فَلِرُّوْحِكَ، وَمَا خَلَفْتَهُ فَلِغَيْرِكَ.

إخواني، إِلَى مَتَى يَقَعُ سِيَاطُ التَّوْبِيخِ فِي ظَهْرِ التَّفْرِيطِ وَمَا تَسْمَعُ أَنَّهُ مُعْتَذِرٌ
وَاهَا لِحَجَرِ قَلْبٍ تَعْجِزُ عَنْهُ عَصَى مُوسَى وَلِكَمِهِ بَصِيرَةُ لَا بُدَّ تُصْلِحُهُ رُفْيُ عَيْسَى،
وَيَحَكَ أَمَا لِهَذَا التَّرْحَابِ جَوَابٌ؟ أَسْتَعْجَلْتَ دَارَ نَعَمٍ فَكَلَّمْنَا يَا مَنْ كَاعَتِ
النَّصَائِحُ عَنْ إِصْلَاحِهِ، حَتَّى يَسْتُ مِنْ فَلَاحِهِ. وينشد:

لَيْسَ التَّعَرُّبُ أَنْ تَشْكُو نَوَى سَفَرٍ وَإِنَّمَا ذَاكَ فَقَدْ الْحُبُّ فِي الْوَطَنِ
اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا رُشْدَنَا. اللَّهُمَّ مَلِّكْنَا أَنْفُسَنَا. اللَّهُمَّ ذَكِّرْنَا عُيُوبَنَا. اللَّهُمَّ ارْزُقْ
مَنَارَ دِينِنَا، وَارْحَمْ دِمَارَ يَقِينِنَا. اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا مِنْ غَوَائِلِ الْبِدْعِ، وَأَمِّنَّا يَوْمَ الْخَوْفِ
وَالْجَزَعِ. وَاعْفُزْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا كَثِيرًا.

الْمَجْلِسُ الْخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ فِي فَضْلِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْخَالِقِ وَالْحَسَّاسِ، وَمُبْدِعِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ، الْقَوِيُّ فِي سُلْطَانِهِ، الشَّدِيدُ الْبَاسِ الْمُنْزَهُ عَنِ السَّنَةِ وَالنَّعَاسِ، الْمُخْرِجُ رَطْبَ الثَّمَارِ فِي يَابِسِ الْأَعْرَاسِ، نَفَذَ قَضَاؤُهُ فَلَمْ يَمْتَنِعْ بِاخْتِرَاسٍ، وَفَهَرَ عِزُّهُ كُلَّ صَعْبٍ، الرَّأْسِ لَا يَعْزُبُ عَنْ سَمْعِهِ حَرَكَاتُ الْأَضْرَاسِ، وَلَا دَبِيبُ ذَرِّ النَّمْلِ بِاللَّيْلِ فِي مَطَاوِي قِرطَاسٍ، نَفَذَتْ مَشِئَتُهُ. فَكَمْ مِنْ مُجْتَهِدٍ عَادَ بِالْيَاسِ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ بِمُقْتَضَى تَدْبِيرِ الْخَلْقِ وَالْقِيَاسِ، قَدَّمَ نَبِيَّنَا عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ وَبَرٍّ قَدْ بَرَّ وَسَاسَ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَجْزَلَ لَهُ الْعَطَاءُ وَجَعَلَهُ خَيْرَ نَبِيٍّ حَارَبَ وَسَطًا، وَقَالَ لِأُمَّتِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَدُومُ بِدَوَامِ اللَّحْظَاتِ وَالْأَنْفَاسِ، وَأُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي شَرَعُهُ مُسْتَقَرٌّ ثَابِتُ الْأَسَاسِ، وَعَلَى صَاحِبِهِ الثَّابِتِ بِالْغَرَمِ وَقَدْ ارْتَدَّ النَّاسُ، وَعَلَى عُمَرَ قَاهِرِ الْجَبَابِرَةِ وَالْأَشْرَاسِ، وَعَلَى عُثْمَانَ الصَّابِرِ يَوْمَ الشَّهَادَةِ عَلَى مَرِيدِ الْكَأَسِ، وَعَلَى عَلِيٍّ أَهْدَى الْجَمَاعَةَ إِلَى نَصِّ وَقِيَاسٍ وَعَلَى عَمِّهِ صِنُو أَبِيهِ الْعَبَّاسِ. قَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] وسطًا، أي: عدلًا خيارًا. ومثله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: الآية ٢٨] أي: خيرهم وأعدلهم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فِيدَعَى قَوْمُهُ فَيَقَالُ لَهُمْ هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقَالُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقَالُ: مَنْ أَعْلَمَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا وَأَعْلَمَنَا أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ بَلَّغَ». قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أَي: عَدْلًا، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

القول الثاني: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أَي: شُهَدَاءَ لِمُحَمَّدٍ عَلَى الْأُمَمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ، ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] بِأَعْمَالِكُمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ كَمَا فَضَّلَ نَبِيُّنَا عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ فَضَّلَتْ أُمَّتُهُ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ. وَأَعْلَمَ أَنَّ فَضِيلَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِاخْتِيَارِ الْحَقِّ لَهَا وَتَقْدِيرِهِمُ إِيَّاهَا، إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا كَمَا جَعَلَ سَبَبَ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ عِلْمُهُ بِمَا جَعَلُوا.

وَكَذَلِكَ جَعَلَ لِتَقْدِيرِهِمْ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَبَبًا هُوَ الْفِطْنَةُ وَالْفَهْمُ وَالْيَقِينُ وَالْعِلْمُ وَتَسْلِيمُ النُّفُوسِ، وَاعْتِبَارَ خَالَئِهِمْ بِمَنْ قَبْلَهُمْ. فَإِنَّ قَوْمَ مُوسَى رَأَوْا قُدْرَةَ الْخَالِقِ وَشَقَّ النُّجُومِ، قَالُوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨]، ثُمَّ مَالَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ فَقَالُوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾ [المائدة: الآية ٢٤]، وَلَمْ يَقْبَلُوا التَّوْرَةَ حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِمُ الْجَبَلُ.

وَلَمَّا اخْتَارَ سَبْعِينَ مِنْهُمْ، وَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ مَا أَوْجَبَ تَزَلُّلَ الْجَبَلِ.

وَلَمَّا صَعَدَ نَبِيُّنَا إِلَى جَبَلٍ حِرَاءٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ تَزَلُّزَ الْجَبَلُ فَقَالَ: اسْكُنْ حِرَاءَ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ، فَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ مِمَّنْ يُثْبِتُ كَقَوْمِ مُوسَى. وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَأَهُمْ قَدْ أَمَرُوا بِقَوْلِ: حِطَّةً. فَقَالُوا: حِطَّةً. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا أَبْوَابَ الْجَنَّةِ﴾ [النساء: الآية ١٥٤]، فَدَخَلُوا زَحْفًا. وَقَالُوا عَنْ نَبِيِّهِمْ هُوَادٍ وَمِنْ مَذْهَبِهِمُ التَّشْيِيهِ وَالتَّجْسِيمُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ التَّعْيِيرِ، لِأَنَّ الْجِسْمَ مُؤَلَّفٌ وَلَا بُدَّ لِلْمُؤَلَّفِ مِنْ مُؤَلِّفٍ. وَمِنْ غَفْلَةِ النَّصَارَى اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ اللَّهَ جَوْهَرٌ، وَالْجَوَاهِرُ تَمَاثُلٌ وَلَا مِثْلَ لِلْخَالِقِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: عَيْسَى

ابْنُهُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْإِبْنَ بَعْضُ وَالْخَالِقُ لَا، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ عِيسَى لَا يَقُومُ إِلَّا بِالطَّعَامِ وَالْإِلَهَ مَنْ قَامَتْ بِهِ الْأَشْيَاءُ لَا مَنْ قَامَ بِهَا. وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ صَفًّا أُمِّي مِنْهُمْ ثَمَانُونَ صَفًّا».

رَوَى أَحْمَدُ بْنُ يَزِيدَ، حَدَّثَنَا عَمِيرُ بْنُ حَكِيمٍ بْنُ مُعَاوِيَةَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَنْكُمْ تُؤْتُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى». وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا بِجُودِهِ وَفَضْلِهِ مَا لَسْنَا مِنْ أَهْلِهِ.

وعظ:

إِخْوَانِي، تَفَكَّرُوا فِي عَبَثِ الْبُكَاءِ بِإِخْوَانِكُمْ، وَاحْذَرُوا الْإِثْيَانَ بِعَذَابِ قَوْمِكُمْ وَأَقْرَانِكُمْ، وَانْظُرُوا قَبْلَ فِعْلِ الشُّكْرِ فِي إِصْلَاحِ شَأْنِكُمْ وَقَدْ شَاهَدْتُمْ بِغِنَائِكُمْ سَلَبَ أَغْنِيَانِكُمْ.

إِخْوَانِي، تَفَكَّرُوا فِي عَبَثِ الْبَلَاءِ بِإِخْوَانِكُمْ، وَاحْذَرُوا.

إِخْوَانِي، مَنْ مُنْكَرٍ مِنْ شَرَابِ الدُّنْيَا هَلَكَ مِنْ خِمَارِ الْهَوَى. وَيَحْكُ كَمَا أَقَرَّتِ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي الْخَرَبِ مَزَاجِ الْفَهْمِ مِنْ رَجُلٍ يَطْلُبُ بِلَادًا لَا قَبْلَ مَاتَ قَبْلَ انْقِضَاءِ السَّفَرِ.

ويحك سائل هل من سائل يبعث إليك ونفحات العفو يتعرض لك وأسباب المصالحة تصح بك. تعال نجدد عهد الرضى ونصبح في الحب عما مضى ونجد على سنن العاديين وأضمن عني وعنك الرضى.

وعظ:

لَيْتَكَ عَرَفْتَ قِيَمَةَ مَا ضَاعَ مِنْكَ، كُلُّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِكَ جَوْهَرَةٌ يُمَكِّنُ أَنْ تَشْتَرِيَ بِهَا خُلُودَ الْأَبَدِ فِي جَوَاهِلِ الْأَحَدِ بِإِخْرَاجِهَا فِي الْفَعْلَةِ حَسَرَاتٍ سَنِينٍ أَقْلَ مَا يَلْحَقُ الْمَتَوَانِي فُوتَ الْمَوْسَمِ مِنْ تَذَكُّرِ خَنْقِ الْفَخِّ هَانَ عَلَيْهِ تَرَكَ الْحَبَّةَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا شَبَاكَ مَقْصِدَهَا صَيْدَ الْعَقْلِ بِأَنْ طَهَّرَا يَدَ الطَّمْعِ، فَكَلِمَا فِي الْفَخِّ بَاغِرِيْقًا فِي بَحْرِ الْهَوَى لَا تَحْسِبَنَّ السَّبَاحَةَ كَمَنْ يَدُورُ حَوْلَكَ مَرْكَبَ فُضِيْحَةٍ يَنَادِيكَ ﴿يَبْنِي﴾

أَرْكَبَ مَعَنَا ﴿هُود: الآية ٤٢﴾، وَاعْجَبًا كُلَّمَا صَعَدَ سِنُّكَ نَزَلَتْ فُطْنَتُكَ، تَسْتَوْتِقُ مِنْ خَيْمَةِ الْإِقَامَةِ بوجد وقد ضَرَبَ بُوقَ الرَّحِيلِ. طَرِيقُ طَوِيلٌ وَلَا زَادَ وَتَقْصِيرٌ، كُلَّمَا جَاءَ الْأَجَلُ زَادَ وَيُقَالُ: يَا مَنْ هَمَعَ الْجَمْعَ لِمَا حَاصِلُهُ الْعَوَقُ كَانَ بِكَ يَا نَائِمٌ وَقَدْ أَيْقَظَكَ الْمَوْتُ.

وعظ:

يَا مَنْ قَدْ جَالَ بِلَادَ الْعُمُرِ سِتِّينَ سَنَةً أَيْنَ غَيِّمَتَكَ مِنَ السَّفَرِ، لَيْتَكَ صَحَبْتُكَ السَّلَامَةَ، يَا مُنْعَمًا بِضَائِعِ النِّعَمِ بِمُخَالَفَةِ الْمُنْعِمِ لَيْسَ مِنْ أَعْدَائِكَ أَكْتَمَ أَدَى لَكَ مِنْكَ، لَوْ نُودِيَ عَلَيْكَ فِي سُوقِ الْبَيْعِ بِشَرْحِ صِفَاتِكَ مَا اشْتَرَيْتَ بِفِلَسٍ تَذَكَّرَ، يَا مَنْ جَنَى رُكُوبَ الْجَنَازَةِ وَتَصَوَّرَ، يَا مَنْ تَزَوَّدَ لِطَوْلِ الْجَنَازَةِ. وينشد:

وَالْمَرْءُ مَا دَامَ فِي عَيْنٍ يَغْلِبُهَا
فِي أَغْيُنِ الْعَيْنِ مَوْفُورٍ
عَلَى الْخَطَرِ مَا ضَرَّ فَعَلْتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتُهُ
لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

وعظ:

يَا مَنْ عَلَى ظَهْرِ أَحْمَالٍ مِنْ أَعْمَالِ الْقَبَائِحِ يَبْتَكِرُ بَيْنَ الْوِزْدَانِ تَضَعُ الْأَرْزَ بِكَفِّ النَّدَمِ الشَّبَابِ قَدْ قَوْلَا وَالضَّعْفُ هَذَا قَبْلَ مَعُولِ الْكِبَرِ يَعْرِقُ حَيْطَانُ الْأَجَلِ وَيَحْكُ أُخْرَى قَلْبِكَ أَمْ جَلْمُودٌ مَا هَذَا التَّوَقُّفُ وَكَمْ هَذَا الْجُمُودُ؟ أَمَا يُؤْثِرُ عِنْدَكُمْ ذِكْرُ يَوْمِ الْمَوْعُودِ لَا بِطَرَةِ بَيْنِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَنْفِكَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ﴾ [الكهف: الآية ١٨]. وينشد:

مَا أَضْعَ هَكَذَا جَرَا الْمَقْدُورُ الْجَبْرِ لَغْنِي وَأَنَا الْمَكْسُورُ
مَا سُورُ هَوَى مَتَهُمْ مَهْجُورُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُغَيِّرَ الْمَسْطُورُ

وعظ:

يَا مُذْنِبِينَ هَذَا أَوَّانُ الْإِنَابَةِ، يَا عَامِلِينَ عَنِ الْحَقِّ وَقَدْ قَبِحَ بَابُهُ، تَعَرَّضُوا لِلْقُلُوبِ فَهَذَا وَقْتُ الْإِجَابَةِ.

إخواني، يَتَحَدَّثُ الحيران بأنه تَابَ فَلَانَ حَتَّى يَقُولَ الْأَقْرَانُ: إذا اجتمع في مَكَانٍ فَيَقُولُ ذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ كَانَ فَيَقُولُونَ مَا الْخَبَرُ؟ فَيُقَالُ: صخر قد لان. ويحك كتابك بالذُّنُوبِ مَلَانٌ فَاسْتَدْرِكْ أَمْرَكَ مِنَ الْآنَ، أَتَرَى تَخْرُجُ مِنْ ذُّنُوبِكَ قَبْلَ خُرُوجِ رُوحِكَ؟ وينشد:

قُلْ لِلزَّمَانِ صَلَاحًا قَدْ عَادَ لَيْلِي ضُبْحًا

وأعزب الشوق الذي كان أجاجًا

ملحًا يا مذبذبين لا تَبْرَحُوا مِنَ الْبَابِ

وَلَوْ طَرَدْتُمْ إِنْ ضَيَّقَ الْوَرَعُ عَلَيْكُمْ رِزْقًا

فوسعوه بالقناعة، وليشغلنكم ذكر ما مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ عَنِ النَّظَرِ الذي تعبدكم وأكثرُوا صُحْبَةَ الْبَكَائِينَ فَإِنَّهُ شَفِيعٌ مُشَفِّعٌ. وينشد:

إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ يَا حَمَامَ الْبَنَانِ لِلْبَيْنِ فَأَيْنَ شَاهِدَ الْأَخْزَانِ

أَجْفَانُكَ لِلدُّمُوعِ أَمْ أَجْفَانِي لَا يَقْبَلُ مَدَّعٍ بِلَا بُرْهَانِي

وعظ:

وَيَحْكُ إِذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ قَلِيلَةَ الشَّوْقِ إِلَى حُضُورِ الْمَجْلِسِ، واحتل عليها بحجة الفرحة، وقل: ليس الخبر كالعيان لَعَلَّهَا إِذَا حَضَرَتْ تَأَنَسَ بِأَهْلِ الدِّينِ والخبر عادة، فإذا جلست فأين طلب النفع والأعمال بالنسيان، وإذا رَأَيْتَ التَّائِبِينَ قَدْ نَهَضُوا فَلَا تَغْيِرْهُمْ بِمَا يَحِبُّونَ فالبلاء مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ، فإذا صَحَّ عِنْدَكَ حُسْنُ قَصْدِهِمْ فَقُلْ لِلنَّفْسِ الْمُوَافَقَةِ شَرُّطٌ، فَإِنْ قَالَتْ: مَا أَجِدُ مَا يَجِدُونَ فَقُلْ إِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَؤُا. فَإِنْ قَالَتْ: لَا أَطِيقُ مَا يَطِيقُونَ. فَقُلْ: النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ. فَإِنْ قَالَتْ: هُوَ لَاءٌ غُرَاةٌ وَأَنَا أَظُنُّ يَوْمِي. فَقُلْ: الْمُؤْمِنِينَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ فَإِنْ اهْتَلَطَتْ مِنْهَا خَوْفُ الْعَارِ مِنَ الْهَزِيمَةِ فَكُنْتَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ بِهَذَا الْحَلِيَةِ والخوف خدعة.

وعظ:

إخواني، الإِنَابَةُ فِي الْقَلْبِ جَلٌّ عِنْدَ الْإِضْرَارِ، وَلَمْ يَبَلَّ بِعِبَاةِ الْهَوَى مَنْ

رَقَّ لِيُبْكَاءِ الطِّفْلِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى فِطَامِهِ، مَنْ اسْتَسْقَى غِيبةَ الفهم فليجد رِداءَ الذَّنْبِ
وَمَنْ اسْتَطَالَ الطَّرِيقَ ضَعَفَ سَعْيُهُ. وينشد:

وَمَا أَنَا بِالمُسْتَأَقِ إِن قُلْتُ بَيْنَنَا طَوَالَ اللَّيَالِي أَوْ طَوَالَ السَّبَاسِبِ
وَمَا لِقُلُوبِ العَاشِقِينَ مَزِيَّةٌ إِذَا نَظَرْتَ أَفْكَارَهَا فِي العَوَاقِبِ
فَضْلُ:

سُبْحَانَ مَنْ قَدَّمَنَا عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَسَقَانَا مِنْ مَعْرِفَتِهِ أَرْوَى كَأْسٍ،
وَجَعَلَ نَبِيَّنَا أَفْضَلَ نَبِيِّ رَاعِيًا وَسَاسَ، فَلَمَّا فَضَّلَهُ عَلَى الْأُمَّةِ وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا بِعُلُوقِ
الْهِمَّةِ قَالَ لَنَا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فِي الْأَمَمِ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ عُمَرُ
لَدَى أَعَصَرَ كَسْرَى مَعَ بِالْدِينِ أَوْ عُثْمَانُ الصَّابِرِ عَلَى مَرِّ الدِّينِ، أَوْ عَلِيٌّ بَحْرُ
الْعِلْمِ الْعَمِيقِ، أَوْ مِثْلُ حَمْزَةِ وَالْعَبَّاسِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

فيهم مثل طلحة والزبير لقريش أو معد وسعيد هيهات من أين المهم صبر
حباب وحبیب ومثل ومن مثل الاثنين إن شَبَّهْنَاهُمْ بِهِمْ أَبْعَدْنَا الْقِيَّاسَ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ
أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

هَذَا شَجَرَةُ الرِّضْوَانِ فِي أَشْجَارِهِمْ هَلْ وَقَعْتَ بَدْرٌ فِي أَسْمَارِهِمْ إِنَّمَا
عُرِضَتْ لَهُمْ عُرَاةٌ فِي جَمِيعِ أَعْمَارِهِمْ وَجِهَادُنَا مَعَ الْأَنْجَاسِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أَيْنَ أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ أَصْحَابُنَا، هَيْهَاتَ مَا الْقَوْمُ مِنْ أَضْرَابِنَا، وَلَا
ثَوَابُهُمْ فِي الْأُخْرَى مِثْلَ ثَوَابِنَا، نَتَقَّ الْجَبَلَ فَقَالُوا أَفَلْنَا. وَنَحْنُ قُلْنَا فِي كِتَابِنَا: عَلَى
الْعَيْنَيْنِ وَالرَّأْسِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. مِنْ أَيْنَ أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْ
أَصْحَابِنَا. هَيْهَاتَ مَا الْقَوْمُ مِنْ أَضْرَابِنَا وَلَا ثَوَابُهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِثْلَ ثَوَابِنَا. نَتَقَّ
الْجَبَلَ فَقَالُوا: أَفَلْنَا؟ وَنَحْنُ قُلْنَا فِي كِتَابِنَا: عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّأْسِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ
أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وَدَوَّا كِتَابَهُمْ وَمَنْ سَطَّرَ وَصَكَّ وَطَلَّبُوا صَبْجًا وَقِيدَ الْبَحْرِ
بِحَرْفِكَ وَشَكُوا عِنْدَ الْجَبَلِ وَمَا بَيْنَا مِنْ شَكٍّ إِنَّ تَشْبِيهِ الشَّكِّ بِاللَّهِ مِنْ وَسْوَاسٍ
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠].

عمرهم التعجيل وتناها وأعتقوا للخالق أشباها فقالوا يَوْمَ الْيَمِّ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] وَمَا فِي عَقَائِدِنَا التَّبَاسُ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. أَتَرَى أَصْحَابَنَا الْفَقْرَ وَالْمَجَاعَةَ، وَاشْتَغَلُوا عَنِ الدُّنْيَا بِالطَّاعَةِ، وَسَأَلْتَ النَّصَارَى مَائِدَةً لِلْمَجَاعَةِ وَإِنَّمَا طَلَبُوا جُودَةَ الْأَضْرَاسِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. أَفِيهِمْ مِثْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ أَوْ كَالشَّافِعِيِّ الْهَادِي إِلَى الْمَسَالِكِ كَيْفَ يَمْدَحُهُ وَهُوَ إِذَا مِنْ ذَلِكَ مَا أَحْسَنُ بُنْيَانَهُ وَالْأَسَاسِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أَبِيهِمْ أَغْلَى مِنَ الْحَسَنِ، وَأَنْبَلَ أَوْ ابْنِ سَيْرِينَ لِلدِّينِ بِالْوَرَعِ يَقْبَلُ أَوْ كَأَحْمَدِ بْنِ حَنْبَلٍ الَّذِي بَدَّلَ نَفْسَهُ لِلْحَقِّ وَسَلَّ بِاللهِ مَا فِيهِمْ مِثْلُ أَحْمَدِ بْنِ حَنْبَلٍ أَرْجَعُ صَوْتَكَ هَذَا وَلَا بِأَسْ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أَعِنْدَ رَهْبَانِهِمْ كَزَهْرَاوِيِّينَ؟ أَفِي مُتَعَبِدِيهِمْ كَمَعَامِدِ ابْنِ عَبْدِ قَيْسٍ؟ أَفِي خَائِفِيهِمْ كَالْفَضْلِ لَيْسَ ضَوْءُ الشَّمْسِ كَالْمَقْيَاسِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. أَفِيهِمْ مِثْلُ بَشَرٍ وَمَعْرُوفٍ؟ أَفِي سَوَائِبِهِمْ طَائِفَةٌ صَلَتْ وَقَدْ صَلَّتِ السِّيُوفُ وَزِينَتِ الْأَجْرَامِ؟ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الآية ١١٠] () (١) مُحَمَّدٌ اللَّهُمَّ خَلِّصْ لِرُوحِكَ أَعْمَالَنَا، اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا فِي الدَّارَيْنِ آمَالَنَا، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

الْمَجْلِسُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ فِي فَضْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ عَلَى تَغَايِرِ الْأُزْمَةِ بِجَمِيعِ الْأَوْصَابِ الْأَلْسَنَةِ (١)
مَحْمُودٌ مُقَدَّسٌ بِالْعِظَمَةِ وَالْكِبَرِيَاءِ، مَرْتَجِعٌ مَوْجُودٌ أَخْرَجَ مِنْ مَكْنَتِهِ الْعَدَمَ جَمِيعَ
بَدِيعِ أَوْصَافِ أَصْنَافِ اخْتِلَافِ الْوُجُودِ، ذُو أَطْهَرِ مِنْ طُهُورِ الْبَرِيَّةِ جَمِيعِ الذَّرِيَّةِ
وَجَعَلَ الْبُطُونَ لَهُمْ كَالْمَهُودِ، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ بِحُكْمَتِهِ وَلَطِيفِ صَنْعَتِهِ مَضْغًا وَعِظَامًا
وَلَحْمًا وَالْبَسَهُمْ حُلَّ الْجُلُودِ، صَوَّرَ مِنَ النُّطْفَةِ وَالطَّبِّ وَالْعِظَامِ الْمُتَنَصِّبَةَ، فَمِنْهَا
الْمُجَوِّفُ وَمِنْهَا الْمَسْرُودُ، وَمِنْهَا الْمُتَّصِلُ، وَمِنْهَا الْمُتَفَصِّلُ، وَمِنْهَا الْمُعْوَجَّجُ، وَمِنْهَا
الْمَمْدُودُ. ثُمَّ قَدَّرَ شَكْلَ الْكُلِّ عَلَى وَجْهَاتِ الْحَرَكََةِ الطَّارِقَةِ لِلْأَنْسِ الْمَبْسُوطِ
وَالْقِيَامِ وَالْقُعُودِ، وَأَرْبَطَهَا بِأَوْتَارِ أَسْسِهَا فِي أَطْرَافِ الْعِظَامِ لِيَحْصَلَ مِنْهَا الْمَقْصُودُ،
وَصَوَّرَ الْوَجْهَ بِأَنْ نَزَفَ فِيهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، وَزَيَّنَهُ بِالْأَجْفَانِ وَالْأَذْجَارِ وَالْخُدُودِ، ثُمَّ
رَجَعَ نَصِبَةَ الْأَنْفِ لِيَتَغَذَّى مِنْهَا الْقَلْبُ بِالْمَعْوَى الْمُتَعَاقِدِ الْمَمْدُودِ وَفَتْحِ الْقَمِّ،
وَأَوْدَعَ اللِّسَانَ الْمُعَبَّرَ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِقْرَارِ وَالْجُحُودِ،
وَزَيَّنَهُ بِالْأَسْنَانِ الْمُبْيَضَّةِ الْأَلْوَانِ فَصَغِيرَهُمَا وَعَرَاوِيَهُمَا كَعَقْدٍ مَنْظَمٍ مَنْصُودٍ، ثُمَّ
أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْأَحْشَاءِ إِلَى الضُّوءِ الْمَشْرِقِ وَالظِّلِّ الْمَمْدُودِ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ
وَالْقُعُودِ، وَكَلَّفَهُمْ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى عُمُرُ الْإِنْسَانِ وَعَادَ وَالِدًا

(١) الكلمة غير واضحة من الأصل المخطوط.

بَعْدَمَا كَانَ مَوْلُودًا، ابْيَضَّتْ لَمَتُهُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ سَوْدَاءَ كَالْعَرَابِيبِ السُّودِ مِنَ
الْمَرَضِ، وَاعْتَزَصَ وَاعْتَدَى وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَوْجُودِ فَيَخْرُجَ مِنْ سَعَةِ
الْقُصُورِ إِلَى ضَيْقِ اللُّحُودِ وَيُجَاوِرُ فِي قَبْرِهِ الْهَوَامَ وَالْدُّودَ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ
الْعَرْصِ عَلَى الْمَلِكِ الْمَعْبُودِ فَيَحَاسِبُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَمَا ارْتَكَبَ مِنَ الْجَرَائِمِ
وَمَا ضَيَّعَ مِنَ الْخُدُودِ، ثُمَّ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْأَلْسِنَةُ وَالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ وَالْجُلُودُ، فَيَا
سَعْدَ مَنْ قُبِلَتْ أَعْمَالُهُ، وَيَا شَقَاوَةَ مَنْ عَمَلُهُ عَلَيْهِ مَرْدُودٌ. وينشد:

يَا غَافِلًا قَمِ واقصد المَلِكَ الْوَدُودَ
واذر الدُّمُوعَ عَلَى الْجُفُونِ مِنَ الْخُدُودِ
يَا وَيْحَ نَفْسِي بِالْمَتَابِ مَتَى تَجُودُ
انْظُرْ وَفَكِّرْ وَاعْتَبِرْ تَبَصَّرْ وَجُودُ

مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

دَعَا يَوْمًا بِمَاءٍ وَأُوتِيَ بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ بَارِدَةٌ، فَلَمَّا قَرَّبَهُ مِنْ فِيهِ حَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ
وَبَكَى حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدِينَاكَ بِأَنْفُسِنَا مَا الَّذِي نَزَلَ
بِكَ؟ قَالَ: لَمَّا وَجَدْتُ بَرْدَ الْمَاءِ فِي فَمِي ذَكَرْتُ شِدَّةَ عَطَشِ أَهْلِ النَّارِ، وَأَنَّهُمْ
إِذَا اسْتَغَاثُوا لَمْ يُغَاثُوا إِلَّا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ
مَرْتَفِقَا، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٥]. وَأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا
اسْتَعَاثَ بِالْمَاءِ سَقِيَ شَرْبَةً يَتَنَازَرُ مِنْهَا لَحْمُهُ مِنْ عَلَى عَظْمِهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا اشْتَدَّتْ
بِهِمْ لَهَبُ النَّارِ جَرُّوا إِلَى أَوْدِيَةِ الرِّمَهِيرِ رَجَاءً مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا أَخَفَّ عَلَيْهِمْ
فَيَقْرَضُ الرِّمَهِيرُ أَظْرَافَهُمْ فَيَهْرُبُوا إِلَى النَّارِ فَتَنْتَبِذُهُمْ بِلَهْيَيْهَا وَحَرِيقِهَا فَيَرْجِعُونَ
إِلَى الرِّمَهِيرِ يَلْتَمِسُونَ الرَّاحَةَ حَيْثُ لَا رَاحَةَ وَلَا بَرَحًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُونَ
بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ إِنِّي﴾ [الرحمن: الآية ٤٤] دَمَغَتِ النَّفْسُ نَفْسَهَا بِعَيْنِ الْعَجَبِ
وَذَكَرَهَا حَسَاسَةً الْأَجَلَ فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا لَمْ تَجِدْ مَرَارَةَ الدَّوَاءِ فِي حَلِقِكَ لَمْ تَقْدِرْ
عَلَى ذَرَّةٍ مِنَ الْعَافِيَةِ، أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي حَبَابِ الدُّنْيَا فَمَتَى يَصْبِحُ وَارِدَ الدَّهْرِ كَمْ
قَتَلَتِ الدُّنْيَا قَبْلَكَ؟ كَمْ أَهْلَكَ حُبُّهَا مِثْلَكَ.

إِخْوَانِي، ابْكُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُكَاءً فَارْحَمُوا كُلَّ بَكَّاءٍ.

وينشد:

قد كان يمنعني الحياء من البكا واليوم يمنعه البكا أن يمنعا

وعظ:

بِاللهِ عَلَيْكَ اعْرِفْ بِمَا ضَاعَ مِنْكَ، وَابْكِ عَلَيْكَ إِنْ كَانَ لَكَ قَلْبٌ فَانْقَلِبْ
كَانَ لَكَ وَقْتُ بَذْهِبٍ، يَا مَظْهَرًا مِنَ الْخَيْرِ مَا لَيْسَ فِي بَطْنِهِ لَا تَبِغْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ.
لَوْ عَرَضْتَ خَبَايَا صَدْرِكَ عَلَى جِيرَانِكَ لَرَجَمُوكَ بِالْحِجَارَةِ، لَوْ وَجَدْتَ عَلَى
أَوْصَابِكَ بِالْصَّدْقِ تَغْيِيرَ لَوْنِكَ، إِنْ صَاحِبَ الْمَعُوجِ إِذَا رَأَى الْمَحْكَ أَوْ تَعَدَّ أَسْمَعَ
الْمَلَابِسِ ثِيَابِ الرِّيَاءِ لَمَا اسْتَصْلَحَ الرَّابِحُ الْأَمْثَالَ إِلَّا مِنَ الْعَمَى إِلَّا مِنَ عَلَى
السَّكِينِ السَّكُونِ. وينشد:

لَئِنْ قَدِمْتُ مِنْ سَجْدَةِ الْبَيْنِ عَلَيْكُمْ تَلَقَّيْتُهَا بِالرَّحْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْجَرَّاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: إِنْ
اسْتَطَعْتَ أَنْ تَدَعَ شَيْئًا مِمَّا حَلَّ اللَّهُ لَكَ لِيَكُونَ رَجَاءٌ جَزَاءٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْكَ.

وعظ:

إِخْوَانِي، جَاءَ طُوفَانُ الْمَوْتِ فَارْكَبُوا سُفْنَ النُّقَى اتَّحْتَاجُ إِلَى أَحْكَامِ تَامَّةٍ،
وَاللَّهِمَّ مُنَاجِزِ صَغَارٍ فِي مَوَاضِعِ الرَّمْيِ فَمَا حَكَمَ تِلْكَ الذُّوَادُ زَمَارِ الْوَرَعِ قَبْلَ أَنْ
يَصِيحَ نُوحُ الْآسِي لَا عَاصِمَ يَا مَعَاشِرَ الشُّيُوخِ بِمَنَارِ عَوْمِكُمْ قَدْ تَصُومُ وَبَقِيَ شَفَقُ
الشَّيْبِ.

أَيُّهَا الشَّابُّ كُلَّ يَوْمٍ تَخْلَعُ خَلْعَةً مِنْ ثِيَابِ شَبَابِكَ إِلَى أَنْ تَعْرِىَ مِنْ ثِيَابِ
جَمَالِكَ. كَتَبْتُ يَدَ الشُّوقِ فِي جُودِيكَ رِسَالَةً تُذِيبُ قُودَاكَ مَضْمُونَهَا قُرْبَ الرَّحِيلِ
وَمَفْهُومُهَا قَدْ بَقِيَ الْقَلِيلُ. اللَّهُمَّ ارْجِعْ مَنَارَ دِينِنَا وَارْحَمْ دَمَارَ يَقِينِنَا. اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا
مِنْ غَوَائِلِ الْبِدْعِ، وَسَلِّمْنَا مِنْ خَبَائِلِ الْجَزَعِ، وَاقْطَعْ عَنَّا غَلَايِنَ الطَّمَعِ وَأَمَّنَّا يَوْمَ
الْخَوْفِ وَالْجَزَعِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

الْمَجْلِسُ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ فِي بَدَايَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَجَلَّى بِسِرِّ جَوْهَرٍ ضَرْبِ طَيْفِ خَيَالِ جَمَالِ أَنْوَارِ أَبْصَارِ أَرْوَاحِ
أَشْبَاحِ حَقَائِقِ الْعَارِفِينَ، وَأَزَالَ أَنْسِدَالَ ذَهَابِ ظَلَامِ حِجَابِ الْإِتْيَابِ بِإِتِهَابِ إِبْرَازِ
إِشْرَاقِ تَشْعِشَعِ تَمْنِيعِ نَوْرِ عِلْمِ الْيَقِينِ لِلْعَامِلِينَ، وَبَسَطَ بِسَاطِ الْإِنْسَاطِ عَلَى سِمَاطِ
أَهْلِ الصُّرَاطِ تَحْتَ أَوْزَاقِ أَشْرَافِ عِلْمِ الرِّجَالِ لِلْخَائِفِينَ وَغَرَسَ بَيْنَ غَرَسِ الْوُدَادِ فِي
مُنَاجَاةِ قُلُوبِ خِيَمَاتِ السَّعَادَاتِ تَحْتَ مِيَاهِ الْإِنْتِبَاهِ بِبِحُوحَةِ الْقُدُسِ فَخَرُوا لَهُ
سَاجِدِينَ، فَتَحَرَّكَ فَلَكُ قُطْبِ الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ قَرَبِ الرَّبِّ بَانْدَفَاعِ سَمَاعِ لُغَاتِ أَوْتَارِ
مِزْمَارِ عَوْدِ تَغْرِيدِ رَنَاتِ نِعْمَاتِ التَّائِبِينَ، إِذَا زَعْفَارِ رَفِينِ رَحِيقِ شَرَابِ أَعْنَابِ طُورِ
الْهَمُومِ، فَسَقَاهُمْ وَأَرْوَاهُمْ، فَشَرَبُوا فَطَابُوا وَطَلَبُوا فَغَابُوا فَأَجْنَاهُمْ مَوْلَاهُمْ عَنْ
سِوَاهُمْ حَتَّى بَدَتْ لَهُمْ شَمْسُ الْأَنْسِ عَلَى رِكَائِبِ رِحَالِ الْجَمَالِ فَقَامُوا هَائِمِينَ،
فَاعْتَبَرُوا فِي أَوْصَابِ اخْتِلَافِ مِيَاهِ مَخْلُوقَاتِ سَيِّدِهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ، بِصَاحُوا وَبَاخُوا
بِأَسْرَارِ إِعْلَانِ اللَّهِ وَحَاجَةِ الشَّرِيفِينَ، فَوَلَّهُوا وَتَلَّهُوا بِأَدْرَجِ مَصْبَاحِ الْفَلَاحِ فِي
أَجْرَامِ مِيدَانِ طَرَقِ التَّوْفِيقِ فِي أَضْلالِ لُبِّ الْقَلْبِ حَيْثُ نَظَرُوا إِلَى أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمٍ لَا يُحْصِيهَا الْعَدُوُّ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى أَشْرَفِ مَنْ خَدَمَهُ السَّعْدُ،
وَعَلَى عَلِيٍّ وَحَمَلِهِ أَصَابَهُ وَبِائِعِيهِمْ مَا نَسَمَ الْبَرْقُ وَفَهَفَهَ الرُّعْدُ.

ركب إبراهيم بن أذهم يوماً للصيد وقد نصب له مج يهديهم ربهم حول
حب يحبهم ويحبونه بصيد قبل أن يصيد، سمع هاتفاً يقول: ما لهذا خُلِفْتُ

ولا بهذا أُمِرْتُ. فكانت تلك اللفظة شربت شفاهاً حكم الأذل ومُزِيل العَلَل
 فنهضت فولج الهوى. يا له من سهم ألهاه عن فرجوسه وبرسه كان زائد الفهم
 راقداً في ليلة الغفلة مشغولاً بأحلام المُنَى، فيصيح به: قم فقام فقيل له: سِرْ
 فاستقام وركب الطيب أدوية بريقه السقام، وعظه خطيب اليقظة فوصلت ملامته
 إلى جميع الأنف فنهضت حَمِيَّة الرجولية، يا بن أدهم: مبادرة الصيد أوَّل
 مَرَاتِب الشَّجَاعَةِ. يا بن أدهم: فتلك حُبُّ الدُّنْيَا لهم لأخذ الثَّار إن كان لك
 عزيمة.

وعظ:

يا مَنْ ضاع يوسف غفلة خبر بخيم الصالحين لعلك تجد ريح يوسف قف
 بالبحر على أقدام الذَّلِّ وقل: ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: الآية ٨٨] يا
 مخدوع الأمانى، يا مخذول التواني غرق مركب عُمرِكَ في بحر الكسل، وَيَحْكُ
 مَنْ لَارَمَ الْمَنَازِلَ لَمْ يَرَ إِلَّا الْأَحْلَامَ متى تفتح عين عمرِكَ بلا طول هذا الكرى؟
 أما تستنشق ريح السَّهْرِ؟ أما تجد برد هوى الفجر؟ أما تُعَايِنُ ضوء الشَّيْب؟ أَمَا
 يُؤْلِمُكَ عتاب الدَّهْرِ، استيقظ يا نائم إلى كَم هذا الكرى؟ هَبَّ نَسِيم نجد.
 وينشد:

فقد زادني مسارك وجدًا على وجدٍ
 شغفت به إن كان نجدٌ على العهدِ
 ألَهفوني وأهفو شوقًا إلى نجد
 فكيف بغير نكرة قلَّ ما تجد
 وإن كان لا يغوي الحب على الجد
 ولا عاش في قرب ولا زال في بعد
 وثم علينا ما يضر من الوجد
 يداوون قلبًا قد تداوى من الصّدِّ
 فلا تتركاني واحملاني إلى نجد
 ورداني على الأبلز الفرد
 ليعلمن مني ما يسر وما أبدي

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
 ألا حَبَّذاً نجدٌ وطيب ترابها
 أحِنُّ إلى نجد خيلن مولد دعاه
 ولم يكُ قلب عند نجد وأهله
 وصدى الفتى أهوى الزمن والمنى
 محا الله شجا على الحب عاشقا
 وماذا عليهم لو قرأنا وصالنا
 متى أهل نجد عائدون إلى نجد
 خليليَّ إن كانت بحمص مَنِيَّتِي
 وإن أنتما لم تحملاني فسلِّما علي
 يقلن نسبًا يمتجين مودتي

أأحب ليلاً جهد حبي كله فقلت نعم جهدي وردت على الجهد وعظ:

صَاحَ بِكَ وَاعْظُ وَمَا تَسْمَعُ وَكَمْ حَصَلْتَ مَا يَكْفِي وَمَا تَقْنَعُ، لقد استقرضك مولاك فما لك تجمع، وضمن لك الحبة سبعمائة وما تزرع، تشتغل عن القرآن بالمنزل وتسمع من مغن يتغزل.

إخواني، أفيكم عازم على الصلح؟ أميكنكم مُصْبِح يضح من المنحر يا عاصي، منادي القبول على باب الوصول يُنادي سارعوا. وينشد:

الغيمُ رطبٌ يُنادي يا غافلين الصَّبوح
فقلت أهلاً وسهلاً ما دام في الجسم رُوح
ويحك ويحك يا عاصي قَدْ قَيَّدَ الطَّرْدُ قَدَمَيْكَ وَغَلَّلَ الْأَبْعَادَ يَدَيْكَ أَفَمَا لَكَ
عَيْنٌ تَبْكِي عَلَيْكَ.

وينشد:

وفي نظرِ الصَّادِي إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةٌ
إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا سَبِيلَ الْمَوَارِدِ

وعظ:

إخواني، ما قعودكم وقد سار الركب؟ الحقوهم في المنزل، الموت مقاتل يقصد المقاتل. تالله لقد حصل للمتقضين فوز الدارين ورضيتم بالبين من البين، تنبّهوا يا نُوَّام كم ضيَّعتم من عام؟ الدنيا كلها منام؛ وأحلى ما فيها أحلام، غير أن عقل الشيخ بالهوى علام، قتل النفوس على مرّ هل هو إلا ثوب وطعام، آه للغافل إلى كم يُلام؟ أما توقظك الليالي والأيام؟ أين سكان القصور والخيام؟ دارت عليهم كأس الحمام والتقطتهم النقاط الحمام، ما المخلوق فيها دوام سجل ثبت واستقل بالأعلام ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: الآيتان ٢٦، ٢٧].

حُكِّيَ أَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدَهْمَ حَمَلَ حِزْمَةَ حَطَبٍ عَلَى صُلْبِهِ، فَرَأَاهُ الْأَوْزَاعِيُّ

فقال له: يا أبا إسحاق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك، فقال إبراهيم: دعني يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من لم يوقف نفسه موقف ذلّ في طلب الحلال وجبت له الجنة.

إخواني، افعّل أفعال المحبة بأربابها التلف والمجروح تلف وقوع السيف من يد المحبوب، فإن شكى المبتلي إلى المُبتلى كان معطي مقصوده التلذذ بشرح الحال لا إزالة البلاء فروضي المقتول كل الرضى، ليس بعجب مُحِبّ بجرف إنما العجب محبوب بجرف وينشد:

مستهام ضاق مذهبه في هوى من عزّ مطلبه
كل امرئ في الهوى عجب وخلصي منه أعجبه

وعظ:

وا عجباً كيف يذلّ نفسه هذا ليمدحه الخلق فذهب والمزح، لو بذلها للحق لبقيت والذكر عمل المُرّائي بطلت كلها فشورباً منقطعين في يدي الغفلة أترى أيّ ذنب أفتطعمكم لو بقي عليكم من دين الزهد حبة لم يكتب لك التقوى. المكاتب عبد ما بقي عليه درهم قد عوقب احتيال المنوي عليك حتى أوقعك في شركه. فالآن فلا أقبل لك التوبة والمؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين.

اللَّهُمَّ اجعل بطاعتك أشغالنا، اللَّهُمَّ حقّق بالزيادة آمالنا، اللَّهُمَّ واقرن بالعافية غدونا وأصالنا، اللَّهُمَّ تقبّل بفضلك أعمالنا، اللَّهُمَّ اجبر برحمتك أحوالنا، اللَّهُمَّ اختتم بالسعادة آجالنا، واجعل اللهم إلى جنّاتك مصيرنا ومآلنا، واغفر لوالدينا ولذريّتنا ولجميع المسلمين، وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله وسلّم تسليمًا، والحمد لله ربّ العالمين.

المَجْلِسُ الثَّامِنُ والثَّلَاثُونَ

في حكاية الجنيد رضي الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّم تَسْلِيمًا

الحمد لله العظيم الشأن العليم الإحسان، الرفيع البنيان، المنيع السلطان، المرفّع عباده بقواطع الأدلة وسواطع البرهان لا يقال متى؟ وإلى متى؟ وكل ذلك من شيم الحدثان خضعت لجلال هيبتة الثقلان وذلت لعزّ قدرته ملائكة الموت بالإذعان ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالإذعان ﴿إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ [مريم: الآية ٩٣] بالانقياد والإتيان ببيان من في السموات والأرض ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿فَإِنِّي ءَالِئٌ رَيْكُمَا تَكْذِبَانَ﴾ [الرحمن: الآيتان ٢٩، ٣٠] خلق الإنسان وشقّ له سمعًا لاستماع الأذان وفمًا للمنطق وبصرًا للنظر وقلبًا لينطق في التحقيق والإيمان ونعمًا تشمل على البصير والطغيان ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَاَنِ﴾ ﴿يَلْقَاَنِ﴾ ﴿يَلْقَاَنِ﴾ لا يَغِيان ﴿فَإِنِّي ءَالِئٌ رَيْكُمَا تَكْذِبَانَ﴾ [الرحمن: الآيات ١٩ - ٢١]، القلب أمير الجوارح، والأعضاء هي الأعوان، والقدمان كالمركب، والقدمان كالفهرمان، والسمع كالجواسيس، واللسان كالترجمان، فسبحان من أنطق لحماً، وأسمع شحماً، وأبصر عظمًا كالأذنين والعينين واللسان.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَاَنِ﴾ ﴿يَلْقَاَنِ﴾ ﴿يَلْقَاَنِ﴾ لا يَغِيان ﴿فَإِنِّي ءَالِئٌ رَيْكُمَا تَكْذِبَانَ﴾ [الرحمن: الآيات ١٩ - ٢١]، تعالى جد ربنا وتقدّست أسماؤه قبل اختراع العناصر والأصابع وإلا وكان قبل اتصال الفلك بالدوران وقبل اتصال الشمس بالإضاءة

والقمر بالنقصان ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ [الرحمن: الآيتان ٣٣، ٣٤]، أنطق الآيق على أغصان الأيك بغرائب السجع وبدائع الألحان، وأبكي السحاب فأضحكت لبكائها نقور الأقحوان فشق أشراً والورق والزمرّد وأحلاق النرجس وأكمام الأقحوان ﴿فِيهَا فَتْكُهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ﴿٣٥﴾ وَلَحَبٌ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿٣٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ [الرحمن: الآيات ١١ - ١٣].

أحمدته حمداً يُوجِبُ المزيد من الإحسان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجو بها الإخلاص من النيران، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الراعي إلى الإيمان والمنادي إلى دار الأمن والأمان صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأشياعه وأتباعه والتابعين لهم بإحسان.

قال الجُنَيْد: حَجَجْتُ سنة من السنين، فبينما أنا ذات ليلة أمشي في الطريق إذا بصوت موزون من كبد محزون وهو يقول: إلهي لا إلى بيتك أوصلتني ولا مع أهلي تركتني. قال: فتقدمتُ إليه وسلّمت عليه فقال: وعليك السلام يا جنيد، فقلت له: يا حبيبي، ومَنْ أَعْلَمَكَ باسمي أني الجُنَيْد؟ قال: التقت رוחي وروحك في الملكوت فأعلمني باسمك مَنْ يعلم السرّ وأخفى، ثم قال: سألتك بالله يا جُنَيْد إلا ما أَقَمْتُ معي، فَإِنِّي أُمُوتُ في هذه الليلة، فإذا أنا مُتُّ فاغسلني وكفّنّي في ثيابي، واطلع على الرابية، وقل الصلاة على الغريب يرحمكم الله، فإذا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ ودفنتموني ورجعتم وتركتموني وسرّتْ إلى مكة وقضيت حجّك فارجع إلى بغداد واسأل عن درب الزعفراني واسأل به عن موضع أُمّي وولديّ، فإذا وجدتهم أعلمهم بموتي وقل لهم: الغريب يُقَرِّئُكم السلام ويقول لكم: لا إلى بيته أوصلني ولا معكم تركني. قال: فلما كان الليل جنّ وقال شعراً:

أرأيت كيف سطا عليّ زماني	وبأيّ سهم بالبعداد رماني
فارقت أحباباً عليّ أعزّة	كانوا بقلبي في أعزّ مكاني
فرزيت بعد فراقهم برزية	فمَحَتْ أصول السرّ من كتماني
ولئن بكيت ولم تفض عيني دماً	لفراقهم يوماً فما أجفاني
فتنفسوا الصعداء وقالوا يا فتى	أنضحت دمع العين بالهملاني

ما أنت أول مَنْ مضت أحبابه وجرت عليه نوائب الحدثاني
 الدهر لا يبقى رماذاً واحداً فلا بدّ من فرح ومن أحزاني
 بنفسي محبوب جفاني خياله لمّا عافني عن الهوا وجفاني
 وأصبحت مقصوص الجناح بعد ومن فض لا يقوى على الطيراني
 غريب من الأحباب ما بين أهله له أضلع طارت من الخفقاني
 فإن عشت بعد اليوم ما لي حجة ولا عشق إلا أن يكون يمانِي

ثم مات رحمه الله فغسّله وكفّنته وحفرت قبره، وطلعت على الرابية،
 وقلت: الصلاة على الغريب يرحمكم الله، قال: فإذا أنا بجماعة أقبلوا إليّ من
 كلّ فج عميق شعثاً غُبْراً، فلما صلّينا عليه ودفنّاه، وانصرفنا، فلما قضيت
 صحبني ورجعت إلى بغداد. فسألت عن درب الزعفران وإذا بصبيان يلعبون،
 وإذا بصبي معهم فلما رأيته قام إليّ وعانقني. وقال لي: يا عمّاه لعلك أنت الذي
 أتيت تخبرني بموت والدي، فقلت في نفسي: وا عجباً مَنْ أعلّمه بذلك، ثم
 سرّته معه إلى العجوز فضرب الباب وإذا العجوز قد خرجت إلينا وفي يدها
 عصاً وزنبيل وسُبْحَة، وهي تُسَبِّح الله وتقُدّسه بأنواع التسبيح فلما رأيته قالت:
 أهلاً وسهلاً يا جُنَيْد، أين مات وَلَدِي لعلّه مات بعَرَفَة؟ قلت: لا، قالت: لعلّه
 مات بالمزدلفة؟ قالت: لا، قلت: لعله مات بِمِنَى؟ قلت: لا، قالت: لعله مات
 بمكة؟ قلت: لا. قالت: لعله مات بأفريقية؟ قلت: لا. قالت: لعله مات بشجر
 أم غيلان؟ قلت: نعم. قال: فصاحت وقالت: وابْنِيَاهُ إِلَهِي لا إلى بيتك أوصلته
 ولا معي تركته. إِلَهِي ألحقني به إنك على كل شيء قدير. ثم رفع الصغير بصره
 إلى السماء وقال: إِلَهِي لا مع والدي سيّرني ولا مع جدّتي آنستني ألحقني بهما
 إنك على كل شيء قدير فرمي وصاح صيحة خراً ميتاً رحمة الله علينا وعليهم.

وعظ:

عباد الله، إنما الدنيا ضروب الجزاء، والساعات ركائب المجد، وأوقات
 العافية أوقات تستدرك، وأحيان السلامة تنادي مَنْ جَدَّ أدرك.

إخواني، احذروا دنياكم فإنها خادعة، وانتظروا حتوفها فهي لا ريب

واقعة، أيها العبد إلى متى تشتغل بها عن مولاك وهو غيور؟ وكيف تغترّ بغير هوى يغري ويفور؟ وكم عدلت عن العدل وحاضرت الحضور؟ أتظن البقاء وقلائد الفراق كالأطواق في النحور؟ أما تعتبر بأقران قرنوا بقرائن أعمالهم في القبور؟ أما مواضعهم تضعك على وضع الوضائع والفتور؟ أما حلّوا اللحد؟ فحالت حلّى تلك البدور.

أما منازلهم إذا نازلهم منازلهم زال عنهم السرور؟ أين هم الآن خلا فإليهم بالبثور؟ حال بهم عن المال ما لا يرد وصرفهم صرف الدهور أصبحت وجوههم الصبيحة مضطجعة شراب الدثور، مبانيهم أنبت لم تبين الإناث من الذكور، انقصمت عُرى الأوصال، وحلّوا بالخصال الوصال منهم مهجور، سكنوا بعد بعد الودود في اللحد كمأسور تكدر صافيتهم بمصافيتهم فمضى فيهم يجافيتهم وما فيهم معذور، علا على أعلاهم تراب كثير موفور، وسكن المسكين في كمين إمكانه فاستكان في مكان محفور، بين مترفيهم قد اطمأن ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق: الآية ١٤]، إذ الأذى كالحذا ولكل محتذي الغرور، وكم قال واعتذر فلم يذر. قيل: هذا الهذر زور صب الصاب في مَنْ صبا، فالصبا تسفي على منصبه والدبور، فانتبه فإن الموت يدور على ساكني الدور، ويلتقط أرباب القصور بلا قصور ولا فتور وكأنك بالأمر قد فصل ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: الآية ١٠]، فَمَنْ جاز قنطرة الهوى آب بتجارة لن تبور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: الآية ٤٠].

لأغذين العين غير مفكر	فيها جرت بالدمع أو فاضت دما
ولأهجرن من الرقاد لذيدة	حتى يصير على الجفون محرما
سفكن دمي فلأسفكن دموعها	وهي التي بدأت فكانت أظلما
هي أوقعني في حبائل فتنة	لو لم تكن نظرت لكنت مسلما

وعظ:

ويحك اخلُ بنفسك خلوة المشفق الناصح، وخاطبها خطاب البصير الناقد وحاسبها حساب الشريد المُفارق، وقل لها: لمثل الجنة فليعمل العاملون أين

الصالحون يا قوم؟ رحلوا وماتوا ونحن متنا وماتوا وينشد:

هاذه الخيف وهاتيك مناها هنا ضاع فؤاد في هاهنا

وعظ:

يا صاحب الخطايا لست معنا، يا مقبلاً على الهوى ما أنت عندنا ضاعت
حيلتي في تحصيل قلبك، وا عجباً لك أخوفك عواقب الذنوب وما تتوب؟ قد
أوقدت نار المواعظ إلى جانب كسلك ونفس عزيمتك شديدة البرودة، وقد اتفق
الأطباء على أن النفس البارد في المرض الحاد دليل هلاكه، يا مخالفاً من نهاه
وأمره، يا مضيعاً في التجربة عمره، مَنْ ركب الهوى هوى والنفس إذا استعملت
التقوى تقوى.

إخواني، لا تقولوا لِمَنْ مات استراح إلى متى الأعمال كلها قباح؟ إلى كم
فساد متى يكون الصلاح؟ ستفارق هذه الأجساد الأرواح، إما في غدو وإما في
رواح، وسيفنى هذا المساء والصباح، وسيخلو البلى بالوجوه الصباح إما في
الأمر شك أم الأمر مزاح. أين شارب الرّاح راح إلى قبر شفي عليه الرياح، حلّ
للدود مباح لها اغتباق به ثم اصطباح، مشغول عمّن بكى عليه وناح، عنوانه لا
يزول مفهومه لا براح، اللَّهُمَّ مَنْ كاد فامكره وأرادنا بسوء فاخذله، ومَنْ نصب
لنا فاحشره، ولا تَكِلْنَا إلى نفوسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك يا أرحم
الراحمين، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم
الدين.

المَجْلِسُ التَّاسِعُ والثَّلَاثُونَ

فيه خطبة ووعظ وشعر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

أحمد الله الذي أطلع من بحر الغيب نفائس جواهر الأرواح، وأودعها بسرّ حكمته في ظلم خزائن الأشباح فأدار الفُلك ليعلم بدورانه وجود المساء والصباح وجعل الليل والنهار طرازين على كمي مرقعة الدهر لا صطياد الأرواح من أقفاص الأشباح، نثر دنائير الشُّهب على زُرقة وجه السماء والليل مطوي الوشاح، فكأنهنّ جمرات وُقِدَت في مواقيت السفر خلعت عليها أيدي الرياح أو عيون الروم، ركبت في محاجر السودان ركبتها مقترح أجمل الاقتراح، مُجيب دعوة المضطر إذا دعاه وهو معتكف على صنم لذاته وأفعاله القبح يسمع حنين الأطفال في ديجور الليل وجري الماء في الأعواد وخيل الليل تركض بالصباح، تكلم بكلام قديم أزلّي. فالكلام صفة المتكلم.

العالم القادر القاهر يعلم ما سطر من الصبيان في المكانة وما رقموه في الألواح، استوى على العرش وما جلس وما نزل ولا انتقل، وهذا كلام ليس على قائله من جناح، من شراب الراح ارتاح، أو باح بأسراره وناح مَنْ خالف هواه استراح، فليت ما فيه مصباح روح ولا ارتياح، منادي القنا ينادي حيّ على الفلاح، سمع ما قرأ القارئ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: الآية ٣٥] قم في وقت السّحر واسمع حنين أنين العاشقين وأنين المشتاقين، يا ذا الأفعال القباح ينادون مولا هم بشفاء ذابلة ودموع وابلة وزفرات

قاتلة وألسنة فصاح فإن انقطع يا هذا قلبك في بادية ذنبك فنادِ على نفسك نداء مَنْ
أعلن بقصته وباح، وتفكّر في أحواله ثم صاح:

لا خير في العيش بغير افتضاح قد
جئتكم مستأمنًا لا تقتلوني قد رميت السلاح
لا تقتلوني أنا في أسركم
والحب قد أثخن قلبي الجراح

أحمدته على مَنْ منح من عطائه وأزاح، وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة نرجوا بها الفوز والنجاح، وأشهد أن محمدًا
عبده ورسوله المخصوص بالعلم والحلم والعطاء والبذل والجود والسماح،
وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأشياعه صلاة تدوم وتقوم ما
هَبَّت الرياح.

وعظ:

إخواني، التعب في الدنيا على ضربين؛ تعب آخره بكاء ونحيب، وتعب
دعة وراحة كم بين حريم فيحرم من الدنيا وبين عبد يعبد المولى هذا محفوظ من
الأسوأ في حصن من التقوى، وذلك مبذول للمِحَن والبلوى، هذا يوم القيامة في
عزٍّ وكرامة وذلك في حسرة وندامة، وينشد:

من أجلك قد جعلت خزي الرضا للشامة والحسود حتى يرضى
مولاي إلى متى بهذا أخطأ عمري يفنى وحاجتي ما تُقضى

عبرة:

لو قطعني الغرام إربًا إربًا ما ازددت في هواك إلا حُبًّا
لا زلت بكم أسير وجد ضنى حتى أقضي على هواكم نحبًا

حكاية:

قال: دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة وقال له: يا
أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمّرتُم دُنْيَاكُمْ وخَرَّيْتُم أُخْرَاكُمْ،
وأنتم تخافون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: فأخبرني كيف قدوم

الخلق على الله؟ قال: أما المُحسِن كما تقادم على أهله فرحًا مسرورًا، وأما المُسيء فكالعبد الآبق يقدم على مولاه خائفًا مذعورًا، قال: فأَيُّ الأعمال أفضل؟ قال: دعاء الملهوف للمُحسِن إليه، قال: فأَيُّ الصدقات أفضل؟ قال: جهد المُقِلِّ لا مَنْ فيه ولا أذى، قال: فأَيُّ القول أفضل؟ قال: كلمة حق في موضع يخاف فيه، قال: فأَيُّ الناس أعقل؟ قال: مَنْ عمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ ودلَّ عليها، قال: فأَيُّ الناس أجمل؟ قال: مَنْ عمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ ودلَّ عليها، قال: فأَيُّ الناس أجهل؟ قال: مَنْ باع آخرته بدنياه غيره، قال: يا أمير المؤمنين نَزَّهَ رَبُّكَ وعَظَّمَهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ أَوْ يَعْفُ عَنْكَ حَيْثُ أَمَرَكَ، قال: فبكى سليمان بكاءً شديدًا، فقال له رجل من جُلَسَائِهِ: أسأت إلى أمير المؤمنين. فقال له أبو حازم: اسكت، إن الله أخذ ميثاق العلماء قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ لَوْلَا تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٧]، فلما دخل إلى منزله أنفَذَ له جملة من التماثيل، فقال أبو حازم لرسوله: رُدَّهَا إِلَيْهِ وقل له: والله ما أرضها لك فكيف أرضها لنفسي خذها فأنت المحاسب عليه.

إخواني، كم من ملك نشرت على رأسه العلامات فلما لاقى علاماته وتبشر يا مضيا في هواه غرك الستر الجميل.

يا ليالي خلواتي قضى فيها تطول
ذاب قلبي من ضناها فأنا المضنى العليل
ليت شعري ما اعتذاري أدبنا ذنبي الجليل
يا ضعيف الوجه قل لي ما لمولاك تقول

وعظ:

يا هذا ما زلت تنفق مرتك وأيامك على كسب زلاتك وآثامك، وتشرب خمر التسويف من عامك إلى عامك حتى بلغت إلى وليمة أوجاعك وآلامك، وحبست على مرتبة كربك وأسقامك، ووقف الساقى بين يديك بكأس حمامك وينشد:

خذها إليك قد جافك توقيتها واشرب بقيمة ما أبقيت من عمرك

ما زلت في طلب الأوطان منهمك حتى بلغت ولم تبلغ إلى وطرك
وكننت من تعب الأوطان في شغل حتى أتى سقم الهلاك عن سجوك
وكننت تطلب من أهل البلا خيراً والآن تعرف ما قد غاب من خيرك

وعظ:

ويحك ويحك خذ بتلايب نفسك قبل أن يحدوا بك ملك الموت .

إخواني، أتدرون ما يقال لكم أولاً؟ هيهات لو عرفتم شرف الحياة
لاغتنمتموها بالطاعة، كم غرقت في بحر سوق من سفينة روح فلما أحسّت
بالهلاك صاحت رَبِّ ارجعون. وينشد:

أليس من الخسران أن ليااليا تروح بلا نفع وتحسب من عمري

حكاية:

مرَّ عيسى عليه السلام برجل وهو راكع فسَلَّم عليه فردَّ عليه السلام وقال
له: يا عيسى بالذي خلقتك إلا ما وضعت لي حجرك أضع رأسي ساعة فوضع له
حجره، ووضع الرجل رأسه عليه، ورفع بصره ويديه إلى السماء، أو قال: اللَّهُمَّ
بُحْرَمَة هذا عليك إلا ما قبضت روحي في حجره فلم يستكمل الرجل آخر دعائه
حتى خرجت روحه فطلب عيسى ما يكفنه فيه فلم يجد إلا عباءة خُلِقَ وطوية،
وكان إذا أراد أن ينام وضعها تحت رأسه، فقال عيسى عليه السلام: إلهي إذا
جمعت الأولين والآخرين وسألتهم عن مكاسبهم عن ما فاسأل هذا الرجل
فأوحى الله إليه يا عيسى، وعزّتي وجلالي لأسأله عن هذه العبادة من أين
اكتسبتها، وعن هذه الطّوية من أين ترابها الذي طبعها منه لأنني آليت على نفسي
إن جاوزت ظلم ظالم فبات ظالم وعزّتي وجلالي لأكلّفنَّ خالط اللبن والماء
وينشد:

نوح الحمام على الغصون شجاني ورأى العذول صبابتي فبكاني
إن الحمام ينوح من خوف الهوى وأنا أنوح مخافة الرحمن
فلئن بكيت فلا ألام على البكا فلطالما استغرقت في عصيان

يا رب عبدك من عذابك مشفق متوسل بتلاوة القرآن
فارحم تضرّعه وطول حُزنه وامنن عليه اليوم بالغفران

اللَّهُمَّ سلِّمنا من الدنيا واختيالها، واختم لنا بخير عند زوالها، ونجِّنا في
القيامة من أهوالها، واجمع بيننا وبين والدينا وذريّتنا ونبينا في جنّاتك وجميع
المسلمين وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وسلّم تسليمًا.

المَجْلِسُ الأَرْبَعُونَ

فيه خطبة وأشعار

ووعظ وكيف بداية الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا

الحمد لله الذي أشرقت بنوره الظُّلم، وأجرى بقدرته القَلَم، وأصبغ علينا جزيل النِّعم، ومَنَّ علينا بالنَّبِيِّ الأكرم، وفَضَّلنا على ما هو الأهم، والحمد لله الذي أشرقت بنوره الأنوار، وتعالى عن إدراك الأبصار كان ولا مكان، ولا حَيِّز ولا أوان، ولا وقت ولا زمان، ولا طُلُّ ولا غمام، ولا سماء ولا دخان، ولا خلاء ولا عمران، لا إله إلا هو الواحد المَنَّان باعِث الأرواح ومُرْسِل الرِّياح بالأرزاق وأحيا ووعد بصدق، تنزَّهت عن الحدوث ذاته، وتقَدَّست عن شبه المخلوقين صفاته، ودلَّت على قدرته آياته، كل شيء يفنى ويبىد وهو يبدئ الخلق ويُعيد، كلُّ كلام لا يُبدَأ فيه بحمد الله فهو أبتَر، وكلُّ فَعْل لا يقال فيه لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم فَعَلَّ ما يُعان فيه مولاه وينصر، وكلُّ دعاء لا يُصلَّى فيه على النَّبِيِّ ﷺ فَعَلَّ ما ينجح صاحبه ويظفر صلُّوا على النَّبِيِّ المرتضى والرسول المصطفى، وينشد:

يا راكبًا نحو المدينة قاصدًا	بلغ سلامي للنَّبِيِّ محمَّد
وقل السلام عليك يا عَلم الهدى	وعلى رجالٍ بالبقيع الأجود
إن الذي ورث النُّبوَّة والهدى	فهو الدليل لكل عبد ومرشد

وعظ:

يا مَنْ بضاعته كلها بهرج ضيَّقت الخناق على نفسك فلا مخرج، انتبه

سريعًا فالخيول تُسرج، وتفكر في حلة من البلى لم تُسج.

يا عبد فلسه يا عدو نفسه هوّن بأمر الدنيا تهن، وقدّر أنها قَطّ لم تكن،
واحفظ دينك من مكرها وُضِن فمتى وفيت ومتى لم تخن، يا أرباب الهَمَم
الشماط هذا الموت بكم قد أحاط، هذا العدو منازل فالزموا الرِّباط، أما
يزعجكم تخويف ﴿وَلَيْكَ الْفَرَى أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٥٩]؟ أما ينذركم
أعلام ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: الآية ١٠٢]؟ أما يقصر من قصوركم ﴿وَيَبِّئُ
مُعْظَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: الآية ٤٥]؟ أما سمعتم مُنادي العبد ينادي ﴿فَكَلَّا
أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٠]؟ إذا رأيتم المُبارزين بالخطايا قد اتسع لهم
مجال الإمهال فلا تستعجل لهم ﴿إِنَّمَا تُنَلِّهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران:
الآية ١٧٨] بينا القوم على سرور غرورهم ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤]، يا
هذا ظلمك لنفسك غاية في القبح، إلا أن ظلمك لغيرك أقبح، ويحك إن لم
تنفع أخاك فلا تضره، أترى يصلح هذا القلب بعد الفساد، وينشد:

كلما أملت يومًا صالحًا عرض المقدور لي في أملي
وأرى الأيام لا تدني الذي أرتجي منكم وتدني أجلي

يا مُدِين الذنوب منذ كان غلامًا قل لي على ما عوّلت، قل لي على ما أين
المجتمعون على خمورهم. ويحكم هذا الرحيل قد استعجلتم، فالإِدَار البِدَار،
خلّوا كسلكم، ودعوا التواني فالتواني قد قتلكم، وا أسفا سبق الصالحون فماذا
شغلکم ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٤٤] يا معدودًا مع الشيب في
الصبيان، يا محبوسًا مع البصراء في العميان، يا واقفًا في الماء وهو عطشان، يا
عارفًا بالطريق وهو حيران أما وعظت بأي القرآن؟

أما زجرت بنا الأقران، أما تعتبر بصروف الزمان، أتعمر المنزل وعلى
الرحيل السكان، أما يكفي وعظ؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: الآية ٢٦]
أفعالك مكتوبة فيا ليت ما كان كان تدفن الميت ولا وعظ كالعيان، ثم تعود
غافلًا يا قرب هذا النسيان، وينشد:

إذا أنت لم ترع البروق اللوامحا ونمت جرى من تحتك السيل سائحا

غرست الهوى باللحظ ثم احتقرته وأهملته مستأنساً متسامحاً
ولم تدرِ حتى أينعت شجراته وهبت رياح الوجد فيه لواقحا
شعر:

وأمسيت تستدعي من الصبر عازبا عليك وتستدني من النوم نازحاً
لله درّ أقوام علموا الرحيل واشتاقوا السفر وتذكروا الدنيا وقنعوا بما حضر
ما لكم خبر بحالهم ولا عندكم منهم خبر، فمضوا في الجد وقعدوا وسهروا في
الدجى، ورقدوا وآثروا بالزّاد فزادوا على البرامك، هذا طريقهم فأين السالك
أترضى بالتأخير عنهم هذا براؤك كأنك بهم، وقد دخلت عليهم الملائكة، كل يا
مَن لم يأكل هذا بذلك وينشد:

في كل يوم زاجر وكم نذير زائر مسلم
وكم يناديك لسان غيره وأنت عن قول الهوى في صَم
أين الذين شيدوا واحترسوا أين مَن كان كثير النعم
مضى الجميع هل ترى من أثر لهم صاروا جميعاً في بيوت الظلم

لو قيل: قولوا ما منا كم طلبوا الحياة يوماً ليتوبوا. فاعلم مضى الزمان في
توان وهوى واستدرك ما قد بقي واغتتم وا حسرة مَن مضوا وخلفوا، لقد استبدل
بالعسل الخل القوة، ويقال:

منازل دنياك شيدتها وخربت دارك في الآخرة
يا مَن كان له قلب فمات يا مَن كان له وقت ففات

استغث في بوادي القلق، ردوا على ليالي التي سلفت كانت بقربكم أيام
أعياد إن عافني الدهر يوماً (١) فإن قلبي إليكم رائج غادي عسى المناد
(٢) سوى والبين حسّادي.

(١) الكلام غير واضح من الأصل المخطوط.

(٢) الكلام غير واضح من الأصل المخطوط.

إخواني، مَنْ يَمْتَلِك سَبِيل القناعة يَقَع على كَتِفِهِ ما وَجَدَهُ الإسْكَندَرُ،
 فَيَنْقَلِبُ أَغْنَى من قَارُونَ وَبَنِيهِ أَقْرَعَ من فُؤَادِ أُمِّ مُوسَى، يا مَشْغُولًا بِالْعَمَلِ لِلدُّنْيَا،
 وَاللُّدُنْيَا تَعْمَلُ فِيهِ تَجْمَعُ ما يَعْوَقُكَ وَتَوْصِلُ ما يَمْزُقُكَ، وَيَحْكُ ابْنَ قَصْرًا وَتَهْدِمُ
 قَصْرًا، وَاعْجَبًا لِمَنْ يَجْمَعُ المَالَ جَمْعَ الثَّرِيَّا نَفْسُهَا، ثُمَّ تَأْتِي الأَقْدَارُ مَتَفَرِّقَةً
 تَفْرِيقَ بَنَاتِ تَعَشِقُ. وَيَحْكُ وَيَحْكُ، أَمَّا حُبُّ الدُّنْيَا عِنْدَكَ فِرَاسِخٌ، وَأَمَّا قَلْبُكَ
 مِنْكَ فِرَاسِخٌ، وَإِذَا المَقْوَى فَمَنْ يَبْنِيهِ، وَإِذَا غَابَ القَلْبُ فَمَنْ يَحْدُثُ، طَلَقَ
 كَوَازِبَ آمَالِكَ لِتَكُونَ وَارِثَ مَالِكَ أَعْظَمِ المَغْبُونِينَ حَسْرَةً مَنْ يَقَعُ كَدَّهُ لِغَيْرِهِ،
 أُمْدُدْ يَدَيْكَ بِالصَّدَقَةِ فَإِنْ لَمْ تَطُقْ فَاكْفِفْهَا عَنِ الظُّلْمِ، أَطْلِقْ لِسَانَكَ بِالذِّكْرِ فَإِنْ لَمْ
 تَسْتَطِعْ فَاحْبِسْهُ عَنِ الْغِيْبَةِ، وَيَحْكُ كُلَّمَا عَاشَ أَمْلَكَ مَاتَ الْفَقِيرُ، لَوْ سَمِعْتَ
 كَلَامِي بِقَلْبِكَ كَانَ طَوْلُ الأَسْبُوعِ نَصَبَ عَيْنِكَ، وَإِنَّمَا تَسْمَعُهُ بِأُذُنِكَ (وَفَوْقَ أَنْيْنِ
 السَّمَاعَيْنِ)^(١). قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بَسَخَطَ اللَّهُ سَخَطَ اللَّهِ عَلَيْهِ
 وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ».

إخواني، الصبر مثل اسمه في كل نائبة، لأن عواقبه أحلى من العسل،
 ويقال شعر:

أَتَهْزَأُ بِالدَّعَاءِ وَتَزْدْرِيه وَمَا يَدْرِيكَ مَا صَنَعَ الدَّعَاءُ
 سَهَامُ اللَّيْلِ صَائِبَةٌ وَلَكِنْ لَهَا أَمَدٌ وَلِلْأَمَدِ انْقِضَاءُ

إخواني، (سوف لص)^(٢) الشيب رأس مال الشباب، قيل لي اليوم: (الآن
 جرة الندم)^(٣) طال ما امُتُّم قلوبكم بالهوى فأحيوها اليوم بوابل العبرات، ذهب
 عرش بلقيس وبلي جمال شيرن وبقي نُسْكُ رابعة كلامي يسلب الماء ذرفته
 والنحل ريعه يخجل بظم العقود ويسكر ولا زينة العنقود أحسن من نور الخمايل
 وأنفد من سحر بابل فربما لم تجدوا مثل هذه الفوائد ولأرسلتم في طلبها البرايد
 إذا خرجتم عن المجلس فقولوا في ()^(٤) في المنام لأن المخبر عن
 العجائب منهم.

(١) هكذا ورد في الأصل المخطوط. (٢) هكذا ورد في الأصل المخطوط.
 (٣) هكذا ورد في الأصل المخطوط. (٤) الكلام غير واضح من الأصل المخطوط.

إخواني، ()^(١) ما كنت أن أتكلم عليكم ولا محرمتي ما رجوته، جاء في الحديث يقول الله عزَّ وجلَّ: يا داوود يُحزنني صوتك الرخيم فإذا قام داوود يذكر درس الشكر على الفجور رجوت أن أكون المعيد أنا.

إخواني، مجلسنا روضة طعامنا فيها الجوع، وشرابنا فيها الدموع، ونقلنا هذا الكلام المطبوع تداوي به الأمراض وتردَّ الهارب وتوفِّي الملسوع فليته كان كل يوم لأجل أسبوع. إلهي أيقظتني في الصُّبا، ووهبتني من العلم، وأدقتني طعم المعاملة، وأقمتني أذلَّ الخلق عليك واصرف الوجود المنصرمة عنك إليك. ومزجت كأسًا بطعم بعدوبة الصبابة، وجعلتني في أخباري معروفًا بالأمانة فتركن إليَّ أهل المعاملة ورضوني حميدًا وقت الوزن. سيدي لو عرفوا إجلاسي ما عوملت غير أني مستور المضار زحفي الفقر طالما (اجتزت الفقر)^(٢) بعد أن تهافتوا في النار فيصدرن وارد النار، إلهي إنعامك عليَّ بالهدى قوي رجاء في إتمام فضلك لزللي، أعلمني بسعة رحمتك إن لم أصلح للرضى فأهّلني للعفو إن لم أهيأ لسجون الأولياء فلا تحبسني في سجون الأعداء، وارحم غريقًا ما يسمع إغاثته سواك، خلّص أسيرًا ما يملك وحاكمه، ألا اعتق رقبة قد رقت جودك لا تخيب أملًا طال تعلّقه بك، لا تنكس قلبًا قد عوّل على فضلك يا كريم يا رحيم مرماه^(٣) ولجميع المسلمين وصّلّي الله على سيّدنا محمّد وآله وسلّم تسليمًا.

تمّ الكتاب بحمد الله وحُسن عونه، انتسخ بباب بني شيبه بالحرم الشريف بإزاء باب أبو ()^(٤) العبد الفقير إلى رحمة ربه الراجي عفوه محمد بن محمد علي الأندلسي الأقليم القبالي الدار، والحمد لله على كل حال، وصّلّي الله على سيّدنا محمّد وآله وسلّم تسليمًا.

(١) الكلام غير واضح من الأصل.

(٢) هكذا ورد في الأصل.

(٣) هكذا ورد في الأصل.

(٤) الكلام غير واضح من الأصل.

فهرس المحتويات

٣ تقديم
٥ ترجمة المصنّف
٧ نماذج من صور المخطوط
١١ المَجْلِسُ الأوَّلُ: في قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام
١٤ وعظ
١٦ وعظ
٢٣ المَجْلِسُ الثَّانِي: في قِصَّةِ قَايِلَ وكيف قُتِلَ هَايِلَ
٢٥ الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾
٢٩ المَجْلِسُ الثَّالِثُ: في قِصَّةِ إدریس علیه السلام
٣٠ وعظ
٣٤ وعظ على الآية
٣٥ المَجْلِسُ الرَّابِعُ: في قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَمَا جَرَى لَهُ
٣٧ وعظ على الآية
٣٨ الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾
٣٩ حكاية
٤٠ السَّجْع
٤٣ المَجْلِسُ الخَامِسُ: في قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ عَلَى نَبِيِّهِم السَّلَام
٤٥ وعظ
٤٧ السَّجْع
٤٩ المَجْلِسُ السَّادِسُ: في قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَهُود
٤٩ وقصته
٥٠ وعظ
٥٤ وعظ
٥٥ مَجْلِس في بِدَايَةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ واجْتِمَاعِهِمَا بَعْدَ القَبُولِ وحَدِيثُهُمَا
٥٧ وعظ

٦٣ المَجْلِسُ السَّابِعُ: فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٦٩ المَجْلِسُ الثَّامِنُ: فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ
٧٢ وَعَظُ
٧٢ وَعَظُ
٧٣ السَّجْعُ
٧٥ المَجْلِسُ الثَّاسِعُ: فِي قِصَّةِ الذَّبِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٧٨ وَعَظُ
٨٠ وَعَظُ
٨٢ إِشَارَةُ
٨٣ السَّجْعُ
٨٥ المَجْلِسُ الْعَاشِرُ: فِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٨٨ تَجْدِيدُ
٨٩ السَّجْعُ
٩١ المَجْلِسُ الْحَادِي عَشَرَ: فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ
٩٤ وَعَظُ
٩٤ وَعَظُ
٩٩ السَّجْعُ
١٠١ المَجْلِسُ الثَّانِي عَشَرَ: فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
١١١ ذِكْرُ الْفَوَائِدِ فِي هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْقِصَّةِ
١٢٥ السَّجْعُ
١٢٧ المَجْلِسُ الثَّلَاثَ عَشَرَ: فِي قِصَّةِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
١٣٥ المَجْلِسُ الرَّابِعَ عَشَرَ: فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
١٣٦ وَقِصَّتُهُ
١٤٠ السَّجْعُ
١٤٣ المَجْلِسُ الْخَامِسَ عَشَرَ: فِي قِصَّةِ بِدَايَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
١٥١ المَجْلِسُ السَّادِسَ عَشَرَ: فِي تَكْلِيمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
١٥٩ المَجْلِسُ السَّابِعَ عَشَرَ: فِي قِصَّةِ مُوسَى وَالْحَظْرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
١٦٥ حِكَايَةُ
١٦٩ المَجْلِسُ الثَّامِنَ عَشَرَ: فِي قِصَّةِ بُلْعَامَ بْنِ بَاعُورَ
١٧٢ وَعَظُ

١٧٣	وعظ
١٧٤	السَّجْع
١٧٧	المَجْلِسُ التَّاسِعَ عَشَرَ: فِي قِصَّةِ قَارُونَ
١٨٠	وعظ
١٨١	وعظ
١٨١	وعظ
١٨٣	وعظ
١٨٣	وعظ
١٨٤	السَّجْع على الآية
١٨٥	المَجْلِسُ العِشْرُونَ: فِي نُصْرَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام
١٨٩	وعظ
١٨٩	وعظ
١٩٠	وعظ
١٩٢	السَّجْع على الآية
١٩٥	المَجْلِسُ الحَادِي والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام
٢٠٠	السَّجْع
٢٠٠	السَّجْع
٢٠٣	المَجْلِسُ الثَّانِي والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ مَعَ بَلْقَيْسَ
٢٠٨	السَّجْع على الآية
٢١١	المَجْلِسُ الثَّالِثُ والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ سَبَأَ
٢١٢	السَّجْع
٢١٤	وعظ
٢١٦	وعظ
٢١٦	السَّجْع
٢١٩	المَجْلِسُ الرَّابِعُ والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام
٢٢٤	السَّجْع
٢٢٥	المَجْلِسُ الحَامِيسُ والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَام
٢٢٥	قِصَّةُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام
٢٢٨	وعظ
٢٣٠	السَّجْع

٢٣٣	المَجْلِسُ السَّادِسُ والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام
٢٣٩	وعظ
٢٣٩	وعظ
٢٤٠	السَّجْع
٢٤٣	المَجْلِسُ السَّابِعُ والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْف
٢٤٥	وعظ
٢٤٦	وعظ
٢٤٨	وعظ
٢٤٨	السَّجْع
٢٥١	المَجْلِسُ الثَّامِنُ والعِشْرُونَ: فِي أَمْرِ ﷺ وَفَضْلِهِ وَرِضَايِهِ وَهَجْرَتِهِ وَمَوْلِدِهِ
٢٥٣	وعظ
٢٥٣	وعظ
٢٥٤	صفة رسول الله ﷺ
٢٥٦	حكاية
٢٥٧	وعظ
٢٥٩	المَجْلِسُ التَّاسِعُ والعِشْرُونَ: فِي قِصَّةِ الْغَارِ وَفَضْلِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٢٦٥	المَجْلِسُ الثَّلَاثُونَ: فِي فَضْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٢٦٨	وعظ
٢٦٨	وعظ
٢٧٣	المَجْلِسُ الْحَادِي والثَّلَاثُونَ: فِي فَضْلِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٢٧٤	وعظ
٢٧٨	وعظ
٢٧٩	المَجْلِسُ الثَّانِي والثَّلَاثُونَ: فِي فَضْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٢٧٩	وعظ
٢٨٣	وعظ وفصاحة
٢٨٤	السَّجْع
٢٨٥	المَجْلِسُ الثَّلَاثُ والثَّلَاثُونَ: فِي فَضْلِ عَائِشَةَ وَأَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
٢٨٨	وعظ
٢٨٩	وعظ
٢٩١	المَجْلِسُ الرَّابِعُ والثَّلَاثُونَ: فِي فَضْلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

٢٩٣	وعظ
٢٩٣	وعظ
٢٩٤	وعظ
٢٩٤	فَضْلٌ
٢٩٥	وعظ
٢٩٧	المَجْلِسُ الْخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي فَضْلِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ
٢٩٩	وعظ
٢٩٩	وعظ
٣٠٠	وعظ
٣٠٠	وعظ
٣٠٠	وعظ
٣٠١	وعظ
٣٠١	وعظ
٣٠٢	فَضْلٌ
٣٠٥	المَجْلِسُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي فَضْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
٣٠٦	مِنْ فَصَائِلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٣٠٧	وعظ
٣٠٧	وعظ
٣٠٩	المَجْلِسُ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي بَدَايَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٣١٠	وعظ
٣١١	وعظ
٣١١	وعظ
٣١٢	وعظ
٣١٣	المَجْلِسُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي حِكَايَةِ الْجُنَيْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٣١٥	وعظ
٣١٦	وعظ
٣١٧	وعظ
٣١٩	المَجْلِسُ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ: فِيهِ خُطْبَةٌ وَوَعْظٌ وَشِعْرٌ
٣٢٠	وعظ
٣٢٠	عبرة

٣٢٠	حكاية
٣٢١	وعظ
٣٢٢	وعظ
٣٢٢	حكاية
٣٢٥	المَجْلِسُ الأَرْبَعُونَ: فيه خطبة وأشعار ووَعظ وكيف بداية الجوزي
٣٢٥	وعظ
٣٣١	فهرس المحتويات